الحرب والسلم

(الكتاب الثاني)

إلياذة العصور الحديثة

ليو تولستوي

الحرب والسلم (الكتاب الثاني)

إلياذة العصور الحديثة

تأليف
ليو تولستوي

هنـــداوي

الحرب والسلم (الكتاب الثاني)

ليو تولستوي

War and Peace (book 2)

Leo Tolstoy

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٨ ٢٠٨٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الروسية عام ١٨٦٩
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٥٣
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

جميع الحقوق الخاصة بتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤٫٠. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2020 Hindawi Foundation.
All rights related to design and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All other rights related to this work are in the public domain.
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

المحتويات

الجزء الأول	١٣
١- عودة روستوف	١٧
٢- مهمة روستوف العجوز	٢٧
٣- وليمة النادي الإنجليزي	٣٥
٤- تَحَدٍّ	٤٣
٥- المبارَزة	٤٩
٦- ثورة بيير	٥٣
٧- فجيعة بولكونسكي العجوز	٥٩
٨- عودة آندريه	٦٣
٩- ولادة ليز	٦٩
١٠- أم دولوخوف	٧٣
١١- غرام دولوخوف	٧٧
١٢- حفلة الأحداث	٨١
١٣- حفلة دولوخوف	٨٥
١٤- خسارة روستوف	٨٩
١٥- في أجواء الحب	٩٣
١٦- خيبة دينيسوف	٩٧
الجزء الثاني	١٠١
١- المسافر الغامض	١٠٥
٢- أوسيب بازدييف	١٠٩

٣- الكونت فيلارسكي ١١٧
٤- المحفل الماسوني ١٢٥
٥- محاولة الأمير بازيل ١٢٩
٦- حديث الأندية ١٣٣
٧- صديق جديد لهيلين ١٣٩
٨- الأمير بولكونسكي العجوز ١٤١
٩- رسالة بيليبين ١٤٧
١٠- مساعي بيير ١٥٥
١١- زيارة وتبشير ١٦١
١٢- مناقشة ١٦٩
١٣- رجال الله ١٧٣
١٤- عودة الأمير العجوز ١٧٩
١٥- عودة روستوف ١٨٣
١٦- ورطة دينيسوف ١٨٩
١٧- زيارة للمستشفى ١٩٥
١٨- لقاء مع دينيسوف ٢٠١
١٩- روستوف وبوريس ٢٠٥
٢٠- جواب الإمبراطور ٢١١
٢١- منحة نابليون ٢١٥

الجزء الثالث ٢٢١
١- سيدا العالم ٢٢٥
٢- آندريه وروستوف ٢٢٩
٣- آراء آندريه ٢٣٣
٤- بولكونسكي وآراكتشييف ٢٣٧
٥- سبيرانسكي العظيم ٢٤١
٦- مهمة بولكونسكي ٢٤٧
٧- في المحفل الماسوني ٢٥١
٨- عودة هيلين ٢٥٧

٩- عودة إلى المجتمع ٢٦١
١٠- يوميات بيير ٢٦٥
١١- خطوبة بيرج ٢٧١
١٢- بوريس وناتاشا ٢٧٥
١٣- خاتمة المطاف ٢٧٩
١٤- دعوة ٢٨٥
١٥- في الحفلة ٢٨٩
١٦- وصول الإمبراطور ٢٩٣
١٧- ناتاشا وآندريه ٢٩٧
١٨- نقطة التحول ٣٠١
١٩- فجر بولكونسكي ٣٠٧
٢٠- حفلة بيرج ٣٠٩
٢١- ملاحظات بيير ٣١٣
٢٢- الحب الجامح ٣١٧
٢٣- الخطوبة ٣٢١
٢٤- سفر الأمير ٣٢٧
٢٥- الأمير العجوز ٣٣١
٢٦- محاولة آندريه ٣٣٥

الجزء الرابع ٣٣٩
١- عودة نيكولا ٣٤٣
٢- مناقشة الحساب ٣٤٩
٣- الخطوة الأولى ٣٥٣
٤- الذئب ٣٥٧
٥- مقتل الذئب ٣٦٣
٦- الخصم إيلاجين ٣٦٩
٧- دعوة لطيفة ٣٧٧
٨- خطة الكونتيس ٣٨٧
٩- آلام ناتاشا ٣٩١

١٠- المقنعون ٣٩٥
١١- المتحابان ٤٠٥
١٢- أوهام العاشقة ٤١١
١٣- اعتراف نيكولا ٤١٥

الجزء الخامس ٤١٩
١- متاعب بيير ٤٢١
٢- متاعب ماري ٤٢٧
٣- أصفياء الأمير ٤٣١
٤- حيرة ماري ٤٣٧
٥- خطوبة بوريس ٤٤١
٦- ماري دميترييفنا آخروسيموف ٤٤٧
٧- مقابلة الأمير العجوز ٤٥١
٨- حفلة الأوبرا ٤٥٥
٩- كوراجين الفاتن ٤٥٩
١٠- في طريق الانهيار ٤٦٥
١١- نوايا كوراجين ٤٦٩
١٢- الخطوة الأولى ٤٧٣
١٣- حفلة هيلين ٤٧٧
١٤- رسالة آناتول ٤٨١
١٥- على شفا الهاوية ٤٨٥
١٦- خطة الاختطاف ٤٩١
١٧- فشل الخطة ٤٩٧
١٨- رد الفعل ٥٠١
١٩- تدخل بيير ٥٠٥
٢٠- تصرف بيير ٥٠٩
٢١- عودة الأمير آندريه ٥١٣
٢٢- غفران وحب ٥١٧

نَقَلَ هذا الكتابَ إلى اللغة العربيَّة نخبَةٌ من أسرة «دار اليقظة العربيَّة للتأليف والترجمة والنشر بسورية»، استنادًا إلى الترجمتين الفرنسيَّة والإنجليزيَّة، ورُوجِع النص الأخير على الأصل الروسي.

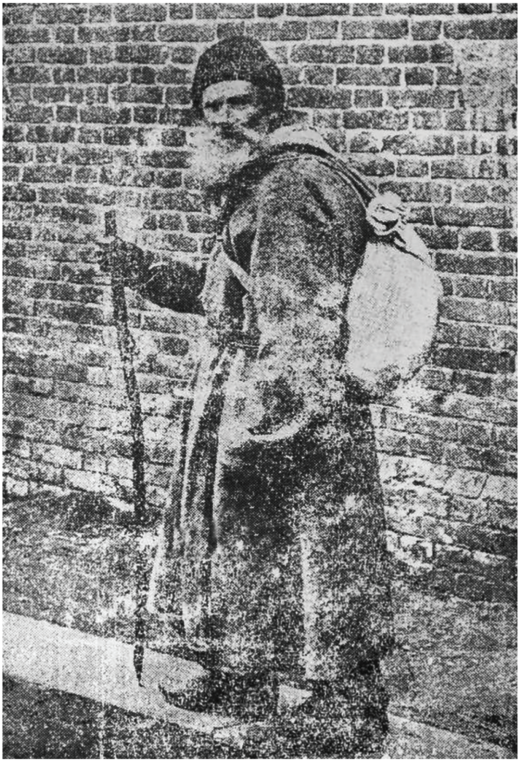

الجزء الأول

الأمير بطرس.

الفصل الأول

عودة روستوف

عاد نيكولا روستوف مأذونًا في مطلع عام ١٨٠٦، وكان دينيسوف ينوي زيارة ذويه في فورونيج، فاتفق معه روستوف على أن يترافقا حتى موسكو؛ حيث يستضيفه فترة قبل متابعته رحلتَه إلى فورونيج. كان لقاؤهما قبل المرحلة الأخيرة من الطريق، فاحتفل روستوف بذلك اللقاء بأنْ شرب مع زميله ثلاث زجاجات، ونام خلال بقية الرحلة نومًا عميقًا رغم المجرات العميقة، منطويًا على نفسه في الزحافة. أما روستوف فكان كلما ازداد قربًا من نهاية رحلته، ازداد الشوق في نفسه لظًى، وبلغ صبره منتهاه.

كان يفكر في نفسه بنفاد صبر: «ألن نصل أخيرًا؟ أوه! لا نفتأ نمر في شوارع وبدكاكين ومخابز ومصابيح وعربات! إن هذا لا يُحتمَل!» وكان إذ ذاك قد دخل موسكو بعد أن أشَّرَ على مأذونيته ومأذونية صديقه عند مدخلها.

هتف ينادي دينيسوف وقد مال غريزيًّا بجسمه إلى الأمام، وكأنه يستحث سرعة الزحافة: «دينيسوف، لقد وصلنا! إنه لا يزال نائمًا، يا للحيوان!»

أردف في شبه هذيان: «هذه هي الناحية التي اعتاد «زاخار» الوقوف عليها بزحافته ...

آه! ها هو ذا زاخار بنفسه ومع الحصان «إياه» الذي لا يبدله، وهذه هي الدكان التي نشتري منها الحلوى. بسرعة، الله! بسرعة أكثر!»

سأل سائق الزحافة: «أين ينبغي أن نتوقف؟»

– «أمام أكبر المنازل في أقصى الشارع. ألَا ترى؟! إنه منزلنا. دينيسوف، دينيسوف، لقد وصلنا!»

رفع دينيسوف رأسه وسعل، لكنه لم ينطق بكلمة.

سأل روستوف تابعه وكان جالسًا على حاجز الزحافة: «دميتري، إن النور الذي نراه يشع من منزلنا، أليس كذلك؟»

– «تمامًا، بل إنه ينبعث من مكتب أبيك على الضبط.»

– «إنهم لم يأووا إلى مهاجعهم بعدُ إذن! هه، ماذا ترى؟ لا تنسَ بصورة خاصة سترتي الهنغارية الجديدة التي يجب عليك إخراجها من الحقيبة فورًا.»

وراح يحاول عقف شاربه الصغير الذي لمَّا يَنْبُت بعد. أردف: «أسرع، ضاعِف السرعة.»

وصرخ في أذن دينيسوف الذي عاد إلى النوم من جديد تاركًا رأسه يتأرجح على صدره: «ألن تستيقظ يا فاسيا؟»

وللسائق رغم أن ثلاثة منازل فقط أصبحت تفصله عن داره: «أسرع، سأمنحك ثلاثة روبلات، ولكن زد سرعة جيادك. رباه!»

كان يعتقد أن الجياد لا تتحرك، وأخيرًا مالت الزحافة إلى اليمين، ودخلت الممشى المؤدي إلى الدار. عرف روستوف حدود الرصيف والمرقاة، والطنف ذا الجص المكسر المتساقط. قفز من الزحافة وهي في سيرها وجرى إلى الردهة، فوجدها خالية. كان المنزل في جموده وصمته يبدو غيرَ آبهٍ لمقدم القادمَيْن، فكَّر وهو يتوقف مترددًا منقبض الصدر: «آه! رباه! أيكون مكروه قد وقع؟» لكنه سرعان ما عاد إلى جريه، وارتقى السُّلم أربعًا فأربعًا، ذلك السُّلم الذي كانت درجاته المنحنية مألوفة لديه. كان باب المدخل يحمل المقبض ذاته الذي عرفه قبل رحيله، ذلك المقبض الذي كانت قذارته تثير غيظ الكونتيس وغضبها، والذي كان يتحرك بسهولة ويسر لِقدَمه. رأى شمعة تضيء الردهة الداخلية وميخائيل العجوز نائمًا فوق صندوق فيها، أما بروكوب — وهو الوصيف المرافق، ذلك العملاق الذي يستطيع رفع عربة من محورها الخلفي — فقد كان يضفر خفًّا منزليًّا، التفت عندما سمع الباب يُفتح، وأشرق وجهه الجامد النعِس بذعر بهيج. هتف وقد عرف سيده الصغير: «يا ملائكة النعيم، إنه الكونت الشاب! هل هذا معقول؟! آه يا عزيزي!»

هرع بروكوب مضطربًا من الانفعال إلى باب البهو ليذيع النبأ، لكنه تماسك برهةً وعاد على أعقابه يسند رأسه الضخم على كتف سيده الشاب.

سأله روستوف بعد أن خلص ذراعه: «هل هم جميعًا في صحة طيبة؟»

– «كل شيء على ما يرام بحمد الله! لقد تناولوا العشاء منذ حين. دعني أراك يا صاحب السعادة.»

– «صحيح! إن كل شيء على ما يرام؟»

– «حمدًا لله، حمدًا لله.»

كان روستوف قد نسي في عجالته واندفاعه صديقَه دينيسوف، خلع فروته ودخل على أطراف قدمَيْه إلى القاعة الكبرى المظلمة، كان كل شيء فيها كما تركه عند رحيله: موائد اللعب، والنجفة، وكل الأشياء المألوفة لديه، ويبدو أن بعضهم قد رآه؛ لأنه ما كاد يصل إلى البهو الصغير حتى انقضَّ أحدهم عليه كالإعصار قادمًا من باب جانبي، فطوَّقه وراح يغمره بالقُبَل، وجاء ثانٍ وثالثٍ كأن الأرض قد انشقَّت عنهما، وعاد العناق والقُبَل على أشده، وارتفعت صيحات التعجب والدهشة والفرح، وانسفحت دموع الغِبطة. ما كان يعرف أيهم أبوه، وأي المهاجمين ناتاشا أو بيتيا. كانوا يصرخون معًا ويتحدثون معًا ويعانقونه معًا، لكنه استطاع التنبؤ بأن أمه ليست بينهم.

– «وأنا الذي ما كنت أنتظر وجودك. نيكولا يا صديقي.»

– «ها هو ذا طفلنا الفتَّان! هذا الصغير العزيز! كم تبدَّل! أسرعوا، إليَّ بالشموع والشاي.»

«وأنا يا مهجتي، وأنا.»

أحيط به من جديد، واعتصرته الأذرع، وتناقلته الصدور، فمن سونيا إلى ناتاشا وبيتيا وآنَّا ميخائيلوفنا، وفيرا والكونت العجوز، فالخدم والوصيفات وكل مَن في الدار.

كان بيتيا يصيح وهو متعلق بساقيه: «وأنا، وأنا.»

أما ناتاشا فقد كانت مُطبِقة على خرج سترته تلتهمه بالقُبَل، ثم تركته فجأةً وراحت تدور حول نفسها، وتطلق صرخاتٍ حادة عالية.

كانت النظرات كلها مفعمة بالحنان والعطف، والعيون مبلَّلة بالدموع، والشفاه متعطشة للقُبَل.

كانت سونيا مضرجة الوجه كالزهرة البرية الحمراء، متفجرة بالسعادة، ممسِكة بذراعه تبحث عن عينيه لتستجديها نظرة. كانت قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها، وازدادت جمالًا، وخصوصًا في تلك اللحظة التي كانت السعادة تضطرم في أعماقها وتشرق من عينيها، كانت تتأمله باسمةً كاتمة أنفاسها، خصَّها بنظرة منفعلة والهة، لكنه ظل يبحث عن شخصٍ آخر، ذلك أن الكونتيس لم تظهر بعدُ بين الموجودين، وأخيرًا ارتفع صوت خطوات قرب الباب، كانت خطواتٍ مسرعةً لا يمكن أن تكون لأمه.

مع ذلك فقد كانت هي القادمة، بدت في زينةٍ لم يَرَها روستوف من قبلُ فيها، أفسح لها الجميع الطريقَ وجرى هو للقائها. ارتمت الكونتيس على صدر ابنها وراحت تنتحب.

ما كانت تستطيع رفع رأسها، بل راحت تضغطه بشدة على الأشرطة المذهَّبة التي تحلِّي سترته.

دخل دينيسوف إلى البهو دون أن يشعر به أحد، ووقف مباعدًا بين ساقَيْه يتأمل ذلك المشهدَ وهو يدلِّك عينيه بيديه.

قال يقدِّم نفسه جوابًا على نظرةِ الكونت المستفسرة التي حطَّت عليه بعد طول تنقُّل: «فاسيلي دينيسوف، صديق لولدك.»

فقال الكونت وهو يبسط ذراعَيْه ويعانق صديق ابنه: «تمامًا، لقد حدَّثني نيكولا عنك في رسائله. أهلًا بك بيننا! ناتاشا، فيرا، هذا هو، هذا دينيسوف.»

تحوَّلت الأنظار المبتهجة المتحمسة السعيدة إلى شخص دينيسوف الضخم وأحاطت به.

زمجرت ناتاشا، وقد أخفقت في ضبط شعورها، وارتمت على عنق دينيسوف دون وعي: «آه! أيها العزيز، دينيسوف العزيز.»

ارتبك الحاضرون لطيش الفتاة، واحمرَّ وجه دينيسوف، ثم ابتسم وأمسك بيد الفتاة المتحمسة وقبَّلها، ثم اقتِيد إلى الغرفة التي خُصِّصت له، بينما اجتمع أفراد الأسرة في المخدع مُلتفِّين حول نيكولا.

جلست الكونتيس قرب ابنها ممسكةً أبدًا بيديه تُوسِعهما تقبيلًا، واحتشد الآخرون حولهما يراقبون حركات نيكولا ونظراته ويحصون عليه كلماته، شاخصين إليه بأبصارهم المفعمة بالحب والابتهاج، وتزاحم أخوه الصغير مع أخواته يتنافسون على أقرب المقاعد إلى أخيهم الأكبر، ويتنازعون شرف تقديم الشاي إليه أو المنديل أو الغليون.

وكانت سعادة روستوف لا تُوصَف وهو يرى نفسه موضعَ هذا العطف وذلك الحب، غير أن اللحظة الأولى التي مرت على لقائهم بلغت من تسامي العاطفة مبلغًا جعله ينظر إلى الدقائق التي بعدها وما رافقها من أحاسيس، نظرته إلى شيء تافه فقير في مضمونه، وحفَّزته إلى التطلُّع إلى المزيد.

نام المسافران نومًا عميقًا بعد رحلتهما الشاقة، فلم يستيقظا إلا بعد العاشرة من صباح الغد.

وفي الغرفة التي تليها غرفتاهما تراكمت السيوف وجيوب الذخيرة والحقائب المفتوحة والأحذية الملطَّخة بالوحول، وجاء خادم بزوجين من الأحذية المنظَّفة الملمَّعة فوضعهما قرب الجدار، وآخَر يحمل الصحاف والماء الساخن لإزالة اللحية، وثالث يحمل الألبسة النظيفة، أما الغرفة فكانت رائحة الرجل والتبغ تتضوَّع فيها.

ارتفع صوت فاسيلي دينيسوف الأجش صائحًا: «هيلا! يا جريشكا، إليَّ بغليوني! وأنت يا روستوف، كفاك نومًا!»

فرك روستوف أجفانه التي ألصقها النعاس وانتزع رأسه من الوسادة الدافئة وغمغم متسائلًا: «أستيقظ؟ هل الوقت متأخر؟»

فأجابه صوت ناتاشا: «بالطبع، لقد أشرفت الساعة على العاشرة.»

وارتفع من الغرفة المجاورة حفيف الأثواب المهفهفة، وتعالت الهمسات والضحكات الفضية المجلجلة، بينما كان الباب الموارِب يكشف عن شيء أزرق وأشرطة وشعور سوداء ووجوه مَرِحة، كانت ناتاشا قد جاءت بصحبة سونيا، وبيتيا تترقب نهوض أخيها من نومه.

كررت ناتاشا نداءها وهي واقفة بالباب: «انهض يا نيكولا، انهض!»

– «حالًا!»

وفي تلك الأثناء وقع نظر بيتيا على السيوف، فحمل واحدًا منها وهو يشعر بالحماس البريء الذي يستحوذ على نفوس الفتيان الصغار حيال المظاهر الحربية التي يتمتع بها الأبكار، وفتح الباب على مصراعه مغفلًا التقاليد التي لا تسمح لأخواته برؤية الرجال وهم نصف عراة، وصاح: «أهذا حسامك؟»

قفزت الفتيات إلى الوراء مبتعدات، وذُعِر دينيسوف لهذه المفاجأة وبادر إلى إخفاء سيقانه المملوءة بالشعر تحت الغطاء وهو يُلقِي نظرةً متطيرة إلى رفيقه، ولما مرَّ بيتيا أغلق الباب وارتفعت وراءه القهقهات. سُمِع صوت ناتاشا يقول: «سيخرج نيكولا في معطفه المنزلي!»

بينما كرر بيتيا سؤاله غير عالم بما فعل: «أهو حسامك؟»

واستدار إلى دينيسوف وأردف يسأله باحترام وامتثال متأثرًا بمشهد شاربَيْه الأسودين الكبيرين: «أم هو حسامك أنت؟»

لبس روستوف معطفه المنزلي على عجل واحتذى خفًّا وخرج، وكانت ناتاشا قد ربطت المهاميز بزوج من الأحذية وراحت تهيئ الآخر. أما سونيا فكانت تدور حول نفسها يستخفها الفرح، كانت هي وناتاشا ترتديان ثيابًا زرقاء فاتحة اللون جديدة كل الجدة ومتشابهة كل الشبه، وكانتا باسمتين متورِّدتي الخدود ممتلئتين حيوية، نفرت سونيا عند مرأى نيكولا، بينما قادت ناتاشا أخاها إلى المخدع وراحت تثرثر معه، لم يجدا قبل هذه اللحظة فرصةً مواتية ليتطارحا ألوفَ الأسئلة الصغيرة التي لا تخصُّ إلا سواهما،

نيكولا في بيته.

فلما سنحت انتهزاها، وراحت ناتاشا تضحك بعد كل كلمة تتفوَّه بها أو تخرج من فم أخيها. ولم يكن مرد الضحكةِ الدعابة التي يتبادلانها، بل كانت بهجة ناتاشا ومرحها هما الدافعان، وما كانت تستطيع الإعراب عنهما إلا بالضحك، كانت تقول في كل لحظة: «آه! كم هذا جيد! كم هو بديع!»

وهكذا منذ ثمانية عشر شهرًا شعر روستوف لأول مرة بأن ابتسامة الصبا التي بارحت وجهَه منذ ذلك الحين، تعود فتغمر وجوده وتشرق في عينيه تحت تأثير ذلك السيل الجارف من الحنان الذي كانت ناتاشا تُغدِقه عليه. قالت له: «أصغِ إليَّ، ها أنت قد أضحيت رجلًا حقيقيًّا! كم أنا سعيدة إذ تكون أنت أخي!»

ولمست شاربه الصغير وأردفت: «آه! كم وددت لو عرفتكم معشر الرجال! هل تشبهوننا في شيء؟ كلا!»

سألها روستوف: «لِمَ نفرت سونيا؟»

– «آه! لكن هذه وحدها قصة طويلة! وبهذه المناسبة هل ستعود إلى مخاطبتها بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع؟»

– «سأخاطبها كما يدور على لساني.»

– «بل أرجوك أن تقول لها «أنتن» بدلًا من «أنتِ». سأفسِّر لك السبب فيما بعدُ، بل سأقوله لك على الفور، أنت تعرف أن سونيا صديقتي، وأن صداقتنا عميقة، حتى إنني على استعداد لحرق ذراعي من أجلها. خذ، انظر.»

حسرتْ كمَّ ثوبها المصنوع من «الموصلين» وأشارت إلى بقعة حمراء على ذراعها الطويل النحيف قرب الكتف وفوق المرفق، في موضع لا يظهر حتى ولو كانت مرتديةً ثيابَ الحفلات الراقصة. أردفت: «لقد حرقت ذراعي بنفسي لأدلِّل لها على صداقتي المتينة، لقد أحميتُ مسطرةً وألصقتها هنا.»

شعر روستوف وهو في مجلسه في قاعة الدرس القديمة على أريكة ذات ذراعين تغطيها الوسائد الصغيرة، ونظرات ناتاشا الدافئة الحماسية تغمره؛ بأنه عاد إلى عالمه العائلي، عالمه الصبوي الذي لم يكن يعني بالنسبة إليه شيئًا، لكنه يزخر بتلك المُتَع العميقة التي طالما تذوَّقَها؛ لذلك فإن مغامرة المسطرة الحامية وإحراق الذراع بها إشارةً للصداقة المتينة لم تكن تافهةً في نظره، كان يفهم أسبابها الموجبة ولا يدهشه ذلك التصرف، سألها: «وماذا؟ لا شيء آخر؟»

– «آه! ليتك تعرف مدى ما نحن عليه من صداقة! إن مسألة المسطرة ليست جدية ولا شك، لكننا صديقتان، صديقتان إلى الأبد، وهي عندما تحب أحدًا فإنما تحبه إلى الأبد، لكنني لا أفهم هذا، بل أنسى كلَّ شيء على الفور.»

– «وماذا بعد؟»

– «حسنًا إنها تحبنا — أنت وأنا — على هذا النحو.»

ثم تضرج وجهها فجأةً وأردفت: «هل تذكر قبل رحيلك؟ حسنًا، إنها تطلب إليك الآن أن تنسى كل شيء. لقد قالت لي: «سأحبه إلى الأبد، أما هو فَلْيكن حرًّا!» إن هذا شيء رائع! النبل! نعم إنه نبيل أليس كذلك؟ أَلَا تجده كذلك؟»

كانت تصرُّ وتلحُّ بتلك اللهجة الجدية المنفعلة التي تدل على أن ما قالته الآن هادئةً، قالته من قبلُ وهي تبكي.

فكَّر روستوف فترة، وقال: «إنني لا أسحب كلمتي، ثم إنها شديدة البهاء والجمال، حتى إن المرء يجب أن يكون غبيًّا كل الغباء إذ يرفض أن يكون سعيدًا!»

هتفت ناتاشا: «كلا، كلا. لقد تحدثنا من قبلُ في هذا. كنا نعرف أنك ستقول مثل هذا القول، لكنه لا يجب أن يكون كذلك. أَلَا تفهم أنك إذا اعتبرتَ نفسك مرتبطًا بوعدك، فإن ذلك سيبدو وكأنها أثارَتْه عامدةً؛ وعندئذٍ لا بد أن تعتقد في فترةٍ ما بأنك إنما تزوَّجتَها بدافعٍ من الواجب! ولن يكون الأمر كذلك.»

شعر روستوف بوجاهة هذا المنطق السليم، لقد أذهله جمال سونيا مساء أمس، فلما رآها هذا الصباح بدت لعينيه أكثر جمالًا رغم قِصَر الفترة التي استطاع خلالها أن يتملى بجمالها. كانت تلك البنية التي لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها تحبه حبًّا جمًّا، ولم يكن عنده ظلُّ شكٍّ في ذلك، ولكن لِمَ لا يحبها هو الآخَر بدوره؟ بل لِمَ لا يتزوجها أيضًا؟ بيْدَ أن مُتَعًا كثيرة وانشغالات جمة كانت تنتظره في تلك الظروف، فقال لنفسه: «نعم، إنهما على حق. من الخير أن أبقى حرًّا.»

قال لأخته: «حسنًا، كما تشائين، سوف نعاود البحث في هذا. آه! كم أنا سعيد برؤيتك! لكن نبِّئيني، لعلَّك لم تخوني بوريس على الأقل؟»

فهتفت ناتاشا ضاحكة: «هذه لعمري حماقات! إنني لا أفكر فيه ولا في أحدٍ سواه.»

– «مستحيل! في أي شيء تفكرين إذن؟»

فقالت ناتاشا ووجهها يزداد إشراقًا: «أنا؟ هل شاهدت دوبور.»[1]

– «كلا.»

– «دوبور الشهير، الراقص، ألم تره قط؟ إنك إذن لن تفهم. انظر.»

أدارت ناتاشا ذراعيها وأمسكت بثوبها على طريقة الراقصات، وابتعدت راكضة ثم استدارت وقامت بقفزة صغيرة ضربت خلالها قدميها ببعضهما مرارًا في الفضاء قبل أن تمس بهما الأرض (وتلك طريقة كان يبدأ بها الراقصون رقصهم) وخطَّت بضع خطوات جريًا على رءوس أصابع القدمين.

[1] أورد المترجم عن الروسية ملاحظةً هنا تشير إلى وجود تباين بسيط في سرد الوقائع؛ لأن الراقص الفرنسي الشهير دوبور؛ منافس فيستريس، لم يحلَّ في روسيا إلا عام ١٨٠٨ حتى حصل على شهرة ونجاح كبيرين طيلة أعوام، بينما يتحدث تولستوي عن هذا الراقص ويورد ذكره عام ١٨٠٦. (أسرة الترجمة)

قالت مفسِّرة وقد عجزت عن الاستمرار في وقفتها الفنية: «لقد استطعت الوقوف على رءوس أصابعي، أليس كذلك؟ هذا ما سأكونه! لن أتزوج قط، سأصبح راقصة، ولكن لا تتحدث بهذا إلى أحد.»

انفجر روستوف ضاحكًا ضحكة بلغت من صفائها حدًّا جعل دينيسوف الذي سمعها في غرفته يغار منه، ودفعت ناتاشا إلى الاستجابة لها فجارته بضحكة مثلها. كررت بإلحاح: «أليس هذا بديعًا؟»

– «بلى، إنه بديع، لكنك لن تستطيعي بعدئذ الزواج من بوريس.»

احمر وجه ناتاشا وقالت: «أكرر القول إنني لا أريد الزواج بأحد! وسأقول له ذلك متى قابلته.»

فقال روستوف مستهزئًا: «أصغوا إلى هذا القول، يا له من حديث!»

– «على كل حال إنه ضرب من الغباء. قل لي هل هو لطيف دينيسوف هذا؟»

– «بل شديد اللطف.»

– «حسنًا، إلى اللقاء. اذهب وارتدِ ملابسك. أليس دينيسوف هذا شديد الرهبة؟»

– «رهيب، فاسكا؟ أبدًا، إنه شاب فتَّان.»

– «هه، أتسميه فاسكا؟ ذلك مضحك! إذن، إنه لطيف جدًّا؟»

– «كل ما في العالم من لطف.»

– «هيا إذن وأسرع، سنتناول الشاي كلنا معًا.»

واجتازت ناتاشا الغرفة على رءوس أصابع القدمين كما تفعل الراقصات مع فارق واحد، وهو أن الابتسامة التي كانت على شفتيها لا يمكن أن ترتسم إلا على شفاه الفتيات السعيدات إذا كنَّ في مثل سنها.

ولما دخل روستوف إلى البهو احمرَّ وجهه وبان الاضطراب عليه عندما وقع بصره على سونيا، وارتبك في انتقاء النَّهْج الذي سيجري عليه في معاملتها. لقد تعانقا أمسِ في غمار الفرحة الأولى والتحرُّر من القيود الذي سبَّبته عودته المفاجئة، لكنهما كانا في ذلك الصباح يعرفان أنه يتعذَّر عليهما انتهاج سبيل البارحة. شعر نيكولا بنظرات أمه وأخواته المستفسرة تنحطُّ عليه، لقد كان الموجودون يتساءلون عن السلوك الذي سيعمد إليه في حضرتها. انحنى على يدها يقبِّلها، وخاطَبَها بصيغة الجمع، لكن عيونهما كانت تتلاقى فتتخاطب بصيغة المفرد، وتتبادل أعذب القُبَل. كانت نظرات سونيا تسأله الصَّفْح؛ لأنها جرؤت على تذكيره بوعده عن طريق ناتاشا وتشكوه على استمراره في محبتها، أمَّا عيون

نيكولا فكانت تشكرها؛ لأنها أعادت إليه حريته وتفهُّمها أنه سيظل يحبها على شكلٍ من الأشكال؛ لأنها كانت من اللاتي لا يمكن للمرء إلا أن يحبهن.

انتهزت فيرا فترةَ صمتِ الحاضرين وقالت: «إن هذا مضحك! ها إن سونيا ونيكولا يتخاطبان بصيغة الجمع الآن وكأنهما غريبان!»

كانت ملاحظتها وجيهةً كعادتها، لكنها كعادتها أيضًا أحدثت أثرًا سيئًا في نفوس الحاضرين، ولم يقتصر الأثر السيئ على نفس سونيا وناتاشا ونيكولا وحدهم، بل تعدَّاه إلى الكونتيس نفسها التي تضرج وجهها كالفتيات خشيةَ أن تَحرم تلك العاشقةُ الصغيرة ابنَها العزيز نيكولا «صفقةَ» زواجٍ مغرية.

وفي تلك اللحظة دخل دينيسوف، فكانت دهشة روستوف لا تُوصَف؛ إذ رأى صديقه معطَّرًا مزيَّنًا في ثوب جديد، في مثل الرشاقة والأناقة التي كان عليها يوم المعركة، ورآه بمزيد من الدهشة والذهول يتجه إلى السيدات وينخرط معهن في حديثٍ شيِّق رقيق.

الفصل الثاني

مهمة روستوف العجوز

إذا كانت أسرة روستوف استقبلت ابنها العزيز بوصفه بطلًا مغوارًا، فإن أقاربه الآخرين استقبلوه على اعتباره شابًّا رفيع التربية لطيفًا، ولاقاه أصدقاؤه — وأعني موسكو كلها — كما يليق اللقاء بملازم شاب من الفرسان الميامين، وبراقص مجيد، وواحد بين أحسن مَن ترجو الأمهات الفوزَ به زوجًا لبناتهن في العاصمة.

كانت نقود الكونت العجوز متوفرة ذلك العام بفضلِ تجديدِ عقودِ رهن أملاكه؛ بذلك استطاع نيكولا أن يعيش حياة بهيجة جميلة، فكان يمتطي كلَّ يوم صهوةَ جوادٍ خاص مُطهَّم، ويرتدي سراويل الفرسان من آخر ابتكار، ولم يكن أحد يرتدي مثلها في موسكو بعدُ، وينتعل أحذية عالية لم تتوصَّل صناعة الأحذية إلى أحسن منها، دقيقة الرأس بمهمازين فضيين صغيرين مثبتين في أعلى الكعبين. كان روستوف يتلذَّذ بالعودة إلى الحياة الأولى التي انتُزِع منها منذ عامين تقريبًا، وهو أكثر خشونةً ورجولةً وأمتن عودًا، كانت مغامراته القديمة — انزعاجه لتخلُّفه عن فحص التعليم الديني، وقروضه الصغيرة من الحوذي جافريل، والقُبلات التي كان يختلسها من سونيا — تَمثل في خياله الآن على صورة أفعال صبيانية بعيدة جدًّا متقادمة العهد، لقد أصبح اليوم ضابطًا برتبة ملازم في سلاح الفرسان، يحمل صليب سان جورج على سترته الفخمة المزيَّنة بأشرطة رُتبته الفضية، ويدرِّب حصانه استعدادًا للاشتراك به في سباقات تضم هواةً مشهورين ورجالًا وَقُورين ذوي قيمة ونفوذ، وقد تعرَّف مؤخرًا على سيدة معينة تقطن في «البولفار» راح يتردَّد على زيارتها في الأمسيات، وأصبح يقود المازور كما في حفلات آل آرخاروف الراقصة، ويتحدث عن الحرب مع الماريشال كامنسكي، ويتردَّد على النادي الإنجليزي ويتحدَّث بصيغة المفرد مع زعيم في الأربعين من عمره قدَّمه دينيسوف إليه.

لم يَعُد إعجابه بالإمبراطور الذي لم يره منذ تلك الحوادث في مثل شدته الأولى. مع ذلك، فإنه كان عندما يتحدث عنه — الأمر الذي كان كثير الوقوع — يوحي إلى السامعين بأنه لا يتحدث عن كل ما يعرف، بل إن في عواطفه حيالَه جانبًا سريًّا لا يمكن للبسطاء من بني البشر اكتشافه ومعرفته. وكان يشاطر أهالي موسكو من أعماق قلبه تعلُّقهم بألكسندر الأول، الذي كان يبلغ درجة العبادة، حتى إنهم أطلقوا عليه اسم «الملاك المتأنس»؛ أي المتقمِّص شكلًا ناسوتيًّا ليراه البشر.

أدت إقامة نيكولا القصيرة في موسكو إلى تباعُد الشُّقة بينه وبين سونيا أكثر مما ساهمت في تقريبها بينهما. لقد كانت سونيا جميلة جدًّا، لطيفة جدًّا، يشع الحب من عينيها، لكن روستوف كان — على حدِّ زعمه — في تلك السن التي يجدُّ الشاب فيها كثيرًا مما يعمل، حتى ليتعذَّر عليه إقطاع مثل هذه الأمور جانبًا من وقته. لقد كان في السن التي يخشى الشاب فيها من الارتباط بالأنثى، ويجد أن حريته أغلى من كل شيء. كان إذا فكَّر في سونيا يقنع نفسه بقوله: «آه! إنها ليست الوحيدة في العالم، ولقد خُلِقتُ للتعرُّف على عدد كبير من مثيلاتها! وعندما يبرِّحني الهوى لن أُعدَم الوقت للانشغال في الحب. أما الآن فإن في رأسي أهدافًا أخرى.» ثم إنه شعر، منذ أن أصبح في عداد الرجال، أن الجري وراء الأثواب النسائية ومَن فيها أدنى من أن تتقبَّله كرامته. لقد كان يتردَّد على الحفلات الراقصة والولائم، لكنه كان يتظاهر بأنه إنما يحضرها مُرغَمًا. أما السباقات والنادي ومهازله مع دينيسوف وزيارات «هناك»، فإن أمرها كان جدَّ مختلفًا. لقد كان الفارس المغامر يجد فيها الجو الذي يلائمه.

عزم النادي الإنجليزي الذي كان الكونت روستوف العجوز عضوًا فيه، وفي مجلس إدارته منذ تأسيسه، على إقامة حفلة عشاء فاخرة على شرف الأمير باجراسيون. ولما كان الكونت العجوز لا يُبارى في مواهبه التنظيمية في مثل هذه الأمور، وفي ذوقه المرهف، وكرمه المشهور، فقد كلَّفه مجلس إدارة النادي بمهمة إعداد الوليمة، واستجاب الكونت لذلك التكليف بكُلِّيته، وصرف في سبيل ذلك كلَّ وقته. لقد كان الكونت من النادرين الذين لا يجدون غضاضة في الإنفاق من جيوبهم إذا اقتضى الأمر دون تذمُّر ولا تردُّد. وهكذا فقد كان الكونت روستوف يروح ويجيء بين القاعة الكبرى ومختلِف أجزاء قصره وهو في معطفه المنزلي، يُصدِر أوامره إلى أمين الصندوق ورئيس الطهاة «تيؤو كتيست» المشهور حول ألوان اللحوم والسمك والهليون والخيار والفريز، فكان رئيس الطهاة وأمين الصندوق يصغيان إليه باغتباطٍ وهما متأكدان أنهما يستطيعان بفضل الكونت أن

يقتطعا ربحًا كبيرًا من مجموع أثمان تكاليف تلك الوليمة الباذخة، مما لا يتاح لهما مثله لو كُلِّف غيره بأداء هذه المهمة. لقد كان الكونت ذوَّاقًا ماهرًا، فرفعت تلك المزية تكاليفَ الوليمة إلى بضعة ألوف من الروبلات.

– «انتبه جيدًا، ولا تنسَ أعراف الديكة في حساء السلحفاة، مفهوم؟»

– «وثلاثة أنواع من الحساء المبهر، أليس كذلك؟»

ففكَّر الكونت برهة وأجاب: «بلى، لا يمكن تقديم أقل من ذلك، لنَقُل إذن: حساء المايونيز[١] وحساء ...»

فقاطَعَه أمين الصندوق: «وماذا عن سمك الـ «ستيرله»، سننتقي الكبار منه ولا شكَّ، أليس كذلك؟»

– «بلى، خذ الكبار. آه! يا عزيزي، كِدتُ أنسى: يلزمنا كذلك لون آخر من المُقبِّلات. آه! يا ربي العظيم!»

واحتوى رأسه بين يديه وأردف: «رباه! والزهور، مَن سيأتيني بها؟ ميتانكا، هه، ميتانكا! اهرع إلى بيتي الصيفي وقل لماكسيم البستاني أن ينفِّذ باسمي الأوامر التالية على الفور: لتُحزَم في قطع من القماش كلُّ نباتات الحديقة الشتوية، وليُحمَل إليَّ إلى هنا مائتا أَصِيص على أن تصلني يوم الجمعة.»

هرع الوكيل ميتانكا لتنفيذ الأمر، بينما أصدر الكونت سلسلةً أخرى من الأوامر، ومضى ينشد الراحة قُرْب كونتيسته الصغيرة العزيزة، لكنه تذكَّر فجأةً أمرًا مهمًّا فنكص على أعقابه واستدعى رئيس الطهاة وأمين الصندوق، وعاد يتحاضر معهما. وفي تلك الأثناء ارتفع رنين مهاميز قرب الباب، وبدا على عتبته الكونت الشاب نضر الوجه، متورد الوجنتين، يظلِّل شفته العليا طيفُ شاربٍ خفيف. أزالت حياة موسكو المُوادِعة اللطيفة كلَّ آثار العناء والنصب التي كانت مخلفة على وجهه الفتي.

قال العجوز مبتسمًا ابتسامة لا تخلو من ارتباك: «آه يا صديقي! إنني فريسة دوار عنيف. تعالَ أنقذني وأَغِثْني. ينبغي لنا إيجاد المغنِّين. إنني بالطبع متعاقد مع جوقة موسيقية، ولكن أَلَا تعتقد أن وجود البوهيميين سيُقابَل بالترحيب؟ إنكم معشر العسكريين تحبون هذا اللون من الغناء.»

[١] حساء المايونيز عبارة عن خليط من صفَار البيض والزيت والمرَق يُبهَّر ويُتبَّل حسب رغبة الإنسان بالخلِّ والمِلْح والبهار والخردل، ويُقدَّم عادةً مع الشرائح الباردة. (المترجم)

أجاب الابن وهو يبتسم له بدوره: «حقًّا يا أبي، إنك تزعج نفسك الآن وترهقها أكثر مما كان يفعل باجراسيون قبل معركة شوينجرابن.»

فقال الكونت متظاهرًا بالغضب: «حسنًا، ضع نفسك مكاني وسترى أن الأمر ليس من السهولة كما يبدو لك.»

والتفت إلى رئيس الطهاة الذي كان يرقبهما بوقارٍ وفي عينيه نظرةٌ ماكرة، وقال له: «أرأيت الشباب يا تيؤو كتيست؟ إنهم يهزءون بنا معشر الكهول المساكين.»

– «ماذا نستطيع يا صاحب السعادة أن نعمل! إن الشبان لا يريدون إلا رؤية قصعتهم مملوءة بالطعام، لكنهم لا يبالون بالكيفية التي جاء بها الطعام إلى قصعتهم.»

هتف الكونت: «هذا صحيح، هذا صحيح.»

وأردف وقد أمسك بذراع ابنه بيديه بحركة مرِحة: «بما أنني ممسِك بك الآن، فلن أفلتك بسهولة. سوف يسرُّني أن تقفز إلى الزحافة ذات الجوادين، وأن تطير بها إلى منزل بيزوخوف لتقول له إن الكونت إيليا آندريئيفيتش أرسلك في طلب بعض ثمار الفريز والأناناس من حدائقه الشتوية. يستحيل لنا إيجادها في مكانٍ آخر. وإذا لم تجده أرجو أن تُبلغ الأميرات مُلتمَسي، ومن هناك ستذهب إلى رازجولية — والسائق هيبات يعرف الطريق — لتُطبِق على البوهيمي إيليوشا مهْمَا كان الثمن، وتأتي به إلى هنا. أَلَا تعرف إيليوشا الذي رقص عند الكونت أورلوف متَّشِحًا بعباءة بيضاء؟»

سأل روستوف ضاحكًا: «وهل يجب أن آتيك بمغنياته أيضًا؟»

– «هلَّا أطبقْتَ فمك!»

وفي تلك اللحظة دخلت آنا ميخائيلوفنا إلى البهو بخطوات غير مسموعة، وهي على عادتها متشاغلة مرهَقة بالعمل، ومفعمة بالإيمان والتعاليم المسيحية. كانت تفاجئ الكونت كل يوم تقريبًا في معطفه المنزلي. مع ذلك، فقد كان هذا يبدو شديد الخجل منها، ويطلب صفحها في كل مرة.

قالت وهي تخفض عينيها من الخَفَر: «لا أهمية لهذا يا صديقي الطيب. أمَّا بصدد المهمة المتعلقة بآل بيزوخوف، فإنني أتطوع لأدائها. لقد وصل بيير مؤخرًا، ولا شك أنه سيضع كل حدائقه الشتوية رهْنَ تصرُّفنا، ثم إنني في حاجة إلى مقابلته؛ إذ إنه أرسل إليَّ أخيرًا رسالة من بوريس ولدي الذي أحمد الله على التحاقه بالأركان العامة.»

راق عرض آنا ميخائيلوفنا للكونت، فأمر بإعداد العربة الصغيرة لها على الفور وقال لها: «ستقولين لبيزوخوف إننا ننتظره، سوف أُسجِّل اسمه. هل ترافقه زوجته؟»

بدا على تقاسيم آنا ميخائيلوفنا حزن عميق ورفعت عينيها إلى السماء وقالت: «آه! يا صديقي، إنه شديد التعاسة، إذا كان ما يزعمونه حقيقيًّا؛ فإن الأمر جدُّ مريع بينما كنا نحن نبتهج لسعادته! مَن كان يصدِّق أو يُخمِّن حدوث مثل ذلك؟ إن بيزوخوف الشاب إنسان طيب نبيل! إنني أتألم من كل قلبي لُمصابه، وسأحاول أن أوفِّر له ما في طاقتي توفيره من عزاء وسلوان.»

سأل الأب والابن بصوت واحد: «ماذا حدث بالله؟»

قالت بلهجة غامضة: «يقال إن دولوخوف ابن ماري إيفانوفنا قد أغواها وفتنها. لقد انتشل بيير هذا الفتى من مأزقه ودعاه إلى قصره في بيترسبورج، وهذه كانت مكافأته. لم تكد تصل إلى هنا حتى هرع ذلك المعتوه في أعقابها.»

كانت آنا ميخائيلوفنا ترمي إلى التوجع على مصير بيير، لكن لهجتها وابتسامتها كانت توحي بعطف على دولوخوف، الذي أطلقتْ عليه اسم المعتوه. أردفت مُعقِّبة: «ويزعمون أن بيير يكاد يقضي حزنًا.»

– «اطلبي إليه رغم ذلك أن يحضر إلى النادي؛ لأن حضوره سيُنسيه آلامه. سنقيم هناك وليمة حافلة سخية.»

وبعد ظهر اليوم التالي؛ الثالث من آذار، كان أعضاء النادي الإنجليزي، وعددهم مائتان وخمسون، ينتظرون ومدعووهم الخمسون مَقْدَم الأمير باجراسيون؛ بطل معركة النمسا وضيف الشرف في وليمتهم، وكان نبأ هزيمة أوسترليتز قد غمر موسكو كلها في ذهول عميق؛ لأن الروسيين ألفوا الانتصار والفوز من قبلُ لدرجةٍ جعلت بعضهم يرفضون تصديق ذلك النبأ، بينما استغرق البعض الآخر في التساؤل عن الحدَث الخارق الذي وقع وأدى بوقوعه إلى تلك النتيجة الغريبة الخارقة لمألوف العادة. ولما توارد النبأ الأليم في كانون الأول بدا وكأنَّ كل أعضاء النادي الإنجليزي، وهم النخبة الممتازة من الشخصيات الكبيرة العليمة ببواطن الأمور، قد تواعدوا على الانصراف عن الاجتماع فيه؛ تجنُّبًا للحديث عن الحرب والمعركة الأخيرة.

وقد هجر النادي كل الذين درجوا على إثارة البحوث والمناقشات؛ أمثال: الكونت روستوبتشين، والأمير أيوري فلاديميروفيتش دولجوروكي، وفالوييف، والكونت ماركوف، والأمير فيازمسكي، وانصرفوا إلى حلقات خاصة واجتماعات عائلية. وهكذا حُرِم الأعضاء الموسكوفيون، أمثال الكونت إيليا آندريئيفيتش روستوف، الذين درجوا على ترديد أقوال الآخرين من مصادرهم الغنية، فظلوا فترةً طويلة محرومين من الأنباء الجديدة الموثوقة

حول مجرى الأمور، ولكن لم تمضِ فترة معينة حتى عادت تلك الشخصيات البارزة إلى النادي، فكانوا أشبه بالمحلفين الذين خرجوا لتوِّهم من غرفة المداوَلة. وأُلقِيت الأضواء على الأمور، وانحلَّت عُقَد الألسن. لقد وجدوا أخيرًا مبررات لذلك الحدث المريع الذي يستحيل وقوعه كما يستحيل تصديقه؛ وأعني هزيمة الروسيين.

كانت تلك الأسباب التي راحت تُكرَّر وتُفسَّر في كل زوايا موسكو كما يلي: خِسَّة النمساويين وغدرهم، سوء التموين، خيانة البولوني برزيبيسزوسكي، والفرنسي لانجيرون، عَجْز كوتوزوف عن معالجة الأمور في حينها — وهذا السبب كان يُبحَث دائمًا بصوت خفيض كما هو الحال في السبب التالي والأخير — وشباب الإمبراطور وقلة خبرته؛ مما أدى إلى وثوقه بأشخاصٍ عديمي القيمة مشئومين. أما الجيوش الروسية، فقد اتفق رأي المتحدثين جميعهم على أنها تصرَّفت تصرُّفًا حميدًا يدعو للإعجاب؛ لأنها بذلت تضحيات سخِية قيِّمة. لقد تصرَّف الجنود والضباط والجنرالات تصرفًا كله بطولة وتضحية.

أما بطل الأبطال، فكان الأمير باجراسيون الذي طبَّقت شهرته الآفاق، بعد معركة شوينجرابن وانسحاب أوسترليتز، الذي استطاع فيه أن يعيد فيلقه بنظام محكم، وأن يصمد طيلة ذلك النهار لعدوٍّ يفوقه عَددًا وعُددًا. والأمر الذي جعل الموسكوفيين يعتبرون باجراسيون بطل الساعة أكثر من غيره؛ كان جهل الموسكوفيين به، وعدم وجود أية علاقة له بينهم، فكانوا إذ يحتفلون به يقدِّمون تمنياتهم وعواطفهم لرمز الجندي الروسي الباسل المحروم من التوصيات، البعيد عن الزُّلفَى والمكر. وكانت ذكرى معركة إيطاليا تُدْني اسمه من اسم سوفوروف. ثم ألم تكن تلك الحفاوة البالغة التي يُظهِرونها له هي خير تعبير عن اللوم الموجَّه إلى كوتوزوف، والانتقاص من كفاءته؟

راح شينشين السليط اللسان يقول مجترًّا كلمة فولتير المأثورة: «لو أن باجراسيون لم يكن موجودًا، لَوجب إيجاده وابتكاره.»

أما عن كوتوزوف فلم يكن أحد يتحدث بكلمة، وإذا ورد اسمه على اللسان فإنما كان في معرض الذَّم، ووصفه سرًّا بأنه متغطرس فظ فاسد، أو بإطلاق اسم «مذبذب البلاط» عليه.

كانت موسكو كلها تكرر قول دولجوروكوف المأثور: «يتدبق المرء لكثرة ما يلصق.» الذي كان يُخفِّف من وقع الهزيمة بإحياء ذكريات الانتصارات السابقة، كذلك كانت تعيد أقوال روستوبتشين: «إن الجندي الفرنسي ينبغي أن يُساق إلى ساحة المعركة بالكلمات الطنانة، والجندي الألماني لا يطيع إلا إيحاءات المنطق، فيتطلب من قادته شرحًا وتفسيرًا

يُشعِران بأن الفرار أشدُّ خطرًا من الهجوم. أما الجندي الروسي فإنه على العكس يتطلَّب من قادته ضبطه وإعادته إلى الهدوء والسكينة.» وكانوا كل يوم يدوِّنون مآثرَ جديدة في مضمار نشاط الجنود الروسيين وضباطهم؛ فأحدهم أنقذ علَمًا، والآخر قتل خمسة فرنسيين، وثالث قام بمفرده بكل ما يلزم من خدمة مضنية لثلاثة مدافع معًا.

وكان عدد من الناس الذين لا صلةَ لهم ببيرج يؤكدون أنه جُرِح في يُمناه، فحمل سيفه بيسراه وسار تحت وابل النيران يهاجم العدو. أما بولكونسكي فلم يكن أحد يتحدث عنه؛ لقد كان خلصاؤه وحدهم يأسفون لموته وهو في شرخ الشباب، ويشفقون على زوجه التي ستضطر لوضع جنينها تحت سقف حَمِيها سقيمِ العقل.

الفصل الثالث

وليمة النادي الإنجليزي

ملأت دندنة الحديث كل حجرات النادي الإنجليزي وقاعاته في اليوم الثالث من آذار، كان الأعضاء ومدعووهم — وبعضهم في ثوب «الفراك»، والبعض الآخر في قفاطينهم وشعرهم المستعار — يروحون ويغدون، بين جالسين وواقفين، ومتجمهرين ومتفرقين، وكأنهم ثَوْلُ نَحْلٍ في فصل الربيع. وعلى كل باب وقف الخدم في أثوابهم الحمراء الرسمية، وشعرهم المستعار، وجواربهم الحريرية، وأخفافهم الرقيقة، يرقبون حركات المدعوين ليهرعوا إليهم مُلبِّين طلباتهم عند أول إشارة. وكان المدعوون — وجلُّهم من المُسنِّين ذوي النفوذ والسلطة — ذوي أصابع ضخمة، ووجوهٍ مطمئنةٍ ممتلئةٍ صحةً، وأصوات ثابتة حازمة، وحركات متزنة جليلة، يجلسون في أماكنهم المقرَّرة لهم وكأنهم ملوك على عروشهم، أو يجتمعون في حلقاتهم المألوفة يتبادلون الآراء والحديث.

وكان الضيوف الطارئون، أمثال: دينيسوف، وروستوف، ودولوخوف الذي أصبح ضابطًا في فيلق سيمينوفسكي، وكلهم من الشبان، يُشكِّلون أقلية ضئيلة. كانت وجوه أولئك الشباب، وبصورة خاصة العسكريون منهم، تنطق باحترامٍ ماجن مستهزئ، وكأنها تقول للمسنين: «نحن لا نمسك عليكم الاحترام الذي تطلبون، ولا المعاملة الحسنة التي تنتظرون، لكننا نذكِّركم بأن المستقبل لنا؛ فلا تنسَوْا ذلك.»

كان نيسفيتسكي، وهو عضو مرموق في النادي، حاضرًا ذلك اليوم، وكان بيير الذي وافق على التضحية بنظارتَيه بناءً على أوامر زوجته، ويعوِّض هذا النقص بإرساله شعره طويلًا، وارتدائه ثيابًا على أحدث طراز، يذرع الأبهاء وعلى وجهه آياتُ الضجر والشراسة. كان يحس هنا كما يحس في كل مكان آخر بجوٍّ من الدناءة واللؤم يحيط به. لقد اعتاد على الرفعة والاستكانة التي يجزيها إليه متملِّقوه الطامحون في ثروته، الساعون وراء إحسانه، وأَلِفَ أسلوبهم فراح يمنحهم جانبًا من شروده واحتقاره. وإذا كان العمر

يسلكه في عِداد الشبان، فإن الثروة كانت تفتح له حلقات الكهول والشخصيات المحترمة ذات الشأن، فكان بذلك يتردَّد بين جموع الفريقين. وفي تلك الليلة، تجمهر حول أعلام الشخصيات نفرٌ كبير من الناس بينهم مجهولون مغمورون، جاءوا كلهم يتسقَّطون الأخبار، ويتزوَّدون بأقوال هؤلاء الأشخاص المرموقين المحترمين، وكان الازدحام على أشدِّه حول الكونت روستوبتشين[١] وفالوييف وناريشكين.[٢]

كان روستوبتشين يؤكد أن الروسيين فُوجِئوا بفلول النمساويين الهاربين تسحقهم، حتى اضطروا أخيرًا إلى شق طريقهم بقوة الحِراب بين أولئك الفارين المذعورين، وفالوييف يعلن — بصورة سرية — أن أوفاروف أرسل مؤخرًا من بيترسبورج ليتحسَّس آراء الموسكوفيين عن أوسترليتز. أما ناريشكين فكان يُعِيد إلى الأذهان ذكرى مجلس سوفوروف العسكري العتيد، لما أجاب هذا أفراده بنداءٍ يُشبِه صياح الدِّيَكة، كردٍّ على أقوال واقتراحات «الجنرالات» النمساويين العرجاء. وكان شينشين يصغي إلى هذا القول، فوجد فيه مادة مناسبة لحديثه، وفرصة مواتية ليطلق لسانه السليط فقال: «يبدو أن كوتوزوف لم يستطع أن يتعلم من سوفوروف حتى تقليد صياح الدِّيَكة، رغم ما في هذا الفن من سهولة ويسر.» غير أن الكهول المحترمين حدجوا ذلك الماجن بنظرة قاسية أفهمته أن المكان والزمان لا يسمحان بمثل هذه الفكاهات!

كان الكونت إيليا آندريئيفيتش روستوف يجرُّ حذاءَيْه اللينين من قاعة الطعام إلى البهو وهو بادي الانشغال، يُلقِي تحيته المقتضبة السريعة على الشخصيات البارزة كما يُلقِيها على أَتْفهِهم شأنًا؛ لأنه كان يعرف هؤلاء وهؤلاء على السواء، ومن حينٍ إلى آخر كانت نظراته المنقبة تتوقَّف على وجهِ فتاه الجميل، فيَغمزُ له بعينه بودٍّ. وكان روستوف الشاب يتحدث مع دولوخوف في مدخل إحدى الغرف، وهو شديد الكلف بهذا الصديق الجديد، فاقترب الكونت العجوز منهما وضغط على يد دولوخوف، وقال له: «يسرني أن تحضر إلى زيارتي؛ فأنت صديق ابني، وبطل مثله.»

ومرَّ شيخ بالقرب منهما فحيَّاه الكونت قائلًا: «آه! فاسيلي إينياتيتش، مرحبًا يا عزيزي.»

---

[١] روستوبتشين: سياسي روسي مشهور، كان حاكم موسكو عام ١٨١٢، وهو الذي أحرق موسكو عندما دخلها جيش بونابرت، واضطره بذلك إلى التراجع. وُلِد عام ١٧٦٣، وتُوفي عام ١٨٢٦.

[٢] ناريشكين: سليل أسرة روسية نبيلة عريقة كانت أم بطرس الأكبر من أفرادها. (المترجم)

غير أن تمنياته وتحياته ضاعت وسط ضجة عامة ارتفعت في تلك اللحظة؛ ذلك أن أحد الخدم دخل مهرولًا يُعلِن مذعورًا: «إنه وصل!»

دوى قرع أجراس، وهُرِع أعضاء اللجنة، وتجمهر المدعوون الذين كانوا حتى تلك اللحظة متفرقين في مختلِف الغرف والحجرات، واندفعوا إلى باب البهو وباب القاعة الكبرى يحتشدون وكأنهم حبَّات قمح جُمِعت بمجرفة!

ظهر باجراسيون في الرَّدْهة تاركًا — حسب تقاليد النادي — سيفه وقبعته لرئيس الخدم. لم يكن يرتدي قبعةً من جلد الخروف ويمسك بيده سوطًا ذا شُعب كما شاهده روستوف قبل معركة أوسترليتز، بل كان مرتديًا ثوبًا ضيقًا جديدًا تُزيِّن الأوسمةُ الروسية والأجنبية إلى جانب «صفيحة» سان جورج الجانبَ الأيسرَ منه، وكان — كما يبدو — قد أسلم للحلَّاق شعرَه وسالفَيه، فتبدَّلت هيئة وجهه بما لا يتفق والغاية المتوخَّاة من ذلك التبديل، وكان مظهره الذي يجمع بين السذاجة والجلال يتناقض تناقضًا مضحكًا مع قسمات الرجولة البارزة على وجهه. وصدف أن وصل بيكليشوف وفيودار بيتروفيتش أوفاروف في ذات اللحظة التي دخل فيها باجراسيون إلى الردهة، فتوقَّفا يُفسِحان له مجالَ تقدُّمهما بوصفه بطل الحفلة، وأخجل هذا التأدُّب باجراسيون فحاوَلَ الاعتراض بادئ الأمر؛ مما أدى إلى فترةِ توقُّفٍ وترقُّب، انتهت بقبوله الدخول قبلهما.

دخل إلى قاعة الاستقبال بخجل وارتباك، لا يدري ماذا يفعل بذراعيه. لقد كان ولا شكَّ يألف السير تحت وابلٍ من الرصاص في أرض محروثة، كما حدث له في شوينجرابن عندما سار في مقدمة فيلق كورسك إلى العدو، أكثر من السير بين مستقبِليه في قاعة الاستقبال الفخمة. أعرب أعضاء المجلس الإداري الذين كانوا ينتظرونه عند الباب الأول عن ترحيبهم بمَقْدمه، وسرورهم باستقبالِ ضيفٍ عزيز مثله، ثم «استولوا» عليه بشكلٍ ما دون أن ينتظروا ردَّه، واقتادوه إلى البهو. أصبح الدخول إلى البهو قريبًا من الاستحالة لكثرة الازدحام، ولشدة الْتِفاف المدعوين الذين راحوا يحدِّقون عبر المناكب في وجه البطل وكأنهم يتفرجون على دابة غريبة مثيرة. وكان الكونت إيليا آندريئيفيتش أكثر المستقبلين ابتهاجًا، تشهد بذلك ضحكته العالية التي كانت تطغى على كل اللغط.

راح يشق الطريق مستعينًا بعبارة: «أفسح المكان يا عزيزي، أفسح.» حتى استطاع أخيرًا إدخال الضيف إلى البهو؛ حيث أجلسه بين بيكليشوف وأوفاروف على الأريكة القائمة في الوسط. ومن جديدٍ حاصَرَ أعضاءُ النادي المتوافدون ضيوفَهم المرموقين، وعاد إيليا آندريئيفيتش يشق طريقه وسط الحشد خارجًا من البهو ليرجع بعد قليل في صحبة أحد

أعضاء مجلس الإدارة، حاملًا طبقًا فضيًّا وُضِع عليه مقطوعة شعرية نُظِمت وطُبِعت على شرف الضيف الشهير. قُدِّم الطبق إلى باجراسيون الذي راح يجيل حوله نظرات مرتبكة وكأنه ينشد العون والحماية، غير أن كل العيون التي لاقت عيونه كانت تدعوه إلى التجلُّد والاستسلام.

ولما شعر أنه بات تحت رحمتهم، أخذ الطبق بكلتا يديه بحركة عنيفة أشفعها بنظرةٍ غضبى وجَّهها للكونت الذي كان يحتفي به. وتلطَّفَ أحدهم فأخذ من يديه ذلك «الشيء المزعج المُربك» الذي بدا عليه أنه عازف عن التخلُّص منه، حتى ولو اضطرَّ إلى الإبقاء عليه معه على مائدة الطعام، ولفت انتباهه إلى المقطوعة الشعرية، فبدا على باجراسيون كأنه يقول: «حسنًا! سأقرؤها.» وحدق في الورقة بعينيه المكدودتين، محاولًا الاطِّلاع على ما جاء فيها، وقد اكتسَتْ قَسَمات وجهه طابعًا من الجد والتركيز، غير أن ناظم القصيدة أخذ ورقة من يديه وراح يتلوها بصوت مرتفع، بينما كان باجراسيون يصغي إلى تلاوته مطرق الرأس:

ليخلد إلى الأبد مجد عصر ألكسندر،
الحارس اليقظ لتيتوس[٣] على العرش؛
رئيس رهيب ورجل إحسان كبير معًا،
يشبه ريفي[٤] في وطنه، قيصر في الحروب.
الواقع أن الفضل لك في أن بابوليون السعيد
لن يتحدى بعد اليوم «الآسدة»[٥] الشمال …

---

[٣] تيتوس: هو ابن الإمبراطور الروماني فيبازيان، الملقَّب بـ «نقم الجنس البشري»، كان أكثر الملوك سعيًا وراء تخفيف آلام شعبه بإخلاص، وكان ذلك الإمبراطور الفيلسوف يهتف قائلًا: «لقد أضعتُ يومي.» إذا مضى عليه يوم دون أن يعمل فيه عملًا طيبًا نافعًا مفيدًا. لقد استولى في عهد أبيه على مدينة القدس وهدمها. أما في عهده فقد ثار بركان فيزوف وردم بومبي وهيركولانوم. (المترجم)

[٤] ريفي: صديق للأمير إيني، ابن فينوس وآنشير. لقد استعار الشاعر هذا الاسم من قريض للشاعر اللاتيني فيرجيل، الذي وضع ملحمته المشهورة «إينيئيد» مقلدًا بها الإلياذة والأوديسة. وقد أراد ناظم قصيدة الترحيب بالأمير باجراسيون النَّسْجَ على منوال الشِّعر العربي المداح، مُنوِّهًا بأنه حمامة في السلام، وأسد في الحرب. (المترجم)

[٥] جاء في النص كلمة بصيغة الجمع استعارة؛ ذلك أن «السيد» هو حفيد «آلسة» المُلقَّب بهرقل. وقد أراد الشاعر التشبُّه بذلك البطل اليوناني الخرافي بإظهار كل جندي روسي «آلسيدًا». (المترجم)

لم يفرغ من قراءة القصيدة بعدُ حينما ارتفع صوت رئيس الخدم مرعدًا يقول: «إن طعام سُمُوِّه جاهز.»

وفتح باب قاعة الطعام على أنغام البولونيز:

تجاوبي يا صواعق النصر،
يا أيها الروس البواسل، استسلموا للمرح.[٦]

وحدج الكونت إيليا آندريئيفيتش ناظمَ الشعر التاعس وقارئه، الذي ظل مستمرًّا في تلاوته، وانحنى أمام باجراسيون. قدَّر المجتمعون جميعًا أن الطعام أفضل من القصيدة، فنهضوا متجهين إلى غرفة الطعام وباجراسيون في المقدمة. أُجلِس الجنرال في مقعد الشرف بين إسكندرَيْن: إسكندر بيكليشوف وإسكندر ناريشكين، وهو تيمُّن وتلميح ضمني لاسم الإمبراطور. وجلس المدعوون الثلاثمائة حسب ترتيب درجاتهم الاجتماعية. ومن البديهي أن أرفعهم مكانةً كان أقربهم إلى مجلس المُحتفَى به. مع ذلك، أَلَا يكون الماء أكثر عمقًا في الأماكن الأكثر انخفاضًا؟

وقبل البدء في الطعام، قدَّم إيليا آندريئيفيتش ابنه إلى باجراسيون الذي عرفه ووجَّه إليه بضع كلمات فارغة مرتبكة ككلِّ ما تفوَّهَ به ذلك اليوم. مع ذلك، فقد راح الكونت يُجِيل بين المشاهدين لهذا الحديث نظراتٍ تشعُّ منها الكبرياء، ويلمح فيها السرور.

جلس نيكولا روستوف ودينيسوف وصديقهما الجديد دولوخوف بالقرب وسط المائدة، وقبالتهم الأمير نيسفيتسكي وبيير، وكان الكونت إيليا آندريئيفيتش — وقد احتل مع أعضاء مجلس الإدارة الجانبَ المقابل لباجراسيون — يقوم بدور المضيف خير قيام، حتى ليمكن اعتباره تجسُّدًا بليغًا للضيافة الموسكوفية الشهيرة.

وعلى الرغم من أن جهوده المبذولة لم تذهب هباء، وأن أصناف الأطعمة كانت على أحسن ما يمكن من الترف المفرط والعظمة، فإن الكونت العجوز ظل قلِقًا حتى نهاية الطعام. كان يغمز بعينَيْه إلى الخازن آمِرًا، ويهمس بتعليماته في آذان الخدم المشرفين على المائدة، ويترقب بانفعالٍ متجدد ظهورَ كل لون جديد من الألوان التي انفرد باقتراحِ طهْيِها وتقديمها، فكان كل شيء فوق النقد. وأطار الخدم صمامات زجاجات الشمبانيا،

[٦] البولونيز: نشيد وضعه ديرجافين يخلد احتلال الروس «إسماعيل» وشيعه لحن وضعه جوزيف كوزلوفسكي، وظل يُعزَف بدلًا من النشيد الوطني الروسي زمنًا طويلًا.

وطافوا بها يملئون الأقداح حالما دخل الطهاة باللون الثاني من الطعام — وكان سمكة هائلة — الذي جعل وجه إيليا آندريئيفيتش يتضرج بالحمرة من السرور والارتباك.

وقد أحدث هذا اللون بعضَ الأثر في نفوس المدعوين، فلما فرغوا منه تبادل الكونت نظرةً مع زملائه أعضاء مجلس الإدارة، وقال لهم بصوت خافت: «ستُشرَب أنخاب كثيرة؛ لذلك يستحسن أن نبدأ بها.» ونهض واقفًا وكأسُه في يده، فصمت الجميع وأصغوا إلى ما سيقول.

هتف الكونت وقد اخضلَّت عيناه بدموع الحماس: «نخب صحة جلالة الإمبراطور.»

وبذات الوقت صدحت الموسيقى من جديد بـ «تجاوبي يا صواعق النصر»، ونهض الآكلون جميعهم هاتفين: «هورا.» وعلا صوت باجراسيون مدَوِّيًا متجاوبًا كما كان في ساحة معركة شوينجرابن، وميَّزت الأسماعُ صوتَ روستوف الشاب الذي كان يجد صعوبةً في حبس دموعه وهو يزمجر صائحًا: «نخب صحة الإمبراطور، هورا.» أفرغ كأسه دفعة واحدة وألقى بها على الأرض فتحطَّمت، وحذا الآخرون حذوه، وعادت الهتافات تتجدد مدوية، ولما ران السكون جمع الخدم الأقداح المُحطَّمة، وعاد المدعوون إلى مقاعدهم يتحادثون والابتسامات التي خلفها حماسهم على شفاههم ترافق حركاتها في مراحل الحديث. ولم يلبث الكونت أن نهض مرةً ثانية فألقى نظرةً على مذكرة صغيرة موضوعة بجانب صحفته، وهتف: «نخب بطل حملتنا الأخيرة بيوتر إيفانوفيتش باجراسيون.» بينما تبلَّلت أهدابه بالدموع من جديد، وصرخت ثلاثمائة حنجرة بصوت واحد: «هورا.» ولكن بدلًا من عزف الموسيقى ارتفع صوت المغنِّين بنشيدٍ وضعه بافل إيفانوفيتش كوتوزوف:[٧]

ماذا تفعل العقبات ضد الروس؟
إن بسالتهم هي عربون النصر.
ليكن لدينا فقط العديد من أمثال باجراسيون،
وسنرى الأعداد عند أقداحنا …

ولم يكد المغنون ينتهون من هذا النشيد حتى اقتُرِحت أنخاب وأنخاب، كان انفعال إيليا آندريئيفيتش يزداد بتعدُّدها، وحُطِّمت كئوس كثيرة، وبُحَّت حناجر كثيرة. شرب

[٧] تجدر الملاحظة هنا أن واضع النشيد بافل إيفانوفيتش كوتوزوف ليس الجنرال الروسي المعروف وغريم نابليون ميشل أو ميخائيل كوتوزوف الذي أتينا على ذكره في الجزء الأول من هذا الكتاب. (المترجم)

الآكلون نخبَ بيكليشوف وناريشكين وأوفاروف ودولجوروكوف وآبراكسين وفالوييف، ونخب أعضاء مجلس إدارة النادي ومدعويهم، وأخيرًا نخب مُنظِّم الحفلة الكونت إيليا آندريئيفيتش. وكان الكونت في أوج انفعاله، حتى إنه لم يستطع حبس دموعه عند النخب الأخير، فراح يكفكفها ويحجبها بمنديله.

الفصل الرابع

تَحَدٍّ

كان بيير الجالس قبالة دولوخوف ونيكولا روستوف يلتهم طعامه بشهية على جري عادته، ويُفرغ القدح تلو القدح، لكن أولئك الذين يعرفونه حق المعرفة كانوا يلمسون فيه تبدلًا كليًّا. لبث صامتًا طيلة فترة الطعام مقطب الحاجبين، يجيل حوله نظراته القاصرة، أو على الأصح نظرات جامدة ساهمة، ويعرك جوانب أنفه بأصبعه، وكان وجهه عابسًا مكفهرًّا. لقد كان غارقًا في فكرة مسيطرة، مشغولًا في شكوكٍ أليمة مُقلِقة، حتى إنه ما كان يصغي إلى مَن حوله ولا يرى وجوهَ المحيطين به.

أيقظ تلميحٌ ماكر، تقدَّمت به إحدى الأميرات، الشكوكَ المريعة في نفسه منذ وصوله إلى موسكو. ولقد تلقَّى رسالة مُغْفلة صباح ذلك اليوم تدعم تلك الشكوك التي تبهظ فؤاده، وتنهش صدره. أخبره كاتب تلك الرسالة بأسلوب مُتهكِّم — جريًا على العادة — بأنه لا يرى بوضوحٍ بسبب استغنائه عن نظارتيه، وأن علاقةَ زوجته بدولوخوف ليست إلا سرًّا عند المغفلين. وعلى الرغم من أن بيير كان يحاول الاستخفاف بكل تلك التعليمات المهينة، إلا أنه لم يكن يستطيع تفادي الانزعاج البليغ الذي يشعر به كلما وقع بصره على دولوخوف الجالس قبالته. كان كلما وقعت أبصاره على عينَي ذلك الضابط الوقحتين الجميلتين؛ يشعر في أعماقه بأن عاصفة صاخبة تهب فيها، فيشيح بطرفه مسرعًا.

كان ماضي هيلين كله، وطرق تصرُّفها مع دولوخوف كلها، تحُضَّان بيير على التفكير في أن الروايات المتشابهة يمكن أن تكون حقيقة، أو على الأقل يمكن أن تكون كذلك لو لم تكن متعلقة بزوجته «هو». تذكَّرَ عودةَ دولوخوف إلى بيترسبورج بعد أن أُعِيدت له كل اعتباراته بعد الحملة، ولجوءَه إليه دون غيره مذكِّرًا إياه بأعمالهما الماضية ومجونهما،

سائلًا منه قبوله ضيفًا عنده؛ الأمر الذي لم يتردَّد بيير في تحقيقه بسخاء وكرم، بل إنه تساهَلَ معه حتى إنه أقرضه بعض المال لنفقاته الخاصة، واستعاد صوت هيلين عندما كانت تحدِّثه وهي باسمة، مُستنكِرة تصرُّفه وإدخاله مثل ذلك الضيف المزعج إلى بيتهم، وصوت دولوخوف يهنِّئه بلهجةٍ هازئة بجمال زوجته. تذكَّرَ أنه منذ ذلك الحين وحتى وصولهم إلى موسكو لم يرهما يفترقان لحظةً واحدة.

فكَّر بيير في سره: «لا شك أنه شاب جميل جدًّا، ثم إنني أعرفه. لقد قمت بتدابير في صالحه فآويته وساعدته، وقدَّمت له كلَّ ما من شأنه أن يجعله يجد متعةً في تلويث اسمي. لا شك أن خيانته كانت أشدَّ أثرًا، لو أن المسألة كانت صحيحة. ولكن لا، إنها ليست صحيحة. إنني لا أصدِّق ذلك، وليس لي الحق في تصديقه.» وفي تلك الأثناء كان يرى الطابع الوحشي على قَسَمات وجه دولوخوف كلما سقط فريسةً لنوبةٍ قسوة. ذلك اليوم مثلًا، يوم أن أوثق الشرطي على ظهر الدب قبل أن يلقي بهما إلى الماء، وذاك اليوم أيضًا عندما أثار رجلًا وبارزه دون أي سبب، وتلك المرة عندما رآه يقتل حصانَ أحدِ السُّعاة بطلقة من غدَّارته.

وفجأةً تذكَّر بيير أن دولوخوف نظر إليه أكثر من مرة؛ تلك النظرة المفعمة بالوحشية والقسوة. قال يحدِّث نفسه: «نعم، إنه وَلُوع بالقتل، إن قتلَ رجلٍ لا يُشكِّل عنده ظلًّا من الأسف. لا بد أنه يتخيل أن كل الناس يخافون منه، فيتذوَّق هذه المتعة بسرور ماكر. ولا شكَّ أنه يظن أنني كذلك أخاف منه. إنه غير مخطئ في ظنه هذا على كل حال.» ومن جديدٍ عصفت في نفسه إعصاراتٌ عنيفة مدمرة.

وكان دولوخوف الجالس قبالته، وبجانبيه دينيسوف وروستوف، يبدو في تلك اللحظة غارقًا في التسلِّي مع صديقَيْه. كان روستوف يتحدث بوداعة مع صديقيه وهو فخور بأن يكون أحدهما فارسًا شجاعًا غيورًا، والآخر مقاتلًا بنفسية مستهترة. ومن حينٍ إلى آخر كان يُلقِي على بيير نظرةً خالية من الظرف، متأملًا هيكله الضخم ووجهه المكتئب اللذين يلفتان إليهما الأبصار. وليس عسيرًا على المرء تفسير سبب عداء هذا الفارس الشاب، فقد كان بيير في نظر هذا العسكري «مدنيًّا» واسع الغنى، وزوج سيدة شديدة الجمال؛ وبالإيجاز، رجلًا ضعيف الإرادة. ومن جهة أخرى، فإن بيير بدا كأنه لا يعرف نيكولا روستوف، حتى إنه لم يردَّ على تحيته.

ولما أزفت ساعة شرب الأنخاب، وطلب الكونت العجوز أن يشرب المدعوون نخب الإمبراطور، ظل بيير مستغرقًا في بحرانه، فلم ينهض ولم يأخذ كأسه بيده.

صعقه روستوف بنظرة ثقيلة غاضبة ملتهبة وصاح به: «ماذا تعمل؟ أَلَا تسمع أنهم يشربون نخبَ صحة جلالته؟»

فزفر بيير ونهض بخشوع وأفرغ كأسه، وبينما كان ينتظر أن يروق للآخرين الجلوس فيجلس معهم، ألقى على روستوف نظرةً أشفَعَها بابتسامته الطيِّبة المعروفة، وقال له: «وأنا الذي لم أعرفك!»

لكن روستوف كان مندفعًا في هتافاته فلم ينتبه إلى قوله.

سأله دينيسوف: «لمَ لا تجدِّد معرفتك به؟»

– «إنني لا أحفل أبدًا بهذا الغبي.»

فقال دينيسوف معترضًا: «ولكن يجب أن يجامل المرء دائمًا أزواجَ النساء الجميلات!»

لم يسمع بيير حديثهما، لكنه خمَّن أنهما يتحدثان عنه، فاحمرَّ وجهه وأدار رأسه.

قال دولوخوف مقترحًا: «والآن، لنشرب نخب النساء الجميلات.»

ونهض واقفًا وخاطب بيير بلهجة جدية وقورة وعلى زاوية فمه ابتسامةٌ صغيرة: «بيتروشاه نخب النساء الجميلات وعشَّاقهن.»

أفرغ بيير كأسه وهو خافض أبصاره دون أن يجيب بكلمة على دولوخوف، أو أن يوجِّه إليه نظرة.

وجاء خادم يوزِّع على المدعوين المرموقين نسخًا مطبوعة من قصيدة الاحتفاء بضيف الشرف ونشيد كوتوزوف، فوضع واحدة أمام بيير، فلما همَّ هذا بأخذها انحنى دولوخوف فوق المائدة وانتزعها من يديه وراح يقرؤها، وعندئذٍ نظر إليه بيير؛ انخفضت حدقتاه وانفجرت العاصفة الهوجاء التي كبَتَها طيلة فترة الطعام، فانحنى بكل جسمه الثقيل على المائدة بدوره وصرخ: «دَعْ هذا.»

ذُعر نيسفيتسكي لهذه البادرة، وعرف الشخص الذي استهدف لها، فحاول التدخل يدعمه زميل دولوخوف الذي إلى يمينه، قالا له معًا: «اهدأ، ماذا دهاك؟»

أما دولوخوف فقد حدج بيير بنظرته الصريحة البهيجة القاسية معًا، وابتسم ابتسامة مَن يقول: «آه! آه! هذا ما يروق لي.» وأجابه بصوت جازم: «كلا، لن أتركها.»

امتقع وجه بيير من الغضب، وارتعدت شفتاه، فانتزع الورقة من يده، وقال هائجًا: «إنك ... مخلوق ... حقير!»

ودفع مقعده وغادر المائدة.

وفي اللحظة التي نطق فيها بيير بتلك الكلمات وقام بتلك الحركة، شعر أن مسألة إدانة زوجته — تلك المسألة التي كانت تعرض له بأسًى بليغ منذ أربع وعشرين ساعة —

قد فصل فيها الآن دون تأخير، ومالت إلى الجانب الإيجابي، فنبت في صدره حقد على زوجته، وأحسَّ بأنه انفصل عنها إلى الأبد.

وافق روستوف على أن يكون شاهدًا لدولوخوف رغم تقريع دينيسوف وممانعته، فلما انفضَّ المدعوون عن المائدة سوَّى مع نيسفيتسكي، الذي كلَّفه بيزوخوف ببحث هذه المسألة، شروطَ اللقاء. أما بيير فقد عاد إلى منزله، بينما استمر روستوف ودينيسوف في صحبة دولوخوف يتسامرون في النادي حتى ساعة متأخرة، ويصغون إلى غناء البوهيميين والمغنين العسكريين. ولما افترق الأصدقاء عند مدخل النادي قال دولوخوف: إلى الغد إذن في حديقة الفوكونييه (مدرِّبي البزاة).

سأله روستوف: «وهل أنت هادئ النفس؟»

توقف دولوخوف وقال: «اسمع يا صديقي، سأكشف لك بكلمتين عن كل سر المبارَزة. إنك إذا رحت في المساء الأسبق ليوم اللقاء تكتب وصيتك ورسائل عاطفية إلى أقاربك، وإذا فكَّرت في إمكانية إصابتك وموتك، فإنك لست إلا أحمقَ تسعى إلى حتفك. أما إذا ذهبت للقاء خصمك وأنت على يقينٍ ثابت بأنك ستقتله في أسرع وقت، أو بأسرع ما يمكن، فإن كل شيء سيكون على العكس، على خير ما يرام، كما يقول صيَّاد الدببة في كوستروما؛ لقد قال لي مرارًا: «إذا ذهبت لصيد الدبِّ شعرت بالخوف، لكن ما إن يظهر الوحش حتى يتبدَّد الخوف ويحل محله شعورٌ بالابتهال كي يبقى الوحش في سيره عليك.» وهذا ما أعمله بكل دقة. فإلى الغد إذن يا عزيزي.»

وفي صباح اليوم التالي، وصل بيير ونيسفيتسكي إلى حديقة مدرِّبي البزاة؛ حيث كان دولوخوف بانتظارهما وبرفقته دينيسوف وروستوف. كان بيير فريسةَ انهماك واستغراق غريبين عن المسألة التي كان بصددها. كان يُرى على سحنته الصفراء المستطيلة، وفي نظرته الشاردة، وفي عينيه الزائغتين المغمضتين وكأن انعكاس ضوء باهر يعميهما. إنه لم ينم ليلته تلك؛ كان أمران فقط يشغلانه: إدانة زوجته التي تأكَّد منها خلال ساعاتِ أرَقِه الطويل، وبراءة دولوخوف الذي لم يكن لديه أيُّ سبب للتجاوز عن ثلمِ شرفِ رجلٍ لا يشغل في نفسه أي اعتبار. كان يقول في سره: «لو أنني كنت مكانه، أَمَا كنتُ أنهج نهجه؟ بلى — ولا شك — إنني كنت سأعمل مثله. إذن لِمَ هذه المبارزة، هذا القتل؟ إمَّا أن أقتله، أو أنه هو الذي سيصيبني في رأسي أو مرفقي أو ركبتي. ماذا لو فررت؟ ماذا لو اختبأت في مكانٍ ما.» لكنه في حين كان يغذي مثل هذه المناقشات والأفكار في سرِّه، كان يسأل قائلًا بلهجة باردة برودًا ملحوظًا وبطلاقةٍ استغرَبَ لها مَن حوله: «هل نحن على استعداد؟» أو «هل نتأخر بعد؟»

وفي تلك الأثناء، كان الشهود يحشون الغدَّارات، ويفرسون السيوف في أماكن معينة على الثلج، إشارةً إلى الحد الذي لا يجب تخطِّيه. ولما انتهت هذه الاستعدادات اقترب نيسفيتسكي من بيير وقال له بصوت متهدج: «أظن أنني يا كونت أخون واجبي ولا أستحق الشرف الذي منحتَنيه بانتقائي شاهدًا لك، إذا لم أُبادر في هذه اللحظة الخطيرة الشديدة الخطورة إلى إطْلَاعك على الحقيقة كلها. إنني لا أرى أسبابًا وجيهة تدعو إلى هذه المبارَزة؛ لأن المسألة لا تستحق أن يُراق من أجلها الدم. إنك مخطئ أو — على الأقل — إنك لست على كثير من الصواب. لقد ثُرتَ وانفعلت …»

فقال بيير مؤيدًا: «نعم، إن كل هذا غاية في السخف.»

فأردف نيسفيتسكي قائلًا: «في هذه الحالة، اسمح لي بنقل اعتذاراتك. إنني متأكد من أن خصومنا سيقبلونها. إنك لا تجهل، يا كونت، أنه من النُّبل بمكانٍ الاعترافُ بالأخطاء بدلًا من الوصول إلى ما لا يمكن تلافيه. لم تقع بينكما إهانة خطيرة، ولم تتبادلا ما يستحق هذه النتيجة؛ فاسمح لي إذن بالتفاوض.»

كان نيسفيتسكي يقوم بواجبه أُسوةً بكل إنسان آخَر يجدُ نفسه منغمسًا في مثل هذه الأمور، ولم يكن يعتقد — ككلِّ مَن وقفوا مثل موقفه — أن المسألة ستستمر حتى تبلغ نهايتها المحتومة؛ لذلك فقد أدهشه أنْ قاطعَه بيير بتصميم وحزم قائلًا: «كلا، ما فائدة ذلك؟ ماذا يهم ذلك الآن؟ هيا، هل نحن على استعداد؟ فقط قل لي: إلى أي حدٍّ ينبغي أن أتقدم، وفي أي اتجاه ينبغي أن أُطلِق غدَّارتي؟»

أضاف هذه الجملة وهو يبتسم ابتسامةً مُغتَصَبة، وأخذ الغدَّارة وسأل كيف يضغط زنادها دون أن يعترف رغم ذلك بأنه لم يمسَّ سلاحًا طيلة عمره. قال عندما شُرِح له ما غمض عليه: «آه، نعم! لقد فهمت، كنتُ ناسيًا.»

وكان دولوخوف من جانبه يقول لدينيسوف — الذي كان يحاول إعادته إلى الصواب فيقرُّ بخطئه ويطلب الصَّفح عنه: «كلا، إنني أرفض بشدة، لن أقدِّم اعتذارات.»

ومضى بدوره إلى مكانه المعين.

كان المكان الذي وقع الاختيار عليه للمبارزة واقعًا على بُعْد ثمانين خطوة عن الطريق؛ حيث ترك الطرفان الزحافات في بقعة مكشوفة من غابة الصنوبر، وكان موسم ذوبان الثلج قد أقبل مبكرًا منذ أيام. وقف الغريمان على جانبَي البقعة المكشوفة تفصل بينهما مسافةُ أربعين خطوة، وكان الشهود قد خلفوا آثار أقدامهم على الثلج الرخو عندما راحوا يقيسون المسافةَ قبل الشروع بالمبارزة، وكانت تلك الآثار تتوقَّف عند سيفَيْ نيسفيتسكي

ودينيسوف اللذين كانا مغروسين على بُعد عشر خطوات لتحديد سعة الساحة، وكان الضباب وبخار الثلج الذائب من الكثافة حتى إن الرؤية كانت مستحيلةً على بُعْد أربعين خطوة، وكان كل شيء معدًّا منذ ثلاث دقائق دون أن يفكِّر أحد في الشروع بالعمل أو التلفُّظ بكلمة.

الفصل الخامس

المبارَزة

قال دينيسوف: «حسنًا، هيا.»

فقال بيير وهو دائم الابتسام: «هيا بنا.»

كان واضحًا أنه بات متعذرًا إيقافُ هذه المسألة التي قُوبِلت وأُجرِيت بشيءٍ من الاستخفاف وعدم التروِّي. لقد أصبحت القضية مروِّعةً مخيفة، كانت قوةٌ فوق طاقة البشر تريد أن يتم هذا الأمر دون تأخير ولا تبديل.

تقدَّمَ دينيسوف من الحد المقرَّر وهتف: «لما كان الخصمان قد رفضا التصالح؛ فإنني أدعوهما إلى التسلُّح بالغدَّارات والسير عندما أصل إلى رقم «ثلاثة».»

ثم أردف بصوت غاضب منفعل: «واحد، اثنان، ثلاثة.» وابْتَعَد.

راح الخصمان اللذان يحق لكلٍّ منهما أن يطلق النار قبل بلوغ الحد الفاصل، يمشيان الواحد باتجاه الآخر، سالكَيْن الطريق الحديث الذي شقَّته في الثلوج أقدامُ الشهود عند قيامهم بالترتيبات الأولية. أخذا يريان بعضهما بعضًا بشكل أوضح كلما اقتربا في ذلك الضباب، كان دولوخوف يقترب بخطوات بطيئة، خافضًا غدَّارته، شاخصًا إلى بيير بعينيه الزرقاوين الصافيتين الملتمعتين، وكانت ابتسامةٌ غامضة تشرق على وجهه كعادته.

قال بيير: «وهكذا فإنني أستطيع إطلاق النار متى أشاء، أليس كذلك؟»

عندما هتف الحكم «ثلاثة» اندفع بيير إلى الأمام في مشية سريعة كانت تحرفه عن السبيل الممهَّد، فتغرز أقدامه في الثلوج. لا ريب أنه كان يخشى أن يصيب نفسه بجرح من غدَّارته الشخصية؛ لذلك فقد كان ممسكًا بها على امتداد ذراعه الأيسر، جاهدًا في إبقاء يُسراه إلى الوراء؛ لأنه كان ينوي استعمالها في تثبيت يمناه، غير جاهلٍ عدم جواز ذلك. ولما خَطَا بضع خطوات تائهة وسط الثلوج نظر إلى قدمَيْه وألقى نظرة سريعة على دولوخوف وضغط الزناد كما أوضحوا له. قفز مروعًا من دوي الانفجار الذي لم يكن

يتوقَّع شدته، لكنه ما عتَّم أن ابتسم لسذاجته وتوقَّف في مكانه. وكان الضباب والدخان يحجبان خصمه عن عينيه تحت ستار كثيف، وبدلًا من أن تدوي الطلقة الثانية — كما كان ينتظر — شعر بوقع خطوات سريعة متلاحقة. وأخيرًا شاهد شبح دولوخوف يبرز من الضباب ووجهه ممتقع، وإحدى يديه تضغط على جنبه الأيسر، بينما كانت الأخرى مُطبِقة بشدة على الغدَّارة المُخفضة. هرع روستوف إليه وقال له بضع كلمات، أجاب هذا عليها خلال أسنانه المطبقة: «كلا، كلا، لم ينتهِ بعدُ.»

خطا بضع خطوات أخرى وهو يترنَّح ثم هوى على الثلج بجانب السيف، وبعد أن مسح يده اليسرى الملطَّخة بالدم بسترته، استند عليها بجسمه. كان وجهه الشاحب المكفهر يرتعد.

غمغم بصعوبة وهو يقوم بمجهود خارق: «اسـ... اسـ... اسمحوا ...»

راح بيير الذي كان على وشك الإجهاش بالبكاء يعدو نحوه دون أن يتبادر إلى ذهنه الخروج من الساحة، فهتف دولوخوف قائلًا: «إلى الحد!» فهم بيير ما يعنيه فتوقَّف قربَ حسامه. لم يكن يفصله عن دولوخوف إلا عشر خطوات. غمر دولوخوف رأسه في الثلج وملأ فمَه منه بنهم ثم انتصب وهو يحافظ بصعوبةٍ على توازنه حتى استطاع الجلوس. كان يمتصُّ الثلج الذي ملأ به فمه، وكانت شفتاه ترتعدان، لكن عينَيْه كانتا أبدًا تبسمان ويلتمع فيهما بريقُ حقدٍ عميق ضاعَفَه ذلك المجهود الخارق الذي كان يبذله. وأخيرًا رفع غدَّارته وراح يسدِّد إلى الهدف.

قال نيسفيتسكي يوصي بيير: قف وقفةً جانبية واحجب نفسك بالغدَّارة.

ولم يستطع دينيسوف بدوره إلا أن يهتف به رغم أنه شاهد الخصم: «رباه! احجب نفسك.»

لكن بيير ظل واقفًا مباعدًا بين ساقيه وذراعيه دون دفاع، يعرض صدره العريض لدولوخوف وهو ينظر إليه بابتسامة شاحبة تحمل طابع الإشفاق والندم. أغمض دينيسوف وروستوف ونيسفيتسكي عيونهم، سمعوا صوتَ انطلاق الغدَّارة وصيحةَ يأسٍ وغضبٍ ترافقها.

زمجر دولوخوف: «أخطأت الهدف!»

وخارت قواه فهوى على الأرض ووجهه على الثلج.

أطبق بيير على رأسه بيديه ونكص على أعقابه وراح يلتجئ إلى الغابة.

كان يسير بخطوات واسعة على الثلج الذائب يصرخ بصوت مبحوح كلمات متتابعة: «شنيع! شنيع! الموت ... تُرَّهاتٌ كلُّ هذه!»

فلحق به نيسفيتسكي وأعاده إلى منزله.

وحمل روستوف ودينيسوف الجريح.

كان دولوخوف ممددًا في قاع الزحافة مغمض العينين، لا يجيب على الأسئلة التي كانت تُطرح عليه.

وبينما هم داخلون إلى موسكو عاد إلى صوابه وأمسك بيد روستوف الجالس بجانبه. كان وجهه مضيئًا بقبسٍ مشعٍّ من حنانٍ ووَجْد، وكأنه تحوَّل إلى مخلوق آخر. سأله روستوف وهو لا يصدِّق عينيه: «حسنًا، كيف حالك؟»

– «سيئة.»

وبادر بصوت متقطِّع يقول: «ولكن ليس من الجرح يا صديقي. أين نحن؟ في موسكو، أليس كذلك؟ إنني لا أبالي بما قد يصيبني، ولكن هي … لقد قتلتها، لقد قتلتها. إنها لن تحتمل هذا، كلا، أبدًا.»

فقال روستوف مستفسرًا: «مَن هي؟»

فأجابه دولوخوف وقد استحال إلى دموع هاطلة: «أمي، أمي، ملكي، ملكي المعبود …» وضغط على يد روستوف بأصابعه المتشنجة.

ولما هدأت ثائرته، أوضح لروستوف أنه يعيش مع أمه، وأنها إذا شاهَدَتْه على تلك الحال فإنها لن تحتمل ذلك المشهد، وراح يتوسَّل إلى نيكولا أن يمضي إليها قبل وصوله، وأن يمهِّد السبيلَ لتخفَّ الصدمة على أعصابها.

قبل روستوف القيام بتلك المهمة التي أطلعته — ولدهشته البالغة — على أن ذلك الحقير التافه، ذلك المبارِز الولوع بالقتل، يعيش في موسكو مع أمه العجوز وأخته الحدباء، وأنه كان أكثر الأبناء برًّا، والإخوة محبة.

الفصل السادس

ثورة بيير

لم يحدث أن وجد بيير نفسه وحيدًا مع زوجته في الأيام الأخيرة؛ فالبيت في موسكو كان أبدًا عامرًا بالناس كما كانت عليه الحال في بيترسبورج. وفي الليلة التالية ليوم المبارزة، لبث بيير — كما كان يحدث له مرارًا — في الغرفة الفسيحة الرحبة التي كان يشغلها أبوه من قبل؛ تلك الغرفة التي مات فيها الكونت. لم يشعر برغبة في الذهاب إلى غرفة نومه.

استلقى على أريكة آمِلًا أن يجد في النوم سلوانًا لما وقع ومضى، لكنه أخفق في بُغيته؛ كانت عاصفة عنيفة من الأفكار والعواطف والذكريات تصخب في نفسه، فما كان يطيق النوم ولا كان يستطيع الجلوس. قفز عن الأريكة وراح يذرع الغرفة الفسيحة بخطوات سريعة متلاحقة. استعاد في ذاكرته صورة هيلين في لحظات زواجهما الأولى وهي عارية الكتفين ذات نظرة زاوية ضعيفة، وانتصب إلى جانب تلك الصورة وجه دولوخوف الجميل المزَّاح الساخر، كما كان يوم الحفلة، ثم ذلك الوجه بالذات، الممتقع المتقلص المتألم، الذي شاهَدَه آخِرَ الأمر عندما كان صاحبه التعيس يهوي على الثلج.

أخذ يتساءل: «ماذا حدث بعدئذ؟ لقد قتلتُ العشيق. نعم، لقد قتلت عشيق زوجتي. ولماذا؟ وكيف توصَّلت إلى ذلك؟» ليجيبه صوت داخلي قائلًا: «لأنك تزوَّجتها.» «ولكن ما هو ذنبي؟» «ذنبك أنك تزوجتها دون حب، ولأنك خدعتها إذ خدعتَ نفسك.» وعادت إلى ذاكرته على الفور تلك الدقيقة الحاسمة التي نطق خلالها — وكان ذلك بعد العشاء الذي تناوله عند الأمير بازيل — بهذه الكلمات التي لم تكن تريد الخروج من فمه: ««أحبك.»» نعم، إن كل شيء كامنٌ في هذه الكلمة. كنت أشعر تمامًا بأن لا حق لي بنطقها، وأنني كنت أخطو خطوة عقيمة سقيمة، ولم يخدعني شعوري المسبق.»

احمرَّ وجهه فجأة حينما مثلت في خاطره ذكريات شهر العسل، وكان حادث واحد خلال ذلك الشهر السعيد يغمره بالخجل؛ ذلك أنه ذات صباح، حوالي الساعة الحادية عشرة، بينما كان خارجًا من غرفتهما في طريقه إلى مكتبه، التقى هناك بوكيله العام، فلما رأى هذا الرجل وجهَ بيير الطافح بالسعادة، ومعطفه المنزلي المصنوع من الحرير؛ حيَّاه تحيةً مفعمة بالاحترام، وسمح لنفسه بإظهار ابتسامة مبتسرة مُعبِّرًا بها عن مشاطرته سيده الشعور بسعادته.

«وأنا الذي كنت أجعل منها مدارًا لفخري! كنت أعتز بجمالها الصارخ، وبتأثيرها وعصمتها المنيعة، كنت أُعجَب بأسلوبها في استقبال الناس في بيترسبورج. لقد كان فيها ما يبعث على الفخار والتيه. كنت أظن أنني لا أفهمها، وكم من مرة لُمت نفسي — وأنا أدرس طبيعتها — على تجاهُل هدوئها الدائم، ومظهرها الرضي القانع، واختفاء كل آثار الرغبة والنزوة فيها! مع أن مفتاح السر كان في هذه الكلمة الرهيبة: «إنها فاجرة.» لقد أوضحت هذه الكلمة الرهيبة كل الأمر وأنارت السبيل.

كان آناتول يقترض منها المال ويُقبِّل كتفيها العاريين. إنها ما كانت تعطيه المال، ولكن كانت تتقبَّل منه القُبَل، وأبوها كان يُثير غيرتها مازحًا فتجيبه بابتسامتها الهادئة بأنها ليست حيوانًا لتتطرق الغيرة إلى نفسها. كانت تقول عني: «يمكنه أن يعمل ما يشاء.» ولما سألتُها ذات يوم عما إذا كانت لا تحس ببوادر الحمل، أجابتني بضحكة مزدرية أنها «لم تكن حمقاء حتى ترغب في الحمل، وأنها على كل حال لن تنسل مني ولدًا».»

ثم راح يكرر على نفسه انحطاط أفكارها الطبيعي، وفجاجة تعابيرها التي لا تتلاءم مع نشأتها الأرستقراطية الراقية؛ كانت تقول مثلًا: «أتعتبرني سخيفة؟ جرِّب لأرى … شوف شغلك.»[1] لقد كان يحار دائمًا، كلما رآها موضع ملق الجميع وتزلُّفهم، في فهم السبب الذي يجعله وحده لا يشعر بحبها.

«كلا ولا ريب، إنني لم أحببها قط. كنت أعرف أنها خالعة العِذار فاجرة، لكنني ما كنت أجرأ على التصريح بهذه الحقيقة. والآن، ها إن دولوخوف متهاويًا فوق الثلج يحاول جاهدًا أن يبتسم، ولعله سيموت، وأن يجيب على نزعة الندم في نفسي بالتظاهر بالشجاعة الخارقة.»

[1] استعملنا هذا التعبير العامي مُرغَمين لنفسِّر به التعبير الوارد في النص الذي ينطبق عليه تمامًا. (المترجم)

كان بيير من أولئك الناس الذين — رغم ما يُعزَى إليهم من ضَعْف في العزيمة — لا يَأْمنون جانبَ أحد، فلا يُفصِحون عن أحزانهم لأحد، ويبقونها تعتلج في أنفسهم للاجترار بها في خلواتهم.

استرسل في مناقشته: «إنها الجانية. نعم، إنها الجانية. ولكن ما العمل معها؟ لمَ ارتبطتُ بها؟ لماذا قلت لها تلك الجملة القاضية «أحبك»، رغم أنها لم تكن إلا كذبة، وأسوأ من كذبة أيضًا؟ إنني أنا الجاني إذن، وينبغي أن أحتمل ... ولكن ماذا أحتمل على التحديد؟ تلويث الشرف، الخصومة ... كلا، كلا، بل العار والدناءة. إن كل هذه تتصل بسببٍ بينها فتجعل شخصيتي في خبر كان.

لقد أعدموا «لويس السادس عشر» لأنهم اعتبروه مجرمًا عديم الشرف، وكانوا على حق من وجهة نظرهم، لكن أولئك الذين احتملوا الاستشهاد والتضحية من أجله، وكانوا يضعونه في مصافِّ القديسين، ألم يكن هؤلاء أيضًا على حق؟ طبعًا لقد كانوا مُحقِّين من وجهة نظرهم كذلك. ثم أعدموا بعد ذلك روبسبير؛[2] لأنه كان مستبدًّا طاغية. فمَن الذي كان على حق؟ ومَن الذي كان مخطئًا؟ لا أحد. اغتنم فرصة وجودك على قيد الحياة؛ لأنك ستموت غدًا، كما كدت أموت اليومَ منذ ساعة، فهل يستحق شيء في الوجود أن يتعذب المرء من أجله، خصوصًا وأن الوقت الذي سنعيشه لا يساوي ثانيةً في عمر الزمن؟»

لكنه في اللحظة التي كان يظن نفسه فيها أنه بلغ الهدوء المنشود بفضل تلك المحاكمة البليغة، عاد يعيش في ذاكرته تلك الدقائق من الاستسلام الكاذب التي «راحت» خلالها تُعرِب له عن غرامها الكاذب، وحينئذٍ شعر بالدم ينحبس في قلبه ويكاد يفجِّره، فنهض من جديد ليمشي ويحطِّم ويجزِّئ كل شيء يقع تحت يده. راح يتساءل: «لماذا قلت لها «أحبك» بحق الشيطان؟» وبينما كان يطرح على نفسه هذا السؤال للمرة العاشرة، تذكَّرَ كلمةَ موليير[3] الشهيرة: «لكن، يا للشيطان! ماذا كان يريد أن يعمل في ذلك الجحيم؛

[2] اسمه الكامل ماكسيميليان دورو بسير. وُلِد عام ١٧٥٨ في آراس، كان محاميًا ومُشرِّعًا، وغدا روحَ لجنة الخلاص الشعبي ومُلْهِمها، فسادَ فيها وتخلَّص من غرمائه هيبير ودانتون، وانقلب الشعب عليه في اليوم التاسع من شهر تيرميدور للعام الثاني من الثورة (٢٧ تموز ١٧٩٤)، وأُعدِم على المقصلة؛ حيث أَرسلَ إليها عددًا كبيرًا من الضحايا. (المترجم)

[3] اسمه جان باتيست بوكولان، أُطلق عليه اسم موليير. كان كاتبًا هزليًّا فرنسيًّا. وُلِد في باريس عام ١٦٢٢، وتوفي عام ١٦٧٣، وكان ممثلًا ومديرَ فِرَقٍ تمثيلية. له في مضمار الفن المسرحي الفرنسي باعٌ طويل، لا

تلك السفينة.» يريد القول بذلك: ما الذي دفعه إلى سلوك هذا السبيل الوعر؟ وراح يضحك من تعاسته الشخصية.

استقدم خادمه أثناء الليل وأمره بإعداد المتاع. لقد كانت فكرة التقائه بزوجته تبدو له مريعة، فقرَّر الرحيل منذ صباح اليوم التالي، على أن يفسِّر لها الأمر في رسالةٍ يتركها لها، ويُعلِمها فيها أنه يفترق عنها إلى الأبد.

وفي الصباح، لما جاءه الوصيف بقهوته كان بيير مستلقيًا على أريكة تركية؛ حيث نام ليلته وفي يده كتاب مفتوح. قفز من مرقده فزعًا، وراح يجيل حوله نظرةً متبلدة حتى أدرك أخيرًا أين كان، ولِمَ كان حيث كان.

قال الخادم: «إن سيدتي الكونتيس تسأل إذا كنتم سعادتكم على استعدادٍ لمقابلتها.»

لم يكن بيير قد حزم أمره على الجواب بعدُ حينما دخلت الكونتيس مرتديةً غلالة من الساتان الأبيض المُطعَّم بالفضة، ووجهها الفتَّان تُتوِّجُه ضفيرتان ثقيلتان على شكل إكليل، وقد ارتسمت فوق جبهتها المرمرية المائلة قليلًا ثنيةٌ أقامها الغضب ليُشوِّه ذلك الإشراق الرائع. دخلت متحلية بالحزم والجلال. لقد تناهى إليها خبرُ المبارزة فجاءت تسأله تفسيرًا وإيضاحًا. مع ذلك، فقد استطاعت بهدوئها المكين أن تسيطر على أعصابها حتى فرغ الوصيف من عمله وغادر الغرفة. واسترق بيير نظرةً خجلَى خلال نظارتيه، وبدا أشبه بالأرنب الذي داهمته كلاب الصيد وأحاطت به، عندما يرخي أذنَيْه وينطوي على نفسه أمام أعدائه الألداء. حاول التحصُّن وراء كتابه، والتلهِّي بالقراءة، لكنه شعر بعُقْم هذا التصرف، فراح يرقبها من جديدٍ بنظرة وَرِعة. أما هي فقد لبثت واقفة تتفحصه وعلى شفتيها ابتسامة هازئة. سألته بلهجة شديدة عندما خرج الوصيف من الغرفة: «ماذا هناك من جديد؟ لقد ارتكبتَ أمرًا جللًا! ما معنى ذلك؟»

سألها بيير: «أنا؟ ماذا عملت؟»

– «هه، ها أنت ذا قد أصبحت مغوارًا في الحروب! ما معنى هذه المبارزة؟ ماذا أردت أن تُثبت بها؟ أَجِبْني عندما أحدِّثك!»

يُجارَى في إبراز شخصياته، وانطباق موضوعاته على واقع الحياة، وقوة عباراته، وجمال أسلوبه. سبق كل المتقدمين والمتأخرين من الأدباء في إغداق تُحَف من الأدب الرفيع والأدب الشعبي على خزانة الأدب، حتى إن كثيرًا من تعابيره ذهبت مثلًا، ولقد قال عنه سانت بوف: «إن كل مَن يستطيع القراءة، يمكنه أن يكون قارئًا جديدًا لموليير.» (المترجم)

استدار بيير بتثاقل فوق الأريكة وفتح فمه لينطق بشيء، لكنه لم يُخرِج من حنجرته حرفًا واحدًا. أردفت هيلين تقول: «حسنًا، طالما أنك لن تجيب فإنني أنا التي سأتحدث. إنك تصدق كل ما يقولونه لك، ولقد قالوا لك إن دولوخوف … كان «عشيقي».»

نطقت بهذه الكلمة وأشفعتها بضحكة مدوية. كانت تتحدث بالفرنسية بتلك الرنة الوَقِحة المألوفة في أسلوبها، فأطلقت تلك الكلمة الفجَّة دون أي ارتباك أو خجل! أردفت: «ولقد صدَّقتَ أنت هذه الأقاويل، ولكن على أي شيء برهنتَ في هذه المبارزة؟ على أنك «أحمق» فحسب. ثم إن كل الناس كانوا يعرفون عنك ذلك! والآن تريد أن تجعل مني أضحوكةَ أهلِ موسكو؛ سيقولون كلهم إنك في ساعةِ ثملك أخفقت في السيطرة على أعصابك، فتحدَّيت رجلًا كنت تغار منه دون سبب وبارزْتَه …»

وأضافت وهي ترفع صوتها أكثر فأكثر: «نعم، رجلًا يستأهل كلَّ الالتفات والاحترام أكثر منك.»

زمجر بيير وهو يرفُّ بعينيه دون أن ينظر إليها أو أن يقوم بحركةٍ ما: «هم! هم!»

– «ما الذي جعلك تعتقد أنه عشيقي؟ لأنني أجد متعةً في رفقته؟ لو أنك كنت أكثر ذكاءً وتوددًا لفضَّلتُ عشرتك على عشرته ولا ريب.»

غمغم بيير بصوتٍ أجش: «دَعِيني هادئًا … أتوسَّل إليك.»

– «ولمَ إذن؟ إن من حقي أن أتكلم على ما أعرف! أقول لك بكل صراحة: مع زوج مثلك، أية امرأةٍ ما كانت لتجعل لنفسها عشاقًا؟! ومع ذلك فإنني لم أفعل ذلك.»

ود بيير أن يقول شيئًا، لكنه اكتفى بأن ألقى عليها نظرة لم تفهم شيئًا مما قصده بها. عاد يجلس على الأريكة وهو فريسةُ قلقٍ فظيع. كان مبهورَ الأنفاس يكاد صدره أن ينفجر. كان يعرف الوسيلة التي تضع حدًّا لعذابه وألمه، لكنه كان يتراجع أمام هذه النتيجة. وأخيرًا ألمح بصوت متقطع: «الأفضل لنا أن نفترق.»

– «نفترق؟ يا للسعادة! ولكن بشرط أن تعطيني ما أعيش به! أما ما تبقى فإنني أسخر به.»

قفز بيير عن الأريكة ومشى إليها بخطواتٍ متعثرة مترنحة.

زمجر كالحيوان الجريح: «سأقتلك!»

وأطبق بقوة لم يعهدها في نفسه على قطعة الرخام التي تغطي المائدة ورفعها مهددًا.

تقلَّص وجه هيلين من الرعب، فأطلقت صرخةً ثاقبة ورمَتْ بنفسها إلى الوراء. لقد نطق الدم الأبوي في عروق بيير. كان يشعر بلذةٍ غريبة مُسْكرة من غضبته. ألقى قطعة

الرخام فتحطَّمت، واندفع نحوها مطبقَ القبضتين، وزأر بصوت مريع اهتزَّ له القصر المنيف رعبًا: «اخرجي.»

ولو أن هيلين لم تفرَّ في تلك اللحظة لَوقعت أمور لا يعلم مداها إلا الله وحده.

وبعد ثمانية أيام، سافر بيير وحيدًا في طريق أملاكه في روسيا الكبرى، تلك الأملاك التي كانت تشكِّل أكثر من نصف ثروته.

الفصل السابع

فجيعة بولكونسكي العجوز

انقضى شهران على وصول أنباء معركة أوسترليتز إلى ليسيا جوري (الجبل الأقرع)؛ حيث يقيم الأمير العجوز بولكونسكي. كان ابنه آندريه لا زال في حكم المفقود رغم كل الرسائل التي وجَّهها أبوه إلى السفارة، والتحقيقات الكثيرة التي أُجرِيت، والتي لم تُسفِر عن إيجاد جثة الأمير آندريه، خصوصًا وأن اسمه لم يَرِد في قائمةٍ من قوائم الأسرى، ولم يكن هناك أي أمل في أن تكون جثته قد رُفِعت من قِبَل السكان بعد المعركة، بل إن هذه النظرية كانت أكثر النظريات إيلامًا لعائلة الفقيد؛ لأنه في هذه الحالة يكون وحيدًا في مكانٍ ما في طور النزع، أو في دور النقاهة دون أن يكون حوله نصيرٌ أو مغيث، ودون أن يستطيع وهو في غربته أن يبعث بأخباره. اطَّلع العجوز بادئ الأمر على أنباء الهزيمة عن طريق الصحف. كانت هذه كعادتها تعلن بعبارات مقتضبة غامضة أن الروسيين — بعد معارك عظيمة أظهروا فيها بسالة فائقة — اضطروا إلى التراجع، وأن الانسحاب جرى في جو منظَّم تنظيمًا تامًّا. فلما قرأ الأمير هذا البلاغَ أدرك أن الروسيين قد هُزِموا. ولم تمضِ ثمانية أيام حتى تلقَّى رسالةً من كوتوزوف يُطلِعه فيها على مصير ابنه، قال في رسالته: «لقد سقط ولدكم تحت أبصاري والعلَم في يده، بينما كان على رأس فيلق، سقوطَ الأبطال، فكان جديرًا بأبيه، جديرًا بوطنه. وإننا — لشديد أسفي وأسف الجيش كله — لا ندري إذا كان حيًّا أو ميتًا. مع ذلك، فإننا نستطيع أن نُرضي أنفسنا بالقول إنه نجا، وإلا فإن اسمه كان يجب أن يَرِد في قائمة أسماء الضباط القتلى التي اطَّلعت على نسخةٍ منها بنفسي، بعد أن حصلنا على هذه القائمة عن طريق المفاوَضات مع العدو.»

أُبلِغت هذه الرسالة للأمير العجوز في ساعة متأخرة من الليل، عندما كان وحيدًا في مكتبه. وفي اليوم التالي، باشر بنزهته الصباحية المعتادة وكأنَّ أمرًا لم يحدث، لكنه بدا

شديدَ الشراسة مع وكيله وبستانيِّه ومهندسه. وعلى الرغم من سمات الغضب التي كانت بادية على وجهه، فإنه لم يُوجِّه اللوم والتعنيف لأحد.

ولما دخلت الأميرة ماري لتحيته صباحًا حسب العادة، كان منصرفًا إلى دولابه (دولاب صنع الفخار) فلم يلتفت إليها.

وفجأةً قال لها بصوت مبحوح: «آه، ماري!»

ألقى بإزميله جانبًا، فظلت العجلة تدور بفعل السرعة المكتسَبة، وظل ذلك الصرير المكتوم الذي أخذ يخفت تدريجيًّا عالقًا زمنًا طويلًا في ذاكرة ماري مقرونًا بذكريات تلك الصبحية.

اقتربت منه وقد قرأت على وجهه آيةً جعلتها تتَّهِم عينيها، واضطربت اضطرابًا شاملًا. لم يكن ذلك الوجه حزينًا ولا مرهَقًا، ولكن كان منقلبًا وكأنه فريسةُ عراكٍ غير طبيعي، وكان يُنبِئها بأن مصيبة مريعة معلَّقة من قبلُ فوق رأسها على وشك أن تسحقها الآن برزئها. تلك المصيبة التي كانت أخطر ما مرَّ بها في حياتها، والتي كان يستحيل محْوُ آثارها، ويستحيل احتمالها بتجلُّد وصبر؛ كانت موتَ كائنٍ تحبه بحرارة وقوة.

صرخت الأميرة المكدرة الفاشلة بصوت خارج عن غير ذاتها، وبألم شديد الوقع والأثر قائلة: «أبي، آندريه!»

ولم يستطع الأب الصمود لنظرتها، فأشاح بوجهه وانتحب، قال بصوت كالنباح بلهجة غاضبة متمردة وكأنه يريد أن يطرد ابنته من حضرته: «لقد تلقَّيت أخبارًا. إنه ليس في عداد الجرحى ولا في عداد الموتى. لقد كتب لي كوتوزوف؛ وإذن فإنه ميت.»

لم تفقد الأميرة الوعي ولم يستولِ عليها الدوار. كانت من قبلُ شاحبةَ الوجه، لكنها لما تلقَّت النبأ تبدَّل وجهها، وشعَّت نظراتها بوميضٍ أضاء عينيها الجميلتين. سيطر على ألمها العميق الهائل يُمْن علوي، لون من الذهول الغريب، مترفِّع عن أفراح هذه الأرض السفلية وأتراحها على السواء. نسيَتِ الخوف الذي كان يبعثه أبوها في نفسها، فاقتربت منه وأمسكت بيده، وأحاطت عنقَ العجوز الأعجف المعقد بذراعيها، وقالت: «أبتاه، لا تبالي بوجودي. لنبكِ معًا.»

صرخ الأمير وهو يتخلص من ذراعَي ابنته: «السفلة، الأوباش! لماذا أضاعوا الجيش وقتلوا الرجال؟ اذهبي وأخبري ليز.»

سقطت الأميرة في مقعد وأطلقت لدمعها العنان. رأت بعين الخيال أخاها يودِّعهم قبل سفره، يودِّع ليز ويودِّعها هي، بلهجة مترفعة وودودة معها، ورأت نفسها تضع

«الأيقونة» الصغيرة حول عنقه وهو يقابل صنيعها بسخرية رقيقة حانية، تساءلت: «هل كان مؤمنًا؟ هل تاب عن إلحاده وزندقته؟ هل هو الآن هناك في السماء، في مقام الراحة الأبدية واليُمن الأزلي؟»

سألت أباها خلال دموعها: «قل لي يا أبي، كيف وقع ذلك؟»

– «هيا، هيا، لقد قُتِل في معركةٍ فقدنا فيها إلى جانب مجدنا خِيرةَ الروسيين. هيا يا أميرة ماري، أخبري ليز وسألحق بك.»

لما عادت ماري من لَدُن أبيها، كانت الأميرة الصغيرة جالسة أمام نولها. راحت ترقبها وتتأمل الأمارات التي تدل على القناعة والإشراقة المتيقظة، التي تنفرد بها النساء الحاملات. ما كانت ترى فيها زوجة لأخيها فحسب، بل كانت تنظر في أعماق روحها وتتأمل الحدث السعيد الذي كان يتم في عالم المجهول والخفاء.

قالت ليز وهي تكف عن العمل على نولها وتستلقي إلى الوراء: «ماري، أعطِني يدك.»

أخذت «ليز» يد ماري ووضعتها على بطنها. كانت عيناها تضحكان ضحكة الترقب والانتظار، وشفتها ذات الزغب ترتفع لتبقى جامدة في مكانها، مُضفِية على وجهها سعادة الأطفال الأبرياء الهانئين.

ركعت ماري ودفنت وجهها في ثنيات ثوب زوجة أخيها.

قالت ليز وهي تنظر إلى ماري بعينين مشرقتين: «هنا، هنا، أتشعرين؟ إن هذا يبدو لي شديد الغرابة. ثم هل تعلمين؟ لقد كنت أحبه حبًّا جمًّا.»

لم تستطع ماري أن ترفع رأسها، كانت تبكي.

– «ماذا بك يا ماري؟»

– «لا شيء، إنني أشعر بفائض من الحزن كلما فكرت في آندريه.»

وجفَّفت ماري دموعها بثوب زوجة أخيها.

همَّت عدة مرات أن تهيئها لتقبُّل الخبر المفجع، لكن دموعها كانت تحبس النطق في حنجرتها كل مرة فتصمت وتتراجع، وما كان يمكن لتلك الدموع التي لم تكن ليز تفهمَ الباعث على ذرفها إلا أن تعذِّبها وتزعجها، مهما بلغ ذكاؤها من ضَعْف ووهن. لم تكن تنبس ببنت شفة، لكنها كانت تجيل حولها في الغرفة نظراتٍ قَلِقة مضطربة. وقبل موعد الطعام، رأت الأمير العجوز يدخل إلى حجرتها. وكان الأمير يبعث الرهبة في نفسها أبدًا، لكنه كان في تلك المرة على غير عادته، تحمل أماراتُ وجهه طابعًا سيئًا متباهيًا. وقد رأته يخرج من غرفتها دون أن يوجِّه إليها كلمة، راحت تحدجه بنظرة فارغة، ثم استغرقت في

التفكير وقد ارتسمت على وجهها ظاهرة العناية الموجهة إلى مكنون أحشائها كما يحدث غالبًا للنساء الحبالى. وفجأةً انخرطت في البكاء.

سألت باكية: «هل تلقَّيتم أنباء عن آندريه؟»

– «كلا، إن الوقت لا زال مبكرًا كما تعلمين، لكن أبي شديد القلق من أجله؛ الأمر الذي يؤلمني أشد الألم.»

– «إذن، أَلَا زالوا لا يعرفون شيئًا؟»

فأجابت ماري مؤكدة وهي تنظر إليها بعينيها المشعتين: «كلا، لا شيء.»

قررت أن تكتم الحقيقة، وأقنعت أباها بوجوب اتخاذ مثل هذا القرار بانتظار قيام «ليز» من الوضع القريب المنتظر. وراح الأب والابنة، كلٌّ على طريقته، يسيطر على آلامه وأحاسيسه ويخبئ حزنه. كان الأمير العجوز لا يتعلق بأي أمل رغم أنه كلَّفَ رجلًا موثوقًا بالقيام بأبحاث وتحريات في النمسا. كان قانعًا بأن ابنه قُتل، وأعلن نبأ موته لجميع الناس، بل إنه أوصى على نُصبٍ يُرسَل إليه من موسكو ليقيمه في حديقته ذِكرًا لابنه القتيل. وعلى الرغم من محاولته عدم تبديل شيء من عاداته المألوفة، فإن قُوَاه كانت تخونه؛ فقصر مدى نزهاته، وضعفت شهيته للطعام، وجفاه النوم. وبالاختصار كانت حالته تسوء يومًا عن يوم. أما الأميرة ماري، فقد كانت بعيدةً عن مسالك اليأس، تصلي من أجل أخيها كما تصلي من أجلِ مخلوقٍ حي تنتظر خبرَ أوبته سالمًا بين لحظة وأخرى.

الفصل الثامن

عودة آندريه

قالت الأميرة الصغيرة فجأةً بعد إفطار يوم ١٩ آذار: «يا صديقتي الطيبة، أخشى أن يكون «الفروشتيك»[١] — كما يسميه الطاهي فوكا — قد سبَّب لي بعض الارتباك.»

تقوَّست شفتها المظلَّلة بشكل آلي وهي بسبيل تصوير ابتسامة. ولما كان كل ما في ذلك البيت منذ ورود ذلك النبأ المفجع، من ابتسامات وأصوات، بل وحركات أيضًا، يحمل طابع الحداد، فإن ليز نفسها انساقت مع المجموعة دون أن تفقه شيئًا من الموجبات، واندفعت مع التيار العام، فكانت ابتسامتها تزيد في الاكتئاب العام.

هتفت ماري وهي تهرع بخطوها الثقيل المتراخي: «ماذا بك يا عزيزتي؟ ربَّاه، كم أنت شاحبة!»

وألمحت إحدى الوصيفات قائلة: «ماذا — يا صاحبة السعادة — لو أرسلنا في استدعاء ماري بوجدانوفنا؟»

كانت ماري بوجدانوفنا هذه قابِلةً تَقطُن في المدينة الصغيرة المجاورة، وقد استقرت في ليسيا جوري منذ خمسة عشر يومًا.

قالت ماري مؤيدة: «بلا شك، لعل استدعاءَها بات ضروريًّا. إنني ماضية إليها، تشجَّعي يا ملكي.»

وقبَّلت ليز قبل أن تخرج، فهتفت هذه متوسِّلةً ووجهها الشاحب المتقلص من الآلام يعكس الفزع الصبياني من العذاب والألم المنتظَرَين: «أوه، كلا، كلا، كلا! إنها المِعدة. قولي إنها المِعدة، قولي ماري قولي ...»

---

[١] كلمة محوَّرة عن الأصل الألماني وتعني: طعام الإفطار. (المترجم)

وانخرطت في البكاء وراحت تلوي ذراعيها كالطفل الحَرُون بحركة لم تخلُ من التصنُّع.

ابتسمت ماري وخرجت مسرعةً مصحوبة بـ: «أوه! أوه! ويا ربي! يا ربي!» التي كانت ليز تواكبها بها.

وفي الطريق، التقت بالقابلة التي كانت قادمة وهي تفرك يديها البضَّتين السمينتين، ووجهها الخطير موسوم بالهدوء. قالت ماري وهي تُلقِي على القابلة نظراتٍ حائرةً من عينيها المتسعتين من الذعر: «يا ماري بوجدانوفنا، أعتقد أن المخاض قد بدأ.»

فقالت ماري بوجدانوفنا دون أن تسرع الخُطى: «حمدًا لله يا أميرة، لكن هذه الأمور لا يجوز للعذارى معرفتها.»

– «ولكن لمَ لم يصل الطبيب من موسكو؟»

كانوا بناءً على رغبة ليز وآندريه قد أوصوا على طبيبٍ مولِّدٍ من موسكو؛ ليحضر في الوقت المحدد، وكانوا ينتظرونه بفارغ صبر.

أجابت القابلة: «لا تبتئسي يا أميرة، لا حاجة إلى الطبيب، وسيسير كل شيء على ما يرام.»

وبعد خمس دقائق، سمعت ماري التي كانت قد انسحبت إلى جناحها صوتًا يدل على أن بعضهم ينقل شيئًا ثقيلًا، وارَبتِ الباب، فرأت عددًا من الخدم يحملون بينهم الديوان الجلدي الذي كان يزيِّن مكتب الأمير آندريه، ويدخلونه إلى مخدع ليز. وكان الخدم يؤدون عملهم بجلال وتأنٍّ.

لم تتحرك ماري من غرفتها، بل كانت تُصِيخ السمع إلى الضجة التي تنبعث بين الحين والحين، وتوارِب البابَ بين فترة وأخرى لتراقب الحركة الدائبة القائمة في الممشى. كان عدد من النسوة بين داخلات وخارجات يمشين بخطًى هادئة، ولكنهن كنَّ يشحْنَ بأبصارهن عن وجه الأميرة كلما التقت نظراتهن بعينيها المتسائلتين. ولم تجرؤ الأميرة على طرح أسئلة عليهن، فكانت تغلق بابها لتجلس على مقعد، أو لتأخذ كتاب الصلوات، أو لتركع أمام «الأيقونات» مبتهلة. ولشدة دهشتها الأليمة، كانت الصلاة عاجزةً عن تخفيفِ حدةِ انفعالها وألمها، وفجأةً فُتح باب غرفتها بهدوء، وبرز رأسٌ يغطيه منديل، ومن تحته مربيتها العجوز براسكوفي سافيشنا التي — نزولًا عند أوامر الأمير — لم تكن تدخل

إلى غرفتها أبدًا تقريبًا. قالت المربية: «لقد جئت أجالسك يا ماريتي الصغيرة، وها هي — يا ملكي — شموع زواج والديك، سأشعلها أمام قداسة السعيد.»[٢]

– «آه! كم تسرني صحبتك أيتها المربية.»

– «إن الله رحيم يا حمامتي.»

أشعلت المربية الشموعَ الملفوفة بورقٍ مذهب أمام خزانة التمائم المقدسة، وعادت تجلس قرب الباب وبين يديها أشغالها، وأخذت ماري كتابًا وراحت تقرأ، فلم تكونا تتبادلان النظر دون الحديث إلا إذا طرأ مسامعهما صخبٌ أو ضجيجٌ أو أصواتُ خطًى وحديث. وكانت نظرة ماري قلِقة مترقبة بينما كانت نظرة المربية هادئة مطمئنة.

كان الشعور بالقلق الذي استحوذ على ماري في غرفتها منتشرًا في كل أنحاء الدار بين كل أهلها. وهناك خرافة قديمة تقول إنه كلما نقص عدد الأشخاص العارفين بأمر المرأة التي تعاني المخاض، كلما نقصت آلامها وخفَّت؛ لذلك فقد كان كل مَن في المنزل يتصنَّع الجهل بالأمر متظاهرًا بالهدوء، فلا حديثَ عن الولادة ولا همس، ولكن كان لونٌ من الاهتمام المشبع بالحنان والعطف يبرز خلال ذلك الجمود والحركات الخطيرة الهادئة المعروفة لدى كلِّ مَن في خدمة الأمير العجوز وحوله، وكان ذلك الاهتمام يتَّحِد مع القناعة الواضحة بوقوع حدث كبير مجهول لا زال في دور التكامل.

وفي غرفة الخادمات والوصيفات لم تكن إحداهن تبعث بضحكة. أما في المخادع والغرف الأخرى فكانت الشموع مضاءة، والمسارج مشعَلة، وكلُّ مَن في البيت يقظان، وكان الأمير العجوز يذرع غرفته على أطراف قدمَيْه حذرَ الضجَّة، فقرَّرَ أخيرًا أن يرسل تيخون للاستفسار من ماري بوجدانوفنا عن حالة الأم المنتظرة، قال له: «عليك أن تقول لها فقط إن الأمير يسأل عن الحالة، وعُدْ إليَّ بما ستقوله لك.»

فلما بلغ إلى حيث كانت القابلة، قالت له وفي عينيها نظرةٌ حافلة بالمعاني: «أخبِر الأمير أن المخاض قد دبَّ فيها.»

وعاد تيخون يحمل الجواب، فقال الأمير وهو يغلق الباب وراءه: «حسنًا، حسنًا.»

وبعد ذلك، لم يسمع تيخون ضجةً ما أو صوتًا صادرًا عن مكتب الأمير.

[٢] درجتِ العادةُ عند المسيحيين على اعتبار القديس الذي يصادف عيدُه يومَ ولادة الطفل حاميًا لذلك الطفل. ولا زال بعضهم يطلق على الوليد اسمَ ذلك القديس، وهكذا فإن قداسة السعيد هنا تعني القديس نيكولا حامي الأمير العجوز. (المترجم)

وبعد فترة طويلة، دخل إلى المكتب بحجة تنظيف الشموع، فرأى الأمير مستلقيًا على الأريكة. راح تيخون يتأمل وجهَه المهدم فترة، ثم اقترب منه بهدوء عظيم، وقبَّل كتفه وخرج دون أن يعمل شيئًا آخر، أو أن يفصح عن رغبته، بينما ظلَّ السر الجليل الذي لا يضاهيه شيء في العالَم يتكامل ويتحقق. وأقبَلَ الليل وراح شعور الانتظار والحنو والخشوع أمام المجهول الذي لا يمكن إدراكه يتزايد باطِّراد بدلًا من أن تخبو جذوته.

كانت تلك الليلة من ليالي آذار التي يعود فيها الشتاء فجأةً ثائرًا مغضبًا ينقضُّ بيأس بجحافله الأخيرة وعواصفه الثلجية المدَّخرة، وكان بعض الرجال على جيادهم حاملين المصابيح يقفون في أماكن معينة على الطريق المتصلة بالشبكة العامة، منتظرين وصول الطبيب الألماني من موسكو ليقودوه بين الردغات والمجرات العميقة إلى القصر. وكانوا ينتظرون قدومه بين حين وآخر، وقد أرسلوا جيادًا إلى الطريق العام لاستقباله.

تركت ماري كتابها منذ فترة طويلة، وراحت تتأمل بصمتٍ بعينيها المضيئتين وجهَ مربيتها المتغضِّن، الذي أَلِفَت تقاطيعَه وعرفتها ابتداءً من خصلات شعرها الأشهب الناجية من قِماط رأسها، وحتى ذلك الجيب الجلدي الحي الذي يتدلى أسفل ذقنها أشبه بالطنف.

وكانت المربية سافيشنا تقصُّ بصوت منخفض، دون أن تسمع أو تفهم ما تقوله بنفسها، حكايةً كرَّرتها أكثر من مائة مرة ومرة، موضوعها أن الأميرة المرحومة وضعت ماري في كيشينيف[٣] بمساعدة سيدة مولدافية[٤] فقط، وأعقبت: «سوف يرحمنا الله. أما «الدوختور» فإنه لا يستطيع شيئًا.»

وفجأةً هبَّت ريح قوية على إحدى النوافذ التي رُفِع حاجزها الخشبي الخارجي نزولًا عند أوامر الأمير، الذي درج على مثل هذه العادة كلَّ عام حالَ وصولِ طير القُنْبُرة مؤذنًا بحلول الربيع، فاهتزت الدقيرة التي لم تكن مُحكَمَةَ الوضعِ وفُتِحت النافذة، وأُزيح الستار الحريري، وانطفأت الشمعة. ارتعدت ماري بتأثير تلك النفحة الثلجية الباردة، وقامت المربية فوضعت أشغالها واقتربت من النافذة، وراحت تحاول الإمساك بالدرفة الخارجية

---

[٣] كيشينيف: مقاطعة من اتحاد الولايات السوفييتية كانت فيما مضى تابعةً لرومانيا، وهي تقع على أحد روافد نهر دنيستر، وسكانها ١١٣٠٠٠ نسمة. (المترجم)

[٤] مولدافيا — واسمها بالرومانية مولدوفا: مقاطعة على الدانوب، جُمِعت عام ١٨٥٩ مع فالاشيا وكوَّنت المملكة الرومانية، وظلت تابعةً لرومانيا حتى عام ١٩١٨، وهي الآن التي تشكِّل جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتي. (المترجم)

لإغلاقها وهي تنحني إلى الخارج على قدر استطاعتها، وراحت الريح العاصفة تحاول انتزاع طرفَيْ قَمْطتها واختطاف خصلات شعرها الأشهب الهوجاء.

قالت وهي ممسِكةٌ بالحاجز الخشبي لا تطبقه: «يا أميرة، يا ابنتي العزيزة، هناك بعضهم قادمًا على الممشى وحوله المصابيح المضاءة. إنه «الدوختور» ولا شك.»

هتفت ماري: «حمدًا لله! ينبغي أن أهرع لاستقباله؛ إنه لا يعرف الروسية.»

ألقت شالها على كتفها وهرعت تستقبل القادمين، وبينما هي تجتاز الرَّدْهة، لمحت خلال النافذة عربةً يواكبها حَمَلةُ المصابيح تقف أمام المدخل، فهبطت السلم. وكان على قائمة حاجز السلم شمعة تصارع الريح وتصمد له، تضيء المدخل. ورأت فيليب — وهو أحد الخدم — واقفًا بذهولٍ أسفل السلم وفي يده شمعة. وعند مدخل السلم، كانت خطوات حذاء ملبد ترتفع مرتقية، وارتفع صوت لم يكن غريبًا على ماري، كان الصوت يقول: «حمدًا لله وشكرًا! وأبي؟»

فيجيبه رئيس الخدم داميان، الذي هرع إلى الأسفل: «لقد نام منذ حين.»

ونطق الصوت ببضع كلمات أخرى أجاب عليها داميان، وراحت الخطوات الخفيفة غير المنظورة ترتقي السلم مقتربة.

تساءلت ماري: «أهو آندريه؟ كلا، مستحيل، سيكون ذلك خارقًا صعبَ التصديق.»

وفي اللحظة التي راودتها تلك الفكرة، رأت على البسطة قربَ الخادم الذي كان يحمل الشمعة ظلًّا يظهر، ثم وجه الأمير آندريه ثم جسده، وقد غطت الثلوج ياقة معطفه السميك. نعم، لقد كان القادم آندريه بنفسه، لكنه كان شاحبًا هزيلًا تصعب معرفته لأول وهلة؛ لأن عذوبة غريبة كئيبة كانت تحلُّ محلَّ قَسَماته القاسية الأولى، فلما بلغ أعلى السلم ضمَّ أخته بين ذراعيه. سألها: ألم تتلقَّوا رسالتي؟

ولم ينتظر الجواب الذي ما كان ليأتي؛ لأن ماري كانت عاجزةً عن الكلام، ونزل ليأتي بالطبيب المولِّد الذي التقى به عند المرحلة الأخيرة من الطريق. وبعد حينٍ عاد بصحبة الطبيب يرتقي السلم بخطوات واسعة، وعاد يُعانق شقيقتَه من جديد.

قال: «يا لها من مصادَفة غريبة! أليس كذلك يا عزيزتي ماري؟»

ونزع معطفه وحذاءه ومضى إلى مخدع زوجته.

الفصل التاسع

ولادة ليز

كانت الأميرة الصغيرة التي كانت آلامها تترك لها فترات راحة متقطعة، مستلقية على الوسائد، وكانت خصلاتٌ من الشعر الأسود تفلت من غطاء رأسها الأبيض، وتسترسل على طول خدَّيْها المحمومين النديَّين، وكان فمها البديع الوردي ذو الشفة المظللة منفرجَ الشفتين قليلًا، وكانت تَبسِم بجذل. ولما وقف آندريه قرب الأريكة التي كانت ممددة عليها، وقعت عيناها الملتمعتان بنظرتهما المذعورة ذعر الأطفال عليه، ولكنها لم تبدِّل من تعبيرهما. كانت تلك العينان تقولان: «إنني أحبكم جميعًا حبًّا جمًّا، ولم أُسِئ إلى أحد؛ فلماذا إذن أتألم؟ رحماكم! خفِّفوا آلامي عني.» عرفت زوجها لكنها لم تعرف معنى ظهوره المفاجئ في تلك اللحظة. دار آندريه حول الأريكة حتى بلغ موضع رأسها فقبَّلها في جبينها وقال لها: «يا روحي العزيزة، إن الله رحيم.»

كانت هذه أول مرة يناديها بهذا القول، لكن عينيها امتلأتا بالعتاب أشبه بعينَيْ طفل حرد وكأنها تقول: «كنت أنتظر منك بعض السلوان، فإذا بك كالآخرين لا تختلف عنهم في شيء.» لم تكن مدهوشة لرؤيته أمامها، لكنها لم تكن تفقه السببَ الذي جاء به، لم يكن لوصول زوجها أية علاقة بآلامها وتخفيف تلك الآلام عنها، وعادت الآلام تتجدد، فرَجَتْ ماري بوجدانوفنا الأمير آندريه بمبارحة الغرفة.

دخل المُولِّد إلى الغرفة وخرج آندريه، فالتقى بأخته وراح يتحدث معها بصوت منخفض حديثًا تقطعه فتراتُ صمت. كان كلاهما ينتظر مرهِفًا سمعَه بصبرٍ نافد.

قالت له ماري: «هيا يا صديقي.»

مضى آندريه إلى شقة ليز، وأقام في الغرفة الملاصقة لغرفة النوم، وبعد فترة خرجت امرأة يعلو الذعر والهول وجهها، فلما لقيت الأمير تضاعَفَ ارتباكها. غطَّى وجهَه بيديه ولبث كذلك دقائق طويلة. كان الأنين يقطع نياط القلوب، والعويل الصادر عن غرفة

النوم يشبه زمجرة الحيوان في الكرب، اقترب آندريه من الباب وهمَّ بفتحه، لكن صوتًا من الداخل هتف بذعر قائلًا: «مستحيل! مستحيل!»

ويدًا مجهولة قاومت حركته، فعاد إلى غرفته يذرَعُها بخطًى مضطربة محمومة.

توقَّف الأنين، ولكن بعد ثوانٍ قليلة انطلقت صرخة مروعة تجاوبت في المنزل؛ صرخة لا يمكن أن تصدر عن ليز وهي على مثل حالها من الضَّعْف. وبينما اندفع نحو الباب من جديدٍ يحاول اقتحامَ الغرفة، انقطعت الصرخة فجأةً وارتفع استهلالُ طفلٍ وليد.

تساءل آندريه للوهلة الأولى: «لماذا أتوا بطفل إلى هنا؟! طفل! أي طفل؟! ماذا يعمل هنا الطفل؟! هل وُلِد طفل؟!»

وفجأةً أدرك أن ذلك الاستهلال الذي سمعه يحل معه حبور شديد لوالديه، فخنقته العَبَرات، وارتمى على مسند النافذة وانخرط في بكاء ونحيب كطفل صغير. جاء الطبيب وكان خالعًا «الرودنجوت» الرسمي حاسرًا أكمام قميصه. تُحرِّك رعدةٌ عصبية قَسَمات وجهه الممتقع. لم يُجِب على أسئلة الأمير إلا بنظرة تائهة، وتجاوزه إلى مقعد. وهرعت امرأة جمدت في مكانها لما وقع بصرها على الأمير آندريه وكأنها فقدت حواسها، فقرَّر هذا دخولَ مخدع النوم، رأى ليز ممدَّدةً كما شاهَدَها منذ خمس دقائق وقد فارقتها الحياة. كانت تلك التعابير نفسها التي قرأها على وجهها اللطيف الصغير ذي الشفة المظللة بطيف من الزغب الأسود، والخدين الشاحبين، والنظرة الشاخصة الجامدة.

كان وجهها الميت الفتَّان المؤسي يقول: «إنني أحبكم جميعًا حبًّا جمًّا، ولم أُسِئ إلى أحد، وأنتم ماذا صنعتم بي؟»

وفي أحد أركان الغرفة، كان شيء صغير أحمر يهمهم ويصرخ بين يدي ماري بوجدانوفنا البضَّتين المرتعدتين.

بعد ساعتين من هذا الحادث، مضى آندريه إلى مخدع أبيه بخطوات صامتة، كان العجوز قد اطَّلع على كل شيء، وكان واقفًا قرب الباب، فلما فُتِح أخذ عنق ابنه بيديه القاسيتين الهرمتين الشبيهتين بالكُلَّابات، وراح يبكي كالطفل.

وفي ثالث يوم شُيِّع جثمان الأميرة الصغيرة، وصعد الأمير آندريه فوق النعش ليودِّع زوجته، كانت قَسَمات وجهها محتفظة بذلك التعبير الخالد رغم عينيها المغمضتين: «آه! ماذا فعلتم بي؟» فأحس آندريه كأن شيئًا قد تمزَّق في صدره، وشعر أنه مذنب، وأن خطيئته لا تُغتفَر، وخانته الدموع فلم يقدر على البكاء. وجاء الأمير العجوز بدوره يُقبِّل اليد الشمعية الصغيرة الممدَّة فوق الأخرى باسترسال وهدوء، وكان الوجه؛ وجه الأميرة،

يقول له: «آه! ماذا عملت بي؟ ولماذا؟» فأشاح الشيخ بأبصاره عنها في شيء من الغضب إزاء ذلك الاستفسار الصامت.

ومضت خمسة أيام أخرى فأقيم الاستعداد لتعميد الأمير الطفل نيكولا آندريئيفيتش. كانت المربية تمسك بقمط الذقن بينما كان القس يمسح بالزيت الكفَّينِ الصغيرتين وأسفل القدمين الحمراوين المغضنتين بريشة أوز.

كان الجد، وهو أشبين الطفل، يخاف أن يُفلته من يده فيسقط على الأرض؛ لذلك فقد حمله حول أجران المعمودية، وكانت عبارة عن طست قديم من الحديد الأبيض (التنك) المبعوج، وأسلمه إلى الإشبينة التي لم تكن إلا الأميرة ماري. أما آندريه فكان الخوف يكاد أن يودي به لشدة قلقه على ابنه، وخوفه من أن يُغرِقوه في الطست أثناء العماد. كان ينتظر في الغرفة المجاورة ويترقَّب بلهفة نهايةَ الطقس الديني. ولما جاءته المربية به، راح يتأمله بسرور، وأخذ يهز رأسه برضًى وارتياح لحديث المرأة التي أخبرته بأنهم عندما ألقَوْا في الطست بقطعة الشمع الملصق به خصلة من شعر الوليد، لبثت طافيةً تسبح على سطح الماء دون أن تنحدر إلى القاع.[1]

[1] هذه خرافة شعبية شائعة، وقد درجت العادة على إلصاق جانب من شعر الطفل بقطعة من الشمع وإلقائها في جرن المعمودية، فإن طفَتْ كان ذلك دليلًا على أن الطفل سيعيش! (المترجم)

الفصل العاشر

أم دولوخوف

نشط الكونت روستوف العجوز نشاطًا كبيرًا حتى استطاع أن يجعل المسئولين يتجاوزون عن اشتراك ابنه في مبارزة دولوخوف–بيزوخوف، وكان نيكولا ينتظر ذلك. والحقيقة أنه بدلًا من أن تسحب منه رتبته عُيِّن ضابطًا مساعدًا لحاكم موسكو العام، وكان بحكم منصبه الجديد مُرغَمًا على البقاء في العاصمة، وهكذا تخلَّف عن مرافقة أسرته إلى الريف، وقضى الصيف كله في موسكو، وكان دولوخوف قد أبَلَّ من جراحه بفضل عناية أمه التي كانت تحبه حبًّا عميقًا، فازدادت أواصر الصلة بينه وبين نيكولا توثقًا خلال فترة نقاهته، وكانت أم دولوخوف العجوز ماري إيفانوفنا متأثرةً بهذه الصداقة، فأحبَّت روستوف وأحلَّتْه من نفسها مكانًا لائقًا، وراحت تتحدث معه عن عزيزها فيديا، كانت تقول: «نعم، يا كونت، إنه نبيل جدًّا، وروحه سامية لا تتفق والقرن الحاضر الفاسد. إن أحدًا لا يحب الفضيلةَ اليوم؛ إنها تكدِّر كل الناس وتزعجهم. خذ مثلًا يا كونت؛ هل ما قام به بيزوخوف نبيلٌ وحقٌّ؟ لقد كان فيديا يحبه من أعماق قلبه الكبير، وهو حتى هذه الساعة لم يتفوَّه بكلمةٍ سيئة عنه. تذكر مشاكلهم في بيترسبورج وقصة ذلك الشرطي. إن الله وحده يعلم حقيقتها، لكنهما كانا مشترِكَين فيها معًا، أليس كذلك؟ مع ذلك فقد تخلَّص بيزوخوف من النتائج. أما «فيدياي» العزيز فقد تحمَّل كل الوزر، والله يعرف وحده مبلغ الألم والشقاء الذي قاساه في محنته. ثم أعادوا إليه رتبته! إن البواسل والمواطنين المخلصين مثله قلة في الجيش! وهم في حاجة إلى أمثاله. ثم هذه المبارزة!

إنني أسألك يا كونت: هل حقيقة أن لهؤلاء الناس قلبًا وشرفًا؟ إنه يعرف أن فيديا ولدي الوحيد، مع ذلك فقد ورَّطه في ذلك النزاع وأطلق النار عليه دون أن ينبِّهه! ولحسن الحظ رفق الله بنا ولطف. وما هو سبب المبارَزة؟ مَن الذي يخلو في عصرنا هذا من الدسائس والمكايد؟ فإذا كان يحسُّ بالغيرة على زوجته، فلماذا لم يُبدِ له ملاحظاته من

قبلُ بدلًا من أن يحتمل دأبه وزياراته المتكررة الكثيرة طيلةَ عام كامل؟ وهو إذ تحدَّاه كان يظن أن فيديا لن يقبل التحدي؛ لأنه مدينٌ له ببعض المال. يا لها من دناءة! يا لها من خِسَّة! إنني أعرف تمامًا يا عزيزي الكونت أنك تفهم «فيدياي» حق الفهم؛ ولهذا السبب أحبك من كل قلبي. قلائل الذين يفهمونه؛ فلا تبتئس. إنه روح علوية سامية.»

وكان دولوخوف نفسه يحدِّث روستوف بشيء من هذا القبيل؛ الأمر الذي لم يكن منتظرًا منه. كان يقول: «أنا أعرف أنهم يعتبرونني رجلًا خبيثًا، لكنني لا أبالي. إنني لا أريد أن أعرف أحدًا إلا أولئك الذين أحبهم، وعندما أحب إنسانًا فإن حبي يبلغ مبلغ افتدائه بدمي وروحي. أما الآخرون فإنني سأسحقهم جميعًا إذا حاولوا الوقوف في سبيلي والتصدِّي لي. إن لي أمًّا أعبُدها ولا أستطيع إيفاءَها حقَّها من التقدير، وثلاثة من الأصدقاء بينهم أنت. أما الباقي فإنني — كما ترى — لا أعتبرهم إلا بالقدر الذي أستطيع أن أفيد منهم، ويختلف تقديري لهم باختلاف النفع والضر، وهم جميعًا مُضِرُّون كما يبدو، وخصوصًا النساء. نعم يا عزيزي، إنني إذا وجدتُ حقيقةً رجالًا نبلاء القلوب، رفيعي العواطف، مهذَّبين، فإنني بالمقابل لم أجد بعدُ بين النساء، ابتداءً من الكونتيسات وحتى الطاهيات، إلا مخلوقات برسم البيع. إنني لم أعثر بعدُ على ذلك الطُّهْر الملائكي والإخلاص اللذين أنشدهما عند المرأة، وإذا وقع مثل هذا الاكتشاف ووجدت المرأة المنشودة؛ فإنني سأقدِّم حياتي هبةً لها، أما تلك الـ...! — وأشار بيده إشارة احتقار — صدقني كذلك إنني شديد التعلُّق بالحياة لسبب واحد؛ وهو اكتشاف العصفور النادر ذات يوم، المخلوق السماوي السامي الذي سيُطهِّرني ويرفعني ويسمو بي ويبدِّل نفسيتي، لكنك لا تفهمني.

فأجاب روستوف — وهو شديد الإعجاب والافتتان بصديقه الجديد: «بل أفهمك تمامًا.»

جاء الخريف وعاد آل روستوف إلى موسكو، وفي أول الشتاء عاد دينيسوف بالمثل ونزل عندهم. كان ذلك الشتاء من عام ١٨٠٦ أول شتاء قضاه نيكولا روستوف في موسكو، وكان أروع وأسعد شتاء عرفته تلك الأسرة. ولقد اجتذب وجودُ نيكولا عددًا كبيرًا من الشباب، وكانت فيرا قد بلغت العشرين وأصبحت جميلة، وسونيا السادسة عشرة وملْءُ إهابها اللطفُ والجمال الذي لم يتفتح بعدُ. أما ناتاشا فأضحت نصفَ طفلةٍ نصفَ آنسة، تجمع بين عبث الطفلة وفتنة الشابة الفتِيَّة.

كان منزل آل روستوف في تلك الأثناء مشبعًا بجو غرامي تنفرد به البيوت الحافلة بالفتيات الجميلات الناضجات، وكان الشبان الذين يدخلون ذلك البيت وتطالعهم تلك

الوجوه المشرقة المتعطشة المتقبِّلة كلَّ أنواع الإيحاء، الباسمة الطروب من السعادة ولا شك، ويرون تلك الحركة الدائمة، وذلك النشاط المتقد، ويصغون إلى الأغاني والموسيقى وثرثرة نساء في مقتبل العمر يَحدُوهن الأملُ والإرادة الطيبة، تلك الثرثرة الفارغة إلا من تودُّدٍ وعطف؛ كان أولئك الشبان يشاطرون شبابَ آل روستوف ذلك الترقُّب للحب والسعادة الذي يعيشون فيه.

وكان دولوخوف، وهو أول الوافدين إلى تلك الدار بتسهيلٍ من نيكولا، يحوم حولَ كلِّ مَن في الدار باستثناء ناتاشا، التي كادت أن تشتجر مع أخيها نيكولا بسببه. كانت ناتاشا تؤكد أن هذا الرجل يحمل وحده كلَّ الخطأ في مبارَزته مع بيير، وأنها تنفر منه لأنه متصنِّع ومكروه. كانت تصرخ بعناد في وجه أخيها: «إنني لا أريد فهمه ولا يهمني ذلك. لنأخذ — على سبيل المثال — صديقك دينيسوف؛ إنه فاسق حقًّا، وكل ما يريد المرء أن يقوله عنه يمكن أن يكون صحيحًا، لكن ذلك لا يمنعني من أن أحبَّه، وبالتالي أن أفهمه. لست أدري كيف أوفق في إفهامك هذا الرأي! إن الآخَرَ كلُّ شيء عنده قائم على تدبير سابق، وهذا ما يزعجني فيه وينفرني منه، بينما دينيسوف …»

فيجيبها نيكولا: «إن دينيسوف يختلف اختلافًا كليًّا. يجب فهم روح هذا الشاب ومعرفة ذلك القلب الذي يضمُّه بين جوانحه، وكيف يتصرف حيال أمه!»

كان يريد بهذا القول أن يلمِّح بأن دينيسوف لا يُعتبر شيئًا مذكورًا إذا قِيسَ بدولوخوف. قالت ناتاشا: «إنني أجهل كل هذا، لكنني أشعر بالارتباك في حضرته. هل تعرف أنه مفتونٌ بسونيا؟»

– «يا لها من حماقة!»

– «بل إنني متأكدة، وسوف ترى.»

والحقيقة أن ناتاشا كانت محقَّةً في تخمينها؛ أصبح دولوخوف — وهو الذي لم يكن يحب عِشْرة النساء — ضيفًا مواظبًا في دار روستوف، حتى إن كل السكان أدركوا إدراكًا ضمنيًّا أن تردُّده المنظَّم ما كان إلا من أجل سونيا، وسونيا نفسها — رغم أنها لم تجرؤ حتى تلك اللحظة على التفوُّه بحرف واحد من ذلك — كانت تعرف حقيقةَ نواياه، ويتضرج وجهها خجلًا كلما ظهر دولوخوف في البهو.

كان دولوخوف يتناول طعامه غالبًا لدى آل روستوف، ولا يتخلف عن أية حفلة تُقام حتى حفلات الأحداث الخاصة بهم، التي كان أستاذُ الرقصِ إيوجل يقيمها أحيانًا، والتي كانت النسوة من آل روستوف يحضرْنَها بلا انقطاع. كان يُظهِر كثيرًا من العناية والرعاية

إزاء سونيا، ويغمرها بنظرته المغرية التي ما كانت تتذكرها دون أن تندفع الدماء إلى وجهها حياءً، بل إن الكونتيس نفسها وناتاشا أيضًا كانتا تشعران بمثل شعورها حيال تلك النظرة. كان ذلك الرجل القوي الغريب الشاذ يتأثر بشدةٍ تأثُّرًا لا يُقاوم بفتنة تلك السمراء الصغيرة الجذَّابة التي كان قلبها مشغولًا في مكانٍ آخر.

وأدرك نيكولا أخيرًا — دون أن يحدِّد الغاية الحقيقية من ذلك — أن هناك صلةً ما بين دولوخوف وسونيا، فكان يحدِّث نفسه وهو يفكِّر في أخته وابنة عمه: «آه! رباه! إن هاتين الخبيثتين لا تقضيان يومًا دون أن تُغرَما بأحد!» ولما كان يشعر أنه على غير ما يرام في صحبة دولوخوف وسونيا — ومن أن يعرف السبب — فقد راح يقضي جلَّ وقته خارج الدار.

ومنذ خريف عام ١٨٠٦، عاد حديث الحرب إلى الألسن؛ الحرب مع نابليون، فكان حديثًا أكثر انتشارًا وحماسة من العام السابق. تقرَّرَ إجراءُ تجنيدٍ يعادل عشرة على كل ألف للجيش العامل، وتسعة على كل ألف لبقية الأسلحة الفنية والمهمات الحربية. وفي كل مكان كانت اللعنات الدينية والحرمان الكنيسي يُسلَّطان على بونابرت، فلم تكن موسكو لتتحدَّث إلا عن معاوَدة القتال القريب. ولولا عزيزهم نيكولا لما علَّق آل روستوف على تلك الأخبار والاستعدادات إلا أهمية سطحية، لكن الشاب كان يرفض بإلحاحٍ البقاءَ في موسكو، كان ينتظر انتهاء مأذونية دينيسوف بفارغ صبر ليعود معه إلى القطعة بعد أعياد الميلاد، غير أن ذلك الرحيل المنتظر لم يبدِّل شيئًا من أفراح روستوف وعاداته اليومية، بل إنه كان على العكس يثيره ويشحذ همته، وكان لذلك النبأ ردُّ فعلٍ لطيف؛ ذلك أن الدعوات انهالت عليه بين حفلاتٍ راقصة وولائم، حتى إن ذويه باتوا لا يرونه إلا غِرارًا.

الفصل الحادي عشر

غرام دولوخوف

تناول نيكولا طعام الغداء ظهر اليوم الثالث من أيام عيد الميلاد مع أفراد أسرته بصورة استثنائية. كان ذلك الغداء بمثابةِ وليمةِ الوداع؛ لأن رحيل نيكولا بات مقرَّرًا عقب اليوم الأخير مباشَرة، وكانت المائدة تضم عشرين آكِلًا بينهم دولوخوف ودينيسوف.

لم يحدث من قبلُ أن أُشبِع الهواء في منزل آل دينيسوف بمثل ذلك الحب. كان ذلك الجو يوحي للمرء أنْ «أطبِقْ على هذه اللحظات من السعادة، وأحببْ، ودعِ الآخرين يحبونك. إن الحب هو الأمر الوحيد ذو الشأن والقيمة، وهو وحده الذي يشغلنا؛ لأن كل ما عداه ليس إلا سخفًا وتحريفًا.»

وصل نيكولا كعادته قبل البدء في الطعام بلحظة وجيزة، بعد أن أنهك جيادَ عربتين طافتا به على التتابع بين دُور أصدقائه، دون أن يستطيع مع ذلك تلبية كل الدعوات ولقاء كل الراغبين في رؤيته، ولم يكد يدخل غرفةَ الطعام حتى شعر بالجو العاطفي المخيِّم على الموجودين، ولمس ارتباك بعضهم وانزعاجهم، وكانت سونيا والكونتيس وناتاشا، وكذلك دولوخوف، يبدون على شيء كثير من الانفعال، فأدرك أن أمرًا ما قد وقع قبل الطعام، وقدر أن يكون ذلك الأمر قد وقع بين سونيا ودولوخوف. ولما كان رقيقَ القلب حسَّاسًا، فقد سعى إلى تجنُّبها بكثيرٍ من العطف والمودة، وكان مقرَّرًا إقامةُ حفلةٍ راقصة يُحييها أستاذ الرقص «إيوجل»، ويشترك فيها تلاميذه من الجنسين.

قالت له ناتاشا: «نيكولا يا عزيزي، هل تأتي إلى دار إيوجل؟ إنه يعتمد على مجيئك كل الاعتماد، ثم إن فاسيلي دميتريش — أي دينيسوف — قد وعد بالحضور.»

فهتف دينيسوف الذي جعل من نفسه رفيقًا لناتاشا وهو قرير العين مطمئن النفس: «وهل هناك مكان لا أذهب إليه بناءً على أمر الكونتيس؟ سوف أرقص عن طيب خاطر «خطوة الشال» لأُدخِل البهجة على نفسها.»

فقال نيكولا: «سأذهب إذا وجدتُ دقيقةَ فراغ في وقتي؛ لقد وعدت آل آرخاروف بحضور حفلتهم. وأنتَ؟»

كان هذا السؤال موجَّهًا إلى دولوخوف، لكنه أدرك بعد فوات الأوان أنه كان من الأصوب عدم طرح ذلك السؤال.

أجاب دولوخوف بجفاء: «نعم، يُحتمَل أن أحضر.»

وتاهت نظرته إلى سونيا فلمستها برفق، ثم عادت تنحطُّ على روستوف الذي قرأ فيها مثل ذلك التعبير الذي شاهده من قبل، عندما كان دولوخوف يحدِّق في وجه بيير إبان تلك الوليمة المشهودة.

حدَّث نيكولا نفسه: «لا شك أن أمرًا قد وقع!» وتأكَّدت ظنونه بسرعة عندما رأى دولوخوف ينسحب فور فراغ المدعوِّين من الطعام. استدعى ناتاشا وسألها عما حدث، قالت له وهي تهرع إليه: «كنت أبحث عنك بذات الوقت. لقد أخطرتك من قبلُ ولكنك لم تصدِّقني حينذاك. لقد طلب إلى سونيا أن تتزوَّجه.»

كانت ناتاشا تتحدث بلهجة منتصرة. أمَّا نيكولا فإنه على الرغم من قلة اهتمامه بأمر سونيا في المدة الأخيرة، شعر بيدٍ خفية تعصر قلبه عند سماع هذا النبأ. وكان دولوخوف بالنسبة ليتيمة مثل سونيا «صفقةً» ملائمة، بل ورابحة من بعض وجهات النظر، وكان يستحيل رفضه في نظر الكونتيس والآخرين. وهكذا فإن نيكولا همَّ بالقول مدفوعًا بالإحساس الأول: «هيا، ليكن! لتنسَ وعودَ الطفولة ولتُعرِب عن موافَقتها.» لكنه لم يجد الوقت للنطق بهذا القول.

أردفت ناتاشا بعد فترة صمت: «تصوَّر أنها رفضت؛ لقد رفضت رفضًا جازمًا، بل إنها قالت له بأنها تحب شخصًا آخَر غيره.»

فقال نيكولا في سره: «ما كنت أتوقَّع منها غير ذلك!» وأردفت ناتاشا قائلة: «ولقد ألحفت عليها أمُّنا وتوسَّلت إليها أن تقبل به ولكنْ عبثًا، وأنا واثقة من أنها لن تتراجع عن عزمها.»

فقال نيكولا بانزعاج: «توسَّلتْ إليها أمي!»

– «نعم، أصغِ يا نيكولا ولا تغضب. إنني أعرف أنك لن تتزوَّجها. كلَّا، إنك لن تتزوَّجها وأنا متأكدة من ذلك. إن الله يعرف السبب، لكنني واثقة مما أقول.»

فاعترض نيكولا بقوله: «هذا ما لا يمكن معرفته. لكن يجب أن أتحدث معها.»

وأردف مبتسمًا: «إنها فاتنةٌ سونيا الصغيرة هذه!»

وقفزت ناتاشا إلى عنق أخيها تطوِّقه وانطلقت راكضة.

لم تمضِ دقائق حتى دخلت سونيا مرتبكةً خَجْلى وعلى وجهها أماراتُ المتهم المذعور. اقترب نيكولا منها وقبَّل يدها. كانت تلك أول مرة يلتقيان فيها منفردَين منذ عودة نيكولا ويتحدثان فيها بصراحة.

شرع نيكولا يقول بصوتٍ وَجِلٍ أخذ يستردُّ ثباته رويدًا رويدًا حتى أصبح جريئًا: «صوفي، صوفي، هل يُعقل أن ترفضي مثل هذا العرض المغري؟ إنه شاب ممتاز نبيل القلب، ثم إنه صديقي.»

فبادرت سونيا تقاطِعه قائلة: «لقد رفضت وانتهى.»

– «إذا كان رفضك بسببي، فإنني أخشى من جانبي أن …»

ومن جديدٍ بادرت تقاطِعه قائلةً وهي تستعطفه بنظرة: «نيكولا لا تقُلْ لي هذا.»

– «بل يجب أن أقوله، لعله لون من الغرور من جانبي، ولكن يجب أن أقوله: إذا كنتِ ترفضين دولوخوف من أجلي؛ فإنني أضطر عندئذٍ إلى مُفاتَحتك بكل الحقيقة. إنني أحبك ولا شك، وأومن أن أيًّا في العالم …»

فقالت سونيا مُضرَّجة الوجه: «وهذا يكفيني.»

– «صحيح، لكنني عشقت أكثر من مرة، وهذا يتكرر الآن أيضًا رغم أنني لا أشعر بالاطمئنان والود مثل شعوري بهما لمَّا أكون معك، ثم إن أمي لا تريد أن أتزوَّجك. وبالاختصار، فإنني لا أتعهَّد بشيء، وأطلب منك أن تفكِّري في عرض دولوخوف.»

ونطق باسم صديقه بشيء كبير من العناء، فقالت سونيا: «لمَ تقول لي هذا؟ إنني لا أطلب شيئًا؛ إنني أحبك كأخ وسأحبك دائمًا؛ فماذا ينبغي لي أكثر من ذلك؟»

– «إنكِ ملَكٌ طاهر، وأنا لستُ جديرًا بكِ، وكل ما أخشاه هو ألَّا أستطيع الإجابة على طول انتظارك وصبرك.»

وقبَّل يدَها مرةً أخرى.

الفصل الثاني عشر

حفلة الأحداث

كانت حفلات إيوجل الراقصة التي يقيمها من حين إلى آخر أكثر الحفلات تسليةً في موسكو كلها. هذا ما كانت تقوله الأمهات وهن يرقبن «أكبادهن» يتمرنون على إجادة الخطوات التي تعلموها، وكذلك الصغار أنفسهم بين بنين وبنات كانوا جميعهم من هذا الرأي، وكانوا يجدون متعة كبيرة في تلك الحفلات، وكان الشباب لا يخالفون هذا الرأي، فيحضرون تلك الحفلات باسم المسايرة، فيتسلَّوْن فيها أكثر من أي مكان آخر. وقد تم عقد زواجين اثنين في تلك الحفلات هذا العام؛ ذلك أن الأميرتين الجميلتين جورتشاكوف وجدتا هناك زوجين صالحين، وارتفعت أسهُم تلك الحفلات وذاع صِيتها حتى بلغ الأوج، وكان فيها شيء خاص جذَّاب لا يتوفر في أمكنة أخرى؛ ذلك أن تلك الحفلات كانت تقام في جوٍّ لا يعكِّره وجودُ ربٍّ منزل أو ربة دار.

لقد كان «إيوجل» طيب القلب يجري هنا وهناك كالريشة الخفيفة، يقدِّم الانحناءات والاحترامات حسب كل ألوان فنه وقواعده، ويتقبَّل أساليب مَدعُوِّيه كلهم، خصوصًا وأن كلَّ مَن كان يجتمع هناك كان ولوعًا بالرقص، شغوفًا بانتهال المسرَّات البريئة، كما هو حال الفتيات الصغيرات دائمًا اللاتي لم يتجاوزْنَ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من أعمارهن، ويرتدينَ لأول مرة أثوابًا طويلة. كانت الفتيات كلهن — ما عدا استثناءات نادرة — جميلاتٍ فاتنات، بسبب الحماس والحيوية التي تشتعل في كيانهن، وابتساماتهن المشرقة، ووميض عيونهن، وكان خِيرة تلاميذه يحاولون أحيانًا رقصة «خطوة الشال» التي كانت شديدة الشيوع، لكن ناتاشا كانت أكثر التلاميذ إجادةً لهذه الرقصة، وأبعدهم شأوًا، لكن الرقصات المقرَّرة تلك الليلة كانت محصورةً في «الإيكوسية»، و«الإنجليزية»، و«المازوكا» التي بدأت تحتل مكانها في الذوق العام.

وكان إيوجل قد استعار إحدى صالات الكونت بيزوخوف لإقامة حفلته، فكانت حفلة ناجحة كل النجاح كما شهد الجميع بذلك. كانت الفتيات الجميلات كثيراتٍ تلك الليلة، وكانت الآنستان الممتلئتان سعادةً ونشاطًا تُعتبَران في عِداد أجمل الجميلات، وكانت سونيا شديدة الفخار بالطلب الذي تقدَّمَ به دولوخوف إليها، وبرفضها ذلك الطلب، وبتفاهمها مع روستوف بعد ذلك؛ الأمر الذي كان يغمرها بالسعادة، ويجعلها تدور حول نفسها وتتيه في لون من التسامي العلوي الذي لا يشعر بمثله إلا المحبُّون، فما كانت تمكِّن الوصيفة من وضع القلنسوة على رأسها إلا بعد مزيدٍ من العناء لكثرة هياجها وحركتها. لقد كانت فرحة جنونية تغمر نفسها، وحتى ليقال إنها تبدَّلت تبدُّلًا كليًّا. أما ناتاشا فإنها لم تكن أقل افتخارًا من سونيا؛ لأنها كانت سترتدي ثوبًا طويلًا لأول مرة في حياتها، وستمضي إلى حفلة راقصة حقيقية، فكانت هي الأخرى تشعر بسعادةٍ جامحة ولا تستقر على حال.

لم تكَدْ ناتاشا تدخل القاعة حتى استمالت لميلها الغرامي. كانت لا تميِّز شخصًا بعينه، بل تُعجَب بكل الناس معًا؛ فإذا وقعت أبصارها على شخصٍ ما عشقت ذلك الشخص، بانتظار تحوُّل أبصارها إلى آخَر وهكذا …

قالت تحدِّث سونيا كلما التقتا خلال الحفلة: «آه! كم هذا بديع!»

وكان نيكولا ودينيسوف يروحان ويجيئان ويمنحان الراقصتين نظراتٍ حانيةً واقية، قال دينيسوف: «إنها فاتنة، سوف تصبح آيةً في الجمال.»

– «مَن هي؟»

فأجاب هذا بعد صمت: «الكونتيس ناتالي، إنها ترقص بمهارة، يا للظرف والملاحة!»

– «عمَّن تتكلم؟»

فأجاب دينيسوف بضجر: «عن أختك، أَلَا تفهم!»

وابتسم روستوف.

وجاء إيوجل يحدِّث نيكولا قائلًا: «يا عزيزي الكونت، إنك واحدٌ من خِيرة تلاميذي، يجب أن ترقص. انظر كم من فتاةٍ جميلة في هذا الحفل!»

وتقدَّم بمثل ذلك الرجاء إلى دينيسوف الذي كان فيما مضى تلميذًا له كذلك، فقال هذا: «كلا، كلا يا عزيزي، سأكون كثيرَ الأخطاء. لم أحسن الانتفاع بدروسك، أَلَا تذكر؟»

فبادر إيوجل قائلًا قصد التعزية والترفيه: «آه! كلا، لقد كنتَ ساهِمَ الفكر، لكن استعداداتك لم تكن رديئة. نعم، نعم، إن استعداداتك كانت طيبة.»

عُزِفت الموسيقى المازوكا التي كانت حديثةَ العهد في البلاد، ونزل نيكولا على رغبة إيوجل وإلحاحه فخاصَرَ سونيا. أما دينيسوف فقد مضى يجلس إلى جانب النساء المُسنَّات متكئًا على حسامه، ضابطًا الإيقاع بقَدَمه، يحدِّثهن أحاديثَ ماجنةً طريفة وهو لا ينفك عن مراقبة الراقصين، وكان إيوجل أول «زوج» بين المتخاصرين يراقص ناتاشا، التي كانت خير تلميذة عنده ومبعث فخره. كان ينزلق بخفة فوق خفيه، ويندفع خلال القاعة مع راقصته المرتبكة التي كانت رغم ذلك تلاحق خُطاه، وتنقل خُطاها بتيقُّظ وانتباه. ولم يكن دينيسوف يحوِّل أبصاره عنها. أما عن طريقته في ضبط الإيقاع بحسامه، فإنها كانت تدل على أنه كان عازفًا عن الرقص بملء إرادته، وليس بسبب جهله كما قد يتبادر إلى الأذهان. وبينما كان الأستاذ يقوم بحركة تصويرية، نادى دينيسوف روستوف الذي كان قريبًا منه في تلك اللحظة، وقال له: «ليس هذا بالمازوكا البولونية، كلا ليست هذه المازوكا. على كل حال إنها ترقص بإبداع.»

ولما كان نيكولا يعرف أن دينيسوف يستطيع أن يرقص المازوكا في بولونيا نفسها، وأن يستأثر بإعجاب الموجودين، فقد هرع إلى ناتاشا وقال لها: «اذهبي إلى دينيسوف واطلبي إليه أن يراقصك؛ إنه لا يُبارَى في المازوكا.»

وجاء دور ناتاشا فنهضت وراحت تنزلق على حذاءَيْها الصغيرين المزيَّنين، والدم يتصاعد إلى وجنتَيْها تحت وطأة الأنظار التي كانت تحدِّق فيها من كل جانب، حتى بلغت ركن دينيسوف. رآهما نيكولا يتناقشان برهة؛ إذ كان دينيسوف يرفض بلطف — على ما يبدو — وناتاشا تصرُّ، فهرع إلى نجدتها. كانت ناتاشا تقول: «أرجوك يا فاسيلي دميتريش، تعال، أرجوك.»

– «اعفيني يا كونتيس.»

وهنا تدخَّل نيكولا قائلًا: «هه يا فاسيا، لمَ لا تجاريها؟»

فقال دينيسوف مازحًا: «سيقولون إنهم يلاطفون قِطَّهم.»[١]

ووعدته ناتاشا: «سأغنِّي لك كل الأمسية.»

فقال دينيسوف وهو ينزع حسامه من منطقته: «آه! يا لَلمُمالقة! إنها تتصرَّف بي وفق هواها.»

---

[١] إن كلمة فاسيا هي تحريف لاسم فاسيلي؛ وهو اسم دينيسوف الأول، وهو كذلك التسمية الأليفة للقِط، ومن هنا كانت الدعابة.

خرج من صفوف المقاعد وأمسك بقوةٍ على يد مراقصته، ورفع رأسه ومدَّ ساقه بانتظار الإيقاع. لقد كان دينيسوف يستطيع إخفاء عيب قامته في مناسبتين: عندما يكون على صهوة جواده، وعندما يرقص المازوكا؛ ففي هاتين المناسبتين كان يبدو بمظهر الشاب القوي البهي الذي يريد أن يكونه، ولما أزف دوره بعث إلى مُراقِصته بنظرة فَكِهة ومنتصرة معًا، وقام بحركة عنيفة من قدمه، وقفز كالكُرة المرِنة ساحبًا معه ناتاشا في غمار الرقصة. كان يجتاز على قدم واحدة نصف مساحة البهو دون أن تَصدُر عنه أية ضجة، أو يندَّ عنه صوتٌ يُذكَر، ودون أن يتظاهر برؤية المقاعد المصفوفة قبالته، فكان يُظن أنه سيصطدم بتلك المقاعد، لكنه فجأةً كان يتوقف على كعبَيْه بين رنين مهمازَيْه وصوت ارتطام كعبَيْه بالأرض، فيباعد بين ساقَيْه ويستعين برشاقة قدمَيْه ليستدير دورةً عنيفة سريعة، ويلحق بحلقة الراقصين وقدمه اليمنى تضرب دون هوادة بالقدم اليسرى.

وكانت ناتاشا تتابع كل حركة من حركاته وتترقبها وتستسلم لفارسها مسلوبةَ الإحساس. كان يجعلها تدور حول نفسها تارةً ممسكًا بها بيُمناه أو يُسراه، وطورًا يركع على ركبتيه ويجعلها ترسم حلقات حوله، ثم ينتصب فجأةً ويعود إلى جريه السريع المغضب وكأنه يريد اجتياز القاعات كلها دفعة واحدة، ليتوقَّف فجأةً قبل أن يدرك المتفرج غرضه، فيقوم بحركة تصويرية غير منتظرة، ولما قام بحركته الدائرية الرائعة الكبيرة موصلًا ناتاشا إلى مقعدها الذي كانت جالسة عليه؛ إشارةً إلى انتهاء الرقصة، لم يكن لهذه من صفاء الذهن ما يُمكِّنها من الانحناء أمامه لشُكرِه كما يقتضي الأمر، بل كانت تحدِّق في وجهه بعينيها الباسمتين المذهولتين وكأنها تنظر إلى شخصٍ جديد.

غمغمت بدهشة: «ما معنى هذا؟»

وعلى الرغم من ادِّعاءات إيوجل بأن هذه ليست المازوكا الحقيقية، فإن عظمة رقص دينيسوف استأثرت بإعجاب كل الحاضرين، وهرعت الراقصات إليه يطلبن مراقَصته بشغف، واستعاد الكهول ذكريات شبابهم في بولونيا، والوقت الطيب الذي قضوه. أما دينيسوف فقد كان مضرج الوجه يجفِّف عرقه بمنديله، وكان يجلس قرب ناتاشا فلم يفارِق مجلسها طيلة الحفلة.

الفصل الثالث عشر

حفلة دولوخوف

لم يظهر دولوخوف في منزل آل روستوف بعد تلك الليلة، رغم مضي يومَين متتاليَين عليها، وأخيرًا وبعد ثلاثة أيام أُخر، وَصَلتْه من دولوخوف الرقعة التالية:

> لما كنت لا أزمع الحضور إلى داركم للأسباب التي تعرفها، وكنت سألتحق بالجيش قريبًا؛ لذلك فإنني أقيم حفلةَ عشاءٍ هذه الليلةَ لوداع أصدقائي، فتعالَ إذن إلى فندق إنجلترا.

خرج روستوف من الملهى الذي رافق أسرته إليه مع دينيسوف، وقصد فندق إنجلترا حوالي الساعة العاشرة، وهناك اقتاده الخدم إلى أحسن غرفة كان دولوخوف يشغلها تلك الليلة. شاهد روستوف حوالي عشرين مدعوًّا يزدحمون حول مائدة مثقلة بأوراق النقد والقطع الذهبية، وكان دولوخوف جالسًا بين شمعتين مُضاءتين يوزِّع ورق اللعب. شعر نيكولا بشيء من الرهبة للمقابَلة الأولى التي ستقع بينه وبين صديقه الذي لم يَرَه منذ تلك الليلة التي رفضت فيها سونيا طلبه، تقابلت نظرته بنظرة دولوخوف المتَّقِدة الباردة منذ أن وَطِئتْ أقدامه الحجرة وكأن هذا كان في انتظاره. قال دولوخوف: «لقد مضى زمن طويل لم نتقابل خلاله. شكرًا على مجيئك. سوف يصل إيليوشا مع مغنِّيه حال فراغي من هذا «البنك».»

فقال روستوف وقد تضرج وجهه: «لقد مررت بدارك مرتين أو ثلاثًا فلم أجدك.»

وقال دولوخوف دون أن يلقي بالًا إلى تلك الملاحظة: «يمكنك المراهَنة إذا شئت.»

تذكَّر نيكولا فجأةً حديثًا مثيرًا دار بينه وبين دولوخوف ذات يوم، لقد قال له هذا: «ليس إلا الحمقى الذين يلعبون على السعادة الصغرى.»

أردف دولوخوف باسمًا وكأنه يقرأ ما في طويته: «هل يخيفك أن تقامر معي؟»

ومن خلال تلك الابتسامة برزت لعينَيْ روستوف حالة صديقه النفسية التي كانت تسيطر عليه دائمًا كلما مرَّ به وقتٌ طويل دون تبديل، فتتوق نفسه — كما حدث يوم حفلة النادي الإنجليزي — إلى الخروج من ذلك الجمود بتصرُّف غريب شاذ، كان غالبًا شديدَ القسوة أيضًا.

وكان نيكولا غير منشرح الصدر، فراح يتساءل عن الدعابة التي سيردُّ بها على صاحبه عندما حدجه هذا في أعماق عينيه، وقال وهو يضغط على الألفاظ ويقرعها قرعًا؛ ليَسمَع الموجودون حديثه: «أتذكر ما كنا نقوله ذات يوم من أن الحمقى وحدهم هم الذين يلعبون بالسعادة الصغيرة؟ ينبغي أن يقامر الإنسان بكل شيء، وهذا ما سأحاوله الآن.»

فراح روستوف يتساءل: «تُرى هل أجرب حظي فقط أم أقامر بكل شيء؟»

أعقب دولوخوف قائلًا وهو يمزِّق الورقة المحيطة بورق اللعب: «ثم إنك تُحسِن صنعًا إذا امتنعت عن اللعب. «بنك» أيها السادة.»

وبعد أن نثر دراهمه أمامه راح يقطع الورق ويوزِّعه. جلس روستوف بجانبه وامتنع بادئ الأمر عن الرهان، فألقى عليه دولوخوف نظرةً وقال: «إذن أَلَا تلعب؟»

والغريب في الموضوع أن نيكولا شعر كأنه مُرغَم على اللعب، فأخذ ورقة ووضع عليها مبلغًا تافهًا؛ قال مفسِّرًا: «لست أحمل مبلغًا معي.»

– «سأقرضك.»

وضع روستوف خمسة روبلات على ورقة فخسرها، فكرَّر العمل وخسر كذلك، وهكذا حطَّم دولوخوف عشر ورقات متتالية كان روستوف يقامر عليها. وبعد أن استأثر ﺑ «البنك» فترةً قال: «أيها السادة، أرجوكم أن تضعوا نقودكم على الورقة بالذات، وإلا فإنني قد أخطئ في الحسابات.»

فاحتجَّ أحد اللاعبين بقوله: «نحن قوم موثوقون على ما أظن.»

فأعقب دولوخوف قائلًا: «لا شك، لكنني أخشى أن أخطئ. أرجو إذن أن تضعوا نقودكم على الورقة.» وأردف يحدِّث روستوف: «أمَّا أنت فلا تنزعج؛ سوف نسوِّي الأمر بيننا فيما بعد.»

استمر اللعب، واستمر الخادم يصب الشمبانيا في الكئوس.

تحطَّمت كل أوراق روستوف فخسرت، وارتفع دينه إلى ثمانمائة روبل. همَّ أن يغامر بهذا المبلغ على ورقة جديدة، لولا أن أمسك عندما كان الخادم يصبُّ له الشمبانيا، وقرَّر أن يعود إلى مبلغه العادي — عشرين روبلًا — الذي ما برح يُقامر به تباعًا.

قال له دولوخوف وهو يتظاهر بأنه لا ينظر إليه: «قامِرْ بالمبلغ كله، أَلَا ترى أنني أخسر مع الجميع إلا أوراقك أنت؛ فإنني «أحطِّمها» دائمًا! أتراك تخاف مني مثلًا؟

خضع روستوف للإيحاء. الْتَقط من الأرض ورقةَ «السبعة الكبا» من الأوراق الممزقة — وقد ظلَّت ذكرى تلك الورقة في مُخيِّلته زمنًا طويلًا — وكتب على ظهرها رقم «٨٠٠» بأحرف معتدلة وبخط جميل، ثم ازدرد كأس الشمبانيا الساخنة التي كانوا في تلك اللحظة يطوفون بها على الضيوف، وابتسم لدولوخوف ردًّا على جملته وانتظر واجِفَ القلب وعيناه شاخصتان إلى يدي «البانكيه» متأملًا أن يقلب له البنك رقم «٧». لقد كان ربح تلك الورقة «السبعة الكبا» أو خسارتها يشكِّل بالنسبة إليه خطورة كبيرة؛ إذ إن إيليا آندريئيفيتش رغم عدم إمساكه على ولده وتقتيره، طلب منه يوم الأحد المنصرم أن يقتصد في نفقاته، وأعطاه ألفَيْ روبل قائلًا إنه لن يستطيع إمداده بمبلغ آخر قبل شهر آيار المقبل لأسباب وجيهة.

وكان نيكولا قد أكَّد له حينئذٍ أن ذلك المبلغ سيكفيه لنفقاته حتى الربيع المقبل، مهما بلغت تلك النفقات من إفراط، وأقسم له بكل الآلهة أنه لن يطلب منه شيئًا حتى ذلك التاريخ، وهو الآن بعد أن خسر ثمانمائة روبل لم يبقَ له من مجموع نقوده إلا ألف ومائتا روبل فقط. وكان مصير تلك الروبلات الثمانمائة متوقفًا على تلك «السبعة الكبا»؛ لأنه ما كان سيخسر ألفًا وستمائة روبل فحسب، بل إنه سيخون الوعد الذي قطعه على نفسه؛ ولهذا كله كان قلقه عظيمًا وهو يرقب يدَيْ دولوخوف. راح يحدِّث نفسه قائلًا: «هيا، أعطني هذه الورقة وأسرع لأمضي إلى حيث سأتناول الطعام مع دينيسوف وناتاشا وسونيا، وأقسم غير حانث هذه المرة على أنني لن أقرب الورق بعد اليوم أبدًا.»

وفي تلك الأثناء، خطرت على باله أتفه الحوادث التي مرت عليه في حياته العائلية: دعابات بيتيا وتبجُّحاته، والأحاديث مع سونيا، وثنائي الغناء مع ناتاشا، وموقفه مع أبيه، بل وتقلُّباته فوق سريره الوثير، وبدت في خياله بهجة تلك السعادة الماضية الضائعة التي يحسن التمسُّك بها والإبقاء عليها بكل قوة ووضوح، وما كان يتقبل أن يكون مصيره الآن مرتبطًا بصدفة سخيفة تجعل «سبعة» إذا جاءت إلى اليمين، أو سقطت إلى اليسار تعكِّر عليه صفو حياته، وتحرمه ذلك اليمين الذي استعاده في خياله بكل تفاصيله ودقائقه؛ لتغمره في جحيم الأمواج السيئة المجهولة منه. كلا، إن ذلك لا يمكن أن يكون. مع ذلك، فقد كان يتابع بقلق كل حركة من حركات يدَيْ دولوخوف الحمراوَيْن العظميتين، اللتين كان الشعر الذي يغطي ساعدَيْهما ظاهرًا عند المعصمَين، تضعان الورق على المائدة لتمسك إحداهما بالغليون، والأخرى بالكأس؛ كأس الشمبانيا.

كرَّر دولوخوف قوله: «إنك إذن لا تخاف من اللعب معي، أليس كذلك؟»

وأسند ظهره إلى مقعده، وأنه سيقصُّ على الحاضرين قصة ممتعة، وهو مستلقٍ في جلسة مريحة، وغمرت شفتيَه ابتسامةٌ بطيئة وقال: «نعم أيها السادة، لقد تلفَّظت مرةً بقولٍ مُفاده أنني أُعتبر غشاشًا في اللعب في موسكو؛ لذلك فإنني أنصحكم أن تكونوا على حذر.»

فقال روستوف: «هيا، وزِّع الورق.»

فأجاب دولوخوف وهو يعود إلى الورق فيمسك به والابتسامة لا تفارق شفتَيه: «آه، من نساء موسكو العجائز!»

ورفع يديه إلى شعره. لقد كانت السبعة التي هو في مسيس الحاجة إليها أول ورقة من الأوراق، وبذلك لم تصل إليه، ومعنى ذلك أنه خسر أكثر مما كان يستطيع أن يدفع.

فقال له دولوخوف وهو يحدجه بطرف عينه: «لا تجزع، هه!»

وعاد يوزِّع الورق من جديد.

الفصل الرابع عشر

خسارة روستوف

بعد ساعة ونصف الساعة، كان معظم اللاعبين في غرفة دولوخوف لا يقامرون إلا شك ليًّا. لقد تركَّز اللعب كله في روستوف وحده. لقد بلغ دينه عمودًا طويلًا من الأرقام بلغ مجموعها عند جمعها أكثر من عشرة آلاف روبل، بعد أن كان لا يتجاوز الألف والستمائة روبل، بل إن رقم عشرة آلاف كان منذ حين، أما الآن فإنه ارتفع — ولا شك — إلى خمسة عشر ألفًا أو أكثر. والحقيقة أن المجموع تجاوز العشرين ألف روبل. توقَّف دولوخوف عندئذٍ عن الإصغاء إلى أقوال الآخرين، وأمسك عن سرد القصص، وراح يُراقب كل حركة من حركات روستوف ويحصي مجموع الحساب بعينه. لقد قرَّر الاستمرار في اللعب حتى يصل المبلغ إلى ثلاثة وأربعين ألف روبل، وكان روستوف متكئًا على المائدة ورأسه بين يديه، وأمامه الأرقام تغطي المائدة الملوثة بالخمر المراقة والمحمَّلة بأوراق اللعب.

كان شعور مسيطر طاغٍ مستوليًا عليه: هاتان اليدان، هاتان اليدان الحمراوان العظميتان اللتان يظهر الشعرُ عند رسغيهما، هاتان اليدان اللتان كان يحبهما ويمقتهما بنفس الوقت كانتا تجعلانه تحت رحمتهما.

«ستمائة روبل، آس، مضاعف، تسعة ... لم يَعُد هناك أمل في استعادة الخسارة! آه! كم كنت أتسلَّى عندك! «شاب» على «صفر»، لكنْ كلَّا، بالله! لِمَ يُعامِلني بهذا الشكل.»

كان إذا همَّ بالمساهمة بمبلغ كبير تهرَّب منه دولوخوف وحدَّد بنفسه المبلغ الذي يقبل المجازفة به، وكان روستوف يستنجد بالله محاولًا الظهور بمظهر الهادئ، وكان ابتهاله يشبه ذاك الذي رفعه بخشوع إلى الله عندما كان في معركة آمستيتين. كان يتصور حينًا أن ورقة «كذا» الأولى من رزمة الأوراق التي كانت توزِّعها اليدان الحمراوان قادرة على إنقاذه، وأخرى كان يَعُد خيوطَ الخرج على سترته ويُقامِر على الورقة التي تتساوى مع عددها، آملًا أن يستعيد كل خسارته دفعة واحدة. كان تارةً يستجدي الإلهام من

وجود الآخرين، وطورًا يتفحَّص وجه دولوخوف الذي غدا جامدًا متحجرًا، محاولًا سبر أعماقه ومعرفة نواياه.

«رباه! إنه يعرف مع ذلك معنى هذه الخسارة بالنسبة إليَّ. لا يمكن أن يكون راغبًا في دماري؛ لقد كان صديقي، لقد كنت أحبه وأوده … لكن الخطيئة ليست خطيئته. ما هو ذنبه إذا كان الحظ يحالفه؟! وأنا، ما هو ذنبي؟ إنني لم أرتكب فعلة مؤذية، إنني لم أقتل ولم أحقِّر إنسانًا! فلمَ إذن هذا الطالع السيئ؟ ومتى بدأ هذا النحس؟ منذ لحظات اقتربت من هذه المائدة لأربح مائة روبل، كنت مُزمِعًا شراء الصندوقة التي سأقدِّمها لأمي بمناسبة عيدها، على أن أعود بعد ذلك مباشرةً إلى الدار. لقد كنت عظيم السعادة آنذاك، شديد الغبطة ممتلئًا بالحرية! إنني ما كنت أفهم سعادتي، فمتى إذن أخلَتْ مكانها ليحلَّ محلها هذا الموقف الجديد الرهيب؟ بأي بادرة وقع هذا التحول العظيم؟ إنني لم أبارح مكاني هذا، ولم أتوقف عن أخذ الورقة تلو الورقة واللعب بها، ولم أنفك عن النظر إلى هاتين اليدين الحمراوين البارعتين، فمتى تم ذلك؟ وما هو هذا الشيء على وجه التحديد؟ إنني في صحة طيبة، قوي نشيط، لم أتبدَّل ولم أبدِّل مكاني. إن كل هذا ليس إلا حلمًا مزعجًا ولا شك.»

كان أحمر الوجه يسبح في العرق رغم أن حرارة الغرفة كانت مقبولة معتدلة. كان وجهه يخيف ويستدعي الشفقة معًا، بسبب المجهودات الخارقة التي كان يبذلها ليظهر بمظهر الهادئ المتَّزِن.

وأخيرًا وصل الحساب إلى الرقم الرهيب: ثلاثة وأربعين ألف روبل! كان روستوف يستعدُّ للمقامرة بالثلاثة آلاف الفائضة التي ربحها على أساس الازدواج عند الربح Paroli، عندما ترك دولوخوف الورق من يده بحركة قوية وراح يجمع الأرقام التي يدين له بها. ولما كان يضغط بشدة على قطعة الحكك التي كان يسجِّل بها الرقم الهائل، فقد تفتَّتَتْ بين أصابعه، قال: «لقد أزف الوقت أيها السادة. ها قد وصل البوهيميون في الوقت الملائم.»

والحقيقة أن عددًا من الرجال والنساء سُمْر الوجوه دخلوا الغرفة في تلك اللحظة حامِلين معهم البرد من الخارج، يتحدثون فيما بينهم بلهجةِ أهل بوهيميا. فهم نيكولا أن كل شيء قد انتهى، فلم ينطق إلا بجملة واحدة وبلهجة مَن استأثر اللعب بلُبِّه — لا الخسارة — فانفعل: «كيف؟! ألَا تستمر؟! مع ذلك فقد كنت مُهيِّئًا لك ورقةً كنت ستخسر بها ولا شك.»

فكَّر في نفسه: «لقد انتهى كل شيء، لقد ضعت! لم يبقَ أمامي إلا أن أفرغ غدارتي في رأسي.» فقد كرر بوداعة: «نعم، ورقة ممتازة! هيا، جولة ثانية!»

فقال دولوخوف الذي كان قد انتهى من عمليات الجمع: «ليكن، سنبدأ من واحد وعشرين روبلًا.»

وأشار إلى هذا الرقم الذي كان فائضًا عن الأرقام الكبيرة الأخرى، عن مبلغ ثلاثة وأربعين ألف روبل! ثنى جانب ورقته ليسجِّل عليها رقم ٢١.

فقال روستوف: «سيان عندي. كل ما أرغب فيه هو معرفة ما إذا كنت ستعطيني عشرة أم إنك ستحطِّم ورقتي كالعادة.»

خلط دولوخوف الورق ووزَّعه بعناية فائقة مركَّزة. أوه! كم كان روستوف يحقد على تينك اليدين في تلك اللحظة، تينك اليدين الحمراوين بأصابعهما القصيرة، اللتين كان الشعر يظهر فوق معصمَيهما، واللتين كانتا تجعلانه تحت رحمتهما!»

ربحت العشرة فقال دولوخوف وهو ينهض عن المائدة ويتمطَّى بتثاقُل: «إنك مدين لي بثلاثة وأربعين ألف روبل يا كونت! يا للشيطان! كيف يجلس الإنسان كل هذا الوقت دون حَراك؟!»

فقال روستوف: «نعم، إنني الآخر ما عدت أستطيع البقاء.»

غير أن دولوخوف أراد ولا ريب أن ينبِّهه إلى أن دعابته ليست في حينها، فقاطَعَه قائلًا: «متى ستُسدِّد هذا الدَّيْن يا كونت؟»

صعد الدم إلى وجه روستوف حتى غدا بلون الدم، فأمسك بيد دولوخوف وأخذه إلى الحجرة المجاورة، قال معترفًا: «لن أستطيع أن أدفع لك مرةً واحدة؛ سأعطيك سندًا بالمبلغ.»

فقال دولوخوف وهو ينظر في عينيه بنظرته الباردة، وابتسامتُه الجامدة لا تفارق شفتَيه: «أصغِ إليَّ يا روستوف، أنت تعرف المثل القائل: «سعيد في الحب، تعيس في اللعب.» إن ابنة عمك مفتونة بك وأنا أعرف ذلك.»

فكرَّر روستوف في سره: «أوه! يا له من عذاب أليم لمن يشعر أنه تحت رحمة هذا الرجل!» كان يعرف ما سيُحدِثه اعترافه بالخسارة في نفس أفراد أسرته. آه! يا له من سرور بليغ وبهجة لا تُوصَف إنِ استطاع التخلُّص من هذا الموقف المخجِل المعيب! كان دولوخوف يستطيع إنقاذه من هذا الكابوس المريع، وهو يعرف ذلك، لكنه كان يتسلَّى باللعب معه لعبةَ القط والفأر.

فقال دولوخوف بإلحاح: «إن ابنة عمك ...»

غير أن نيكولا قاطَعَه بشدة قائلًا بغضب ظاهر: «لا علاقةَ لابنة عمي في هذا الأمر؛ فدَعْها بسلام.»

– «إذن متى ستدفع لي؟»

فقال روستوف وهو ينسحب وكأن في أعقابه الشيطان: «غدًا.»

الفصل الخامس عشر

في أجواء الحب

أن يقول المرء غدًا بلهجة التأكيد أمرٌ سهل، ولكن أن يعود إلى البيت فيقابل الأخوات والإخوة، والأم والأب، وأن يعترف بالخسارة ويطلب المال رغم الوعد المقطوع أمر مريع مختلف عن الأول.

لم يكن أحد في البيت قد نام بعدُ، هرع الشباب إلى الأرغن عقب وصولهم من المسرح، فلم يكد روستوف يضع قدمه في القاعة الكبيرة، حتى أحس بذلك الجو العاطفي المشبع بالحب والشعر؛ ذلك الجو الذي ظل هائمًا في سماء ذلك البيت طيلة الشتاء، والذي تركز في الأيام الأخيرة، بعد تصريح دولوخوف وحفلة إيوجل الراقصة، حول سونيا وناتاشا، كما يثقل الهواء قبل العاصفة، يحيط به ويغمره. كانت الفتاتان الشابتان في ألبستهما الزرقاء التي ارتديتاها قبل الذهاب إلى المسرح سعيدتين هانئتين، مطمئنتين إلى جمالهما وروعته، تبتسمان وهما واقفتان قرب المعزف. أما فيرا فكانت تلعب الشطرنج مع شينشين في البهو، وكانت الكونتيس تتسلى بلعبة الحظ مع سيدة نبيلة عجوز تقطن في بيتهم، بانتظار عودة ابنها وزوجها، وكان دينيسوف جالسًا إلى المعزف مُشْعث الشعر، برَّاق العينين، دافعًا إحدى ساقيه إلى الوراء قليلًا، يضرب على المعزف بأصابعه القصيرة بقوةٍ وحيوية، ويغني بصوته الأجش، ولكن غير الموزون قصيدة من نظمه عنوانها «الفاتنة» وهو يدير حوله عينيه الكبيرتين، ويبحث عمن يشاركه في الغناء.

أيتها الساحرة، آه! يا لها من قوة تدفعني
إلى إيقاظ هذه الأوتار النائمة!
وبأية قوة تعانقين قلبي؟
وأي هيام تخفق به أصابعي؟!

وبينما كان يهدل بهذه الأنشودة العاطفية كانت عيناه العقيقيتان ترسلان إشعاعاتهما باتجاه ناتاشا، التي كانت مأخوذة وهي مذعورة ذعرًا غامضًا.

هتفت دون أن تلاحظ دخول أخيها: «إن هذا رائع، غنِّ مقطعًا آخر.»

فقال نيكولا في سره: «إن كل شيء إذن يسير في طريقه الهادئ هنا.» وألقى نظرة على البهو فرأى فيرا وأمه والسيدة العجوز.

هتفت ناتاشا وقد وقع بصرها عليه فهرعت إليه: «آه! ها هو ذا نيكولا.»

سأل: «هل أبي هنا؟»

فقالت ناتاشا دون أن تجيبه على سؤاله: «كم أنا مسرورة لعودتك! إننا نتسلى جدًّا هنا. هل تعرف أن فاسيلي دميتريش قرَّر البقاء يومًا آخر من أجلي؟»

وقالت سونيا: «كلا، إن بابا لم يعد بعد.»

وعلا صوت الكونتيس يقول: «ها أنت ذا أخيرًا يا كوكو. تعال إليَّ يا صديقي!»

أطاع نيكولا نداء أمه فمضى إليها وقبَّل يدها، وجلس بقربها دون أن ينطق بحرف واحد مُستغرقًا في تأمُّل أصابعها وهي تصفُ الورق وترتبه. ومن قاعة الرقص تعالت الضحكات وأصوات بهيجة تتوسل إلى ناتاشا، كان دينيسوف يقول: «كلَّا كلَّا، لن أقبل أعذارًا. إنك مدينة لي بأغنية باركارولا، ويجب أن تغنيها لي، أتوسل إليك.»

قالت الكونتيس وهي تلقي على وجه ابنها الصامت نظرة مستفسرة: «ماذا وقع لك؟»

فأجاب وكأنه مستاءٌ من هذا السؤال الدائم الأبدي: «لا شيء. هل سيعود أبي مبكرًا؟»

– «بلا شك.»

راح نيكولا يخاطب نفسه بقوله: «إن كل شيء يسير في هدوئه المعتاد هنا. إنهم لا يعرفون شيئًا، إلى أين أستطيع اللجوء؟» وذهب إلى القاعة الكبرى.

كانت سونيا شارعة في التمهيد لمقدمة الباركارولا التي كانت تعجب دينيسوف، وكان هذا يفترش ناتاشا بنظراته وهي على وشك الغناء.

راح نيكولا يذرع القاعة بانفعال؛ كان يحدِّث نفسه: «يا لها من فكرة تلك التي جعلته يطلب إليها الغناء وكأنها تجيده أو تقوى عليه! ماذا يجدون في هذا من تسلية؟» بينما كانت تعيد المقدمة وتضبط النغم، عاد يفكر في نفسه: «ربَّاه، ربَّاه! إنني رجل مقضيٌّ عليَّ! لقد فقدت شرفي، رصاصة في رأسي. هذا خير جزاء! إن الأمر يستحق الغناء! أذهب؟ ولكن إلى أين؟ على كل حال، ليغنوا إذا كان قلبهم يطاوعهم على الغناء!»

واستمر في طوافه في القاعة مكتئب الوجه مكفهرَّه، ملقيًا على دينيسوف والفتاتين نظرات شاردة ومتحاشيًا نظراتهم.

كانت عينا سونيا الشاخصتان إليه تسألانه: «نيكولا، ماذا بك؟» لقد خمَّنت من فورها أن أمرًا ما قد وقع له، فراح نيكولا يتهرب من ذلك الاستفسار الصامت.

وناتاشا الحساسة كانت هي الأخرى قد أدركت منذ دخول أخيها أنه في حالة نفسية مضطربة، لكنها كانت في تلك اللحظة شديدة الفرح، بعيدة كل البعد عن الأفكار المزعجة، حتى إنها أبعدت عامدة ذلك الشعور المحزن الذي خامرها. فكَّرت في نفسها: «آه! ما فائدة تبديد مثل هذا الجو المرح السعيد لمشاركة الآخرين فيما يزعجهم؟ ثم إنني مخطئة ولا شك في تصوري. إنه ولا ريب في مثل حالي من الابتهاج والفرح!» وهكذا فإنها لم تخرج في محاكمتها عما ألفه كل الشباب من مناقشة وتفسير في مثل هذا الموقف.

سألت: «هل أنت مستعدة يا سونيا؟»

وشمخت برأسها وباعدت بين ذراعيها على طريقة الراقصات، ومضت بخطوات متحمسة تقرع الأرض حتى بلغت منتصف القاعة حيث المجال السمعي أفضل، وفجأة توقفت.

بدت في وقفتها تلك كأنها تجيب على نظرة دينيسوف المعجبة: «كذلك أنا، إنني كما تراني.»

تساءل نيكولا: «ماذا تجد في هذه الحركات المتصنعة من جمال وفكاهة؟ ألن تنتهي؟ إن هذا معيب.»

أطلقت ناتاشا المقطع الأول من الأغنية، فتمددت حنجرتها وارتفع صدرها، واتخذت نظرتها طابعًا جديًّا. لم تكن في تلك اللحظة تفكِّر في شيء خاص. وراحت الأصوات تنبعث خلال شفتيها المقوستين بشبه ابتسامة، أصوات كان كل إنسان قادرًا على إخراج مثلها، وعلى نسقها وطبقتها، أصوات تجعلنا باردين جامدين ألف مرة، ولكنها في المرة الواحدة بعد الألف تجعلنا نرتعد ونبكي.

كانت ناتاشا استجابةً لإطراء دينيسوف المتحمس لها قد أخذت تغني خلال فصل الشتاء بشكل جدي، وقد تحرر غناؤها من الطابع المضحك الصبياني الذي كان يشوهه من قبلُ، لكنه لم يبلغ حد الكمال، وكان العارفون الخبيرون يقولون: «إنه صوت جميل، لكنه غير متزن بعدُ. ينبغي العناية به لصقله.» ما كانوا يذيعون رأيهم هذا إلا بعد أن تكون ناتاشا قد فرغت من غنائها منذ وقت ليس بالقصير. أما خلال الفترة التي كان

صوتها الخام يرسل أنغامه خلال أنفاسها المبهورة ومحاولاتها الشاقة لإبدال الطبقة أو اللحن، فإن قضاتها القساة ما كانوا يستطيعون التمالُك عن مشاطرتها البهجة والطرب والإحساس بالرغبة الملحة في الإصغاء إلى غنائها أبدًا. كان في صوتها نضرة بتولية، وفيه تنكر لقواه وتأثيراته، ورخامة غير ناضجة بعدُ، تتناسق مع الأخطاء الفنية بشكل يبدو للسامع معه أن أي تبديل أو تحويل فيه قمين بإفساد كل شيء، وتبديد كل المتعة.

تساءل نيكولا وقد اتسعت عيناه دهشة: «ما معنى هذا؟ ماذا حدث لها؟ إنها تغني اليوم بشكل رائع غير مألوف!» لم يلبث حتى استغرق روحًا وجسدًا في انتظار اللحن، وترقب الجملة التالية، وبدا له العالم كله قائمًا في الإيقاع الذي يضبط الأغنية. عاش فيها برهة، وراح يضبط السلم الموسيقي في نفسه: «واحد، اثنان، ثلاثة ... واحد ... اثنان ... ثلاثة ... واحد ... أوه! كم هو سخيف وجودنا! كل هذا والنحس الذي ركبني والغضب والإحراج والشرف. نعم، كل هذا ليس إلا ترهات. هذا هو الحقيقي. تشجعي يا ناتاشا، تشجعي يا صديقتي، ترى هل تستطيع إبراز هذا الـ «سي»؟ مرحى، لقد أحسنت الأداء.» ودون أن يشعر بأنه يغني ليساعدها على إبراز ذلك الـ «سي»، ارتفع باللحن إلى مرحلته الثالثة Tirce في أعلى طبقاته. «ربَّاه! هو بديع! أصحيح أنني أنا الذي أدى هذه النوتة الموسيقية؟ كم كانت ناجحة!»

أوه! كم اهتزَّ ذلك اللحن وتردد في الغرفة! وكم تأثر به روستوف في أعماق فؤاده! كان في تلك اللحظة يحلِّق متساميًا بعيدًا عن كل ما له علاقة بالأرض والعالم. «ماذا تهمُّ الخسارة التي مُني بها في اللعب؟ وماذا يهمه من دولوخوف والوعد المقطوع؟! إن كل هذه ليست إلا ترهات! يستطيع المرء أن يسرق وأن يقتل، ومع ذلك يستطيع بنفس الوقت أن يتذوق السعادة بكل كيانه.»

الفصل السادس عشر

خيبة دينيسوف

لم يشعر روستوف بمثل تلك الرغبة في الإصغاء إلى الموسيقى كما شعر بها ذلك اليوم. مع ذلك، فإن ناتاشا ما كادت تنتهي الباركارولا حتى عاد إليه الإحساس بالواقع. خرج دون أن يتفوه بكلمة ومضى إلى حجرته، وبعد ربع ساعة، عاد الكونت العجوز من النادي وهو على أحسن مزاج، سمع نيكولا صوت مجيئه، فمضى للقائه.

قال إيليا آندريئيفيتش وهو يبسم لابنه ابتسامة فخر مرحة: «هه يا فتاي! هل تسليت؟»

أراد نيكولا أن يجيبه بنعم، لكن قواه خانته واختنق صوته بالعبرات، ولم يلاحظ الكونت حالة ابنه العنيفة؛ لأنه كان يشعل غليونه.

قرر نيكولا أن يخطو الخطوة الرهيبة، وقال يحدث نفسه: «هيا، ينبغي أن أحدثه بكل شيء، وأن أنتهي من هذا الموضوع.» وفجأة، شرع يتحدث بطلاقة أخجلته نفسه، وبمثل اللهجة التي يطلب بها عربة للذهاب إلى المدينة، قال لأبيه: «على فكرة يا أبي، كنت أودُّ محادثتك لأنني في حاجة إلى المال.»

فأجاب الكونت وهو شديد المرح ذلك المساء: «آه، رباه! لقد قلت لك إنك ستنفق كل ما معك، هل يلزمك مبلغ كبير؟»

أجاب نيكولا بابتسامة بلهاء ماجنة، ظلَّ ضميره يوبِّخه من أجلها طويلًا، ووجهه متضرج: «نعم، مبلغ كبير. لقد خسرت قليلًا؛ أعني مبلغًا غير قليل ... بل كثيرًا أيضًا، ثلاثة وأربعين ألف روبل.»

هتف الكونت بشدة بينما تغطَّى عنقه فجأةً بالحمرة الناجمة عن ارتفاع الضغط عند المسنين: «ماذا؟ مع مَن؟ إنك تمزح!»

فأردف نيكولا: «وقد وعدتُ بتسديد هذا الدين غدًا.»

فتهاوى الكونت بيأس على إحدى الأرائك وهو يقول: «رباه!»

فتابع نيكولا بطلاقة: «ما العمل؟ إن هذا يحدث لكل الناس.»

لكنه كان في سرِّه يعتبر نفسه سافلًا دنيئًا لا تكفيه حياته لدفع ثمن جريمته، كان يؤكد لأبيه بطيش ورعونة قريبة من الإهانة أن ذلك يقع لكل الناس، في حين أن واجبه كان يقضي عليه بأن يُقبِّل يديه، وأن يطلب غفرانه وصفحه وهو راكع على ركبتيه.

خفض إيليا آندريئيفيتش أبصاره لدى سماعه تلك الإجابة، وغمغم منتقيًا الكلمات المناسبة: «نعم، هذا مؤكد. لن يكون من السهل تدبير هذا المبلغ، إنني أخشى ذلك. نعم ولا شك، لقد وقع مثل هذا لآخرين ... لقد وقع لآخرين.»

واختلس نظرة سريعة إلى ولده واتجه نحو الباب. كان نيكولا يتوقَّع ممانعة ورفضًا من أبيه؛ لذلك فقد فوجئ بسلوكه ذاك وأُخذ على غرة.»

هتف بين دموعه وتنهداته: «أبتاه! أبتاه! اصفح عني.»

وأطبق على يد أبيه وألصق شفتيه عليها بخشوع، وانخرط في البكاء.

وبينما كان الأب والابن يتفاهمان على تلك الصورة كانت مناجاة أخرى لا تقل عن هذه خطورة تدور بين الأم والبنت، كانت ناتاشا قد هرعت إلى أمها الكونتيس وكلها انفعال وارتباك، قالت: «أماه، أماه! لقد ... لقد ...»

– «ماذا حدث؟»

– «لقد صرح ... لقد صرح بحبه!»

لم تكن الكونتيس تصدق أذنيها. لقد صرَّح دينيسوف بحبه! ولمن؟ لتلك الطفلة ناتاشا التي كانت إلى زمن قريب تلعب بلعبتها، والتي لا زالت تدرس على يد مربية.

قالت الأم آملة أن يكون ذلك محض دعابة: «هيا يا ناتاشا، لا تتفوهي بحماقات.»

فأجابتها ناتاشا بشيء من الدهشة المتألمة: «حماقات! ولكن ليس ما أقوله حماقة أبدًا. إنني أتكلم جديًّا. لقد جئت أسألك الرأي؛ فتحدثيني بهذا الشكل وتتهميننى بالتلفظ بالحماقات!»

هزت الكونتيس كتفيها وقالت: «إذا كان السيد دينيسوف قد طلب يدك فأجيبيه بأنه أحمق، وستغني هذه الكلمة عن مجمل الحديث.»

أصرت ناتاشا على موقفها وقالت بلهجة جدية: «كلا، يا أماه! إنه ليس أحمق.»

فقالت الكونتيس وعلى شفتيها ضحكة مغتصبة: «إذن ماذا تريدين؟ في هذه السن لا تخلو رأس إحداكن من نوع من الحب. حسنًا، إذا كان يعجبك بمثل هذه الشدة فتزوجيه وليباركك الله الرحيم.»

– «لكن كلَّا يا أماه، إنني لا أحب دينيسوف أو — على الأقل — لا أعتقد أنني أهواه.»

– «وإذن قولي له ذلك.»

– «أماه، إنك غاضبة، أليس كذلك؟ لا تنزعجي أرجوك، هل هي خطيئتي؟»

فقالت الكونتيس باسمة: «لكنني لست غاضبة أبدًا. هيا، هل تريدين مني أن أذهب لأتحدث معه؟»

– «كلا، بل إنني سأكلِّمه بنفسي، لكنني أريد منك فقط أن تنبئيني بما يجب عليَّ أن أقوله.»

وأردفت مستجيبة لابتسامة أمها: «ألا ترين أن كل شيء سهل في نظرك؟! آه! ليتك شاهدته عندما حدَّثني عن هذا الأمر! ثم إنني أعرف تمامًا أنه لم يكن يريد أن يقوله، لكن الكلمات أفلتت من فمه.»

– «هذا لا يمنعك من أن ترفضي طلبه.»

– «لكن لا، إن ذلك سيؤلمني أشد الألم! إنه عظيم اللطف!»

فقالت الأم ساخرة: «إذن فاقبلي، ثم ألا ترين أن الوقت قد أزفَ لتتزوجي وكاد أن يفوت!»

– «آه يا أمي! إن ذلك يؤلمني كل الألم. لست أدري كيف أجيبه، وماذا أقول له.»

فقالت الكونتيس في شيء من الغضب؛ لأن بعضهم عامل تلك الطفلة معاملة الفتاة الناضجة: «لست أنت ستتكلمين، بل إنني سأتكفل بذلك.»

– «أوه، كلَّا! سوف أحدِّثه بنفسي وستصغين إلى حديثي من وراء الباب.»

عادت ناتاشا إلى بهو الموسيقى؛ حيث كان دينيسوف جالسًا في مكانه الأول قرب المعزف ورأسه بين يديه. انتفض في مكانه لدى سماعه صوت خطواتها الخفيفة العائدة.

قال وهو يهرع للقائها: «ناتالي، قرري مصيري، إنه بين يديك.»

– «فاسيلي دميتريش، إنك تزعجني كثيرًا! إنك شديد اللطف. حقًّا إن ذلك لا يمكن أن يكون، لكنني سأظل أحبك دائمًا.»

انحنى دينيسوف على يدها، وسمعت ناتاشا أصواتًا غريبة غير مفهومة. ألصقت شفتيها بشعرها الأجعد المشعث، وفي تلك اللحظة ارتفع حفيف ثوب عنيف ينبئ بمقدم الكونتيس.

قالت هذه بصوت منفعل بدا رغم رقَّته على شيء من القسوة في نظر دينيسوف: «يا فاسيلي دميتريش، شكرًا على الشرف الذي تسبغه علينا، لكن ابنتي لا زالت طفلة.

ولقد ظننت أنك بوصفك صديقًا لابني ستبدأ بالاتصال بي أولًا، ولم يكن ذلك — لو عملته — ليدفعني إلى إجابتك بالرفض.»

تمتم دينيسوف مطرق الرأس كالمجرم: «يا كونتيس ...»

ولعله أراد أن يضيف شيئًا إلى كلمته ولكن ارتج عليه.

ولما رأت ناتاشا مبلغ الانقلاب الذي طرأ عليه، لم تتمالك أعصابها وخرجت عن هدوئها بنوبة صاخبة من البكاء والنحيب.

وأخيرًا استطاع دينيسوف أن يقول بصوت متهدج متقطع: «كونتيس، قد أكون مخطئًا في حقك، ولكن اعرفي تمامًا أنني أشعر باحترام لا يوصف نحو ابنتك، ونحو كل أسرتك، لدرجة أنني مستعد لإعطاء حياتين لو كنت أملكها ...»

وتوقف فجأة عندما لاحظ أن هيئة الكونتيس لا زالت موسومة بطابع القسوة، وأخيرًا قال فجأة بشيء من العنف: «هيا، الوداع.»

وقبَّل يد الكونتيس وخرج بخطوات مصممة سريعة دون أن يلقي نظرة على ناتاشا.

وفي غداة اليوم التالي، ودع نيكولا دينيسوف الذي رفض البقاء يومًا آخر في موسكو. كان كل أصدقائه يحتفلون بسفره لدى البوهيميين؛ لذلك فإنه لم يذكر قط كيف حشروه في زحافته، وكيف اجتاز المراحل الثلاثة الأولى.

اضطر نيكولا إلى البقاء في موسكو خمسة عشر يومًا أخرى بانتظار أن يجمع الكونت العجوز المبلغ الذي كان يسعى لإيجاده سدادًا لدين ولده. ولقد أمضى هذه الأيام حابسًا نفسه غالبًا في غرفة الفتاتين، متشاغلًا بالتنظيم والتدوين الموسيقي.

أبدت سونيا نحوه حنوًّا وإخلاصًا أشد من أية مرة مضتْ، كانت تحاول أن تظهر له أن خسارته في القمار تجعله في عينيها أرفع قيمة، وأسمى مكانة، لكن نيكولا كان يعتقد جازمًا أنه لم يعد جديرًا بها.

وفي نهاية تشرين الثاني، استطاع روستوف أن يرسل ثلاثة وأربعين ألف روبل إلى دولوخوف، وأن يأخذ منه براءة ذمة. وبعد ذلك مباشرة سافر إلى وحدته دون أن يتقدم إلى أحد من أصدقائه ومعارفه مُودِّعًا، وكانت فرقته مُعسْكِرةً حينذاك في بولونيا.

الجزء الثاني

لازاروف من بريوبر أزينسك.

الفصل الأول

المسافر الغامض

سافر بيير إلى بيترسبورج غبَّ خصومته مع زوجته، فلما بلغ مرحلة تورجوك ادعى مدير مركز تبديل الخيول أنه لا توجد لديه في تلك الليلة خيول مستريحة، فاضطر بيير إلى الانتظار. تمدد بكامل ثيابه على أريكة جلدية أمام مائدة مستديرة مدد فوقها ساقيه الطويلتين المحتذيتين والمُبطَّنتين بالفراء، واستغرق في خواطره.

سأل وصيفه: «هل أحضر الحقائب؟ هل أعد سريرًا وشايًا؟»

غير أن بيير لم يجبه، كان لا يسمع ولا يرى شيئًا، كانت أفكاره وتصاميمه تدور حول موضوع شديد الخطورة منذ المرحلة الأخيرة، حتى إنه ما كان يعير كل ما يدور حوله أي التفات، ما كان يهتم للوصول إلى هدفه عاجلًا أم آجلًا، ولا بأن يجد في هذه المرحلة سريرًا أو لا يجد، بل إنه ما كان يهتم إذا أمضى في هذا المكان ساعات معدودات أم قضى العمر كله فيه؛ لشدة انهماكه في أفكاره التي كانت تشغل كل انتباهه.

وكان مدير المركز وزوجته ووصيف بيير وبائعة جلود[١] يتناوبون دوريًّا في المثول بين يدي بيير عارضين عليه خدماتهم، فكان بيير يتأملهم خلال نظارتيه دون أن يُبدِّل وضعيته أو أن ينزل ساقيه، غير مدرك ما يريدون ولا كيف استطاعوا أن يعيشوا حتى الآن دون أن يوفَّقوا إلى حل المعضلات التي كانت تدمي فؤاده وتعذبه. وكانت هذه المعضلات هي هي، لم تتبدل منذ أن طرح على نفسه تلك الأسئلة بعد عودته من المبارزة في غابة الفوكونييه؛ تلك الأسئلة التي ظل يفكر فيها طيلة ليلة الأرق الرهيبة التي قضاها آنذاك، لكن عزلة السفر جعلت تلك الأسئلة أكثر إلحاحًا وأشد وقعًا، فكان كلما حاول

[١] إن الدباغات في تورجوك مشهورة، ومن هذه المدينة تخرج معظم الجلود الروسية الشهيرة.

أن يفلت منها خلال ثغرة ما، أو أن يزوغ أمامها؛ عادت إليه تهاجمه وتحدق به دون أن يستطيع إيجاد أجوبة لها وحلول، وكأن المحور الرئيسي في كيانه وحياته قد تركز في رأسه وغُرس فيه، فكان يشعر في ذلك المحور ثابتًا لا يحاول النفاذ إلى أبعد من مكان وجوده، ولكنه لا يحاول الخروج من مكانه كذلك، بل يكتفي بالدوران في مكانه دون أن يلف حوله شيئًا، وكذلك دون أن يتوقف عن الدوران أبدًا.

جاء رئيس المركز يرجو سعادته بخضوع أن يتفضل بالانتظار ساعتين صغيرتين؛ حتى يستطيع بعدها أن يُقدِّم على مسئولياته الشخصية وعهدته خيول عربة البريد لسعادته. كانت تلك كذبة واضحة؛ لأن الرجل الطيب كان يحاول أن يسحب من الرجل المسافر الثري أكبر جانب ممكن من المال.

تساءل بيير: «هل يتصرف تصرفًا حسنًا أم سيئًا؟ إنه على حق فيما يتعلق بي، ولكن إذا عامل مسافرًا آخر على هذه الصورة، فإنه يكون مخطئًا. أما هو فإنه على صواب؛ لأنه فقير لا يجد ما يتبلغ به، ولا يستطيع كسب عيشه إلا بهذه الوسيلة. لقد ادعى ضابط جاء منذ حين يطلب بدلًا لعربته، فلما امتنع ضربه وقسا عليه، فإذا كان حقيقيًّا، فإن معناه أن الضابط كان على عجلة من أمره. لقد أطلقتُ النار على دولوخوف لأنني ظننتُ أنه أهانني، ولويس السادس عشر؛ ألم يعدموه لأنهم اعتبروه مجرمًا؟ وبعد عامٍ أعدموا أولئك الذين حكموا عليه من قبلُ؟ ولا شك أنه كانت لديهم أعذارهم أيضًا. ما هو السيئ؟ وما هو الحسن؟ ماذا ينبغي أن يحب المرء؟ وماذا يجب أن يكره؟ لماذا ينبغي أن يعيش المرء؟ وما هو «الأنا»؟ ما هي الحياة؟ وما هو الموت؟ وما هي القوة التي تسير كل هذا؟»

لم يكن يجد على كل هذه الأسئلة إلا جوابًا واحدًا لم يكن جوابًا في حد ذاته: «ستموت يومًا وتنتهي، ستموت وستعرف كل شيء، أو ستكف عن طرح الأسئلة على نفسك.» ولكن أن يموت كان ذلك شيئًا رهيبًا.

كانت البائعة تعرض بضاعتها على بيير بصوتها الثاقب، وبصورة خاصة كانت تقدم له أحذية من «الشيفرو» (جلد الجديان). قال يحدث نفسه: «إن معي مئات من الروبلات لست أدري ماذا أعمل بها. وهذه المرأة بفروتها الممزقة تسألني بخضوع أن أساعدها، ولكن هل هي في حاجة حقيقية إلى المال؟ هل يستطيع المال أن يشتري أوقية من السعادة وراحة الفكر؟ كلَّا، لا شيء في الدنيا يستطيع أن يجعلها أو يجعلني أقل خضوعًا للسوء أو للموت، ذلك الموت الذي سينهي كل شيء، والذي سيأتي اليوم أو غدًا، ولا قيمة لذلك؛ لأنه لن يكون إلا لحظة بالقياس إلى الأبدية.» ومن جديد اصطدم بالمحور الذي يدور في الفراغ حول نفسه دون أن يأتي بما يفيد، دورات لا طائل تحتها ولا جدوى.

قدم له خادمه كتابًا قطعت نصف صفحاته. كان ذلك الكتاب عبارة عن رواية في رسائل لمدام دوسوزا. راح يقرأ قصة الصراع الجبار الصالح الذي قامت به من تدعى آميلي دومانسفلد.[٢] راح يتساءل: «لماذا تقاوم وتمانع من فتنها طالما أنها تحبه؟ إن الله ما كان ليضع في نفسها رغبات ضد رغبته. إن زوجتي السابقة لم تناضل — هي — ولعلها كانت على صواب! لم يُكتشف شيء ولم يُخترع شيء. إن كل ما نستطيع معرفته هو أننا لا نعرف شيئًا. هذه هي الدرجة القصوى في الحكمة الإنسانية.»

كان كل شيء في نفس بيير وحوله يبدو بعينيه ارتجاجًا مزعجًا، وصخبًا غريبًا مخالفًا للمألوف، لكن ذلك التناقض كان يتيح له في ثنياته لونًا من المتعة والإغراء.

قال رئيس المركز وهو يُدخل مسافرًا آخر، كان افتقار المركز للخيول يرغمه على التريث هو الآخر: هل تتفضل سعادتكم — إذا كان ذلك لا يضايقكم — بإعطاء مكان صغير لهذا السيد؟

كان المسافر عجوزًا، قصيرَ القامة، بارزَ العظام، أصفرَ الوجه مُتَقلِّصهُ، يبرز حاجباه الأشهبان فيظلَّان عينين براقتين بلون رمادي غير مركز.

رفع بيير ساقيه عن المائدة ومضى يستلقي على السرير الذي أُعد له، ملقيًا بين الحين والآخر نظرة على القادم الجديد الذي لم يكن يعيره التفاتًا، بل كان — كما يبدو عليه — مكتئب الوجه متعبًا، يتخلص بصعوبة من فَرْوتِه، يساعده على ذلك خادمه. أما ثيابه الداخلية فكانت عبارة عن جلد خروف مبشور مغطًّى بنسيج قطني أصفر، وحذاءين من اللباد المتين يرتفعان حتى أعلى ساقيه الهزيلتين المعروقتين. جلس على الأريكة في ذلك التجهيز وكفأ رأسه الكبير الحليق ذا الصدغين العريضين على مسندها، وعندئذ فقط ألقى على رفيقه نظرة جعلت بيزوخوف يُفاجَأ ببيانها الصارم الحارق المتخلخل. شعر برغبة في الدخول في حديث مع ذلك المسافر، فهمَّ بسؤاله عن حالة الطريق، لكن العجوز كان قد أغمض عينيه، وعقد يديه المغضنتين الهزيلتين التي يزين إصبع إحديهما خاتم كبير من المعدن على شكل جمجمة ميت، ولبث جامدًا مستغرقًا في بحران هادئ عميق كما خُيل لبيير. أخرج خادمه — وكان عجوزًا خفيف الحركة، قصير القامة، أجرد الوجه، ذا صفرة متقلصة كوجه سيده تمامًا، يُرى بوضوح أنه لم يحلقه يومًا ما، بل ولم يكن يومًا يحوي

[٢] جاء في الترجمة الفرنسية حاشية بقلم المترجم هنري مونجو: أن تولستوي أخطأ في إيراد هذا الاسم؛ لأن رواية آميلي دومانسفلد التي وضعت عام ١٨٠٣ ليست لمدام دوسوزا، بل لمدام كوتان.

على لحية وشاربين — أدوات الشاي، وجاء «بسماور» يغلي الماء فيه. ولما انتهى كل شيء، فتح السيد عينيه واقترب من المائدة؛ حيث أعد لنفسه قدحًا من الشاي، وقدَّم آخر إلى الرجل الأجرد. شعر بيير بكآبة غامضة، وأحس بضرورة ملحة تدفعه إلى توجيه الحديث إلى المسافر.

أعاد الخادم بعد حين قدحه فارغًا ومقلوبًا على صحيفته، دلالة على أنه لا يرغب في قدح آخر، وإلى جانبه قطعة السكر الفائضة عن استهلاكه، وسأل سيده عما يرغب فيه من خدمات.

فأجابه هذا: «كلا، لا شيء، أعطني كتابي.»

قدم له الخادم كتابًا خمَّن بيير أنه يبحث في شئون النسك والورع، واستغرق في قراءته. أما بيير الذي كانت عيناه في تلك اللحظة محولة نحو المسافر العجوز، فقد شاهده فجأة يضع الكتاب من يده ويغلقه، ويعود إلى وضعه الأول مغمض العينين، منكفئ الرأس على مسند الأريكة. همَّ بيير أن يستدير، لكنه لم يجد الوقت الكافي لذلك؛ إذ إن العجوز فتح عينيه فجأة وراح يتفحص وجهه بصرامة وتصميم.

شعر بيير بالارتباك؛ كان يحب من كل نفسه أن يفلت من تينك العينين اللامعتين اللتين كانت لهما جاذبية لا تقاوم.

الفصل الثاني

أوسيب بازدييف

قال المسافر الغريب بصوته القوي المتزن: «إذا لم أكن مخطئًا، فإن لي شرف التحدث مع الكونت بيزوخوف، أليس كذلك؟»

لم ينبس بيير ببنت شفة، بل اكتفى بالنظر إليه خلال نظارتيه نظرة مستفسرة. أردف المسافر الغريب يقول: «لقد سمعتهم يتحدثون عنك يا سيدي وعن المصيبة التي أصابتك.»

كانت لهجته وهو ينطق بتلك الجملة تؤيد معنى الكلمات وكأنها تقول: «نعم، إنها مصيبة مهما أطلقت عليها من أسماء أخرى. إنني أعرف أن ما وقع لك في موسكو مصيبة.»

أردف: «إنك تراني يا سيدي شديد الغم.»

احمر وجه بيير، فوضع قدميه على الأرض بسرعة ومال إلى العجوز وعلى شفتيه ابتسامة رسمها الخجل والضيق.

تابع المسافر العجوز قوله: «إنني لم أحدثك يا سيدي عن هذا الأمر لمجرد فضول عابر، بل لأسباب أجل شأنًا.»

صمت المتحدث دون أن يغفل عن النظر إلى بيير، ثم تحرك في مقعده داعيًا بيير في حركته إلى الجلوس بجانبه. شعر بيير بدافع يرغمه على إطاعة ذلك النداء الصامت، رغم نفوره من الامتثال له، استرسل المسافر: «إنك تعيس يا سيدي، إنك شاب وأنا كهل، وإنني أريد أن أساعدك في حدود طاقتي وإمكانياتي الشخصية.»

فقال بيير بابتسامة مغتصبة: «آه! نعم، سأكون شاكرًا لك صنيعك. من أين أتيت؟»

استأنف العجوز الكلام: «مع ذلك، إذا كنت تجد لسبب أو لآخر أن حديثي يزعجك أو يضايقك؛ فأرجو أن تنبئني بذلك يا سيدي العزيز.»

كان لهذا الرجل وجهًا عابسًا، بل وجامدًا وصارمًا. مع ذلك، فإن وجهه وأبحاثه كانتا تفرضان جاذبية لا تقاوم على بيير. ولما انتهى من جملته الأخيرة، ابتسم فجأة ابتسامة أبوية حانية ما كانت تُنتظر منه.

أجاب بيير وهو يفحص عن قرب خاتم صديقه الجديد: «كلَّا البتة، بل على العكس، إنني مفتون بالتعرف إليك.»

ولما تأكد أن الخاتم يحمل جمجمة ميت، وهي رمز الماسونية، قال له: «اسمح لي بسؤال: هل أنت ماسوني؟»

فقال المسافر وقد ازدادت نظرته غوصًا في أعماق نظرة بيير: نعم، إنني منتسب لجمعية الماسونية، وإنني باسمي واسم إخواني أمدُّ لك يدي الأخوية.

أجابه بيير باسمًا، تتجاذبه عوامل الثقة التي توحيها إليه شخصية ذلك العجوز، وميله إلى الهزء من المعتقدات الماسونية: أخشى كثيرًا، أخشى كثيرًا أن لا أستطيع ... كيف أعبر لك؟ ... أخشى أن تكون نظرتي إلى العالم ومعتقداتي بعيدة جدًّا عن معتقداتك حتى ليتعذر التفاهم بيننا.

استأنف الماسوني حديثه: «إنني أعرف أفكارك، إنها ليست خصوصية ثابتة من أعماق نفسك، إنها الثمرة العامة للكبرياء والجهل وكسل الذهن. إن السواد الأعظم من الناس يؤمنون بها. اعذرني يا سيدي العزيز، ولكن لو أنني ما كنت أعرف أسلوبك في التفكير لما عقدت معك هذا الحديث. إن آراءك ليست إلا خطيئة محزنة.»

اعترض بيير بابتسامة واهنة وقال: «إنني أستطيع وصف معتقداتك بمثل هذا الوصف.»

قال الماسوني الذي أخذت لهجته الحازمة الواضحة تدهش بيزوخوف أكثر فأكثر: «لن أجرؤ أبدًا على الادعاء بأنني حاصل على الحقيقة. إن أحدًا من المخلوقات لا يستطيع بأضوائه الخاصة أن يبلغ إلى الحقيقة. إن المعبد الذي سيكون المقام الجدير بالله الكبير لم يبن إلا حجرًا حجرًا، بالتعاون بين «الكل»، وبفضل ملايين الأجيال التي تعاقبت منذ سلفنا آدم إلى اليوم.

وأغمض العجوز عينيه، فقال بيير وكأنه يخضع آسفًا لدافع عدم إخفاء شيء الذي نبت في نفسه: إنني مضطر للاعتراف لك بأنني ... إنني لا أومن ... بالله.

تأمله الماسوني باسمًا ابتسامة رجل غني يملك الملايين، جاءه صعلوك فقير يشكو له عجزه عن إيجاد الروبلات الخمسة التي فيها كل سعادته، قال: «إن هذا صحيح يا سيدي، إنك لا تعرفه ولا تستطيع أن تعرفه، ولأنك لا تعرفه تشعر بالتعاسة.»

قال بيير: «الحق أنني تعيس، ولكن ماذا أستطيع أن أعمل؟»

قال الماسوني بصوت قاسٍ ولكن مرتعد: «إنك لا تعرفه يا سيدي العزيز؛ ولهذا السبب أنت تعيس، إنك لا تعرفه وهو هنا. إنه فيَّ، في كلماتي، بل إنه فيك أنت — وهنا استعمل صيغة المفرد واستمر يستعملها حتى نهاية الحديث — بل وهو في تلك الجمل الدنسة التي نطقت بها منذ حين.»

صمت الماسوني وأطلق زفرة، ولعله كان يحاول استرداد هدوئه. استأنف بلهجة أقل عنفًا من الأولى: «لو أنه لم يكن موجودًا يا سيدي لما كان في هذه اللحظة موضوع جدلنا وبحثنا، عمَّ وعمن نتحدث الآن؟ مَن هو الذي أنكرته؟»

وصاح فجأة بتلك اللهجة الجليلة الآمرة: «من الذي اخترعه لو أنه لم يكن موجودًا؟ من أين جاءتك فكرة وجود كائن لا يمكن فهمه وإدراكه وتصوره؟ من أين أتى العالم كله وأنت نفسك بفكرة كائن شديد القوة أزلي وغير محدود في كل صفاته؟»

توقف وصمت فترة طويلة، فلم يستطع بيير ولم يُرِد كذلك أن يخرق حجاب ذلك الصمت.

استأنف الماسوني حديثه وعيناه تنظران أمامه بدلًا من التحديق في وجه بيير، بينما كانت يداه المعقدتان تتصفحان كتابه بتأثير اضطرابه الداخلي وانفعاله: «إنه موجود، ولكنهم لا يفهمونه بسهولة. لو أن الأمر كان مقتصرًا على رجل تشك في وجوده لأتيت به إليك ولأمسكت بيده وعرضته على ناظريك.»

– «ولكن كيف أستطيع وأنا الفاني الحقير أن أُري جلالته — جل وعلا — وأزليته ورحمته التي لا حدود لها للذي هو أعمى أو مُغلِق عينيه كيلا يرى بهما ولا يفهمه، للذي لا يرى ولا يفهم شناعته، وبشاعته الشخصية، وفساد أخلاقه؟»

وصمت برهة وتحرك في جلسته وأردف بابتسامة ساخرة: «من أنت إذن؟ نعم، من أنت؟ إنك تعتقد أنك حكيم لأنك قادر على النطق بهذه الكلمات الدنسة، لكنك في الحقيقة لست إلا أكثر حمقًا وأكثر سخفًا من الطفل الصغير، الذي بعد أن لعب فترة طويلة بأجزاء ساعة متقنة الصنع يجرؤ على القول أنه طالما لم يفهم الغاية من هذه الساعة، فإنه لا يؤمن كذلك بالصانع البارع الذي صنعها. نعم، إن من الصعب معرفته. لقد عملنا منذ قرون، منذ سلفنا آدم حتى اليوم في تلك المعرفة، ولا زلنا حتى الآن بعيدين جدًّا عن بلوغ غايتنا، لكن هذا العجز إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على ضعفنا إزاء عظمته.»

راح بيير يحدِّق في وجه الماسوني بعينيه اللامعتين وقلبه يكاد يكفُّ عن الخفقان. كان يصغي إلى توكيدات هذا المجهول دون أن يقاطعه، أو أن يطرح عليه سؤالًا، وكان

يؤمن ولا ريب في أقواله. ترى هل يستسلم للمنطق الذي في نقاشه؟ هل يدع نفسه يقاد كالطفل بحرارة أقوال هذا الرجل، والانفعال الذي كان يخالط صوته فيجعله يرتعد حينًا ويتقطع أحيانًا؟ هل يخضع لسحر تلك النظرة التي يلتمع فيها نور إيمان مخلص؟ هل كان ذلك الإشراق وتلك الثقة الحَوَارية[١] ينكدانه بالقدر الذي كان يتناقض تمامًا مع كآبته الشخصية وفساده الخلقي؟ مهما كان الأمر، فإنه كان راغبًا في الإيمان بتلك الأقوال، مؤمنًا بها، يشعر بإحساس منشط مجدد يُخفِّف من حدَّة آلامه ويعيده إلى الحياة.

بيير يلتقي ببازدييف.

وأنهى الماسوني كلامه قائلًا: إن الذكاء لا يمكن أن يدركه، لكن الحياة وحدها هي التي تقود إليه!

[١] نسبة للحَوَاريين أصحاب السيد المسيح.

شعر بيير بقلقٍ بقيام شكٍّ في نفسه. ترى هل يجعله ضعف حجج محدثه وغموضها يتنكر للإيمان بمزاعمه؟ ذلك ما كان يخشاه.

قال معترضًا: «لست أفهم كيف لا يستطيع الفكر البشري الوصول إلى تلك المعرفة التي تتحدث عنها.»

فابتسم العجوز ابتسامته الأبوية الطيبة، وقال: «إن الحكمة الحقيقية العارية تشبه سائلًا شديد النقاء والصفاء نريد ارتشافه. فهل أستطيع الحكم على نقائه إذا صببته في وعاء قذر متسخ؟ إنني لن أستطيع أن أجعل ذلك السائل الثمين يبلغ مرحلة معينة من النقاء إلا إذا عمدت إلى دخيلة نفسي فأنقيتها.»

هتف بيير متشجعًا: «نعم نعم، هو كذلك!»

– «فالحكمة المطلقة إذن لا ترتكز على العقل وحده، ولا على العلوم المنافية للمناقبية الدينية؛ كالفيزياء والكيمياء والتاريخ وفروع المعرفة البشرية الأخرى. إن الحكمة البشرية «واحدة»، أما الحكمة المطلقة فإن لها علمًا واحدًا وهو علم «الكل». إنه العلم الذي يفسر كل الخليقة والمكان الذي يحتله الإنسان فيها. ولكي يفسح الإنسان المجال لهذا العلم في نفسه، لا بد له من أن يطهر تلك النفس، وأن يجدد وجوده الداخلي؛ أي إن عليه قبل أن يعرف أن يؤمن ويكمل. ومن أجل مساعدتنا على بلوغ هذه الأهداف، وضعت في نفوسنا تلك الشعلة الإلهية المسماة بالضمير.»

فقال بيير مؤيدًا: «نعم نعم.»

– «تأمل شخصك الباطن بعيني روحك، وتساءل: هل أنت مسرور من نفسك حقًّا؟ إلى أين بلغت بمساعدة الفكر البشري وحده؟ إنك شاب وغني وذكي ومثقف؛ فماذا عملت يا سيدي بكل هذه الملكات التي وزعت عليك؟ هل أنت راضٍ عن نفسك وعن طريقتك في الحياة؟»

فقال بيير مكتئبًا يعترف بواقعه: «كلا، إنني أمقت حياتي.»

– «إذا كنت تمقتها فأبدلها، واستفد منها، وكلما ازددت تطهيرًا لنفسك اشتد قربك من الحكمة، ألق نظرة على حياتك يا سيدي، ماذا فعلت حتى اليوم؟ سلسلة من الفسق والإفراط في المنكر. لقد نلت كل شيء من المجتمع، لكنك لم تعط المجتمع شيئًا. لقد جاءت الثروة إليك، فكيف تصرفت بها؟ ماذا عملت لآخرتك؟ هل فكرت في عشرات الألوف من

عبيدك؟[٢] هل قدَّمت لهم مساعدة جسدية أو فكرية؟ كلا، لقد أفدت من كدحهم وعملهم لتحيا حياة كلها فوضى، هذا ما عملته. هل بحثت عن بعض الأعمال التي تسمح لك بأن تكون نافعًا لآخرتك؟ كلا، لقد أمضيت عمرك في عطالة وبطالة، ثم تزوجت يا سيدي، فوجبت عليك مسئولية كبرى؛ وهي توجيه امرأة شابة خلقيًّا، ولكن ماذا عملت؟ لقد غمستها في أعماق جحيم الكذب والتعاسة بدلًا من أن تسدِّد خُطاها في طريق الحقيقة، وأهانك رجل فقتلته. وها إنك تقول لي: إنك لا تعرف الله، وإنك تكره وجودك. ليس في ذلك ما يدهش يا سيدي العزيز.»

ولما بلغ الماسوني هذا الحد أسند رأسه مرة أخرى إلى مسند الأريكة من التعب ولا ريب، وأغمض عينيه. راح بيير يتأمل ذلك الوجه الصارم الجامد الشبيه بوجوه المومياء. حرك شفتيه لتنطقا بجملة «نعم، لقد عشت حياة بشعة مليئة بالفسق والعطالة.» لكنه لم يجرؤ على تبديد الصمت الشامل.

سعل الماسوني سعالًا خشنًا ينفرد به الشيوخ واستدعى خادمه: «إذن، ماذا جرى للخيول؟»

– «إنهم على وشك إعدادها من أجلك، ولكن ألا نأخذ قسطًا من الراحة؟»

– «كلا، اقطر الخيول إلى العربة.»

راح بيير يتساءل: «هل سيمضي دون أن يحدثني بكل ما كان يريد أن يقوله لي، ودون أن يعدني بمساعدته وعونه؟» كان في تلك اللحظة يذرع أرض الحجرة مبلبل الخاطر، ويختلس بين الحين والحين نظرات وجلة إلى وجه الماسوني. «نعم، إنني لم أفكر في هذا من قبل أبدًا، لقد أمضيت حياة مشوشة حقيرة كريهة، لكنها كانت ضد رغبتي. نعم، لقد كنت أمقتها حقًّا. إن هذا الرجل يعرف الحقيقة، وهو يستطيع إطلاعي عليها لو أنه وافق على ذلك.»

كان بيير يود من صميم قلبه أن يعترف بهذه الأفكار أمام المسافر العجوز، لكن الشجاعة خانته. وفي تلك الأثناء، كان العجوز يَزُرُّ فروته بعد أن نظم أدوات الشاي بيديه

[٢] كلمة serfs تعني المماليك. لقد درجت العادة في عصور الإقطاع القديمة على أن يشتري السيدُ الأرضَ ومَن يعملون فيها، ويتحكم في مصائر هؤلاء دون أن يحق لهم الاعتراض، حتى إذا باع الأرض باع أولئك المماليك وأفراد أسرهم معها. ومن هنا كانت ثروة الإقطاعي لا تُقاس فقط بأطيانه وعقاراته، بل وبالعاملين فيها أيضًا.

النحيلتين الخبيرتين. ولما انتهى من عمله استدار نحو بيزوخوف وقال له بلهجة مهذبة غير رفيعة: «إلى أين تفكر في الذهاب يا سيدي؟»

فأجاب بيير بصوت طفل غير واثق من نفسه: «أنا؟ إلى بيترسبورج. إنني ممتنٌّ لك كل الامتنان، إنني موافق على آرائك بكل قوتي، ولكن لا تعتقد أنني على كل هذا الفساد في الأخلاق أنني أتعطش من كل روحي إلى بلوغ الدرجة التي تريدني على بلوغها، لكن أحدًا لم يأخذ بيدي من قبل ولم يساعدني؛ الأمر الذي — على كل حال — لا يخفف من بشاعة سلوكي شيئًا. ساعدني إذن وثقفني، ولعلني عندئذٍ ...»

خنق الانفعال صوته فلم يستطع الاسترسال في الحديث، فاستدار ساخطًا، بدا على الماسوني أنه يفكر، وأخيرًا قال بعد فترة صمت طويلة: «إن العون لا يأتي إلا من عند الله، لكن جمعيتنا تستطيع مساعدتك ضمن نطاق إمكانياتها. ولما كنت ذاهبًا إلى بيترسبورج، أرجو أن تسلم هذه إلى الكونت فيلارسكي.»

وأخرج من حافظته ورقة كبيرة طواها أربعًا بعد أن كتب عليها بضع كلمات، وأعطاها له وقال متممًا: «اسمح لي بأن أعطيك نصيحة: حالما تصل إلى العاصمة، كرِّس الأيام الأولى من وصولك للوَحدة، فافحص ضميرك ولا ترجع إلى أسلوبك القديم في الحياة.»

ولما رأى خادمه داخلًا قال مختتمًا كلامه: «والآن يا سيدي، أتمنى لك سفرًا طيبًا، وحظًّا سعيدًا.»

ولما تصفح بيير سجل مدير المركز علم أن ذلك المسافر لم يكن إلا أوسيب ألكسيئيفيتش بازدييف. وكان هذا منذ زمن نوفيكوف[٣] واحدًا من أكثر المتحمسين لشيعة القديس مارتن وللماسونية. ظل بيير زمنًا طويلًا بعد ذهاب المسافر يذرع الغرفة جيئة وذهابًا دون أن يفكر في الإيواء إلى سريره، أو في طلب خيول لعربته، كان يتمثل الحياة الفاسدة التي عاشها حتى ذلك اليوم، ويتصور — بحماس المؤمن حديثِ الإيمان — المستقبل الجميل الذي ينتظره، مستقبلًا مليئًا بالفضيلة والسعادة. كان يقدِّر أن تحقيقه

[٣] نيكولا إيفانوفيتش نوفيكوف: كاتب خصيب، أصدر مجلات عديدة، وأصبح في النصف الثاني من القرن الثامن عشر واحدًا من أشد المتحمسين لنشر الفكرة الماسونية في روسيا. وكانت تعاليم الماسونية — آنذاك — الروحية والخلقية تُعارض بشدة الإلحاد الذي كان الفلاسفة الفرنسيون يَدْعون إليه. ولد عام ١٧٤٤، وتوفي عام ١٨١٨.

على جانب من اليسر والسهولة، وأن فساد أخلاقه من قبل لم يكن إلا نتيجة لصدفة منكدة مزعجة. لقد عمي من قبل عن رؤية جمال الفضيلة. أما الآن فقد تبددت شكوكه كلها، وأصبح مؤمنًا بأن رجالًا متحدين فيما بينهم يستطيعون التعاون للبحث على الفضيلة، وأن الماسونيين كانوا بلا ريب كذلك.

الفصل الثالث

الكونت فيلارسكي

لم يُخطر بيير أحدًا بوصوله إلى بيترسبورج، بل أمضى أيامه الأولى يقرأ كتاب «القدوة» الذي أوقعته في يده يد مجهولة، وقد أضفت عليه تلك القراءة متعة لم يكن يعرفها من قبل، وهي الإيمان بإمكانية البلوغ إلى الكمال وتحقيق الحب الأخوي في هذا العالم السفلي، ذلك الحب الأخوي الفعال الذي أنبأه به أوسيب ألكسيئيفيتش.

وبعد وصوله بثمانية أيام، دخل الكونت البولوني فيلارسكي، الذي كان بيير قد صادفه في المجتمعات البيترسبورجية من قبل ذات مساء إلى مكتب بيير وعلى وجهه ذلك الطابع الخطير الرسمي الذي اتَّسم به. شاهد دولوخوف عندما تقدَّم إليه، وبعد أن أغلق الباب وراءه، وتأكد من خلو المكتب إلا منهما، قال لبيير دون أن يجلس: «إنني مُكلَّف بمهمة لديك يا كونت؛ لقد تدخلت شخصية رفيعة المقام في جماعتنا لتجعل قبولك بيننا — قبل المدة المحددة عادةً — مقبولًا وممكنًا، ولقد كُلِّفت من قِبَلها أن أكون كفيلك في هذه الخطوة، وإنني أعتبر الامتثال لرغبات تلك الشخصية الرفيعة بمثابة واجب مقدس، فهل ترغب في الانخراط في جماعة الماسونيين على مسئوليتي وعهدتي؟»

دهش بيير للهجة الباردة الحازمة التي يتحدث بها هذا الرجل الذي لم يره مرة إلا والابتسامة مشرقة على وجهه في المجتمعات، لطيفًا، مقربًا إلى ألمع النساء وأشدهن فتنة.

قال يجيبه: «نعم، إنها رغبتي.»

هز فيلارسكي رأسه مؤيدًا وقال: «هناك سؤال أخير يا كونت، أرجو أن تجيبني عليه بكل إخلاص وأمانة، لا بوصفك ماسونيًّا مقبلًا، بل بوصفك شابًّا أمينًا نبيلًا: هل تنكرت لأفكارك القديمة، وبتَّ تؤمن بالله؟»

فكر بيير برهة وقال: «نعم، نعم إنني أومن بالله.»

قال فيلارسكي: «في هذه الحالة ...»

لكن بيير قاطعه مكررًا: «نعم، إنني أومن بالله.»

فقال فيلارسكي متممًا: «في هذه الحالة يمكننا الذهاب. إن عربتي بالباب وهي في خدمتك.»

لبث فيلارسكي صامتًا طيلة الطريق، كان يجيب على أسئلة بيير حول ما يجب عليه أن يعمل ويقول. إن إخْوَةً أرفع مقامًا منه وأكبر منه شأنًا سيختبرونه، وإن عليه أن يصدُقهم القول.»

وبعد أن ترجَّلَا من العربة تحت رواق البناء الذي يحتله المحفل، صعدا سلمًا معتمًا ودخلا إلى ردهة صغيرة مضيئة، وهناك نزعا فروتيهما دون مساعدة الخدم. ولما دخلا إلى الغرفة التالية جاء رجل يرتدي زيًّا غريبًا. دخل عليهما من الباب الآخر، فمضى فيلارسكي إلى لقائه وخاطبه بالفرنسية بصوت منخفض، ثم اقترب من خزانة شاهد بيير فيها ألبسة لم ير مثلها في حياته. أخذ فيلارسكي منديلًا من الخزانة عصب به عيني بيير، وربط عقدته وراء رأسه ضامًّا بذلك دون عمد خصلة من شعر رأسه. ولما انتهى من عمله جذَبه إليه وقبله ثم مضى به ممسكًا بيده. وكانت خصلة الشعر الملفوفة مع عقدة المنديل تؤلمه، فكان يقلص وجهه من الألم، ويبسم مع ذلك ابتسامة المستحي. كان ذلك العملاق ذو الذراعين المباعدين والوجه المتقلص الباسم يتبع فيلارسكي بمشية مضطربة مترددة.

ولما قطع بضع خطوات توقف فيلارسكي وقال له: «مهما أصابك، ينبغي أن تحتمل بشجاعة وجلد إذا كنت مصممًا بعزم على الدخول في محفلنا وإخوتنا.»

فهز بيير رأسه إيجابًا، بينما أردف فيلارسكي: «عندما تسمع قرعًا على الباب، يمكنك نزع العصابة عن عينيك. أتمنى لك شجاعة طيبة وحظًّا طيبًا.» وانسحب بعد أن ضغط على يده مصافحًا.

لبث بيير يبسم بعد أن أصبح وحيدًا. لقد رفع يده مرتين أو ثلاث مرات محاولًا نزع العصابة وهو يهز كتفيه، لكنه في كل مرة كان يسدل يده قبل أن تصل إلى المنديل. كانت عيناه معصوبتين منذ خمس دقائق فقط. مع ذلك، فقد خُيل إليه أن تلك الدقائق الخمس كانت ساعة كاملة. شعر بيديه تتخدران وبساقيه تنحطان تحت ثقل جسده، وأحس بموجة من الوهن تستولي عليه وتَضْنُكه، وكان أشد ما يخافه هو أن يخفق في إخفاء خوفه. كانت معرفة ما سيعملون به وما سيطلعونه عليه تثير في نفسه فضولًا قويًّا، وكان جذله يتزايد كلما شعر أن اللحظة التي ستمهد له السير على طريق التجدد والنشاط الفاضل الذي كان يحلم به منذ لقائه مع أوسيب ألكسيئيفيتش باتت قريبة وشيكة.

تجاوبت طرقات عنيفة على الباب، فنزع بيير العصابة عن عينيه وراح يجيلهما حوله. استطاع خلال الظلام الدامس الذي كان يغمر المكان أن يميز قنديلًا مشعَلًا في شيء أبيض، فلما اقترب منه رأى القنديل موضوعًا على مائدة سوداء أمام كتاب كبير مفتوح. كان ذلك الكتاب نسخة من الإنجيل، وكان الشيء الأبيض جمجمة ميت. قرأ الكلمات التالية: «في البداية كان الفعل، والفعل كان في الله.» وعلى مقربة من المائدة شاهد صندوقًا مثبتًا مغطًّى، يبدو عليه أنه ممتلئ، عرف فيه نعشًا تملؤه عظام بشرية، لكن ذلك كله لم يذهله ولم يدهشه. كان يتوقَّع أشياء خارقة أكثر غرابة مِن التي رآها حتى تلك اللحظة، وكان توقعه هذا راجعًا إلى رغبته العميقة في تدشين حياة جديدة مختلفة تمامًا عن حياته السابقة. أما الجمجمة والإنجيل والنعش، فقد كان يؤمن أنه مُتوقِّعٌ كلَّ هذه الأشياء، وكثيرًا غيرها أيضًا. ولكي يثير في نفسه حمية العبادة والتمجيد أخذ يلفظ في سرِّه: «الله، موت، حب، أخوة.» التي كان يرى فيها مرئيات غامضة مطمئنة تنبعث منها. في تلك اللحظة فُتح الباب ودخل بعضهم.

شاهد بيير الذي اعتادت عيناه الظلام رجلًا قصير القامة يقف مترددًا لحظة لدخوله من الضوء إلى الظلام، ثم يمشي بخطوات متحرزة، فيضع فوقها يديه المغيبتين في قفازين من الجلد. كانت صدارة من الجلد الأبيض تغطي صدره وجزءًا من ساقيه، وكان يطوق عنقه بشيء يشبه القلادة، وتبرز من ذلك الشيء مشغلة بيضاء تؤطر وجهه المتطاول المضاء من الأسفل.

التفت ذلك الرجل نحو الاتجاه الذي كانت تصدر عنه حركة خفيفة تدل على وجود بيير، وسأله: «لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا جئت إلى هنا يا من لا تؤمن بالنور الحقيقي، ولا ترى ذلك النور؟ ماذا تريد منا؟ أهي الحكمة والفضيلة والعلم؟»

منذ اللحظة التي فُتح فيها الباب ليسمح لذلك الغريب بالدخول، شعر بيير باحترام قلق يشبه ذلك الذي كان يسيطر عليه في طفولته كلما مضى للاعتراف. لقد كان في تلك اللحظة وجهًا إلى وجه مع رجل لم يكن شيئًا مذكورًا بالنسبة إليه في الحياة العامة، ولكن الإخاء البشري جعله شديد القرب منه في تلك اللحظة. كان قلبه يكاد يقفز من صدره أو يتفجر فيه، فاقترب من «الخطيب» — هذه هي التسمية التي تطلق في المحافل الماسونية على الأخ المكلف بتثقيف المبتدئ — ولما صار في دائرة الرؤية عرف فيه المدعو سموليانينوف، وهو أحد معارفه، لكنه طرد ذلك الخاطر وكأنه خاطر مزعج. إن هذا الرجل لا يجب أن يكون له أخ ومدرس فاضل. ظل فترة طويلة لا يجد ما يرد به على

سؤاله، حتى إن الخطيب اضطر إلى تكرار السؤال، وأخيرًا تمتم بيير، فقال سموليانينوف مستأنفًا كلامه بلهجة حازمة وسريعة: «حسنًا، هل تعرف لمحات عن الأساليب التي تملكها جماعتنا المقدسة، والتي تكفل لك الوصول إلى غايتك؟»

فأجاب بيير بصوت منفعل متداعٍ مرتعد: «إنني أتوقع ... أن ... أُوجِّه ... وأغاث.»

لم يكن يألف التعبير عن أفكاره باللغة الروسية، خصوصًا إذا كانت أفكارًا مجازية؛ لذلك فإنه ما كان يجد الكلمات الموافقة الملائمة.

– «أية فكرة كونت لنفسك عن الماسونية؟»

أجاب بيير وهو شديد الخجل لاستعماله كلمات لا تتفق تمامًا مع عظمة الموقف وجلاله: «إنني أرى فيها جمعية أخوية تؤمن بالمساواة في سبيل أهداف نبيلة فاضلة. إنني أرى فيها ...»

بادر الخطيب يقول وقد أعجبه الرد كما يبدو: «حسنًا هل فتشت في الدين عن وسائل تبلغك إلى هذه الغايات؟»

– «كلا، لقد كنت أعتبر الدين خدعة وغشًّا؛ فلم ألاحظ تعاليمه وأحكامه.»

نطق بيير بهذه العبارة بصوت منخفض، حتى إن الخطيب اضطر إلى مطالبته برفع صوته، فقال مفسرًا: «لقد كنت ملحدًا.»

صمت الخطيب لحظة ثم استأنف قائلًا: «إنك تبحث عن الحقيقة لتخضع حياتك لتعاليمها، وبالتالي فإنك تبحث عن الحكمة والفضيلة، أليس كذلك؟»

فقال بيير مؤكدًا: «بلى، بلى.»

عقد الخطيب يديه المقفزتين على صدره، وبعد أن سعل سعالًا خفيفًا، قال: «ينبغي أن أكشف لك الآن عن الخطة الهائلة التي يتبعها محفلنا، فإذا وجدتها متفقة مع أهدافك ومراميك فإنك ستجد فائدة في مساهمتك معنا في إخوتنا. إن غاية جماعتنا الأولى؛ أي القاعدة التي ترتكز عليها، والتي لا يمكن لقوة بشرية أن تزعزعها، هي المحافظة على سر معين شديد الخطورة، ورفعه وإبلاغه الأجيال الصاعدة. لقد وصل إلينا هذا السر الخطير منذ أكثر القرون تأخرًا، بل منذ خليقة الإنسان الأول، ويتوقف عليه تقريبًا مصير الجنس البشري كله. ولما كان هذا السر من نوع خاص يجعل من المستحيل على أيٍّ كان أن يفيد منه إلا إذا هيأ نفسه طيلة فترة طويلة من التطهير النفسي؛ لذلك فإن عددًا قليلًا جدًّا من الأشخاص يستطيعون الاطلاع عليه للوهلة الأولى؛ ولهذا السبب فإن مهمتنا الثانية تنحصر في إعداد إخواننا، وتنقية قلوبهم، وتطهير عقولهم وتنويرها بالطرق التي

نقلها إلينا الرجال الذين جهدوا في البحث عن هذا السر، حتى نجعلهم صالحين وقادرين على الاطلاع عليه. وفي المرحلة الثالثة فإننا نسعى بكل قوانا لصلاح الجنس البشري كله، بتطهيرنا وتهيئتنا تلامذتنا والمتشيعين لنا حتى نقدِّمهم له كأمثلة من التقوى والورع والفضيلة. وبهذه الطريقة نستعمل كل نشاطنا لمحاربة الإثم والشر اللذين يسيطران على هذا العالم. فكر في هذا وسأعود بعد قليل.»

وانسحب الخطيب فور انتهائه من هذا الكلام.

كرر بيير قوله: «محاربة الإثم والشر اللذين يسيطران على هذا العالم.» وهو يهيئ نشاطه المقبل للسير في هذا المضمار. راح يتمثل نفسه حيال أشخاص يشبهون ما كان عليه منذ خمسة عشر يومًا، وهو يوجِّه إليهم فكريًّا موعظة مقنعة، وأنه يساعد الفاسدين المتفسخين بأقواله وأفعاله، ويسعف المساكين البؤساء، وينقذ ضحايا المعتدين والطغاة. كان يقدر المبدأ الثالث من المبادئ التي سردها عليه الخطيب، وهو تهذيب الجنس البشري. صحيح أن السر الخطير الذي تحدث عنه ذلك الرجل أثار فضول بيير، لكنه لم يبدُ له شديد الأهمية. أما الهدف الثاني «التطهير الشخصي»، فإنه كان قليل الالتفات إليه؛ لأنه كان يشعر في أعماق نفسه بأنه قد أصلح من نفسه تمامًا، وأن أخطاءه السابقة لم تعد إلا ذكريات باهتة، وأن عنايته قد صرفت الآن نحو الخير، ولا شيء سواه.

لم تنقضِ نصف ساعة حتى عاد الخطيب لينبئ الخطيب التلميذ بالفضائل السبع التي تقابل درجات معبد سليمان السبع، والتي يجب على كل ماسوني أن ينميها في نفسه. وهذه الفضائل هي: (١) السرية التي تحفظ أسرار الجماعة. (٢) الطاعة لذوي المناصب الرفيعة. (٣) الخصال والعادات الرفيعة. (٤) حب الإنسانية. (٥) الشجاعة. (٦) الكرم. (٧) حب الموت.

ولما انسحب الخطيب من جديد تاركًا بيير لأفكاره الخاصة، فكَّر هذا في سرِّه: «نعم، ينبغي أن يكون الأمر كذلك، ينبغي أن يكون الأمر كذلك، لكنني ما زلت من الضعف لدرجة أنني أحب الحياة التي بدأت الآن أتعمق في فهم اتجاهها وجوهرها.» أما الفضائل الخمس الأخرى التي راح بيير يراجعها وهو يعدها على أصابعه، فإنه كان يشعر أنها موجودة فعلًا في نفسه؛ فالشجاعة والكرم والعادات الطيبة وحب الإنسانية، وبصورة خاصة الطاعة، التي كانت تبدو له سعادة أكثر من كونها فضيلة، كانت متجمعة في نفسه. لقد كان يشعر أن الطاعة سعادة أكثر منها فضيلة لشدة رغبته في التخلص من حكمه الخاص، وإسلام إرادته لأولئك الذين يملكون الحقيقة المطلقة التي لا يمكن دحضها. أما الفضيلة السابعة فقد نسيها بيير، فلم يكن يتوصل إلى تذكرها.

عاد الخطيب إلى الظهور بعد غياب أقصر من الأول. سأل بيير عما إذا كان لا يزال مصممًا على قراره، ومقررًا بملء رغبته أن يخضع لكل ما يطلبونه منه، فقال: «إنني مستعد لكل شيء.»

أردف الخطيب قائلًا: «ينبغي أن أخطرك كذلك بأن جماعتنا يعلمون مبادئهم ليس بالأقوال فحسب، بل بوسائل أخرى أيضًا تفرض على ذلك الذي يبحث عن الحكمة بإخلاص وعن الفضيلة. ولعل تلك الوسائل أشد تأثيرًا من التعليمات الشفهية. إن ما يزين هذه الغرفة ينبغي أن يؤثر في قلبك — إذا كان مخلصًا — أكثر من تأثير أي خطاب، ولعلك سترى كلما ازددت تعمقًا في العلم وسائل للتثقيف مماثلة لهذه. إن جماعتنا تحاكي في هذا، المجتمعاتِ العريقةَ القديمةَ التي كانت تنشر تعاليمها بواسطة الألغاز، كما كانت عليه الكتابة الهيروغلوفية.»

توقف برهة ثم أردف متمتمًا: «إن الهيروغلوفية هي رمز شيء لا يقع في مدى الحواس، ولكنه مع ذلك يملك صفات تشبه تلك التي يمثلها.»

كان بيير يعرف تمامًا ما معنى كلمة «هيروغليف»، لكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن رأيه. كان يصغي بصمتٍ شاعرًا أن الاختبارات على وشك الوقوع.

استأنف الخطيب كلامه وهو يقترب منه قائلًا: «إذا كنت مصممًا تصميمًا حازمًا، فإن واجبي يجبرني على البدء في إشراكك في جماعتنا. والآن أرجو أن تعطيني كل ما تملكه من أشياء ثمينة للدلالة على كرمك.»

فقال بيير معترضًا معتقدًا أنهم يطلبون منه تقديم كل ما يملك من مال وعقار: «لكنني لم أحمل معي شيئًا.»

– «ما هو موجود معك هنا: ساعة، نقد، خواتم ...»

بادر بيير إلى إخراج كيس نقوده وساعته، واستغرق وقتًا طويلًا في سحب خاتم زواجه من أصبعه الضخم، فلما قدم هذه الأشياء قال له الماسوني: «والآن أرجو أن تخلع ثيابك للدلالة على طاعتك.»

نزع بيير ثوبه وصدارته وحذاءه الأيسر بناء على إشارة الخطيب، وكشف له الماسوني القميص عن الجانب الأيسر من صدره، وانحنى فحسر كمَّ سرواله الأيسر حتى فوق الركبة. أراد بيير أن يخلع حذاءه الأيمن حتى يوفِّر العناء على هذا الرجل الذي لم يكن بالنسبة إليه شيئًا مذكورًا. لكن الماسوني أكد له أن ذلك غير ضروري، وقدم له خفًّا منزليًّا لينتعله في قدمه اليُسرى. ارتسمت على وجه بيير ابتسامة صبيانية، مزيج من الخجل والسخرية.

ظل واقفًا وذراعاه وساقاه مباعدتان قبالة الخطيب ينتظر أوامر جديدة. قال هذا أخيرًا: «والآن للدلالة على إخلاصك أرجو أن تعترف لي بالضعف الرئيسي الموجود فيك.»

قال بيير: «نقاط ضعفي! إن عندي كثيرًا منها!»

– «النقطة التي جعلتك تتعثر على طريق الفضيلة أكثر من سواها.»

راح بيير يفكر ويزن بميزان عقله كل إثم من آثامه وميلٍ ومفسدة في نفسه: «الخمر؟ رخاء العيش؟ البطالة؟ الكسل؟ الغضب؟ الخبث؟ النساء؟» ما كان يعرف أي عيب من هذه العيوب يقدم، وأخيرًا قال بصوت لا يكاد يسمع: «النساء!»

ظل الماسوني فترة طويلة صامتًا بعد هذا الجواب لا يتحرك، وأخيرًا اقترب من بيير وأخذ المنديل عن المائدة فعصب عينيه من جديد.

– «للمرة الأخيرة أقول لك: تعمَّق في نفسك، كبِّل عواطفك وابحث عن السعادة في قلبك وليس في شهواتك. إن منبع السعادة الأبدية ليس خارج نفوسنا، بل في نفوسنا نفسها.»

شعر بيير سلفًا أن نبع السعادة الأبدية ذاك أخذ يتفجر في قلبه ويغرقه بالحبور والحنو.

الفصل الرابع

المحفل الماسوني

بعد قليل من الوقت، جاء أحدهم يقود بيير. لم يكن ذلك الشخص هو الخطيب نفسه، بل فيلارسكي شبيه بيير في هذا العماد. ولقد تعرَّف بيير على شخصه من صوته. كرَّر عليه السؤال حول عزمه الأكيد وتصميمه واستعداده، فأجاب بيير: «نعم نعم، إنني مصمم وموافق.» وارتسمت على وجهه ابتسامة الطفل المشعة، وراح يمشي وصدره الضخم مكشوف، وخطواته متعثرة مرتبكة، وفي إحدى قدميه حذاؤه، وفي الأُخرى الخفُّ. أخذ بيير يسير وأمامه فيلارسكي وبيده سيف مسدد إلى صدره. اقتيد عبر الماشي المتعرجة حتى بلغ أخيرًا باب المحفل. سعل فيلارسكي فأجيب بطرقات موقعة وفتح الباب. سأل أحدهم بيير بصوت غليظ منخفض عن اسمه ومكان ولادته ... إلخ. ثم عاد إلى السير يقوده دليله وعيناه لا زالتا معصوبتين. كان بعضهم يحدثه خلال سيره بعبارات مجازية رمزية عن صعوبات رحلته، والصداقة المقدسة، ومهندس الكون الأزلي، وعن الشجاعة التي يجب عليه احتمال الوصب والمتاعب بها والأخطار، ولاحظ بيير أنهم كانوا يسمونه تارة ب «الذي يبحث»، وأخرى ب «الذي يتألم»، وثالثة ب «الذي يسأل»، وأنهم يقرعون في كل مرة السيوف والمَوَاقِع قرعًا خاصًّا. وبينما كانوا يقودونه نحو شيء معين، لاحظ ترددًا على مرافقيه الذين راحوا يتباحثون بصوت منخفض، وسمع أحدهم يلح على أن يمرَّ التلميذ فوق بساط ما. وأخيرًا أمسكوا بيمناه، ووضعوها على شيء ما، ووضعوا في يسراه فرجارًا ورجوه أن يضغط به على ثديه الأيسر، ثم طلبوا إليه أن يُكرِّر قسَم الإخلاص للمحفل والجماعة طيلة تلاوتهم لذلك القسم.

وأخيرًا أطفئوا الشموع وأشعلوا كحولًا، كما استنتج بيير من الرائحة التي انبعثت من احتراق الكحول، وأخطروه بأنه سيرى الآن النور الأصغر، ثم رفعوا العصابة عن عينيه، فشاهد — وكأنه في حلم — على ضوء الشعلة الخافتة عددًا من الأشخاص واقفين

قباله مرتدين صدارات بيضاء تشبه صدارة الخطيب، ومسددين إلى صدره سيوفهم، وكان أحدهم يرتدي قميصًا مخضبًا بالدم، فلما وقع بصر بيير على ذلك المشهد ارتمى على السيوف راغبًا في أن تخرق صدره، لكن هذه أُبعدت عنه، وهرع بعضهم إلى العصابة يحكم وضعها على عينيه.

قال له صوت: «لقد رأيت الآن النور الأصغر.»

ثم أُشعلت الشموع مجددًا وأخطروه بأنه سيرى بعد قليل النور الأكبر، ثم رفعوا العصابة عن عينيه، وسمع اثني عشر صوتًا تردد معًا عبارة: «هكذا يمر مجد العالم.» lic transit gloria mnndi.

استعاد بيير رباطة جأشه تدريجيًّا، وراح يفحص الغرفة والأشخاص الموجودين فيها. شاهد فيها اثني عشر رجلًا جالسين وراء مائدة مستطيلة مغطاة بقماش أسود، يرتدون الألبسة التي شاهدها من قبل. عرف بعضهم، لكنه لم يستطع معرفة الرئيس، وهو شاب كان عنقه مزينًا بوسام خاص، وكان إلى يمين الرئيس يجلس الأب الروحي الإيطالي الذي شاهده بيير في العام الماضي عند آنا بافلوفنا، وكذلك رأى موظفًا كبيرًا في الدولة ومدرسًا سويسريًّا كان صديقًا حميمًا لآل كوراجين، كانوا جميعهم صامتين صمتًا رهيبًا، يصغون إلى أقوال الذي كان ممسكًا بمِيقَعَة في يده. وعلى الجدار شاهد نجمًا يتألق، ورأى سجادة صغيرة مزينة بصفات رمزية ممددة عند جانب المائدة. أما الجانب الآخر فكان مجاورًا لمذبح أُقيم عليه إنجيل وجمجمة بشرية، وكان في الغرفة سبعة «شمعدانات» كبيرة كالتي توضع في الكنائس مصفوفة بنظام في أركانها. قاد اثنان من الإخوان «بيير» إلى المذبح وطلبوا إليه الاستلقاء على الأرض، بعد أن باعدوا بين ساقيه على شكل مثلث، وفسروا له هذا العمل بأنه خضوع وخشوع أمام أبواب المعبد.

قال أحدهما بصوت منخفض: «ينبغي أن يتلقى المسيعة أولًا.»

فأجاب الآخر: «كلا، إن ذلك عديم الجدوى لا لزوم له.»

لم يخضع بيير للأمر، بل راح يجيل حوله نظراته الضعيفة التائهة، وفجأة برزت الشكوك في نفسه «أين أنا؟ ماذا أعمل؟ ألا يسخرون مني؟ ألن أشعر بالخجل مستقبلًا إذا تذكرت كل هذا؟» لكن تردده لم يدم لحظة واحدة. تأمل الوجوه الجدية التي تحيط به، وفكَّر في كل ما عمله حتى تلك اللحظة، وفهم أن من الصعب النكوص على عقبه بعد أن اجتاز هذه المرحلة الطويلة، رفع شكوكه وأبعدها برعب واستنكار مستعيدًا اندفاعه وحماسته الأولى، واستلقى أمام المعبد، وشعر أن غيرته الدينية قد عادت إليه، وهي أكثر

اتقادًا من كل وقت مضى، ظل في استلقائه زمنًا معينًا. وأخيرًا رَجَوه أن ينهض، وعندئذ قدموا إليه صدارة بيضاء مماثلة لصدارتهم، وأعطوه مسيعة وثلاثة أزواج من القفازات، ثم وجه إليه المعلم الكبير الكلام، طلب إليه ألا يلوث بياض هذه الصدارة بشيء؛ لأنها رمز الحزم والطهر. أما المسيعة الغامضة فإنها ستفيده في تنظيف قلبه من الأدران والخبائث، وفي تسوية قلب المجتمع دون خشونة.

أما الزوج الأول من القفازات فلن يُكشف له في الوقت الحاضر عن معناه، لكن عليه الاحتفاظ به. أما الثاني فعليه أن يضع يديه فيه في الاجتماعات. وكان الزوج الثالث من تلك القفازات مصنوعًا للنساء على عكس الزوجين الأولين، قال له المعلم الكبير عنهما: «أيها الأخ العزيز، إن هذين القفازين النسويَّان مخصصان لك كذلك، ستعطيهما للمرأة التي ستشعر بالاحترام نحوها أكثر من الأُخريات، سوف تُبرهن بهديتك هذه على نقاء قلبك وصفائه لتلك التي ستنتخبها لتكون ماسونية جديرة باسمها.» وبعد فترة صمت أردف قائلًا: ولكن حاذر يا أخي العزيز أن تزين هذه القفازات أيدي غير نقية. خُيِّل لبيير خلال حديث المعلم الأكبر أن هذا ليس على غاية ما يرام، فازداد اضطرابه لهذه الفكرة، واندفع الدم غزيرًا إلى وجهه، فغدا شديد الاحمرار أشبه بوجوه الأطفال، وراح يلقي حوله نظرات قلقة.

تبع ذلك سكوت مربك قطعه أحد الإخوان بعد قليل. قاد ذلك الأخُ «بيير» نحو السجادة وراح يقرأ عليه في دفتر هناك شروح تلك الرسوم الرمزية التي كان عليها: الشمس، القمر، الميقعة، الفادم، المسيعة، الحجر الخام والمكعب، العمود، النوافذ الثلاث … إلخ، ثم عينوا له مكانًا في الاجتماعات، وإشارات المحفل المصطلحة، وكلمة السر. وأخيرًا، سمحوا له بالجلوس. أخذ المعلم الأكبر يقرأ عليه النظام الذي كان شديد التطويل، والذي لم يُلقِ بيير إليه أذنًا مستوعية؛ لشدة ما كان متأثرًا بالفرح والانفعال والارتباك، فلم يحفظ منه إلا المقطع الأخير:

> في معابدنا لا نعرف درجات أخرى غير التي تفصل الخير عن الشر؛ فاحذر القيام بخلافات تحطِّم المساواة. اهرع إلى مساعدة أخيك دون تمييز، وأعد الذي يتوه، وأنْهِض الذي يسقط، ولا تُغذِّ في نفسك أي شعور بالكراهية لأخيك أو الحقد عليه. أوقظ في كل القلوب شعلة الفضيلة، واقتسم سعادتك مع المجتمع، ولا تدع الحسد والرغبة يزعزعان هذه المتعة النقية الطاهرة. اصفح عن عدوك

ولا تنتقم منه إلا بعمل الخير له. إنك إذا نفَّذت القانون الرفيع على هذا الشكل استعدت على آثار عظمتك القديمة الضائعة.

ولما انتهت قراءة النظام، نهض المعلم الأكبر وضم بيير وقبله. حار بيير في إيجاد التعابير الملائمة للجواب على التهاني وعبارات الود والصداقة التي ارتفعت من كل مكان حوله، فراح يجيل حوله نظرات حائرة والدموع تترقرق في عينيه. نسي أولئك الذين كان يعرفهم بين المجتمعين، وراح ينظر إليهم جميعًا نظرته إلى إخوان له. كان يتحرق شوقًا إلى العمل متعاونًا معهم.

قرع المعلم الأكبر بمطرقته؛ كلٌّ إلى مجلسه، وعرض أحد الإخوان ضرورة التصاغر والخشوع، فكان ذلك الدرس الأخير الذي أُلقي على بيير يومئذ.

ولما أوعز المعلم الأكبر بالقيام بالواجب الأخير، قام الموظف الكبير الذي كان يشغل منصب الأخ الجابي وطاف بالموجودين. كان بيير يريد أن يسجل على ورقة التبرعات كل المال الذي كان يحمله، لكنه خشي أن يكون في ذلك دليل على الكبرياء؛ لذلك فقد وضع رقمًا مساويًا لأرقام الآخرين.

انتهت الجلسة، ولما عاد بيير إلى مسكنه أحس كأنه رجع لتوِّه من سفر طويل دام عشرات السنين، تبدَّل خلاله تبدُّلًا كليًّا، وقطع كل علاقة له وصلة مع عاداته القديمة.

الفصل الخامس

محاولة الأمير بازيل

في اليوم الثاني لقبول بيير في المحفل، كان هذا جالسًا في مسكنه يقرأ محاولًا بكل قواه الفكرية أن يتفقه في معنى المربع الذي كان أحد أضلاعه يشير رمزيًّا إلى الله، والثاني إلى العالم الفكري، والثالث إلى العالم السفلي، والرابع إلى العالمين معًا. كان خلال فترات يترك الكتاب والمربع، ويطلق لخياله العنان، ويضع في تفكيره أسس حياته الجديدة. لقد أخبروه أمس في المحفل أن الإمبراطور اطَّلع على قصة المبارزة، وأنه يتصرف بتعقل إذا ابتعد عن بيترسبورج لبعض الوقت، فكان يزمع القيام برحلة إلى أملاكه في الجنوب للتفرغ بالعناية بفلاحيه هناك. وكانت الأحلام اللذيذة تهدهد خاطره عندما قطع عليه تأملاته فجأة الأمير بازيل الذي دخل الحجرة.

سأله هذا دون مقدمات: «ماذا فعلت في موسكو يا صديقي؟ لمَ بحق الشيطان اختصمت مع ليوليا يا عزيزي؟ إنك على خطأ مبين. إنني أعرف كل شيء وأستطيع أن أؤكد لك أن ليوليا ليست مخطئة نحوك إلا بالقدر الذي أخطأ فيه المسيح نحو اليهود.»

همَّ بيير بالجواب، لكن الأمير بازيل لم يترك له الوقت، تابع حديثه قائلًا: «ولماذا لم تأت إليَّ لتطلب مشورتي كصديق؟ أعرف كل شيء، وأفهم كل شيء. لقد تصرفت تصرف الرجل الذي يعرف قيمة شرفه، ولكن في شيء من العجلة، مع ذلك لندعْ هذا. فكِّر فقط في أي موقف وضعتنا — هي وأنا — حيال المجتمع، بل وحيال البلاط.»

أضاف هذه الجملة الأخيرة بصوت منخفض، ثم أردف مؤكدًا وقد أمسك على عادته بذراع بيير وأنزلها نحو الأرض: «إنها تقطن في موسكو، وها أنت ذا هنا، فهيا يا عزيزي؛

إنه سوء تفاهم لا أكثر. أعتقد أنك لمست ذلك بنفسك. لنكتب لها رسالة، وستهرع على الفور، وسيزول كل الجفاء، وإلا يا عزيزي فإن هذه المسألة قد تنتهي بما لا يسرُّك، بل ويؤسفك. إنني أرغب في إخطارك منذ الآن.»

وأعقب قائلًا بعد أن ألقى على بيير نظرة حافلة بالمعاني: «نعم، إنني علمت من مصدر موثوق أن الإمبراطورة المطلقة مهتمة بهذا اهتمامًا كليًّا، وأنت تعرف محبتها والتفاتاتها نحو هيلين وعطفها عليها.»

كاد بيير يقاطع المتحدث مرارًا، لكنه إلى جانب استرسال الأمير في الحديث بحرارة كان يخشى أن يعلن لحميه بلهجة قاسية شديدة رفضه الجازم، الذي كان مصممًا على التمسك به، ثم إنه تذكر في تلك اللحظة أن مقطعًا من النظام الماسوني يأمره أن يكون وديعًا حانيًا؛ لذلك فقد قطب حاجبيه وتضرج وجهه، وراح يقف ويجلس ويكرر ذلك وهو يناضل نفسه في أشد المواقف إيلامًا، مما لم يسبق له من قبل أن جربه بها؛ ذلك أنه لم يكن يطيق مجابهة أحد بأشياء مزعجة، وإبلاغ هذا الرجل، بصرف النظر عن مكانته، أمرًا لا يتوقعه كان من أشد المزعجات. لقد اعتاد بيير الاستكانة أمام لهجة الأمير بازيل المستخفَّة الحازمة، وأساليبه المصطنعة، فكان في تلك اللحظة كذلك لا يجد بنفسه الشجاعة الكافية على مقاومته. مع ذلك، فقد كان يعرف أن الكلمات التي سيفوه بها ستقرر مصير مستقبله كله، فهل يرجع إلى أخطائه السابقة وضلاله، أم يسلك السبيل الجديد الذي أطنب الماسونيون في امتداحه، والذي سيقوده دون ريب إلى التجدُّد الذي طالما تاقت نفسه إليه؟

استأنف الأمير بازيل كلامه قائلًا بلهجة فكهة: «هيا يا عزيزي، قل نعم، وسأكتب لها بنفسي، وعندئذ لا يبقى أمامنا إلا أن نحتفل بإزالة سوء التفاهم.»

لم يكن قد أنهى جملته بعدُ عندما انتصب بيير ووجهه المتقلص من الغضب يعيد إلى الذاكرة فجأة وجه أبيه، وقال بصوت منخفض دون أن ينظر إليه: «لا أعتقد يا أمير بأنني استدعيتك إلى منزلي! فاخرج. أرجوك اخرج!» واندفع نحو الباب، فلما فتحه عاد يكرر وهو لا يصدق نفسه: «اخرج، هيا!»

شعر بغبطة غامرة عندما رأى الأمير بازيل تفضح قسمات وجهه فجأة لونًا من التشوش والخوف. قال هذا: «ماذا دهاك؟ أأنت مريض؟!»

فكرَّر بيير بصوت مرتعد: «قلت لك: اخرج!»

فاضطر الأمير بازيل إلى الانسحاب دون أن يحظى بتفسير عما جاء من أجله.

وبعد ثمانية أيام، استأذن بيير من أصدقائه الجدد وقدَّم إليهم منحة كبيرة، ومضى لزيارة أملاكه وأراضيه. حمَّله الإخوان رسائل إلى الماسونيين في كييف[١] وأوديسا[٢] ووعدوه بالكتابة إليه وإرشاده في نشاطه الجديد.

[١] كييف: عاصمة أوكرانيا، واقعة على نهر الدينبر، سكانها ٨٤٧٠٠٠ نسمة، شهيرة بالسكاكر والمعارض الهامة.

[٢] أوديسا: مدينة في أوكرانيا، وهي مرفأ على البحر الأسود، سكانها ٦٠٤٠٠٠ نسمة، شهيرة بالحبوب.

الفصل السادس

حديث الأندية

على الرغم من القسوة والصرامة التي كان يُبديها الإمبراطور في ذلك العصر حيال المبارزات، فإن المبارزة التي وقعت بين بيير ودولوخوف لم تتبعها ذيول مؤسفة وتدابير مؤذية بالنسبة للخصمين والشهود معًا. مع ذلك، فإن الشائعات لم تلبث أن راجت حول أسباب المبارزة ودوافعها، فجاء قطع العلاقات بين بيير وهيلين منشطًا لها حتى بلغت المجتمعات الراقية، وأصبحت حديث اليوم فيها، وكان بيير — الذي عومل بمراعاة عندما كان يعتبر ابن سفاح، والذي راحوا يطرونه ويتملقونه عندما أصبح محط الأنظار، والصفقة الهائلة الكبرى في المملكة كلها — قد خسر منذ زواجه الشيء الكثير من اعتباره في المجتمعات الراقية، وفقد الاهتمام الشديد الذي كانوا يحيطونه به، فالأمهات اللاتي كنَّ يَحلمنَ في تزويجه بناتهن، والفتيات اللاتي كُنَّ ينظرن إلى الفوز به زوجًا فقدنَ اهتمامهن به.

أما الأندية والمجتمعات فقد تغاضت كذلك عنه؛ لأنه كان جاهلًا بأسباب الرياء والملق، وإلفات الأنظار إليه فيها. وعلى ذلك فقد راحوا يعتبرونه المسئول الأوحد عن كل ما حدث، ويصورونه غيورًا سخيفًا شاذًّا، خاضعًا كأبيه المرحوم لنوبات من الغضب الدموي الوحشي. فلما عادت هيلين إلى الظهور في الأندية بعد ذهاب بيير من بيترسبورج، استقبلها معارفها كلهم بودٍّ يشوبُه الاحترام بسبب المصيبة التي وقعت لها، فإذا ما دار الحديث حول زوجها اتخذت هيلين طابع الوقار الذي كان إحساسها الفطري يوحيه لها، دون أن تفهم على الضبط موضوع ذلك الحديث.

كان ذلك الطابع يشير إلى أنها مصممة على احتمال مصيبتها دون تذمُّر، وأنها تعتبر زوجها صليبًا[١] أرسله الله إليها. أما الأمير بازيل فكان يُعرب عن رأيه في صهره بعبارات أكثر دقة وإحكامًا، فيقول مشيرًا بأصبعه إلى جبهته: «إنه أرعن ماجن، وقد قلت دائمًا.»

وتؤيد آنا بافلوفنا أقواله جازمة: «لقد قلت ذلك دائمًا. نعم، لقد أظهرت ذلك منذ البداية قبل كل الناس.»

كانت تلح على أسبقيتها في التكهن بفساد بيير وعدم صلاحه: «نعم، لقد قلت قبل كل الناس أن أفكار هذا العصر الفاسدة قد زعزعت عقل هذا الفتى. لقد كان عائدًا من الخارج فكان كل الناس يرفعونه فوق السحاب إلا أنا. لقد حكمت عليه للوهلة الأولى عندما رأيته ذات مساء عندي يتحدث وكأنه مارا،[٢] ألا تذكرون؟ ثم كيف انتهى ذلك؟ إنني منذ تلك اللحظة ما كنت أرغب في ذلك الزواج. لقد كنت أتوقع هذه النتائج.»

كانت آنا بافلوفنا تحيي في أيام فراغها الحفلات التي تنفرد وحدها في فن إقامتها على طريقتها وتنظيمها. كانت تجمع — حسب تعبيرها الخاص — زبدة المجتمع الراقي الحقيقي، وزهرة الروح الفكرية الرفيعة الكامنة في مجتمع بيترسبورج. وإلى جانب هذا الانتقاء الرائع للمدعوين، كانت حفلات آنا بافلوفنا تعرض شيئين جذابين آخرين؛ ففي كل منها كانت تقدم لضيوفها شخصية جديدة مهمة، وتعطيهم فكرة صحيحة عن الميزان السياسي في الأوساط الحاكمة في البلاط والمدينة، الأمر الذي يتعذر وقوعه في أي مكان آخر بمثل الدقة والصحة التي يبدو عليهما عندها.

أقامت حفلة على هذا الطراز في نهاية عام ١٨٠٦، عندما كانت أنباء انتصار نابليون الساحق في أيينا[٣] وأويرستايدت،[٤] واستسلام كل الحصون البروسية تقريبًا، قد بلغت

---

[١] المقصود من هذه العبارة «عذابًا سلَّطه الله عليها»؛ لأن المسيح تعذب على الصليب بإرادته بسكون وتقبُّل.

[٢] جان بول مارا: ثوري شهير ولد في بودري (سويسرا) عام ١٧٤٣، ألَّف كتاب «صديق الشعب»، وكان المُحرِّض على مذابح أيلول المعروفة. أصبح نائبًا في مجلس الشعب، وأظهر صرامة في محاكمة الملك. اغتالته شارلوت كورداي عام ١٧٩٣.

[٣] أيينا: مدينة ألمانية على نهر سالا، سكانها ٥٣٠٠ نسمة، تنتج اليوم أدوات دقيقة وعدسات، وفيها جامعة شهيرة. انتصر فيها نابليون على البروسيين عام ١٨٠٦.

[٤] ضاحية من الساكس البروسي، سكانها ٥٨٠ نسمة. انتصر فيها دافو على البروسيين انتصارات رائعة في ذات اليوم الذي كان نابليون ينتصر فيه في أيينا عام ١٨٠٦، وقد سُمِّي دافو هذا دوقًا بهذا الاسم. ودافو

إلى العاصمة حديثًا. كانت القطعات الروسية قد دخلت حينذاك بروسيا، وكانت الحملة الثانية ضد نابليون على وشك القيام، وكانت زبدة المجتمع الطيب الحقيقية ذلك المساء: هيلين الفاتنة التعيسة التي هجرها زوجها، ومورتمارت — الذي مرَّ ذكره — والأمير الفتان هيبوليت الذي عاد حديثًا من فيينا، وسياسيان، و«ماتانت»، وشاب رفيع الذكاء لا أكثر، ووصيفة شرف أُنعِم عليها بذلك اللقب مؤخرًا، وأم تلك الوصيفة، وأخيرًا بعض الشخصيات الأدنى أهمية ومرتبة. أما الباكورة التي كانت آنا بافلوفنا تقدمها لمدعويها في تلك الحفلة، فإنها كانت بوريس وبتسكوي — إيَّاه — الذي كان عائدًا من بروسيا بمهمة رسول. كان الميزان السياسي يشير إلى ما يلي: «يستطيع من يشاء من أمراء وجنرالات أن يتعاهدوا مع بونابرت، ويتفقوا ما شاءوا معه ليحدثوا لي أو لنا مضايقات ومزعجات، لكن رأينا في صدده لن يتغير مطلقًا. لن نتوقف أبدًا عن التعبير عن رأينا الخاص بهذا الصدد، ولا نستطيع أن نقول لملك بروسيا وللآخرين إلا: أنتم وشأنكم. لقد أردتها بنفسك يا جورج داندان.»[5]

وعندما دخل بوريس، وهو الذي كان مقررًا أن يتسلى المدعوون على حسابه إلى البهو، كان الضيوف كلهم مجتمعين فيه، والحديث الذي كانت آنا بافلوفنا توجهه على عادتها يدور حول علاقات روسيا الدبلوماسية مع النمسا، والأمل الذي يراود النفوس في الارتباط بحلف مع هذه الأمة. كان بوريس مرتديًا ثوبًا أنيقًا من أثواب الضباط المساعدين، نضرًا متورد الوجنتين، ولكن أكثر رجولة من قبلُ، يمشي مشية رشيقة نشيطة. قدمت آنا بافلوفنا إليه يدها الجافة ليقبِّلها، ثم قادته حسب القاعدة المطردة لينحني أمام «ماتانت»، وبعد أن أدخلته في الحلقة الرئيسية الكبرى قدمته إلى عدد من الأشخاص الذين لم يكن يعرفهم، وهي تشير إلى كل واحد منهم وتذكر له اسمه بصوت منخفض: «الأمير هيبوليت كوراجين شابٌّ فتان، السيد كروج؛ القائم بالأعمال في مفوضية كوبنهاجن، وهو عبقري عميق التفكير، السيد شيتوف رجلٌ جم المواهب.»

هذا كان ماريشالًا لفرنسا وأميرًا قبل أن يصبح دوقًا، وهو واحد من خيرة قواد بونابرت. عاش ٥٣ سنة (١٧٧٠–١٨٢٣).

[5] جورج داندان: كوميديا ذات ثلاثة فصول دبَّجها موليير نثرًا عام ١٦٦٨، وهي تدور حول جنون رجل تزوج سيدة أرفع مقامًا من طبقته الاجتماعية، بَرِم بها دون أن يستطيع إبداء ذلك. وقد درجت عبارة: «لقد أردت ذلك يا جورج داندان، لقد أردت ذلك.» التي كان ذلك الرجل يخاطب نفسه بها للدلالة على كل ورطة يقع بها الإنسان بسبب أعماله. يقابلها بالعربية: «على نفسها جنت براقش.»

وصل بوريس إلى مركز مرموق بفضل تصرفات آنا ميخائيلوفنا ومواهبها الخاصة، وبفضل عقليته المتحفظة. لقد كان ضابطًا مساعدًا لشخصية رفيعة جدًّا، فاستطاع أخيرًا أن يؤدي مهمة هامة في بروسيا. لقد وضع نصب عينيه ذلك القانون غير الرسمي الذي اطلع عليه في أولموتز فسحر به وافتنَّ؛ ذلك القانون الذي يستطيع بفضله أن يحتل حاملُ عِلْم بسيط مركزًا أرفع من مركز جنرال في الجيش، قانون لا يدين الترقي في العمل للمجهود والشجاعة والصبر والثبات، بل للموهبة التي تجعل المرء مرموقًا يستحق تلك الترقية. كان نجاحه الشخصي يدهشه أيما دهشة حتى إنه كان يتساءل لِمَ لا يحذو الآخرون حذوه؟ لقد أبدل ذلك الاكتشاف كل حياته وشخصيته وعلاقاته ومعارفه القدماء، وقلب خططه للمستقبل رأسًا على عقب. لقد كان — رغم فقره — ينفق آخر قرش لديه ليكون أحسن هندامًا من الآخرين. لقد حرم نفسه متعًا كثيرة كيلا يقطع شوارع بيترسبورج مرتديًا زيًّا باليًا أو قديمًا، ومتنقلًا في عربة حقيرة قديمة. لم يكن يتَّصل إلا بشخصيات رفيعة أرفع منه مقامًا، كانت تستطيع أن تكون مفيدة له في المستقبل. كان يحب بيترسبوج ويمقت موسكو. كانت ذكرى آل روستوف وغرامياته الصبيانية مع ناتاشا تزعجه، حتى إنه لم يطرق منزلهم منذ أن ذهب إلى الجيش، وكانت دعوته إلى حفلة آنا بافلوفنا تعتبر في نظره خطوة كبيرة إلى الأمام في طريق مستقبله، فهم على الفور الدور الذي عليه أن يلعبه، فترك لمضيفه استثمار الاهتمام الذي كانت تثيره بحضرته، وراح يعاين الموجودين فردًا فردًا بعناية واهتمام، ويزين الفوائد التي قد يجنيها من هؤلاء أو هؤلاء في المستقبل. وكان جالسًا قُرب هيلين الجميلة، في المكان الذي عُين له، يصغي بانتباه إلى الحديث العام.

كان القائم بالأعمال الدانماركي يقول: «إن فيينا ترى أن أسس المعاهدة المقترحة بعيدة المنال حتى ليتعذر الوصول إليها، ولو بواسطة سلسلة من النجاح والانتصارات الأكثر شأنًا، وهي تشك في الوسائل التي يُمكِنها أن تؤمِّن لنا كل هذا النجاح. إن هذه الجملة هي التي يتمسك بها المكتب الوزاري في فيينا.»

تدخلت آنا بافلوفنا قائلة: «آه يا عزيزي الفيكونت! إن إيروبا — كانت تعتقد أنها إذا نطقت كلمة أوروبا بالفرنسية محرفة حتى تصبح إيروبا، فإن ذلك يدل على رقة في النطق، ولا يعلم إلا الله من أين أتت بهذه البدعة — إن إيروبا لن تكون حليفتنا أبدًا.»

ولكي تمنع دخول بوريس في المناقشة، حوَّلت دفَّة الحديث فراحت تمتدح شجاعة ملك بروسيا وحزمه. أما بوريس فكان يصغي باحترام وصمت إلى الحديث الدائر حوله

منتظرًا دوره للدخول في سياقه، لكن ذلك ما كان يمنعه من اختلاس نظرات إلى وجه جارته الحسناء التي قابلت نظراته مرارًا مبتسمة لذلك الضابط المساعد الشاب الجميل.

رجت آنا بافلوفنا بمناسبة الحديث عن بروسيا، بوريس بكل بساطة أن يقصَّ عليهم قصة سفره إلى جلوجو[٦] وأن يصف لهم حالة الجيش البورسي كما شاهدها، فراح بوريس يعطي بيانات وتفصيلات دقيقة هامة عن الجيش والبلاط بصوت متزنٍ، وبلغة فرنسية سليمة، لكنه حرص على تجنُّب إبداء رأيه في الأحداث التي نتجت عنها، وعلى كتمان وجهة نظره الشخصية فيها. احتكر خلال فترة طويلة الاهتمام العام في ذلك الحفل، واستطاعت آنا بافلوفنا أن ترى بنفسها مبلغ الاستمتاع الذي نعم به مدعووها بهذه الباكورة التي قدَّمتها إليهم، وبدا على هيلين أنها اهتمت ببوريس اهتمامًا خاصًّا، فراحت تطرح عليه عدة أسئلة تتعلَّق بسفره ووضع الجيش البروسي الذي خيِّل للموجودين أنها تُعيره عناية خاصة، فلما انتهى من تقديم تفصيلاته وأجوبته استدارت نحوه وقالت له خلال ابتسامتها المعهودة: «ينبغي أن تحضر لرؤيتي يوم الثلاثاء بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة، ولا أقبل الاعتذار.»

كانت لهجتها توحي بأن الأسباب التي دعتها إلى طلب مقابلته، والتي كانت مجهولة منه، تجعل زيارته لا بد منها، فوعد بالامتثال لطلبها، وراح يتحدث على انفراد مع هيلين، وعندئذ استدعته آنا بافلوفنا بحجة أن «ماتانت» تتحرق شوقًا لسماعه بدورها.

ولما ابتعد معها قالت له مشيرة إلى هيلين إشارة مشفقة ومغمضة عينيها بعد ذلك: «إنك تعرف زوجها على ما أظن؟ آه! يا لها من سيدة فاتنة وبائسة! لا تتحدث عنه أمامها. أتوسل إليك؛ إن ذلك يؤلمها أشد الإيلام.»

[٦] Glogau: مدينة بروسية في سيليزيا على نهر الأودر، سكانها ٢٦٠٠ نسمة، ألحقت ببولونيا منذ عام ١٩٤٥ Glogouv.

الفصل السابع

صديق جديد لهيلين

عندما عاد بوريس وآنا بافلوفنا إلى الحلقة الكبرى كان الأمير هيبوليت يتدخل في الحديث الدائر.

هتف وقد مال بجذعه إلى الأمام: «ملك بروسيا!»

وانفجر ضاحكًا، فاستدار الضيوف نحوه مترقبين.

عاد يقول، ولكن بلهجة استفهامية هذه المرة: «ملك بروسيا؟»

وبعد ضحكة جديدة، عاد إلى مقعده يغرق فيه بخطورة ووقار وتأنٍّ.

انتظرت بافلوفنا لحظات، فلما وجدت أن هيبوليت لا يرغب في متابعة الحديث — وكان هذا هو الواقع — راحت تروي للموجودين أن بونابرت الزنديق سرق من بوتسدام سيف فريدريك الأكبر. بلغت في حديثها قولها: «إنه سيف فريدريك الأكبر الذي …» عندما قاطع هيبوليت كلامها.

شرع يقول: «ملك بروسيا …»

ولما راح الموجودون يصوبون نحوه نظراتهم المستفسرة اعتذر وعاد إلى سكوته المطبق.

أخذت آنا بافلوفنا موقفًا سلبيًّا، وراح مورتمارت — صديق هيبوليت — يحثه على الإعراب عما يريد قائلًا: «هيا، مع من تتحدث بملك بروسيا؟ وما هي هذه النغمة؟»

فضحك هيبوليت ضحكة جديدة ولكنها مرتبكة، وقال: «كلا، لا شيء في هذا الأمر، لقد أردت أن أقول فقط … أردت أن أقول فقط: إننا مخطئون إذ نحارب من أجل ملك بروسيا.»

والحقيقة أنه كان قد تعلم هذه النكتة في فيينا، فأمضى تلك الأمسية كلها يتحين الوقت المناسب عبثًا ليلقي بها.

قالت آنا بافلوفنا وهي تهدده بإصبعها الصغير المغضن: «إن لعبة الألفاظ هذه شديدة القبح، دقيقة جدًّا وذهنية، ولكن غير حقيقية ولا عادلة. إننا لا نحارب من أجل ملك بروسيا، ولكن من أجل المبادئ السامية الطيبة. آه! يا له من شيطان هذا الأمير هيبوليت!»

لم تخمد حدة الحديث طيلة السهرة. لقد ارتطم الوقت حول السياسة ولم تزد حدته إلا عندما تطرق بعضهم إلى المكافآت التي وزِّعت باسم الإمبراطور.

قال الرجل جمُّ المواهب: «لقد تلقى «ن. ن» في العام الماضي علبة سعوط ذات صورة محفورة، فلمَ لا يحظى «س. س» بواحدة كذلك؟»

فتدخل أحد الدبلوماسيين قائلًا: «إنني أسألك العفو، لكن علبتي المحلاة بصورة الإمبراطور ليست تمييزًا أو تقديرًا، بل مكافأة، أو على الأصح هدية.»

– «لقد وقعت حوادث مماثلة من قبل؛ خذ مثلًا شوارزنبرج.»

فاعترض الآخر قائلًا: «ذلك مستحيل.»

– «هل تراهن؟ الشريط الكبير «وسام» إن أمره يختلف.»

ولما أزفت ساعة الانصراف، خرقت هيلين الصمت الذي لاذت به طيلة الوقت تقريبًا، وكررت على بوريس دعوتها اللطيفة الآمرة، قالت له: «إنني في مسيس الحاجة إلى رؤيتك.»

وراحت عيناها تستدعيان آنا بافلوفنا إلى مساعدتها، فجاءت هذه تثني على طلب هيلين وتدعمه بابتسامتها السويداوية التي تضفيها على وجهها عندما تتحدث عن حاميتها السامية النبيلة.

بدا كأن هيلين قد اكتشفت خلال حديث بوريس عن الجيش البروسي أسبابًا ملحة تدعوها إلى رؤيته من جديد، فكانت دعوتها ليوم الثلاثاء المُقبل أشبه بوعدٍ منها حددت فيه اليوم الذي ستقص عليه تلك الأسباب الموجبة فيه. مع ذلك، فإن بوريس لما دخل إلى بهو الكونتيس الأنيق في اليوم المحدد، انتظر عبثًا أن تقدم له تفسيرًا عن سلوكها، كان بعض الناس مجتمعين في البهو، فلم تحدِّثه هيلين إلا حديثًا تافهًا، فلما استأذن منصرفًا وهو يقبل يدها، همست له بصوت خافت دون أن تبتسم — الأمر الذي يثير الفضول — قائلة: «تعال غدًا، وقت العشاء. ينبغي أن تحضر. تعال.»

وأصبح بوريس خلال كل مدة أقامته في بيترسبورج الصديق الحميم للكونتيس بيزوخوف.

الفصل الثامن

الأمير بولكونسكي العجوز

عادت الحرب إلى الاشتعال، وراحت تقترب من الحدود الروسية، لم يعد يسمع إلا اللعنات تصب على بونابرت في كل مكان، بوصفه عدوًّا للجنس البشري، وفي القرى والضواحي، كان التجنيد للجيش العامل والخدمات الفنية قائمًا على قدم وساق، وكانت إشاعات مختلفة متناقضة تدور على الألسن حول العمليات الحربية، وكانت تلك الأخبار خاطئة مضلة كالعادة، وبالتالي فإنها كانت تعطي المجال للتأويل والتفاسير المختلفة.

منذ عام ١٨٠٥، دخلت تعديلات كبيرة على طراز حياة الأمير العجوز بولكونسكي وأولاده.

جمعت صفوف الخبراء العسكريين المجندين في ثمانية فيالق كبيرة من مختلف بقاع روسيا، وأنيطت قيادة إحدى هذه الفيالق بالأمير العجوز عام ١٨٠٦. وعلى الرغم من الانهيار الذي ظهر على الأمير العجوز، وخصوصًا خلال الفترة التي اعتقد فيها بموت ابنه في ساحة المعركة، فإنه لم يستحسن التصامم عن النداء الشخصي الذي وجهه الإمبراطور إليه شخصيًّا. هذا عدا عن أن ذلك النشاط الجديد في مركزه الجديد أتاح له فرصة استعادة قوته ونشاطه وشجاعته. كان يفتش دون توقفٍ المناطقَ الثلاث الموضوعة تحت إشرافه تفتيشًا حازمًا صارمًا، فكان يتصرف حيال مرءوسيه بخشونة، ويقوم بواجباته الشخصية بكل دقة وأمانة، ويتعمق في أتفه التفاصيل. وتوقفت دروس الرياضيات بالنسبة إلى ماري، التي كان عليها أن تدخل إلى غرفة أبيها كل صباح إذا كان في البيت، بصحبة المربية وحفيده نيكولا الصغير، كما كان يسميه جده. كان الأمير الصغير نيكولا يشغل مع مربيته والخادم العجوز سافيشنا جناحَ المرحومة جدته، وكانت ماري تقضي معظم أيامها بالقرب منه، فتقوم — على قدر طاقتها — بدور الأم لابن أخيها، وكان يبدو على الآنسة بوريين أنها هي الأخرى تحب الطفل حب العبادة، حتى إن ماري كانت

غالبًا تتخلى عن مكانها لها، حارمة نفسها متعة تدليله وملاطفته، لتحل بوريين محلها، فتناديه بملكها الصغير وتلعب معه.

أقيمت للأميرة المتوفاة قبة صغيرة إلى جانب كنيسة «ليسيا جوري» ضمت ضريحها الذي رفعوا فوقه نصبًا من الرخام المستورد من إيطاليا بصورة خاصة. كان ذلك النصب عبارة عن مَلَك باسطًا جناحيه على وشك التحليق، وكانت شفة الملك العليا المرفوعة قليلًا توحي بشروع في ابتسامة. وذات يوم، بينما كان آندريه وماري خارجين من القبة، اتفقا في الرأي على أن وجه الملك يشبه إلى حدٍّ بعيد وجه الفقيدة نفسها، وكان هناك أمر أشد غرابة من الأول وأبعد أثرًا؛ أمر لم يُطلع آندريه أخته ماري عليه، ذلك أن الفنان الذي نحت ذلك المَلَك أعطاه دون أن يشعر ذات الأمارات التي ارتسمت على وجه المتوفاة، حتى لكأنه ينطق بمثل كلماتها العذبة؛ كلمات اللوم الرقيقة التي قرأها من قبل على وجه زوجته الراحلة «آه! لمَ عاملتني على هذا النحو؟»

بعد عودة الأمير الشاب بفترة قصيرة منحه أبوه سلفة على ميراثه، أملاكه الهامة في بوجوتشاروفو، التي تبعد عن ليسيا جوري بأربع مراحل روسية. وكانت ليسيا جوري تحيي في نفس الأمير الشاب ذكريات أليمة، فكان يلجأ إلى أراضيه الجديدة، ابتعادًا عن أبيه وعقليته الصعبة ناشدًا الوحدة؛ لهذه الأسباب كان يرى في بوجوتشاروفو محط آماله، فشرع يقيم فيها الأبنية ويقضي فيها جلَّ أوقاته.

قرر آندريه بعد معركة أوسترليتز الانسحاب نهائيًّا من الحياة العسكرية، فلما أعلنت الحرب من جديد، واضطر كل مواطن إلى القيام بواجبه. قَبِل آندريه أن يساعد أباه في تجنيد «الميليشيا» مُفضلًا هذه المهمة على الخدمة الفعلية، وبدأت الأدوار تنقلب عكسيًّا، فالأب الذي شحذ منصبه الجديد همَّته بات يتصور الحملة الجديدة على ضوء تفاؤله براقة سهلة هينة، والابن على العكس كان يراها مؤسية، ويأسف في صميم قلبه على وقوعها، وينظر إلى الأمور بمنظار أسود.

ذهب الأمير العجوز في السادس والعشرين من شباط عام ١٨٠٧ في جولة تفتيشية، فقرر آندريه — كما كانت عادته أثناء غياب أبيه — البقاء في ليسيا جوري؛ لأن الأمير نيكولا الصغير كان معتل الصحة منذ حوالي أربعة أيام، عاد السائقون الذين حملوا الأمير العجوز إلى المدينة، ومعهم بريد آندريه، فلم يجده الوصيف في غرفته، ولما راح يبحث عنه في جناح ماري أرسلته هذه إلى حيث كان الطفل مع مربيته.

قالت إحدى الوصيفات للأمير آندريه الذي كان جالسًا على مقعد صغير من مقاعد الأطفال، مكفهر الوجه، مرتعد اليدين، مقطب الحاجبين، يصب الدواء من قارورة صغيرة

في قدح مملوء إلى نصفه بالماء: «اعذرني يا صاحب السعادة، إن بيتروشا بالباب ومعه بعض الأوراق.»

سأل آندريه بلهجة محنقة: «ماذا هناك؟»

وأدَّت حركته المنفعلة إلى إهراق نقط زائدة في القدح، فألقى محتوياته على الأرض، وطلب ملأه بالماء من جديد، فنفذت الوصيفة أمره.

كانت الحجرة مؤثثة بسرير صغير وصندوقين وأريكتين ونضَدٍ ومائدة أطفال وكرسي صغير، وهو الذي كان الأمير آندريه يستعمله لجلوسه كلما جاء لزيارة ابنه، وكانت الستائر مرفوعة، وشمعة واحدة مضاءة ومثبتة على النَّضَد، يحجب نورها عن السرير دفتر موسيقي أقيم بجانبها على شكل ستارة.

قالت الأميرة ماري التي كانت تسهر على الأمير المريض: «يا صديقي، لننتظر قليلًا؛ لأن ذلك أجدى ...»

فغمغم الأمير آندريه راغبًا في إحراج أخته وإيلامها: «كلا، إنك تقولين دائمًا مثل هذه السخافات. إنك تطلبين التريُّث والانتظار دائمًا، وهذه هي النتيجة التي حصلنا عليها.»

واستأنفت الأخت قائلة بلهجة متوسلة: «أؤكد لك يا صديقي أن من الأصوب عدم إيقاظه طالما هو مستغرق في نومه.»

نهض آندريه وفي يده العلاج، واقترب من السرير الصغير على أطراف قدميه، وقال مرتبكًا: «هل يجب حقًّا أن ندعه نائمًا؟»

فأجابت ماري متمتمة وهي خجلى لرؤية أخيها يأخذ برأيها: «كما تشاء! إنني أعتقد حقًّا ... ولكن كما تشاء!»

ونبهت أخيها إلى الوصيفة التي كانت تناديه بصوت منخفض.

كانت تلك ثاني ليلة يقضيانها ساهرين قرب سرير الطفل الذي كان مصابًا بحمى عنيفة. ولما كانت ثقتهما قليلة في طبيب الأسرة، فقد أرسلا يستدعيان طبيبًا آخر من المدينة، بينما كانا يجربان الدواء تلو الدواء عبثًا، كانا مُثقلين بالقلق محطمين من القلق، فراحا يلقيان على بعضهما متاعبهما يتخاصمان ويتبادلان اللوم والتقريع.

ظلت الوصيفة مُصرَّة على موقفها تقول: «إن بيتروشا هنا ومعه أوراق من أبيك.»

فغمغم الأمير آندريه الذي وافق أخيرًا على مقابلة بيتروشا: «يا له من وقت مناسب!»

وبعد أن سلَّمه الخادم البريد وتعليمات أبيه الشفهية، عاد آندريه قرب سرير ابنه، سأل أخته: «ماذا إذن؟»

فدمدمت ماري وهي تزفر بحرقة: «كما هو، انتظر. أتوسل إليك؛ إن كارل إيفانيتش يقول دائمًا إنه يجب احترام النوم.»

اقترب آندريه من الطفل وتحسس نبضه، كانت يده ملتهبة من الحرارة، هتف: «دعيني أنت وكارل إيفانيتشك هذا!»

وعاد إلى الدواء يحمله واقترب من السرير. قالت ماري: «دعه، دعه.»

فنظر إليها نظرة غاضبة ومتألمة معًا، وانحنى فوق الطفل والقدح في يده، قال: «إنني أصرُّ على إعطائه الدواء. خذي، اسقيه أنت بيدك.»

هزت ماري كتفيها، ولكن لم تعترض. استدعت الوصيفة وراحت تحاول بمساعدتها إعطاء الدواء للطفل الذي عاد يحشرج ويتوجع ويزمجر. اكفهر وجه آندريه وهرع إلى الغرفة المجاورة ورأسه بين يديه.

هوى على أريكة هناك، وعندئذ لاحظ أن الرسائل لا زالت في يده، ففضَّها بحركة آلية وراح يقرأ. كان الأمير العجوز يعرفه بخطه الكبير المطاول، وبالاصطلاحات الموجزة التي كان يزرعها هنا وهناك في رسالته، بما يلي:

> جاءني رسول يحمل إليَّ خبرًا لا تضاهى بهجته في الساعة الحاضرة، شريطة أن يكون الخبر موثوقًا. إنه يقول إن بينيجسن[1] قد انتصر على نابليون انتصارًا كاملًا في أيلو.[2] وفي بيترسبورج، كل الناس في فرح مقيم، والمكافآت تمطر على الجيش. إن بينيجسن هذا يستحق أن أرفع له قبعتي رغم أنه ألماني. ماذا يستطيع السيد خاندريكوف أن يفعل بحق الشيطان، وهو الذي يقود الجيش في كورتشيفا؟ إنه لم يرسل لنا بعدُ إلا جنودًا لتعزيز قوتنا، ولا ما يلزم من أرزاق. امض إليه سريعًا وأبلغه أنه لن يحتفظ برأسه فوق كتفيه إذا لم يكن كل شيء جاهزًا خلال ثمانية أيام. إن انتصار بروسيخ-أيلو تأيَّد لأنني تلقيت رسالة من بيتنكا «الأمير باجراسيون» الذي ساهم في تلك المعركة يؤكِّد النصر. عندما لا يتدخل أولئك الذين لا يعنيهم الأمر، فإن بونابرت يُهزم حتى من ألماني. إنهم يزعمون أنه يفرُّ في أقصى الفوضى؛ وإذن فاهرع إلى كورتشيفا ونفذ أوامري.

[1] بينيجسن: جنرال روسي ولد في برونسويك عام ١٧٤٥، وتوفي عام ١٨٢٦. هزمه نابليون في معركة أيلو.

[2] أيلو: مدينة ليتوانية قرب كالينينجراد. هزم نابليون الروسيين والبروسيين فيها في شباط عام ١٨٠٧.

أطلق آندريه زفرة وفضَّ الرسالة التالية. وجد فيها ورقتين مكتوبتين بخط دقيق عرف فيه خط بيليبين. طواهما مرة أخرى وعاد إلى رسالة أبيه يُعيد قراءتها. ولما بلغ هذه الكلمات: «اهرع دون تأخر إلى كورتشيفا، ونفذ أوامري.» قرر في سره قائلًا: «كلا، وألف معذرة، لن أذهب قبل أن يشفى ولدي المريض.» ومضى إلى الباب فأطلَّ منه. كانت ماري لا تزال في مكانها قرب السرير تهدهد الطفل برفق.

قال الأمير آندريه متمثلًا ذكرياته: «هيا، تُرى ما هو الخبر المزعج الذي يبعثه إليَّ هذه المرة؟ آه، نعم! لقد فُزْنا على بونابرت وانتصرنا عليه وأنا بعيد عن الجيش. هيا، إن القدر يهزأ بي دائمًا. شكرًا له وبورك فيه.»

أخذ رسالة بيليبين وألقى عليها نظرة عجلى حتى بلغ نصفها دون أن يفهم أو يعي شيئًا. لم يكن يقرأ في الحقيقة إلا فرارًا من الأفكار الأليمة التي كانت منذ زمن طويل ترهقه وتزعجه.

الفصل التاسع

رسالة بيليبين

كان بيليبين بوصفه ملحقًا سياسيًّا في الأركان العامة يصف المعركة باللغة الفرنسية، وبالأسلوب والتفكه الفرنسيين، لكنه كان كذلك يكتب بتلك الصراحة المتهورة التي تسمح للروسيين — وللروسيين وحدهم — أن ينتقدوا أنفسهم، ويهزءوا بأنفسهم دون إشفاق. اعترف في رسالته أن كتمانه الدبلوماسي كان يزعجه جدًّا، وأنه سعيد إذ يستطيع أن يفصح عما بنفسه لصديق موثوق أمين، يُمكِّنه من أن يفثأ غضبه المتراكم في أعماقه، والذي تسببت الأمور التي تقع في الجيش في إشعال نيرانه. كانت الرسالة قديمة؛ أي قبل معركة بروسيخ-أيلو. كتب بيليبين:

> منذ فوزنا الكبير في أوسترليتز لم أنقطع يومًا واحدًا عن القيادة العامة كما تعرف يا عزيزي الأمير. والحقيقة أنني أصبحت ميالًا للحروب، ولقد أحسنت في هذا الميل. إن ما رأيته خلال هذه الأشهر الثلاثة لا يكاد يصدق.
>
> أبدأ من الألف — وهنا استعمل التعبير اللاتيني ab ovo؛ أي من البداية — إن عدو الجنس البشري كما تعرف يهاجم البروسيين، والبروسيون هم حلفاؤنا المخلصون الذين لم يخدعونا إلا ثلاث مرات فقط منذ ثلاثة أعوام؛ لذلك فإننا ننصرهم في عملهم وفي قضيتهم، لكن الظاهر أن عدو الجنس البشري لا يلقي بالًا إلى خطاباتنا الجميلة، فهجم بطريقته الوحشية المفتقرة للآداب على البروسيين دون أن يترك لهم الوقت لإنهاء استعراضهم الذي شرعوا فيه، فأنزل

بهم «علقة» شديدة أدمت عظامهم. راح يستقر في قصر بوتسدام.[١] كل ذلك لم يستغرق إلا لمحة من الوقت.

وقد كتب ملك بروسيا إلى نابليون يقول: إنني أرغب كل الرغبة في أن تحلوا جلالتكم في قصري، وأن تُعاملوا المعاملة التي تروق لكم، ولقد بادرت إلى اتخاذ كل الترتيبات المقابلة التي سمحت لي الظروف بها في هذا الشأن؛ فعساي وفِّقت في مسعاي! والجنرالات البروسيون يبدون كل اللباقة والأدب حيال الفرنسيين، فيستسلمون ويلقون بأسلحتهم عند أول مناوشة.

إن رئيس حامية جولجو، ومعه عشرة آلاف رجل تحت إمرته، أرسل يسأل ملك بروسيا عما يجب عليه أن يفعل إذا أنذر بالاستسلام. كل هذه التصرفات إيجابية ولا ريب.

والخلاصة أننا بعد أن كنا نأمل في التأثير على الموقف بمظهرنا العسكري وحده، وجدنا أنفسنا في حرب حقيقية؛ حرب واقعة على حدودنا — وهو الأدهى والأمر — مع ملك بروسيا ومن أجله. كل شيء على خير ما يرام، ولا ينقصنا إلا شيء صغير واحد؛ وهو القائد العام. ولما كان مقدرًا أن النجاح الذي أحرزناه في أوسترليتز كان يمكن أن يكون أقل شمولًا لو أن القائد العام كان أكبر سنًّا، فقد استعرضت أسماء أبناء الثمانين، وفُضل في هذا المضمار كامنسكي على بروزوروفسكي بعد المفاضلة بينهما، وأخيرًا جاءنا الجنرال دارجًا على طريقة سوفوروف، فاستقبل بهتافات الفرح والمجد.

في الرابع من هذا الشهر، وصل بريد بيترسبورج الأول، ونقلت الصناديق إلى مكتب الماريشال الذي يجب أن يعمل كل شيء بنفسه، وقد استدعيت للمساعدة في فرز الرسائل لأحمل ما هو مرسل إلينا، وكان الماريشال ينظر إلينا ونحن نعمل منتظرًا الرُّزم المرسلة إليه. ولقد بحثنا فلم نجد شيئًا. نفد صبر الماريشال فجاء يبحث بنفسه، وهنا وجد رسائل موجهة من الإمبراطور إلى الكونت «ت»، وإلى الأمير «ف V» وآخرين. وعندئذ ثار ثورة فظيعة رهيبة، وانهال بالنار واللهب على كل الناس، واستحوذ على الرسائل ففضَّها وراح

---

[١] بوتسدام: مدينة بروسية على بحيرة هافل، سكانها ١٣٥٠٠٠ نسمة، فيها قصر ملوك بروسيا الأقدمين، تعتبر فرساي ألمانيا. يقوم في ضاحيتها قصر سان سوسي والحديقة المسماة بهذا الاسم. وقد اشتهرت في أيامنا هذه بالاجتماع الذي أجري فيها عام ١٩٤٥ بين ترومان وستالين وتشرشل.

يقرأ تلك التي كتبها الإمبراطور للآخرين. «آه! هكذا يعاملونني إذن. ليس لهم ثقة بي. إنهم أقاموا عليَّ العيون والأرصاد! حسنًا جدًّا. اخرجوا!» وكتب الأمر اليومي العتيد التالي للجنرال بينيجسن:

> إنني جريح لا أستطيع ركوب الخيل، ولا بالتالي قيادة الجيش. لقد أعدت فيلقك من بولتوسك[2] في حالة فوضى، وهو مكشوف تمامًا ومحروم من العلف والحطب، فيجب الحذر إذن، والتفكير في التراجع على حدودنا، كما أخبرت الكونت بوكزويفدن بنفسك البارحة، الأمر الذي يجب أن يتم اليوم.

وكتب إلى الإمبراطور يقول: «إن احتكاك السرج خلال رحلاتي العديدة سبب لي خدشًا إذا أضفناه إلى الإنهاك الذي نالني من تنقلاتي السابقة؛ يمنعني من ركوب الحصان وقيادة جيش يضم مثل هذا العدد الكبير؛ لذلك فقد سلمت القيادة لأكثر الجنرالات قدمًا بعدي، وهو الكونت بوكزويفدن، ولقد نقلت إليه كل صلاحياتي وأعمالي، وأوصيته أن يقترب من حدودنا متقهقرًا عبر بروسيا إذا نقص منه الخبز. والواقع أنه لم يبق من الخبز إلا ما يكفي يومًا واحدًا، بل إن بعض السرايا لا تملك خبز يوم، إذا أخذنا بما أطلعني عليه قواد فيالق أوسترمان وسيد موريبيدذكي، ولقد التهم كل ما كان عند القرويين. أما أنا فإنني — بانتظار شفائي — أبقى في مستشفى أوسترولنكا،[3] ولي الشرف أن أقدِّم لجلالتكم — طيًّا — تقريرًا عن الأرزاق، وأن أخطر جلالتكم — بكل خضوع — أن الجيش إذا أمضى خمسة عشر يومًا أخرى في معسكراته الحالية، لن يبقى جندي واحد صالح للخدمة في الربيع المقبل.

اسمحوا للعجوز أن ينسحب إلى الريف حاملًا معه العار؛ لأنه أخفق في أداء المهمة الكبيرة المجيدة التي انتُقي لأدائها. سوف أنتظر في المستشفى هنا إذنكم اللطيف؛ كيلا ألعب في الجيش دور «المسجل» بدلًا من دور «الرئيس». إن انسحابي من الجيش لن يحدث من الضجة إلا ما يحدثه انسحاب أعمى منه. إن أشخاصًا مثلي تحفل روسيا بالألوف منهم.

---

[2] بولتوسك: مدينة في بولونيا على نهر ناريف، سكانها ١٩٠٠٠ نسمة. هزم الفرنسيون الروسيين فيها عام ١٨٠٦.

[3] أوسترولنكا: مدينة بولونية على نهر ناريف، سكانها ١٥٠٠٠ نسمة. هزم الفرنسيون الروس فيها عام ١٨٠٧، وضُمَّت إلى اتحاد الولايات السوفييتية عام ١٩٣٩ في أيلول.

وهكذا فقد غضب الماريشال من الإمبراطور فعاقبنا جميعًا، أليس ذلك منطقيًا وسديدًا؟

هذه هي العملية الأولى، لننتقل الآن إلى ما بعدها، وهي التي تبلغ فيها المنفعة والسخرية إلى رتبة الحق والصواب، ذلك أننا بعد ذهاب الماريشال وجدنا أنفسنا على مرأى من العدو، الأمر الذي يُلجئنا إلى شنِّ هجوم عليه أو الاشتباك معه في القتال. ولقد أضحى بوكزويفدن قائدًا عامًّا بحكم قدمه، لكن الجنرال بينيجسن ليس من هذا الرأي، خصوصًا وأنه هو وجيشه كان أمام العدو، وأنه كان يريد انتهاز الفرصة إذا أتيحت له بعد معركة نظيفة كما يقول الألمان. وإذن فقد شن الهجوم ووقعت معركة بولتوسك، التي اعتبرت نصرًا كبيرًا، والتي هي — في رأيي — ليست كذلك مطلقًا. لقد درجت عادتنا اللعينة جدًّا نحن معشر المدنيين على إحصاء وتقرير الخسارة أو الربح كما تعلم. إننا نقول إن من ينسحب بعد معركة ما يكون قد خسر تلك المعركة. وعلى هذا الأساس، فإننا خسرنا معركة بولتوسك.

والخلاصة أننا انسحبنا بعد المعركة، لكننا أرسلنا إلى بيترسبورج بريدًا يحمل أنباء النصر، ولم يسلم الجنرال القيادة العامة إلى بوكزويفدن، آملًا أن يتلقى من بيترسبورج لقب قائد أعلى مكافأةً له على انتصاره. وفي أثناء هذه الفترة؛ فترة خلو منصب القيادة العليا ممن يشغله، بدأنا في تنفيذ مناورات مفرطة في الإغراء والابتكار، لم يكن هدفنا مركزًا في تحاشي العدو أو مهاجمته، كما كان ينبغي أن يكون، بل لتحاشي الجنرال بوكزويفدن فقط، الذي هو قائدنا بحكم قِدَمه. تابعنا هدفنا بحماس ونشاط مرموقين، فكنا إذا اجتزنا نهرًا لم يكن سهل العبور؛ أحرقنا الجسور لنفترق عن العدو، ونباعد بيننا وبينه.

أما ذلك العدو الذي كنا نتحاشاه، فإنه لم يكن بونابرت، بل بوكزويفدن. وكاد الجنرال بوكزويفدن أن يُهاجَم وأن يُطوَّق من قبل قوة عدوة تفوق تعداد جيوشه عددًا، بفضل مناوراتنا الرائعة التي كانت تبعدنا عنه، فكان بوكزويفدن يتبعنا ونحن نفرُّ منه، فإذا مرَّ إلى الجانب الذي نكون فيه، عبر النهر ببراعته إلى الجانب الآخر، وأخيرًا لحق بنا عدونا بوكزويفدن وهاجمنا، وزعل الجنرالان، بل إن دعوة إلى المبارزة صدرت من جانب بوكزويفدن أجيب عليها بنوبة من نوبات القلب من جانب بينيجسن، لكن بريد بيترسبورج وصل في اللحظة الدقيقة الحاسمة. لقد حمل لنا البريد — الذي حملناه نبأ انتصارنا في بولتوسك — نبأ تسمية القائد الأعلى، وبذلك تغلبنا على عدونا الأول بوكزويفدن. والآن نستطيع أن نفكر في العدو الآخر، في بونابرت، ولكن في تلك اللحظة قام

أمامنا عدو ثالث، وهو الجيش الأورثوذكسي المبجل، الذي يطلب الخبز واللحم والبسكويت والعلف، ولست أدري ماذا، بصيحات عالية، وزمجرات مريعة! لقد فرغت مخازن المئونة، وأصبحت الطرق غير مسلوكة. شرع الجيش الأورثوذكسي يقوم بالسلب والنهب بشكل لا يمكن لما رأيته أنت خلال الحملة الماضية أن يعطيك أية فكرة صحيحة عنه. لقد أصبحت نصف السرايا تؤلف فرقًا حرة تجوب المنطقة تعيث فيها سلبًا وتقتيلًا بفظاعة ووحشية، ونُكب السكان نكبة مريعة، ولحقهم الدمار، وامتلأت المستشفيات بالمرضى، وعمَّ القحط والنحس كل مكان. لقد هوجمت القيادة العامة نفسها مرتين من قِبَل السَّلابين، فاضطر القائد الأعلى أن يطلب لواءً كاملًا لطردهم، ولقد حملوا معهم في إحدى غزواتهم صندوقًا فارغًا ومعطفي المنزلي. إن الإمبراطور يريد إعطاء قواد الفيالق كلهم حق إعدام السلابين النهابين، لكنني أخشى أن يؤدي ذلك إلى أن يقتل نصف الجيش النصف الآخر رميًا بالرصاص.»

كان الأمير آندريه لا يقرأ إلا بعينيه فقط، لكنه لم يلبث أن شعر بنفسه يتابع رواية بيليبين، التي كانت صحتها تدعو إلى الشك، فلما وصل إلى هذا الحد من القراءة كوَّر الورقة في يديه وألقاها بعيدًا. لم تغضبه فحوى الرسالة، بل إنه كان غاضبًا على نفسه؛ لأن هذه الحوادث البعيدة التي كانت تبدو له شديدة الغرابة كانت تحرك كوامن عواطفه. أغمض عينيه ورفع يديه إلى جبينه وكأنه يطرد الأفكار المزعجة التي أيقظتها تلك القراءة، ثم أصاخ السمع إلى ما يدور في الحجرة المجاورة التي ينام الطفل فيها، خُيل إليه فجأة أنه سمع صوتًا غريبًا صادرًا عن تلك الغرفة، فراح يتساءل بذعر عما إذا كانت حال ابنه لم تبلغ حد التفاقم. اقترب من الباب على أطراف قدميه وفتحه.

في اللحظة التي اجتاز فيها المدخل رأى أن الخادم العجوز تخفي شيئًا وعلى وجهها آيات الارتياع، ورأى أن أخته ليست قرب السرير كما كانت من قبل. سمع صوت ماري وراءه يحدثه قائلًا: «يا صديقي …»

وشعر أن اللهجة حافلة باليأس. استولى على الأمير ذعر لا مبرر له، كما يحدث للمرء غالبًا بعد فترة طويلة من القلق والأرق. لا شك أن ولده مات؛ فكل ما كان يراه وكل ما كان يسمعه كانا يؤكدان هذا الظن!

فكر في نفسه: «إذن، لقد انتهى كل شيء.» غمر جبينه عرق بارد، فاقترب من السرير الصغير زائغ البصر متأكدًا أنه سيجده فارغًا، وأن الخادم العجوز أخفتْ منذ حين جثة ولده. أزاح الستائر قليلًا، وظلت عيناه فترة طويلة يعميهما الذهول، فلا يرى بهما شيئًا،

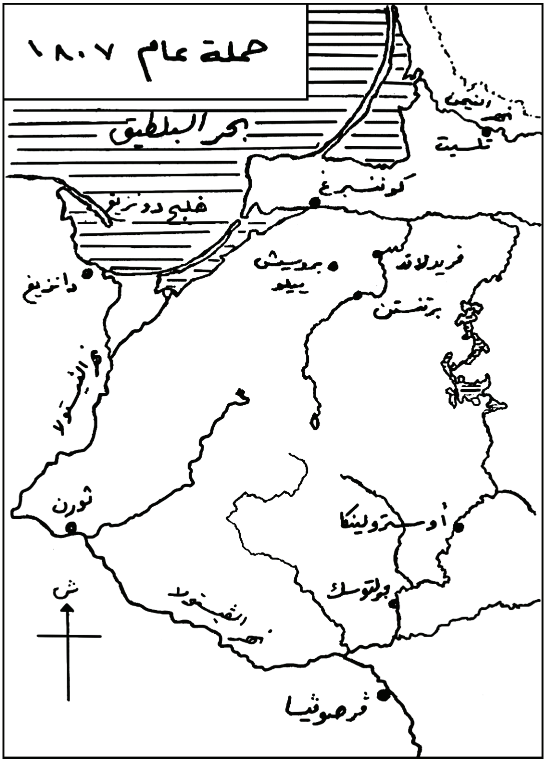

وأخيرًا وجد ابنه. كان الطفل مستلقيًا على سريره عكسيًّا، وردي الوجنتين، مباعدًا بين ذراعيه، ورأسه بعيد عن الوسادة، يرضع في نومه ويتنفس بانتظام.

استخفَّه الفرح لرؤية ابنه حيًّا وهو الذي قدَّر أنه قضَى، فانحنى على الطفل ووضع شفتيه على جلده ليتحسس حرارته، كما علمته أخته ماري. كان الجبين الرقيق نديًّا. تحسس رأس الطفل بيده، فوجد أنه مبتلٌّ حتى الشعر، وإذن فقد حدثت نوبة جعلت الطفل يتعرق بشدة، وبذلك عاد إلى الحياة. كان آندريه يتوق إلى الإطباق على هذا المخلوق الصغير الضعيف وضمِّه إلى قلبه بشدة وعنف، لكنه لم يجرؤ على ذلك. ظل ذاهلًا يتأمل الرأس الندي، واليدين الصغيرتين، والساقين الصغيرتين اللتين تركتا آثارهما على الغطاء.

شعر بحفيف بالقرب منه، وانعكس ظل على ستار السرير. لم يحفل بذلك الظل. لقد كانت عيناه شاخصتان إلى الجسد اللدن المسجَّى على السرير، وكان يصغي إلى صوت تنفسه الرتيب. كان ذلك الظل هو الأميرة ماري، التي اقتربت بخطوات مكتومة فرفعت ستائر السرير وتركتها تنسدل وراءها. عرفها الأمير دون أن يستدير، فمد إليها يده، فأطبقت تشد عليها.

قال آندريه: «لقد نضح جسمه عرقًا.»

– «لقد قلت لك ذلك منذ حين.»

تحرك الطفل قليلًا، وابتسم في نومه، وفرك جبينه الصغير على الوسادة.

نظر آندريه إلى أخته، وفي عتمة غرفة النوم الخفيفة كانت عينا ماري تبدوان أشد التماعًا ووميضًا من جري عادتهما، وكانت دموع الفرح تزيد البريق توهجًا. وبينما هي تتسلل قرب أخيها لتعانقه علقت ستارة السرير، تناشد الهدوء والسكون فتبادلاه، ولبثا فترة في تلك العتمة، يشكلون ثلاثتهم فقط عالمًا خاصًّا بهم. كانا يجدان صعوبة في نزع نفسيهما منه. راح الأمير آندريه يخفي شعره في طيات ستارة السرير المصنوعة من الموصلين. وأخيرًا ابتعد قبل أخته عن السرير وهو يقول زافرًا بارتياح: «هيا، إن هذا هو كل ما تبقى لي، وما سيشغلني بعد الآن.»

الفصل العاشر

مساعي بيير

بعد زمن قصير من دخول بيير في عداد الإخوان الماسونيين، زوده هؤلاء بتعليمات خطية ليسير على خطوطها في أعماله وواجباته الكثيرة التي كانت تدعوه إلى زيادة أراضيه، فسافر هذا مقاطعة كييف؛ حيث كان السواد الأعظم من فلاحيه يعملون فيها.

استدعى بيير حال وصوله إلى مدينة كييف كل وكلائه ومسجليه إلى المكتب الرئيسي؛ حيث شرح لهم نواياه ورغباته. كان يتطلب منهم اتخاذ تدابير فورية لاستقلال الفلاحين في الأراضي استقلالًا تامًّا. وبانتظار ذلك، لا يجب تكليف هؤلاء بالعمل. أما العقوبات الجسدية فينبغي أن تُلغى، وأن يحل محلها تحذير ونصح شفهي. ينبغي مساعدة الفلاحين وإقامة المستشفيات في كل مقاطعة، وملاجئ، ومدارس، ويجب إعفاء النساء والأطفال من السخرات. كان بعض أولئك المسجلين — وبينهم خَوَلٌ شِبْه أُمِّيينَ — يصغون إليه بذهول وذعر، معتقدين أن الكونت، بدلالة محاضرته تلك، غير راضٍ عن إدارتهم وأساليبهم في إلحاق الغبن بالفلاحين، والبعض الآخر كانوا يجدون بعد الفترة الأولى من الذهول أن لثغة سيدهم، وتلك الكلمات الجديدة التي ينطق بها فَكِهة مسلية كل التسلية. أما الفريق الثالث فقد كان أفراده يجدون متعة في الإصغاء إليه، ولا شيء غير المتعة، لكن أشدهم حنكة وذكاء، وفي طليعتهم رئيس المسجلين، استخلصوا من أقواله ومواعظه دلالة ثمينة جدًّا. أصبحوا يعرفون الآن، السلوك الذي يجب عليهم انتهاجه حيالَ سيدهم ليبلغوا مآربهم الشخصية.

راح المسجل العام يعرب عن شديد ميله واستئناسه بمشاريع بيير، لكنه أطلعه على ضرورة تنظيم الأمور التي كانت شديدة التعقيد، قبل الشروع في إدخال تلك الإصلاحات.

صحيح أن بيير كان في تلك الأثناء يملك ثروة الكونت بيزوخوف الضخمة التي كانت مواردها السنوية تصل إلى خمسمائة ألف روبل، كما كانوا يقولون، إلا أنه كان يشعر

مؤمنًا أنه كان أوسع غنًى من قبلُ، عندما كان أبوه يعطيه عشرة آلاف روبل في العام لنفقاته الشخصية. وفيما يلي الطريقة العجيبة التي كانت ميزانيته السنوية تقام على أساسها، كان يدفع لمجلس الصيانة عن أملاكه كلها حوالي ثمانين ألف روبل، وثلاثين ألف روبل لقاء الخدمات والصيانة عن أبنيته في موسكو، وبيته الريفي، وبيته في المدينة، ودخل الأميرات السنوي، وهناك نفقات أخرى كانت تستهلك خمسة عشر ألف روبل، ومؤسسات الإحسان والغوث مثلها.

وكانت الكونتيس تنفق مائة وخمسين ألف روبل كل عام على نفسها، وتبلغ فوائد الديون التي تدفع كل عام سبعون ألف روبل تقريبًا. وقد ارتفعت نفقات تشييد كنيسة جديدة إلى عشرة آلاف روبل خلال العامين الآخيرين. أما الباقي ويبلغ مائة ألف روبل تقريبًا، فكان ينفق بشكل لا يعرفه بيير ولا يستطيع تحديده، حتى إنه في كل عام كان يجد نفسه مضطرًّا إلى الاستدانة والاقتراض. أضف إلى ذلك أن الوكيل العام كان يُطلعه كل سنة على نبأ احتراق بعض المحصول أو تلف البعض الآخر، أو القحط الذي نزل في مكان كذا، أو الأضرار اللاحقة ببعض الأبنية والمعامل التي تتطلب إصلاحات فورية، فكان على بيير والحالة هذه أن يشرع قبل كل شيء بالعناية بمصالحه ورعايتها، الأمر الذي كان يشعر بعجزه عن القيام به ونفوره منه.

راح يعمل كل يوم في تنظيم شئونه بمساعدة وكيله العام، لكنه لم يلبث أن وجد أن العمل الذي شرع فيه طافح بالأخطاء، وأنه لم يكن يقدمه في طريق التحسن قيد أنملة، كان وكيله العام من جهة يعرض عليه الأمور من أسوأ زواياها، فيمتدح سداد الديون وفرض سخر جديدة على العبيد، الأمر الذي ما كان بيير يوافق عليه، ومن جهة أخرى كان هذا يلح على تجهيز ما يجب لإقراض الفلاحين، الأمر الذي كان الوكيل العام لا يراه ممكنًا إلا إذا سددت الديون لمجلس الصيانة. كان الوكيل يضيف إلى أقواله أن بالإمكان الشروع في إقرار الفلاحين منذ الآن، شريطة أن تباع غابات كوستروما وأراضي الفولجا المنخفضة وأرض الكريمة، ولكن لكي تنجز هذه المبيعات لا بد من إجراءات شديدة التعقيد، على حد قول الوكيل العام، بين دعاوى وإجراءات نزع اليد، وتراخيص ... إلخ، مما كان يجعل بيير يشعر بالدوار، ويلجئه إلى القول: «هو كذلك، اعمل كما تراه مناسبًا.»

كان بيير محرومًا من الروح العملية والجَلَد الذي يتيح له أن يتبنى مشاكله بنفسه؛ لذلك فقد كان ينفر من هذا العمل، لكنه كان يتظاهر باهتمامه الشديد أمام المسجل العام. أما هذا فكان يتظاهر بأنه يرى تلك المشاغل شديدة النفع لسيده مضجرة ومملة بالنسبة إليه.

وفي مدينة كبيرة ككييف وجد بيير ولا شك بعض معارفه، بل وتعرَّف على أشخاص جدد كانوا يفخرون بصلتهم بثري كبير مثله حديث العهد في المدينة، مالك أكبر أرض في المقاطعة، فكانوا يدعونه متهافتين، ويحيون الحفلات السخية على شرفه، وكانت الإغراءات المتعلقة بضعفه الشخصي الذي اعترف به في المحفل من القوة حتى استحال عليه الصمود أمامها، وهكذا جرفته حمى الولائم والسهرات والحفلات في دوامة لا راحة فيها ولا توقف، خلال أيام كاملة وأسابيع وشهور، وعاد بيير سيرته في بيترسبورج. لقد انغمس في حياته القديمة بدلًا من أن يشرع في حياة جديدة مع فارق واحد؛ وهو أن المظهر كان مختلفًا.

اضطر إلى الاعتراف بأنه لم ينفِّذ من الواجبات الثلاثة التي فرضتها عليه العقيدة الماسونية، تلك التي يطالب كل ماسوني بأن تكون قدوته مثالية، وبأن اثنتين من الفضائل السبع؛ وهما: العادات الحميدة وحب الموت، لم تجدا مكانًا في نفسه، لكنه كان يعزي نفسه بقوله: «إنه ينفذ مهمة أخرى، وهي تحسين النوع البشري، وإنه يملك فضائل أخرى مثل حب المجتمع، وبصورة خاصة الكرم.»

قرر بيير العودة في ربيع عام ١٨٠٧ إلى بيترسبورج، وأن يزور أملاكه أثناء مروره بها. كان يتمسك بضرورة ملاحظة كيفية تنفيذ الأوامر التي أصدرها، ومعرفة الوضع الحالي لذلك الشعب الذي وضعه الله أمانة في عنقه، والذي كان يريد أن يكون المحسن إليه.

أما الوكيل العام الذي كان يرى أن مشروعات الكونت الشاب ليست إلا باطلًا يسيء إلى الملاك والفلاحين بقدر ما تسيء إليه نفسه، فقد قرر أن يقوم ببعض المنح إرضاء لسيده. لم يكفَّ فترة واحدة عن التدليل على استحالة تحرير العبيد الفلاحين وإقرارهم، لكنه أمر بمناسبة زيارة السيد أن تقام في كل الأملاك أسس أبنية ضخمة على غرار ما يُبنى للمدارس والمستشفيات والمآوي. كان يعرف بعد دراسة عميقة لأخلاق بيير أن الاستقبالات الحافلة ستزعجه؛ لذلك فقد استعاض عنها باستعدادات لتوزيع الخبز والملح وأعمال البر مصحوبة بإهداءات صور مقدسة، قرر أنها ستؤثر في قلب الكونت وتحرِّك مشاعره.

أحدث ربيع الجنوب والسفر السريع في عربة مريحة من طراز عربات فيينا، والوحدة الشاملة على الطريق، تأثيرًا حسنًا على نفس بيير. كانت تلك الأملاك التي يزورها لأول مرة تتبارى في الجمال وتتنافس عليه، كان أينما حل يرى السكان في مظهر من الرخاء يبرهنون له عن إخلاص مؤثر، وتعلق شديد، ويستقبلونه استقبالًا يملأ نفسه غبطة وفرحًا إلى جانب الخجل والارتباك اللذين كان يشعر بهما كذلك. وفي إحدى ممتلكاته

قدم له الفلاحون مع الخبز والملح صورة للقديسين بول وبيير، وسألوه أن يوافق على إقامة مذبح في الكنيسة على نفقتهم، يكرس لسادته المقدَّسين؛ اعترافًا منهم بما تلقوه منه من فضل وإحسان، وفي مكان آخر، جاءت النسوة مع رُضَّعهنَّ يستقبلنه شاكرات له إعفاءهن من السخرات والأعمال الشاقة، بينما جاء القسيس بنفسه يستقبله في المرحلة الثالثة والصليب في يده، وحوله أطفال كان يعلمهم الدين ومبادئ اللاتينية بفضل تدابير الكونت الأخيرة. وفي كل مكان، كان بيير يرى الأبنية تقام حسب مخطط موحد، أبنية من الحجر كان مقررًا أن تصبح عما قريب مدارس ومشافي ومآوي. وفي كل مكان كان وكلاؤه يحملون إليه التقارير المشيرة إلى تخفيف الأعمال عن كاهل الفلاحين والإقلال من السخرات، وفي كل مكان كانت وفود الفلاحين في «قفاطينهم» (جلابيبهم) الزرقاء تهرع إليه لتعبر له عن إخلاصها العميق وشكرها.

ما كان يعرف بالطبع أن الضاحية التي قدِّم له فيها الخبز والملح كانت ساحة تجارية يقام فيها معرض ريعه لكنيسة سان بيير، وأن مذبح القديسين بيير وبول كان يشيِّد منذ بعض الوقت على حساب أثرياء المنطقة، وهم أولئك الذين جاءوا يستقبلونه، بينما كان تسعة أعشار الفلاحين في حالة من العوز والجوع الكاملين. ما كان يعرف أن أولئك الأمهات الشابات اللاتي أُعفين من السخرة بناء على أوامره كنَّ مُقابل ذلك يقمن في بيوتهن بأعمال مسخرة أكثر إجهادًا من أعمالهن السابقة. كان يجهل أن ذلك القسيس الذي استقبله والصليب في يده كان يوقر رعيته بالأعشار، ويبهظ كاهل أولئك المساكين الذين ما كانوا يسلمونه أبناءهم إلا وهم يبكون، ويدفعون له مبالغ كبيرة أجرًا على تثقيفهم.

كان يجهل أن الشروع في تلك الأبنية الحجرية العتيدة كان يرهق الفلاحين؛ لأنه قام على نفقتهم وبجهودهم؛ لأن السخرة قد ضوعفت فعلًا ولم تخفف إلا على الورق. كان يجهل أن فلانًا من الوكلاء — الذين كانوا يخطرون أمامه ويتبجحون بأنهم أنقصوا، حسب رغبات سيدهم، الواجبات المُقدَّرة على الفلاحين بمقدار الثلث، مستشهدين بدفاترهم وسجلاتهم — قد ضاعف مقابل ذلك أعمال السخرة، فأي عجب إذن إذا كان بيير في تجواله في أملاكه قد انطبع بشعور من الراحة النفسية والغبطة؟! لقد راح يكتب إلى أخيه الموجه — وهو الاسم الذي كان يطلقه على المعلم الأكبر — رسائل كلها حماسة واندفاع، وقد استفزه الشعور بمحبة البشر الذي امتلأت نفسه به عندما كان في بيترسبورج.

كان يحدث نفسه قائلًا: «كم هو سهل! وكم من جهد يسير تافه يقتضيه تحقيق كل هذه الحسنات! وكم نغفل الانشغال في مثل هذه الأمور رغم بساطتها!»

كان سعيدًا بالعرفان الذي أُظهر نحوه في كل مكان، رغم أنه ما كان يتقبل تلك المظاهر إلا بمزيد من الارتباك؛ لأنها كانت تذكِّره بأنه قادر على عمل الشيء الكثير في سبيل هؤلاء البسطاء الطيبين.

كان الوكيل العام قد كشف عن حقيقة سيده فعرفها، عرف أن هذا الفتى الذكي ولكن الساذج يمكن أن يكون ألعوبة بين يديه، فلما رأى أن تدابيره الارتجالية المؤقتة قد أحدثت في بيير الأثر المطلوب، راح ذلك الداهية الماكر يعلن له بتلاعب لفظي أن إقرار العبيد الفلاحين مستحيل وعديم الجدوى؛ لأنه لن يضيف شيئًا إلى سعادتهم.

كان بيير في أعماق نفسه يرى مثل هذا الرأي، كان يخيل إليه أنه يستحيل إيجاد أشخاص أكثر سعادة من مماليكه، خصوصًا وأن الله يعرف أي مصير ينتظرهم إذا حررهم. مع ذلك فقد ألحَّ في طلبه إرضاءً لشعور العدالة والحق، فوعد الوكيل العام بأن يعمل كل ما هو ممكن لتنفيذ هذا العمل. لقد كان يعرف سلفًا أن سيده عاجز عن التحقيق بنفسه إذا كانت التدابير قد اتخذت فعلًا لبيع الغابات والأملاك المقرر بيعها لسداد دين مجلس الرعاية، وأنه على ذلك سيظل دائمًا جاهلًا ما إذا كانت تلك الأبنية الجميلة استعملت في الغاية المنتظرة منها، وإذا كان الفلاحون مستمرين على إعطاء كل ما يعطونه للآخرين؛ أي كل ما كانوا قادرين على إعطائه، سواء أكان بالعمل أم لقاء أجر.

الفصل الحادي عشر

زيارة وتبشير

ولما كان بيير عائدًا من الجنوب وهو على أحسن ما يكون من الغبطة والانشراح والارتياح، فقد انتهز تلك الفرصة للقيام بالزيارة التي طالما أجلها وأخرها، زيارة صديقه بولكونسكي الذي لم يره منذ عامين كاملين.

كانت بوجوتشاروفو — المقاطعة التي منحها الأمير العجوز لابنه آندريه — واقعة في ناحية مسطحة موحشة، تتخلل الحقول فيها أدغال الصنوبر والسندر، مبعثرة هنا وكثيفة هناك، والقرية مبنية على طول الطريق الكبير في خط مستقيم. أما المقر الذي ينزل فيه السيد، فقد كان مشيدًا وراء بحيرة حديثة الحفر ممتلئة بالماء، ذات حواف مجردة لم تعبَّد بعد، وسط غابة اصطناعية حديثة الغرس تشمخ فيه بعض شجرات الأرز الكبيرة، وكانت دائرة السيد تشمل إلى جانب البيادر وملحقاتها الإصطبلات والمغاسل والحمام والمنافع العامة، وجناحًا ملحقًا، وبناء كبيرًا من الحجر ذا واجهة نصف دائرية لم يستكمل بناؤه بعدُ، وكانت حديقة حديثة الغرس والإعداد تُحيط بالمسكن.

أما الحواجز الخشبية والبوابات فكانت جديدة ومتينة، وتحت طنف قرب البيت. كانت مضختان لمكافحة الحريق مستقرتين إلى جانب برميل ماء كبير مطلي بلون أخضر، وكانت الطرقات مخططة بدقة وعناية، والجسور متينة محاطة بالحواجز، وكل شيء في ذلك الحانوت يدل على النظام، وتفهم عميق للحياة الريفية الزراعية والتنظيم القروي. سأل بيير المماليك الخدم عن منزل سيدهم، فأشاروا إلى الجناح الجديد المقام على شاطئ البحيرة، فقصد بيير إلى البناء، وهناك ساعده خادم اسمه أنطون — كان يرافق الأمير منذ صباه ويُعنى بشئونه — على الترجُّل من عربته، وأخبره بأن سيده موجود وأدخله غرفة صغيرة نظيفة.

كان ذلك المسكن المتواضع يتناقض كل التناقض مع المظهر الباذج الأنيق الذي شاهد بيير صديقه فيه آخر مرة في بيترسبورج، فأدهشه هذا التحول وبادر إلى ولوج البهو الصغير الذي لم تكن جدرانه قد غطيت كلها بطبقة الجص، والذي كانت تبعث منه رائحة خشب الصنوبر. همَّ بأن يدخل إلى الغرفة المجاورة، لكن أنطون سبقه على أطراف قدميه فقرع بابها.

سأله صوت أجش مقبض من الداخل: «ماذا هناك؟»

فأجاب أنطون: «زيارة لك.»

– «دعه ينتظر.»

ارتفع صوت تراجع مقعد، فاندفع بيير ليصطدم بالأمير آندريه على عتبة الباب وهو خارج من الغرفة مكتئب الوجه عابسه، وعلى وجهه أمارات الشيخوخة، طوَّقه بذراعه ونزع نظارتيه ثم قبله في خديه وراح يتأمَّله عن قُرب، قال آندريه: «بحق الشيطان ما كنت أنتظر ... إنني شديد السرور لرؤيتك.»

ذُهل بيير من الانقلاب الكبير الواضح على مظهر صديقه، فراح ينظر إليه دون أن ينبس ببنت شفة، كانت كلمات الأمير مسرحية ووجهه بسام، لكنه رغم كل رغبته واستعداده ما كان يستطيع أن يضيء وميض الفرح في عينيه الخابيتين. كم هزل بولكونسكي وشحب وشاخ! غير أن بيير لم يكن ليُلقي بالًا إلى كل هذا لولا تلك النظرة الميتة، وذلك الأخدود الذي يقطع جبهته دلالة على تركيز التفكير في أمر واحد زمنًا طويلًا. لقد كانت هناك هاتان البادرتان تُحيِّفَانِه وتجعلان صديقه بعيدًا عنه؛ مما اقتضاه فترة غير قصيرة ليألفهما.

وكما يحدث عادة في الحديث الذي يدور بين صديقين بعد غياب طويل، فقد ظل الحديث يتعثر بينهما فترة حتى استقام. شرعا يبحثان في موضوعات مختلفة وفي آنٍ واحد دون أن يُولياها العناية التامة، رغم أن تلك الموضوعات كانت جديرةً بالبحث والنقاش، كالبحث في ماضيهما وخططهما للمستقبل ورحلة بيير ومشاغله والحرب ... إلخ، ثم قام التفاهم بينهما رويدًا رويدًا، واتفقا ضمنيًّا على بحث كل مسألة على حدة. كان الانهماك والتداعي اللذين لاحظهما بيير في نظرة صديقه الأمير آندريه يبدوان أكثر وضوحًا في الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه، والتي أخذ يستقبل بها الأحاديث التي كان الكونت الشاب يشرع فيها، وبصورة خاصة مشاريعه الحماسية المتعلقة بالمستقبل ورواياته عن الماضي.

كانت تلك الأمور رغم كل ما قد تثيره في نفسه من منعة لا تستأثر باهتمام الأمير، وكان هذا الإحساس ظاهرًا على آندريه، حتى إن بيير لم تفُت عليه ملاحظته، فأدرك أن حماسته وأحلامه وآماله في السعادة والفضيلة كانت في غير محلها؛ لذلك فقد عرض أفكاره الماسونية الجديدة في شيء من الارتباك، خصوصًا ما كان يتعلق منها برحلته وما شعر به بعد تلك الرحلة. أخذ يسيطر على لسانه خشية أن يبدو ساذجًا، لكنه كان يتحرق شوقًا ورغبة في إظهار صديقه على أنه أصبح الآن بيير آخر غير الذي عرفه في بيترسبورج، قال: «لا أستطيع إطلاعك على كل ما حدث في نفسي من تغييرات في الأيام الأخيرة. إنني لا أكاد أعرف نفسي.»

فأجابه آندريه: «نعم، لقد تبدلنا كثيرًا كثيرًا.»

سأله بيير: «وأنت، ما هي مشاريعك وخططك؟»

فرد عليه آندريه بلهجة ساخرة: «مشاريعي؟»

وكرر وكأن معنى تلك الكلمة كان يدهشه: «خططي؟! لكن كما ترى؛ إنني أبني دارًا وأتوقع أن أستقر هنا نهائيًّا في العام المقبل.»

أخذ بيير يدقق في وجه صديقه المَهْرَم وقال: «أنا لا أتحدث عن هذا. لقد أردت سؤالك عن …»

فقاطعه آندريه قائلًا: «آه! ما فائدة التحدث عني؟ الأفضل أن تقص عليَّ رحلتك وكل ما عملته في أملاكك هناك.»

شرع بيير يتحدث — ساعيًا إلى إخفاء دوره في هذا الموضوع — عن التحسينات التي بات مماليكه الفلاحون ينعمون بها، وقد أنجز آندريه أكثر من مرة وكأنه يعرف ذلك منذ زمن طويل، اللوحة الكلامية التي كان يصورها له بيير، لكنه كان واضحًا عليه أنه لم يكن يعير ذلك الحديث أية أهمية، بل إنه كان يبدو خجلًا لمجرد إصغائه إلى تلك الترهات.

أخيرًا شعر بيير بالضجر فآثر الصمت، ولا ريب أن آندريه كان يحس مثل ذلك الإحساس؛ لذلك فقد راح يبحث فقط عما يشغل ذلك الضيف الذي كانت آراؤه لا تنسجم ولا تتفق في شيء مع آرائه الشخصية، قال له: «أنت ترى يا عزيزي أنني جئت أعسكر هنا، ولقد قدمت لألقي نظرة على ما تم، وسأعود بعد حين لألحق بأختي في البيت. سوف أقدمك إليها، لكنك تعرفها على ما أعتقد؟ سوف نذهب بعد العشاء، والآن هل ترغب في زيارة أرضي وتفقدها؟»

ظلا يتنزهان حتى موعد العشاء وهما يتحدثان وكأنهما لا تربط بينهما إلا معرفة سطحية عن أصدقائهما كليهما، وعن الأنباء السياسية. لم تتدفق الحيوية في نفس

الأمير آندريه إلا عندما تحدَّث عن ترتيباته الجديدة، لكنه عاد فبتر الحديث فجأةً، بينما كان يتحدث عن التجهيزات المنتظرة، خلال وصف جميل للمسكن المنتظر، قال: «ثم إن كل هذا لا يثير إلا اهتمامًا ضئيلًا. هيا بنا إلى المائدة قبل أن نمضي إلى القصر.»

تحدثا خلال الطعام عن زواج بيير، فقال آندريه: «لقد أدهشني النبأ كل الدهشة.»

تضرج وجه بيير كعادته، وتطرق البحث إلى هذه الناحية وبادر يقول: «سأقص عليك ذات يوم كيف وقع كل هذا. اعلم فقط أن كل شيء قد انتهى وللأبد.»

– «للأبد! لا شيء يمكن أن يدوم إلى الأبد.»

– «هل تجهل إذن كيف انتهى الأمر؟ هل سمعت عن المبارزة؟»

– «نعم، إنني أعرف أنك بلغت حتى هذا السبيل.»

– «إن الأمر الوحيد الذي أُشكر عليه هو أنني لم أقتل ذلك الرجل.»

– «ولمَ الشكر؟ إن قتل كلب مسعور يبدو لي أمرًا ممتازًا.»

– «كلا، إن قتل رجل إثم، إنه غير حق!»

– «غير عادل؟ ولمَ؟ إن الإنسان لا يمكنه أن يُقرِّر الحق والباطل، الظلم والعدل. إن هذه هي النقطة التي أخطأ فيها الإنسان أكثر من غيرها، وسيخطئ في تقديرها أبدًا.»

استأنف بيير وقد أسعده أن استثار الحديث اهتمام آندريه أخيرًا، وبدا كأنه يريد أن يفضي إليه بمكنونات نفسه في تلك الآونة: «إن كل ما يسيء إلى المجتمع غير عادل.»

– «ومن الذي قال لك ما هو الشيء الذي يسيء إلى المجتمع؟»

– «كيف هذا؟ إننا نعرف جميعًا ما يسيء إلينا.»

فقال آندريه وفي نفسه رغبة في عرض وجهة نظره الجديدة على بيير: «نعم، إننا نعرفه، لكن ذلك الشر الذي أعتبره مسيئًا إليَّ شخصيًّا لا أستطيع أن أعمله للمجتمع.»

ثم ازداد تحمسه وأضاف بالفرنسية: «إنني لا أعرف في الحياة إلا سيئتين حقيقيتين: المرض، وتبكيت الضمير، ولا شيء أحسن من غيابهما عن النفس والجسد. إن حكمتي الحالية تنحصر في أن أعيش لنفسي، وأن أتجنب هذين الشرين.»

فاستأنف بيير مناقشًا: «وحب المجتمع، وروح التضحية؟ إنني لا أستطيع أن أشاطرك الرأي؛ أن يعيش المرء لمجرد ابتعاده عن الإساءة تجنُّبًا لتبكيت الضمير أمرٌ تافه قليل. لقد عشت كذلك؛ عشت من أجل نفسي فحطمت حياتي. والآن وأنا أعيش للآخرين — وبادر إلى تصحيح جملته بتواضع فقال — أعني أنني أحاول على الأقل أن أعيش للآخرين، فإنني على العكس بدأت أشعر بلذة الحياة وأفهمها. كلا إنني لست من رأيك، ثم إنك لا تؤمن بما تقوله بالفعل.»

أخذ آندريه يتأمله وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، قال: «سوف ترى أختي ماري، وستتفق معها في الرأي.»

وأردف بعد فترة صمت: «إن من الممكن أن تكون على حق فيما يتعلق بك، لكن كل إنسان يعيش كما يرى وعلى هواه. إنك تزعم بعيشك من أجل نفسك، كما عملت بادئ الأمر. كِدتَ أن تفسد وجودك وتحطم حياتك، وإنك لم تتعرف إلى السعادة إلا عندما رُحتَ تعيش للآخرين. لقد قمتُ بالتجربة العكسية، لقد عشت من أجل المجد، والمجد هو حب المجتمع كذلك، والرغبة في تحقيق شيء من أجله، الرغبة في أن امتُدح من قبله؛ إذن عشتُ من أجل الآخرين، فحطمت حياتي كلها نهائيًّا. إنني منذ أن بدأت أعيش من أجل نفسي شعرت على العكس بأكثر قسط من الراحة والهدوء.»

فناقشه بيير بحماس: «ولكن كيف يمكن أن يعيش المرء من أجل نفسه فقط؟ وابنك، وأختك، ووالداك؟»

– «إنهم يدخلون في الـ «أنا». إنهم ليسوا الآخرين. إن الآخرين (المجتمع) — كما تسميهم أنت وماري — هم السبب الجوهري للخطأ والشر. إن المجتمع هو فلاحو كييف الذين تريد أن تعمل صالحًا من أجلهم.»

خيِّل لبيير أن نظرته الهازئة تتحداه، فأجابه وقد ازداد حماسه توقدًا: «إنك تمزح ولا ريب، كيف يمكن أن تكون رغبتي في عمل الخير خطأ وشرًّا؟ قد أكون أخطأت في الترتيبات والتنفيذ، لكن نيتي طيبة، وقد قمت ببعض الخير رغم كل شيء. شرفي أن يخفِّف عن فلاحينا التعساء الذين هم من بني الإنسان مثلنا، والذين يكبرون ويموتون دون أن يعرفوا عن الله والحق إلا تطبيقات غير مجدية، وصلوات ربانية سخيفة! أقول: أي شرٍّ في أن يطَّلِعوا على ما يخفف عن نفوسهم فيعرفوا شيئًا عن الحياة الأخرى التي تنتظرهم جزاءً لهم على أعمالهم، وتخفيفًا عما في نفوسهم؟ أي شر وأي خطأ في أن نجنِّب الرجال الموت دون غوثٍ مادي! وفي أن نؤمِّن لهم حاجتهم من الأطباء والمستشفيات والملاجئ مع ما في ذلك من يُسرٍ؟ أليس منح بعض الراحة لأولئك التعساء البائسين، وللأمهات الشابات اللواتي يقتلن أنفسهن في العمل المرهق عملًا طيبًا لا يبارى؟»

كان بيير يتحدث بسرعة متمتمًا، فلما بلغ هذا الحد أعقب بصوت هادئ وبرزانةٍ قائلًا: «هذا ما عملته. صحيح أنه كان عملًا ناقصًا، وأنه نفِّذ بشكل غير مرضٍ كليًّا، لكنني عملته على كل حال. إنني لن أصدق أبدًا مهما قلت وأكَّدت أنني أسأتُ صنعًا فحسب، بل لن أصدق كذلك أنك لم تفكر في هذا بالمِثْل. إن المتعة التي يشعر بها الإنسان بعد عمل

الخير هي سعادة الحياة الحقيقية. إنني أعرف ذلك الآن وفي نفسي القناعة الكاملة. وهذا هو الشيء الأساسي.»

استأنف الأمير آندريه قائلًا: «على هذا الأساس فإن المسألة تبدو بشكل مختلف تمامًا. إنني أشيِّد دارًا أو أغرس شجرًا، وأنت تبني مشافي، لكلٍّ منا تسليتُه. أما ما هو خير وما هو عادل، فدع للذي يعرف كل شيء فرصة تقرير ذلك. إن هذه المسألة ليست شأننا. لكن، أتريد أن نتناقش؟ هيا، ليكن.»

– «حسنًا، لنستمر. إنك تقول: مدارس، مواعظ، وماذا بعد؟ الخلاصة أنك تريد أن تسحب هذا المخلوق — وأشار إلى فلاح كان يمرُّ في تلك اللحظة محييًا — من حالته الحيوانية الحالية لتعطيه ما ينقصه من النواحي الفكرية والخلقية. أما أنا فأعتقد، على العكس، أن سعادته الوحيدة الممكنة كامنة — على الدقة — في هذه السعادة الحيوانية التي تودُّ سلبها منه. إنني أغبطه في الوقت الذي تريد أنت أن تجعله «أنا» دون أن تعطيه على أية حال واحدًا أو أكثر من مصادري. ثم تقول بعدئذ: لنخفف عنه عمله. لكنني أقدِّر عكس ذلك أيضًا؛ أن العمل الجسدي يعتبر ضرورة بالنسبة لك ولي. إنك لا تستطيع أبدًا أن تتخلى عن التفكير، وأنا لا أنام قبل الساعة الثانية أو بعدها؛ لأن حشدًا كبيرًا من الأشياء يتجمع في رأسي، فأتقلب وأتقلب ولا أجد سبيلًا إلى النوم. كل يوم لأنني لا أستطيع أن أعمل شيئًا غير التفكير، وعلى ذلك، فإنه لن يستطيع التخلي بدوره عن الحراثة والحصاد، وإلا ذهب إلى الحانات وسقط فريسة للأمراض. إنني لا أستطيع احتمال عمله الجسدي المخيف؛ لأنه سيقتلني في بحر أسبوع إذا مارسته، كذلك فإن بطالتي ستجعله عظيم السمنة وستقتله. ثالثًا ... ماذا كنت تقول؟ آه، لقد تذكرت.»

وثنى إصبعه الثالث وأردف: «المستشفيات والمداواة، فهو إذا أصيب بضربة دمٍ مات، أما أنت فتريد أن تُعالجه ليشفى، سيعيش عشر سنين بعد شفائه، لكنه سيكون مقعدًا عاجزًا، عالة على الآخرين، ومن الخير له أن يموت مرة واحدة. إن غيره يولدون بكثرة، وسيحلون محله باستمرار، وسيكون عددهم أبدًا كافيًا، فإذا كنت تأسف لخسارة عامل — وإنني أعتبر الأمر كذلك — فليكن! لكن كلا، إنك تريد معالجته حبًّا به ليس إلا. إنه ليس في حاجة إلى مساعدتك. ثم من الذي شفاه الطبُّ حتى الآن؟ إن الطبَّ لا يعرف إلا القتل.»

وأشاح بوجهه غاضبًا. كان آندريه يتحدث بطلاقة ووضوح الرجل الذي ناقش هذه الأفكار في نفسه طويلًا، والذي وجد أخيرًا مجالًا للتعبير عما يجيش في صدره، فكلما كانت استنتاجاته كئيبة مظلمة ازداد بريق عينيه وميضًا.

قال بيير: «آه! إن هذا مريع، إن هذا مريع! كيف يمكن أن يعيش المرء بمثل هذه الآراء؟! لقد عرفت — والحق يقال — دقائق من هذا الطراز في موسكو وأثناء سفري، لكنني لم أشعر بسقوطي في مثل هذا الإسفاف. لا أشعر بالحياة، بل إن كل شيء يبدو لعيني بشعًا كريهًا، اعتبارًا من نفسي؛ وعندئذ أعزف عن الطعام والاغتسال. وأنت؛ لِمَ إهمال النفس؟ إن ذلك يعتبر قذارة! يجب على العكس أن يَجهدَ المرء ليجعل حياته على أقصى ما يستطيع من درجات الرفاهية. إذا كنتُ أعيش فليس ذلك خطئي؛ فلنعش إذن على خير ما نستطيع بانتظار لحظة الموت.»

– «ولكن كيف يمكنك مع ذلك أن تتمتع بالحياة وتشعر بلذة العيش؟ عندما يكون المرء في مثل هذه الحالة فإن من الأفضل أن يدفن نفسه في أحد الأركان، وأن يستغرق في تأملاته ويضرب أخماسه بأسداسه. ألا ترى أن الحياة لا تترك لنا مجالًا للراحة، ولولا ذلك لأسعدني أن أعيش دون أن أعمل شيئًا؟ لكن فئة النبلاء في المقاطعة أرادت بادئ الأمر أن تنتخبني قيمًا على مصالحها، ولقد وجدت صعوبات كبيرة في إقناع هؤلاء السادة بأنني لم أكن رجلهم المنشود؛ لأن المنصب يتطلب استعدادًا نفسيًّا مرحًا ودناءة مستمرة، مما لا يتوفر فيَّ، ثم اضطررت إلى تشييد هذا البيت لأجد لنفسي ركنًا خاصًّا أشعر فيه بالراحة، وأخيرًا جاء دور الميليشيا.»

– «لِمَ لم تعد إلى الخدمة العسكرية؟»

فأجاب الأمير بصوت كئيب: «بعد أوسترليتز! كلا، مع عظيم الشكر. لقد آليت على نفسي ألا أعود إلى الخدمة الفعلية، ولسوف أحافظ على وعدي، ولو أن بونابرت وصل إلى أبواب سمولنسك وبات يهدد ليسيا جوري؛ فإنني لن أعود إلى الخدمة الفعلية.»

ثم تابع بصوت استعاد بعض هدوئه: «إنني كما قلت لك وجدت أن خير وسيلة للإفلات من الخدمة الفعلية هي أن أعمل ملحقًا لأبي الذي يقود المنطقة الثالثة لإعداد الميليشيا.»

– «إنك إذن في الخدمة، أليس كذلك؟»

وصمت فترة طويلة. سأله بيير بإلحاح: «ولِمَ تخدم؟»

– «إليك السبب: إن أبي من أبرز شخصيات عصره وأهمها، لكنه أصبح اليوم هرمًا، وأضحى تصرفه على شيء من العنف دون أن تكون فيه قسوة. والآن قد منحه الإمبراطور سلطة غير محدودة بوضعه على رأس فِرق الجيش الفني، إضافة إلى عاداته الآمرة، فقد أصبح خطرًا يخشى جانبه، لقد كاد منذ خمسة عشر يومًا أن ينفذ حكم الإعدام شنقًا في واحد من المقيدين في إيوخنوف لو تأخرت ساعتين عن الوصول.»

وابتسم آندريه وأردف: «وإذن إذا كنت أخدم فلأنه لا يوجد سواي من يستطيع التأثير على عقلية أبي، وإنني من حين إلى آخر أستطيع منعه عن القيام ببعض الأعمال التي يمكن أن يأسف عليها فيما بعدُ أسفًا عميقًا.»

– «أرأيت؟»

– «نعم، ولكن ليس كما تتصور الأمر وتفسره. إنني ما كنت أطلب ولن أطلب أي خير لذلك المقيد الذي سرق أحذية الميليشيا، بل إنني كنت سأنظر إليه وهو يُشنق بسرور، لكنني أشفقت على أبي، وأعني أنني أشفقت على نفسي مرة أخرى.»

أخذ انفعال الأمير يزداد تدريجيًّا، وبينما كان يجهد في أن يبرهن لبيير أن أعماله لا تضم شيئًا من إرادة الخير للآخرين، كانت عيناه تتوقدان بحماسة محمومة، استأنف القول: «وإذن فإنك تنوي تحرير العبيد وإقرارهم. إنها نية ممتازة، لكنها لن تكون ذات نفع لك — وأنت الذي لم تأمر بجلدهم قط أو نفيهم إلى سيبيريا كما أعتقد — ولا لهم، بل إنني أعتقد أنهم إذا جُلدوا أو أبعدوا فإن ذلك لن يكون في رأيهم شيئًا كل السوء، ولو أرسلوا إلى سيبيريا لتابعوا حياتهم الحيوانية هناك وكأن شيئًا لم يحدث، فإذا ما التأمت جروح السياط وبرئت؛ فإنهم سيشعرون بمثل سعادتهم السابقة. مع ذلك، فإن التحرير والإقرار ضروريان، ولكن لأولئك الذين يخنقون في أنفسهم صوت تبكيت الضمير بعد أن فقدوا تدريجيًّا الإحساس الروحي، فيقسون في عادتهم الرديئة التي يعتبرونها حقًّا لهم، وهي إنزال العقاب بعدل أو بغير عدل. هؤلاء هم الذين أشفق عليهم، والذين أتمنى أن يصار إلى تحرير العبيد الفلاحين بسببهم. لعلك لا تعرف بعضًا من هؤلاء، لكنني رأيت أشخاصًا بارزين نشئوا في تقاليد السلطة المطلقة، فأصبحوا مع السنين أكثر استجابة للغضب، وأشد قسوة ووحشية، وهم يعرفون ذلك عن أنفسهم، لكنهم لا يستطيعون السيطرة على رغائبهم؛ فيزدادون تعاسة وحزنًا.»

كان آندريه يتحدث بحرارة. فكَّر بيير في سرِّه مرغمًا: «لا شك أن هذه الأفكار قد تسربت إلى نفسه من تأثير عقلية ابنه.» لم يجب، بينما أعقب آندريه قائلًا: «نعم، هؤلاء هم الذين يوحون إليَّ بالشفقة، وأعني كرامة الإنسان، راحة الضمير ونقاء الروح. أما الظهور والرءوس، ظهور هؤلاء الأشخاص ورءوسهم، فإنك مهما جلدت وحلقت فإنها ستبقى أبدًا ظهورًا ورءوسًا.»

فقال بيير: «كلا وألف كلا، لن أكون أبدًا من رأيك.»

الفصل الثاني عشر

مناقشة

استقل آندريه وبيير العربة وقصدا إلى ليسيا جوري عند حلول الظلام.

كان آندريه يلقي نظرات مختلسة على بيير، ويقطع الصمت من حين إلى آخر ليتحدث في موضوعات مرحة مسلية. كان يفسر له وهو يريه الحقول مختلف التحسينات التي أدخلها على الاستثمار.

لم يكن بيير يجيبه إلا بكلمات وحيدة المقاطع، دلالةً على استغراقه في تأملات قاتمة مكدرة، كان يفكر في أن صديقه تعيس موغل في السبيل الخطأ، جاهل النور الحقيقي، وأن عليه أن يضيء أفكاره وينتشله من وهدته، لكنه عندما كان يفكر في أقواله وأسلوبه في الكلام كان يشعر بأن آندريه قادر على تهديم كل مناقشته بكلمة واحدة؛ لذلك فقد كان يتردد في الشروع في الكلام؛ خشية تعريض قدس أقداسه للهزء والسخرية.

قال بعد حين وقد أحنى رأسه أشبه بالثور الذي يتأهب للنطاح: «قل لي: من أين لك هذه الأفكار؟ لا يجب أن تفكر على هذا النحو.»

سأله الأمير حائرًا: «أية أفكار؟»

– «أفكارك عن الحياة ومهمة الإنسان لقد كانت لي أفكار مثلها أنا الآخر، لكن أتدري ماذا أنقذني منها؟ الماسونية. آه! لا تبسم، إنها ليست — كما كنت أظنها — مذهبًا دينيًّا كله طقوس، بل إنها أجمل تعبير عما في الإنسان من أحسن ومن أزلي باقٍ، إنها المعبر الوحيد عن كل هذا.»

وراح يعرض شارحًا الماسونية — حسب رأيه — مؤكدًا أنها الشريعة المسيحية النقية المتحررة من قيود الحكومات والأديان، شريعة المساواة والإخاء والحب، قال: «إن محفلنا المقدس هو الوحيد الذي يملك معنى الحياة الحقيقي، وكل ما عداه أحلام ووهم. إن كل شيء خارج نطاق المحفل ليس إلا كذبًا وخطأ وزورًا خارج دائرة المحفل وعقيدته. لا

يبقى للرجل الذكي النبيل إلا أن يعيش حتى يموت، جاهدًا ألا يسيء إلى سواه، تمامًا كما تفعل أنت. إنني على أتم وفاق معك حول هذا، لكنك إذا اعتنقت مبادئنا الأساسية، إذا دخلت في محفلنا، إذا أسلمت زمامك لنا، إذا تركتنا نوجِّهك ونرشدك؛ فإنك ستشعر على الفور — ما شعرت أنا من قبل — بأنك حلقة في تلك السلسلة الهائلة غير المنظورة، والتي تضيع بدايتها في الأجواء العليا في السماوات.»

كان آندريه يصغي إلى بيير دون أن يتفوه بكلمة، وعيناه شاخصتان إلى نقطة وهمية أمامه، رجاه أكثر من مرة أن يكرر بعض الكلمات والعبارات التي لم يستوعبها للمرة الأولى بسبب ضجيج العربة. شجع سكوته والبريق الخاص الذي انبعث عن عينيه بيير على الاسترسال، شعر أنه لم يعد يتحدث عبثًا، وأنه لا خوف عليه من مقاطعات صديقه أو سخريته.

بلغا نهرًا فائضًا اضطرا إلى اجتيازه على طوف كبير، وبينما راح الخدم ينقلون العربة والخيول إلى العابرة، أخذ الصديقان مكانهما عليها متابعين الحديث. كان آندريه متكئًا على حاجز الطوف يتأمل المياه الهادرة التي تنعكس عليها آخر إشعاعات الشمس الغاربة بصمت ووجوم. سأله بيير: «حسنًا! ما رأيك في كل هذا؟ لمَ أنت صامت؟»

– «ما رأيي؟ لكنني مُصغٍ إليك. إن كل هذا جميل ولا شك. إنك تقول: ادخل في محفلنا وسندلك على غاية الحياة، ومصير الإنسان، والقوانين التي تسيِّر العالَم، لكن من نحن غير مخلوقات بسيطة فانية؟ كيف حدث أنكم تعرفون كل شيء؟ كيف حدث أنني وحدي لا أرى ما ترونه على هذه الأرض؟ إنكم ترون على الأرض ملكوت الخير والحق وأنا لا أراه.»

قاطعه بيير قائلًا: «هل تؤمن بالحياة الآخرة؟»

– «الحياة الآخرة!»

ولما كان بيير يعرف من قبل أن صديقه ملحد، فقد اعتبر استفساره هذا نفيًا، فلم يعطه وقتًا للجواب أو التفسير، واستأنف قائلًا: «إنك تقول إنه يستحيل عليك رؤية ملكوت الحق والخير على الأرض. إنني أنا الآخر ما كنت أراه؛ إذ ليس ممكنًا أن نراه إذا اعتبرنا أن نهاية حياتنا هي نهاية كل شيء على الأرض. نعم، على هذه الأرض — وأشار إلى السهل — لا يوجد حق. إن كل شيء عليها كذب وشر، ولكن في العالمين في مجموع الكون تسود الحقيقة. إننا أبناء الأرض لفترة وجيزة، لكننا في الأزل أبناء الكون. ألست أشعر في أعماق نفسي بأنني جزء من هذا الكون الهائل المتناسق؟ ألست أشعر في أعماق روحي

أنني في هذه الكمية العظيمة المحدودة من المخلوقات التي تتجلى القدرة فيها، أو القوة العليا كما تشاء، لستُ إلا حلقة صغيرة، درجة من سلالم الخلق، من أدناها إلى أرفعها، بلى إنني أرى، وأرى بوضوح ذلك السلم الذي يبدأ من النبتة حتى يصل إلى الإنسان، فلمَ إذن أعتقد أنه عندما يصل إليَّ ينتهي عندي بدلًا من القناعة والإيمان بأنه يمضي بعيدًا كذلك إلى أبعد مني؟ إنني أشعر أنني لا يمكن أن أختفي من الوجود؛ لأن لا شيء يختفي فيه. إنني أشعر بأنني كنت من الأزل وسأبقى إلى الأزل. إنني أحس بوجود أرواح أخرى غيري وأرفع مني تعيش في الكون معي، وفي هذا الكون تقيم الحقيقة ويجثم الحق.»

قال آندريه: «نعم، إن هذه عقيدة هيردر،[1] لكنها يا عزيزي، لن تقنعني أن الحياة والموت هما وحدهما مجلبة للقناعة والإيمان، إن ما يقنعك هو أن ترى مخلوقًا كنت شديد التعلُّق به مذنبًا حياله، كنت تفكر في التكفير عن أخطائك نحوه — وأخذ صوته يرتعد انفعالًا، فأشاح بوجهه — أقول: أن ترى هذا المخلوق العزيز الغالي يتألم فجأة، ويحتمل أوجاعًا رهيبة مريعة، ثم يكف عن الحياة، فلمَ هذا؟ لا يمكن أن يكون هذا السؤال دون جواب، إنني أعتقد أن هناك جوابًا على الأقل. إن هذا لمقنع، وهذا ما أقنعني.»

– «لكن بلى، بلى إن هذا ما كنت أقوله لك.»

– «أبدًا يا عزيزي، أصغِ إليَّ جيدًا: إن الحياة الآخرة ليست الحجج التي تثبت لي ضرورة ذلك، بل إنها الواقعة التالية: يدخل المرء في مضمار الحياة ممسكًا بآخر في يده. وفجأة يختفي هذا الآخر هناك في العدم، وعندئذ يقف المرء على حافة الهاوية يتفحصها بعينيه باحثًا … ولقد تفحصتها بنفسي.»

– «حسنًا! إنك إذن تعرف أن في الأمر «هناك» و«بعضهم». إن هذه الـ «هناك» هي الحياة الآخرة، وذلك الـ «بعضهم» هو الله.»

لم يجب آندريه، كانت العربة قد سحبت من الطوف إلى الشاطئ الآخر وقطرت الخيول إليها، والشمس كادت أن تغيب، وجليد المساء يرسم نجومًا من برك الماء الصغيرة المنتثرة على الشاطئ، لكن السيدين ظلا في مكانيهما على الطوف لا يبرحانه، الأمر الذي أثار دهشة الخدم واستغرابهم. لبث بيير وآندريه يتناقشان دون أن يفكر أحدهما في مغادرة الطوف.

[1] جان جوتغريد دو هيردر: كاتب ألماني شهير وُلد في مهرونجن عام ١٧٤٤، وتوفي عام ١٨٠٣. وضع المؤلف الشهير: «فلسفة تاريخ الإنسانية».

كان بيير يُقلِون وهو يشير إلى السماء.

– «إذا كان الله موجودًا، والحياة الآخرة موجودة، فإن الحقيقة والفضيلة موجودتان كذلك، والأمنية القصوى والنعيم المقيم في السعي لمعرفتهما ينبغي أن يعيش المرء، وأن يحب، وألا يعتقد بأننا نعيش على هذه القطعة من الأرض فحسب، بل إننا عشنا وسنعيش إلى الأبد هناك، في «الكل».»

لبث آندريه يصغي إلى بيير وهو متكئ إلى حاجز الطوف، لا تفارق عيناه الأمواه الزرقاء اللامعة التي يلقي عليها المغيب سهامه الحمراء. صمت بيير وخيَّم سكون عميق لا يقطعه إلا تكسر المياه الهادرة على جوانب الطوف الراسي على الشاطئ منذ حين، خيل لآندريه أن يسمع في هذه الدمدمة الغامضة صدًى لأقوال بيير «تلك هي الحقيقة فصدق.» أطلق زفرة وشمل وجه بيير المتضرج، بجلالٍ، بنظرةٍ مشعة صبوية حانية. كان وجه بيير رغم وقاره يحمل طابع الخجل إزاء هذا الصديق الذي يعرف أنه متوفق عليه في كل شيء، قال أخيرًا: «نعم، علَّ الأمر كذلك! هيا، لنصعد إلى العربة.»

ولما جلا عن الطوف رفع عينيه إلى السماء التي أشار بيير إليها منذ حين، فرأى من جديد للمرة الأولى منذ أوسترليتز، تلك السماء الأزلية العميقة المتسامية التي تأملها على ساحة المعركة. ولقد كان لذلك المشهد في نفسه تجديد للغبطة والحنان اللذين افتقدهما، لكن ذلك تبدد من فوره حالما عاد الأمير آندريه إلى واقعه المألوف في الحياة، غير أنه كان يعرف أن ذلك الشعور — الذي لم يغذِّه ويُنشِئه في روحه — باقٍ في أعماقه حيٌّ فيه. وعلى الرغم من أن مظهر آندريه لم ينمَّ عن شيء مما في نفسه، فإن ذلك الحديث الذي دار بينه وبين بيير أشرق في أعماقه فجرًا جديدًا داخليًّا غير مألوف لديه.

الفصل الثالث عشر

رجال الله

وصلت العربة إلى ليسيا جوري، ووقفت أمام الطنف الكبير بعد حلول الظلام. نبه آندريه صديقه بيير إلى الذعر الشديد الذي أحدثه وصولهما على مدخل باب الخدم. لقد كانت هناك عجوز محنية الظهر، جرابها على كتفها، يصحبها رجل قصير القامة، طويل الشعر، مرتديًا ألبسة سوداء، يجريان إلى الباب العمومي هاربين، وفي أعقابهما امرأتان ركضتا تحاولان اللحاق بهما، فلما اجتمع أربعتهم ألقوا نظرة ذعر ووجل إلى العربة واندفعوا إلى سلم الخدم.

قال آندريه: «هؤلاء هم «رجال الله» عند أختي ماري. لقد اعتقدوا أن ماري تستقبلهم دائمًا رغم أن أبي دأب على طردهم دون هوادة. إن هذا هو الأمر الوحيد الذي تخالفه ماري من أوامر أبي.»

سأل بيير: «ولكن ما معنى رجال الله؟ ومن هم هؤلاء؟»

لم يجد آندريه متسعًا للإجابة عليه، فقد هرع الخدم لاستقبالهما، فسألهم. أنبئوه أن الأمير العجوز لا زال في المدينة، لكنهم ينتظرونه بين لحظة وأخرى.

قاد آندريه صديقه بيير إلى حجراته المعدة للاستقبال؛ حيث تركه فترة ليستطلع أنباء ابنه ويراه، ولما عاد إليه قال له وهو يتقدمه: «والآن، هيا بنا إلى أختي، إنني لم ألمحها، إنها محتجبة في حجرتها مع محمييها. سوف نفاجئها، وسيغمرها الخجل، لكنك سترى رجال الله، إنهم لعمري يثيرون التطلع.»

سأل بيير مرة أخرى: «ما معنى رجال الله؟»

– «سوف ترى بنفسك.»

خجلت الأميرة ماري كل الخجل لدى دخولهما إلى غرفتها الجميلة؛ حيث القناديل مضاءة بجلال قُرب خزانة التمائم المقدسة، وعلت وجهها بقع حمراء تضرِّجه. كانت

جالسة على أريكة تتناول الشاي بصحبة فتى طويل الأنف والشعر مرتديًا مسوح راهب، وكانت امرأة عجوز عجفاء هزيلة ذات وجهٍ يشبه وجوه الأطفال في دعته، تشغل مقعدًا وثيرًا بجانبهما.

قالت ماري في رنة لوم خفيفة: «لمَ لم تخطرني بقدومك يا آندريه؟»

وهرعت تقف بينه وبين حجاجها كالدجاجة التي تحمي صغارها، وأردفت: «إنني سعيدة جدًّا لرؤيتك يا كونت.»

وقبلت يد بيير. كانا يعرفان بعضهما منذ الطفولة، والآن فإن صداقته التي كانت تربطه إلى آندريه، ومصائبه الزوجية وأشجانه، وعلى الأخص وجهه الصريح الطيب. كل هذه الأشياء كانت تحمل ماري على الميل إليه. لبثت تحدق في وجهه بعينيها الجميلتين المتوقدتين وكأن نظرتها تقول: «إنني أحبك كثيرًا، ولكن رحماك لا تسخر من جماعتي.»

تبادلا التحية والتمنيات المألوفة وجلسوا جميعًا. قال آندريه مشفعًا كلامه بابتسامة موجهة إلى الحاج الشاب: «هه! ها إن إيفانوشكا هنا كذلك!»

فهتفت ماري بلهجة متوسلة: «آندريه!» فقال هذا لبيير: «ينبغي أن تعلم أنه امرأة لا رجل كما تظن.»

كررت ماري توسلها: «آندريه، ناشدتك الله!»

كان من الواضح أن مشاكسات آندريه للحجاج، واحتجاجات ماري غير المثمرة لحمايتهم، كانت متأصلة في أعماق الأخ والأخت، أصيلة في عاداتهما.

قال آندريه: «ولكن يا صديقتي الطيبة، ينبغي أن تشكري لي ما أحتمله من عناء في شرح علاقتك الأليفة مع هذا الفتى!»

قال بيير وهو يتفحص وجه الحاج خلال نظارتيه بفضول خطير — كانت ماري شاكرة له سلوكه الجدي: «صحيح؟»

وأدرك إيفانوشكا أنهم يتحدثون عنه فراح يجيل حوله نظرة ماكرة.

أخطأت ماري في دفاعها عن جماعتها وخوفها عليهم؛ لأنهم لم يكونوا مرتبكين مطلقًا إزاء تلك النظرات المتطفلة. كانت العجوز ذات العينين المطرقتين التي كانت تختلس بين حين وآخر نظرة دائرية إلى وجهي القادمينِ؛ قد قلبت قدحها على الصحفة، ووضعت بجانبه قطعة السكر التي قرضت نصفها منتظرةً أن يُقدم لها الشاي من جديد، وهي جامدة ساكنة على مقعدها. أما إيفانوشكا فقد كان يرقب القادمين خلسةً بعينيه الماكرتين الشبيهتين بعيني الإمرأة، وهو يتجرع محتويات قدحه بتمهل وسكون في الصحفة دون القدح.

سأل آندريه المرأة العجوز: «من أين قدمت هكذا؟ أمن كييف؟ لا شك.»

فأجابت العجوز وقد أسعدها أن تحل عقال لسانها: «لقد ذهبت إلى كييف يا أبي، وقد أسعدت في يوم عيد الميلاد المقدس بتلقي المناولة المقدسة قرب ضريح الصالحين. أما الآن فإنني قادمة من كوليازين[1] يا أبي، لقد ظهرت فيها معجزة كبرى.»

– «وهل يصحبك إيفانوشكا؟»

فأجاب هذا ساعيًا إلى النطق بصوت خفيض: «كلَّا يا أبي الرضعي، إنني أمضي في سبيلي، إنني لم ألتق بـ «بيلاجويوشكا» إلا في إيوخنوف ...»

لكن العجوز لم تدعه يسترسل، لقد كانت تتحرق شوقًا إلى رواية ما شاهدته: «لقد تبدَّت معجزة كبيرة في كوليازين يا أبي.»

سأل آندريه: «ماذا حدث؟ أهي بقايا أجساد مقدسة اكتُشفت؟»

فقالت ماري: «أرجوك يا آندريه، لا تقصِّي شيئًا يا بيلاجويوشكا.»

– «ولمَ لا يا أمي؟ إنني أحبه كثيرًا، إنه مختار من الرب، وهو طيب القلب. لقد أعطاني مرة عشرة روبلات لا زلت أذكرها حتمًا. وإذن، بينما كنت في كييف قابلت صدفة كيروشا البريء — وهو من رجال الله المقدسين — يمشي حافي القدمين في الصيف وفي الشتاء، قال لي: «ماذا جئت تعملين هنا؟ ليس مكانك هنا. اذهبي إلى كوليازين، فهناك صورة عجيبة. إن أمنا العذراء شديدة القدسية قد تجلت.» هكذا قال لي. وعندئذ ودعت الأولياء الصالحين وسرت في الطريق.»

كانوا جميعًا صامتين متعلقة أعينهم بشفتي التقية التي كانت تروي قصصها بصوت متزن، تقطعه تنفساتها العميقة. أردفت: ولما وصلت قال لي كل الناس: «إن نعمة ربانية قد ظهرت. إن البلسم المقدس يقطر من وجنة أمنا العذراء شديدة الطهر.»

قالت ماري: «هيا، كفى، ستقصين هذه الحكاية مرة أخرى.»

فتدخل بيير قائلًا: «اسمحي لي أن ألقي عليها سؤالًا: هل رأيت ذلك بنفسك؟»

– «لا شك يا أبي، لقد حصل لي هذا الشرف العظيم. كان وجه أُمنا الطيبة يلمع بنور سماوي، والبلسم الشافي يقطر من وجنتها قطرة فقطرة.»

---

[1] ورد في حاشية للمترجم أن كييف هي أهم منطقة للحج في روسيا، يتوافد المؤمنون للتبرك في دير الأقبية بأضرحة مائة وثمانية عشر وليًّا صالحًا. أما كوليازين فهي مدينة صغيرة في مقاطعة تفير، فيها دير شهير كذلك؛ دير سانت ترينيتة (الثالوث المقدس) يتوافد الحجاج بكثرة إليه، وخصوصًا يوم الجمعة العاشرة بعد عيد الفصح. ولقد أطلقنا على دير كييف اسم دير الأقبية ترجمة لكلمة Cryptes.

فهتف بيير بسذاجة بعد أن أصغى باهتمام بالغ إلى مزاعم العجوز: «لكن هذه خرافة!»

فقالت هذه مذعورة مغضبة تناشد الأميرة ماري الحماية بنظرة: «ما هذا الذي تقوله يا أبي؟»

كرر بيير بإلحاح: «هكذا يخدعون الشعب.»

هتفت التائهة وهي ترسم على صدرها إشارة الصليب: «يا سيدي يسوع، أوه! لا تتحدث هكذا يا أبي! كان هناك جنرال لم يشأ تصديق المعجزة، قال: «إنها خدعة من القساوسة.» لكنه أصيب لفوره بالعمى، وقد حلم في نومه أن أمنا المقدسة في كرييت جاءت إليه وقالت له: «آمن بي وسأشفيك.» وعندئذ راح يتوسل ضارعًا: «خذوني إليها، خذوني إليها.» إن ما أقوله لك هو الحقيقة الحقة. لقد رأيته، لقد رأيته بعيني هاتين. وعندئذ أخذوا الأعمى إليها مباشرة فتهالك على ركبتيه وهو يقول: «اشفيني وسأعطيك ما منحنيه القيصر.» وإنه صحيح يا أبي؛ إذ إنني رأيت نجمته — وتقصد رتبة الجنرالية — معلقة في الصورة المقدسة، وأعادت إليه الأبصار الأم الطيبة! إنها خطيئة أن تتحدث هكذا، إن الله سيعاقبك.»

سأل بيير غير مبالٍ بلهجتها الصارمة: «ولكن كيف وجدت النجمة معلقة فجأة في الصورة؟»

وأعقب آندريه ضاحكًا: «هل منحوا الأم الطيبة رتبة جنرال يا ترى؟»

شحب وجه الحاجة بيلاجويوشكا وضربت كفًّا بكف، وصاحت بعد أن زايلها امتقاع لونها، فغدا وجهها أحمر قانيًا: «يا للخطيئة! يا للخطيئة! اصمت يا أبي. إن لك ولدًا … ماذا قلت؟ ماذا قلت؟»

وراحت تضرع إلى الله وهي ترسم شارة الصليب: «ليغفر لك الله! مولاي، اغفر له! آه يا أمي، ما معنى هذا؟»

وجهت هذه الجملة إلى ماري وهي تلتفت إليها، ثم نهضت وهي على وشك البكاء وراحت تجمع جرابها. كان يُرى على وجهها أنها كانت خجلة ومروعة لقبولها الضيافة في بيت يتحدثون فيه أمثال هذا الحديث، لكنه كان يبدو عليها كذلك أنها تأسف لاضطرارها في المستقبل إلى العزوف عن هذه الضيافة.

قالت ماري: «ماذا دهاكم؟ أية متعة تجدانها في هذا القول؟! كان يمكنكما ألَّا تحضرا أبدًا.»

فأجاب بيير: «لقد أردت أن أمزح فقط يا بيلاجويوشكا. أيتها الأميرة، أقسم بشرفي إنني ما أردت جرح كرامتها ولا إهانتها. لقد تحدثت في غير مكر. لا تظني بي الظنون، لقد أردت المزاح.»

وأردف ملحًا وهو يبسم ابتسامة خجلى: «وهو كذلك كان يمزح.»

كان واضحًا أنه راغب في إزالة خطئه، وكان وجهه يعبر عن ندم مخلص. أما آندره فقد راح يلقي نظرات شديدة الحنو إلى بيير تارة، وإلى العجوز التائهة تارة أخرى، حتى إن هذه بعد أن كانت قليلة الميل إلى تصديق توبته اقتنعت بصحتها تدريجيًّا.

الفصل الرابع عشر

عودة الأمير العجوز

اطمأنت الحاجة فعادت تتحدث بحماسة متزايدة، ظلت فترة طويلة تطري مواهب أحد الآباء المسمى آمفيلوك، الذي بلغ من تقشفه وزهده وقدسيته أن راحت يداه تتضوعان برائحة البخور المنتشر منهما، ثم راحت تشرح بتفاصيل ضافية قصة مقامها الأول في كييف، قالت: إن بعض معارفها من الرهبان أعطوها مفاتيح الأقبية، فلبثت فيها ثماني وأربعين ساعة في صحبة السعداء الصالحين لا تأكل إلا البسكويت، وبعد أن أصلي صلاة طويلة أمام أحد الأضرحة كنت أنتقل للتبرك بآخر والصلاة أمامه، ثم نمت فترة قصيرة وعدتُ أقبل الأضرحة المقدسة. لقد كان السكون عميقًا جدًّا والنعيم العلوي يدخل في نفسي متدفقًا، حتى إنني ما كنت أرغب في الخروج لرؤية ضياء الله الطيب الكريم.

كان بيير يصغي إليها بانتباه خطير، لكن ماري لم تدعه يستقر طويلًا؛ لأن آندريه كان قد انسحب، فتركت رجال الله يتممون احتساء شايهم، وقادت بيير إلى البهو، قالت له: «كم أنت طيب القلب!»

– «آه! حقًّا إنني لم أفكر في إهانتها مطلقًا، إنني أفهم هذه المشاعر وأقدِّرها حق قدرها.»

تأملته ماري فترة وهي صامتة وعلى شفتيها ابتسامة حانية، وأخيرًا قالت: «إنني أعرفك منذ زمن طويل، وأحبك كأخ لي.»

ثم أضافت دون أن تترك له المجال للإجابة على كلماتها الرقيقة: «كيف وجدت آندريه؟ إنه يقلقني جدًّا. لقد كان أحسن حالًا هذا الشتاء، لكن جرحه نكأ في الربيع فأوصى له الطبيب معالجة خارج البلاد، ثم إن حالته الفكرية تزعجني وتقلقني أيضًا؛ إنه ليس من طبيعة مثل طبيعتنا نحن معشر النساء تمكِّنه من استهلاك أحزانه بالدموع والمظاهر الخارجية، إنه يطوي آلامه في حناياه، وإذا تظاهر اليوم بالانشراح والوداعة،

فما ذلك إلا بسبب وجودك الذي كان له هذا الأثر. يندر أن يكون على مثل هذه الحال من الانشراح. ليتك تقنعه بالسفر إلى مكان ما! إنه في حاجة إلى النشاط. إن هذه الحياة الساكنة الوتيرية تقتله. إن الآخرين لا يلاحظون هذا. أما أنا فإنني أراه بكل وضوح.»

تجاوزت الساعة التاسعة، وعندئذ ارتفعت ضجة في الخارج وعلت جلجلة. لقد كان الأمير العجوز عائدًا من المدينة، هرع الخدم على الطنف وتبعهم بيير وآندريه، فلما نزل الأمير من عربته شاهد بيير فسأل: «من هذا؟»

ولما عرف الكونت الشاب هتف: «آه! أهلًا بك، قبلني هنا.»

كان على خير مزاج فعامل بيير بشيء كثير من المجاملة والعطف، وقاده إلى مكتبه، فلما جاء آندريه يلحق بهما ساعة العشاء وجدهما غارقين في نقاش حامي الوطيس، كان بيير يصر على القول إن وقتًا سيحين تبطل فيه الحروب. أما الأمير فكان يسفِّه هذا الرأي، ولكن في غير جفاء وخشونة.

قال الأمير وهو يربِّت بلطف على كتف بيير: «إن الوسيلة الوحيدة لمنع الحروب هي أن تفصد العروق وتملأها بالماء بدلًا من الدم. إن هذه ترهات وأحلام نساء!»

ثم اقترب من المائدة حيث كان آندريه يتصفح أوراق أبيه التي أتى بها من المدينة عازفًا — ولا شك — عن الاشتراك في النقاش. راح يحدثه عن الأعمال، قال: «لم يستطع الكونت روستوف — بوصفه رئيس منطقة — أن يقدم لنا نصف الرجال المستنفرين. ثم تصوَّر بعد ذلك أنه جاء إلى المدينة يدعوني إلى تناول العشاء عنده! لقد أرسلته وعشاءه إلى ...! هل رأيت مثل هذا ... تأمل.»

أردف وهو يضرب كتف بيير متوددًا: «وبهذه المناسبة يا عزيزي، هل تعلم أن صديقك يعجبني؟ إنه فتى باسل يملؤني حماسًا وفخرًا. إن أيًّا كان مثله يبحث في مواضيع حساسة، لكنها تثير اشمئزاز المرء، فلا يلذ له الإصغاء إليها. أما هذا فإنه ينطق بحماقات، لكنه مع ذلك يثيرني رغم تقدُّم سني. حسنًا، إنني لا أستبقيكما، اذهبا فتناولا طعامكما، لعلني أنضم إليكما، قد أجيء لمشاكستك من جديد.»

فلما خرجا هتف الأمير العجوز متممًا: «حاول أن تنظر بعين العطف إلى ابنتي الحمقاء ماري.»

تذوق بيير خلال مقامه القصير في ليسيا جوري كل متعة الصداقة وقوتها؛ تلك الصداقة التي كانت تربطه إلى بولكونسكي، ولم تكن تلك المتعة قاصرة على علاقاتهما الشخصية، بل تعدتها إلى الصلات التي جمعت بينه وبين أفراد أسرة بولكونسكي

ومعارفهم، فعلى الرغم من أنه لم يكد يتعرف على الأمير العنيد وماري الأميرة الخجول كما يجب، فإنه شعر في أعماقه براحة قصوى في مجالستهما أكثر مما يشعر به مع أصدقاء قدامى، ثم إنهم جميعًا سرعان ما أحبوه بدورهم؛ فماري أعجبتها طريقته اللطيفة وأساليبه الرقيقة في معاملة حجاجها، فراحت تلقي عليه نظراتها الأكثر إشراقًا وتوقدًا، ونيكولا الصغير نفسه؛ ذلك الطفل الذي لم يتجاوز عامه الأول، والذي كان جده يدعوه بالأمير الصغير، تقبَّل دعابة بيير ورضي أن يحمله هذا بين ذراعيه وراح يناجيه. أما ميخائيل إيفانوفيتش والآنسة بوريين فكانا يبسمان ابتسامة حقيقية صادرة من أعماقهما كلما وقع بصرهما عليه، أو شاهداه يتحدث إلى الأمير العجوز وكأنه أليفه وصفيه القديم، حتى إن هذا راح يحضر طعام العشاء مع الآكلين تكريمًا لضيفه الشاب. والخلاصة أن بيير خلال اليومين اللذين قضاهما في ليسيا جوري تلقى من عطف الأمير العجوز وإيناسه الشيء الكثير، حتى إن هذا دعاه بإلحاح إلى زيارته مرة أخرى.

فلما بارح بيير آل بولكونسكي بعد ذلك، واجتمعت الأسرة أعطى كل فرد من أفرادها رأيه في الضيف الراحل كما هي العادة بعد ذهاب شخص دخل في نطاق الأسرة من جديد. والعجيب النادر في الأمر أن كل واحد منهم كان مجمعًا مع الآخرين على امتداح الضيف المرتحل.

الفصل الخامس عشر

عودة روستوف

فهم روستوف لأول مرة عند عودته من إجازته أنه شديد التعلق بدينيسوف وبالفيلق كله، فقد خلقت دعوته إلى المعسكر في نفسه مشاعر مماثلة لتلك التي أحس بها عند دنوِّه من منزله الأبوي بعد ذلك الغياب الطويل. لقد شعر عندما شاهد أحد الفرسان ببزته مُفكَّك الأزرار، ثم ديمانتييف الأشقر والخيول الصهباء في مرابطها، وعندما سمع لافروشكا يهتف بمرح معلنًا لسيده: «ها هو الكونت قد وصل.» ورأى دينيسوف يهرع إليه من مسكنه أشعث الشعر وقد غادر فراشه لتوِّه؛ ليحييه التحية الودية المعروفة، بينما شرع الضباط الآخرون يحتفلون بوصول العائد. عندما شاهد كل هذه المظاهر، أحس روستوف بمثل الشعور الذي خالجه عندما كانت أمه تلاطفه، وأبوه يداعبه، وإخوته يستقبلونه. لقد كانت القطعة بالنسبة إليه منزلًا آخر عزيزًا مغريًا جذابًا كمنزله الأبوي.

لما تقدم روستوف إلى الكولونيل معلنًا وصوله أعاده هذا إلى كوكبته السابقة، فانصرف بكليته إلى مشاغله اليومية الكثيرة التي تقتضيها طبيعة الخدمة. شعر من النهج الوتير اليومي في حياة الجندية والحرمان من الحرية والارتباط بملاك القطعة ارتباطًا وثيقًا ثابتًا بمثل الدعة والسكون اللذين شعر بهما في بيته؛ حيث كان مدعومًا من قبل أسرته دعمًا معنويًّا وماديًّا. كان يشعر أنه هنا أيضًا في بيته وفي مكانه اللائق به هنا؛ حيث لا تصل الحياة الاجتماعية التي تحمل المرء في تيارها الجارف فلا يعرف أين يستقر، وبأي شيء يتشبث، ولا توجد سونيا التي يُخشى تقديم المبررات والتفاسير لها، ويتبدد التردد في إشغال الوقت وصرفه، وتنعدم نهائيًّا تلك الأيام الطويلة التي تستمر أربعًا وعشرين ساعة دون توقف ولا انقطاع، والتي تغري المرء فيها مئات من المشاغل وتستدعيه، وتختفي تلك الجماعات من الناس الذين لا يرتبط المرء بهم بأية صلة، والذين يشعر مع ذلك أنه ليس غريبًا عنهم تمامًا، وليسوا عنه ببعيدين.

تنتهي هنا العلاقات المالية مع أبيه التي لم تكن صريحة تمامًا، وتتبخر ذكرى خسارته الهائلة في الميسر. إن كل شيء هنا في القطعة بسيط ومحدود. لقد كان العالم كله منقسمًا إلى قسمين غير متساويين؛ القسم الأول يشمل «فيلقنا بافلوجراد»، والآخر كل ما تبقى من العالم. وهذا الذي يتبقى يبدو للمرء عديم الأهمية. كانوا يعرفون هنا من هو الملازم ومن هو الرئيس، من هو الشجاع ومن الرديء، وعلى الأخص من الذي يجب اتخاذه صديقًا. هنا يقدم لك بائع المعسكر حاجتك دينًا، ويستوفي رصيده على دفعات، فلا حاجة بك إلى التفكير ولا إلى الانتقاء، يكفيك أن تتنزه عن كل ما هو معروف بسوئه في فيلق بافلوجراد، فإذا أوكلوا إليك مهمة، فعليك بتنفيذها حسب ما جاء في التعليمات الصريحة الواضحة المتعلقة بها، وعندئذ تسير كل الأمور على خير ما يرام.

شعر روستوف بعد استعادته تلك العادات النظامية التي تنفرد بها الحياة العسكرية بعزاء وانفراج ونشاط، كالتي يشعر بها الرجل المتعب المنهوك عندما يستسلم للراحة. كان ذلك اللون من الحياة يبهجه ويرضيه خلال الوقت الذي استغرقته الحملة، حتى إنه صمم منذ خسارته في الميسر؛ تلك الخطيئة التي لم يكن يغفر لنفسه وقوعه فيها، رغم كل ما تقدم به أبواه إليه من عزاء وتسلية، على أن يخدم في الكوكبة، ليس كما كان يخدم من قبل، بل بشكل يساعده على محو خطيئته. كان يتوقع أن يصبح زميلًا حقيقيًّا وضابطًا مثاليًّا. وبالاختصار، كان يريد أن يصبح رجلًا كاملًا، الأمر الذي كان يبدو له صعب التحقيق في العالم، شديد السهولة هنا في القطعة.

كذلك فقد كان مزمِعًا على تسديد القرض الذي اضطر ذويه إليه خلال فترة خمس سنين. لقد قرر أن يكتفي بألفين من الروبلات في العام بدلًا من عشرة آلاف روبل؛ جرايته المقررة في كل عام، وبذلك يعيد إلى أبويه من هذا الفرقِ المبلغَ الجسيم الذي خسره ودفعوه عنه.

بعد مناورات عديدة وحركات عسكرية كثيرة، وبعد معارك بولتوسك وبروسيخ-أيلو، تركز الجيش[1] الروسي في بارتنتشتن؛ حيث كان ينتظر مقدم الإمبراطور واستئناف العمليات فور قدومه.

[1] لقد أجزنا لأنفسنا التحدث عن الجيش الروسي بضمير الغائب بدلًا من عبارات: جيشنا أو قطعاتنا التي استعملها المؤلف الذي يتحدث عن جيش بلاده ووطنه.

اشترك فرسان بافلوجراد مرات عديدة في مناوشات مع العدو، ففازوا ببعض الأسرى، واغتصبوا مرة قوافل المؤن وعربات الذخيرة التابعة للماريشال أودينو.[٢] كان فيلق بافلوجراد تابعًا لإحدى وحدات الجيش الذي حارب عام ١٨٠٥، وقد عاد إلى روسيا لاستكمال سلاحه الناقص؛ لذلك فإنه لم يساهم في العمليات الأولى، فلما عاد إلى ساحة المعركة أصبح يشكل وحدة من فيلق بلاتوف الذي كان يعمل بصورة مستقلة عن باقي الجيش.

خيم فيلق بافلوجراد في ضواحي قرية ألمانية مدمرة تدميرًا كليًّا، ولبث في مكانه بضعة أسابيع قبل شهر نيسان، وفي نيسان كان الطقس باردًا بسبب ذوبان الثلوج، وكانت الأنهار فائضة والطرق غير سالكة، فانقطع التموين عن الرجال، والعلف عن الخيول أيامًا. ولما أصبح سير القوافل متعذرًا، بل ومستحيلًا، انتشر الجنود في القرى المهجورة يبحثون عن البطاطا التي أصبحت بدورها نادرة الوجود. لقد التُهم كل شيء وفر معظم السكان. أما الذين مكثوا في دورهم المخربة فقد كانوا أكثر تعاسة من المتسولين، لم يكونوا يملكون شيئًا يسلب منهم، بل إن الجنود — وهم من طينة قليلة الإشفاق والعطف — كانوا رغم ذلك يقاسمون هؤلاء التعساء آخر لقمة في يدهم.

وهكذا فإن فيلق بافلوجراد الذي لم يخسر أكثر من رجلين في المعارك، خسر أكثر من نصف عدده بفعل المجاعة والمرض. لقد كان الموت مؤكدًا في المستشفيات، حتى إن الجنود المرضى بالحمى أو الالتهابات بسبب سوء التغذية كانوا يفضلون الاستمرار في أعمال السخرة على قدر ما في طاقتهم على الذهاب إلى المستشفى. ولما حل الربيع اكتشف الجنود نبتة تخرج من الأرض تشبه الهليون، أطلقوا عليها — والله أعلم بالسبب — اسم «جذر ماري الحلو»، فراحوا ينتشرون في الحقول لجمع تلك النبتة الحلوة، التي كانت مرَّة المذاق جدًّا، فينبشون بسيوفهم الأرض بحثًا عنها، ويأكلونها رغم الأوامر المُحذِّرة الصادرة إليهم، فانتشر مرض جديد بسبب ذلك، علاماته تورم اليدين والأرجل والوجوه، عزاه الأطباء إلى تلك العشبة السامة التي يأكلها الجنود. أما كوكبة دينيسوف فإنها ظلت مثابرة على توزيع بقايا الأرزاق على الجنود، بمعدل ربع كيلو غرام يوميًّا من البسكويت

[٢] نيكولا شارل أودينو: دوق دو ريجيو ماريشال فرنسا، ولد في «بار-لو-دوك» عام ١٧٦٧، وتوفي عام ١٨٤٧. قدَّمه نابليون للقيصر بوصفه «بيار» الجيش الفرنسي — وبيار في بسالته عند الفرنسيين كخالد بن الوليد عند العرب — أظهر براعة في أوسترليتز وأوسترولنكا وفريدلاند وفاجرام وبوتزن.

للرجل الواحد. أما البطاطا التي وصلت مؤخرًا فكانت مصابة بالصقيع فاسدة، وقد مضى على الخيول خمسة عشر يومًا كان طعامها خلالها القش الذي تغطى به سقوف الأكواخ، وكانت أجسادها المهزولة الضعيفة تحمل شعرها الشتوي الذي لم يسقط بعدُ كتلًا متلبدة.

وعلى الرغم من هذه الضائقات كلها، فإن الجنود والضباط ظلوا يعيشون حياتهم العادية، فالفرسان ظلوا يواظبون على التفقد وتفتيش النظافة، وتطمير الخيول، وتنظيف الأحذية والأعتدة وتلميعها، وعلى سخرة جمع العلف الذي أصبح جمع القش، بل وعلى الانتظام بانتظار الطعام الذي كانوا يعودون منه جياعًا كما ذهبوا، لكنهم كانوا رغم ذلك يتندرون بجرايتهم الهزيلة، ويسخرون من بطونهم الخاوية، لقد ظلوا كعادتهم كلما فرغوا من العمل يشعلون النيران، ويصطلون دفأها وهم عراة الأجساد يدخنون، أو يجنون البطاطا التالفة والفاسدة، أو ينضجونها وهم يُصغون إلى حكاياتهم الشعبية، أو يقصون على بعضهم مآثر بوتمكين وسوفوروف ومغامرات أليوشا الداهية (أشبه بحكاية الشاطر حسن)، أو ميكولكا عتيل الراهب، وهي من القصص الشعبي الروسي.

أما الضباط فقد ظلوا من جانبهم يعيشون مثنى وثلاث في بيوت نصف مهدمة مفتوحة لكل ريح، بينما كان كبار الضباط منصرفين بكليتهم إلى تأمين التبن والبطاطا؛ لأن غذاء رجالهم كان شغلهم الشاغل، وظل مرءوسوهم كعادتهم يلعبون الورق؛ لأن المال كان وفيرًا رغم فقدان الأرزاق، أو يتسلون بألعاب بريئة كلعبة الأسطوانات ولعبة الـ «شعايكا»، وهي عبارة عن وتد مغروز في الأرض يحاول اللاعبون إحاطته بحلقة يلقونها عليه من مسافة معينة. أما سير العمليات الحربية العام، فلم يكن أحد يتحدث عنه لسببين؛ الأول: أنهم ما كانوا يعرفون عنها شيئًا إيجابيًّا، والثاني: أنهم كانوا يشعرون شعورًا مبهمًا بأنها ليست على ما يرام.

كان روستوف يشاطر — كالماضي — دينيسوف مسكنه، ولقد أضحت صداقتهما منذ إجازتهما الأخيرة أكثر وثوقًا. لم يكن دينيسوف يتكلم عن أسرة روستوف، لكن الودَّ الرقيق الذي كان القائد يظهره لضابطه المساعد، كان يوحي إليه بجلاء بأن غرام الفارس العجوز بناتاشا لم يكن غريبًا عن هذا الإفراط بالمعاملات الحسنة. كان واضحًا أن دينيسوف يجنِّب نيكولا المهام الخطرة فلا يرسله إلى المخاطر إلا لمامًا، حتى إذا أرسله ورآه عائدًا سليمًا، أو وقع اشتباك مع العدو ونجا منه نيكولا، كان دينيسوف لا يستطيع كتم سروره وابتهاجه بسلامة الضابط الشاب. وقد اكتشف روستوف — خلال إحدى مهامه إلى قرية مخلاةٍ ظنَّ أن فيها أرزاقًا وعلفًا — بولونيًّا عجوزًا وابنته التي كانت

ترعى ولدها الرضيع. كانت تلك الأسرة المنكودة متدثرة بالأطمار جائعة لا تستطيع المشي ومغادرة المكان؛ لأنها عجزت عن تدارك عربة تنقلها بعيدًا لافتقارها إلى النقود، فأشفق روستوف على تلك الأسرة البائسة وقادها إلى معسكره وآواها في منزله، وظل أسابيع طويلة يقوم على إطعامها؛ انتظارًا لشفاء العجوز المريض.

وذات مرة، كان أحد زملاء نيكولا يزوره مرة، فدار الحديث حول النساء، وهنا راح الزميل يمزح معه متهمًا إياه بأنه أخفى عن أصدقائه بمكر ودهاء البُولونية الحسناء التي أنقذها، ولم ترق الدعابة لروستوف، فانفصل وثار وحمل على الضابط الزميل حملةً بلغت من العنف أن دينيسوف وجد صعوبة كبيرة في حل المسألة ومَنْع الضابطين من التقاتل، ولما رحل الضابط المزاح أنَّب دينيسوف نيكولا على انفعاله، خصوصًا وأنه شخصيًّا ما كان يعرف عن علاقة الضابط الشاب بالبولونية الحسناء شيئًا، فأجاب روستوف: «ولكن ... إنني أنظر إليها نظرتي إلى أخت، ولا يمكنني أن أفصح لك إلى أي مدى شعرت بإيلام حديثه؛ لأنني ... لأن ...»

ربَّت دينيسوف على كتفه بإخاءٍ وراح يذرع الحجرة دون أن ينظر إليه كعادته كلما كان منفعلًا مضطربًا، وأخيرًا همهم قائلًا: «إنكم جميعًا بلهاء في أسرتكم.»

لكن روستوف لاحظ أن عيني دينيسوف كانتا مبللتين بالدموع.

الفصل السادس عشر

ورطة دينيسوف

أعادت عودة الإمبراطور في شهر نيسان الحياة والاندفاع إلى وحدات الجيش، لم يسعد روستوف بحضور العرض الذي أقيم على شرف العاهل في بارتنتشتن؛ لأن فرسان بافلوجراد كانوا معسكرين عند الخطوط الأمامية، وكان روستوف ودينيسوف يقطنان كوخًا حُفر في الأرض وغُطي بالأغصان والحشائش. وفيما يلي الطريقة التي أصبحت شائعة في إقامة مثل هذه الأكواخ: كانوا يحفرون خندقًا عرضه متر، وعمقه متر ونصف المتر، وطوله متران ونصف المتر، وفي أحد الجانبين كانوا يحفرون درجات متناسقة على قدر المستطاع لتكون مدخلًا للغرفة التي هي الخندق نفسه، وكان المجدودون من الضباط — كقائد الكوكبة مثلًا — يتمتعون بلوح من الخشب قائم على ركيزتين؛ ليقوم مقام الطاولة. وعلى جانبي الخندق، وعلى عمق ستين سنتيمترًا، كانت الأرض تُحفر، وبذلك يتهيَّأ للساكنين السرير والأرائك! وكان السقف يسمح لشاغل الحجرة بالوقوف في منتصفها، بل وفي الجلوس على السرير، وذلك في الجزء القريب من المائدة على الأقل. ولما كان فرسان دينيسوف يحبونه ويقدرونه، فإنهم بفضل ذلك التعلق منحوه شيئًا من الترف في كوخه؛ إذ أقاموا له في مقدمة السقف قطعة من الخشب مزينة بقطعة زجاج للإنارة. صحيح أن الزجاج كان محطمًا، ولكن أجزاءه كانت ملصقة إلى بعضها بوسيلة ما. وإلى جانب ذلك، فإن جنوده كانوا يأتونه كلما اشتد البرد بقطعة من الصفيح يضعونها على الدرجات التي كان دينيسوف يدعوها البهو، ويملئون تلك القطعة من الصفيح بجَمْر متقد، يستخلصونه من نيران المهاجع، وبذلك كان الجو بديعًا في كوخ الزميلين، حتى إن الضباط كانوا يجتمعون بكثرة في مسكنهما المترف، ويخلعون ستراتهم أحيانًا بسبب رداءة جوه.

وذات صباح حوالي الساعة الثامنة، عاد روستوف من الحراسة بعد ليلة بيضاء، فأمر أن يأتوه بالجمر لأنه كان مبتل الثياب. أبدل ثيابه وأدى صلاته وشرب الشاي وتدفأ، ثم سوى أمتعته وأخلى ما كان على الطاولة، واستلقى على ظهره عليها بعد أن خلع سترته، ووضع ذراعيه تحت رأسه، كان وجهه ملتهبًا من الريح الباردة. أخذ يفكر بسرور في أن مهمته الاستطلاعية الأخيرة المثمرة سترقيه رتبة، وكان ينتظر زميله دينيسوف بفارغ صبر ليثرثر معه، وفجأة دوى صوت دينيسوف الغاضب وراء الكوخ، فزحف روستوف إلى النافذة ليرى الشخص الذي يحدثه القائد، فتعرَّف على صف الضابط توبتشييانكو، كان دينيسوف يصيح به قائلًا: «لقد أعطيت متعمدًا الأمر بمنعهم من التهام جذر ماري ذاك! وها إنني أرى لازارتشوك يحمل هذه النبتة الخبيثة من الحقول.»

فأجاب صف الضابط: «لقد أصدرت إليهم الأوامر الصارمة يا صاحب النبالة، لكنهم لا يصغون إليَّ.»

عاد روستوف إلى استلقائه وهو يحدث نفسه: «ليجهد نفسه بدوره؛ لقد أنهيت خدمتي وليس عليَّ الآن إلا أن أنام. هذا هو خير.» لكن صوت صف الضابط أخذ يختلط في تلك اللحظة بصوت آخر، عرف فيه روستوف صوت الخبيث لاقروشكا. تابع دينيسوف: «كان ذلك الفتى يزعم أنه رأى أثناء ذهابه إلى توزيع الأرزاق قوافل محملة بلحم البقر والبسكويت. وأعقب ذلك صوت دينيسوف المدوي وهو يصيح آمرًا: «المفرزة الثانية؛ اسرجوا الخيول.»

تساءل روستوف: «إلى أين يمضون بحق الشيطان؟»

دخل دينيسوف إلى الكوخ بعد مضي خمس دقائق، فزحف بأحذيته الموحلة على السرير حيث دخن ملء غليونه وهو محنق، ثم قلب أمتعته رأسًا على عقب وأخذ سوطه وسيفه وهم بالخروج. ولما سأله روستوف عما ينتويه، أجابه بلهجة غامضة ولكن مغضبة؛ أن عليه عملًا يريد أداءه، وهرع خارجًا وهو يقول: «ليحاكمني الله والإمبراطور العظيم.»

سمع روستوف وقع حوافر جياد وراء الكوخ تتخبط في الوحول، لكنه لم يكتئب أو يحاول استزادة الإيضاح لمعرفة المكان الذي كان صديقه يقصده. ولما كان الركن الذي انحشر فيه دافئًا، فقد نام ملء جفونه ولم يخرج من الكوخ إلا عند المساء، ولم يكن دينيسوف قد عاد بعدُ من رحلته. أخذ الجو يتحسن، رأى روستوف قرب الكوخ المجاور ضابطين مع زميل لهما يلعبون وهم يغرسون في الوحل اللزج لفتًا ويضحكون، فانضم إليهم، وبينما هم يلعبون شاهدوا عربات تقترب يتبعها خمسة عشر فارسًا على خيول

هزيلة. أخذت القافلة والموكب المحيط بها يقتربان من مرابط الخيل، وهبَّ حشد من الفرسان يحيط بالعربات. هتف روستوف: «هه، ها هي الأرزاق قد وصلت. مع ذلك فإن دينيسوف لم يكن يكف عن التبرم والتوجع!»

فقال الضباط: «نعم، لعمرنا كم سيُسرُّ الجنود الآن!»

كان دينيسوف يتبع القافلة بين ضابطين من ضباط المشاة على خيولهم، وكان يتحدث معهما، فهرع روستوف إلى لقائه. كان أحد الضابطين وهو نحيل الجسم بادي الغضب، يقول: «إنني أنذرك يا كابتن ...»

فيجيبه دينيسوف: «لن أعيد شيئًا.»

– «أتدري ما أنت فاعله يا كابتن! إن اغتصاب أرزاق إخوان في السلاح يعتبر تمردًا! إن رجالي لم يتناولوا طعامًا منذ يومين.»

– «أما رجالي فمنذ خمسة عشر يومًا!»

فقال ضابط المشاة بصوت مرتفع: «لكن هذه لصوصية يا سيدي، ولسوف تُسأل عنها.»

فصاح دينيسوف نافد الصبر: «هلا كففت عن مضايقتي وإزعاجي! سأسأل؟ حسنًا، ليكن، لكنك لن تكون أنت المسئول! فاجهد في الصمت أو حذار، حذار لنفسك! اغرب عن وجهي.»

فقال ضابط المشاة دون أن يرتبك: «حسنًا! إن هذه لصوصية وإني ...»

فزمجر دينيسوف ودفع حصانه نحو المتكلم وصاح: «اذهب إلى الشيطان، ولكن بأسرع من هذا الخطو.»

كرر الضابط بلهجة متوعدة: «حسنًا، حسنًا!»

ولوى عنان جواده وابتعد خببًا يهتز على سرج الجواد.

هتف دينيسوف متعمدًا إسماع الضابط المرتحل: «كلب على دائرة من الأوتاد!»

كانت هذه العبارة هي الجملة الشائعة التي يستعملها الفرسان للسخرية من جنود المشاة الذين يمتطون صهوات الجياد. اقترب من روستوف وانفجر ضاحكًا وهو يقول: «لقد انتزعت منهم مئونتهم بالقوة، يا لقارعي الحصى! إنني لا أستطيع ترك رجالي يموتون جوعًا.»

كانت المؤن التي أحضرها دينيسوف لفرسانه مرسلة إلى فيلق من المشاة، لكن لاقروشكا الماكر أبلغ دينيسوف أنها لم تكن محروسة من قبل الجنود، فانتهز هذه

الفرصة وأخذ مفرزة من فرسانه وانتزع الأرزاق من الضابطين بالقوة. وُزع البسكويت توزيعًا عادلًا وأعطي منه إلى الكوكبات الأخرى.

وفي اليوم التالي، استدعى الزعيمُ «دينيسوفَ» وقال له وهو يغمض عينيه بإصبعه: «إليك الطريقة التي سأرى بها هذا الموضوع: إنني لا أعرف شيئًا ولا أتدخل في شيء، لكنني أوصيك بالذهاب إلى الأركان العامة دائرة التموين، وهناك حاول أن تدبر الأمر، وأن توقع على استلام كمية كذا وكذا من الأرزاق، فإن المسألة ستدخل في نطاق جدي، وقد تنتهي نهاية سيئة.»

مضى دينيسوف فور خروجه من لَدُن الزعيم إلى الأركان العامة وهو يتُوقُ بكل إخلاص إلى الأخذ بنصيحة رئيسه، ولم يعد إلا مساء وهو يلهث لفرط الغضب. ولم يكن روستوف قد رآه من قبل على مثل هذه الحال؛ لذلك فقد راح يسأله عما به عبثًا. كان دينيسوف يكتفي بإرسال السباب والشتائم بصوت أجش ضعيف، ويشفعها بالتهديد والوعيد. ذُعر روستوف فقام إلى صديقه يخلع عنه ثيابه ويعطيه ما يشربه، وأرسل يستدعي الطبيب. هتف دينيسوف أخيرًا: «يحاكمونني بتهمة السلب. أنا ... أعطني مزيدًا من الماء. حسنًا ليحاكموني! إن ذلك لن يمنعني من سحق هؤلاء الأوباش! سوف أتحدث إلى الإمبراطور بهذا الشأن ... أعطني قطعة ثلج.»

قال الطبيب: «إنه يجب فصد دينيسوف.» فلما استقطروا من ذراعه المغطى بالشعر ملء صحفة من الدم الأسود؛ استطاع أخيرًا أن يروي لهم ما وقع له، قال: «وصلت إلى هناك فسألتُ: «حسنًا، أين رئيسكم؟» فدلوني عليه، وقال بعضهم: «انتظر قليلًا.» فقلت: «لديَّ عملي، ولقد قطعتُ ثماني مراحل، فأعلمه بقدومي.» حسنًا، ها إن رئيس اللصوص قد بدا. وراح حضرته يلقي عليَّ درسًا قال: «إنها لصوصية!» فقلت له: «اللص ليس الذي يستحوذ على الأرزاق لإطعام جنوده، بل الذي يحتكرها لمصلحة جيوبه.» فأمرني بالصمت، حسنًا جدًّا، أخيرًا قال: «اذهب ووقع على إفادتك لدى مفوض الأرزاق، وستتبع قضيتك الطريق القانوني.» ذهبت إلى هناك وعرفت في شخصي حضرة المفوض. خمِّن من الذي يجعلنا نموت جوعًا؟»

وضرب على المائدة بقبضة يده المتوجعة بعنف حتى إن الطاولة كادت أن تنقلب، بينما ارتطمت الأقداح ببعضها، وقال: «أتدري من؟ تيليانين!» قلت له: «هه، أهو أنت الذي تتركنا نتضور جوعًا ونفق من القحط؟ وطا... طا... على وجهه المنتفخ السمين! آه! أيها الوحش القذر! وطا... طا...»

وصاح بصوت أقرب إلى الصراخ وهو يكشف بضحكته الوحشية عن أسنانه البيضاء أسفل شاربيه الأسودين: «لقد فثأتُ غضبي فقرَّت عيني وطابت نفسي، ولو لم ينتزعوه من بين يدي لقتلته.»

نيكولا يزور المستشفى.

قال له روستوف: «هيا، لا تصرخ هكذا. هدئ روعك، ها هو الدم قد عاد ينزف من جديد. ابق هادئًا ريثما أعيد تضميد جرحك.»

ضمدت ذراع دينيسوف وأودع السرير، وفي اليوم التالي استفاق وقد هدأت نفسه وصفا مزاجه، ولكن حوالي الظهر، جاء الضابط المرافق ووجهه مكتئب يحمل طابع

الجد والحزن، فدخل كوخ الزميلين وسلَّم إلى الماجور دينيسوف ورقة رسمية من قبل الكولونيل، ورقة تحمل أسئلة حول مسألة الأمس، قال الضابط المساعد: «إن المسألة تدخل الآن في طور سيئ للغاية، وإن لجنة للتحقيق قد شكِّلت، وإن أقل ما ينتظر دينيسوف من عقاب هو نزع رتبته عملًا شكليًّا بالأنظمة الجديدة القاسية المتعلقة بأعمال السلب والعصيان.»

زعم المشتكون أن دينيسوف بعد اغتصابه الأرزاق جاء إلى مفوض الإعاشة العام وهو في حالة سكر شديد دون أن يستدعيه أحد، وهناك هدد المفوض واتهمه باللصوصية، ولما طُرد خارجًا اندفع إلى مكتب من المكاتب فانهال على موظَّفَيْنِ ضربًا ولكمًا، وخلع ذراع أحدهما.

عاد روستوف يسأل زميله فاعترف هذا ضاحكًا بأن شخصًا آخر حشر نفسه في المعركة، لكنه كان يزعم أن كل هذه الأمور عديمة الأهمية، وكان يستخف بكل المحاكم ويقول إنه إذا تجرأ هؤلاء اللصوص على منازلته؛ فإنه سيتصرف حيالهم تصرفًا يجعلهم يحتفظون بذكراه زمنًا طويلًا.

وبالرغم من أن دينيسوف كان يتظاهر باللامبالاة، فإن روستوف كان يعرفه تمام المعرفة، ويدرك أنه كان في أعماق نفسه متهيبًا نتائج فعلته، رغم كل محاولاته في إخفاء شعوره عن زميله. استمرت أوراق التحقيق تردُ كل يوم ليجيب دينيسوف عليها حتى مطلع شهر آيار؛ حيث تلقى أمرًا رسميًّا حازمًا بإسناد قيادة الكوكبة إلى أقدم ضابط بعده، وأن يَمثُل أمام قيادة الفيلق الذي يتبعه للإجابة على ما قام به في دائرة التموين. وكان بلاتوف قد قام بالأمس بعملية استطلاع مع سريتين من الخيالة القوقازيين وكوكبتين من الفرسان، فاندفع دينيسوف كعادته إلى الخطوط الأمامية، وهناك أصابته رصاصة انطلقت من الجانب الفرنسي في ربلة ساقه، وانتهز دينيسوف تلك الفرصة — وهو الذي ما كان ليغادر السرية من أجل جرح تافه كهذا — فرفض المثول أمام قيادة فيلقه وطلب إرساله إلى المستشفى لمعالجته.

الفصل السابع عشر

زيارة للمستشفى

دارت معركة فريدلاند في حزيران؛ تلك المعركة التي لم يساهم فيها فرسان بافلوجراد بنصيب، وأعقب تلك المعركة هدنة بين الجانبين، فانتهز روستوف الفرصة طالبًا الإذن بزيارة صديقه دينيسوف، الذي كان يشعر بفراغ عميق لغيابه. كان قد حرم من كل الأخبار حول صحة صديقه؛ لذلك فقد كان يشعر بقلق شديد عليه خصوصًا فيما يتعلق بالنهاية التي بلغت إليها قضيته.

كان المستشفى واقعًا في كفر بروسي. دُمر مرتين من قبل الفرنسيين والروسيين على السواء، كانت تلك المدينة الصغيرة بمبانيها المتهدمة ودوائرها المتداعية وشوارعها المليئة بالأقذار والدنس، والتي كان سكانها يهيمون على وجوههم بأطمارهم المهلهلة، مختلطين بالجنود بين ثمل ومريض، تتناقض في مظهرها البائس مع صفاء الصيف، وروعته المتفجرة في كل مكان من السهول المحيطة بها، وتعطي لونًا قاتمًا مكفهرًّا تنقبض له القلوب.

كان بيت من الحجر بنوافذه المحطمة إلا بعضها يُستخدم كمستشفى للجنود الجرحى والمرضى، وفي فناء ذلك البيت بين حطام من الركام، كان بعض الجنود شاحبي الوجه هزيلين، يروحون ويغدون وهم في ضمادتهم القذرة ويستريحون تحت إشعاع الشمس.

لم يكد روستوف يتخطى العتبة حتى اندفعت إلى صدره رائحة العفن والأدوية، فغصت بها حنجرته، وعلى السلم التقى بطبيب روسي يضع سيجارًا بين شفتيه. كان الطبيب يقول لمساعده الذي كان يصحبه: «لا أستطيع أن أنقسم إلى أربع. تعالَ هذا المساء عند ماكير إليكسييئفيتش؛ سأكون هناك.»

عرض عليه مساعده سؤالًا آخر فأجابه: «آه! اعمل ما تراه مناسبًا! على أن يعود ذلك عليهم بالخير.»

وفي تلك الأثناء، شاهد الطبيب روستوف فقال يسأله: «ماذا جئت تعمل هنا، نبالتك؟ ألئن المقذوفات النارية قد أخطأتك جئت تنشد إصابة بالتيفوس؟ إن هنا يا عزيزي بؤرة مرض حقيقية.»

– «كيف ذلك؟»

– «ذلك لأن التيفوس منتشر يا سيدي العزيز. الموت مصير كل من يدخل إلى هنا. لم يبق إلانا، ماكيئيف وأنا — وأشار إلى الممرض — وقد بقينا بعيدين عن التلف. لقد مات خمسة من زملائي هنا.»

وأردف برضا واضح: «عندما يأتي شخص جديد؛ فإن ثمانية أيام تكفي ليأخذ نصيبه. لقد طلبنا عددًا من الأطباء البروسيين، لكن حلفاءنا الطيبين سدوا آذانهم عن سماع أصواتنا.»

أبلغه روستوف أنه راغب في رؤية ضابط الفرسان دينيسوف، فقال الطبيب: «دينيسوف؟ لا أعرفه. إن سبب ذلك يا عزيزي أنني مسئول لوحدي عن ثلاثة مستشفيات تضم أكثر من أربعمائة مريض، لكننا سعداء بعض الشيء لأن سيدات بروسيات من ذوات الروح المحسنة الطيبة يرسلن إلينا قهوة ونسيلًا[1] بمقدار ليبرتين شهريًّا، ولولا ذلك لضِعْنا.»

وأردف الطبيب ضاحكًا: «نعم، يا عزيزي، أربعمائة مريض، ثم يرسلون إليَّ كل يوم مرضى جددًا، أليس لدينا أربعمائة مريض وأكثر؟ هم؟»

لكن مساعد الطبيب الذي وجه إليه الطبيب السؤال الأخير كان يبدو متعبًا غير منكر من ثرثرة رئيسه إلا بمقدار، عاد روستوف يقول: «إنه الماجور دينيسوف الذي جرح في مولوتان.»

– «أعتقد أنه مات، أليس كذلك يا ماكيئيف؟»

كان الطبيب يتحدث بلا مبالاة، فلما لم يؤيد مساعده ذلك الزعم، التفت إلى روستوف وسأله: «ألم يكن طويلًا أحمر؟»

---

[1] النسيل: نوع من «الكتيت» كان يستعمل سابقًا بدلًا من القطن المعقم قبل اكتشافه والانتفاع به، وكان يُصنع من خيوط الأقمشة القطنية المستعملة.

أعطاه روستوف أوصاف صاحبه، فقال الطبيب وهو شديد الابتهاج: «نعم، نعم، لقد كان لدي واحد مثله، لكنني أعتقد أنه مات، على كل حال سأعيد فحص قوائم الأسماء. هل هي عندك يا ماكيئيف؟»

فأجاب المساعد: «إنها عند ماكير أليكسيييئفيتش.»

ثم أردف محدثًا روستوف: «ولكن ادخل إلى قاعة الضباط وسترى بنفسك.»

لكن الطبيب اعترض قائلًا: «لا تذهب إلى هناك يا عزيزي خشية أن تضطر إلى البقاء أبدًا.»

غير أن روستوف أجابه بتحية قصيرة وطلب إلى المساعد أن يقوده إليها، فصاح الطبيب من أسفل السلم مشيعًا: «لا تلمني بعد ذلك على الأقل.»

سار روستوف ودليله في دهليز معتم، كانت الرائحة شديدة حتى إن روستوف اضطر إلى سد منخريه والتوقُّف فترة ليستعيد نشاطه. فتح باب إلى اليمين وبدا في فتحته رجل معتمدًا على عكازين وهو هزيل أصفر الوجه حافي القدمين، في ثياب النوم. كان متكئًا على إطار الباب ينظر إلى القادمين بعينين ملتهبتين ملؤهما الرغبة والحسد. ألقى روستوف نظرة إلى الداخل فرأى الجرحى والمرضى هاجعين على الأرض فوق المعاطف أو كومات من التبن. سأل دليله: «هل أستطيع إلقاء نظرة؟»

فأجاب المساعد وهو عازف عن الدخول: «لا يوجد شيء يستحق المشاهدة.»

لكن نفوره دفع روستوف على عكس ما كان ينتظر؛ إلى ولوج الغرفة. كانت الرائحة التي اعتاد روستوف على استنشاقها أخيرًا أشد نفاذًا في تلك الغرفة، رغم أنها كانت مختلفة بعض الشيء عن رائحة الممشى، وكان واضحًا أن تلك الغرفة كانت مبعث الرائحة المنتشرة في الخارج.

كانت الشمس تضيء تلك الغرفة الطويلة إضاءة عنيفة نافذة إليها خلال نوافذ مرتفعة، وكان المرضى مستقلين في صفين — بينهما ممشى — على الأرض، ورءوسهم لصق الجدار، وكان معظمهم في النزع الأخير؛ لذلك فإن دخول روستوف ودليله لم يثر في النفوس أي رد فعل. أما أولئك الذين كانوا محتفظين بوعيهم، فقد تناهضوا لينظروا إلى روستوف، أو اطلعوا عليه بوجوههم المصفرة المهزولة يلتهمونه بعيونهم بنظرة تكاد تكون متشابهة في كل العيون؛ نظرة اختلط فيها الأمل في نيل غوث عاجل ممكن، بالحسد الحقود على الصحة التي يتمتع بها الزائر. عبر روستوف الغرفة ووقف في منتصفها، وهناك أتيح له أن يرى خلال الأبواب الأخرى المفتوحة مشاهد مماثلة في الغرف المجاورة.

أذهله ذلك المشهد الذي لم يكن يتوقع رؤيته، فوقف ساهمًا صامتًا، وراح يجيل بصره فيما حوله. كان أحد المرضى مسجًّى على الأرض قرب قدميه، ممدود الساقين والذراعين، كان يبدو عليه أنه قوقازي، بدلالة شعره المحلوق على الطريقة الروسية. كان ذلك الرجل مصطبغ الوجه بحمرة الأقحوان، لا يبدو من عينيه الغاربتين إلا بياضهما، وكانت العضلات متصلبة على أطرافه العارية الحمراء أشبه بالحبال المشدودة. قرع الأرض بمؤخرة رأسه وأطلق نداء بصوت أجش راح يكرره بإلحاح، فأصغى روستوف إلى ندائه وتبين أنه يقول: «ماءً، اسقوني ماءً.» فأخذ يبحث بعينيه عمن يمكنه أن يعيد المريض إلى مكانه ويسقيه جرعة ماء. سأل المساعد: «من المكلف هنا بالعناية بالمرضى؟»

وفي تلك اللحظة دخل خادم القاعة — وهو جندي من صفوف الجيش — قادمًا من غرفة مجاورة، وجاء بخطوات متزنة حتى وصل إلى حيث كان روستوف، وهناك قرع الأرض واتخذ وضعية الاستعداد.

هتف وهو يظن روستوف أحد الرؤساء في المستشفى، فيحدق في وجهه بإلحاح: «صحة جيدة لنبالتكم السامية.»

فقال له روستوف وهو يشير إلى المريض: «أعد هذا إلى مكانه واسقه ماءً.»

أجاب الجندي بحماس وسرور واضح وعيناه تزدادان اتساعًا: «كما تأمرون نبالتكم العلية.»

لكنه لبث واقفًا في وضعية الاستعداد لا يتحرك، فخفض روستوف عينيه وخاطب نفسه في سره قائلًا: «لا شك أنه ليس هناك ما يعمل.» ولما همَّ بالخروج شعر إلى يمينه بنظرة ملحة عنيدة تتفحصه، فالتفت إلى تلك الناحية. كان الرجل الذي يتفحصه جنديًّا عجوزًا ذا لحية شهباء، ووجه صارم أشبه بوجوه الموتى، وكان جالسًا على معطفه في آخر الصف تقريبًا، وكان أحد زملائه القريبين منه يهمس في أذنه شيئًا وهو يشير إلى روستوف. أدرك روستوف أن العجوز يرغب في أن يقول له شيئًا فاقترب منه، ورأى أنه قد فقد إحدى ساقيه من فوق الركبة، أما الأخرى فكانت مثنية تحته، وبالقرب منه رأى جسد جندي شاب مسجًّى على الأرض، مائل الرأس إلى الوراء ذي أنف أفطس، وعينين غاربتين، ووجه شمعي ملطخ ببقع الدم. فحص روستوف الجندي وعندئذ سرت قشعريرة في عموده الفقري، قال للمساعد: «لكنني أعتقد أن هذا ...» فقاطعه الجندي العجوز وقد سقط فكُّه من الانفعال: «هذه هي المرة العشرون التي نطلب إليهم فيها ذلك يا صاحب النبالة، لقد مات منذ الصباح. إننا رغم كل شيء لسنا كلابًا.»

فقال مساعد الطبيب مسرعًا: «فورًا، فورًا سوف أعمل على نقله من هنا. ولو تتفضلوا نبالتكم وتتبعوني ...»

فغمغم روستوف مبادرًا: «هيا، لنذهب، لنذهب.»

وأطرق برأسه محاولًا أن يمر دون أن تلتقي عيناه بتلك النيران المتقاطعة التي تنبعث من العيون الطافحة بالرغبة واللوم، هرع روستوف يغادر القاعة.

الفصل الثامن عشر

لقاء مع دينيسوف

أدخل المساعد روستوف إلى قاعة الضباط في أقصى الممر، كانت تلك القاعة مؤلفة من ثلاث غرف مفتوحة الأبواب مطلة على بعضها، وكان فيها أَسِرَّة جلس أو استلقى عليها الضباط المرضى أو الجرحى، وكان بعضهم مرتديًا معاطف المستشفى يروح ويجيء على طول القاعة متنزهًا. كان أول شخص وقع بصر روستوف عليه رجلًا قصير القامة، نحيل البنية، أبتر الذراع، يرتدي معطفًا وقلنسوة من القطن، ويعض بين أسنانه غليونًا قصيرًا وهو يذرع الغرفة. تذكر روستوف بشكل غامض أنه رأى ذلك الوجه في مكان ما، قال الرجل القصير: «آه رباه! كيف التقينا؟ توشين، ألا تذكر توشين الذي أعادك إلى شوينجرابن؟ آه، إنك ترى أنهم اقتطعوا مني قطعة صغيرة.» وأشار إلى كم معطفه الخاوي وهو يبتسم.

أطلعه روستوف على غرضه من زيارة المستشفى، فقال هذا: «فاسيلي دميتريش دينيسوف؟ بالطبع إنه هنا، تعال، تعال.» واقتاده توشين إلى غرفة مجاورة كانت تنبعث الضحكات منها عالية.

فكر روستوف في نفسه: «كيف، أيضحكون! وأنا الذي كنت أتساءل كيف يمكن لهم أن يعيشوا في مثل هذا الجو!» كانت رائحة الجثة تلاحقه، والحاجز المزدوج من النظرات المشعة بالرغبة واللوم تطارده، ووجه الجندي الشاحب ذي العينين الغاربتين لا يزال يمثُل في خاطره.

كان دينيسوف نائمًا وقد التحف أدثرته والتف بها، رغم أن الساعة كانت قد جاوزت الحادية عشرة.

هتف بمثل صوته الذي عُرف به في السرية: «آه! روستوف! مرحبًا مرحبًا!»

لكن روستوف لاحظ بصعوبة أن شعورًا بالمرارة يطفو على ذلك المظهر المرح، ويطبع وجه دينيسوف بطابعه الأليم، بل ويظهر حتى في لهجته، رغم طلاقته الطبيعية في الكلام.

لم يكن جرحه — رغم بساطته ومُضِي ستة أسابيع على إصابته به — قد التَأم بعدُ، وكان وجهه شاحبًا منتفخًا لكل النازلين في المستشفى، غير أن ما زاد في دهشة روستوف كان مظهر صديقه وهيئته؛ كان يبدو قليل السرور بمشاهدته يبسم له ابتسامة شبه مغتصبة، لم يسأله عن أحوال الفيلق، ولا عن سير الأمور العام، ولما حاول روستوف طرق هذه الموضوعات تظاهر دينيسوف بأنه غير مُصغٍ إليه.

لاحظ روستوف كذلك أن كل تلميح إلى الحياة الهانئة التي يحيونها خارج جدران المستشفى كانت تؤلمه وتمضُّه، كان يبدو بلا ريب راغبًا في نسيان حياته السابقة، فلا يشغله إلا ما وقع له مع جماعة مفوضية التموين والإعاشة. ولما سأله روستوف عما آلت إليه تلك القضية، أخرج من تحت وسادته ورقة تلقاها مؤخرًا من الهيئة، وأطلعه على مسودة جوابه عليها. اتقد انفعالًا وهو يقرأ له الرد الذي أبرز فيه النقاط والطعنات التي كان يوجِّهها لأعدائه، وما إن شرع في القراءة حتى تفرَّق زملاؤه الذين كانوا قد التفوا حول روستوف في شبه حلقة محكمة حين مجيئه يدفعهم حب استطلاع ما في جعبة القادم الجديد. قرأ روستوف على وجوههم ما يشير إلى أن رءوسهم كانت متصدعة من هذه المسألة بالذات، فلم يبق من يصغي إليه إلا زميل له على سرير مجاور، وهو رماح ضخم الجثة كان يمضغ قصبة غليونه بوجه عابس مكفهر، وتوشين الأبتر كان يعلن استنكاره بهزات من رأسه.

قال الرماح الضخم قاطعًا على دينيسوف قراءته فجأة: «في رأيي أن ما ينبغي عمله هو التماس رحمة الإمبراطور مباشرة. لقد سمعت أن مكافآت كثيرة ستوزع، وإذن فإن العفو ليس ببعيد.»

قال دينيسوف بلهجة حاول أن يودع فيها كل حيويته القديمة، لكنها بدت أشبه بالعويل اليائس: «التماس الصفح من الإمبراطور! ولم ذلك؟ لو أنني كنت لصًّا لطلبت الغفران، لكنهم إذا كانوا يلاحقونني فما ذلك إلا لأنني كشفت النقاب عن هؤلاء الأنذال! ليحاكموني، فلست أخشى أحدًا. لقد خدمت دائمًا القيصر والوطن بكل شرف. إنني لست لصًّا. ثم إنهم يحاولون نزع رتبتي بينما … اسمع، إنني أقول لهم بكل صراحة: لو أنني كنت مخالفًا واجباتي حانثًا …»

فتدخل توشين قائلًا: «إنها ليست عبارة رديئة ولا شك، لكن الأمر يتعلق بهذا …»

وأردف مستشهدًا بروستوف: «ينبغي على المرء أن يخضع بينما فاسيلي دميتريش يرفض ذلك. لقد أخطرك أمين لجنة التحقيق بأن مسألتك سيئة.»

– «ليكن! لست أبالي.»

فألحَّ توشين مردفًا وهو يشير إلى روستوف: «لقد كتب لك ملتمسًا فيجب أن توقعه، وأن ترسله بواسطة هذا السيد. إن لديه ولا شك بعض المعارف في الأركان. لن تجد مناسبة أفضل من هذه قط.»

فأجاب دينيسوف وهو يعود إلى تلاوته: «لقد أعلنت من قبل: لن أنحني وأتوسل.»

شعر روستوف بغريزته أن السبيل الذي أشار به توشين والآخرون كان أفضل كل شيء وأكثر سلامة، وكان يسعده أن يؤدي خدمة لصديقه، لكنه كان يعرف استقامته المخيفة وإرادته التي لا تتزعزع؛ لذلك فإنه لم يجرؤ على التدخل لإقناعه.

ولما انتهى دينيسوف بعد ساعة طويلة من قراءة مطاعنه السامة، لم يجد روستوف بدًّا من السكوت، أمضى بقية يومه في صحبة زملاء دينيسوف الذين عادوا يتجمهرون حوله، فقصَّ عليهم ما كان يعرفه عن الموقف، وأصغى بدوره إلى أقاصيصهم وحكاياتهم، بينما كان دينيسوف محتفظًا بصمت مدلهم.

استعدَّ روستوف لمغادرة المستشفى في نهاية السهرة، سأل صديقه عن أية خدمة يرغب إليه أداءها، فأجاب دينيسوف: «بلى، انتظر.»

وبعد أن ألقى نظرة على الضباط المجتمعين، أخرج من تحت وسادته أوراقًا ومضى إلى النافذة حيث كانت محبرته وراح يكتب، وبعد فترة عاد يقول وهو يسلم إلى روستوف مغلفًا كبيرًا: «إن الأدوية الكبيرة توصف للأدواء الوبيلة!»

كان الملتمس الذي كتبه له أمين لجنة التحقيق، والذي لم يُذكَر فيه شيء عن مساوئ مفوضية التموين، بل توسل إلى الإمبراطور فيه أن يتكرَّم بالصفح عنه فقط، هو ما ودعه دينيسوف في المغلف الكبير، قال: «ابعث بهذا طالما أن ذلك ...»

لكنه لم يتم جملته، بل تقلصت قسمات وجهه بتأثير ضحكة مغتصبة.

الفصل التاسع عشر

روستوف وبوريس

بعد أن أطلع روستوف الكولونيل قائد الفيلق على نتيجة ما وصلت إليه قضية دينيسوف، سافر إلى تيلسيت[1] حاملًا الملتمس العتيد.

وفي الثالث عشر من حزيران، التقى الإمبراطوران في هذه المدينة الصغيرة، فطلب بوريس دروبيتسكوي من رئيسه المتنفذ أن يلحقه ذلك اليوم بحاشية جلالته، قال مبررًا طلبه: «إنني أود من صميم قلبي أن أرى الرجل الكبير.»

وكان يعني بهذا الوصف نابليون الذي كان يُطلق عليه حتى ذلك اليوم اسم بيونابرت استهزاءً، كما كان يفعل الآخرون.

سأله الجنرال باسمًا: «هل تتحدث عن بيونابارت؟»

ألقى بوريس نظرة على رئيسه أدرك بعدها على الفور أن هذا كان يمازحه، وأنه كان يريد اختباره فحسب، فقال يجيبه: «يا أميري، إنني أتحدث عن الإمبراطور نابليون.»

قال الجنرال وهو يربت على كتفه بودٍّ: «سوف تصعد بعيدًا على سلم الترقي.» وصحبه معه، وبذلك كان بوريس من المجدودين القلائل الذين حضروا محادثة نييمن.[2] شاهد الأرمات مزينة بأحرف اسمي الإمبراطورين متداخلة بخط جميل، و«نابليون» على الضفة المقابلة يستعرض حرسه بينما كان ألكسندر صامتًا ساهمًا ينتظر في مبنى على شاطئ النهر، رأى العاهلين ينزلان في زورقيهما ونابليون، وقد وصل الرمث قبل ألكسندر

---

[1] تيلسيت: اسمها اليوم سوفيتسك مدينة ليتوانية، سكانها ٥٠٠٠٠ نسمة، عقدت فيها معاهدة بين نابليون بونابرت والإمبراطور ألكسندر الأول؛ إمبراطور روسيا عام ١٨٠٧.

[2] نييمن: اسم نهر من أنهار روسيا البيضاء وليتوانيا، يسقي أراضي جرودنو وتيلسيت، ويصب في بحر البلطيق. طوله ٨٣٠كم، أطلق اسمه على المحادثات التاريخية التي دارت بين نابليون وقيصر روسيا.

يقترب من ألكسندر بخطوات سريعة ويمد له يده، ثم رأى الإمبراطورين يختفيان تحت الرواق. كان بوريس منذ أن تسلل بين المتنفذين في المجتمع قد اعتاد مراقبة كل شيء بدقة، وتسجيل كل ما يدور حوله بعناية، وجه عنايته خلال مقابلة تيلسيت إلى الأشخاص الذين كانوا يرافقون «نابليون»، واستعلم عن أسمائهم وميزات أزيائهم العسكرية، والتقط بكل عناية كل ما كان يتفوَّه به المتنفذون من ذوي المكانة.

استشار ساعته في اللحظة التي دخل فيها العاهلان تحت الرواق، ولم ينس قط أن يعيد النظر إليها عندما خرج ألكسندر. تبين له أن المقابلة دامت ساعة وثلاثًا وخمسين دقيقة، فسجل هذا التفصيل ذلك المساء بالذات بين عدد من التفاصيل الدقيقة الأخرى التي كان يشعر أنها ذات أهمية تاريخية. ولما كان ألكسندر لم يصطحب معه إلا حاشية قليلة العدد، فإن وجود بوريس في عداد تلك الحاشية في تيلسيت كان في حد ذاته حدثًا هامًّا، وخطوة مرموقة في طريق مستقبله؛ مستقبل شاب طموح كبوريس، لمس بنفسه عقب ذلك أن مكانته ازدادت قوة ومتانة، فلم يعد معروفًا فحسب، بل كان كذلك قبلة الأنظار يستهوي الأبصار، ويألفه الناس، وقد كُلف مرتين بمهمات لدى الإمبراطور حتى إن هذا بات يعرفه للنظرة الأولى، وبات أفراد الحاشية يدهشون إذا انقطع عن الظهور بينهم على عكس ما كانت عليه الحال من قبلُ عندما كانوا يتحاشون النظر إلى ذلك الوجه الجديد.

كان بوريس يسكن مع أحد زملائه الكونت جيلنسكي، كان ذلك البولوني الفني الذي نشأ في باريس شديد الولع بالفرنسيين، وبذلك فإن ضباط الحرس وكبار ضباط الأركان العامة الفرنسيين، ظلوا طيلة مدة إقامتهم في تيلسيت يدعون كل يوم تقريبًا إلى تناول الطعام ظهرًا ومساءً لدى الضابطين المساعدين.

وفي الرابع والعشرين من حزيران، أولم الكونت جيلنسكي حفلة عشاء لأصدقائه الفرنسيين، وكان في الوليمة مدعوٌّ على جانب من الخطورة؛ وهو مساعد الميدان لنابليون، وعدد من ضباط الحرس، وشاب سليل أسرة فرنسية قديمة كان وصيفًا للإمبراطور. وفي ذلك المساء بالذات، انتهز روستوف فرصة الظلام المدلهم، وتسلل إلى تيلسيت في ثياب مدنية، ومضى إلى مسكن بوريس.

كان الجيش الذي جاء منه روستوف لم يبدل بعدُ عواطفه نحو الفرنسيين الذين انقلبوا فجأة من أعداء إلى أصدقاء؛ لأن ذلك التحوُّل لم يحدث إلا في القيادة العامة. أما الجيش فقد ظل أفراده يشعرون نحو بونابرت وأتباعه بذلك الشعور بالذات، الذي كان مزيجًا من الغضب والاحتقار والفزع. ومنذ وقت قصير، كان روستوف يتناقش مع

ضابط من قوقازيي فيلق بلا خوف، وكان يؤكد أنه إذا وقع نابليون أسيرًا؛ فإنهم لن يعاملوه معاملة إمبراطور بل معاملة مجرم، بل وإنه منذ أمد جد قصير، التقى روستوف بزعيم فرنسي جريح، فأفهمه عامدًا أن من العبث قيام صُلح بين عاهل شرعي كالقيصر وذلك المجرم بونابرت؛ لذلك فقد ذهل عندما رأى في منزل بوريس عسكريين كان يتوقع أن يراهم في كل مناسبة في الخطوط الأمامية، ولكن ليس هنا، فلما وقع بصره على ضابط فرنسي ظهر على عتبة الباب شعر فجأة بالكراهية العسكرية تتفجر في أعماق نفسه؛ تلك الكراهية التي تستحوذ على كل كيانه عند رؤيته العدو، توقف قبالته وسأله باللغة الروسية عما إذا كان دروبيتسكوي يقطن هنا. سمع روستوف صوتًا غريبًا يخرج للقائه، فلما عرف روستوف لم يستطع كتمان انزعاجه ونفوره، لكنه مع ذلك اقترب منه وهو يبتسم، قال: «آه! هذا أنت؟ أهلًا أهلًا، سرتني رؤيتك.»

فأجابه روستوف في شيء من البرود؛ لأن البادرة الأولى التي ارتسمت على وجه صديقه لم تفُته: «يبدو لي أنني أزعجك؛ أليس كذلك؟ ما كنت أرغب في المجيء لكن هناك مسألة اضطرتني ...»

– «أبدًا البتة، إنك لا تزعجني، لكنني دهشت فقط عندما وجدتك بعيدًا عن قطعتك.»

وأجاب على صوت كان يناديه من الداخل: «خلال لحظة أعود لأكون رهن تصرفكم.»

كرر روستوف قوله: «إنني أرى بوضوح أنني أزعجك.»

تبددت آثار الانزعاج التي ارتسمت لأول وهلة على وجه بوريس، لقد استعاد هدوءه بعد أن أتيح له وقت للتفكير في الأمر، فوصل إلى القرار اللازم. أمسك بيدي نيكولا بهدوء وقاده إلى غرفة مجاورة. أخذ ينظر إليه بسكون وجلد حتى خيِّل لروستوف أن صديقه بدأ يستعمل القناع المعروف عند الأشخاص الذين يشقون طريقهم في المجتمع الراقي؛ قناع الحياة الزائفة.

قال بوريس مجيبًا: «أبدًا، إنك لا تزعجني. ما هذا القول؟ هل يمكن أن تسبب لي أنت أي إزعاج؟»

وقاده بوريس إلى القاعة التي كان المدعوون منتظمين فيها بانتظار الطعام، فقدمه إليهم وبين لهم أنه ليس مدنيًّا بل ضابطًا من سلاح الفرسان، وصديقًا قديمًا له، ثم قدم إليه الموجودين: «الكونت جيلنسكي، الكونت ن. ن، الرئيس س. س ... إلخ.»

ألقى روستوف نظرة شرسة على الفرنسيين وحيَّاهم بصلابة ثم لزم الصمت.

استقبل جيلنسكي هذا الدخيل من جانبه في شيء من الحفاوة، فلم يوجِّه إليه أية كلمة! أما بوريس فإنه تظاهر بأنه لم يشعر بالارتباك الذي أحدثه قدوم روستوف، وراح

— شأن رجال المجتمع الراقي — يحاول إثارة الحديث بين الموجودين لإزالة الأثر الذي علق في النفوس، ورأى أحد الفرنسيين أن روستوف لا ينبس ببنت شفة، فقال بالأدب المعروف عن بني قومه: «إنه يعتقد بأنه جاء إلى تيلسيت ليرى الإمبراطور ولا ريب.» فأجابه روستوف بإيجاز: «كلا، بل جئت بصدد قضية.»

ساء مزاج نيكولا منذ اللحظة الأولى التي رأى فيها بوادر التبرم على وجه بوريس. أخذ يتصور — كما هي الحالة في مثل هذه المواقف — أن كلَّ الموجودين. والحقيقة أنه كان يزعجهم. لقد كان وحده بعيدًا عن دائرة الحديث العام، فبدت الأنظار كلها كأنها تقول: «ماذا جاء يفعل هنا؟» فنهض واقترب من بوريس وقال له بصوت منخفض: «إنني أشعر بأنني أزعجك، فهيا بنا نتحدث قليلًا عن الموضوع الذي جئت من أجله، وسأنسحب بعدئذ.»

فأجابه بوريس: «إنني لا أشعر بأي انزعاج. مع ذلك، إذا كنت تعبًا فهيا بنا إلى الغرفة المجاورة حيث يمكنك أن تستريح قليلًا.»

– «ذلك خير.»

انسحبا إلى الغرفة الصغيرة التي ينام فيها بوريس، فلما ولجاها شرع روستوف دون أن يجلس — وكأن بوريس أساء إليه في شيء ما — يتحدث بصوت خشن، عارضًا عليه الأمر الذي دعاه إلى اللجوء إليه. سأله عما إذا كان يستطيع أو يريد أن يتدخل في هذا الموضوع بواسطة الجنرال الذي كان يشغل منصب الضابط المساعد عنده؛ ليرفع الملتمس عن طريقه إلى الإمبراطور؟ اقتنع نيكولا لأول مرة خلال تلك المقابلة الخاصة أنه لا يجرؤ على النظر إلى وجه بوريس نظرة صريحة. كان هذا جالسًا واضعًا ساقًا على ساق يفرك يديه الجميلتين ويصغي إلى نيكولا وكأنه جنرال يصغي إلى تقرير أحد مرءوسيه، وكانت نظرته تشرد تارة في أحد الأركان، وطورًا تنصب بقحة على روستوف. وكلما شعر روستوف بتلك النظرة المحجوبة بستار الرسميات والبروتوكول تنحطُّ عليه كان يشيح بنظرته، قال بوريس: «لقد سمعت قصصًا من هذا القبيل، وأعرف أن الإمبراطور يظهر قسوة في مثل هذه الأمور. وفي رأيي، أن من الأفضل عدم اللجوء إلى جلالته في هذه المسألة، بل التوجه بها مباشرة إلى قائد الفيلق. ثم إنني أعتقد ...»

قال نيكولا دون أن يرفع بصره إلى بوريس: «إذا كنت لا تريد المساهمة في هذا الأمر فقل ذلك بكل صراحة!»

فأجاب هذا باسمًا: «بل على العكس، سأعمل كل ما أستطيعه، لكن رأيي ...»

وفي تلك اللحظة، ارتفع صوت جيلنسكي يدعو بوريس من وراء الباب، فقال نيكولا: «هيا، اذهب، اذهب.»

ورفع مشاركة الضيوف في طعامهم، ولما أصبح لوحده راح يذرع الغرفة الصغيرة بعصبية، بينما كانت الضحكات المرحة وصدى أصوات الفرنسيين المرحة ترتفع من القاعة المجاورة.

الفصل العشرون

جواب الإمبراطور

أخطأ روستوف في انتقاء اللحظة المناسبة للمجيء إلى تيلسيت، لم يكن يستطيع مقابلة الجنرال آمر الخدمة؛ لأنه كان في ألبسة مدنية، وكان متغيبًا عن قطعته دون إجازة رسمية. أما بوريس فإنه على فرض وجود النية الطيبة لديه، ورغبته في أداء هذه الخدمة؛ ما كان يستطيع الشروع بتنفيذها غداة اليوم التالي لوصول صديقه القديم. والواقع أن في ذلك اليوم السابع والعشرين من حزيران جرى التوقيع على البنود التمهيدية للصلح، وتبادل الإمبراطوران أرفع أوسمتهما، فتلقى ألكسندر الوشاح الأكبر لجوقة الشرف، وتقلد نابليون وشاح سان آندريه الرفيع، وكان عليهما بعد ذلك حضور حفلة كبرى يقيمها لواء من الحرس الإمبراطوري الفرنسي للواء من فيلق بريوبراجنسكي.

كان روستوف شديد الارتباك في حضرة بوريس حتى إنه تظاهر بالنوم عندما عاد هذا إليه بعد العشاء. وفي الصباح اختفى في ساعة جِدِّ مبكِّرةٍ دون أن يُودِّعه بكلمة. تاه في المدينة وهو في ثيابه المدنية وعلى رأسه قبعة مستديرة، وراح يعاين الفرنسيين في ألبستهم العسكرية، ويتفحص الشوارع والبيوت التي ينزل فيها الإمبراطوران. وفي ساحة المدينة، لاحظ أن عددًا من الموائد قد أقيم استعدادًا لحفلة كبيرة، رأى الشوارع مزدانة بالأعلام الفرنسية والروسية، والحرفين الأولين «أ» و«ن» اللذين يرمزان إلى اسمي الإمبراطورين، مرفوعين في كل مكان على النوافذ، فلم تكن العين لترى أكثر من الأعلام والأحرف.

أخذ نيكولا يفكر في سرِّه: «إن بوريس لا يريد أن يعمل شيئًا، ثم إنني ما عدت أتمسك بفكرة الركون إليه. لقد انتهى كل شيء بيننا، غير أنني لن أرتحل من هنا قبل أن أحاول المستحيل من أجل دينيسوف، وخصوصًا قبل أن أوصل رسالته إلى الإمبراطور … الإمبراطور؟ لكنه هنا!»

وعلى الرغم منه، اقترب من الدار التي ينزل فيها ألكسندر. كانت بعض الخيول المسرجة (خيول الركوب) تزدحم قرب الباب، وكان نفر من ضباط الحاشية يتقاطر حول المكان، فتأكد أن الأمير على وشك الخروج.

فكر روستوف: «إنني لا أستطيع أن أراه في كل لحظة، ليتني فقط أتمكن من تسليمه الملتمس يدًا بيد؛ لأفسر له المسألة وأوضحها. لكنني في ثياب مدنية، ولعلهم سيوقفونني من أجل ذلك، ولكن كلا، لن يحصل ذلك. إن الإمبراطور سيعرف — ولا ريب — جهة الحق فيدعمها. إنه يفهم كل شيء، ويعرف كل شيء. من ذا الذي يستطيع أن يكون أكثر عدالة وأكثر كرمًا منه؟ وبفرض أنهم أوقفوني لأنني هنا، ماذا يهم ذلك!»

ولما رأى الضباط يدخلون إلى المقر الإمبراطوري دون عوائق قال لنفسه: «آه، لكنهم يدخلون بكل يسر وسهولة. هيا تشجع يا فتى، سوف أسلِّم الملتمس إلى الإمبراطور بنفسي. الحق على دروبيتسكوي الذي ألجأني إلى اتخاذ مثل هذا النهج.»

وفجأة، وبعزم لم يعهده في نفسه، تُوجَّه روستوف مباشرة إلى مدخل المسكن وهو يلمس الملتمس في جيبه.

قال يحدث نفسه: «لن أدع الفرصة تفوتني هذه المرة كما حدث في أوسترليتز.» كان يتوقع أن يرى نفسه بعد كل خطوة وجهًا إلى وجه مع الإمبراطور. وإزاء تلك الفكرة كان الدم يقفز من كل أطرافه ليطفح به قلبه: «سألقي بنفسي على قدميه مسترحمًا متوسلًا، فيرفعني ويصغي إليَّ، بل إنه سيشكرني كذلك.» وأخذ خياله يُسمِع أذنه صوت الإمبراطور يقول له: «إنني سعيد إذ أستطيع عمل خير، وإن رفْع حيف وظلم عن بعضهم هو غاية سعادتي.»

تجاوز الممشى تحت وابل من نظرات الضباط الفضولية، وهناك انتصب أمامه سلم عريض يقود إلى الطبقة الأولى مباشرة، وكان إلى اليمين باب مغلق، وفي أسفل السلم باب آخر يطل إلى البناء الأرضي، سأله بعضهم: «ماذا ترغب؟»

فأجاب نيكولا وفي صوته رعدة: «رفع ملتمس إلى جلالة الإمبراطور.»

– «ملتمس؟ اذهب إلى ضابط الخدمة. من هنا من فضلك — وأشار له إلى الباب الذي في أسفل السلم — لكنه لن يستقبلك.»

لما سمع روستوف ذلك الصوت الجلي شعر بفداحة عمله. كانت فكرة استقبال الإمبراطور على ما فيها من فتنة للنفس ترعبه لدرجة أنه كان يرحب بالفرار من هذا المأزق لولا أن فتح له الضابط المنوب باب حجرة ضابط الخدمة، فاضطر إلى الدخول اضطرارًا.

رأى رجلًا ضخمًا سمينًا في العقد الثالث من عمره يرتدي سراويل بيضاء، وينتعل أحذية الفرسان طويلة الساق واقفًا في منتصف الغرفة. كان قد فرغ لتوِّه من ارتداء قميص رقيق من «الباتيستا» الفاخرة، وكان وصيفه يضع له حمالات السروال الجديدة كل الجدة، الموشاة بالحرير، وكان يتحدث مع شخص آخر في غرفة مجاورة. وقد لفتت هذه الملاحظة انتباه روستوف، كان الرجل الضخم يقول: «جيدة التكوين وبجمال الشيطان.»

لكنه لما وقع بصره على روستوف قطب حاجبيه وقطع حديثه، وقال له: «ماذا تريد؟ ملتمس؟»

وسمع الصوت الآخر يقول من داخل الغرفة: «ما هذا؟»

فأجابه الرجل ذو الحمالات الجديدة: «إنه مستدع جديد.»

– «قل له أن يعود مرة أخرى؛ إنه على وشك الخروج فينبغي أن نمتطي خيولنا الآن.»

دار روستوف على أعقابه وهمَّ بالخروج عندما استوقفه الرجل الضخم سائلًا: «من أنت؟ والملتمس من طرف من؟»

– «إنه من طرف الماجور دينيسوف.»

– «وأنت من تكون؟ ضابط؟»

– «الملازم الكونت روستوف.»

– «يا للجرأة! أرسل الطلب عن طريق التسلسل. هيا، اذهب وأسرع، أسرع.» وارتدى ثوبه الذي جاء به الوصيف في تلك اللحظة.

عاد روستوف إلى الممشى فرأى عددًا كبيرًا من الجنرالات والضباط في ثياب الحفلات مجتمعين عند باب المسكن، فكان عليه أن يمرَّ بينهم، تحت أنوفهم.

لعن جرأته، وخارت عزائمه لمجرد التفكير في أنه سيُغمر بالخجل ويوقف ويسجن في حضرة الإمبراطور. أدرك سوء تصرفه في تلك اللحظة فراح يتسلل مطأطئ الرأس خارجًا من ذلك البيت الذي كان عدد من الأتباع المرموقين مُحدقين به، وفجأة استوقفته يد أحدهم. سمع صوتًا منخفض الطبقة خشنًا يقول له: «هه أيها الباسل! ماذا تعمل هنا وفي ألبسة مدنية؟»

عرف صاحب الصوت؛ كان قائد فيلقه القديم، وهو جنرال استطاع خلال الحملة الأخيرة أن يحظى بعطف الإمبراطور وتقديره. ارتبك روستوف لأول وهلة ارتباكًا شديدًا، وهم بتبرير موقفه أمام الجنرال، لكنه اطمأن عندما رأى أمارات الطيبة مرتسمة على وجه هذا الأخير، فانتحى به جانبًا وعرض عليه المسألة كلها، وتوسل إليه أن يتدخل لمصلحة

صديقه. وكان الجنرال يعرف دينيسوف حق المعرفة، فهزَّ رأسه بقلق وانشغال وقال: «إنها نهاية محزنة بالنسبة لهذا الباسل. أعطني الملتمس.»

لم يكد روستوف يسلمه الرسالة حتى علا قرع الماميز الدال على حركة الأقدام على السلم، فتركه الجنرال ليعود إلى مركزه، كان القادمون أفراد الحاشية وقد هرعوا إلى خيولهم يمتطونها. وجاء إينو، وهو نفسه الذي كان في أوسترليتز، يقود جواد الإمبراطور. ارتفع وقع خطوات خفيفة على السلم، فلم يجد روستوف عناء في معرفة صاحبها، نسي الخطر الذي ينتظره إذا اكتُشف أمره، فاقترب واختلط بين عدد من الفضوليين حتى وصل إلى الباب. استطاع أن يرى بعد فترة عامين طويلين تلك القسمات المعبودة، وتلك النظرة المعروفة والمشية إياها؛ ذلك المزيج من الجلال والدعة والحلم. استسلم مجددًا للحماس الذي كان يتسلط عليه من قبل. كان ألكسندر يرتدي سراويل بيضاء وينتعل أحذية الفرسان، وقد بدا في زي فيلق بريوبراجنسكي وعلى صدره وسام كان روستوف يجهل نوعه، وكان هو وسام جوقة الشرف. كان يُغيِّب يديه في قفازيه واضعًا قبعته ذات الزاويتين تحت إبطه. توقف على المدخل وألقى نظرة حوله؛ نظرة أضاءت كل ما حوله. توجه بحديثه إلى بعض الجنرالات، وتعرف على الفور على قائد فيلق روستوف السابق، فابتسم له وأشار إليه أن يقترب.

ابتعد كل أفراد الحاشية، فرأى روستوف ذلك الجنرال يتحدث فترة غير قصيرة مع الإمبراطور الذي أجابه ببعض كلمات، واقترب خطوة نحو جواده. ومن جديد اقترب الفريقان: فريق الحاشية، وفريق الفضوليين الذي كان روستوف في عدادهم. ولما وصل الإمبراطور إلى حيث كان جواده، وضع يده على السرج واستدار نحو الجنرال، وقال له بصوت مرتفع؛ ساعيًا ولا ريب أن يبلغ قوله مسامع المتجمهرين: «لا أستطيع يا جنرال؛ وذلك لأن القانون أرفع مني مقامًا.»

ووضع قدمه في الركاب فانحنى له الجنرال باحترام. امتطى الإمبراطور جواده ومضى هدبًا، وبلغ الحماس بروستوف مبلغ الهذيان فاندفع مع الجمهور في أعقاب ألكسندر.

الفصل الحادي والعشرون

منحة نابليون

في الساحة التي مضى إليها الإمبراطور، كان لواءان يقفان متقابلين؛ أولهما إلى اليمين لواء من فيلق بريوبراجنسكي، والثاني إلى اليسار لواء من الحرس المهاجم ذوي القلنسوات المصنوعة من الشعر.

وبينما كان ألكسندر يبلغ أحد الجانبين اللذين يمثلان كل أقسام أسلحة الجيش، كانت كوكبة من الفرسان تهدب نحو الجانب الآخر، عرف روستوف بغريزته أن السائر على رأس تلك الكوكبة الأخرى لم يكن إلا «نابليون»؛ إذ إنه لا يمكن أن يكون أحدًا غيره. كانت قبعته الصغيرة على رأسه، وعلى صدره وشاح سان آندريه فوق ثوبه الأزرق الغامق الذي كان يكشف عند العنق عن صدارة بيضاء، وكان ممتطيًا صهوة جواد عربي كريم رائع الجمال، وتُحلِّي ثوبه الرمادي النظيف لبادة حمراء موشاة بالذهب. فلما أصبح بمحاذاة ألكسندر رفع قبعته. استطاعت عين الفارس روستوف أن تستشفَّ، استنادًا إلى تلك الحركة الخرقاء، أن نابليون لم يكن خاليًا من الارتباك والانفعال. ارتفعت الهتافات من حناجر جنود الألوية: «هورا!» يعيش الإمبراطور! حدث نابليون ألكسندر بضع كلمات وترجل كلاهما وتصافحا. كان نابليون يبتسم ابتسامة باهتة منفرة. أما ألكسندر فقد توجه إليه يحدثه ببشاشة زائدة.

أخذ رجال الدرك الفرنسيين يحفظون النظام بين الجماهير رغم عدم استقرار جيادهم. راقب روستوف كل حركة من حركات الإمبراطورين، لكن ما زاده دهشة هو أن «ألكسندر» كان يعامل نابليون معاملة الند للند. أما بونابرت، فكان من جانبه يبدو وكأن علاقته وتآلفه مع ألكسندر أمر طبيعي جدًّا يرجع إلى زمن بعيد.

اقترب نابليون وألكسندر وأتباعهما المتعددون نحو لواء بريوبراجنسكي على الجانب الأيمن وهما يمشيان في خط مستقيم نحو الجموع المحتشدة، وبلغ من شدة اقتراب

الإمبراطورين وأتباعهما من المتجمهرين أن خشي روستوف — وكان في الصفوف الأولى — أن يُكتشَف أمرُه.

ارتفع صوت واضح حازم يبرز كل حرف من أحرف الكلمات بوضوح يقول: «يا صاحب الجلالة، لازاروف من بريوبرأطلب إليكم السماح بتقليد أشجع جندي من جنودكم وسام جوقة الشرف.»

كان بونابرت هو الذي يتحدث وهو ينظر في عيني ألكسندر نظرة صريحة من أعلى قامته القصيرة، فأصغى ألكسندر إلى كلماته بانتباهٍ كبير، وأيَّدها بهزة من رأسه، وابتسم بدعةٍ ملاطفًا. أردف نابليون محددًا غرضه وهو يقرع كل مقطع من مقاطع كلماته، بينما كانت عيناه تتصفحان صفوف الروسيين بهدوء واعتداد ثارت لهما نفس روستوف، في حين كان هؤلاء ساكنين يقدمون التحية بالسلاح وعيونهم شاخصة إلى إمبراطورهم وحده، إلى ذلك الذي تصرَّف بأكثر بسالة وشجاعة خلال هذه الحرب الأخيرة.

فقال ألكسندر: «هل تسمح لي جلالتكم باستشارة الكولونيل وأخذ رأيه؟» واتجه مسرعًا ببضع خطوات نحو الأمير كوزلوفسكي الذي كان آمر اللواء. وفي تلك اللحظة نزع بونابرت يده الصغيرة البيضاء من قفازها، فتمزق القفاز، فألقاه جانبًا، وهرع أحد أفراد الحاشية يلتقطه.

سأل ألكسندر بصوته المنخفض الأمير كوزلوفسكي: «لمن نعطي الوسام؟»

– «إلى ذلك الذي تتفضلون جلالتكم بانتقائه.»

قطب ألكسندر حاجبيه دلالة على عدم الرضا، وقال وهو يلقي نظرة إلى الوراء: «ينبغي إعطاؤه الجواب رغم ذلك.»

اعتزم كوزلوفسكي أمرًا، فطاف بالصفوف بنظرة بلغت مكان روستوف نفسه، حتى إن هذا غمغم يحدث نفسه: «أأكون أنا؟» ولم يلبث أن صاح بصوت شرس: «لازاريف!»

فتقدم الجندي الأول من الصف بخطوات عسكرية منسقة.

هتفت بعض الأصوات تُحدِّث ذلك الجندي الباسل الذي لم يكن يدري أين يمضي: «إلى أين تذهب؟ البث في مكانك!»

فتوقف لازاريف وهو يختلس نظرة مذعورة إلى وجه الكولونيل. كان وجهه متقلصًا بعصبية شأن كل جندي يُستدعى في عرض عسكري شامل.

التفت نابليون التفاتة خفيفة من رأسه، وحرَّك يده البيضاء السمينة وكأنه يتناول شيئًا، فهرع رجال الحاشية وقد أدركوا غرضه من تلك الحركة، وماجت صفوفهم وهمسوا شيئًا تناقلته الشفاه إلى الأذان، وعندئذ هرع تابع خاص — وهو الذي شاهده روستوف

بالأمس عند بوريس — إلى حيث وقف سيده، فانحنى أمامه باحترام ووضع في اليد الممدودة وسامًا ذا شريط أحمر، فضغط نابليون بإصبعيه على الوسام دون أن ينظر إليه أو إلى قدمه، واقترب من لازاريف الذي كان شاخص البصر إلى إمبراطوره بعينين جاحظتين فيهما عناد وإصرار، ثم ألقى نظرة على ألكسندر وكأنه يقول: «إن ما يعمله الآن إنما يعمله من أجل حليفه لا أكثر.» ارتفعت اليد البيضاء السمينة حاملة الوسام فاحتكت بثوب الجندي الروسي لازاريف. كان نابليون يعتقد بلا ريب أنه لكي يجعل هذا الجندي سعيدًا إلى الأبد، ولكي يجعل منه مخلوقًا مغرقًا بالرعاية والإحسان، خلافًا لكل مخلوقات العالم الأخرى، يكفي أن تتنازل يده؛ هو نابليون، بلمس صدره لمسًا؛ لذلك اكتفى بأن ضغط صليب الوسام على صدر لازاريف وسحب يده على الفور، والتفت إلى ألكسندر كما لو كان واثقًا من أن الصليب سيبقى عالقًا في مكانه هناك. والواقع أنه ظل في مكانه معلقًا على صدر الجندي، ذلك أن يدًا متلهفة فرنسية وروسية تناولت الوسام على الفور وثبتته على صدر الجندي المجدود.

كان لازاريف ينظر إلى الرجل القصير ذي اليدين البيضاوين الذي قام بتلك الحركة نظرة كئيبة، وهو مستمر في تقديم سلاحه بالتحية، ثم أشاح ببصره إلى ألكسندر وكأنه يسأل عما إذا كان يجب أن يبقى في مكانه، أو يبتعد، أو أن يعمل أي شيء آخر يُطلب إليه. ولما لم يتلقَّ أي أمر فقد ظل فترة طويلة منتصبًا في مكانه ذاك في وضعيته تلك لا يُبدِّلها.

اعتلى الإمبراطوران صهوتي جواديهما وابتعدا، فتفرقت صفوف لواء بريوبراجنسكي واختلط أفراده بجنود الحرس الفرنسيين الذين أقيمت الحفلة على شرفهم، وجلسوا إلى الموائد.

كان لازاريف يحتل مكان الشرف، وكان ضباط من الفرنسيين والروس يهنئونه ويعانقونه ويصافحونه بحرارة، وكان المدنيون والعسكريون على السواء يتدافعون ليحظوا بنظرة إلى وجهه. كانت الساحة كلها مدوية بأصداء الأحاديث والضحكات المرحة. مر ضابطان سعيدان هانئان تشرَّب وجهاهما بحمرة النشوة أمام روستوف. كان أحدهما يقول: «يا له من احتفال يا عزيزي! لقد أخرجوا الأطباق الفضية ونثروها على الموائد. هل رأيت لازاريف؟»

– «نعم.»

– «سوف يقيم لواء بريوبراجنسكي حفلة على شرف الفرنسيين غدًا على ما نُمي إليَّ.»

– «يا له من مجدود لازاريف هذا! تصور أنه نال بذلك مائتي فرنك جراية سنوية.»

وهتف أحد الجنود الروسيين في تلك اللحظة وهو يضع على رأسه قلنسوة أحد جنود الحرس: «انظروا إلى هذه القلنسوة يا أولاد! عاينوها!»

– «إنها جميلة جدًّا!»

وقال أحد ضباط بريوبراجنسكي لزميل له: «أتعرف كلمة السر؟ لقد كانت أول أمس: «نابليون، فرنسا، شجاعة»، وأمس: «ألكسندر، روسيا، عظمة». إن إمبراطورنا يعطي كلمة السر ثم يعطيها نابليون في اليوم التالي. سوف يعطي جلالته صليب سان جورج غدًا إلى أشجع جنود الحرس الفرنسيين. يستحيل بغير ذلك أن نعيد إليهم بادرتهم المهذبة.»

جاء بوريس وصديقه جيلنسكي يعاينان الوليمة بدورهما، وبينما هو يلتفت عفويًّا شاهد روستوف واقفًا عند زاوية أحد المنازل، قال له: «هه! مرحبًا يا روستوف، إننا لم نكد نقابل بعضنا.»

ولما رأى سحنته المكفهرة المنقلبة لم يتمالك من سؤاله عن السبب، فقال روستوف: «لا شيء، لا يوجد شيء.»

– «ألا تمر بي لتزورني؟»

– «كيف لا، بلى.»

لبث فترة طويلة واقفًا في زاويته يتأمَّل الحفل الصاخب، كان يشعر في أعماق نفسه بصراع عنيف لا يستطيع الوصول به إلى نتيجة مرضية. كانت شكوك مريعة تستولي على نفسه؛ فتارة يتذكر دينيسوف وتعابير وجهه غير المألوفة، وخضوعه غير المنتظر، فيرى ذلك في المستشفى القذر بمرضاه ورائحته التي تشبه رائحة جثث الموتى، فتلاحقه تلك الرائحة وتزكم خياشيمه حتى إنه كان يستدير ليرى مصدر تلك الرائحة القذرة الكريهة، وطورًا يتمثل بونابرت، ذلك الرجل الرضي ذي اليد البيضاء، الذي أصبح الآن معترَفًا به كإمبراطور، والذي كان ألكسندر يظهر حياله احترامًا وتوددًا. وإذن لمَ هؤلاء الموتى وأولئك الذين فقدوا أطرافهم؟ وكان أحيانًا يفكر في لازاريف والمكافأة التي منحت له، وفي دينيسوف وعقوبته التي لا يُنتظر الصفح عنها. لقد راودته أفكار غريبة جدًّا حتى إنه شعر بخوف منها.

أثارت رائحة الوليمة شهيته إلى الطعام وأخرجته من أحلامه، كان مضطرًّا إلى تناول بعض الطعام قبل أن يعود إلى كوكبته. مضى إلى فندق مرَّ به ذلك الصباح فوجد فيه جمعًا غفيرًا من الناس ومن الضباط في ثياب مدنية مثله، حتى إنه وجد صعوبة كثيرة في

الحصول على الطعام، انضم إليه ضابطان من فيلقه ودار الحديث حول الصلح بالطبع. كان أولئك السادة أُسوةً بعدد كبير من مؤيديهم في الجيش، يستنكرون ذلك الصلح بعد معركة فريدلاند، كانوا يزعمون أن الجيش الروسي لو قاوم مدة أخرى لقضي على نابليون، وأن جنوده لم تعد تملك ذخيرة وعتادًا ومئونة كافية. كان نيكولا يتناول طعامه ويكثر من الشراب دون أن ينبس ببنت شفة. ارتشف وحده زجاجتين من الخمر. كان لا يزال فريسة لذلك الصراع الداخلي المرير، يخشى الاستسلام لتفكيره وتأملاته دون أن يستطيع مع ذلك التخلص منها. وفجأة، وبعد أن قال أحد محدِّثيه: «إنه مخجل أن يرى المرء نفسه قبالة الفرنسيين.» تصاعد الدم إلى وجه روستوف وصاح بحرارة لم يكن يبررها ذلك القول؛ مما أثار دهشة المتكلم والضباط كلهم: «كيف يمكنك أن تعرف الأحسن؟ هل أنت الذي تحكم على تصرف الإمبراطور؟ من الذي يعطينا الحق في مناقشة ذلك؟ إننا لا نستطيع أن نعرف خططه وتصرفاته ولا أن نفهمها.»

فقال الضابط معترضًا وهو يعزي اندفاع صديقه وثورته الفجائية إلى عامل الخمر: «لكنني لم أتفوه بكلمة واحدة عن جلالته.»

غير أن روستوف لم يُلق بالًا إلى أقوال الضابط وبياناته، بل استمر يقول بأشد حماسة وأكثر اندفاعًا: «إننا لسنا سياسيين، بل جنودًا ليس إلا، فإذا أمرنا أن نموت فما علينا إلا أن نموت، وإذا عوقبنا فما ذلك إلا لأننا مذنبون. ليس من حقنا أن نناقش، وإذا راق لجلالته الاعتراف ببونابرت كإمبراطور وعقد حلف معه، فإن معنى ذلك أنه ضرورة واجبة، فإذا رحنا نتدخل في الأمور ونناقشها، كان معنى ذلك انعدام كل شيء مقدس.»

وازداد انفعالًا فضرب المائدة بقبضة يده وصاح متممًا: «وإلا فإن بإمكاننا أن نقول إذن بأن الله غير موجود، وأنه لا يوجد شيء في الدنيا! إن دورنا في الحياة هو القيام بواجبنا، والطعن بالسيف دون التفكير في شيء.»

كان واضحًا أن ذلك اللوم العنيف، رغم ما بدا عليه في نظر المستمعين من أنه في غير محله، يشغل ركنًا متينًا في سياق أفكار روستوف، فلما انتهى من حديثه بتلك الجملة؛ بادر أحد الضباط معقبًا لتلافي كل نزاع أو قيام مشادة غير مرغوب فيها: «وأن نشرب!»

فأيده نيكولا قائلًا: «نعم، وأن نشرب.»

وصاح بالنادل آمرًا: «هه! يا من هناك! زجاجة أخرى.»

الجزء الثالث

سبيرانسكي سكرتير الدولة.

الفصل الأول

سيدا العالم

انتقل الإمبراطور ألكسندر عام ١٨٠٨ إلى إيرفورت[١] حيث وقع له مع الإمبراطور نابليون مقابلة جليلة جديدة رائعة، ظلت حديث المنتديات الراقية في بيترسبورج زمنًا طويلًا.

وفي عام ١٨٠٩، بلغ تفاهم سيدي العالم — كما كانوا يسمونهما — ذروة المنتهى. كان نابليون في تلك السنة قد أعلن الحرب على النمسا، فتوجه جيش روسي عبر الحدود للتعاون مع العدو القديم بونابرت ضد الحليف القديم إمبراطور النمسا، بل إن هناك شائعة راجت في الأوساط الخاصة العليا حول توقُّع زواج نابليون بإحدى أخوات الإمبراطور ألكسندر. وإلى جانب كل هذه الأحداث في السياسة الخارجية، فإن التبديلات والتجديدات التي أُحدثت في كل أجزاء الجهاز الحكومي ظلت شغل المجتمعات الروسية الشاغل.

مع ذلك، فإن الحياة اليومية بكل خصائصها الجوهرية من صحة ومرض وعمل وبطالة، ومقوماتها الأخرى من أفكار وعلم وشعر وموسيقى وحب وصداقة وحقد ورغبات، ظلت تسير على نهجها السابق مستقلة كل الاستقلال، بعيدة كل البعد عن متناول التبديلات الجارية وتعاقُب علاقات الروسيين بنابليون.

دفن الأمير آندريه نفسه في الريف طيلة عامين كاملين.

استطاع أن يدخل كل الإصلاحات التي أدخلها بيير في ممتلكاته، والتي لم تصل إحداها إلى نهايتها المرضية عنده؛ لأنه كان يتنقل دون توقف من إحداها إلى الأخرى، دون

[١] إيرفورت: مدينة في مقاطعة الساكس على نهر جيرا، سكانها ١٦٥٦٠٠ نسمة. تقدمت فيها صناعات الأقمشة، والصناعات المعدنية الكهربائية، والكهربائية الكيماوية، وصناعة الآلات. تقابل فيها نابليون مع إمبراطور روسيا بحضور عدد كبير من ملوك أوروبا، وانتهت تلك المقابلة بمعاهدة في صالح فرنسا.

أن يبدو عليه شيء من العناء، أو أن يبدل رأيه إزاء أول معترض، ذلك أنه كان يمتلك ثباتًا عمليًّا وجزمًا قويًّا يستطيعان أن يُبلِّغانه ما يشتهي دون شديد عناء على عكس صاحبه بيير.

كان من أوائل الروسيين الذين سجلوا أسماء فلاحيهم العبيد في عداد «الزراع الأحرار» عندما منح هذه الصفة لثلاثمائة عبدٍ من فلاحيه في إحدى مقاطعاته. أما في أراضيه الأخرى، فقد استبدل أعمال السخرة بالأعمال المأجورة، أقام قابلة على نفقته في بوجوتشاروفو، وقسيسًا يتقاضى منه الأجر مهمته تعليم أولاد الفلاحين والخدم.

كان يمضي نصف وقته في ليسيا جوري مع أبيه وابنه — الذي كان لا يزال بين أيدي المربيات والخادمات — والنصف الآخر في صومعته في بوجوتشاروفو، كما كان يدعوها الأمير العجوز، وعلى الرغم مما أظهره من لا مبالاة حيال أحداث العالم أمام بيير، فإنه كان يتتبع كل الوقائع بانتباهٍ، ويستحصل على كتب عديدة، حتى إنه كان يلاحظ بمزيد الدهشة أثر عودته من زياراته لبيترسبورج — وهي محور حياة البلاد — أن أولئك السكان الأدعياء يعرفون عن سياق السياسة الداخلية والخارجية أقل مما يعرفه هو، رغم أنه ما كان يغادر مكانه في الريف. وكانت إدارة أملاكه ومطالعاته الكتب المختلفة متباينة المرامي والأهداف، لا تستنفد كل وقته، وبذلك كان يستغرق في معاينة حملتي الجيش الروسي معاينة الناقد المتجرد، بكل ما فيها من بؤس وتعاسة، ويضع أسسًا تنظيمية جديدة لقوانين روسيا العسكرية.

وفي ربيع عام ١٨٠٩، مضى آندريه لزيارة أملاكه في ريازان، وهي أملاك تخص ابنه الذي نصب نفسه بحقٍّ وصيًّا عليه. كان مستلقيًا في عربته معرضًا نفسه لإشعاعات شمس الربيع الحانية، يتأمل العشب الطري الجديد وأوراق السندر الأولى، والغيوم البيضاء الأولى التي كانت ترسم في زرقة السماء الصافية أشكالًا تشبه قطعان الغنم المتلاصقة. لم يكن يفكر في شيء معين، بل كانت نظراته تشمل كل شيء.

اجتاز الطوف الذي وقف عليه في العام الماضي يتحدث مع بيير، وتخطت عربته قرية حقيرة وعددًا من البيادر، ثم أكوامًا من قمح الشتاء في حشائشه، وانحدر على رابية حيث ظل على جوانبها طيف من ركام الثلج قرب جسر هناك لم يتبدد بعدُ، ثم تسلقت العربة مرتفعًا طينيًّا، وسارت على طول أكواخ متناثرة هنا وهناك تتخللها شجيرات مخضرة الأغصان، وأخيرًا دخلت في حرج من أشجار السندر. كان الجو في الغابة حارًّا تقريبًا، لا ترتفع فيها نسمة هواء، فكان السندر تزينه أوراق خضراء ندية جامدًا لا يتحرك،

ومن خلال بساط أوراق السنة الفائتة أطلت الأعشاب الجديدة الأولى مخضرة تحمل في رءوسها زهورًا بنفسجية صغيرة. وهنا وهناك قامت بعض أشجار هزيلة من الصنوبر خلال أشجار السندر، تذكر بأس الشتاء القاسي بزرقتها القاسية الدائمة، وثارت الخيول عند دخولها الغابة، وازداد تعرُّقها غزارة.

قال بيير، الوصيف العجوز، شيئًا للسائق الذي ردَّ عليه إيجابًا، فلم يكتفِ بذلك الجواب، بل استدار في مقعده، وقال لسيده وعلى شفتيه ابتسامة احترام: «كم الطقس جميل يا صاحب السعادة!»

– «ماذا تقول؟»

– «الطقس جميل يا صاحب السعادة!»

فكر الأمير في سره: «ماذا يقول هذا؟ آه! نعم، الربيع! صحيح، لعمري إن كل شيء قد أصبح مخضرًّا؛ السندر والقراصياء، وها هي أشجار الحور قد بسقت، ولكن ليس من شجر سنديان! آه! بل ها هي ذي واحدة.»

على جانب الطريق، انتصبت سنديانة عجوز، لا شك أنها تفوق في قدمها أشجار السندر بعشر مرات، فكانت لذلك أضخم منها بعشرة أضعاف، وأعلى منها ارتفاعًا بمثل هذه النسبة. كانت سنديانة ضخمة لا تحيط بها أربعة أذرع، ذات أغصان محطمة من عهد قديم، ولحاء متساقط مقعر، ممتلئة بالنتوءات والتصدعات. كانت أذرعها الرحبة المعقدة البشعة الممدودة في غير تناسق تغطيها، وهي في مكانها بين أشجار السندر الشابة مظهر حسن عجوز غاضب مكروه محتقر. كانت وحدها ترفض الاستسلام لفتنة العام الجديد، وتأبى رؤية الربيع والشمس.

كأن تلك السنديانة كانت تقول: «الربيع، الحب، السعادة! ألا تأنفون من هذا السخف الأبدي؟ ألا ترون أن كل هذا ليس إلا حماقة وسخفًا؟ لا يوجد لا ربيع ولا شمس ولا سعادة، انظروا إلى هذه الصنوبرات؛ إنها ميتة مختنقة، متشابهة دائمًا، وانظروا إليَّ أنا. لقد حاولت طاقتي أن أمدَّ أذرعي الملتوية المحطمة، فخرجت من ظهري وخاصرتي ومن كل مكان شاءت أن تخرج منه، بينما أنا هنا لا أستطيع حراكًا، فلست أومن بآمالكم وأكاذيبكم.»

ظل الأمير آندريه يلتفت من حين إلى آخر ليرمق السنديانة بنظرة، بينما كانت عربته تتوغل في طريق الغابة، كان يلتفت إليها وكأنه ينتظر وقوع شيء ما، كان في ظلها حقل امتزج فيه العشب بالأزاهير، بينما ظلت هي؛ هي الوحش الجبار، تنصب بعناد قامتها الهائلة الكئيبة الشرسة.

السنديانة العجوز.

فكر آندريه: «نعم، إن لهذه السنديانة الحق كل الحق.» كم من الآخرين، الشباب، يستسلمون لهذه المخاتلة! أما نحن فإننا نعرف كيف نتصرف. لقد انتهت حياتنا، انتهت تمامًا.»

أحدثت رؤية تلك الشجرة انبثاق أفكار جديدة، أفكار يائسة، ولكنْ ملؤها الفتنة المغمة، أخضع أسلوبه في الحياة خلال هذه الرحلة لدراسة عميقة مثمرة، انتهت به من جديد إلى هذه النتيجة المؤلمة، ولكن المسكِّنة؛ إنه لا ينبغي له الشروع في شيء جديد، بل إنهاء حياته بكل وداعة دون أن يسيء إلى أحد، أو يتطلع إلى شيء، ودون أن ينكد عيشه.

الفصل الثاني

آندريه وروستوف

اضطر آندريه لرؤية الكونت روستوف، رئيس نبلاء المقاطعة، لأعمال تتعلق بوصاية على أملاك ريازان. ذهب للقائه حوالي النصف من آيار، وهو بدء موسم القيظ. كانت الغابات قد اكتست حينذاك بالأوراق، وانبعث الغبار، واشتد الهجير حتى إن المرء لتتوق نفسه إلى الاستحمام في أول بركة ماء يمرُّ بها مهما بلغت ضآلة مياهها.

اخترق آندريه الممشى الرئيسي في حديقة «أوترادنواي»؛ بيت آل روستوف الصيفي، وهو عابس الوجه، مشغول الفكر؛ بسبب ألوف الأشياء التي كان عليه بحثها مع رئيس النبلاء، حينما تناهى إلى سمعه وقع أصوات جذلة آتية من ناحية اليمين، وخرجت زمرة من الفتيات من الدغل، وقطعت الطريق على العربة، تقودها سمراء ذات عينين سوداوين، رشيقة جدًّا، ترتدي ثوبًا من القماش الهندي الأصفر، وتعصب رأسها بمنديل أبيض أفلتت منه خصلات مشعثة من شعرها. هتفت الصبية بقول للأمير، لكنها نفرت هاربة، وهي تنفجر ضاحكة عندما تبينت أنها إزاء غريب لا تعرفه.

شعر الأمير آندريه فجأة ببعض الامتعاض. لقد كان الطقس شديد البهاء، والشمس عنيفة الحرارة، والعالم كله مبتهج جذل. وهذه البنية اللطيفة لا تعترف ولا تريد الاعتراف بوجوده هو، آندريه! لقد كانت راضية عن وجودها هي، خرقاء ولا شك، غير مبالية ومسرورة. أخذ يتساءل بإلحاح: «ما الذي يجعلها على مثل هذه الحالة من صفو المزاج؟ في أي شيء تفكر إذن؟ لا شك أن تفكيرها لا ينصرف إلى التماثيل الحربية، ولا إلى تأجير الأراضي لفلاحي ريازان، في أي شيء تفكر؟ وما الذي يجعلها سعيدة كل هذه السعادة؟!»

كان الكونت إيليا آندريئيفيتش يعيش بأوترادنواي عام ١٨٠٩ مثل الحياة التي كان يعيشها من قبل؛ أي إنه كان يشبع المقاطعة كلها تقريبًا بطرائد صيده وبالحفلات

والولائم والموسيقى، فكانت كل زيارة جديدة يقوم بها بعضهم لبيته تفتنه، وهكذا فقد استقبل الأمير آندريه استقبالًا ملؤه الحفاوة، واستبقاه لقضاء الليل عنده بما يشبه القسر.

لم يستطع آندريه النوم ذلك المساء بسرعة عندما أوى إلى تلك الحجرة المجهولة منه، التي جعلت مصاريع نوافذها الداخلية الحرارة فيها لا تطاق. لبث وحيدًا يطالع كتابًا ثم أنطفأت الشمعة، لكنه عاد فأضاءها مرغمًا وهو يشتم ذلك الأحمق العجوز — بذلك كان يسمى روستوف — الذي استبقاه بحجة أن الأوراق الضرورية لم تصل بعدُ من المدينة. أحسَّ بالنقمة على نفسه لأنه قبل الدعوة.

نهض ليفتح النافذة، ولم يكد يوارب مغاليقها حتى تسلل القمر إلى الغرفة وكأنه كان ينتظر هذه الإشارة منذ أمد طويل. فتحها على مصراعيها. كان الليل رطيبًا هادئًا مشعًّا، امتد قبالته تمامًا، صفًّا من الأشجار المشذبة، معتمة من جهة، ومضاءة بنور قوي من الجهة الأخرى، وتحت الأشجار ثوت من النبت الكثيف الندي الممتلئ بالرواء، برزت على سطحه هنا وهناك أوراق وسُوق فضية، ومن وراء الأشجار المعتمة يُشاهَد سقفٌ يلتمع بالندى، وأبعد منه إلى اليمين شجرة كبيرة كثيفة الأغصان ذات جذع وأغصان بيضاء ناصعة، ومن فوقها القمر بادرًا في سماء ربيعية مشرقة نادرة النجوم. اتكأ آندريه على النافذة وشخص بأبصاره إلى السماء.

كانت غرفته في الطبقة الأولى، وسكان الشقة التي في الطبقة العليا لم يأووا بعد إلى مضاجعهم، بدلالة الأصوات النسائية التي كانت منبعثة من فوقه.

سمع آندريه صوتًا عرفه من فوره يقول: «مرة أخرى، لا أكثر من مرة.»

فأجاب صوت آخر: «لقد حان وقت النوم هيا.»

– «كلا لن أنام، لا أستطيع، إنها ليست خطيئتي. هيا، مرة أخيرة.»

ورتل الصوتان جملة موسيقية كانت نهاية مقطوعة.

– «آه! كم هي جميلة! حسنًا، والآن انتهينا، فإلى النوم.»

– «نامي إذا شئتِ، أما أنا فلا أستطيع.»

ولا شك أن صاحبة الجملة الأخيرة اقتربت من النافذة، ولعلها كذلك أطلت منها وانحنت إلى الخارج؛ لأن حفيفَ ثوبها طرق أذن آندريه، حتى وصَوتَ تنفسها. بدا القمر وضياؤه والظلال وكل شيء غارقًا في الصمت، حتى آندريه نفسه بات يخاف أن يفضح وجوده حركة تصدر عنه.

هتف الصوت الأول: «سونيا، سونيا، يا للعجب! كيف يحلو النوم! انظري ما أبهى الجو! آه! كم هو جميل! لكن استيقظي، هيا.»

وأصبح الصوت متوسلًا وكأنه مشفع بالدموع: «لم يسبق قط أبدًا أن شوهدت ليلة بمثل هذا البهاء!»

غمغمت سونيا ببضع كلمات مبهمة.

«انظري قليلًا، يا للبدر! آه! كم هو رائع! تعالي هنا، تعالي انظري. حسنًا، ماذا ترتَئِين؟ إن هذا يهيب بالمرء أن ينطوي على نفسه هكذا، وأن يمسك بأسفل ركبتيه ويشد ويضغط بعنف شديد كأعنف ما يستطيع، وأن يُحلِّق ويطير. انظري، هكذا ...»

– «كفاك، هيا. سوف تسقطين.»

وسمعت جلبة تشبه العراك ثم صوت سونيا المتذمر يقول: «إن الساعة قد تجاوزت الواحدة.»

– «آه! إنك تفسدين بهجتي. حسنًا، اذهبي، اذهبي!»

واستغرق كل شيء في سبات من الصمت، لكن آندريه حدس أنها لا تزال هناك؛ لقد ظل يسمع الحفيف الخفيف والزفرات، وفجأة هتفت: «آه! رباه، رباه! ما معنى هذا؟ إلى النوم طالما يجب أن ننام!»

وأغلقت النافذة بجلبة.

فكر آندريه الذي انتظر عبثًا خشية أن تكون الفتاة تتحدث عنه: «إنها لا تعبأ بوجودي بكل تأكيد! ثم لماذا قُدِّر لي أن أراها من جديد تقتحم سبيلي؟ يمكن القول إنها بادرة مقصودة.»

تصاعد من أعماق قلبه إعصار مفاجئ من الأفكار والآمال الصبيانية التي تتنافى كليًّا مع واقع حياته، ولما لم يجد في نفسه القدرة على إيضاح الأمور نام لتوِّه.

الفصل الثالث

آراء آندريه

وفي اليوم التالي، استأذن الأمير آندريه من الكونت وعاد أدراجه دون أن ينتظر نزول السيدات إلى البهو.

عندما اخترق الأمير آندريه في طريق عودته إلى ليسيا جوري تلك الغابة من شجر السندر؛ حيث انتصبت تلك السنديانة العجوز الملتوية التي أوحت إليه ذلك الإحساس المفجع، كان شهر حزيران قد هلَّ. رددت جلجلة عربته في تلك الغابة صدًى مكتومًا أكثر مما ندعها قبل ستة أسابيع. أصبحت الظلال والأدغال المتشابكة في كل مكان حتى إن أشجار الصنوبر الفتية لم تتخلف عن البهجة العامة. لقد سننتها في ذلك الحين فروع نضيرة خضراء ملساء تشبه الزغب تتوافق مع بهاء المجموعة كلها.

وكان النهار خانقًا قائظًا ينبئ بتكون عاصفة صيف في مكان ما، وإن لم تكن في السماء إلا سحابة واحدة ذرفت دموعها على غبار الطريق، وعلى الأوراق المثقلة بالعصارات، فأوغل جانب الغابة الأيسر في الظل بينما التمع الجانب الأيمن بقطرات المطر التي عكست إشعاعات الشمس في ذلك الجو الساكن، وكان كل شيء مزدهرًا، والعنادل تشدو وتتناجى تارة قريبة، وأخرى بعيدة.

فكر آندريه: «هنا في هذه الغابة تقوم السنديانة التي كنت معها على وفاق متين، فأين هي الآن على الضبط؟» وبينما راحت عيناه تجوسان فيما حوله بافتتانٍ توقفتا عند شجرة لم يتعرف عليها بادئ الأمر. بدت السنديانة العجوز أشبه بهرم من الخضرة الغزيرة التي فقدت شعورها تحت ملق المغيب وملاطفته، وكأنها أبدلت خلقًا جديدًا، اختفت الأطراف الملتوية والتضاريس والأخاديد، ونسي التهجم واليأس الهرم. انبعث من قلافتها القاسية المعمرة أوراق فتية منتفخة بماء الحياة تدعو المرء إلى التساؤل: «كيف استطاعت تلك العجوز الفانية التمخض بمثل هذه الأجنة وبعثها إلى النور؟» قال آندريه

في نفسه: «نعم، إنها السنديانة إياها.» وشعر بنشاط فجائي وبحيوية جديدة، أخذت أفضل دقائق حياته تمرُّ متلاحقة في خاطره: «أوسترليتز بسمائها العميقة، ووجه زوجته المتوفاة المتسم بأمارات اللوم، وبيير على المعبر، والصبية التي أثارتها محاسن الليل، وتلك الليلة بالذات وسنا القمر؛ كل ذلك انبعث دفعة واحدة في خياله.»

قرر دون تردد: «كلا، إن الحياة لم تنته في الواحدة والثلاثين. لا يكفي أن أعرف ما أنا قادر على صنعه، بل يجب أن يعرفه كل الناس كذلك؛ من بيير إلى هذه الصبية التي أرادت أن تطير. يجب أن يعرفني كل الناس، وأن لا تسير أيامي من أجلي فحسب، وأن لا تكون حياة الآخرين مستقلة كل الاستقلال عن حياتي، وأن تنعكس حياتي في حياتهم، وأن تختلط حياتهم بحياتي.»

قرر آندريه حال وصوله أن يسافر في الخريف إلى بيترسبورج، وأن يضطلع فيها بأعباء عمل ما، وراحت ألوف الأسباب الطيبة والمبررات، بعضها أقوى حجة من بعض، تؤيِّد في نظره ذلك القرار. لقد كانت فكرة مغادرة الريف تبدو سخيفة في نظره قبل شهر. أما الآن فإنه لم يكن يفهم كيف استطاع تجاهل الحاجة في عيش حياة فعلية عملية. أخذ يرى أن كل التجارب التي حصل عليها في حياته ستذهب بددًا إذا لم يخرج نتائجها العملية إلى حيز الفعل، بل إنه لم يفهم كيف ارتكز من قبل على حجج بمثل هذا الافتقار إلى المنطق لإقناع نفسه بأنه إنما يسفُّ إذا ظل مؤمنًا في إمكانية انتفاع الآخرين به، وفي الغرف على السعادة والحب بعد الدروس القاسية التي مر بها في حياته. أما الآن فإن المنطق بات يُلقِّنه عكس ذلك تمامًا.

أصبح الريف يثقل عليه، وانشغالاته الأولى باتت لا تعنيه في شيء، وكثيرًا ما نهض خلال اعتزاله في مكتبه ليقترب من المرآة يعاين فيها وجهه فترة طويلة، ثم ينتقل بنظرته إلى صورة ليز، التي كانت تبسم له بوداعة في إطارها المذهب وقد ازدهى وجهها بخصلات الشعر المصففة على الطريقة اليونانية. لم تحدِّق فيه بمثل ذلك اللوم الرهيب الذي كان يقرؤه في عينيها من قبلُ، بل اكتفت بالابتسام له وعلى وجهها أمارات التطلُّع والتفكُّه، وإذا ما فرغ آندريه من النظر إليها عقد يديه وراء ظهره، وراح يذرع الغرفة مقطبًا حاجبيه تارة، ومبتسمًا تارة أخرى، مستعيدًا في ذهنه تلك الأفكار المختنقة المستعصية على التعبير، الخفية كالجريمة، والتي يمتزج فيها بغموض بيير والمجد والصبية قرب النافذة والسنديانة والجمال والحب، والتي غيرت وجوده تغيرًا كليًّا، فلو دخل عليه بعضهم خلال تلك الفترات، كان يتظاهر بالقسوة والجفاء والحزم، ويبدو منطقيًّا منفرًا، وإذا جاءت

أخته ماري مثلًا تقول له بسلامة طوية: «يا عزيزي، لا يمكن الخروج بنيكولا إلى النزهة اليوم؛ لأن الجو بارد جدًّا.»

يجيبها بخشونة: «لو كان الطقس حارًّا، فإنه يستطيع الخروج بالقميص. أما وإن الدنيا باردة؛ فدثريه بثياب دافئة. إنها صنعت خصيصًا من أجل ذلك، هكذا يجب أن تتصرفي عندما يكون الطقس باردًا، ولكن لا يجوز ترك طفل في البيت عندما يكون في حاجة إلى الهواء.»

كان يبدو بهذا المنطق المتوافر كأنه يريد الانتقام من بعضهم لكل هذا التفاعل الغريب المكتوم الذي يعتلج في سره.

وفي مثل تلك الحالات تُحدِّث أخته ماري نفسها قائلة: «إن الرجال لفرط التفكير يخشوشنون بشكل مفزع.»

الفصل الرابع

بولكونسكي وآراكتشييف

وصل الأمير آندريه إلى بيترسبورج في شهر آب (أغسطس) من عام ١٨٠٩، عندما كان سبيرانسكي الشاب في أوج مجده يقوم بإجراء تعديلاته بحيوية ونشاط كبيرين. جنحت عربة الإمبراطور في ذلك الشهر، وأصيب ألكسندر بالتواء في قدمه اضطره إلى الحلول في بيتيروف طيلة ثلاثة أسابيع. كان سبيرانسكي وحده يُستقبل يوميًّا من قبل العاهل، وفي هذه الفترة أنضجت إلى جانب المرسومين الإمبراطوريين الشهيرين، اللذين أثارا الرأي العام بشدة، المتعلقين بإلغاء رتب البلاط والفحوص الواجب اجتيازها للحصول على رتب الارتقاء في الكلية وفي مجلس الدولة الاستشاري، مجموعة قوانين كاملة تهدف إلى قلب النظام القضائي والإداري والمالي المعمول به حتى ذلك اليوم، اعتبارًا من مجلس الإمبراطورية وحتى أصغر السلطات الإقليمية، وفي تلك الفترة بالذات اتخذت أحلام الإمبراطور ألكسندر التحريرية المبهمة — التي كان يهدهدها في سره عندما اعتلى العرش، والتي حاول حينذاك تحقيقها بمساعدة معاونيه آل كزارتوريسكي ونوفوسيلتسوف وكوتشوبيئي وستروجونوف، الذين كان يسميهم مازحًا: مجلس الصيانة العامة — شكلًا واضحًا. لقد تنحَّى هؤلاء الآن عن مراكزهم لسبيرانسكي في القضايا المدنية ولـ «آراكتشييف» في القضايا العسكرية.

أظهر الأمير آندريه نفسه فور وصوله بوصفه من مرافقي الإمبراطور في البلاط، وعند مخارج الجناح الإمبراطوري ومداخله، ولقد لمحه الإمبراطور مرتين على طريقه فلم يتنازل بتشريفه بكلمة واحدة. وما كان آندريه أبدًا يشعر أنه موضوع نفور الإمبراطور، وأن وجهه وكل شخصه مكروهان من العاهل. وقد أيد هذا الزعم النظرة الجافة المُقصية

التي رماه بها ألكسندر، وفسر له أتباع الإمبراطور سبب ذلك البرود بأن اعتزاله الخدمة منذ عام ١٨٠٥ كان موضوع استياء الإمبراطور.

حدث الأمير نفسه قائلًا: «إنني أعرف تمامًا أننا لسنا سادة ميولنا ونفورنا، فلا يجب إذن أن أفكر في تقديم مذكرتي حول النظام العسكري الجديد إلى جلالته يدًا بيد، لكن الفكرة ستشق طريقها لوحدها.»

أبلغ مشروعه إلى ماريشال عجوز صديق لأبيه، فحدد له هذا الرجل الكبير موعدًا واستقبله ببشاشة واعدًا بالتحدث عن مشروعه إلى الإمبراطور، ولم تمض أيام قليلة حتى أخطر آندريه بوجوب المثول بين يدي الكونت آراكتشييف؛ وزير الحربية.

دخل الأمير آندريه قاعة استقبال الكونت آراكتشييف في الساعة التاسعة من صباح اليوم المحدد. لم يكن يعرفه من قبلُ كما لم يكن قد رآه أبدًا، بيد أن معلوماته عنه لم تكن وافية لتقديره حق قدره.

فكر آندريه وهو ينضم إلى عدد من الأشخاص المتفاوتين في الأهمية في بهو الانتظار: «إن وزير الحربية، وهو حائز على ثقة الإمبراطور، ليس لأحد إذن التشاغل في صفاته الشخصية. لقد أنيط به أمر فحص مذكرتي؛ فهو بالتالي الوحيد الذي يستطيع إحلال مشروعي موضع الاعتبار.»

ساعدت مراكز الأمير آندريه المختلفة، وبصورة خاصة وظيفته كمساعد عسكري، على التعرف على عديد من الأبهاء في قصور الشخصيات الكبيرة، وتمييز الصفات الخاصة لكل منها، لكنه وجد قاعة انتظار الكونت آراكتشييف ذات طابع خاص، وجد أن الأشخاص ذوي المراكز المتواضعة ينتظرون حلول دورهم في المقابلة بوجوهٍ يعلوها الخجل والارتباك، وأن من هم أرفع شأنًا يخفون ارتباكهم وراء ضروب من الانطلاق، متخذين السخرية وسيلة، وإن كانت تشمل أشخاصهم بقدر ما تتصل بالشخصية التي سيمثلون أمامها. كان بعضهم يذرع القاعة بقلق، والبعض الآخر يبتسم ويتهامس أفراده فيما بينهم، حتى إن آندريه سمع خلال أحاديثهم الخافتة لقب سيلا آندريئيفيتش[١] وعبارة: «سوف يغسل الرجل الطيب لك رأسك.» ورأى جنرالًا رفيع المركز والقدر يجلس عاقدًا ساقيه، وعلى شفتيه ابتسامة احتقار يخفي بها استياءه من انتظاره الطويل.

[١] ورد في النص الفرنسي تفسيرًا للتلاعب اللفظي في كلمة «سيلا» التي تعني «صامت» إذا كانت اسم علم، و«قوة» إذا كانت اسمًا عامًّا.

لكن ما إن فتح باب المكتب حتى عبَّرت الوجوه كلها عن إحساس واحد: الخوف. طلب الأمير آندريه إلى الموظف المختص أن يعلن عن وجوده مرة ثانية، لكنهم نظروا إليه في سخرية معلنين أن دوره سيحين، وبعد أن أُدخل عدد من الأشخاص إلى مكتب الوزير وخرجوا منه يشيعهم المساعد الملحق، أُدخل من الباب الرهيب ضابط جذب أنظار بولكونسكي بأمارات الفزع والخنوع المرتسمة على أساريره. طالت المقابلة بعض الوقت، وفجأة ارتفعت من وراء الباب أصداء صوت منفر، وخرج الضابط ممتقع الوجه، مرتعد الشفاه، فاخترق قاعة الانتظار وهو ممسك برأسه بين يديه.

جاء دور الأمير آندريه وهمس الموظف: «إلى اليمين قرب النافذة.»

دخل آندريه إلى مكتب بسيط منسق، وشاهد رجلًا في الأربعين من عمره فارع الجذع، طويل الرأس، ذا شعر قصير، وأخاديد عميقة، وأنف أحمر محدودب، وحاجبين مَزْويَّينِ فوق عينين ملونتين تبدو نظرتهما مطفأة، جالسًا وراء المكتب.

التفت آراكتشييف نحوه دون أن ينظر إليه وقال: «ماذا تسأل؟»

فأجاب آندريه بهدوء عميق: «لست أسأل شيئًا يا صاحب السعادة.»

استدارت عينا آراكتشييف نحوه: «خذ مقعدًا. الأمير بولكونسكي؛ أليس كذلك؟»

– «لست أسأل شيئًا، لكن جلالته تفضَّل وأحال المذكرة التي رفعتها إليه سعادتكم.»

قاطعه آراكتشييف بلهجة بدأت متوددة، ثم أصبحت زاجرة، ثم أصبحت مشمئزة: «كما ترى يا عزيزي العزيز، لقد قرأت مذكرتك. إنك تعرض فيها نظمًا عسكرية جديدة؟ إن لدينا عددًا وفيرًا من النُّظم القديمة، تبلغ من الوفرة استحالة تطبيقها. واليوم يضع كل الناس مشاريع قوانين على الورق. إن الكتابة أسهل من التنفيذ.»

استأنف الأمير آندريه بلهجة مهذبة: «لقد جئت بناء على أمر جلالته لأُطلع من سعادتكم على النتيجة التي أعطيت لمذكرتي.»

قال آراكتشييف: «لقد بيَّنت رأيي على المذكرة نفسها وأحَلْتها إلى اللجنة.»

ثم نهض من وراء مكتبه وأخذ ورقة كانت أمامه وأضاف: «ها هي ذي!»

مد يده بالورقة إلى آندريه، فإذا بها تحمل السطور التالية المكتوبة دون مراعاة لاستقامة السطر، وقواعد الإملاء والتنقيط، وأحرف البدء: «غير منظم جديًّا، وعلى الرغم من أنه منقول عن النظام العسكري الفرنسي إلا أنه يختلف دون ما سبب عن المعمول به.»

سأل الأمير: «وإلى أية لجنة أحيلت مذكرتي؟»

– «إلى لجنة النظام العسكري، وقد رشحت نبالتكم لتكونوا عضوًا فيه، ولكن دون مرتب.»

فقال آندريه باسمًا: «لست أطلب مرتبًا قط.»

كرر آراكتشييف: «دون مرتب. لقد حصل لي الشرف.»

ثم صاح بعد أن صرف الأمير آندريه: «هه، التالي! من بقي هنا؟»

الفصل الخامس

سبيرانسكي العظيم

بانتظار تسميته عضوًا في اللجنة، عاد الأمير آندريه يوثِّق عُرى الصداقة مع معارفه القدماء، وخصوصًا ذوي السلطان منهم القادرين على إزجائه عونًا ونفعًا. سيطر عليه تطلع جامح غامض يشبه التطلُّع الذي أحس بمثله في أمسيات المعارك من قبلُ. أخذ يجذبه الآن نحو الأجواء العليا؛ حيث يُبحث مستقبل ملايين الرجال. استدل من غضبة المسنين من الرجال، وفضول المستهترين، وتحفظ العارفين الملمين بالأمور وانشغالهم، وكثرة اللجان والمجالس التي أخذ عددها يتزايد كل يوم، على أن معركة داخلية كبرى يرأسها ويقودها ذلك الشخص الغامض، سبيرانسكي، الذي كان يعزو إليه دون أن يعرفه كل صفات العبقرية، تُهيَّأ في ذلك العام نفسه. ولم تلبث مسألة الإصلاحات الكبرى، التي لم تكن لديه عنها إلا معلومات مبهمة، وصانعها الرئيس سبيرانسكي، أن استهوته لدرجة باتت معها أهمية النظام العسكري وغايته تشغل المرتبة التالية في مدرج تفكيره وانشغاله.

كان آندريه في مركز طيب يساعده على تلقي حفاوات قلبية في زياراته لمختلف المجتمعات الراقية في بيترسبورج؛ فحزب الإصلاحات كان يسلفه الاحترام؛ أولًا: لِمَا عرف عنه من ذكاء متقد وثقافة عالية، ولما اكتسبه إثر تحريره عبيده من شهرة في ميدان السخاء، وحزب الشيوخ المتذمرين الذي يفترض أن أفكار آندريه تتفق مع أفكار أبيه، كان يجد فيه حليفًا له. أما النساء، وبعبارة أصح «المجتمع»، فقد كن يحتفين به على اعتباره زوجًا منشودًا غنيًّا ونبيلًا، ويعتبرنه وجهًا جديدًا تمام الجِدَّة تحدق به هالة مغامرة موته المزعوم الخيالية، ونهاية زوجه المفجعة. أضف إلى ذلك أن كل من عرفنه من قبل بادرن إلى الاعتراف بصوت واحد بأنه تبدل تبدلًا كبيرًا في صالحه خلال الأعوام الخمسة المنصرمة؛ لانت عريكته، وتوطدت آراؤه، وحل الهدوء والتعديل اللذين يكتسبا

مع الزمن محل الصلف والتصنع والهجاء. بات حديثه يشغل الأوساط، والناس يهتمون به ويبحثون عنه.

وفي اليوم التالي لزيارته لآراكتشييف، قصد منزله الكونت كوتشوبيئي لقضاء السهرة، وحدثه بمقابلته مع «سيلا آندريئيفيتش»، وكان كوتشوبيئي هو الآخر يطلق هذا اللقب على الوزير كلي النفوذ مشفوعًا بذلك التنويه الغامض الساخر، الذي أظهره الملتمسون في قاعة الانتظار.

– «يا عزيزي، لا غنى لك عن ميخائيل ميخائيلوفيتش حتى في قضيتك. إنه الصانع الأكبر. سوف أحدثه بالأمر. يجب أن يحضر هذا المساء.»

سأل آندريه: «ولكن ما علاقة القوانين العسكرية بسبيرانسكي؟»

بدا كأن سذاجة بولكونسكي قد أذهلت كوتشوبيئي وأدهشته، فابتسم وهز برأسه ثم استطرد: «لقد تحدثنا عنك في الأيام الأخيرة وعن مزارعيك الأحرار.»

وسأل عجوز من عصر كاتيرين وهو يلتفت نحو بولكونسكي في شيء من الازدراء: «آه! هذا أنت إذن أيها الأمير الذي حررت فلاحيك؟»

فقال بولكونسكي وهو يهدف إلى تخفيف حدة هذا الكهل وتهوين فعلته في نظره بدلًا من استثارته، دون جدوى: «لقد كانت قطعة أرض لا تغل شيئًا مذكورًا.»

استطرد ذلك العجوز وهو يلقي نظرة إلى كوتشوبيئي: «كنت تخشى أن تصل متأخرًا. هناك مسألة لا أستطيع فهمها: من الذي سيحرث الأرض إذا نحن أعطينا الفلاحين حريتهم؟ إن وضع القوانين ليس عملًا شاقًّا، ولكن الإدارة شيء آخر. خذ سؤالًا آخر: من أين يأتون برؤساء للألوية إذا كان كل واحد مرغمًا على اجتياز فحص؟»

فأجاب كوتشوبيئي وهو يعقد ساقيه ويسرح الطرف حوله: «من عداد الذين يتقدمون لاجتياز الفحوص على ما أعتقد!»

– «على هذا، فإن في مكاتبي رجلًا ممتازًا اسمه بريانيتشنيكوف، وهو إنسان ثمين، ولكن في الستين من عمره، فهل يجب عليه كذلك اجتياز فحوص؟»

– «لا شك أنها صعوبة، خصوصًا أن الثقافة غير منتشرة بكثرة، ولكن ...»

لم يكمل كوتشوبيئي جملته، بل نهض وأخذ آندريه من ذراعه، ومضى يستقبل ضيفًا جديدًا طويل القامة، أشقر، أصلع، في الأربعين من العمر، عريض الجبهة، مستطيل الوجه، ناصع البياض بشكل غريب. كان الزائر مرتديًا ثوبًا رسميًّا «فراك» أزرق تزينه شارة على الجانب الأيسر، ويتدلى من عنقه وسام آخر، ذاك كان سبيرانسكي. حدس

الأمير آندريه ذلك من فوره، وشعر بذلك الاضطراب الداخلي الذي يعتري المرء في اللحظات الرهيبة الجليلة من حياته. هل كان مبعث ذلك الشعورِ الاحترامَ أو الحسد أو الفضول؟ ذلك ما لم يكن يستطيع تبيانه، كانت شخصية سبيرانسكي كلها تبرز طابعًا بديعيًّا ينمُّ عنه لفوره ويدل عليه. لم يجد آندريه لدى كل من اختلط بهم من الشخصيات أكثر من هدوء سبيرانسكي وثقته بنفسه المتوفرين إلى جانب الحزق في الحركات، كما لم يجد في أحَدٍ قط مثل تلك النظرة الحية الأنيسة تنبعث من عينين نصف مغمضتين وكأنهما غارقتين، ومثل ذلك الحزم في ابتسامة جوفاء، أو ذلك الصوت الدقيق المتناسق، ولا مثل ذلك البياض الناصع النضير في الوجه، وتينك اليدين العريضتين بعض الشيء، ولكن الناعمتين السمينتين. إن مثل تلك النعومة في الجلد وذلك البياض الناصع في الوجه لم يجدهما آندريه إلا عند الجنود الخارجين من المشافي بعد إقامة طويلة فيها، كذلك كان سبيرانسكي؛ سكرتير الدولة ومشير الإمبراطور ورفيقه في إيرفورت؛ حيث تحدث أكثر من مرة هناك مع نابليون.

لم تكن نظرة سبيرانسكي تنطلق من رجل إلى آخر كما هي عادة المرء إثر دخوله مكانًا حافلًا بالناس، ولم يكن كذلك يتعجل الحديث، وكان صوته الهادئ ينمُّ عن ثقته العظيمة في أن محدثه يصغي إليه، وما كان ينظر إلى الشخص الذي يخاطبه.

راح الأمير آندريه يسجل في ذاكرته بعناية خاصة كل كلمة وحركة تصدر عن سبيرانسكي، وككثير من الناس، وبصورة خاصة أولئك الذين ألفوا الحكم بصرامة على الآخرين، كان الأمير آندريه عند التقائه بشخصية جديدة، وخصوصًا إذا كان لا يعرف صاحبها إلا عن طريق شهرته، يتوقع دائمًا أن يكتشف فيه موجزًا لكل الفضائل الإنسانية.

قال سبيرانسكي لكوتشوبيئي: «إنه يأسف لتأخُّره بسبب استبقائه في القصر.» سجل آندريه كذلك ذلك التواضع المصطنع. وعندما قدم كوتشوبيئي الأمير إليه، وجَّه سبيرانسكي أنظاره إليه ببطء مشفوعة بتلك الابتسامة بالذات، ونظر إليه لحظة في صمت. أخيرًا قال: «يَفْتنِّي أن أتعرف عليك؛ لقد سمعتهم يتحدثون عنك كما سمع كل الناس بالطبع.»

ولما ألمح كوتشوبيئي إلى الاستقبال الذي تلقى به آراكتشييف الأمير آندريه، اتسعت ابتسامة سبيرانسكي، وقال وهو يبرز كل مقطع في كلماته: «إن السيد مانيتسكي — رئيس لجنة القوانين العسكرية — من أصدقائي الطيبين. إنني أستطيع إذا رغبت أن أقابلك به.»

ثم توقف برهة وأردف: «سوف تصادف لديه — على ما أرجو — انجذابًا ورغبة في إخراج كل فكرة معقولة إلى حيز الوجود.»

تشكلت دائرة حول سبيرانسكي وطرح البوروقراطي العجوز الذي أطرى رجله بريانيتشنيكوف سؤالًا هو الآخر.

راح آندريه يراقب كل حركات ذلك الرجل الذي كان بالأمس تلميذًا مغمورًا من طلبة اللاهوت، وأضحى اليوم يمسك بين يديه البضتين السمينتين كل مستقبل الروسيا دون أن يشترك في الحديث، أعجب بالطلاقة المحتقرة التي أجاب بها سبيرانسكي على سؤال العجوز. بدت كلمته المراعية وكأنها سقطت من علوٍّ لا تُدرك رفعته. أعلن البوروقراطي وهو يرفع صوته قليلًا ويبتسم أنه ليس الحاكم على المحاسن والمحاذير التي تترتب على قرارات جلالته.

لبث سبيرانسكي فترة ثم اخترق الحلقة وفضَّها، ومضى إلى الأمير آندريه واصطحبه إلى الجانب الآخر من البهو. قدَّر ولا شك أن الاهتمام بالأمير آندريه ضروري، قال له: «لم تسمح لي المحادثة الحامية التي ساقتني إليها ذلك الكهل بالتحدُّث إليك أيها الأمير!»

أشفع قوله بابتسامة تدلُّ على احتقار ضمني، أراد بها إفهام الأمير أنهما معًا يعرفان كيف يُقدِّران مثل تلك المحادثة التافهة، فأثَّر هذا الإطراء بالأمير آندريه، بينما استرسل سبيرانسكي: «إنني أعرفك منذ أمد: اعرف أولًا تصرفك حيال فلاحيك، وهو مثال أول نود لو يحتذي به كثير من الآخرين، وبعدُ فإنك من المرافقين القلائل الذين لم يعتبروا القانون الجديد بمثابة إهانة لهم رغم الاستقبال السيئ الذي قوبل به هذا القانون من كافة المتصلين بالبلاط على اختلاف مناصبهم.»

قال الأمير آندريه: «نعم، إن أبي لم يرض أن أستغل هذا الحق وأفيد منه؛ لذلك فقد تتبعت السبل الرسمية.»

– «لا شك أن السيد أباك رغم انتمائه إلى القرن الماضي أرفع بكثير من معاصريه الذين ينتقدون تدبيرًا عادلًا جدًّا، خصوصًا وأنه يرفع ظلامة صارخة.»

أجاب بولكونسكي وهو يقاوم التأثير الذي أخذ سبيرانسكي يحدثه فيه: «الحق يقال إنني لا أعتقد أن كل الانتقادات لا ترتكز على أسس معينة.»

أزعجه أن يؤيده في شيء فأراد أن يناقضه، لكنه أخذ يعبر عن آرائه في شيء من الارتباك وهو الذي اعتاد على استعمال عبارات واضحة، والإفصاح عن آرائه بطلاقة ويُسرٍ. لقد كان شديد الانهماك آنئذ في مراقبة شخصية ذلك الرجل الشهير ودراستها.

اعترض سبيرانسكي بهدوء: «إن الأساس الوحيد لانتقادهم ليس إلا الكرامة فحسب.»

فأضاف الأمير آندريه: «ومصلحة الدولة أيضًا.»

أخفض سبيرانسكي عينيه وسأل: «وكيف تفسر ذلك؟»

أجاب آندريه: «إنني من المعجبين بمونتيسكيو.»[1] إن نظريته القائلة أن مبدأ الملكية هو الشرف تبدو لي أرفع من كل نقاش، ويخيل إليَّ أن بعض الحقوق والامتيازات المعطاة للنبلاء إن هي إلا وسائل لدعم هذا التفكير.

اختفت الابتسامة من الوجه الشاحب فازدادت هيئة سبيرانسكي ملاحة، ولا شك أن الفكرة التي عرضها الأمير منذ حين بدت له جديرة بالاهتمام. شرع يقول بهدوء لا يتزعزع، رغم ما اعترى أسلوبه في التعبير عن أفكاره باللغة الفرنسية من ارتباك واضح، جعله أكثر تمهلًا في حديثه مما كان عليه عندما كان يتحدث بالروسية: «إذا كنت تنظر إلى الأمر من الزاوية ...»

وراح يشرح بحجج بسيطة موجزة وواضحة أن الشرف لا يمكن أن يُدعم بامتيازات تضر بسير الأمور المفيدة. إن الشرف ليس إلا الدراية السلبية للامتناع عن الأفعال الموجبة للزَّجْر، أو بعبارة أخرى: حافز معين يحثنا على الحصول على الاستحسان أو على المكافآت التي هي دليل عليه، وخير ترتيب وضع في هذا الصدد كان ما وضعه الإمبراطور الأكبر نابليون، وأعني وسام جوقة الشرف. إن هذا الوسام أبعد ما يكون عن الإضرار بصالح الخدمة، لكنه يعاون فيها دون أن يشكل في حد ذاته امتيازًا كبيرًا لحامله في طائفته أو في البلاط.

أجاب آندريه على البديهة: «إنني لا أعترض على ذلك، لكن امتيازات البلاط تهدف كذلك إلى مثل هذه الغاية، وهو ولا شك فيه؛ إذ إن كل فرد من البطانة يعتبر نفسه شبه ملزم باحتلال مركزه بجدارة.»

فقال سبيرانسكي وهو يبتسم ابتسامة من يريد إنهاء ذلك السجال الذي بدأ يُربك مخاطبه بعبارة لطيفة: «مع ذلك لم تشأ الإفادة من هذا الامتياز يا أمير.»

وأضاف: «شرِّفني بزيارة يوم الأربعاء، وسأكون قد التقيت بمانييتسكي خلال هذا الوقت، فأنقل إليك عند لقائنا أمورًا مهمة، ثم إنني سأتمتع بالتحدث معك لفترة طويلة.»

ثم أغمض عينيه وحيا واختفى على الطريقة الفرنسية دون أن يستأذن من مُصغيه.

---

[1] شارل دوسو كوندا؛ بارون دومونتيسكيو: مشرِّع فرنسي شهير وُلد في قصر لابريد (مقاطعة الجيروند) عام ١٦٨٩، وتوفي عام ١٧٥٥، وكان أول من وضع مبدأ فصل السلطات في الدولة، ولعله كان أبعد الناس نظرًا وأكثرهم فيضًا في النتائج العملية بين كل المبشرين بالثورة الفرنسية. له مؤلفات عديدة: «الرسائل الفارسية»، «عظمة الرومان وسقطتهم»، «روح القوانين» ... إلخ.

الفصل السادس

مهمة بولكونسكي

لاحظ الأمير آندريه خلال الأيام الأولى من إقامته في بيترسبورج أن ألف شاغل صغير يعزل في الظل مجموعة أفكاره، التي نضجت في ذهنه خلال حياة الوحدة التي عاشها.

كان كلما عاد إلى مسكنه مساء سجَّل في مذكرته أربعًا أو خمس زيارات أو مواعيد ضرورية محددة بالساعة كذا أو كذا. وكان ترتيب حياته على شكل يجعله موجودًا في كل مكان في الوقت المحدد، يتطلب منه صرف حيوية كبيرة؛ لذلك لم يكن يعمل شيئًا ولا يفكر في شيء. لم يكن وقته يكفي إلا للخطابة وإذاعة الآراء التي كوَّنها لنفسه خلال عزلته في الريف، بنجاح مرموق. كان يلاحظ أحيانًا باغتمامٍ أنه كرر في يوم واحد أشياء بعينها في أوساط مختلفة، لكن أوقاته كانت مشغولة كلها، حتى إنه ما كان يجد فسحة من الوقت ليقول إنه لم يعد يفكر في شيء.

وكما وقع له عند كوتشوبيئي، أحدث سبيرانسكي على بولكونسكي تأثيرًا قويًّا عندما استقبله يوم الأربعاء واختلى به وقتًا طويلًا أمضياه في حديث مطمئن.

كان آندريه يعتبر كثيرًا من الناس عاجزين أو محتقرين، وكانت به رغبة عنيفة في العثور عند الآخرين على المثال الحي للكمال العقلي والأخلاقي الذي يصبو إليه، حتى إنه وجد نفسه على استعداد للتعرُّف على ذلك الكمال في شخص سبيرانسكي، فلو أن رجل الدولة ذاك كان من الوسط الذي نشأ آندريه فيه، أو على مثل ثقافته وتكوينه الخلقي، لاستطاع آندريه بسرعة اكتشاف نقائصه الإنسانية ومعايبه، لكن ذلك الفكر المنطقي كان يوحي إليه مزيدًا من الاحترام لم يكن مستطيعًا الإحاطة بكل فيضه. أضف إلى ذلك أن سبيرانسكي وإن كان يقدر كفاءات آندريه، ويجد ضرورة في اجتذابه إلى صفه؛ كان في حضرته يكشف عن كل ما للتفكير الهادئ من مصادر منزهة عن التحيز لوجهة دون أخرى، ويتملقه بذلك الإطراء الدقيق الممزوج بالزهو، الذي يقوم على أساس الاعتراف

ضمنيًّا بأنه ومحدثه وحدهما قادران على تفهم كل سخافات الآخرين، والحكمة العميقة الكامنة في أفكارهما وحدهما.

استعمل سبيرانسكي أكثر من مرة خلال حديثهما المطول الذي دار بينهما مساء الأربعاء عبارات من هذا النوع: «إننا «نحن» نعتبر أن كل ما يتجاوز مستوى العادات المتأصلة ...» أو وهو يبتسم: «ولكننا «نحن أولاء» نريد أن تشبع الذئاب دون إضرار كبير بالغنم ...» أو أيضًا: «إنهم لا يستطيعون فهم ذلك ...» وتنبئ لهجته أثناء ذلك: إننا «نحن»؛ أنت وأنا، نعرف تمامًا ما هي قيمتهم «هم»، وما هي قيمتنا «نحن».

مكنت هذه المقابلة الطويلة في نفس آندريه إحساسه الأول؛ كان يرى في سبيرانسكي منطقيًّا عميقًا، ومفكرًا كبيرًا اكتسب السلطة بقوة حيويته ونشاطه، ولم يتصرف بها إلا لصالح روسيا. لقد كان سبيرانسكي بالدقة الرجل الذي ودَّ لو كانه؛ ذلك الرجل الذي يلقي في غربال الفكر بكل بيانات الحياة، ولا يعترف على أهمية بيِّنة منها إلا إذا اجتازت ذلك الاختيار. بدا له كل ما في آراء سبيرانسكي وعروضه من البساطة وشدة الوضوح، حتى إنه وجد نفسه يوافقه في كل شيء بديهيًّا. أما إذا كان قد أثار بعض الاعتراضات، فما ذلك إلا للبرهنة على استقلال الفكر وعدم الاستسلام دون بعض المقاومة. مع ذلك؛ فقد ظل أمر واحد يقلق آندريه؛ تلك النظرة الباردة عديمة الحساسية كالمرآة التي لا تسمح بالتغلغل إلى الروح، وتانك اليدان البضتان السمينتان اللتان كان ينظر إليهما رغمًا عنه كما يفعل المرء عادة عندما يكون في حضرة رجل متسنم السلطة؛ فالنظرة الشبيهة بانعكاسات المرآة، واليدان الناعمتان نعومة غريبة كانتا تزعجان بولكونسكي، كذلك كان يغيظه فيه الاحتقار المتناهي للرجال الذي كان سبيرانسكي يفضحه، والتنوع الكبير في الحجج التي يلجأ إليها لدعم آرائه وتأييدها. لقد كان يستعمل كل أنواع البرهنة باستثناء المقارنة، وينتقل بمزيد من الجرأة من أحدها إلى الآخر برضى بولكونسكي، فتارة يطرق الحقل العملي فيذم الحالمين، وأخرى يعمد إلى السخرية ويمطر خصومه بوابل من التجريح، أو يرتقي من أضيق مناحي المنطق إلى علم النظريات «الميتافيزيك» الأكثر ارتباطًا بالفكر المجرد. وكان هذا الأسلوب الأخير في البرهنة سلاحه المفضل؛ إذ ينقل المسألة إلى الأجواء الميتافيزيكية العليا، معطيًا تفسيرات للفضاء والفكر؛ ليخلص منها تفنيدًا ثم يعود من جديد إلى بساط المناقشة.

على العموم، كان إيمانه الثابت في سلطة الفكر وحقوقه هو البادرة الرئيسية في ذكاء سبيرانسكي، التي كان لها تأثير شديد في نفس آندريه، وبالطبع فإن الشكوك المألوفة

عند بولكونسكي لم تمس قط سبيرانسكي. إنه لم يقل مرة واحدة أن الإفصاح عن كل ما يفكر به المرء غير مجدٍ، ولم يشك قط في أسس أفكاره ومعتقداته أو يبحث في قوامهما. ومن هنا كان سر افتتان بولكونسكي به.

أحس آندريه بإعجاب وشغف يشبه ما أحس به من قبلُ حيال بونابرت إزاء هذا الرجل منذ اللحظات الأولى. أما واقع انتماء سبيرانسكي إلى أسرة كنائسية؛ الأمر الذي سهل على الحمقى إيجاد نعوت مختلفة له ﻛ «نسل خوري فاسد» أو «جريذ»، فإن هذا الواقع، رغم ما أتاحه لآندريه من أسباب لتخفيف حدَّة حماسه، كان يزيد في ذلك الحماس عفويًّا.

طرقا خلال خلوتهما الأولى موضوع اللجنة التشريعية، فشرع سبيرانسكي للأمير أن تلك اللجنة موجودة بالفعل منذ مائة وخمسين عامًا، وأنها كلفت الدولة الملايين دون أن تعمل شيئًا؛ لأن روزانكانف اقتصر في عمله على إلصاق عينان على كل مواد التشاريع المقارنة، قال: «ومن أجل هذه النتيجة الجميلة أنفقت الدولة الملايين! إننا نزعم إعطاء مجلس الشيوخ سلطة قضائية جديدة بينما لا قوانين لدينا! إنك ترى أيها الأمير أن الانزواء بالنسبة إلى أشخاص مثلك يعتبر خطيئة.»

اعترض الأمير آندريه بأن هذا النوع من النشاط يقتضي استعدادًا فقهيًّا لا يملكه.

– «لكن أحدًا لا يملك مثل هذا الاستعداد، فماذا يجب أن نصنع إذن؟ إننا في دائرة فاسدة لا يمكن الخروج منها إلا بتحطيمها.»

وبعد ثمانية أيام، سُمي آندريه عضوًا في لجنة النظام العسكري، و(لدهشته البالغة) رئيسًا للجنة فرعية في المجلس التشريعي، فوافق نزولًا عند إلحاح سبيرانسكي على إعداد الجزء الأول من القانون المدني، وعمل في موضوع حقوق الإنسان، بالرجوع إلى قوانين نابليون وجوستينيان.

الفصل السابع

في المحفل الماسوني

قبل عامين؛ أي في سنة ١٨٠٨، عندما عاد بيير من جولته الطويلة في أملاكه، وجد نفسه دون أن يتوقع على رأس الماسونية في بيترسبورج. أخذ ينظم مختلف المحافل، ويقبل الأعضاء الجدد، ويهتم بتوحيد مختلف المحافل والشرائع المتعلقة بها، ويبني بماله الخاص الهياكل الجديدة، ويتمم — في حدود إمكانياته — حصيلة التبرعات التي كان معظم الإخوان يظهرون حيالها بخلًا وتمهلًا، وأصبح يُشرف وحده تقريبًا على بيت الفقراء الذي أسسته الهيئة الماسونية في بيترسبورج.

وفيما عدا ذلك كانت حياته تسير على نهجها السابق من الفوضى وتنقل الفؤاد: ما زال يحب الطعام الجيد والشراب الطيب، لا يستطيع الامتناع عن المساهمة في فجور الأعزاب الذين كان يضمهم في بيئته، رغم اعتباره تلك الأمور مُخزية ومنافية للأخلاق.

انتهى الأمير بيير بعد عام، رغم دوامة مسراته ومشاغله، إلى الشعور بأن بساط الماسونية الذي استقام فوقه بات ينسلُّ من تحت أقدامه بقدر ما كان يتمسك به بكل قواه، ولكن كلما ازدادت تلك الأرض انزلاقًا تحت قدميه، ازداد خلاصه منها استحالة. شعر عندما دخل في عداد الماسونيين أنه وضع قدمًا مطمئنة فوق سطح مستنقع سوي، لكنه ما كاد يضع قدمه حتى شعر بأنها تغوص، ولكي يختبر صلابة الأرض اختبارًا أحسن، وضع قدمه الأخرى؛ فازداد غوصًا وغرقًا، وبات يخوض في وحل المستنقع حتى ركبتيه.

فترَتْ همة جوزيف ألكسيئيفيتش منذ فترة من الزمن، فما عاد يهتم بمحافل بيترسبورج، ولم يعد يغادر موسكو. كان كل أعضاء المحافل أشخاصًا من المجتمع الراقي يعرفهم بيير معرفة عميقةً لا تسمحُ له اعتبارهم إخوان محفل فحسب، بصرف النظر عن

كونهم الأمير ب… وإيفان فاسيلييفيتش د… أو غيرهما من الشخصيات المعروفة بضعفها، أو بفسادها وعدم نفعها. كان يرى تحت المآزر والشاراتِ الماسونيةِ الأخرى، الأوسمةَ والألبسةَ الرسمية التي تشكِّل وحدها سرَّ حياة أصحابها.

وعندما كان يسطر في قوائم التبرعات — كلما شرع في جمعها — مبلغ عشرين أو ثلاثين روبلًا في حقل «الداخل»، وغالبًا في حقل «مدين»، أسماء عشرة من الأعضاء في مثل ثرائه، يذكر القسم الماسوني الذي يتعهد الإخوان المنتسبون بموجبه بتقديم كل ثرواتهم للغير، فترتفع في نفسه الشكوك التي يبذل كل جهد في سبيل كبتها ومحوها.

ينتظم الإخوان الذين يعرفهم بيير في أربع فئات، يضع في عداد الفئة الأولى أولئك الذين لا يساهمون قط في النشاط العملي، أو في أعمال المحافل والقضايا الإنسانية، بل يقصرون اهتمامهم على التعمق في أسرار النظام، وتسمية الله الثلاثية، والأسس الثلاثية لكل الأشياء: الكبريت والزئبق والملح، وعلى تفسير معنى المربع والرسوم التي على معبد سليمان. وكان بيير يكن لهذه الفئة من الإخوان التي تضم في عدادها أقدم الأعضاء وجوزيف ألكسيئيفيتش نفسه — كما كان يظن — احترامًا عميقًا، لكنه ما كان يشاطرهم مشاغلهم؛ لأن الناحية التصوفية في الماسونية ما كانت تجتذبه.

وفي الفئة الثانية، كان يضع نفسه وأولئك الذين يبحثون مثله ويترددون، والذين ما كانوا ييأسون من إيجاد الطريق المستقيمة ذات يوم، رغم أنهم لم يجدوا طريق الماسونية المستقيم بعدُ.

أما في الفئة الثالثة، وهي الأكثر عددًا، فكان يضع الذين لا يرون في المذهب إلا أشكاله الخارجية وحفلاته، ويتمسكون بإنجاز طقوسه الشاقة دون الاهتمام بمضامينها ومعانيها الخفية. وهذا الوصف ينطبق على كل الأعضاء تقريبًا، اعتبارًا من فيلارسكي وحتى معلم المحفل الأكبر.

وتضم الفئة الرابعة كذلك عددًا كبيرًا من الإخوان معظمهم من الجدد، كانوا — كما لاحظ بيير — أناسًا لا يؤمنون بشيء، ولا يرغبون في شيء، أناسًا لم يدخلوا المحفل إلا ليتعرفوا على إخوان شبان وأغنياء من ذوي النفوذ والعلاقات وشرف المنشأ، الذين كانوا وافري العدد في المحفل.

لم يكن نشاط بيير يُرضيه حقيقةً؛ بدت له الماسونية أو — على الأقل — تلك التي عرفها مجرد شكليات، فراح يشك في النظم الماسونية الروسية دون أن يرقى به الشك إلى المبدأ نفسه، ويعتقد المحافل الروسية أخطأت النهج فانحرفت عن الأصول. قرر إذن أن يسافر في نهاية العام إلى الخارج ليَطَّلع هناك على أهم أسرار النظام وأبعدها غورًا.

عاد بيير إلى بيترسبورج في أول صيف ١٨٠٩. عرف الإخوان الماسونيون في روسيا، استنادًا إلى مراسليهم في الخارج، أن بيزوخوف قد اكتسب ثقة عدد من كبار ذوي المناصب المطلعين على الكثير من الأسرار الذين رشحوه لرتبة عليا، وأنه عائد ومعه الكثير من المشاريع النافعة للماسونية الروسية، فجاء الإخوان في بيترسبورج لزيارته ساعين إلى مرضاته، ولاحظوا أنه يخفي ويهيئ شيئًا ما.

قرروا إقامة محفل من الدرجة الثانية، وعَدَ بيير أن يُطلع الإخوان فيه على الرسالة التي حمَّله إياها ذوو المناصب العليا في النظام إلى إخوانه، فكانت جلسة حافلة. نهض بيير بعد المراسيم المألوفة وفي يده خطابًا مهيأ، قال وهو يلكن وقد احمر وجهه استحياءً: «أيها الإخوان الأعزاء، لا يكفي أن ننجز أسرارنا في خفاء المحفل، بل يجب كذلك أن نعمل. نعم، نعمل. إننا نغط في النوم بينما يجب علينا أن نعمل.»

أخذ دفتره وشرع يقرأ:

> لكي ننشر الحقيقة النقية، ونحصل على انتصار الفضيلة؛ يجب أن نستأصل من حولنا المعتقدات الفاسدة، وأن نُعنى بتثقيف الناشئة، ونرتبط بصلاتٍ لا تحلُّ عُراها بالعقول المستنيرة، ونخذل الخرافة والإلحاد والحماقة بحكمةٍ وجرأة، وأن نُشكِّل من المخلصين لنا كتيبة تربط بين أفرادها وحدة الهدف، ونضع رهن إشارتهم النفوذ والقوة.
>
> ولكي نبلغ هذه الغاية، يجب أن نعطي الفضيلة الغلبة على الرذيلة، وأن نعمل جاهدين على أن ينال الرجل الطيب مكافأته الأبدية على فضائله ابتداءً من هذا العالم الفاني، غير أن عددًا كبيرًا من المؤسسات السياسية الخارجية تقف حائلًا دون تحقيق أهدافنا العظمى. ماذا نعمل إذن في مثل هذا الحال؟ هل نشجع الثورات لنقلب كل شيء، ونستعمل القوة ضد القوة؟ إننا بعيدون كل البعد عن ذلك. إن كل إصلاح يُفرض بالقوة يستوجب اللوم والمُؤاخذة؛ لأنه لا يصلح السوء إذا ظلَّ الأشخاص كما هم، ولأن الحكمة ليست في حاجة إلى العنف.
>
> يجب أن يهدف نظامنا إلى تكوين أشخاص أقوياء ثابتي العقيدة صالحين، تربطهم وحدة العقيدة التي تقوم على الرغبة في مطاردة الرذيلة والسوء بكل قوة، وفي كل مكان، وعلى حماية المناقب والفضيلة، وتخليص المستحقين من حمأة الرذيلة، وربطهم بنا، وإشراكهم معنا. وبذلك يتمكَّن نظامنا من القدرة

على شل أيدي المساعدين على الفوضى دون أن يشعروا بذلك، وتوجيههم الوجهة الصالحة دون أن يشعروا بذلك أيضًا. وبالاختصار: يجب إقامة إدارة عالمية يمتد محور نشاطها إلى العالم كله، دون أن تصطدم مصالحها بمصالح الحكومات الأخرى. وستظل هذه الحكومات تعمل، وستبقى حرة في تصرفاتها، ما عدا ما يتعلق بمقاومتها لبرامج نظامنا التي تقوم على أساس نصرة الفضيلة على الرذيلة. لقد كان هذا البرنامج هو هدف النصرانية التي علَّمت الناس أن يكونوا عقلاء وطيبين، وأن يتبعوا في مصلحتهم الشخصية نهج وتعاليم الأفضل منهم، والأكثر حكمة وتعقلًا.

عندما كان كل شيء غارقًا في الظلمات كانت العظة وحدها تكفي، وكان إعلان الحقيقة يجدُ في جِدَّته نفسها قوة خاصة. أما في أيامنا هذه فإننا في حاجة إلى وسائل أكثر قوة ونفوذًا: يجب أن يجد الرجل الذي يخضع لسيطرة حواسه افتتانًا عميقًا بالفضيلة. ولما كان لا يمكن استئصال النزوات والميول، يجب توجيهها نحو هدف نبيل، وعلى ذلك يجب على كلٍّ منا أن يقدر على إرضائها في حدود الفضيلة، وعلى نظامنا أن يهيئ له الأسباب.

وعندما نحصل على عدد معين من المتشيعين الجديرين بنا في كل دولة، يعمل كل منهم على إيجاد اثنين آخرين يتحدان مع البقية، وهكذا حتى يصبح ميسورًا لنظامنا الذي عمل حتى الآن في السر كثيرًا من الأعمال النافعة للإنسانية، والسعي إلى غايتنا المنشودة.

أحدث الخطاب في المحفل تأثيرًا قويًّا حتى واضطرابًا، استقبلته الأكثرية ببرود أدهش بيير؛ لأنها ظنَّت أنه ينطوي على المبادئ الهرطقية الخطيرة. أثار المعلم الأكبر اعتراضات، وشرح بيير أفكاره بحماسة متزايدة. لم يشاهد أحد من الإخوان من قبلُ جلسة صاخبة كهذه، وتألفت كتلٌ وأحزاب، بعضها يتهم بيير بالهرطقية، والبعض الآخر يدافع عنه. أدرك بيير لأول مرة أن تباين العقليات اللامحدود يحول دون كل حقيقة — مهما كان نوعها — والظهور بمظهر واحد في نظر شخصين مختلفين، حتى أولئك الذين اتخذوا موقف الدفاع عنه، لم يفهموا أقواله إلا على طريقتهم، فأدخلوا عليها قيودًا وتعديلات ما كان يستطيع الموافقة عليها، وهو الذي ما أورد أفكاره كما أدركها وفهمها.

لفت المعلم الأكبر انتباهه في نهاية الجلسة بسخرية مقصودة إلى أنه تحمس أكثر مما ينبغي، ولا شك أن حب الكفاح قد سيَّره أكثر من حب الفضيلة. لم يُجب بيير بشيء بل سأل بإيجاز عما إذا كان عرضه مقبولًا، ولما تلقى جوابًا سلبيًّا خرج دون أن ينتظر الشكليات المألوفة ومضى إلى منزله.

الفصل الثامن

عودة هيلين

عادت الكآبة العميقة التي يخشاها بيير أعظم الخشية تتسلط عليه. لبث طيلة الأيام الثلاثة التي تلتْ خطابه في المحفل متمددًا على أريكته لا يريد مبارحتها، ولا يستقبل أحدًا.

في هذه الفترة بالذات، تلقى رسالة من زوجته تلتمس منه موعدًا لمقابلته: كانت تعرب له فيها عن رغبتها المتقدة في رؤيته؛ لتكرس له وجودها مختارة، وتعلمه في ختامها بقرب عودتها إلى بيترسبورج بعد مقام طويل في الخارج.

وبعد فترة من الزمن، اقتحم بابه أحد إخوانه الماسونيين، الذي كان يتمتع بأحقر نصيب من تقديره، ووجه الحديث نحو حياة بيير الزوجية، فصوَّر له على شكل نصيحة أخوية أن الحزم الذي كان يُبديه حيال زوجته غير عادل؛ لأن رفض السماح والصفح عن التائب يتنافى مع واحدة من القواعد الأساسية لنظامهم المقدس.

وبنفس الوقت، بعثت حماتُه؛ زوجةُ الأمير بازيل، تطلب إليه مقابلتها. كانت تتوسل إليه أن يمنحها بعض وقته؛ لأن لديها مسألة هامة تريد بحثها معه. أدرك بيير أنهم يتآمرون في الخفاء لمصالحته مع زوجته، لكن حالته المعنوية كانت بانحطاط كبير، حتى إنه لم يحفل بالأمر مطلقًا. بات كل شيء في نظره عديم القيمة، واقتنع بأن لا شيء في الحياة يستوجب البحث في مضاعفاته. لقد كان فريسة الجمود وخمود الهمة، فما عاد استقلاله يشغل باله، وأحس بأن قراره الحازم القاضي بمعاقبة زوجته قد تخاذل.

فكَّر: «ليس هناك من هو على حق، وبالتالي من هو مذنب، فلا يمكنني إذن أن أتهمها بشيء.»

وإذا لم يبادر من فوره لإقامة الصلح مع هيلين، فما ذلك إلا لأن حالة الوهن التي كان عليها منعته من المباشرة بأي شيء، ولو جاءت زوجته تزوره لما صدَّها حتمًا. ماذا يهمه وهو على تلك الحال من المشاغل أن يعيش معها، أو يبقى وحيدًا؟

ودون أن يجيب زوجته وحماته على رسالتيهما، قصد ذات يوم جميل إلى موسكو لاستشارة جوزيف ألكسيئيفيتش.

وفيما يلي ما دونه في مذكرته:

موسكو، ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر)

إنني أخرج للتو من لدن «المحسن» وأبادر إلى إيراد مشاعري هنا. إن جوزيف ألكسيئيفيتش يعيش عيش كفاف، ويشكو منذ عمًّا قريب ثلاث سنوات من مرض أليم في المثانة. لم يسمع من أحد قط صوته يجأر بالشكوى أو الأنين. إنه ينكب على الدراسة منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل، باستثناء الساعات التي يتناول خلالها طعامًا بسيطًا شديد التقتير. استقبلني بمحبة وأجلسني على السرير حيث كان مستلقيًا. حييته بإشارة فرسان الشرق والمقدس، فأجابني بإشارة مثلها وسألني عما تعلمته في محافل إيكوسيا وبروسيا. فسَّرت له على قدر طاقتي، وعرضت عليه الأفكار التي أدليت بها في المحفل في بيترسبورج، وبيَّنت الاستقبال الرديء الذي لقيتْه تلك الآراء، ذلك الاستقبال الذي سبب انقطاعي عن الإخوان. وبعد أن فكر جوزيف ألكسيئيفيتش طويلًا، شرح لي وجهة نظره التي أنارت لي من فورها كل الماضي، والسبيل الذي ينفتح أمامي في الحاضر. ولقد دهشت حينما سمعته يسألني عما إذا كنت لا زلت أذكر الهدف الثلاثي للنظام: (١) المحافظة على الأسرار والتعمق فيها. (٢) تطهير الذات، ومعاقبة النفس وردعها؛ لإعدادها للاشتراك في تلك الأسرار. (٣) إصلاح الجنس البشري عن طريق المجهودات المبذولة في سبيل ذلك الإصلاح؛ أي هدف من هذه الأهداف الثلاثة يعتبر أكثر أهمية؟ إنه دون أدنى شك إصلاح الذات؛ إنه الهدف الوحيد الذي نستطيع أبدًا السعي لبلوغه رغم كل الاحتمالات، لكنه بنفس الوقت يتطلب منا أكبر الجهد والاجتهاد؛ لذلك فإننا نزوغ عنه، يخدعنا الكبرياء لنتعلق: إما بالتعمق في الأسرار الذي يمنعنا تدنسنا من الولوج فيها والتوغل في خفاياها، وإما بإصلاح الجنس البشري، في حين أننا نقدم أنفسنا مثالًا لفساد الخلق والقباحة. إن الهرطقة على اختلاف أنواعها الملوثة بالكبرياء، الطامعة في لعب دور اجتماعي ليست إلا عقيدة رديئة. واستنادًا إلى ذلك، لامني جوزيف ألكسيئيفيتش على ما تقدَّم مني وعلى خطابي، فوافقته من أعماق روحي.

وعندما تقدَّم مني شرعنا نتحدث في مشاكلي العائلية، قال لي: «إن واجب الماسوني الحقيقي الرئيسي يقوم — وأكرر لك — على إصلاح ذاته، لكننا غالبًا نتوهم أن بمقدورنا

بلوغ هذه الغاية بأعظم سرعة بابتعادنا عن كل متاعب الحياة وأثقالها، بينما الأمر على العكس يا عزيزي السيد الأعز. إننا لا نبلغ هذا الهدف إلا وسط مصائب الدهر وكروبه، وذلك للأسباب التالية: (١) معرفة ذاتنا؛ لأن الإنسان لا يمكنه التعرف على نفسه إلا بالمقارنة. (٢) الإصلاح، وهذا لا يتم إلا بالجهاد والكفاح. (٣) الفضيلة؛ أي حب الموت. إن صروف الحياة وحدها تستطيع إظهارنا على كل الزهو الباطل، وإلهامنا حب الموت؛ أي الرغبة في بعث في عالم آخر جديد.» إن هذه الكلمات على جانب كبير من الأهمية لا تضاهيها إلا أهمية صاحبها جوزيف ألكسيئيفيتش، الذي رغم آلامه الجسدية الخطيرة لا يشكو أبدًا من عبء الحياة، وعلى الرغم من حبه للموت؛ فإنه يشعر بعدم إعداد نفسه إعدادًا كافيًا، رغم كل النقاء والنبل اللذين تتصف بهما حياته الخاصة.

ثم فسر لي المحسن المعنى العميق لمربع الخليقة الأكبر، وبين لي أن الأرقام ثلاثة وسبعة هي أساس كل شيء. نصحني كذلك أن لا أنقطع نهائيًّا عن الإخوان في بيترسبوج، ولكن أن أحذرهم من تبعات الكبرياء ونتائجه، وأعيدهم إلى طريق المعرفة الحقيقية وإصلاح الذات، بنفس الوقت الذي أتشاغل خلاله بالقيام بأعمال من الدرجة الثانية في المحفل. أما فيما يتعلق بي شخصيًّا، فقد قادني إلى مراقبة نفسي، وأعطاني لهذه الغاية دفترًا هو هذا الذي أخطُّ على صفحاته هذه المذكرات، والذي سأسجل فيه كل حركاتي في المستقبل.

بيترسبورج، ٢٣ تشرين الثاني

تصالحتُ مع زوجتي؛ جاءت حماتي تذرف الدمع وتقول لي: «إن هيلين هنا.» واستحلفتني أن أصغي إليها. إنها بريئة أيأسها هجراني وأشياء أخرى أيضًا. إنني أعرف تمامًا أنني إذا سمحت لنفسي بالذهاب لرؤيتها لن أستطيع رفض ملتمسها طويلًا، وفي هذا التردد الذي وقعت فيه كنت أتساءل عمن ألجأ إليه. لو أن المحسن كان هنا؛ لكانت نصائحه جد ثمينة ومفيدة. تماسكت فترة طويلة وأعدت تلاوة رسائل جوزيف ألكسيئيفيتش، ثم تذكرت أحاديثنا وخرجت بنتيجة نهائية: ينبغي أن أتقبل من يبتهل إليَّ، وأن أمدَّ إلى كل الناس يد العون، وخصوصًا إلى ذلك الشخص الذي تربطه بي وشائج متينة. يجب علي إذن أن أحتمل عذابي، لكنني إذا كنت أصفح عنها حبًّا في الفضيلة؛ فإنني أتوقع أن لا يكون لرابطتي معها إلا هدف روحي فحسب. أما زوجتي فقد رجوتها أن تنسى الماضي،

وتصفح عن أخطائي التي قد أكون ارتكبتها حيالها. أما أنا فليس عندي شخصيًّا ما يستحق أن أصفح عنه. لقد سرَّني أن استطعت التحدُّث إليها على هذا النحو، وأن تظل جاهلة مقدار النَّصب الذي احتملته بموافقتي على رؤيتها. لقد أقمت في الطبقة العليا من مسكننا، وأتذوق الآن البهجة التي وفَّرها لي شعوري بالتجدد.

الفصل التاسع

عودة إلى المجتمع

وفي تلك الأثناء، على جري العادة، كان أفراد المجتمع الراقي الذين يتقابلون في البلاط أو في الحفلات الراقصة الكبرى ينقسمون إلى حلقات عديدة، تحتفظ كل منها بطابعها الخاص، وكانت الحلقة الأكثر عددًا هي حلقة الفرنسيين، التي يميل أفرادها إلى التعاون مع نابليون، ويرأسها الكونت رومیانتسیف والكونت دو كولنكور.[1] وما كادت هيلين تعود إلى الحياة مع زوجها حتى شغلت أرفع مقام مرموق في المجتمع. أخذ هؤلاء السادة الذين يَمُتُّون إلى السفارة الفرنسية وعدد كبير من الشخصيات ذوي الأذواق المتجانسة يرتادون أبهاءها.

صدف أن كانت هيلين في إيرفورت عندما تمت المقابلة العتيدة بين الإمبراطورين، فصادفت هناك نجاحًا مرموقًا، وارتبطت بعلاقات مع كل شخصيات أوروبا النابليونية المُهِمَّة. ولقد لاحظها الإمبراطور نفسه ذات مرة في المسارح فقال عنها: «إنها حيوان رائع.» ولما كانت محاسنها قد ازدادت؛ فقد بدا فوزُ هذه المرأة البديعة الأنيقة واجتذابُها الأنظار أمرًا طبيعيًّا في نظر بيير، لكنه كان يتساءل أبدًا: كيف استطاعت خلال هذين العامين أن تكتسب شهرة «المرأة الفاتنة الجميلة بقدر ما هي ذكية». كان الأمير الشهير دولين[2] يكتب لها رسالات من ثماني صفحات، بينما كان بيليبين يدخر كلماته ليترك لهيلين

[1] الماركيز لويس دو كولنكور؛ دوق دوكيسانس: جنرال فرنسي ولد في كولنكور عام ١٧٧٢، وتوفي عام ١٨٢٧. كان كبير «الياوران»، ثم سفير روسيا في عهد المملكة. مثَّل نابليون في مؤتمر شايتون. أما أخوه أوغست فهو جنرال ولد في كولنكور كذلك عام ١٧٧٧، وقتل في معركة موسكو عام ١٨١٢.

[2] شارل جوزيف؛ أمير دولين: جنرال بلجيكي في خدمة النمسا. ولد في بروكسل عام ١٧٣٥، وتوفي عام ١٨١٤. كاتب شهير بخواطره الفذة.

الأولوية في الحديث. وعلى هذا، فإن ولوج بهو الكونتيس بيزوخوف كان بمثابة وسام فكري للداخل إليه. كان الشباب يتعمدون قراءة الكتب قبل الذهاب إلى ندوتها ليعدوا لأنفسهم مواضيع يطرقونها، بينما يأتمنها أمناء السر في السفارات والسفراء أنفسهم، على أسرارهم الدبلوماسية. وبالاختصار، كانت سلطة مستقلة من نوعها، وكان بيير — وهو الذي يعرف أنها حمقاء سخيفة — يحضر أحيانًا مجالسها وهو فريسة لمزيج غريب من القلق والخوف من تلك الحفلات والسهرات والولائم، التي كانوا يتحدثون خلالها عن السياسة والشعر والفلسفة. كان يحس بشعور الحاوي الذي يخاف أن يرى خدعته تنكشف في كل لحظة، لكن شهرة الكونتيس بيزوخوف بوصفها امرأة فتانة متقدة الذكاء كانت وطيدة جدًّا، سواء أكانت الحماقة عاملًا ضروريًّا لإدارة ندوة من هذا النوع، أم كان الأغرار يجدون متعة في أن يُغرَّر بهم، حتى إن هيلين كانت تستطيع الإدلاء بكل الحماقات التي تخطر ببالها؛ ليهلل الحاضرون كلهم إعجابًا بكل كلمة نطقت بها، يحاولون البحث عن معنًى عميق فيها؛ معنًى ما كانت تحمل نفسها مشقة الإفصاح عنه.

كان بيير الزوج المنشود لهذه الاجتماعية اللامعة، زوج «سيد عظيم»، ساهِمَ الفكر، شاذَّ الطباع، لا يزعج أحدًا ولا يتضايق من جلبة البهو، بل ويصلح بذات الوقت ليكون دافعًا مبرزًا لأناقة زوجته وظرفها. ساعدته اجتهاداته الأخرى المنافية لكل هذه المظاهر طيلة عامين كاملين، واحتقاره الكلي لكل ما عداها، على أن يتخذ في مثل هذه الندوات، التي لا تثير اهتمامه، موقف لامبالاة منطلقة عطوف على كل المجتمعين لا يمكن اكتسابها بالصنعة؛ الأمر الذي يوحي ببعض الاحترام. كان يدخل بهو زوجته وكأنه داخل إلى قاعة عرض يعرف فيها كل الموجودين، فيستقبل كلًّا منهم بمثل ما يستقبل الآخر، ثم يظل بعيدًا عنهم جميعًا بُعدًا متساويًا. فإذا بدت له إحدى المناقشات مُجديةً هامة، اشترك فيها بكل رغبة، وحينئذ يعرب عن آرائه مدندنًا بوجهات نظر كانت أحيانًا تتنافى كليًّا مع الجو الذي تذاع فيه، دون أن يأبه لمعرفة ما إذا كان السادة أعضاء السفارة موجودين أم لا، لكن زبائن الندوة كانوا يعرفون تمامًا كيف يعاملون ذلك الزوج البسيط الشاذ؛ زوج «أبرز امرأة في بيترسبورج»، فلا يأبهون بحماقاته، ولا يحملونها على محمل الجد.

لم يكن بين العدد الكبير من الأشخاص الذين يحاصرون ندوات الكونتيس بيزوخوف يوميًّا، بعد عودتها من إيرفورت، مَن يلقي مثل العناية التي يلقاها بوريس دروبيتسكوي، الذي حصل خلال تلك الفترة على مركز جيد. كانت هيلين تسميه «تابعي» وتُعامله معاملة الطفل. صحيح أن البسمات التي كانت بها ما كانت تختلف عن بسماتها للآخرين، لكن

بيير كان يغتم أحيانًا اغتمامًا مؤسيًا بسببها. وكان بوريس يُظهر لبيير احترامًا خاصًّا موسومًا بوقار كئيب، لكن هذا الاحترام كان يقلقه بالمثل. لقد تألم بقسوة هائلة قبل ثلاثة أعوام للإهانة التي أصابته بها زوجته؛ لذلك فقد كان الآن يحاول تجنُّب إهانة مماثلة، فهو ليس زوجًا لزوجته، وهو كذلك لا يسمح لنفسه بالارتياب في سلوكها. كان يقول في سرِّه: «لقد أصبحت الآن «مشبوهة»؛ لذلك فإنها ولا شك قد عزفت عن كل تصرفاتها الشائنة السابقة.»

ويكرر لنفسه قائلًا: «لم يسبق أن أصيبت «مشبوهة» بضعف عاطفي.»

والله وحده يعلم من أين أتى بهذا الزعم وأعطاه براءة المبدأ الثابت، مع ذلك، فإن وجود بوريس المستمر في بهو زوجته كان يُحدث في مزاجه تأثيرًا غريبًا: يشلُّ كل أعضائه، ويذهب بحرية حركاته وطبيعتها الغريزية.

كان يقول لنفسه: «يا للنفور العجيب! مع أنه كان من قبلُ يعجبني كل الإعجاب.»

وإذن فإن بيير كان في نظر الأوساط الراقية سيدًا كبيرًا، وزوجًا كفيف البصر، شاذًّا لزوجة شهيرة، مبدعًا، ولكن غير غبي، عاطلًا عن العمل، ولكن غير مسيء إلى أحد. وبالاختصار، فتًى طيبًا باسلًا، لكن في نفس بيير ظلت تقوم خلال هذه الفترة زوبعة مركبة عسيرة تصطخب في أعماقه، فتفتح له آفاقًا كثيرة وتُسلِمه إلى الشكوك والريب، لكنها كذلك كانت تتيح له متعًا روحية جمة.

الفصل العاشر

يوميات بيير

٢٧ تشرين الثاني

استمر بيير يدوِّن في مذكرته، وفيما يلي ما سجَّله فيها خلال تلك الفترة:

٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر)

نهضت في الساعة الثامنة وقرأت الكتاب المقدس ثم ذهبت إلى جمعيتي — ذلك أن بيير وافق نزولًا عند نصح المحسن على المساهمة في جمعية — عدت لتناول الطعام فتناولته وحدي؛ لأن لدى الكونتيس عددًا كبيرًا من المدعوين الذين لا أميل إليهم. أكلت وشربت بمقدار ثم نسخت بعد الطعام مستندات للإخوان. وفي المساء، عندما نزلت إلى جناح الكونتيس رويت قصة مثيرة عن ب. لكنني تبينت بعد فوات الأوان، ومن جلجلة ضحكات الموجودين أنني أخطأت في سرد تلك القصة.

إنني أنام سعيدًا مشرق النفس. اللهم يا قدير، ساعدني على السير في سبلك وأعني: (١) هزيمة نزعتي إلى الغضب بالصبر والدعة. (٢) التفوق على المنكر بالتعنف والاشمئزاز. (٣) إبعادي عن الزهو الدنيوي، ولكن دون أن تقصيني أو تبقيني في معزل عن: (أ) شئون الدولة. (ب) مصالح الأسرة. (ج) العلاقات الودية. (د) المشاغل ذات الطابع الاقتصادي.

نهضت متأخرًا، وبعد أن استيقظت لبثت فترة طويلة في سريري فريسة الكسل. اللهم مُد لي يد المساعدة، وأعطني القوة على السير في سبلك. قرأت في الكتاب المقدس، لكن بغير تركيز الحواس الكافي. جاء الأخ أوروسوف، فتحدثنا عن البطلان الذي يسيطر على الناس. أطلعني على مشاريع الإمبراطور الجديدة. كدت أبادر إلى نقدها عندما تذكرت

فجأة قواعدي وكلمات محسننا القائلة: «إن الماسوني الحقيقي يجب أن يكون أداة ذات حمية وعزم في يد الدولة، عندما يُطلب إليه المساهمة في شيء، ومتفرجًا سلبيًّا عندما لا تدعو الحاجة إليه. إن لساني هو عدوي. جاء الإخوان «ج. ف» و«أو» لزيارتي؛ اتخذنا الإجراءات لاستقبال جديد في المحفل. أنا طالب دور الملقن للعضو الجديد. إنني أحس أنني غير جدير بذلك، وغير معد إعدادًا طيبًا. تناقشنا بعدئذ في المعنى الواجب إعطاؤه للأعمدة ودرجات الهيكل السبع، والعلوم السبعة، والفضائل السبع، والرذائل السبع، ومنح الروح القدس السبعة. كان الأخ «أو» لبقًا طليًّا. أقيمت الحفلة مساءً. ساهم ترتيب المحفل الجديد في إضفاء جو من البهاء على المشهد. إن من قبلناه هو بوريس دروبيتسكوي. لقد زكَّيته ولقَّنته. كنت طيلة الوقت الذي قضيته بصحبته في الحجرة المظلمة نهبًا لشعور غريب. إنني أشعر نحوه بحقد أعمل عبثًا على التغلب عليه، إنني أود بكل إخلاص أن أنقذه وأقوده في طريق الحقيقة، لكن الأفكار السيئة لا تغادرني. كنت أحدِّث نفسي بأنه لم ينضم إلى صفوفنا إلا للتقرُّب من بعض الشخصيات الهامة ذات النفوذ الواسع المتوفرة في محفلنا ليفوز بعطفها؛ ألم يسألني مرارًا عما إذا كان «ن» و«س» أعضاء في محفلنا، وهو الأمر الذي لا حقَّ لي في البوح به؟ أضف إلى ذلك ما يبدو لي من أنه غير قابل للشعور نحو نظامنا المقدس بالاحترام اللازم؛ لأنني أراه كثير التشاغل راضيًا عن نفسه رضًا لا يُنتظر معه أن يرغب في تهذيب روحه. مع ذلك، لم تكن لدي أسباب خاصة للشكِّ فيه، لكنني أشعر أنه غير مخلص، حتى خيل إلي طيلة الفترة التي قضيتها معه في الهيكل المعتم أنه كان يبتسم باحتقار لسماع نصائحي، فتمتلكني الرغبة في أن أخرق صدره العاري بالسيف الذي في يدي. لم أستطع إظهار بلاغتي، لكنني ما كنت أجد لشكوكي أسسًا بينة لأُطلع الإخوان والمعلم الأكبر عليها. آه يا مهندس الكون الأعظم! ساعدني على إيجاد الطريق الذي يقودني خارج متاهة الكذب.

وبعد ثلاث صفحات بيضاء، تعود كتابة المذكرات كما يلي:

وقعت لي مقابلة طويلة ومفيدة مع الأخ «ف»، الذي أوصاني بالتعلُّق بالأخ «أ». اطلعت على أشياء كثيرة رغم أنني لا أستحق الاطلاع عليها. إن آدانوي هو اسم خالق الكون، وأيلويم اسم الذي يريده. أما الاسم الثالث وهو يفوق حد الوصف، فيعني «الكل». دعمت فؤادي محادثاتي مع الأخ «ف»، وثبتت جناني وخطواتي في طريق الفضيلة «هو» موجود، وكل شيء يزول. إنني أرى بوضوح الفرق بين العلوم الفارغة التي يُعلِّمونها في العالم، ومبادئنا المقدسة التي تحيط بكل شيء. إن العلوم البشرية تحطم كل شيء لتفهم،

وتقتل كل شيء لتفحص. أما في مبادئ نظامنا، فعلى العكس، الكل وحدة، كل شيء يصبح مفهومًا في تعقيده وفي حياته. إن الثلاثيات؛ عوامل الأشياء الثلاثة هي: الكبريت والزئبق والملح. أما الكبريت فيضم خصائص الزيت والنار ممتزجة، وباتحاده مع الملح يثير في نفسه بفعل النار التي يطويها بين جوانحه الرغبة التي يجتذب الزئبق بواسطتها، فيمسك به، ويحتفظ به، ويحدث — بالاتحاد معه — الأجساد الملموسة. أما الزئبق، فهو الجوهر الروحي في حالته السائلة، وفي حالة التصعيد: المسيح، الروح القدس، الكون.

٣ كانون الأول (ديسمبر)

استيقظت متأخرًا وقرأت في الكتاب المقدس، ولكنني لم أتحسس بما قرأت. أخذت أذرع البهو. كنت أريد التفكير، لكن خيالي راح بدلًا من ذلك يدفع في ذاكرتي بمشهد مضى منذ أربعة أعوام. قال لي السيد دولوخوف عقب مبارزتنا وقد التقى بي في موسكو: «إنه يأمل أن أنعم الآن — رغم غياب زوجتي — باستقرار فكري كامل.» لم أجبه حينذاك، لكن ها إنني هذا الصباح وأنا أستعيد كل تفاصيل ذلك اللقاء، أوجه له الخطب الأكثر حنقًا وهجاءً لاذعًا. بلغ غضبي مبلغ الهيجان عندما ثُبتُ إلى نفسي؛ لقد طردت هذه الأفكار لكنني لم أجد في ذلك عزاء كافيًا.

وبعدئذ جاء بوريس دروبيتسكوي وراح يقصُّ أحدوثات. لم تعجبني زيارته منذ الوهلة الأولى؛ لذلك فقد بسطت أمامه موضوعات شحيحة الأنس. جاوبني على أقوالي. ثُرتُ وكِلْتُ له عددًا من الأشياء المقذية الخارجة عن حدود اللباقة، فصمَتَ، وأسفت متأخرًا على أقوالي. ربَّاه! إنني لا أعرف مطلقًا كيف أتصرف معه بسبب كبريائي وكرامتي. إنني أضع نفسي في مستوى أعلى من مستواه، ثم أهوى إلى دركٍ أحطَّ، والواقع أنه بينما يظهر تساهلًا حيال سماجاتي لا أشعر حياله إلا بالكره. ربَّاه! امنحني القدرة على أن أرى في حضرته عيبي أكثر مما أراه عادة، وأن أعدل سلوكي بشكل يصبح معه ملائمًا حتى بالنسبة إليه. رقدت قليلًا بعد الغداء، وبينما أنا أفقد حواسي تدريجيًّا سمعت صوتًا يهمس في أذني بوضوح: «لقد جاء يومك.»

حلمت أنني أسير في العتمة حتى وجدتني فجأة وسط كلاب تحيط بي، لكنني لبثت أسير دون أن أفْرَق، وفجأة أطبق كلب صغير بأسنانه على ربلة ساقي اليسرى، ولما لم يشأ التخلي عنها أخذت أخنقه، وما كدت أتخلص منه حتى ألقى كلب آخر أكبر من الأول بنفسه عليَّ وعضني. رفعته بين يدي، وكلما رفعته ازداد كبرًا وثقلًا، وفجأة جاء

الأخ «أ» وأمسك بيدي، ثم جرَّني إلى بناء لا يمكن الدخول إليه إلا بالعبور فوق لوح ضيق من الخشب، فلم أكد أطأ بقدمي ذلك المعبر حتى ترنح وانهار، وعندئذ تسلقت حاجزًا دائريًّا كانت يداي لا تبلغانه إلا بصعوبة. وبعد جهود مضنية، استطعت أن أرفع نفسي قليلًا، وأصبح جذعي متدليًا في جهة، وساقاي في الجهة الأخرى. وفجأة لمحت الأخ «أ» واقفًا فوق الحاجز يشير إلى ممشى في حديقة. وفي تلك الحديقة بناء فسيح جميل. ربَّاه! يا مهندس الكون الأعظم، ساعدني على التخلص من كلابي، وأعني من رغباتي وشهواتي، وخصوصًا من الأخيرة التي تتركز فيها سلطة كل الرغبات الأخرى وقوتها. ساعدني اللهم على الدخول إلى هيكل الفضيلة الذي شاهدته في الحلم.

٧ كانون الأول (ديسمبر)

حلمت أن جوزيف ألكسيئيفيتش موجود عندي، فكنت سعيدًا جدًّا بزيارته، راغبًا في معاملته أحسن معاملة. مع ذلك، كنت أثرثر مع آخرين ثرثرة لا آخر لها. أدركت فجأة أن هذا التصرف لا يمكن أن يُرضيه، واعتلجت في نفسي رغبة ضمِّه بين ذراعي. وبينما كنت أقترب منه، رأيت وجهه يتبدَّل فيعود إلى الشباب، وسمعته يحدثني ببعض كلمات عن مبادئ النظام، ولكن بصوت هامس شديد الخفوت، حتى إنني لم أستطع فهم أقواله، ثم خرجنا بعدئذ جميعًا من الغرفة، فوقع أمر على جانب من الغرابة: كنا جالسين أو مستلقين على الأرض وهو يحدثني. أما أنا، فكنت أريد أن أكشف له عن حنوي، وبدون أن أصغي إلى أقواله، تصورت حالة نفسي الداخلية التي أمدَّها الله بعون من لدنه. تلألأت دموع في عيني، فكنت أغتبط أن يكون رآها، لكنه حدجني بنظرة متذمرة وتنحَّى عني — وبعنف فجأةً — واضعًا حدًّا للحديث. رُوِّعت وسألته عما إذا كان قد رغب في التحدث عني.

لم يجبني بشيء، لكنه مع ذلك رمقني بنظرة مؤنسة، وفجأة انتقلنا، دون أن أدري كيف، إلى حجرتي؛ حيث كان فيها سرير مزدوج. نام على حافة السرير وأنا — ألتهب برغبة إظهار حبي له ومودتي — نمتُ إلى جانبه. خُيل إليَّ أنه سألني: «ما هي رغبتك المسيطرة؟ قلها لي دون مراوغة. هل توصلت إلى عزلها وحلها؟ نعم، لا شك أنك تعرفها الآن.» اضطربت لهذا السؤال فأجبته بأنها الكسل. هزَّ رأسه بلهجة مكذبة، فقلت له: «إنني رغم سكناي مع زوجتي — كما أوصاني — لا أعاملها معاملة الزوج.» فاعترض على ذلك، وأفهمني أنه لا ينبغي لي حرمانها من ملاطفاتي، وأسمعني تنويهًا أنني مرغم على ذلك.

أجبته بأن ذلك يخجلني، وفجأة اختفى كل شيء. استيقظت وفي رأسي هذا المقطع من الكتاب المقدس يدوي:[١] «والحياة كانت نور البشر، والنور يشع في الظلمات، والظلمات لم تتلق ذلك النور.» كان وجه جوزيف ألكسيئيفيتش فتيًّا ومضيئًا. وفي نفس اليوم تلقيت رسالة من «المحسن» تبحث في الواجب الزوجي.

٩ كانون الأول (ديسمبر)

حلم جديد دعاني عندما استيقظت خافق الفؤاد: كنت في موسكو في بيتي في القاعة الكبرى ذات الأرائك، وجوزيف ألكسيئيفيتش آتيًا نحوي من جهة البهو. لمحت على الفور نشورًا تم فيه، فهرعت إلى استقباله. قبلت يديه فقال لي: «هل لاحظت أن وجهي لم يعد كسابق عهده؟» رُحتُ أنظر إليه بانتباه وأنا محتفظ به مضمومًا إلى صدري. كان وجهه أصفر، وتقاسيمه مختلفة كل الاختلاف، ورأسه مجردًا من الشعر. قلت له حينئذ: «لو أنني لقيتك صدفة لما فاتني أن أعرفك.» لكنني كنت أقول في سري متسائلًا: «هل تفوهت بالحقيقة حقًّا؟» وفجأة رأيته أمامي ممددًا كالجثة، ثم عاد إلى رشده تدريجيًّا ودخل معي إلى حجرة كبيرة. كان ممسكًا بيده كتابًا كبيرًا من أوراق البردي المدهون، قلت له: «إنني أنا الذي زوَّقت هذا الكتاب.» فأشار لي إشارة الاستحسان. فتحتُ الكتاب. كانت رسوم جميلة جدًّا تُزين صفحاته. كنت أعرف أن تلك الرسوم تمثل مغامرات الروح مع حبيبها على صفحة منه. ظهرت عذراء في ثياب شفافة وجسد مرمري تحلق بين الغيوم. وكنت أعرف أن تلك العذراء هي صورة رمزية لنشيد الأناشيد. شعرت بأنني مخطئ في تأمل هذه الرسوم. لكنني ما كنت أقدر نزع أنظاري عنها. «اللهم هب إلى مساعدتي! أواه يا ربي! إذا كان الهجران الذي أنا فيه من صنعك؛ فلتكن مشيئتك! لكنني إذا صنعته بيدي وبخطأ مني علِّمني ما يجب أن أصنعه. سوف يقتلني الفساد إذا تخليتَ عني نهائيًّا.»

[١] يوحنا: ١ و٤ و٥.

الفصل الحادي عشر

خطوبة بيرج

على الرغم من أن آل روستوف انسحبوا إلى الريف؛ حيث أمضوا فيه عامين كاملين، فإن وضعهم المالي لم يتحسن بقدر ما كانوا يتوقعون.

صحيح أن نيكولا ظل مخلصًا لكلمته، بارًّا بعهده الذي قطعه على نفسه، يعيش في فيلقه عيشه متواضعة، وينفق بمقدار، لكن طراز الحياة في مركز الأسرة الريفي في أوترادنواي وإدارة ميتانكا، جعلا الديون تزداد تضخمًا من عام لآخر، فلم يجد الكونت العجوز وسيلة لدرء هذا الخطر إلا بالعودة إلى الخدمة؛ لذلك مضى إلى بيترسبورج باحثًا عن عمل. وبنفس الوقت وعلى حسب تعبيره الخاص، إعطاء أوقات بديعة للفتيات الشابات للمرة الأخيرة للترفيه عنهن.

وبعد وصولهم إلى بيترسبورج بأمد قصير، طلب بيرج يد فيرا فقبل طلبه. كان آل روستوف في موسكو يعتبرون في عداد أرفع طبقة في المجتمع، دون أن يأبهوا في الحقيقة لمعرفة إلى أية طبقة ينتمون، لكنهم في بيترسبورج باتوا على العكس لا يحظون إلا بعلاقات مختلطة غير واضحة. ذلك أن عددًا كبيرًا من الذين كانوا في موسكو يعتبرون أنهم وإياهم يقومون على صعيد واحد. باتوا في بيترسبورج لا يوافقون على الظهور مع هؤلاء القرويين الآتين من الأقاليم، لكنهم ظلوا يعيشون على طريقتهم في موسكو، تجمع ولائمهم أشخاصًا من مختلف الطبقات: وصيفة شرف، الآنسة بيترونسكي، تجار، وبعض القرويين الموسرين وفتياتهم، وبيير بيزوخوف، إلى جانب ابن رئيس البريد في منطقتهم الموظف في العاصمة. وكان أكثر الرجال ألفة في بيت آل روستوف: بوريس وبيير، الذي قابله الكونت العجوز في الشارع وقاده في شبه قسر إلى منزله، ثم «بيرج» الذي كان يقضي عندهم أيامًا كاملة، ويُعرب لابنتهم البكر الكونتيس فيرا عن لهفته التي تفضح نواياه في الزواج منها.

لم يظهر بيرج ذراعه اليمنى التي أصيبت في معركة أوسترليتز لكل وافد عبثًا، ولا أمسك بعناد بيده اليسرى سيفًا لم يكن يُفيده في شيء. لقد أقنعت لهجته الخطيرة التي كان يحدِّث بها كل وافد — أي وافد — عن شجاعته وجرحه، كلَّ من حوله حتى إن وسامين جاءا أخيرًا يشهدان ببسالته في أوسترليتز.

ولقد منحته حرب فنلندا كذلك فرصة للظهور؛ لقد التقط شظية قنبلة أصابت مساعدًا عسكريًّا فقتلته قرب القائد الأعلى، وسلَّمها إلى رئيسه. وكما فعل عقب معركة أوسترليتز، راح يروي القصة بإلحاح شديد مُسحر حتى أُعجب كلُّ من حوله ببسالته من جديد، ومُنح من أجل ذلك مكافأتين. وفي عام ١٨٠٩، أصبح برتبة رئيس في الحرس، وبات يحتل مركزًا خاصًّا عظيم النفع.

كان بعض المتشككين يبتسمون كلما دار البحث حول مواهب بيرج وشجاعته، لكنهم ما كانوا يستطيعون الإنكار بأنه ضابط أنيق، شجاع، مرموق جدًّا من قبل رؤسائه، وأنه شاب يعيش عيشة طيبة، ينتظره مستقبل لامع، وأنه بلغ حتى الآن مركزًا متينًا في المجتمع.

قبل أربعة أعوام، عندما قابل بيرج أحد رفاقه الألمان في موسكو في حديقة مسرح هناك، أشار إلى فيرا روستوف، وقال له بلغته: «ستكون هذه زوجتي.» ومنذ ذلك الحين اتخذ قراره. بدا له مركزه الآن معادلًا لمركز آل روستوف، وإذن فقد أزفت اللحظة المناسبة؛ فتقدم بطلبه.

قوبل عرضه بادئ الأمر بتحفظ لا يبشر بخير عميم؛ اعتبروا أن من الغرابة أن يتقدم ابنُ سدليفوني المغمور بطلب الزواج من كونتيس روستوف، لكن أخلاق بيرج كانت تمتاز بطابع خاص من الأنانية الساذجة البريئة، حتى إن آل روستوف انتهى بهم الأمر إلى القول: «إن الأمر يجب أن يكون كذلك؛ لأنه هو نفسه كان شديد القناعة به.» أضف إلى ذلك أن الخطيب لا يمكن أن يجهل تشوش أوضاعهم المالية، ثم إن فيرا قد بلغت الرابعة والعشرين واختلطت كثيرًا بالأوساط فلم يتقدم أحدٌ لطلب يدها، رغم وفرة جمالها واتزانها واحتشامها، وعلى ذلك وافق آل روستوف على الطلب.

كان بيرج يقول لزميله الذي يسميه صديقه؛ لأن العادة تقضي بأن يكون للمرء صديق: «أصغِ، لقد وزنت كل شيء، وحسبت كل شيء، وما كنتُ لأتزوج قط لو أن القضية تعرضت لأدنى الموانع، ولكن كما ترى لا يحتاج أبواي شيئًا بعد أن أقطعتهم أراضي في أقاليم البلطيق. أما أنا فإنني أحسن الحساب لدرجة لا تجعل العيش في بيترسبورج

متعذرًا. إذا اجتمع مرتبي بثروتها هي، فسوف يمكننا أن نعيش على خير ما يرام. إنني لم أتزوجها بالطبع من أجل مالها؛ لأن ذلك لا يعتبر نبلًا، ولكن يجب على الزوج والزوجة أن يتشاركا — كلٌّ في حدود طاقته — على إنشاء حياتهما. إن لي مركزي ولها علاقاتها وندوتها الصغيرة، وأعتقد أن مثل هذه الأمور في أيامنا هذه ليست ممجوجة على ما أظن. وأخيرًا، وقبل كل شيء، إنها فتاة رائعة شريفة وتحبني.

ويبتسم بيرج لدى تفوهه بهذه الكلمات ويتخضب وجهه.

– ثم إنني أحبها أنا الآخر؛ لأن لها عقلية ممتازة دائمة الجد. إن أختها الثانية تختلف عنها كل الاختلاف؛ إنها لعلى خُلُق رديء ينقصها الإرهاف، ولست أدري كذلك ما ينفرني منها. أما خطيبتي فسوف تأتي غالبًا ...» وهمَّ أنْ يقول «لتناول الطعام» لكنه استدرك وقال: «لنشرب الشاي عندنا.»

وبحركة خاصة من لسانه أطلق دائرة من الدخان مثالًا كاملًا لأحلامه في السعادة.

تلت لحظة الدهشة الأولى التي سببها طلب بيرج أجواء من الأفراح والسرور تفرضها الظروف في مثل هذه المناسبات، لكن هذا الفرح كان مُصطنعًا وسطحيًّا فحسب. كان الأبوان مرتبكين وعلى شيء من الخجل، وكأنهما يوبخان أنفسهما على قلة محبتهما لابنتهما، ورؤيتهما لها تذهب دون أسف. كان الكونت العجوز أكثر استياءً من زوجته؛ لأن المسألة المادية كانت تؤرقه وإن لم يكن قد أعلن عن شعوره بصراحة. كان يجهل حالته المادية، ومجموع ديونه، والبائنة التي يستطيع بحكم مركزه المالي أن يمنحها لفيرا. لقد خصص لكلٍّ من بناته عند ميلادها بائنة قدرها ثلاثمائة عبدٍ، لكن واحدة من قُراه المخصصة لهذه الغاية بيعت، والثانية رهنت بكل ما فيها. وعلى ذلك، لم تعد أملاكه تدخل في حساب التغطية؛ فكان عليه والحالةُ هذه اللجوءُ إلى النقد، ولكن من أين يأتي بالمبالغ النقدية؟

أعلنت خطوبة بيرج منذ أكثر من شهر، وانتظر أن يُحتفل بالزواج في غضون أسبوع. مع ذلك، فإن الكونت لم يكن بعدُ قد قرر شيئًا بصدد البائنة، ولا أطلع زوجته على هذه القضية. كان يزمع أحيانًا إقطاع ابنته فيرا أملاكه في ريازان، وحينًا آخر يفكر في بيع غابة أو استقراض نقود لقاء صكوك نقدية. وقبل الحفلة بأيام معدودة، دخل بيرج في الصباح الباكر على الكونت في مكتبه، وسأل حَمَاه المُقبل باحترام والابتسامة على شفتيه أن يتفضل بإعطائه إحصاء دقيقًا عن بائنة الكونتيس فيرا. وعلى الرغم من توقع الكونت مثل هذا السؤال منذ أمد بعيد، إلا أنه ارتبك لدى سماعه ارتباكًا شديدًا، حتى إنه أجاب

غير عامدٍ بأوَّلِ ما جادتْ به قريحته: «إنني سعيد إذ أراك تشغل نفسك بهذا الموضوع. هذا حسن، حسن جدًّا، لن يكون في الأمر ما يستدعي تذمُّرك.»

وبعد أن ربَّت على كتف بيرج، نهض وكأنه يضع حدًّا للمحادثة، لكن بيرج الذي ظل محتفظًا بابتسامته الوديعة أعلن أنه إذا لم يعرف قيمة البائنة على الضبط ولم يقبض منها جزءًا على الأقل سلفًا؛ فإنه سيضطر إلى سحب طلبه: «إنك تفهم يا كونت أنني إذا تزوجت دون أن أطمئن على قدرتي على إعالة زوجتي وتأمين طلباتها؛ فإن تصرفي لن يكون شريفًا.»

ولكي يبرهن الكونت على كرمه، ويقطع الطرق في وجه طلبات جديدة، وعد بتقديم صكٍّ معتمد بقيمة ثمانين ألف روبل، فطافت بشفتي بيرج ابتسامة حانية، وقبَّل كتف الكونت معلنًا له عن عظيم شكره، مؤكدًا أنه لا يستطيع الشروع في إنشاء كيان أسرته دون أن يقبض ثلاثين ألف روبل بالعملة الدارجة، ثم صحح طلبه قائلًا: «أو على الأقل عشرين ألف روبل يا كونت. وفي هذه الحال لن تكون قيمة الصك المعتمد أكثر من ستين ألف روبل.»

فوافق الكونت على الفور قائلًا: «نعم، نعم، ولكن اعذرني يا صديقي، سوف تقبض عشرين ألف روبل نقدًا، ويبقى الصك المعتمد بقيمة ثمانين ألف روبل. هيا قبلني.»

الفصل الثاني عشر

بوريس وناتاشا

بلغت ناتاشا السادسة عشرة من عمرها عام ١٨٠٩، وهو العام الذي حددته ناتاشا لبوريس وهي تعد على أصابعها قبل أربعة أعوام عندما تعانقا وقبَّلها، ومنذ ذلك الحين لم تره مرة واحدة، فإذا جاء ذكرُه أمام سونيا وأمه، كانت تقول بكل طلاقة: «إن كل هذه القصص القديمة لم تكن إلا صبيانيات نُسيت منذ طويل أمد.» لكنها في أعماق نفسها كانت تتساءل في شيء من القلق عمَّا إذا كان عهدها لبوريس مجرد دعابة أم وعدًا جديًّا.

لم يطأ بوريس بقدمه مسكن آل روستوف منذ أن التحق بالجيش عام ١٨٠٥. مع ذلك، فقد حلَّ مرارًا في موسكو ومرَّ على مقربة من أوترادنواي دون أن يعرِّج عليها، وكانت ناتاشا تتصور أحيانًا أنه لا يرغب في رؤيتها، وتدعم هذا الاعتقاد في نفسها اللهجة الحزينة التي يتحدث بها المُسنُّون في الأسرة كلما تطرَّقوا إلى ذكر الشاب.

كانت الكونتيس تقول إذا نُوِّه أمامها بذكر بوريس: «لقد بات الناس في عصرنا هذا ينسون أصدقاءهم القدامى.»

وكانت آنا ميخائيلوفنا التي باتت قليلة التردد على الأسرة تحتفظ بعلاقات محدودة معها؛ تطري بحماس ملحوظ مواهب بوريس ونجاحه اللامع المرموق كلما ورد ذكره في حضرتها.

وعندما استقر آل روستوف في بيترسبورج، ذهب بوريس لزيارتهم وهو يشعر بالاضطراب. كانت ناتاشا ذِكْراه الأكثر شاعرية والأكثر عذوبة، وكان مُزمعًا إفهامها وذويها أن علاقة طفولتهما لا يجب أن تجرَّ وراءها أية ارتباطات بالنسبة إليه، فصداقته الوثيقة مع الكونتيس بيزوخوف أتاحت له مركزًا مرموقًا في المجتمع، وحماية الشخصية المتنفذة الهامة التي كان يتمتع بثقتها المطلقة تؤمِّن له مستقبلًا لامعًا، فكان بمقدوره الآن أن يغذِّي في نفسه في غير زهو مشاريع زواج من أغنى فتيات أسر بيترسبورج.

عندما دخل بوريس بهو آل روستوف كانت ناتاشا في غرفتها، وما إن علمت بقدومه حتى تضرج وجهها وهرعت من فورها مشرقة الوجه بابتسامة فيها أكثر من معنى الود، وكان بوريس يحتفظ بذكرى بُنَيَّة في أثواب قصيرة ذات عينين سوداوين لامعتين تحت خصلات من الشعر المتمرد، وضحكة مجنونة فضية، فلما رأى ناتاشا أُخرى تدخل البهو اضطرب وفضح وجهه دهشة معجبة أسعدت الفتاة.

قالت له الكونتيس: «كيف، ألم تعد تعرف صديقتك الصغيرة الشيطانة؟»

قبَّل بوريس يد ناتاشا وأعلن دهشته للتغيير الذي طرأ عليها: «كم ازددت جمالًا.»

فأجابت عينا ناتاشا: «إنني أعتقد ذلك.» بينما قال لسانها: «وأبي؛ هل هرم؟»

جلست وراحت تراقب بصمت خطيب طفولتها في أدق حركاته دون أن تشترك في الحديث الدائر بينه وبين الكونتيس. أما بوريس فكان يشعر بثقل تلك النظرة الودية العتيدة، فيكاد من حين إلى آخر يتورط في إجابتها عليها بمثلها. لاحظت ناتاشا أن ثوب بوريس، ومهمازيه، وربطة عنقه، وطريقة ترجيل شعره مطبوعة كلها بطابع الذوق المرهف والـ «كما يجب». كان جالسًا على ثلاثة أرباع مقعد إلى جانب الكونتيس يسوِّي بيده اليمنى القفاز الأنيق الذي يضم يده اليسرى، فكان حينًا يسرد — وهو يمزر شفتيه بحركة مفضلة — مسرات الطبقة الراقية في بيترسبورج، ويستعيد حينًا آخر في سخرية خفيفة ذكريات موسكو. وعندما كان يولج في كل خبر من أخبار الطبقة الراقية عن حضور سفير ما إلى حفلة راقصة، أو عن الدعوات التي تلقاها من «ن. ن»، أو من «س. س»، كانت ناتاشا تشعر أن قوله هذا بعيد عن الطيش والخفة.

ظلت صامتة مع ذلك تراقبه خلسة، ولمَّا شوشت تلك النظرة بوريس، توقَّف فجأةً عن متابعة الحديث والتفت إليها في مزيد من الإلحاح، ولم تمضِ عشر دقائق حتى نهض واستأذن منصرفًا تشيعه تانك العينان المتطلعتان، نصف المتحديتين، ونصف الساخرتين، تحصيان عليه حركاته.

اعترف بوريس بعد هذه الزيارة الأولى بأنه لا زال يجد ناتاشا جذابة كسابق العهد، لكنه اعترف بنفس الوقت بأنه لا ينبغي له أن يستسلم لذلك الميل؛ إذ إن الزواج من فتاة شبه مفلسة يهدم كل مشاريعه المقبلة، بينما العودة إلى توثيق الصلات السابقة دون مقصد جدي تعتبر عملًا غير شريف؛ لذلك قرر البقاء في معزل، لكنه رغم هذا القرار البديع عاد لزيارة آل روستوف بعد أيام قليلة، ثم كرر زياراته حتى انتهى به الأمر إلى قضاء أيام كاملة عندهم. كان يؤمن أن من واجبه التفاهم بصراحة مع ناتاشا، وإبلاغها

بوجوب نسيان الماضي؛ لأنها لا يمكن — برغم كل شيء — أن تصبح زوجته وهو الذي لا مال لديه. أضف إلى ذلك أنهم لن يوافقوا مطلقًا على تزويجها به، لكنه ما كان يعرف كيف يتصرف، بل كان يزداد كل يوم تدلُّها، وبدت ناتاشا من جانبها — كما لاحظت أمها وسونيا — تعود إلى غرامها السابق ببوريس: كانت تغني له الأغنيات التي يفضلها، وتطلب إليه أن يكتب شيئًا في مجموعتها، وتمنعه من التفكير في الماضي مُلْمِحَةً إلى أن الحاضر أفضل منه وأحسن. وفي كل يوم، كان بوريس يخرج من عندها كالمسحور دون أن يطرُق التفاهم العتيد، ودون أن يدري لمَ جاء وكيف سينتهي كل ذلك. ولقد ظلت هيلين التي لم يعد بوريس يظهر في حفلاتها وأبهائها تسأل عنه كل يوم، وتمطره وابلًا من بطاقاتها المليئة باللوم، دون أن يمنعه ذلك من قضاء أيامه عند آل روستوف.

الفصل الثالث عشر

خاتمة المطاف

كانت الكونتيس العجوز في قلنسوة الليل وجلباب النوم القصير تصلي صلاة المساء مُدمدمة، وتسعل سعالًا خفيفًا وهي تكرر فوق النجد الركوع والانحناءات، عندما ارتفع صرير الباب وظهرت ناتاشا في ثوب النوم كذلك واندفعت إلى الغرفة. وكانت الكونتيس قد نزعت شعرها المستعار وعصبت شعرها الطبيعي بقطعة قماش قطني، فلم يظهر منه إلا باقة صغيرة. أما ناتاشا فكانت تلف شعرها بغطاء خاص، وتلبس في قدميها العاريتين خفًّا منزليًّا. التفتت الكونتيس وقطبت حاجبيها بينما جرى لسانها بتتمة صلاتها: «هل سيصبح فراشي هذا تابوتي حقًّا.» وتبدَّى خشوعها على الفور. ولما رأت ناتاشا أمها مستغرقة في الصلاة توقفت في مكانها مضرجة الوجه، منتعشة الأسارير، وجلست القرفصاء وهي تُظهر طرف لسانها وكأنها ضُبطت مرتكبة خطيئة، وبينما استرسلت أمها في صلاتها حجلت نحو السرير ونزعت خفيها، ثم قفزت فوق ذلك الفراش الذي كانت الأمُّ تشكُّ في أن يصبح تابوتها. وكان المرقد عبارة عن سرير من الريش وُضعت عليه خمس وسائد مختلفة بين صغيرة وكبيرة. دفنت ناتاشا نفسها وسط تلك الوسائد، وتدحرجت حتى استقرت في الفراغ القائم بينها، وربضت تحت الغطاء تضحك ضحكة مكتومة، وترتج وتتحرك وتلاعب ساقيها تارة، وترفع ركبتيها إلى أسفل ذقنها تارة أخرى، تخفي رأسها تارة، وتختلس النظر إلى وجه أمها تارة أخرى. وعندما انتهت هذه من أدعيتها، اقتربت من السرير بجدة وصرامة، لكنها ما إن رأت ناتاشا مخفيةً رأسها تحت اللحف حتى شعَّت ابتسامة طيبة على وجهها وقالت: «هيا، هيا!»

سألت البنت: «أماه، هل نستطيع التحدث معًا؟ نعم، أليس كذلك؟ هيا قبليني في عنقي قبلة أخرى، هل تريدين؟ حسنًا، إن هذا جيد.»

طوقت الكونتيس وقبَّلتها أسفل ذقنها. لقد كان لها مع أمها أساليب عنيفة، ولكن على جانب كبير من المهارة، فإذا أخذتها بين ذراعيها كانت تتدبر الأمر دائمًا بحيث لا تكون مداعباتها قاسية ولا مزعجة.

قالت الكونتيس وهي متكئة على وسائدها، ويداها فوق الشراشف، ووجهها رزين، تطلب من ابنتها — بعد أن تدحرجت مرتين حول نفسها — الاستقرار بجانبها تحت لحاف واحد: «حسنًا، ماذا لديك اليوم؟»

لقد كانت زيارات ناتاشا الليلية لأمها قبل عودة الكونت من النادي إحدى المتع الكبيرة لدى الأم والفتاة على السواء، كررت الكونتيس: «ماذا لديك اليوم؟ لقد كنت مزمعة التحدث إليك بدوري.»

وضعت ناتاشا يدها على فمها وقالت بلهجة جدية: «عن بوريس. نعم، إنني أعرف، ولقد جئت من أجل ذلك. لا تقولي شيئًا، أعرف ...»

ثم رفعت يدها وأردفت: «بل تكلمي، إنه لطيف؛ أليس كذلك؟»

– «ناتاشا، إن لك الآن ستة عشر عامًا، ولقد كنتُ متزوجة لما كان لي مثلُ سنك، تقولين إن بوريس لطيف. نعم ولا شك، إنه لكذلك، وإنني أحبه كما أحب ولدي، ولكن ما هي مراميك؟ لقد سلبتِ عقله تمامًا، إنني أرى ذلك بوضوح.»

استدارت الكونتيس نحو ابنتها. كانت ناتاشا شاخصة بأبصارها إلى واحد من أهرامات خشب الكابلي المنقوشة في زوايا السرير، وهي جامدة ساكنة، حتى إن أمها لم تستطع رؤية وجهها إلا رؤية جانبية. مع ذلك، فإن أمارات الوجه الجدية المركزة لم تدهش الكونتيس.

قالت ناتاشا بعد فترة وجوم: «حسنًا، وبعد؟»

– «لقد سلبت لبَّه تمامًا، ولكن إلى أين يبلغ بك الأمر؟ ما هي غاياتك؟ إنك تعرفين تمامًا تعذر زواجك منه.»

سألت ناتاشا وهي في جمودها: «ولمَ يا الله؟»

– «لأنه لا زال يافعًا، ولأنه فقير، ولأنه قريبك ... وأخيرًا لأنك لا تحبينه.»

– «وماذا يدريك؟»

– «إنني أعرف ذلك، وهو ليس بالأمر الحسن يا عزيزتي.»

– «لكنني إذا كنت أريد ...»

– «لا تتفوهي بالسخافات.»

– «لكنني إذا كنت أريد ...»

– «ناتاشا، إنني أكلمك جديًّا.»

ودون أن تدعها تكمل حديثها، جذَبت ناتاشا بيد الكونتيس الضخمة إليها، فقبَّلتها في ظهرها، ثم في باطنها، ثم أدارتها من جديد وطبعت قبلة فوق مفصل إصبعها، ثم فوق الفراغ الذي يليه، ثم فوق مفصل الإصبع الآخر وهي تعد: «كانون الثاني، شباط، آذار، نيسان، آيار ... هيا تحدثي يا أماه، لِمَ لا تتكلمي؟ تحدثي.»

ونظرت إلى أمها بعين مستفسرة فرأتها تسرح فيها نظرة حانية وكأنها نسيت في تأمُّلها ذاك كل ما كانت تريد أن تقوله.

– «إن هذا غير مناسب يا عزيزتي، إن كل الناس ليسوا على علم بزمالتكما أيام الطفولة، والألفة التي تظهرينها له اليوم يمكن أن تكون ذات ضرر بالنسبة إليك بين الشبان الآخرين الذين يرتادون بيتنا، ثم إنها عذاب عقيم بالنسبة إليه. لعله واجد أسرة نافعة غنية تناسبه، وها أنك الآن تسلبينه الرشاد.»

قالت ناتاشا: «حقًّا؟»

– «أستطيع أن أخاطبك عن علم؛ لقد كان لي ابن عم ...»

– «آه! نعم، سيريل ماتفييتش، لكنه كهل.»

– «إنه لم يكن كهلًا منذ ولادته. على ذلك يا ناتاشا، سوف أتحدث إلى بوريس. لا يجب أن يزورنا بمثل هذه المثابرة!»

– «ولمَ تحدثينه إذا كان هذا يروق له؟»

– «لأنني أعرف أن هذا لن يصل به إلى نتيجة.»

قالت ناتاشا بلهجة من يُسلب ملكه: «وماذا يدريك؟ كلَّا يا أماه، لا تقولي له شيئًا. يا لها من حماقات! لن أتزوجه، ليكن! ولكن لم لا يثابر على المجيء إلى هنا طالما أن ذلك يُروِّح عنا كلينا؟ إنني لن أتزوجه، لكننا سنُحبُّ بعضنا «هكذا».» وانسابت نحو أمها باسمة.

– «كيف هكذا؟!»

– «نعم «هكذا»؛ إن الزواج لا يهمني. وإذن «هكذا».»

كررت الكونتيس بينما راح جسدها الضخم يهتز بشدة بفعل ضحكة عميقة: «هكذا، هكذا.»

هتفت ناتاشا: «لا تضحكي بهذه القوة؛ إنك تزلزلين السرير! إنك تشبهينني شبهًا مدهشًا، إنك ضحَّاكة مثلي.»

وأمسكت بيدها وراحت تعد وهي تطبع قبلة على مفصل الإصبع الصغير: «حزيران.»

ثم انتقلت إلى اليد الأخرى واسترسلت: «تموز، آب ... أماه هل يحبني كثيرًا؟ ما رأيك فيه؟ هل أحبُّوك بمثل هذا القدر؟ نعم، إنه لطيف، لطيف جدًّا جدًّا، لكنه لا يروق لي تمامًا. إنني أراه على شيء من الهزال ... أشبه بصندوق ساعة الجدار. إنه رقيق أشهب، ناصع.»

– «ما هذا اللغو؟!»

– «كيف؟ ألا تفهمينني؟ يفهمني نيكولا، هو ... بيزوخوف مثلًا أزرق مشبع مُموَّه بالأحمر، ثم إنه مربع كذلك.»

قالت الكونتيس ضاحكة: «يخيل إليَّ أنك تتطرفين مع هذا أيضًا.»

– «مطلقًا، لقد علمت أنه من الإخوان الماسونيين. إنه فتى طيب، أزرق مشبع مموه بحمرة ... كيف أفسر لك هذا؟»

وارتفع صوت الكونت من وراء الباب: «ألست نائمة بعدُ أيتها الكونتيس الصغيرة؟»

قفزت ناتاشا إلى أسفل السرير وأمسكت بخفيها، ثم فرت حافية القدمين. لبثت تتقلب على فراشها زمنًا طويلًا. كانت تفكر في أن ما من أحد يفهم كل ما يُخيَّل إليها أنه شديد الوضوح، وما يعتلج في أعماق نفسها.

حدثت نفسها وهي تنظر إلى القطة الصغيرة النائمة على شكل دائرة لا يظهر منها إلا الضفيرة الضخمة: «سونيا؟ أوه، كلا! إنها شديدة التعلق بالفضيلة، إنها تحب نيكولا «ها» ولا تريد التطلع إلى شيء آخر. إن أمي هي الأخرى لا تفهمني. رباه، كم أنا ذكية إذن!»

واستتلت تتحدث عن نفسها بصيغة الغائب المفرد وكأن الحديث صادر عن فم إنسان من الجنس الآخر يُظهر لها كل ميزات جنسها الكاملة: «إن ناتاشا هذه لفتنة طاغية حقًّا! إن لديها كل شيء، كل شيء لها وحدها، إنها ذكية ولطيفة وجميلة وحاذقة ... إنها تسبح وتركب الخيل بمهارة فائقة، وتغني غناءً ساحرًا. نعم، يمكن القول بأنه غناء ساحر.»

ودندنت أحد أنغامها المفضلة جملة مستعارة من أوبرا شيروبيني،[1] وارتمت على سريرها وهي تضحك للفكرة التي واتتها من أنها ستنام لفورها، فنادت دونياشا لتطفئ الشمعة. ولم تكد هذه تخرج من الغرفة حتى كانت ناتاشا تحلق في دنيا الأحلام؛ دنيا أكثر سعادة من هذه؛ حيث كل شيء فيها جميل وسهل سهولة الحقيقة، ولكنه أفضل منها؛ لأنه يختلف عنها.

وفي اليوم التالي، استدعت الكونتيس بوريس وتحدثت معه، ومنذ ذلك اليوم لم يعد بوريس يُرى عند آل روستوف.

[1] سالفادور شيروبيني: موسيقار إيطالي ولد في فلورنسا عام ١٧٦٠، وتوفي عام ١٨٤٢، تجنَّس بالجنسية الفرنسية، وتسلم إدارة المجمع الموسيقي في باريز «كونسرفاتوار»، له مؤلفات دينية وأوبرات عديدة مشهورة ذات عاطفة ملحوظة، وتوزيع بديع.

الفصل الرابع عشر

دعوة

في الواحد والثلاثين من كانون الأول، ليلة بدء عام ١٨١٠ الجديد، أقيمت ليلة إحياء عند أحد كبار الشخصيات المتبقين من عهد كاتيرين، وكان الإمبراطور والسلك الدبلوماسي كله سيحضرها.

كان قصر ذلك السيد العظيم، درة «رصيف الإنجليز»، يلتمع بألوف المصابيح المتقدة، وقد فرشت أمام المدخل المنار بسخاء، سجادة حمراء ثمينة، وأقام رجال الدرك من أجسادهم حاجزًا تحت إشراف مدير الشرطة بالذات، وعشرات من الضباط لمنع تَكَأْكُؤ المتفرجين، وأخذت العربات التي يواكبها وُصفاء وتابعون بأثوابهم الحمراء وقبعاتهم المريشة، تغدو وتروح دون انقطاع حاملةً سادة بثيابهم الرسمية، تزين صدرورهم الأوسمة والنياشين، وسيدات متدثرات بفراء السمور الأبيض، غارقات في الحرير، يهبطن في حذرٍ على المواطئ المنزلة بصخب، وينزلقن رشيقات صامتات فوق سجادة المدخل.

وكلما وصلت عربة سرت تمتمة بين الحشود، وارتفعت القبعات، وتبودلت العبارات: «أهو الإمبراطور؟ كلا، بل وزير، أمير، سفير. أَلَا ترى الريش؟»

كان أحد البلهاء، وهو أفضل من غيره لباسًا، يبدو كأنه يعرف كل الناس، ويميز كلًّا من كبار ذوي المناصب في ذلك العهد باسمه.

وبينما كان ثلث المدعوين قد وصل إلى مكان الحفلة، لم يكن آل روستوف — وقد وُجهت إليهم الدعوة لحضور تلك الحفلة الراقصة أيضًا — قد فرغوا من زينة الشعر بعدُ. لقد أثارت تلك الحفلة عندهم كثيرًا من اللغو والاستعداد، بل ومن المخاوف أيضًا: «ترى هل توجه إليهم الدعوة؟ هل تكون أزياؤهم جاهزة في الوقت المناسب؟ هل ينتهي كل شيء على ما يتمنون؟»

كانت ماري إينيا تيبغنا بيرونسكي — وهي سيدة هزيلة صفراء وصيفة شرف سابقة في البلاط الفائت وصديقة وقريبة للكونتيس — قد وعدت بمرافقة هؤلاء الإقليميين، آل روستوف؛ لتكون لهم بمثابة الدليل في الأوساط الراقية في بيترسبورج، وكان على هؤلاء أن يمروا بمسكنها لاصطحابها في الساعة العاشرة، والمسكن واقع في «جاردان توريد»؛ وهو مقر الإمبراطور الأم، وكانت الساعة قد أشرفت على العاشرة إلا خمس دقائق والفتيات لم يرتدين بعدُ ثيابهن.

كانت هذه أول حفلة راقصة كبرى في حياة ناتاشا. استيقظت في الثامنة صباحًا وأمضت نهارًا في اضطراب محموم. بذلت كل قواها طيلة النهار لتكون أمها وسونيا وهي على أحسن هندام ممكن. ولقد استسلمت لها الكونتيس وسونيا استسلامًا مطلقًا. تقرَّر أن ترتدي الكونتيس ثوبًا من المخمل الثمين، بينما تلبس الفتاتان أثوابًا بيضاء هفهافة فوق «أجفن» من الحرير الوردي، وأن تزين الورود خصريهما، بينما يُصفَّف شعر ثلاثتهن على الطريقة اليونانية.

أُجريت الترتيبات واتُّخذت الاستعدادات الجوهرية، فالأذرع والسيقان والأعناق والقذل والوجوه والآذان غُسلتْ كلها بعناية، وضُمِّخت بالعطور ونثرت فوقها الذرور بما يتفق وحفلة راقصة، ولبست الجوارب الحريرية الجديدة، والأحذية المصنوعة من الساتان ذات الأشرطة، وانتهت إعدادات زينة الرأس تقريبًا. كانت سونيا على وشك الفراغ من زينتها العامة والكونتيس كذلك، لكن ناتاشا لكثرة ما تشاغلت في زينة الأخريات تأخَّرت في إعداد زينتها، كانت حينذاك لا تزال جالسة أمام مرآتها تدثر كتفيها النحيلتين بمئزر. وفي وسط الغرفة وقفت سونيا تغرز دبوسًا في شريط لتثبته في مكانه، فامتنع وبلغ بها الضغط مبلغ إيلام إصبعها.

قالت ناتاشا وهي تستدير ممسكة بشعرها بين يديها قبل أن تجد الوصيفة وقتًا للتخلي عنه: «ليس على هذا الشكل يا سونيا، العقدة ليست هكذا، تعالي.»

وجلست سونيا قريبًا منها، فغيرت ناتاشا وضع الشريط، وقالت الوصيفة وهي لا تزال ممسكة بشعرها: «اعذريني يا آنسة، لا سبيل أبدًا ...»

– «آه يا رب! تستطيعين الانتظار قليلًا. هكذا يا سونيا، لقد استقام الأمر الآن.»

وقالت الكونتيس: «هل فرغتما؟ تكاد الساعة أن تقرع عشرًا.»

– «فورًا، على الفور، وأنتِ يا أماه، هل أنت جاهزة؟»

– «لم يبق عليَّ إلا وضع قلنسوتي.»

هتفت ناتاشا: «لا تضعيها بدوني، لن تحسني وضعها!»
– «ولكن الساعة قد بلغت العاشرة.»

كان مقررًا أن يصل ركبهم إلى مكان الحفلة في العاشرة والنصف، مع ذلك لم تكن ناتاشا قد ارتدت ثيابها بعدُ، ثم كان عليهم المرور بقصر «التوريد» لأخذ قريبتهم.

فرغت ناتاشا أخيرًا من شعرها، فهرعتْ مُزمَّلةً بثوب داخلي لأمها فوق تنورة قصيرة تظهر تحتها أحذية الرقص تفحَّص سونيا، ثم انتقلت منها إلى الكونتيس. أدارت لها رأسها وأثبتت قلنسوتها بدبوس، وطبعت قبلة فوق شعرها الأشيب، وعادت تجري نحو الوصيفات اللاتي كن يسوين ثوبها.

كان عليهن تقصير ذلك الثوب الذي كان أطول من المطلوب. وصيفتان تعملان فيه بهمة وتقطعان الخيوط بأسنانهما، بينما راحت ثالثة وبين شفتيها كمية من الدبابيس تنتقل من الكونتيس إلى سونيا، ورابعة تحمل فوق ذراعها الثوب الهفهاف الخارجي.

– «مافروشا، عجِّلي يا عزيزتي.»
– «ناوليني القمع يا آنسة، هل تريدين؟»

ظهر الكونت على عتبة الباب، وقال: «هل ستفرغن قريبًا؟ هاكنَّ عطورًا. لا شك أن الآنسة بيرونسكي تترقب وصولنا.»

قالت الوصيفة وهي ترفع على إصبعين الثوب الهفهاف الموشى، ثم تنفخ عليه وتنفضه لتبين — ولا شك — خفته الفائقة: «لقد فرغت يا آنسة.»

شرعت ناتاشا ترتديه وهتفت بأبيها الذي وارب الباب: «لحظة واحدة، لحظة واحدة، لا تدخل يا أبي.»

كان صوتها ينبعث خلال السحابة الحريرية التي تخفي وجهها. دفعت سونيا الباب بعنف، وبعد دقيقة، سُمح للكونت بالدخول، فدخل مُعطَّرًا مدهنًا في ثوب أزرق وجوربين حريريين وخفين رشيقين.

هتفت ناتاشا وهي منتصبة وسط الحجرة تسوِّي ثنيات ثوبها: «آه! أبتاه، إنك جميل جمال القلب!»

قالت إحدى الوصيفات وهي جاثية على ركبتيها تجذب ذيول الثوب، بينما تنتقل الدبابيس من ركن فمها الأيمن إلى الركن الأيسر: «اسمحي لي يا آنسة، اسمحي لي.»

وأجابت سونيا على قولها في يأس: «قولي ما تريدين، ولكنني أؤكد لك أنه ما زال طويلًا.»

ذهبت ناتاشا تعاين نفسها في المرآة الكبيرة. رأت أن الثوب طويل فعلًا.

اعترضت مافروشا وهي تتبع سيدتها على أربع: «البتة! إنه مناسب تمامًا هكذا يا آنسة.»

وقالت دونياشا بلهجة حازمة: «إذا كان لا يزال طويلًا؛ فإن تقصيره لن يستغرق أكثر من دقيقة.»

واستلَّتْ إبرة كانت مغروسة في منديلها، وراحت تعمل بلهفة وشوق، وفي تلك اللحظة دخلت الكونتيس بقلنسوتها وثوبها المخملي، واقتربت بخطوات صغيرة وجلة.

صاح الكونت: «أوه! أوه! كم هي جميلة! إنها تكسفكن جميعًا.»

وهمَّ يُقبِّلها، لكنها أبعدته عنها متضرجة الوجه؛ خشية أن يُفسد زينتها. قالت ناتاشا: «أميلي القلنسوة أكثر من ذلك يا أماه، انتظري سوف أُسوِّيها بنفسي.»

اندفعت فجأة وبعنف شديد حتى إن الوصيفات اللاتي كُنَّ يَخِطنَ ذيل الثوب لم يجدن متسعًا من الوقت ليتبعنها، فاقتطعت أيديهن جانبًا صغيرًا من قماش الثوب.

– «آه! رباه! ماذا بعد؟ إنني لست مسئولة قط لعمري!»

أكدت دونياشا: «سوف أخيطه ولن يراه أحد.»

قالت المربية وهي تدخل الحجرة: «آه يا جميلتي، يا ملكتي الصغيرة! وسونيا، آه يا جميلاتي.»

وأخيرًا احتوتهم العربة في العاشرة والربع ودرج الركب، ولكن كان عليهم الذهاب إلى «جاردان توريد».

كانت الآنسة بيرونسكي جاهزة، وعلى الرغم من بشاعتها وتقدُّمها في السن، فإن مثل هذا الهرج والمرج الذي وقع عند آل روستوف تكرر وقوعه عندها، ولكن باندفاع أقل؛ بفضل ممارستها الطويلة لهذا النوع من الحياة. كانت شخصيتها المنفرة معطرة كلها ومدهنة ومزوقة، ووجهها الهرم مجملًا حتى وراء الأُذُنين، بل إن وصيفتها العجوز هلَّلت هي الأخرى لدى رؤية سيدتها تدخل في البهو في ثوبها الأصفر المزين بشعار الإمبراطورة. تفضلت بالموافقة على زينة آل روستوف، فراح هؤلاء بالمقابل يُطرون ذوقها الرفيع في انتخاب زينتها وانتقاء حُليِّها. وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة، كان ركب السيدات يتحرَّك، وصعدت السيدات إلى العربات وهن يولين أثوابهن وشعورهن عناية بالغة.

الفصل الخامس عشر

في الحفلة

كانت ناتاشا طيلة ذلك النهار منصرفة إلى مشاغلها الجمة حتى إنها لم تجد متسعًا من الوقت للتفكير فيما ينتظرها.

تمثلت نفسها لأول مرة عندما لفح وجهها هواء الليل الرطيب البارد، واحتوتها العربة الضيقة المتهززة في ظلامها المطبق، في القاعات المضاءة المُشعَّة، وفي غمرة الموسيقى وغمار الزهور والرقصات، والإمبراطور، وزهرة شباب بيترسبورج اللامعين. كان ما ينتظرها على درجة من الروعة متناقضة كل التناقض مع شعورها الحالي بالبرد والارتباك والظلام، حتى إن ناتاشا ما كانت تستطيع تصديق الواقع المنتظر. لم تؤمن إلا في اللحظة التي مرت بها فوق سجادة المدخل الحمراء ودخلت الدهليز؛ حيث نزعت فروتها، وتقدَّمت مع سونيا تسبقان أمهما، ترتقيان السلم العريض المشعَّ بالأضواء، المزين بالزهور، وحينئذ فقط تذكرت الطابع الذي قررت اتخاذه خلال الحفلة الراقصة؛ وهو طابع جليل وقور يتلاءم — حسب أفكارها — مع كل فتاة شابة في مثل هذه المناسبة. عُنيتْ لفورها باتخاذ تلك الأمارات، لكنها — لحسن الحظ — شعرت أن عينيها تترجرجان. لم تعد ترى شيئًا بوضوح، وأخذ نبضها يضرب بعنف وقلبها يخفق؛ بذلك لم تستطع اتخاذ السمة المقررة التي لو اتخذتها لجعلت منها أضحوكة. تقدَّمت إذن يُغشِّيها الاضطراب، لا تكاد تستر بلبالها. والحقيقة أنها ما كان يمكن لها أن تجد اتزانًا. أما آل روستوف فقد غمرهم فيض المدعوين، وكلُّهم مثلُهم في ثياب الحفلة يتحدَّثون مثلهم بصوت خافت، وكانت مرايا السلم تعكس صور السيدات في أثوابهن البيضاء والزرقاء والوردية، وسنا اللآلئ والماسات فوق أكتافهن وأذرعهن العالية.

أخذت ناتاشا تختلس النظر إلى المرايا دون أن تستطيع تمييز نفسها عن الأخريات، كن جميعًا مختلطات في عرض مشرق بهي. وعندما دخلت البهو الأول أصمَّها ضجيج

الأصوات المتناسقة والخطوات والتهاني المتبادلة، وأعماها إشعاع الأضواء وروعة الأثاث والرياش. استقبل أصحاب القصر — الذين لم يفتئوا منذ نصف ساعة يرددون وهم وقوف عند المدخل عبارتهم الخالدة لكل زائر جديد: «يسعدنا أن نراكم» — آل روستوف والآنسة بيرونسكي بهذه العبارة بالذات.

دخلت الفتاتان في ثيابهن البيضاء متشابهتين حتى بالورود التي تُزين شعرهما الأسود، وانحنتا باحترام انحناءة واحدة، لكن نظرة ربة البيت توقفت عند ناتاشا الهيفاء أكثر من مألوف عادتها، وخصَّتها بابتسامة خاصَّة مختلفة عن ابتسامة الترحيب المبتذلة التي كانت تزجيها للضيوف. لا شك أنها استعادت بعيني خيالها حفلتها الراقصة الأولى وأيام شبابها الذهبية التي اختفت إلى الأبد، وأحياها اليوم ظهور ناتاشا المليحة. كذلك تَبِع رب البيت ناتاشا بعينيه وسأل الكونت عن أي الصبيتين ابنته، ثم قال وهو يلثم أطراف أصابعه: «رائعة!»

كان المدعوون في قاعة الرقص متكأكئين حول باب المدخل بانتظار الإمبراطور. استطاعت الكونتيس أن تجد لها مكانًا في الصفوف الأولى. وسمعت ناتاشا بعض الأشخاص يتحدثون عنها، وأحست بهم ينظرون إليها، فحدست أنها أعجبتهم، وهدأ قلقها واضطرابها قليلًا.

قالت تحدِّث نفسها: «هناك مَن هم مثلنا، وهناك من هم أسوأ منا.»

وفي هذه الأثناء شرعت الآنسة بيترونسكي تعدد للكونتيس أسماء الشخصيات البارزة، قالت وهي تشير إلى عجوز فضي الشعر أجعده مندمج بين فئة من السيدات يضحكن: «هذا هو وزير هولندا، هنا ذو الشعر الأبيض.»

وأضافت وهي تشير إلى هيلين التي كانت داخلة: «وهذه ملكة بيترسبورج الكونتيس بيزوخوف.»

– «كم هي جميلة! إنها لا تنقص عن ماري أنتونوفنا ناريشكين (عشيقة الإمبراطور ألكسندر) جمالًا! انظري كيف يتهافت الشباب والشيوخ حولها كالفراش. إنها جميلة وذكية! يقال إن الأمير «س» مجنون بها، لكن هاتين الأخريين رغم بشاعتهما محاطتين بلفيف أكبر من الرجال.»

وأشارت إلى سيدتين كانتا تخترقن القاعة: أم، وبنت ذات جمال مخيف حقًّا. استرسلت الآنسة بيرونسكي: «إنها صفقة ملايين، وهؤلاء هم المعجبون. انظري هذا هو أخو الكونتيس بيزوخوف آناتول كوراجين.»

وأشارت إلى فارس جميل من سلاح الحرس كان يخطر أمامها شامخ الرأس، شاخص البصر إلى الأمام. أردفت: «يا له من فتى جميل، أليس كذلك؟ يقال: إنهم سيزوجونه بكيس الملايين هذا، ثم ها هو ابن عمك دروبيتسكوي هو الآخر يغازلها.»

وأجابت على سؤال طرحته الكونتيس: «كيف! لكن هذا كولنكور؛ سفير فرانسا، بشحمه ودمه. ألا يشبه الملوك! إن هؤلاء الفرنسيين لطفاء ظرفاء رغم كل شيء. ما من أحد أكثر ظرفًا منهم في المجتمع. آه! ها هي ذي أخيرًا ماري أنتونوفنا! كلا بلا شك، لا مثيلة لها! ثم يا لبساطة مظهرها! معبودة حقًّا! وهذا الفتى الضخم ذو النظارتين. إنه ماسوني دولي، إنه يشبه الدمية القبيحة بجانب زوجته.»

وأشارت إلى بيزوخوت الذي كانت تقصده بهذا القول.

تقدَّم بيير يؤرجح جسمه الضخم يشق طريقه وسط الجماعة، يومئ برأسه ذات اليمين وذات الشمال بمثل ما يفعل الطفل الغرير عندما يجتاز ساحة أحد المعارض. كان يشقُّ طريقه وكأنه يبحث عن بعضهم.

تأملت ناتاشا بسرور وجه تلك «الدمية القبيحة» كما سمته الآنسة بيرونسكي الذي تعرفه حق المعرفة. كانت تعرف أن بيير يبحث عنهم، وبصورة خاصة عنها: «ألم يعدها من قبل بحضور هذه الحفلة الراقصة ليقدم لها راقصين؟»

مع ذلك توقف بيزوخوف قبل أن يصل إليهم قُرب رجل أسمر جميل معتدل القامة في بزة بيضاء كان يتحدث أمام إحدى النوافذ مع رجل مديد القامة تزين صدره الأوسمة التي يتدلى فوقها شريط الوسام الأكبر. ذلك الرجل بولكونسكي الذي بدا لها أنضر شبابًا، وأكثر جمالًا، قالت ناتاشا: «إليك كذلك، يا أماه، أحد معارفنا بولكونسكي. انظري إليه ألا تذكرين؟ لقد قضى ليلة عندنا في أوترادنواي.»

قالت الآنسة بيرونسكي: «آه! أتعرفونه؟ إنني لا أطيق رؤيته. إنه اليوم يبعث المطر والصحو كما يقولون، ثم إنه على كبرياء لا حدود لها! إنها موروثة عن أبيه. لقد اتحد مع سبيرانسكي، وهما الآن يضعان مشروعات لا يعلم بها إلا الله. انظروا إليه كيف يعامل السيدات. وها هي ذي واحدة تحادثه وهو مدير. لو كنت أنا الذي أُحدثه لعاملته كما يستحق!»

الفصل السادس عشر

وصول الإمبراطور

وفجأة عمَّ الاضطراب في القاعة الكبرى وعلا الهمس، وتقدم المدعوون ثم تنحوا، وظهر الإمبراطور يتبعه أصحاب البيت وسط سياج من كبار الشخصيات، وصدحت الموسيقى. تقدم الإمبراطور وهو يوزع التحية ذات اليمين وذات الشمال وكأنه يتعجل الخلاص من هذه المجاملة المملة، وعزفت الموسيقى لحن «بولونيز»، الذي كان شائعًا في ذلك العصر بسبب الكلمات التي ترافقه:

ألكسندر وأليزابيث،
إنكما مبعث نعيمنا ...

مضى الإمبراطور إلى البهو فتكالب الجمهور على الأبواب، وتسلل بعض ذوي الوجوه المتلونة حسب متطلبات الظرف إلى القاعة، ثم خرجوا منها بعد قليل، وانثنى الجمهور متراجعًا فشوهد الإمبراطور يتحدث مع مضيفته. وهرع رجل في مقتبل العمر ذو قسيمات مضطربة يتوسل إلى السيدات أن يتنحين، انقضَّ عليهن انقضاضًا. كان بين السيدات من دلَّت قسمات وجوههن على أنهن لا يأبهن مطلقًا لمتطلبات اللياقة الاجتماعية. مع ذلك، فقد كن يتهافتن على احتلال الصفوف الأولى عارضات زينتهن. واقترب «الفرسان» من الراقصات، وتشكلت الأزواج لمواكبة لحن «البولونيز».

وأخيرًا تنحى كل الناس فظهر الإمبراطور باسمًا ترافقه المضيفة دون أن يُعنى بمشية إيقاعية معها، وتبعهما المضيف ترافقه ماري أنتونوفنا ناريشكين، فالسفراء فالوزراء فالجنرالات، التي كانت الآنسة بيرونسكي لا يُعْييها تسميتهم. استُدعي أكثر من نصف عدد السيدات للدخول في تلك الرقصة، وأخذت كل راقصة مكانها مع فارسها. وحينئذ تبينت ناتاشا أنها وأمها وسونيا كنَّ في عداد القلَّة التي كُتب لها أن تقف موقف المتفرج.

لبثت واقفة في مكانها يتدلَّى ذراعاها الناحلين إلى جانبيها، وتضطرب حنجرتها التي لم يكتمل نموها بعدُ، كاتمة أنفاسها حزينة ملتمعة العينين، تنظر أمامها بوجوم بينما كانت سحنتها القلقة تتلاءم مع انتظار فرحة غير منتظرة بقدر ما تتماشى مع توقع حزن كبير. لم يكن الإمبراطور ولا الشخصيات الكبيرة التي أشارت إليها الآنسة بيرونسكي يشغلون تفكيرها. لم تكن تفكر إلا في شيء واحد: «حقيقة لن يتقدم أحد لمراقصتي، ألن أرقص في عداد الأزواج الأولى؟ ألن أكون مرموقة من هؤلاء السادة الذين يبدون الآن وكأنهم لا يرونني، والذين إذا نظروا إليَّ بدا عليهم أنهم يحدِّثون أنفسهم بقولهم: «آه! ليست هي؛ فلنحول أبصارنا!» كلَّا، إن هذا لا يمكن أن يدوم. يجب أن يعلموا بأنني أريد أن أرقص، وأنني أرقص رقصًا ساحرًا، وأنهم سيجدون متعة من مراقصتي.»

أخذت أنغام البولونيز التي طال ترديدها تصل الآن إلى أذني ناتاشا أشبه بأصوات صاخبة مشوشة تبعث في نفسها الرغبة في البكاء. وكانت الآنسة بيرونسكي قد ابتعدت عن آل روستوف، والكونت قد أصبح في الجانب الآخر من القاعة. ولبثت الكونتيس وسونيا وهي نفسها في أمكنتهن أشبه بالتائهات وسط غابة، وسط ذلك الحشد من الغرباء الذين ما كانوا يأبهون بوجودهن. مرَّ الأمير آندريه بصحبة سيدة بالقرب منهن دون أن يعرفهن، ومرَّ آناتول الجميل بدوره باسمًا يتحدث مع مرافقته، وألقى على ناتاشا نظرة عابرة كتلك التي ينظر بها المرء إلى ستارة على جدار، وظهر بوريس مرتين، لكنه في كل مرة منهما كان يُعنى بأن لا تلتقي أنظاره بنظراتهن. جاء بيرج وزوجته ولم يكونا يرقصان فانضما إلى الأسرة، لكن هذا الاجتماع العائلي جرح ناتاشا، ألم يكن هناك مكان أفضل من هذا للأحاديث العائلية؟ لم تعد فيها أي اهتمام وهي تتحدث عن ثوبها الأخضر.

وأخيرًا، قاد الإمبراطور مراقصته بعد أن رقص مرتين أو ثلاث مرات، فتوقفت الموسيقى عن العزف. هرع مساعد مشدوه إلى السيدات من آل روستوف وسألهن أن يتنحين أكثر من ذلك، رغم أنهن كنَّ لصق الجدار. ومن فوق السدة، شرعت الموسيقى تعزف ألحان الفالس البطيئة الجذابة المتناسقة. سرَّح الإمبراطور في القاعة نظرة باسمة، ومرَّت دقيقة طويلة قبل أن يتقدم زوج من الراقصين إلى الحلبة. جاء المساعد المرافق واقترب من الكونتيس بيزوخوف يطلب مراقصتها. وضعت يدها فوق كتفه دون أن تنظر إليه، فطوقها المساعد المرافق وهو ممتلئ بالثقة بنفسه في عنف غير متعجل، وقادته مراقصته منزلقة معه حتى نهاية الحلبة ثم أمسكت بيسراه، أدارته حول نفسه على إيقاع

الموسيقى الآخذ بالإسراع، فلم يَعُد يُسمَع إلا صوت المهاميز في قدمي الراقص البارع تطن مع الإيقاع، بينما أخذ ثوب مراقصته في الخطوات الثلاثة يشع وكأنه يلتهب أو ينفث اللهب. شعرت ناتاشا وعيناها شاخصتان إلى هذا الزوج السعيد أنها على وشك البكاء: «لمَ لم تكن هي ترقص هذه الجولة الأولى من هذا الفالس؟»

كان الأمير آندريه، بثوبه الأبيض الذي يشير إلى رتبة زعيم في الفرسان وجوربيه الحريريين وخُفَّيه، واقفًا في الصف الأول وديع النفس، حي الروح. لم يكن بعيدًا عن آل روستوف. كان البارون فيرهوف يتجاذب معه أطراف الحديث حول جلسة مجلس الدولة الأولى التي حدِّد موعدها غدًا. ولما كان آندريه صديقًا حميمًا لسبيرانسكي، وعضوًا في اللجنة التشريعية، فقد كان في مقدوره إمداد البارون بمعلومات دقيقة حول تلك الجلسة التي فُسر إعلانها على أشكال مختلفة متناقضة، لكنه لم يكن يُعير البارون وأقواله كبير اهتمام، بل كان ينظر إلى الإمبراطور تارة، وإلى الراقصتين تارة أخرى، أولئك الراقصون الذين ما كانوا يجرءون، رغم ما في نفوسهم من شهوة للرقص على الدخول إلى الحلبة. وبينما كان يراقب أولئك الراقصين الذين روَّعهم وجود الإمبراطور، وأولئك الراقصات اللاتي كن يَذُبْنَ حنينًا إلى تقبُّل الدعوات، تقدَّم بيير منه وأمسك بذراعه وقال له: «أنت الذي تحب الرقص، هناك الفتاة التي أحميها؛ روستوف الشابة. ادْعُها وراقِصْها إذن.»

سأل بولكونسكي: «أين هي؟»

وقال للبارون معتذرًا: «عفوك يا بارون؛ سوف نتابع حديثنا في مكان آخر. أما في هذه الحفلة فيجب أن نرقص.»

تقدم في الاتجاه الذي عيَّنه بيير، وفجأة قفز أمام عينيه وجه ناتاشا اليائس. عرفها لفَوْره وحدَّس الشعور الذي يعتلج في نفسها، وأدرك أنها مبتدئة، فاقترب من الكونتيس روستوف هاشًّا باسمًا. قالت هذه ووجهها يتضرج خجلًا: «اسمح لي أن أقدم لك ابنتي.»

قال آندريه وهو ينحني بتحية عميقة نقضت كل ما قالته الآنسة بيرونسكي عن خشونته وصلفه: «إننا معارف قدماء، ولعل الكونتيس تذكر ذلك.»

وقبل أن ينطق بعبارات دعوته المألوفة، قدَّم ذراعه ليطوق قوام ناتاشا عارضًا عليها جولة فالس. أضاء وجه ناتاشا القلق الذي كان على استعداد للإعراب عن اليأس بقدر الاستعداد للتدليل على الفرح الطاغي، وأشرقت عليه فجأة تلك الابتسامة الطفولية السعيدة المليئة بالعرفان.

كانت بسمتها التي شعَّت خلال الدموع الوشيكة تعبِّر عن قول صاحبتها: «لقد كنت أنتظرك منذ أمد طويل.» بينما أسندت الفتاة يدها على كتف الأمير وهي وضاءة الوجه مروعة معًا. ودخل زوج الراقصين الثاني إلى حلبة الرقص. كان الأمير من خيرة الراقصين في عصره، وبرهنت ناتاشا على أنها ترقص هي الأخرى بإبداع. كانت قدماها الصغيرتان في حذائيهما الحريريين الخفيفين يدرجان بسرعة وكأنهما يندفعان بحركة كامنة فيهما، وكان وجهها طافحًا بالسعادة. كان عنقها وذراعاها العاريان إذا قيسا بعنق هيلين وذراعيها نحيلين وأقل جمالًا. صحيح أن كتفيها لم يتم نموهما بعدُ، وحنجرتها لم تتكون، لكن هيلين كانت تنوء تحت نيران ألوف النظرات المنصبة على مجموع جسمها، بينما كانت ناتاشا مجرد طفلة عري جيدها لأول مرة، تشعر بالخجل الكبير لظهورها على هذا الشكل، لولا ما قيل لها من وجوب ارتداء هذا الزي توطئة لمجاراة المجتمع.

كان الأمير آندريه يحب الرقص، ويرغب في الخلاص من أحاديث السياسة والمداولات الجدية التي كان يبهَظُ بها، ثم إنه تعمَّد تبديد جو التحفظ والضيق الذي خلقه الإمبراطور بحضوره، فقرر الانشغال في الرقص، وانتقى ناتاشا ليُدخل السرور على نفس بيير؛ لأنها كانت أول فتاة جميلة استوقفت أبصاره، لكنه ما إن طوَّق خصرها النحيل المرن، وشعر بها تتحرك قريبًا منه، وما إن رآها تبتسم إليه عن مقربة حتى طفَتْ فتنة الفتاة على روحه، وصعدت النشوة إلى رأسه؛ أحس بالشباب والحياة يكتسحان كيانه عندما قاد الفتاة إلى مكانها الأول، ووقف معها يراقبان الراقصين وهو مبهور الأنفاس.

الفصل السابع عشر

ناتاشا وآندريه

جاء بوريس بعد آندريه يراقص ناتاشا، وأعقبه المساعد المرافق الذي افتتح الرقص، ثم شبان آخرون أخذوا يتوافدون، حتى إن ناتاشا لوفرة طالبيها أتحفت سونيا بعدد كبير منهم. لم تتوقف عن الرقص طيلة تلك الليلة وهي مشرقة الوجه، أرجوانية الوجه، غير عابئة بما يستوقف الاهتمام العام، ولا مصغية إلى البحوث المتداولة؛ لذلك لم تلاحظ دخول الإمبراطور في حديث طويل مع سفير فرنسا، ومخاطبته هذه السيدة بإيناس خاصٍّ، ولم تنتبه إلى أن هذا الأمير أو ذاك عمل أو قال كذا وكذا، وأن هيلين أحرزت نجاحًا كبيرًا، وأن شخصية كبيرة مرموقة تفضلت بتوليتها عناية خاصة، بل إنها لم تر الإمبراطور ولم تشعر بمغادرته الحفل إلا بانتعاش الحركة العامة إثر مغادرته القاعة. رقص الأمير آندريه معها إحدى تلك الرقصات المرحة التي سبقت العشاء. ذكَّرها بلقائهما الأول في ممشى حديقة أوترادنواي بتلك الليلة القمراء التي لم يطرق النوم جفونها خلالها، وبالحديث الذي بلغ مسامعه عفوًا ساعة أن كان قرب النافذة. تخضَّبت وجنتاها لتلك الذكرى، وحاولت إيجاد عذر لنفسها وكأنها خجلت للإحساسات التي اطَّلع عليها الأمير عفوًا وهي تفثأ بركانها.

كان الأمير — ككل الذين نشئوا في المجتمعات الراقية — يحب لقاء أشخاص لا يحملون الطابع الاجتماعي المبتذل. كذلك ناتاشا في دهشتها واستغرابها، وفي وداعتها وقلة درايتها، كما في أخطائها في اللغة الفرنسية. وعليه أخذ يعاملها برفق ورقة نادرين، جلس بجانبها يحدثها عن أمور عادية جدًّا مُغرقة في التفاهة، ويعجب ببريق نظرتها المرحة، وابتسامتها التي تعبِّر عن سرورها الداخلي أكثر ممَّا تُعبِّر عن منطوق أقوالها. كان يتأمَّل ظرفها البريء الساذج كلما راقصها أو خاصرها راقص آخر. وبينما عادت ناتاشا

بعد حركة تصويرية رائعة تخللت الرقصة الخفيفة البهيجة مبهورة الأنفاس إلى مكانها، تقدم راقص جديد يطلب مخاصرتها، كادت ترفض لشعورها بالإعياء، لكنها فجأةً اتكأت على كتف مراقصها وابتسمت للأمير آندريه.

«كنت أشعر بسرور بالغ لو استرحت وجلست بقربك لأنني متعبة، لكنك ترى كيف يبحثون عني، وإنني لشديدة الاغتباط. نعم، إنني سعيدة وأحب كل الناس هذا المساء، ثم إننا متفاهمان تمامًا.» تلك كانت بعض ما تعبِّر عنه ابتسامتها إلى جانب أشياء أخرى، وعندما أعادها فارسها إلى مكانها جرَت تخترق القاعة لتدعو سيدتين للقيام بالصورة الراقصة التالية.

قال آندريه في سرِّه وهو يتابعها بعينيه دون عمد: «إذا مضت إلى ابنة عمها أولًا ثم إلى السيدة الأخرى؛ فستكون زوجتي.» وجرت ناتاشا إلى ابنة عمِّها مباشرة. فكَّر آندريه: «يا للترهات التي تجول أحيانًا في خاطرك! على كل حال، إن هذه الصبية جمة اللطف والسذاجة وسلامة الطوية، حتى إنه لن يمضي شهر واحد إلا وتكون قد أُخذت؛ لا مثيل لها هنا حقًّا.» تلك كانت اتجاهات الأمير الفكرية عندما عادت ناتاشا تجلس إلى جانبه بعد أن أصلحت وضع الوردة في ثوبها.

انتهت الرقصة المرحة، فاقترب الكونت العجوز بثوبه الأزرق من الراقصين، دعا الأمير آندريه إلى زيارتهم وسأل ابنته عما إذا كانت سُرت ذلك المساء، فلم تجب ناتاشا لفورها وتركت ابتسامتها تقول: «كيف يمكن طرح مثل هذا السؤال؟» ثم اعترفت أخيرًا: «كما لم أُسر في حياتي!»

ولاحظ الأمير آندريه أن ذراعيها النحيلتين قد تحركتا لتطويق أبيها، ثم عادا يسقطان إلى جانبيها بسرعة. والحقيقة أن ناتاشا لم تشعر قط بمثل هذه البهجة. كانت تتذوق تلك اللحظة من السعادة القصوى؛ حيث يشعر المرء أنه مُفْعم بالطيبة والكمال، ولا يؤمن بالسوء ولا بالفقر ولا بالألم.

للمرة الأولى في هذه الحفلة الراقصة، شعر بيير بألم للمركز الرائع الذي تحتله زوجته في الوسط الراقي. لبث واقفًا قرب نافذة كئيبًا ساهمًا يقطع جبينه غضون طويل، ينظر خلال نظارتيه دون أن يرى شيئًا.

وبينما كانت ناتاشا تمر بالقرب منه في طريقها إلى قاعة المائدة لتناول العشاء، استوقف حزنه وكآبته انتباهها. وقفت وكلها رغبة في مساعدته وإملاء فؤاده بفيض السعادة التي تغمرها، فقالت: «كم يرفه المرء عن نفسه هنا يا كونت، أليس كذلك؟»

أول حفلة لناتاشا.

فابتسم بيير — الذي لم يفقه شيئًا ولا شك من قولها — ابتسامة ساهمة وقال: «نعم، إنني سعيد جدًّا.»

فكرت ناتاشا: «كيف يمكن أن يكون المرء حزينًا، وخصوصًا بيزوخوف هذا؛ إنه جم اللطف والعذوبة والطيبة. كل واحد منهما يحب الآخر، لا يخلق بأحدهما إهانة الآخر وتجريحه، ومن أجل ذلك كانت السعادة عامة وواجبة.»

الفصل الثامن عشر

نقطة التحول

لم يعلق الأمير آندريه غداة اليوم التالي على حفلة الأمس إلا بذكرى عابرة: «نعم، لقد كانت حفلة لامعة جدًّا. ماذا بعد؟ آه نعم. روستوف الصغيرة فاتنة لعمري، فيها شيء ناضر لا أدري كنهه، وفيها شيء فريد يزيد في تمييزها عن نسائنا البيترسبورجيات.»

تلك كانت حدود أفكاره، وما إن تناول الشاي حتى عاد إلى العمل، لكنه ما شعر أنه على غير ما يرام، سواء أكان ذلك بسبب التعب أم الأرق، وهو شعور كثيرًا ما أحس به من قبل وجعله يتذمر من عمله؛ لذلك فقد سرَّه أن أُعلن عن قدوم زائر.

كان الزائر — وهو يدعى بيتسكي — عضوًا في لجان مختلفة، مواظبًا على كل الحلقات، مناصرًا متحمسًا لسبيرانسكي والإصلاحات، ناقلًا إشاعات مجد في كل العاصمة، وواحدًا من أولئك الذين يسيرون في ركاب المجتمع الراقي بآرائه وأفكاره وأزيائه، الأمر الذي يجعله ومَن على شاكلته في عداد أشد المتحمسين للأفكار الحديثة. لم يكد الزائر يخلع قبعته حتى راح هارعًا نحو آندريه يتبسط معه في موضوعات مطولة متصنعًا الاهتمام. صرح بأنه اطلع على تفاصيل عديدة تتعلق بجلسة مجلس الدولة التي افتتحها الإمبراطور نفسه هذا الصباح، وتلا فيها خطابًا رائعًا. لقد تحدث الإمبراطور كما لا يحسن التحدث مثله إلا كل عاهل دستوري؛ لقد قال بكل صراحة: «إن مجلس الدولة والشيوخ هما أجزاء الدولة، وإن الحكومة يجب أن ترتكز على أسس متينة، وليس على الارتجال.» وقال: «إن النظم المالية ينبغي أن يعاد تنظيمها، وكذلك الموارد العامة.» كان بيتسكي يقص هذه التفاصيل وهو يُظهر كلمات معينة، ويجيل حوله عينين كبيرتين، وأخيرًا خلص إلى القول: «نعم، إنه حدث يفتح أفقًا جديدًا، أعظم وأجل أفق في تاريخنا.»

ولدى سماع الأمير هذه القصة عن حفلة الافتتاح التي طالما ترقبها بصبر نافد، وعلق عليها مزيدًا من الأهمية، أدهشه أن لم يشعر بأية استجابة لهذا الحديث بعد وقوعه، وأن

يجد في ذلك أمرًا أكثر من تافه، أظهر سخرية معادلة لتعلق بيتسكي وحماسه، وطافت في رأسه فكرة: «ماذا يهم بيتسكي ويهمني؟ بل ماذا يهمنا جميعًا إن راق للإمبراطور التحدُّث على هذا المنوال في المجلس؟ هل يجعلنا هذا أفضل مما نحسن وأكثر سعادة؟»

وفجأة نزعت تلك الفكرة من رأسه كل اهتمامه بالإصلاحات التي كانت في طريق الصدور والتنفيذ، كان عليه أن يتناول العشاء ذلك اليوم بالذات عند سبيرانسكي في «لجنة صغيرة»، كما قال له مضيفه عندما دعاه، وكانت فكرة تناول الطعام في حدود عائلية، وبين أصدقاء رجل كان شديد الإعجاب به، قد فتنته أكثر مما افتتن من قبل في علاقاته الودية كلها، لكنه ها هو الآن لا يجد دافعًا للذهاب إلى ذلك الحفل.

مع ذلك، فقد ولج باب المسكن الذي يملكه سبيرانسكي في «جاردان توريد» في الساعة المحددة. كان ذلك المسكن يمتاز بنظافة الأديرة. وجد آندريه — الذي وصل متأخرًا قليلًا — في قاعة الطعام المفروشة بألواح خشبية كل المدعوين الذين يؤلفون «اللجنة الصغيرة» مجتمعين فيها منذ الساعة الخامسة، ولم يكن هناك من السيدات إلا ابنة الوزير، التي كانت ذات وجه طويل كأبيها ومربيتها، وكان المدعوون ثلاثة: جرفيس، ومانييتسكي، وستوليبين. سمع آندريه منذ أن دخل الردهة الخارجية صخب أصوات وضحكة مدوية نقية تشبه ضحكة الممثلين، وسمع بعضهم الذي كان صوته شبيهًا بصوت سبيرانسكي يطيل آهاته ويباعد بينها: «ها! ها! ها!» بشكل لم يُر عليه سبيرانسكي من قبلُ، أحدثت تلك الضحكة المدوية الحادة الصادرة عن رجل الدولة وذلك الجذل الغريب تأثيرًا شاذًّا في نفس آندريه.

دخل إلى قاعة الطعام، فرأى المجتمعين منتظمين حول مائدة الشراب ومقبلات مقامة بين النافذتين، وسبيرانسكي — بشارة الوسام الرفيع فوق سترته الرسمية الشهباء، والصدارة البيضاء نفسها، وربطة العنق البيضاء العالية التي كان يضعها عند افتتاح جلسة مجلس الدولة العتيد — جالسًا قرب المائدة بوجه مشرق حبورًا. وكان مانييتسكي ملتفتًا إلى رب المنزل الذي كان يصغي إليه ضاحكًا سلفًا مما سيقوله، يروي له أحدوثة. فلما دخل الأمير آندريه عادت ضحكات عالية جديدة تعلو على صوت المحدث وتخنق كلماته، فستوليبين انطلق يقهقه بصوت أجش وهو يمضغ قطعة من الجبن. أما جرفيس فظل يضحك ضحكته المصفرة، وسبيرانسكي ضحكته الحادة المتقطعة. مد يده السمينة البيضاء إلى آندريه دون أن يكف عن ضحكته وقال: «يسعدني أن أراك يا أمير.»

ثم قطع على مانييتسكي أحدوثته بقوله: «لحظة.» أضاف يخاطب الأمير آندريه: «إن عشاءنا مكرس للسرور؛ لذلك فقد اتفقنا على أن لا نتحدث في الأعمال.» ثم التفت إلى المتحدث اللبق وضحك.

ازدادت دهشة آندريه لدى سماعه ضحك سبيرانسكي، فراح ينظر إليه بخيبة أمل حزينة، هل كان هذا سبيرانسكي فعلًا؟ لقد تبدد كل ما كان يظنه فيه من غموض فتَّان وسحر، فلم يعد يحس بشيء يربطه إليه.

استمرت الدعابات النارية تطوف بالمدعوين خلال فترة العشاء كلها. كان مانييتسكي إذا فرغ من فكاهته أو كاد، انبرى آخر يروي فكاهة أخرى أشد منها إضحاكًا، وكانت هذه الدعابات — وإن كانت لا تدور على الإدارة بمعناها الصحيح — تمس الأشخاص الإداريين عن قرب، حتى ليقال إن تفاهة ملاك الإدارة لدى هؤلاء المجتمعين ما كانت تستوجب منهم إلا لونًا من الرحمة والتسامح الساخرين. قص سبيرانسكي على ضيوفه أنه بينما كان يؤخذ رأي أحد كبار الموظفين المصاب بوقر في أذنيه، الذي كان حاضرًا في افتتاح مجلس الدولة ذلك الصباح، أجاب هذا أنه موافق على الرأي دون أن يُدرك كنهه، فراح جرفيس يقص بصورة مطولة حادثة تفتيش بالغة في السخف، الذي يطبعها بطابع مضحك يشمل أبطالها. أما ستوليبين فراح يهاجم بشدة وهو يُتَأْتِئ مفاسد العهد الفائت، الأمر الذي أعطى البحث صبغة جدية. سخر مانييتسكي من حماسة المتكلم الأخير وحماسه، وبرز جرفيس بدعابة تليق بالمقام، فعاد الحديث إلى صبغته المجونية الأولى.

من الطبيعي أن يحب سبيرانسكي الترفيه عن نفسه من وطأة أعماله في حلقة من الأصدقاء، وفهم أصدقاؤه، وهم مدعووه، رغبته فراحوا يسعون إلى الترفيه عنه بتسليته وتسلية أنفسهم بنفس الوقت، لكن ذلك الجذل بدا للأمير آندريه شاقًّا مغتصبًا. أزعجته نبرة صوت سبيرانسكي الحادة؛ فقد بدت له ضحكة هذا الرجل الطويلة متكلفة أحدثت جرحًا في أدق مشاعره. ولما كان وحده بينهم محتفظًا برزانته وجديته، فقد خشي أن يُعتبر متطفلًا، لكن ما من أحد لاحظ أنه لم يكن مُتَهَلِّلًا مثلهم. بدا كل الموجودين في أوج الغبطة.

همَّ آندريه أن يتدخل مرارًا في الحديث الدائر، لكنه في كل مرة كان يلاحظ أن أقواله تنبذ كما تنبذ الماء قطعة الفلين، وأخفق في مجاراتهم بأسلوب حديثهم. لم يكن في تلك الدعابات شيء يتنافى مع مقام الأشخاص وقواعد الأدب؛ فقد كانت كلها منتقاة تدل على بديهة ودقة فكرية تثير الضحك، لكنها مع ذلك كانت تفتقر إلى ذلك الشيء الخفي الذي يجعلها مُسْتَمْلحة بهيجة؛ لذلك ظلت وكأنها لم تكن.

انتهى العشاء فنهضت ابنة سبيرانسكي ومربيتها. قبَّل هذا ابنته وربَّت على خدها بيده البضة حتى إن تلك الحركة الحانية نفسها بدت لآندريه غير طبيعية.

ظل الرجال حول المائدة تبعًا للأصول الإنجليزية يحتسون شراب «البورتو»، وانتهى بهم الحديث إلى طرْق موضوع حرب إسبانيا، فأيدوا جميعًا موقف نابليون. وهنا سمح الأمير آندريه لنفسه بمعارضتهم. ابتسم سبيرانسكي، ولكي يدير دفة ذلك الحديث الشائك إلى وجهة أخرى، قص أحدوثة خارجة عن الموضوع؛ فعمَّ السكون، وصمت السامعون.

وبعد لحظة، سدَّ سبيرانسكي زجاجة الشراب وهو يقول: «إن الخمر الجيدة اليوم لا تطوف بالشوارع.» أعطى الزجاجة لخادم ونهض، فاقتدى به الآخرون واتجهوا نحو البهو وهم يصخبون. حمَل البريدُ إلى سبيرانسكي غلافين أخذهما وانسحب إلى مكتبه، وما إن خرج حتى تبدل الصخب بالجد، وأخذ المدعوون يتداولون الحديث بصوت خافت حول موضوعات جدية تمامًا، بيد أن سبيرانسكي عاد بعد حين وقال: «والآن لننتقل إلى الأحاديث المفخمة!»

وأشار إلى مانييتسكي وقال يخاطب الأمير: «إن له باعًا طويلة في هذا المضمار.»

اتخذ مانييتسكي لفوره وضعية مناسبة، وراح ينشد مقطوعة شعرية هزلية باللغة الفرنسية نظمها حول عدد من الشخصيات اللامعة في بيترسبورج. قوطع مرارًا بالتصفيق، فلما انتهى تقدم الأمير من سبيرانسكي مستأذنًا. سأله هذا: «إلى أين تذهب في مثل هذه الساعة المبكرة؟»

– «لقد ارتبطت بموعد لقضاء السهرة.»

لم يتبادلا كلمة أخرى، نظر آندريه عن قرب إلى تينك العينين الملساوين الشبيهتين بالمرآة، اللتين لا تسمحان بالتعمُّق إلى ما وراءهما، فخيل إليه أنه من الغرابة والسخف أن يكون قد استملح الإصغاء إلى أي موضوع صادر عن هذا الرجل، كما شعر بغباء المجهود الذي يبذله بدافع منه. كيف يمكن النظر بعين الجدِّ إلى ما كان يعمله سبيرانسكي؟ ظلت تلك الضحكة المتقطعة الخالية من الانشراح تلاحقه ردحًا طويلًا بعد أن انسحب من مجلس الوزير.

أعاد النظر فور عودته إلى منزله بكل الحياة الجديدة التي بدأها في بيترسبورج وكأنه سيشرع فيها لأول مرة. تذكَّر تصرفاته خلال الشهور الأربعة الأخيرة وملتمساته وكل قصة مشروع النظام العسكري الذي وضعه، والذي قُبل للتدقيق وانتهى به الأمر إلى إحاطته بسياج كثيف من الصمت لمجرد أن مشروعًا آخر لا يمكن أن يُداني مشروعه في

حالٍ، قُدِّم إلى الإمبراطور. تذكر جلسات اللجنة التي عُين بيرج عضوًا فيها؛ تلك الجلسات التي كان المجتمعون فيها يتحاشون بكل عناية البحث في جوهر الموضوع، بينما يتناقشون في الشكل الواجب إضفاؤه على الضبوط. تذكَّر أعماله التشريعية وترجماته الأمينة عن القانون الروماني وقانون نابليون، فاستبد به الخجل لدى تفكيره في كل هذه الأمور، ثم عاد يتصور نفسه في بوجوتشاروفو، ويتذكر مشاغله في الريف وسفره إلى ريازان وفلاحيه وما يتعلق بهم، وكيف أخذ يعمل على تطبيق مبادئ قانون الإنسان عليهم؛ ذلك القانون الذي وضعه بنفسه بكل عناية، فأدهشه أن رأى نفسه مُكرِّسًا وقتًا طويلًا من حياته لعمل عقيم من هذا النوع.

الفصل التاسع عشر

فجر بولكونسكي

مضى الأمير غداة اليوم التالي يقوم بزيارة لآل روستوف بين عديد من الأشخاص الذين يدين لهم بردِّ زياراتهم. ولقد جدد آل روستوف معرفتهم به منذ ليلة الحفلة الراقصة، فكان من دواعي اللياقة أن يرد لهم زيارتهم، لكن تصرفه ذاك لم يكن مستوحًى من روح القواعد المرعية فحسب، بل من رغبته في رؤية تلك الصبية الساذجة المندفعة التي خلقت في نفسه شعورًا دقيقًا مرهفًا.

كانت ناتاشا إحدى أُولَيَاتِ المُسْتَقْبِلات، بَدَتْ له في ثوبها المنزلي الأزرق أكثر جمالًا مما كانت عليها وهي في زينتها الرسمية. استقبلتْ ناتاشا وكلُّ آل روستوف بولكونسكي استقبالَ الصديق القديم ببساطة قلبية ودِّيَّة. شعر أن تلك الأسرة التي قسا عليها بحكمه من قبل مؤلفة من أشخاص ممتازين بسطاء وطيبين. لم يستطع الصمود إزاء معاملة الكونت العجوز المضياف التي تختلف كل الاختلاف عن النهج الاحتمالي المعمول به في بيترسبورج، فقبل دعوته لتناول طعام العشاء على مائدته. قال يحدث نفسه: «نعم، إنهم أناس بواسل جدًّا، لا يلقون بالًا مطلقًا إلى الكنز الذي يمتلكونه مُجسَّدًا في شخص ناتاشا، ثم إنهم يقومون بدور الدافع غير عامدين لإظهار تلك الفتاة الرائعة المليئة بالشاعرية، المفعمة بالحياة.»

كان يشعر حيال هذه المخلوقة الشابة أنه أمام عالم مجهول خاص مليء بالمسرات غير المنتظرة، ذلك العالم الذي أزعجه كثيرًا من قبل في ممشى حديقة أوترادنواي وقرب نافذة الجناح الأعلى، عندما كان القمر يغمر الحديقة بالضوء. لم يعد ذلك العالم غريبًا عنه الآن. لقد وجَد وهو يدخلُه مسراتٍ جديدة.

وبعد العشاء، مضت ناتاشا — بناء على طلبها — إلى المعزف وشرعت تغني، وكان بولكونسكي يصغي إليها رغم انشغاله في الحديث مع السيدات في فراغ إحدى النوافذ.

صمت فجأة في منتصف جملة وهو يشعر بأن الغصة تعمل في حلقه، غصة مليئة بالدموع؛ الأمر الذي كان يعتقد استحالة وقوعه من قبل. شخَص بأبصاره إلى المغنية وهو يحس باضطراب غريب وسعادة ممتزجة بالحزن. كان على استعداد لذرف دموع سخية دون أن يكون هناك أي داع للبكاء، على أي شيء يبكي؟ على غرامه الأول؟ على الأميرة الصغيرة؟ على إخفاقه وتبدُّد أوهامه؟ على آماله وأحلامه؟ نعم ولا. نشأت تلك الرغبة في البكاء من إيحاء جديد تجلى له في الغالب. ظهَر له التناقض الهائل المروِّع بين ما كان يحس به من إغراق في العظمة والرحب المطلق في أعماق نفسه، وبين الإنسان المحدود الضيق الجسدي الذي كان يملأ إهابه، والذي هي عليه كذلك. هذا ما كان يبعث عذابه وسروره معًا خلال الفترة التي غنَّت فيها ناتاشا.

جاءت، بعد أن فرغت، تسأله عما إذا كان صوتها قد أعجبه، لكنها ما كادت تطرح السؤال حتى أدركت أنها أساءت التصرف فارتعدت. ابتسم لها وقال: «إن غناءها قد أعجبه كما يعجبه كل ما تعمله.»

عاد الأمير متأخرًا جدًّا إلى مسكنه، فاستلقى على فراشه بحركة آلية، لكنه تبيَّن بعد حين عبث محاولته النوم تلك الليلة. أضاء شمعة وأخذ ينهض ثم يعود إلى الاستلقاء دون أن يلعن ذلك الأرق الذي استبدَّ به لشدة ما كان يحس به من فيض الإحساسات الجديدة الذي كان يحمله معه. خُيِّل إليه أنه كمن كان في غرفة مغلقة ثم خرج منها فجأة يستنشق الهواء الطلق ملء رئتيه. لم تراوده فكرة إمكان وقوعه في غرام ناتاشا ولم تخطر له على بالٍ. لم يكن يفكر فيها، لكنها كانت أبدًا أمام عينيه، وبنتيجة ذلك كان يحس أن كل وجودها يطلُّ عليه ويلهمه نهارًا جديدًا.

حدَّث نفسه: «لماذا أُزعج نفسي بهذا المقدار في إطار ضيق مغلق بينما الحياة كل الحياة بمباهجها وأفراحها تتفتح أمامي؟» ولأول مرة منذ زمن طويل شرع يبني آمالًا جميلة لمستقبله: قرر تسليم تثقيف ولده نيكولا إلى أحد المربين، بينما يقدِّم هو استقالته ويسافر إلى إنجلترا وسويسرا وإيطاليا. فكر في نفسه: «يجب أن أفيد من حريتي خلال الفترة التي أحس فيها أنني على حظ وافر من القوة والشباب. إن بيير على حق في قوله: إنه لكي نكون سعداء يجب أن نؤمن في إمكانية السعادة. والآن أراني مؤمنًا. فلْنَدَع الأموات إذن يدفنون الأموات؛ إذ يجب أن نحيا وأن نكون سعداء طالما نحن على قيد الحياة.»

الفصل العشرون

حفلة بيرج

ذات صباح، دخل الزعيم آدولف بيرج، الذي كان بيير يعرفه كما يعرف كل أهالي موسكو وبيترسبورج، على بيير في ثوب جديد أنيق مُضَمَّخ الشعر مُسدلَه على صدغيه على غرار الإمبراطور ألكسندر، قال له وهو يبتسم: «إنني خارج من لدن الكونتيس زوجتك وأنا شديد الأسف إذا لم أجب إلى ملتمسي؛ فآمل أن أكون أكثر حظًّا معك يا كونت.»

– «ماذا ترغب يا «كولونيل»؟ إنني رهن أوامرك.»

قال بيرج وهو واثق سلفًا من أن طلبه لن يُقابل بارتياح بالغ: «لقد فرغت من إقامة بيت جديد لي يا كونت؛ لذلك فقد قررت أن أحيي حفلة صغيرة لأصدقائي ومعارفي وأصدقاء زوجتي — وابتسم هنا ابتسامة أكثر ملاحة — وكنت أرغب في التقدم إلى الكونتيس برجاءٍ لتتفضل بتشريفنا بحضورها لتناول قدح من الشاي يعقبه عشاء متواضع.»

كانت الكونتيس هيلين فاسيلييفنا وحدها — وهي التي تُقدِّر أن احتكاكها بآل بيرج أولاء يحطُّ من قيمتها — قادرة على إظهار مثل هذه القسوة لرفض طلب من هذا النوع. أوضح بيرج بلباقة زائدة سبب إقامة هذه الوليمة، وجمع هذا العدد من كرام الناس وصفوتهم في بيته، وسبب شعوره بالسعادة عند استقباله هذا الحفل الكريم. وأخيرًا سبب قيامه ببعض التضحيات — التي قد يأسف عليها — لتوفير الترفيه بالورق وغير ذلك من التسليات الأخرى لضيوفه. وبالخلاصة، ظل يلح على بيير ويقنعه حتى لم يجد هذا مانعًا من قبول دعوته، فوعده بالحضور.

قال بيرج: «لكنني أرجوك أن لا تتأخر يا كونت، أتوسل إليك، ليكُن حضورك في الثامنة إلا عشر دقائق إذا تفضلت. سوف نلعب الورق وسيكون قائدنا «الجنرال» هناك. إنه يُظهر حيالي عطفًا ساميًا يا كونت، ولسوف نتعشى بعدئذ. موافق، أليس كذلك؟»

وصل بيير — خلافًا لمألوف عادته بالوصول متأخرًا أبدًا — في الثامنة إلا ربعًا إلى منزل آل بيرج ذلك المساء بدلًا من الثامنة إلا عشر دقائق.

كان آل بيرج قد أنهوا استعداداتهم ووقفوا تحت السلاح استعدادًا لاستقبال ضيوفهم، انتظروا قدومهم في المكتب الجديد المشع الأنيق المُزيَّن بالتماثيل الصغيرة واللوحات، المُؤثَّث برياش جديد، وكان بيرج في ثوب عسكري أنيق جديد مُزرر بعناية، يشرح لزوجته أن بالمستطاع إيجاد معارف من الطبقة الراقية التي تفوقهم في سُمُوِّ المركز ووفرة النفوذ، بل ويجب توفير مثل هؤلاء المعارف؛ لأنه ينتظر من مثلهم دائمًا الخير: «هناك دائمًا شيء مفيد يكسبه الإنسان من مثل هؤلاء؛ قَدَم أو جَنَاح على حد القول. خذي على سبيل المثال مركزي اعتبارًا من رُتَبي الأُولى — وبيرج لم يكن يحصي سني حياته العسكرية، بل ترقياتها — لا زال زملائي في مراكز تافهة، بينما أنا ارتقيت في الرُّتب حتى أصبحت على وشك بلوغ قيادة فيلق، وحصلت على سعادة التزوج منك — ونهض ليُقبِّل يد فيرا، لكنه في طريقه إليها سوَّى جانب السجادة المرفوع — ولمن يعود الفضل في كل هذا؟ إنه يعود في الغالب إلى فن انتقاء الأصدقاء، الأمر الذي لا ينفي بلا شك الفضيلة والدقة اللتين أتحلى بهما.»

ابتسم بيرج لقناعته بتغلبه على امرأة ضعيفة، وصمت وهو يحدث نفسه بأنه إذا كانت هذه المرأة الفاتنة التي هي زوجته ضعيفة ككل الأخريات، فإنها لن تستطيع إدراك كل ما يُشكِّل عظَمة كوْنِه رجلًا مرموقًا، لكن فيرا كانت تبتسم هي الأخرى خلال هذه الفترة لوثوقها من تفوقها على زوجها الفاضل، الرجل الممتاز بلا شك، ولكن الذي يفهم الحياة فهمًا خاطئًا ككل الرجال على السواء. وكان بيرج — وهو الذي يحكم على النساء بحسب حكمه على زوجته — يعتبر النساء كلهن مخلوقات ضعيفة وسخيفة. أما فيرا فكانت تحكم على الرجال استنادًا إلى شخصية زوجها وحده، فتُقدِّر لدى تعميم ملاحظاتها أن الرجال كلهم يميلون إلى الاعتبار أنهم وحدهم يتمتعون برجاحة العقل، بينما هم في الحقيقة لا يفهمون شيئًا؛ لأنهم متكبرون وأنانيون.

نهض بيرج وطوق زوجته بحذر شديد ليتفادى إفساد معطف «الدانتيلا» الصغير الذي ترتديه، والذي دفع ثمنه غاليًا، وقبَّل شفتيها وقال تدفعُه مجموعة من الأفكار العفوية: «المهم أن لا نُرزق أطفالًا بسرعة.»

فأجابت فيرا: «نعم، إنني لا أميل إلى ذلك قط؛ يجب أن نعيش للمجتمع.»

وفي تلك اللحظة، أُعلن قدوم الكونت بيزوخوف. تبادل الزوجان ابتسامة رضًا وكلٌّ منهما يعزو إلى نفسه شرف هذه الزيارة.

حدث بيرج نفسه: «هذا هو نتاج معرفة إيجاد علاقات، هذا هو حصاد حسن التصرف.» قالت فيرا: «كل ما أطلبه منك هو أن لا تقاطعني عندما أكون مع المدعوين. إنني أعرف تمامًا ما يجب أن أقوله لكل واحد منهم.»

فأجابها بيرج باسمًا: «ليس دائمًا؛ يجب أن تثار أحاديث رجال بين الرجال.»

استُقبل بيرج في البهو الجديد، حيث كان الجلوس على مقاعده متعذرًا دون إفساد المسافات المتساوية بينها، فكان من الطبيعي جدًّا أن يعرض بخيلاء وتنازل أن تُبدَّل أوضاع المقاعد والأريكة إكرامًا لهذا الضيف العزيز، لكن قلقه من جراء ذلك كان بالغ الشدة، حتى إنه ترك أمر تقويض ترتيب تلك المقاعد لرغبة ضيفه نفسه، بيد أن هذا حطم من تلقاء نفسه نظام تقابل المقاعد بأن سحب كرسيًّا وجلس عليه، فشرع الزوجان من فورهما في تدشين سهرتهما يقاطع أحدهما الآخر وهما يحدثان ضيفهما.

قدَّرت فيرا بحكمتها أن سفارة فرنسا موضوع مهم مناسب جدًّا لاجتذاب اهتمام بيير؛ لذلك فقد شرعت تبني حديثها حول هذا الموضوع. أما بيرج فقدَّر على العكس أن حديثًا خاصًّا بموضوعات الرجال يتطلب الإثارة، فقاطع زوجته ليضع على بساط البحث موضوع الحرب على النمسا. وبعد أن أعلن عن أفكار عامة في الموضوع، اندفع — دون وعي منه بلا شك — يتحدث في الاعتبارات الشخصية حول العرض الذي قدِّم إليه بالمساهمة في تلك الحرب، والأسباب التي بني عليها رفضه. فلما صار الحديث إلى هذا الحد أصبح حديثًا متقطعًا غير منسجم، حتى إن فيرا جدفت بشدة ضدَّ هذا التدخُّل من جانب العنصر الرجالي. ومع ذلك، فقد لمس الزوجان بغبطة وارتياح أن سهرتهم، رغم أنها تقتصر في الوقت الحاضر على ضيف واحد، تسير على أحسن ما يكون، لا تختلف في شيء عن السهرات الأخرى التي يُتبادل الحديث خلالها، ويحتسي المدعوون الشاي وهم إلى مائدة تنيرها الشموع، وكأنها قطرة ماء إلى جانب قطرة أخرى.

وصل بوريس بعد قليل، وهو رفيق بيرج القديم، فكان واضحًا من تصرفه حيال الزوجين أنه يتخذ إزاءهما موقفَ مَن يَبسط حمايته في لون من الترفُّع. جاء بعده «الكولونيل» بصحبة سيدة، ثم الجنرال نفسه، وأخيرًا آل روستوف. وحينئذ فقط بلغت السهرة الشأو الذي تمتاز به كل السهرات الأخرى. لم يتمالك بيرج وفيرا من الإفراج عن ابتسامة راضية لدى رؤيتهما البهو يعجُّ بالحياة، وسماعهما الأحاديث المتقطعة وأصوات حفيف أثواب السيدات وسط التحيات المتبادلة. سار كل شيء في الطريق الذي تسير فيه الأمور في الحفلات الأخرى، حتى إن الجنرال لم يختلف في تصرفه عن الجنرالات

الآخرين: يربت بصداقة على كتف بيرج ويهنئه بسلامة ذوقه، وشكَّل فرقة لعب الورق بأسلوب خاص ينطق برفع الكلفة. جلس قرب الكونت إيليا آندريئيفيتش معتبرًا أنه الضيف الأرفع مكانة بعده هو بالطبع. وانسجم الشيوخ مع الشيوخ، والشبان مع الشبان، وربة البيت قرب المائدة التي قامتْ عليها سلة فضية تحمل المعجنات المشابهة تمامًا للمعجنات التي قدَّمت لدى آل بانين، وبذلك لم يعد هناك أي فارق بين هذه الحفلات والحفلات الأخرى.

الفصل الحادي والعشرون

ملاحظات بيير

اضطر بيير بوصفه ضيفًا مرموقًا إلى الجلوس إلى مائدة اللعب بجانب الكونت إيليا آندريئيفيتش والجنرال والكولونيل، ولما كان جالسًا قبالة ناتاشا، فقد لاحظ بذهول أن تغييرًا غريبًا طرأ على الفتاة منذ ليلة الحفلة الساهرة الراقصة. كانت صامتة وأقل جمالًا مما بدت حينذاك، بل يمكن القول إنها بدتْ بشعة لولا أمارات الشرود واللامبالاة التي كانت تكسو وجهها.

حدث بيير نفسه وهو يراقبها: «ماذا بها؟» كانت جالسة إلى مائدة الشاي قرب شقيقتها تجيب على حديث جارها بوريس بأطراف شفتيها دون أن تنظر إليه. وكان بيير — لمزيد اغتباط شريكه — قد ربح وحده خمسة أشواط، وأخذ يجمع أوراقه حينما تناهَى إلى سمعه صوت خطوات وتبادل التهاني، فاختلس نظرة إلى وجه ناتاشا. تساءل: «تُرى ماذا وقع لها؟»

كان الأمير آندريه منتصبًا أمام ناتاشا يحدِّثها بحُنُوٍّ وعناية وعيناها شاخصتان إليه، ووجهها متخضب بالحمرة، لا تكاد تضبط أنفاسها المبهورة، وقد انبعثت من شخصها كله نار مستعرة كانت أضواؤها منذ حين خابية خامدة. لقد تبدَّلت تمامًا فلم تعد تبدو بشعة، بل أصبحت في مثل الإشراق الذي كانت عليه إبَّان الحفلة.

جاء آندريه يُحَيي بيير، فلاحظ هذا أن وجه صديقه اتخذ — هو الآخر — طابعًا جديدًا وكأنه عاد إلى الشباب.

أبدل بيير خلال الشوط — حسب مقتضيات اللعبة — مكانه أكثر من مرة، فكان تارة مدبرًا إلى ناتاشا، وتارة مقبلًا إليها، فلم يكف خلال جولاته الستة عن مراقبة صديقه والفتاة الشابة.

حدَّث نفسه قائلًا: «هناك شيء خطير يقوم بينهما.» وانتابه شعور امتزج فيه الأسف بالسرور، شعور حرك عواطفه لدرجة كاد معها أن ينسى اللعب.

نهض الجنرال بعد الشوط السادس معلنًا استحالة اللعب في مثل هذه الشروط، فاستعاد بيير حريته. كانت ناتاشا تتحدث مع سونيا وبوريس، وفيرا تجاذب الأمير آندريه الكلام وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة. التحق بيير بصديقه وجلس بقربه وهو يتساءل عما إذا لم يكن متطفلًا عليهما. كانت فيرا — وهي التي لاحظت عناية الأمير بأختها ناتاشا — تعتقد أن سهرتها تلك — باعتبارها سهرة مستوفية الشروط — صالحة للتنويه بالشئون العاطفية تنويهًا رقيقًا ملزمًا؛ فانتهزت فرصة انفراد الأمير بنفسه، وراحت تثير معه حديثًا حول الحب بصورة عامة، وأختها بصورة خاصة. قدَّرت أنه يجب عليها اللجوء إلى مرونتها كلها وكياستها للتحدث مع ضيف يمتاز بالذكاء المتوقد كما كان حال الأمير آندريه.

وعندما اقترب بيير، لاحظ أن فيرا شديدة الانفعال مسترسلةً في قولها، ناعمة به، وأن الأمير ظاهر الخجل والارتباك؛ الأمر الذي يندر وقوعه له. كانت تقول من وراء ابتسامتها الناعمة: «ما هو رأيك؟ إنك دقيق الملاحظة إلى حدٍّ بعيد، عظيم الإدراك من النظرة الأولى لأخلاق الناس. ما رأيك في ناتالي؟ هل تستطيع أن تكون ثابتة في تعلقها؟ هل تستطيع كالنساء الأخريات — وهمَّت أن تقول مثلي — أن تحب رجلًا لا تحُولُ عن حبه، وأن تظل مخلصة لحبه؟ إن هذا هو الحب الحقيقي في نظري. ما رأيك أنت أيها الأمير؟»

فأجاب الأمير وهو يخفي اضطرابه وراء ابتسامة ساخرة: «إنني لا أعرف أختك تمام المعرفة لكي أستطيع الإجابة على سؤال دقيق كهذا.»

وأضاف وهو يلتفت نحو بيير الذي كان قادمًا إليها: «ثم إنني لاحظت أن المرأة يزداد إخلاصها كلما نقص الإعجاب بها.»

فاستأنفت فيرا تقول: «نعم، هذا صحيح يا أمير. أما في أيامنا — كانت فيرا تتحدث عن أيامها كما لا يحب التحدُّث عنها إلا ذوو العقول المحدودة، الذين يعتقدون أنهم اكتشفوا وحدهم وقدَّروا مميزات وقتهم حقَّ قدرها، ويفترضون أن الطبيعة الإنسانية تتغير بحسب الأزمنة — أما في أيامنا فقد كانت الفتيات يتمتعن بحرية كبيرة متناهية،

حتى إن اللذة التي كن يشعرنَ بها إذا أُحطِنَ بالمتغزلين كانت تخنق غالبًا في نفوسهن الإحساس الحقيقي. وناتالي — والحق يقال — شديدة الحساسية.»

ازداد تقطيب الأمير لهذا التلميح الآخر وإقحام اسم ناتالي. أراد الانصراف لكن فيرا استرسلت وابتسامتها تزداد رقةً وعذوبةً: «إنني لا أظن أن فتاة «غوزلت» مثلها، لكن ما من أحد راق في عينيها جديًّا حتى الآن.»

وأردفت وهي تخاطب بيير: «إنك تعرف تمامًا يا كونت أن ابن عمنا الفتان بوريس نفسه الذي كان — والحديث بيننا — مشدوهًا ومفتونًا بها، سادرًا تائهًا في آفاق الإحساس الحاني.»

لم ينطق الأمير آندريه بكلمة وظل على تقطيبه وعبوسه. قالت فيرا: «إنك صديق بوريس، أليس كذلك؟»

– «نعم، إنني أعرفه.»

– «لا شك أنه حدَّثك عن غرام طفولته بناتاشا؟»

فسأل الأمير وقد تضرَّج وجهه بالحمرة فجأة: «آه! هل كان هناك غرام منذ الطفولة؟»

– «نعم، إنك تعرف أن المودة بين ابن العم وابنة العم تقود أحيانًا إلى الحب. إن قرابة العمومة جوار خطر كما يقولون، أليس كذلك؟»

فقال الأمير: «آه! بلا شك.»

وأخذ يداعب بيير مداعبة مغتصبة مُوصيًا إياه بأن ينتبه ويأخذ حذره من ابنتي عمه الخمسينيتين اللتين تقطنان موسكو، ثم نهض وهو مسترسل في مداعبته وأخذ بذراع بيير وانتحيا ركنًا. قال بيير الذي أدهشته دلائل الانفعال البادية على وجه صديقه، الذي لاحظ النظرة التي أرسلها هذا إلى ناتاشا: «حسنًا! ماذا في الجو؟»

فأجاب آندريه وهو يلمح إلى القفازات التي يعطيها الإخوان الماسونيون لزملائهم الجدد ليقدموها إلى النساء اللاتي يحبونهن: «يجب أن أحدثك. إنك تعرف قفازاتنا النسائية ... حسنًا ... كلَّا، سأحدثك بالأمر مستقِلًّا.»

ومضى يجلس قرب ناتاشا في عينيه لهيب غريب، وفي حركاته انفعال. رآه بيير يطلب إلى الفتاة شيئًا أجابته عليه مضرجة الوجه، لكن بيرج جاء في تلك اللحظة يرجو بيير أن يشترك في النقاش الذي يشترك فيه الجنرال والكولونيل حول مشاكل إسبانيا.

كان بيرج مرتاحًا منشرح النفس تضيء وجهه ابتسامة راضية؛ لقد نجحت سهرته وشابهت في كل النقاط السهرات التي شهدها من قبلُ: أحاديث نسائية رقيقة، شوط من

الورق مع جنرال مرتفع الصوت، سماور، حلويات، كل شيء تام باستثناء ملاحظة واحدة كان بيرج يحلها محل الاعتبار في تقديره للسهرات المثالية: حديث صاخب بين الرجال، ونقاش حاد حول موضوع خطير عظيم الأهمية، ولكن الجنرال تفضل بإثارة مثل هذا النقاش الذي هرع بيرج يجتذب بيير ليساهم فيه.

الفصل الثاني والعشرون

الحب الجامح

استجاب الأمير آندريه لدعوة الكونت إيليا آندريئيفيتش، فمضى غداة اليوم التالي لتناول طعام الغداء على مائدته، فأمضى عنده سحابة النهار.

حدس كلٌّ من آل روستوف ما حدث بين الأمير وناتاشا؛ ذلك أنه لم يكف عن مغازلة ناتاشا بشكل مكشوف، بينما كانت ناتاشا سعيدة ومروعة معًا شأنَ أفراد الأسرة كلهم لما اعتراهم من قلق يسبق اللحظات الحاسمة الجليلة. كانت الكونتيس عندما تتحدث مع ابنتها تصوب نحو الأمير نظرات جدية حزينة، لكنها لا تكاد تعود بأنظارها إليها حتى يختفي القلق من عينيها بين طيات مواضيع تافهة. وسونيا ما كانت تجرؤ على الابتعاد عن ناتاشا، فكان وجهها يشحب من الرهبة والترقب كلما وجدت نفسها منفردة لفترة قصيرة مع الأمير آندريه، الذي أخذ يبلبل أفكاره بخجله وإحجامه. كانت تحس بأنه يريد الإفضاء إليها بشيء، لكنه لا يحزم أمره على الإفضاء به.

وعندما غادر منزل آل روستوف مساءً، جاءت الكونتيس إلى ناتاشا وقالت لها بصوت خافت: «حسنًا، ماذا؟»

أجابتها: «أماه، أتوسل إليك أن لا تسأليني شيئًا في هذه اللحظة. إن هذه الأمور لا تقال.»

مع ذلك، فقد لبثت ناتاشا طيلة تلك الليلة فريسة للانفعال والخوار المتداولين، مستلقية على سرير أمها شاخصة البصر. روت لها أنه أطراها وامتدحها، وأنه أطلعها على رغبته في السفر إلى الخارج، وسألها عن المكان الذي يقضي ذووها فيه فصل الصيف، وأخيرًا أنه حدثها مرة أخرى عن بوريس، ثم اعترفت قائلة: «لكنني لم أحس من قبل أبدًا أبدًا بمثل هذا الإحساس. إنني أشعر بحضرته بالخوف، دائمًا الخوف. ما معنى هذا؟ إن معنى هذا أنه جد لا هزار؛ أليس كذلك؟ أماه، هل أنت نائمة؟»

– «كلا يا عزيزتي، إنني أنا الأخرى خائفة. اذهبي ونامي.»

قالت وقد استنفرها اكتشافها شعورًا جديدًا في نفسها: «على كل حال لن أنام، أنام؟ كم هو سخيف النوم! أماه، يا أمي الصغيرة، إنني لم أشعر من قبل قط بمثل هذا الإحساس. ما كنا نفكر في مثل ذلك!»

اعتقدت ناتاشا أنها افتتنت بآندريه منذ لقائهما الأول في أوترادنواي. وعلى ذلك، فإن الرجل الذي فكَّرت فيه منذ تلك اللحظة — وكانت مقتنعة تمامًا بهذا الإيمان — عاد الآن يقتحم طريقها دون أن يكون هذه المرة مستخفًّا بشأنها! كانت تروعها تلك السعادة الغريبة غير المنتظرة: «وكان عليه بلا شك أن يكون في بيترسبورج في الوقت الذي حللنا فيه به وأن نتقابل في الحفلة الراقصة. إن كل هذا من عمل القدر. نعم، إنه واضح أن الأمر كان يجب أن يكون على هذا الشكل، ثم إنني ما كدت ألمحه حتى شعرت بشيء خاص يعتلج في نفسي.»

سألتها أمها وهي ساهمة عن الأشعار التي كتبتها في مذكرتها: ماذا قال لك كذلك؟ ما هي هذه الأبيات؟ اقرئيها عليَّ لأرى …»

– «أماه، هل الزواج من أرمل أمر سيئ؟»

– «اصمتي يا ناتاشا، صلِّي لربك الكريم. إن الزواج يعقد في السماوات.»

هتفت ناتاشا وهي تذرف دموع السعادة والاضطراب: «أماه العزيزة، كم أحبك! كم أنا سعيدة!» وارتمت على عنق أمها.

وفي نفس الوقت، كان آندريه يشرح لبيير في منزله غرامه بناتاشا وعزمه الأكيد على الزواج منها.

كانت الكونتيس هيلين فاسيلييفنا تُقيم ذلك النهار وليمة عندها لكبار الشخصيات، وعلى رأسهم سفير فرنسا الذي أصبح سعادته من المواظبين على دخول البيت. واجتمع نفر من أرفع نساء المجتمع والشخصيات المرموقة. قام بيير بجولة في الأبهاء، فلاحظ المدعوون جميعًا أنه ساهِمٌ منكمشٌ محنق مكتئب.

أحس منذ ليلة الحفلة الراقصة بنوبة من السويداء تقترب منه، فراح يعمل جاهدًا بيأس لردها، عين منذ أن ارتبطت زوجته بعلاقات مع سعادته مرافقًا في البلاط على غير انتظار. ومنذ ذلك الحين وهو يشعر في المجتمعات شعور الارتباك والخجل، وعادت آراؤه القديمة حول نزوات البشر وتفاهة الأشياء الدنيوية تحاصره من جديد. أضف إلى ذلك أن العلاقة الودية التي رآها تقوى بين محميته ناتاشا وبين الأمير آندريه، والمقارنة بين

موقف صديقه وموقفه هو نفسه، كل هذه الأشياء ساعدت على تعكير صفوه ومزاجه. راح يطرد كل فكرة تتعلق بزوجته بمثل العنف الذي يطرد به كل ما يتعلق بناتاشا والأمير من آراء. ومن جديد، خُيل إليه أن كل شيء تافهٌ لا شأنَ له إذا قيس بأزلية الله، ومن جديد عاد يتساءل: «ما الفائدة؟» وبسبب ذلك أخذ يغرق نفسه ليلًا ونهارًا بالعمل في الشئون الماسونية؛ آملًا بذلك التغلب على الأفكار السيئة.

غادر أجنحة الكونتيس حوالي منتصف الليل، وانسحب إلى الدور الأول إلى غرفة منخفضة مسودة بالدخان، فجلس إلى منضدة العمل مرتديًا ثوبًا منزليًّا قديمًا، وراح ينسخ المواد الشرعية للمحافل الإيكوسية عندما دخل عليه بعضهم. كان الأمير آندريه هو الداخل، قال وهو سالم الفكر سئوم: «آه! هذا أنت.»

ثم أردف بلهجة أولئك التعساء الذين يبحثون في العمل عن السلوان ونسيان آلامهم: «إنني مشغول كما ترى، وها هو دفتري.»

ابتسم له الأمير آندريه بأنانية السعداء دون أن يلتفت إلى حزن صديقه، وقال ووجهه مشرق بالسرور كأنه انقلب خلقًا جديدًا: «نعم يا عزيزي، ها أنا ذا. كنت أريد التحدث إليك بأمر بالأمس، ومن أجل ذلك جئتُ. إنني لم أشعر قط بمثل هذا الشعور. إنني عاشق يا صديقي.»

أطلق بيير فجأة زفرة عميقة وانهار متثاقلًا على الأريكة بجانب آندريه، وقال: «ناتاشا روستوف؛ أليس كذلك؟»

– «نعم، نعم، ومَن سواها إذا لم تكن هي؟ إنني ما كنت لأصدق ذلك أبدًا، لكن هذا الحب أقوى مني؛ بالأمس تألمت كما يتألم المتعذبون الشهداء. مع ذلك، فقد بدا لي ذلك العذاب أثمن من كل ما في الوجود. إنني ما كنت على قيد الحياة من قبل. إنني ولدت الآن وبدأت أعيش الآن، ولن أستطيع الحياة بدونها. ولكن هل تستطيع أن تحبني؟ إنني عجوز بالنسبة إليها. تكلم. إنك صامت!»

فقال بيير الذي نهض فجأة وراح يذرع الغرفة: «أنا، أنا؟ وماذا تريد مني أن أقول؟ لقد فكرت دائمًا في هذا. إن هذه الفتاة كنز حقيقي. نعم كنز، كنز، عصفور نادر. يا صديقي العزيز، أتوسل إليك أن لا تتردد ولا تناقش. تزوج وتزوج وتزوج ... ستكون أسعد الرجال وأنا واثق من ذلك.»

– «ولكن هي؟»

– «إنها تحبك!»

أعقب آندريه وهو يبتسم ويغرق نظره في عيني بيير: «لا تنطق بالغباء.»

هتف بيير نافد الصبر: «إنها تحبك، وأنا أعرف ذلك.»

عندئذ قال آندريه وهو يمسك بذراعه: «إذن أصغ إلي. هل تعرف في أية حالة معنوية أجد نفسي؟ يجب أن أفضي بمكنونات صدري لأحد.»

أجاب بيير الذي أشرق وجهه: «حسنًا تكلم؛ إن ذلك يسعدني كل السعادة.»

زال الخط العرضي الذي يشوه جبهته وراح يصغي إلى آندريه وهو يبتسم. كان هذا قد أصبح بالفعل ذلك الرجل الجديد الذي بدت على وجهه آيات الابتهاج والشباب. أين ذهبت مرارته وإغفاله لشئون الحياة واحتقاره لها؟ كان بيير المخلوق الوحيد الذي وجد آندريه أن بالمستطاع التنفيس عما في خاطره أمامه، فراح يضع حينًا مخططات بسيطة وجريئة لمستقبله الطويل قائلًا إنه لا يستطيع تكريس حياته لنزوة أبيه، وإن هذا إذا رفض مشروع الزواج فإنه سيستغني عن موافقته، وحينًا آخر يُظهر دهشته البالغة لهذه العاطفة التي استبدت به كما يستغرب المرء أمرًا شاذًّا لأهمية له عليه. وأخيرًا قال مختتمًا مناجاته: «لو قال لي أحدهم إنني سأحب يومًا بهذا الشكل لما صدَّقتُه. ليس هذا الإحساس هو ما شعرت به من قبل. إن العالم الآن ينقسم أمامي إلى شطرين؛ الأول: حيث يكون كل شيء مغممًا بالسعادة والأمل والضياء، والثاني: حيث لا يكون شيء إلا الظلمات واليأس.»

كرر بيير: «ظلمات ويأس. نعم، نعم؛ إنني أفهم هذا.»

– «لا أستطيع إلا أن أحب النور. إن هذا أقوى من طاقتي، وأنا سعيد جدًّا، هل تفهمني؟ إنني أعرف أنك تبتهج من أجلي.»

فقال بيير مؤيدًا وهو يحيط صديقه بنظرة ودودة لا تخلو من تطيُّر: «نعم، نعم.»

كان كلما لاح له مصير الأمير مُشعًّا مضيئًا، اتخذ مصيره في عينيه طابعًا أكثر ظلمة واكفهرارًا.

الفصل الثالث والعشرون

الخطوبة

لما كان الأمير آندريه لا يستطيع الزواج دون موافقة أبيه، فقد سفَر منذ صباح اليوم التالي في طريقه إليه.

استقبل الأمير العجوز بيان ولده بهدوء ظاهري وغضب عاصف في داخله. ما كان يستطيع تقبُّل فكرة تبديل بعضهم لنمط حياته بإدخال عامل جديد عليها، بينما انتهت أيامه هو وانصرمت. كان يحدث نفسه: «ليتركوني على الأقل أنهي أيامي على هواي، وليفعلوا من بعدي ما يحلو لهم.» مع ذلك، فقد عمد إلى المرونة مع ابنه، مرونة أيامه الخوالي. درس الموضوع ببرود من كل وجوهه.

أولًا: إن كل شيء في هذا الموضوع — المولد، الثروة، النسب — كله سيئ، ثم آندريه كان متقدمًا في السن ضعيف الصحة — وقد ألحَّ العجوزُ على هذه الناحية بصورة خاصة — بينما الفتاة بُنَيَّة في مقتبل العمر، ثالثًا: إن لآندريه ابنًا، وكان أمر العهدة به إلى أيدي بُنَيَّة يستدرُّ الشفقة حقًّا، رابعًا — ونظر الأمير العجوز إلى ولده وهو مستغرق في تفكيره وشرحه، نظرة هازئة: إليك رغبتي: «أجِّل زواجَك عامًا واحدًا وسافر إلى الخارج. اعتنِ بصحتك هناك وابحث عن مُربٍّ فاضل للأمير نيكولا، فإذا لم يتبدل غرامك أو شهوتك أو ولَعك — سمِّه بما شئت — خلال هذه الفترة، بل ظلَّ على كبره وعنفه؛ تزوج. إن هذه هي كلمتي الأخيرة. اعلم ذلك، كلمتي الأخيرة.»

كانت لهجة الأب وهو ينطق بقراره هذا تدلُّ على أن أي حافز في الوجود لن يغير رأيه أبدًا.

كان العجوز ولا شك يأمل أن تضعف عواطف آندريه خلال هذه المدة، أو أن تتبدد رغبة مخطوبته خلال هذه السنة وهي التي قد لا تقاوم هذا الاختبار. أما إذا لم يطرأ

تبديل عليهما، فإنه هو قد يموت خلال هذه الفترة. فهم آندريه مقصد أبيه وقرر أن يمتثل لرغبته، فاعتزم طلب يد ناتاشا شريطة تأجيل الزواج عامًا كاملًا.

ومرت أسابيع ثلاثة منذ زيارة آندريه الأخيرة لآل روستوف قبل أن يعود إلى بيترسبورج.

انتظرت ناتاشا قدوم آندريه غداة اليوم التالي لاعترافاتها لأمها، ولكن ذهب انتظارها عبثًا، كذلك كان شأنها في الغد واليوم الذي تلاه. ولما ظل محتجبًا كذلك، فإن ناتاشا ظلت جاهلة بأمر سفر آندريه؛ لذلك ما كانت تجد تفسيرًا لغيبته.

مرت ثلاثة أسابيع على هذا النحو وناتاشا ترفض الخروج من البيت، تتيه كالطيف من حجرة إلى حجرة خائرة القوى عازفة عن المشاغل، فإذا ما حل المساء بكت السر، وانقطعت عن زياراتها الليلية لأمها. أصبحت تنفعل وتثور لأتفه الأشياء، وتتصور أن كل الناس على علم بإخفاقها؛ يسخرون منها، أو يرثون لحالها. وتلك الطعنة في كبريائها كانت تزيد مقدار يأسها.

ذهبت ذات يوم إلى أمها بغية التحدث معها، لكنها انخرطت فجأة في بكاء مرير. كانت تلك أحزان طفلة عوقبت فما عادت تدري ماذا يؤخذ عليها، وراحت الكونتيس تواسيها، فأصغت ناتاشا بادئ الأمر إلى أقوال أمها، ثم قاطعتها فجأة لتقول: «كفي عن الحديث حول هذا الموضوع يا أماه، إنني ما عدتُ أفكر فيه، ولا أريد العودة إلى التفكير! ثم إن كل شيء على غاية من البساطة. إنه كان يزورنا، ثم كفَّ عن زيارتنا، نعم كفَّ.»

وارتعد صوتها وعادت العبرات تخنقها، لكنها تماسكت وأردفت هادئة: «على كل حال، لا أريد أن أتزوج، ثم إنه يخيفني. إنني الآن هادئة تمامًا تمامًا.»

وفي اليوم التالي، ارتدت ناتاشا ثوبًا قديمًا كان من خصائصه أن يبسط مزاجها، وشرعت منذ الصباح في حياتها المألوفة التي أهملتها منذ ليلة الحفلة الراقصة. شربت الشاي ومضت إلى البهو الكبير الذي كان يعجبها بصورة خاصة بسبب الشروط الصوتية المتوفرة فيه، وتمرنت على العزف فترة، فلما انتهت من الدرس الأول وقفت في منتصف القاعة لتكرر مقطعًا حائزًا على إعجابها أكثر من سواه. راحت تحس بلذة جديدة في الإصغاء إلى تلك الألحان المصطفاة التي تملأ فراغ القاعة لتتبدد لا شعوريًّا. وفجأة شعرت بمرح غامر، قالت: «ما فائدة التفكير في كل هذه الأمور؟ أليست الحياة هنيئة على هذا المنوال؟» شرعت تتنزه في طول البهو وعرضه ليس بخطاها الطبيعية، بل متكئة بادئ الأمر على كعبها، ثم رأس قدمها، وكانت تلبس في قدميها الحذاءين الجديدين اللذين كانت

تفضلهما على الأحذية الأخرى. أحدث في نفسها وقع الكعب المنتظم المتبوع بصرير مقدمة القدم بهجة تماثل في شدتها النشوة التي غمرتها عندما أصغت منذ حين إلى صوتها. مرَّت بمرآة كبيرة فألقت عليها نظرة رأت وجهها وكأنه يقول: «أي نعم، ها أنا ذا! إن هذا ممتاز كما هو ولست في حاجة إلى أحد.»

جاء خادم يعيد إلى القاعة بعض الترتيب، فصرفته مُمانِعةً واستمرت في نزهتها. رجعت ذلك الصباح إلى حب نفسها والإعجاب بشخصها، وهما العاملان اللذان يشكلان حالتها النفسية المعتادة، قالت وهي تتحدث عن نفسها بصيغة الغائب وكأن المتحدث جمع من الذكور: «يا للفتنة التي في ناتاشا! إنها صبية جميلة ولها صوت عذب، لا تزعج أحدًا؛ فدعوها إذن بسلام.» لكنها وإن تركت بسلام ما كانت تستطيع استعادة هدوئها، وها هي ذي قد مرت بالتجربة.

فُتح باب المدخل عند أقصى الدهليز وارتفع صوت يسأل عما إذا كانت الكونتيس تسمح بمقابلتها، ثم ارتفعت أصوات الخُطى المقتربة. ألقت ناتاشا من جديد نظرة إلى المرآة، لكنها لم تر فيها شيئًا بادئ الأمر. احتكرت الخطوات الآتية من الدهليز كل اهتمامها، وعندما استطاعت تبيان صورتها في المرآة أذهلها شحوبها. كان «هو» القادم. إنها واثقة تمامًا رغم أن صوته لم يتناهَ إلى سمعها واضحًا من وراء الباب المغلق.

امتقع وجهها فجَرتْ دون وعي نحو البهو وهتفت: «أماه، إن بولكونسكي هنا! إنه أمر مريع يا أماه يتجاوز حد طاقتي وقواي. لا أريد هذا العذاب! ما العمل؟»

لم تجد الكونتيس متسعًا من الوقت للإجابة عندما دخل الأمير آندريه وعلى وجهه أمارات القلق والخطورة، وما إن لمح ناتاشا حتى أشرق وجهه. قبَّل يدي السيدتين وجلس.

شرعت الكونتيس تقول: «لقد مضى زمن طويل لم نحظَ فيه ...»

لكن الأمير لم يدع لها الفرصة لإتمام قولها، بل قال متعجلًا الوصول إلى غاياته: «إنني لم أحضر لزيارتكم خلال الفترة الأخيرة لأنني كنت أبحث مع أبي موضوعًا على جانب كبير من الخطورة، فلم أصل إلا أمس مساء.»

وألقى نظرة إلى ناتاشا واسترسل بعد فترة صمت: «إنني أريد التحدث إليك يا كونتيس.»

زفرت الكونتيس وغضَّت طرفها وقالت: «إنني مصغية إليك.»

فهمت ناتاشا أن عليها أن تنسحب، لكنها ما كادت تحزم أمرها حتى شعرت أن شيئًا يضغط على حنجرتها، فراحت تتطلع إلى وجه الأمير بعينيها الكبيرتين المتسعتين

دون أن تحسب حسابًا لتقاليد اللباقة المرعية. أخذت تحدث نفسها: «كيف؟! سيقرر كل شيء! وفي لحظة؟ كلا، إن هذا غير معقول!»

عاد ينظر إليها من جديد، فأقنعتها تلك النظرة بأنها لم تكن مخطئة قط. نعم سوف يتقرر مصيرها في لحظة واحدة. قالت الكونتيس بصوت منخفض: «اذهبي يا ناتاشا، سوف أستدعيك.»

فألقت عليهما معًا نظرة مروعة متوسلة وخرجت.

قال الأمير آندريه: «لقد جئت يا كونتيس أطلب يد ابنتك.»

اصطبغ وجه الكونتيس بحمرة قانية، وظلت فترة لا تستطيع الجواب. وأخيرًا شرعت تقول بلهجة خطيرة بينما كان ينظر في عينيها: «إن عرضك ...» واضطرب صوتها فذكرت: «إن عرضك مقبول ... و... وإنني أتقبله بسرور ... وزوجي كذلك ... على ما أتأمل ... لكنه أمر منوط بها.»

قال آندريه: «سوف أتحدث إليها بالأمر عندما أحصل على موافقتك؛ هل تمنحيني موافقتك؟»

قالت وهي تمد له يدها: «نعم.»

ثم ضغطت شفتيها على جبين الأمير الذي انحنى على يدها بقبلة جمعت شعورًا من الحنان والنفور. كانت تريد من صميم نفسها أن تحبه كابنها، لكنها كانت تشعر بأنه غريب، وأنه يخيفها. استرسلت تقول: «إنني لا أشك في موافقة زوجي، ولكن ماذا بشأن أبيك؟»

– «لقد أطلعتُ أبي على نواياي، فوافق شريطة ألا يتم الزواج إلا بعد عام، ولقد أردتُ إطلاعك على هذا الأمر أيضًا.»

– «صحيح أن ناتاشا لا زالت صغيرة، لكن مثل هذه الفترة الطويلة ...»

قال آندريه وهو يزفر: «ما استطعت إقناعه بالعدول عن قراره.»

قالت الكونتيس وهي تخرج من البهو: «سوف أرسلها إليك.»

وبينما هي تبحث عن ابنتها ظلت تكرر: «رباه، أشفق علينا!»

قالت لها سونيا: «إن ناتاشا في غرفة نومها.» فمضت إليها الكونتيس لتجدها جالسة فوق سريرها شاحبة الوجه، شاخصة بعينين جافتين إلى الصور المقدسة ترسم إشارة الصليب على صدرها بحركة محمومة، وتدمدم بكلمات خافتة، فلما وقع بصرها على أمها قفزت من فوق السرير وهرعت للقائها: «حسنًا يا أماه. ماذا؟»

قالت الكونتيس بلهجة لمستْ فيها ابنتُها طابع البرود: «اذهبي، اذهبي؛ إنه ينتظرك. لقد طلب يدك.»

ولما رأت ابنتها تجري مسرعة كررت تشييعها بنبرة حزينة لائمة: «اذهبي، اذهبي.» وأطلقت زفرة عميقة.

لم تستطع ناتاشا بعدئذ أن تتذكر كيف ولجت البهو. توقفت على العتبة عندما وقع بصرها عليه، وتساءلت: «هل يعقل أن يكون هذا الغريب قد أصبح لي بكليته؟» لتجيب نفسها بنفسها: «نعم، بكليته! إنه في الواقع أعز عندي من كل شيء في الوجود.»

اقترب منها آندريه خافض العينين وقال: «لقد أحببتك منذ أن رأيتك أول مرة، فهل لي آن آمل؟» ورفع عينيه إليها، فأذهله ما انطبع به وجهها من خطورة ووَلَهٍ، كأن ذلك الوجه ينطق قائلًا: «لم هذا السؤال؟ لم الشكُّ فيما يستحيل تعذُّر فهمه؟ لمَ الكلام بما لا تستطيع الكلمات الإعراب عما يشعر به المرء؟»

خطت بضع خطوات ووقفت بالقرب منه، فأخذ يدها وقبَّلها.

قالت ناتاشا وكأنها ترغم نفسها على القول: «نعم، نعم.»

واضطرب تنفسها وانفجرت باكية.

– «لماذا؟ ماذا جرى لك؟»

أجابت وهي تضحك خلال دموعها: «آه! إنني سعيدة جدًّا.»

ومالت نحوه مترددة لحظة تتساءل — ولا شك — عما إذا كان يجوز لها أن تمنحه قبلة.

كان آندريه ممسكًا بيديها بين يديه ينظر إلى وجهها دون أن يجد في قرارة نفسه ذلك الحب الذي أحس به نحوها من قبلُ، واصطخبت في نفسه ثورة. لقد تبددت الشاعرية والجاذبية الغامضة التي كانت تخلق في نفسه الرغبة، وحل محلَّها إشفاق على هذا الضعف الصبوي النسوي معًا، وعلى ذلك الذهول الذي نجم عنه الاستسلام المطلق المشفوع بالثقة المطلقة. أخذ يشعر شعورًا يمتزج فيه السرور بالكآبة بالواجب الذي يربطه إليها رباطًا أبديًّا. بدا له ذلك الشعور أقل لمعانًا وشاعرية من قبلُ، ولكن أشدَّ قوة وأكثر جدية. استأنف آندريه وهو لا يزال ينظر في عينيها: «هل قالت لك أمك: إن زواجنا لا يمكن أن يتم قبل عام؟»

كانت ناتاشا تفكر في سرها: «هل حقيقة أصبحت أنا؛ أنا التي يعتبرني كل الناس بُنَيَّة رعناء، أصبحت زوجة هذا الرجل المفرط في الذكاء والبهاء، الذي يحترمه حتى أبي،

والذي لا زال غريبًا عني؟ هل من المعقول؟ هل صحيح أن الحياة لم تعد الآن دعابة، وأنني أصبحت شخصية كبيرة مسئولة عن كل حركة من حركاتي، وكل كلمة من كلماتي؟ ولكن رباه، ماذا يسألني؟»

أجابت دون أن تفهم شيئًا من السؤال: «كلا.»

قال آندريه: «اسمحي لي أن أقول إنك لا زلت شابة في مقتبل العمر بينما عركتني تجارب الحياة. إنني أخاف عليك لأنك قد تكونين جاهلة نفسك.»

كانت ناتاشا تصغي إليه بعناية مركزة مُحاوِلةً تَفَهُّم معنى كلماته، بينما أردف الأمير: «مهما كان لهذه السنة التي تباعد بيني وبين سعادتي من إيلام لنفسي، فإنها فترة كافية تساعدك على التحقُّق من مشاعرك. إنني أطلب إليك أن تسعديني بعد عام. أما أنت فاحتفظي بحريتك. سوف تبقى خطوبتنا سرًّا حتى إذا اقتنعت خلال هذا الوقت أنك لا تحبيني، أو أنك على العكس مُصمِّمة على حبي.»

ابتسم ابتسامة مغتصبة عندما قاطعته ناتاشا قائلة: «لماذا نتحدث على هذا الشكل؟ أنت تعرف أنني أحببتك منذ زيارتك الأولى في أوترادنواي.» وكانت لهجتها مُفعمة بالثقة، ونبرتها بالصدق.

– «سوف تستطيعين التعرف على نفسك خلال عام.»

وهنا فقط توصلت ناتاشا إلى الفهم أن الزواج لن يتم قبل عام، فهتفت مندهشة: «عام كامل! ولكن لماذا عام؟ لمَ إذن عام؟»

شرع الأمير يفسر لها أسباب هذا التأجيل، لكنها لم تكن تصغي إليه، سألته: «ألا تستطيع إبدال شيء؟»

لم يجب آندريه، لكنها قرأت على صفحة وجهه أن القرار لا يقبل النقض، وفجأة قالت ناتاشا وهي تنخرط في البكاء من جديد: «إنه مريع، مريع! سأموت إذا وجب أن أنتظر عامًا، يستحيل، إنه مريع!»

لكنها عندما رفعت عينيها إلى وجه خطيبها رأت أنه فريسة إشفاق أليم، فجففت دموعها على الفور، وقالت: «كلا، كلا، إنني أوافق على كل شيء. إنني سعيدة جدًّا.»

دخل الأب والأم في تلك اللحظة ومنحا بركتهما للشابين، ومنذ ذلك اليوم أخذ آندريه يزور بيت آل روستوف بوصفه من الأسرة.

الفصل الرابع والعشرون

سفر الأمير

لم تقم احتفالات رسمية بالخطوبة نظرًا لإلحاح الأمير آندريه على إبقاء الأمر طي الكتمان. كان يقول إنه لما كان الموضوع خاضعًا للإمهال، فإن عليه أن يحتمل النتائج. إن كلمته المُعطاة تربطه إلى الأبد، لكنه لا يريد أن يربط ناتاشا، بل إنه يترك لها مطلق الحرية؛ فإذا تبينت خلال ستة أشهر أنها لا تحبه، فإن لها كل الحق في رفض طلبه. ومن البديهي أنه لا ناتاشا ولا ذووها كانوا يوافقون على مثل هذا التصرف، بيد أنه لم يتراجع عن رأيه. كان يذهب كل يوم إلى بيت آل روستوف، لكنه ما كان يعامل ناتاشا معاملة المخطوبة. ظل يخاطبها بصيغة الجمع ويكتفي بتقبيل يدها، بيد أن علاقتهما اتخذت خلال هذه الفترة طابعًا جديدًا لا توفز فيه، ولكنه عامر بالألفة، حتى ليقال إنهما لا يعرفان بعضهما حتى ذلك الحين.

كان كل منهما يحب أن يتذكر الطريقة التي كانا ينظران إلى بعضهما بها يوم أن كان أحدهما لا شيء بالنسبة إلى الآخر. شعرا أنهما أصبحا مخلوقين مختلفين كل الاختلاف؛ كانا من قبل يتواريان، أما الآن فقد أصبحا بسيطين مخلصين، والأسرة نفسها كانت في بداية الأمر تحس بلون من الارتباك في حضرة الأمير آندريه، الذي كانت تعتبره شخصية من عالم آخر؛ لذلك فقد أمضت ناتاشا زمنًا طويلًا حتى استطاعت إيجاد الألفة بين ذويها وآندريه. ظلت تؤكد لهم بفخار أن بديهته ليست إلا مظهرًا، وأنه في أعماق نفسه يشبه كل الناس، وأنه لا يخيفها قط، وكذلك لا يجب أن يخشى منه أحدٌ قط. ومضت أيام انطبع بعدها أفراد الأسرة وألفوا ذلك العنصر الجديد، فتبدد الارتباك وعادت الحياة سيرتها الأولى، بل وأكثر من ذلك؛ إذ راح آندريه يساهم في نهج حياتهم؛ كان يحسن الحديث في الزراعة مع الكونت، وفي الأزياء مع الكونتيس وناتاشا، وفي المجموعات والتحف واللوحات مع سونيا، وأحيانًا كان أفراد أسرة روستوف يبحثون، سواء بينهم أو

أمام آندريه، في تطورات القدر وتدخله في كل هذه القضية؛ فسفَرُ الأمير إلى أوترادنواي، ومجيئهم إلى بيترسبورج، والشبه بين ناتاشا وخطيبها الذي لاحظته الوصيفة العجوز منذ الزيارة الأولى، والخصومة التي وقعت بين آندريه ونيكولا عام ١٨٠٥، وأشياء أخرى من هذا القبيل، كانت كلها بمثابة إشارات مسبقة لا ريب فيها.

عم البيت شعور بالسأم الشاعري الصامت الذي يحيط عادة بالمخطوبين. كان أفراد الأسرة يلتزمون الصمت غالبًا إذا ما وُجدوا مجتمعين في حجرة واحدة، وأحيانًا كانوا ينسحبون تاركين المخطوبينِ وحدهما مُطبقين في الصمت. لم يتحدثا عن مستقبلهما إلا نادرًا؛ لأن آندريه كان يخشى التداول في هذا الموضوع، ويجد مسلكه شائكًا. أما ناتاشا فكانت تشاطر الأمير هذا الشعور ككل مشاعره الأخرى التي كانت تخمنها فورًا. وذات مرة، حزمت أمرها على التحدُّث معه عن ابنه. احمرَّ وجه آندريه، وهو الأمر الذي بات كثير الوقوع له يغمر نفس ناتاشا بالسرور، وقال لها: «إن الطفل لن يساكنهما.» سألته ناتاشا مُروَّعة: «ولماذا؟»

– «لأني لا أستطيع انتزاعه من جده، ثم ...»

فحزرت ناتاشا فكرته على الفور وقالت: «كم سأحبه! لكنني أفهم ما تقصد. إنك تريد أن تُجنِّبنا أنت وأنا مغبة النقد.»

كان الكونت العجوز يقترب من الأمير أحيانًا ويعانقه سائلًا إياه النصح في موضوع تثقيف بيتيا ومركز نيكولا، والكونتيس تزفر وهي تنظر إلى المخطوبين. أما سونيا فتخشى دائمًا أن تكون متطفلة، وتختلق الأعذار لتتركهما منفردين حتى ولو لم تكن تلك رغبتهما. وعندما يشرع آندريه في الكلام — وكان محدثًا لبقًا — كانت ناتاشا تصغي إليه بزهوٍ. أما إذا تحدثت هي فكانت تلاحظ أنه يراقبها بعين فاحصة امتزج فيها الخوف بالسرور. كانت تتساءل في شيء من القلق: «عمَّ يبحث فيَّ؟ ماذا يقصد بهذه النظرة؟ ماذا يحدث لو أنه لم يجد فيَّ ما يبحث عنه؟» كانت تستسلم للجذل المجنون الذي عُرفت به، وتشعر بغبطة بالغة كلما رأت الأمير آندريه يضحك مسرورًا بدوره. كان هذا قليل الضحك، لكنه إذا ما ضحك استسلم بكليته، الأمر الذي كان يجعل ناتاشا تشعر أنه أدنى إليها وأقرب، وكان يمكن لسرورها أن يتجاوز كل حد لولا رهبتها من الفراق القريب الذي كان يجرُّ الشحوب إلى وجهه نفسه، وتتجمد أطرافه كلما خطر له ذلك الفراق على بال.

استدعى الكونت، في الأمسية التي سبقت رحيل الأمير، بيير الذي لم يكن قد زار آل روستوف منذ تلك الحفلة الراقصة. كان بيير تائه النظرات، مشوش الأفكار، وبينما

كان يتحدث مع الكونتيس جلست ناتاشا وسونيا إلى رقعة الشطرنج داعيتين بذلك بولكونسكي إلى موافاتهما.

سألها: «إنك تعرفين بيزوخوف منذ زمن طويل، أليس كذلك؟ أتشعرين بالصداقة نحوه؟»

– «نعم، إنه فتى باسل، لكنه شاذ قليلًا.»

وكعادتها كلما تحدثت عن بيير راحت تقص النوادر حول شروده؛ نوادر كان كثير منها مختلقًا أو مركبًا من نبذ مختلفة. قال الأمير: «اعلمي أنني ائتمنته على سرِّنا. إنني أعرفه منذ الطفولة، إنه ذو قلب ذهبي.»

ثم أضاف فجأة بنبرة جدية: «أرجوك يا ناتالي، سوف أرتحل غدًا، والله يعرف ما قد يحدث. لكِ أن تكفي عن حب... نعم، إنني أعرف أنه لا يجوز لي التحدث عن هذا الأمر، لكنني مهما وقع لكِ خلال غيبتي ...»

– «ماذا يمكن أن يقع لي؟»

– «أي مكروه يحدث، أرجو يا آنسة صوفي أن تسأليه وحده العون والنصح. صحيح أنه أكثر الناس سهومًا وشذوذًا، لكنه أحسنهم قلبًا.»

لم يكن الأب ولا الأم ولا سونيا ولا آندريه نفسه يتوقع رد الفعل الذي وقع لناتاشا عند افتراقها عن خطيبها؛ كانت منفعلة ملتهبة الخدين، جافية العينين، تروح وتجيء في حجرات البيت تتشاغل بأتفه الأشياء وكأنها لا تعرف شيئًا عما ينتظرها غداة ذلك اليوم، بل إنها لم تبك حينما قبَّل يدها لآخر مرة وهو يودِّعها. كل ما قالته كان عبارة: «لا تذهب.» وبصوت تساءل هو نفسه عما إذا كان سيعزف عن الذهاب. وقد ظل زمنًا طويلًا يذكر ذلك الصوت. ولما ذهب لم تبكِ كذلك، بيدَ أنها لبثت أيامًا عديدة مختلية في غرفتها لا تأبه بشيء، تهتف بين حين وآخر: «آه! لماذا ذهب؟»

مع ذلك، ولدهشة المحيطين بها العميقة، استيقظت من ذهولها بعد خمسة عشر يومًا من رحيل الأمير، وعادت إلى سابق عهدها، ولكن باستعداد خلقي جديد كما يحدث للأطفال عندما يبلون من مرض طويل وتتغير طباعهم.

الفصل الخامس والعشرون

الأمير العجوز

خلال السنة التي أعقبت رحيل ولده، ساءت صحة الأمير بولكونسكي وأخلاقه، وتفاقم غضبه، أصبحت نوبات غضبه كثيرة لا مبرر لها، وكانت الأميرة ماري وحدها تقريبًا تحتمل تلك النوبات ونتائجها، حتى ليخيل إلى المرء أنه ينتقي المواضع الحساسة في قلبها لينزل بها أقوى الأذى المعنوي. كان لماري هوايتان، وبالتالي بهجتان: ابن أخيها والدين، فوجد الأمير العجوز في هاتين الهوايتين موضوعه المفضل للسخرية، فكان يوجه الحديث دائمًا — مهما كان نوعه — نحو خرافات العانسات العجائز، ونوبات التسامح نحو الأطفال والرأفة بهم التي يصبن بها. كان يقول لابنته: «إنك تودين أن تجعلي من نيكولا الصغير فتاة عجوزًا، بينما الأمير آندريه في حاجة إلى ولد وليس إلى بنت.» أو كان يوجه الحديث إلى الآنسة بوريين ويروح في سخرياته وتهكمه يسألها بحضور ماري عن رأيها في القساوسة ومسائل التقوى.

لكن الأميرة، مهما قسا في تجريحها، كانت تصفح عنه بطيبة خاطر؛ إذ هل يمكن أن يكون غير عادل، أو أن يخطئ نحوها وهو الأب الذي تعرف جيدًا أنه يحبها رغم كل شيء؟ ثم ما هي العدالة؟ لم تطرح ماري على نفسها قط هذا السؤال. كانت لأنها تجهل معنى هذه الكلمة المتكبرة: العدالة، ما كانت قوانين البشرية المعقدة كلها إلا لتتلخص في نظرها بقانون واحد بسيط وواضح، وهو: قانون الحب والتضحية الذي عِلمه ذلك الذي تألَّم من أجل البشر حبًّا بالبشر، في حين كان هو الله نفسه، فماذا كان إذن يهم ماري من أمر عدالة الآخرين وظلمهم؟ لقد كانت مهمتها في الحياة أن تتألم وتحب وهي منصرفة إلى مهمتها.

زار آندريه ليسيا جوري خلال الشتاء، فوجدته ماري أنيسًا وديعًا حانيًا كما لم تره قط من قبل. أحست أن تبدُّلًا طرأ على أخيها، لكن هذا لم يحدِّثها بكلمة واحدة عن

حبه، وقبل رحيله اختلى بأبيه فترة طويلة، فلاحظت ماري أن تلك الخلوة تركتهما غير مرتاحين كليهما.

أتيح لماري بعد رحيل أخيها ببعض الوقت أن تكتب إلى صديقتها جولي كاراجين في بيترسبورج — تلك الصديقة التي كانت تحلم، كما تحلم كل الفتيات، أن تزوِّجها أخاها — وقد تناهَى إليها أن تلك الصديقة فقَدت أخاها؛ لأنه قتل في تركيا:

إن الحزن كما أرى جيدًا نصيبنا كلتينا، يا عزيزتي وصديقتي الحنون جولي.

إن خسارتك ضاربة في القسوة، لا أستطيع تفسيرها إلا على اعتبارها نعمة خاصة من الله، الذي يريد أن يبلوك أنت ويبلو أمك الطيبة لأنه يحبكما. آه يا صديقتي! لا يوجد إلا الدِّين ملجأ، ولا أقول لعزائنا، بل لإنقاذنا من اليأس. إن الدين وحده قادر على أن يفسر لنا ما لا يستطيع الإنسان بدونه أن يفهم السبب الذي من أجله يدعو الله إليه المخلوقات الطيبة النبيلة، التي تعرف كيف تجد السعادة في الحياة، والتي تهرع لإنقاذ الآخرين، وتتجنَّب إلحاق الأذى بالناس، بينما يترك المخلوقات الخبيثة الضارة عديمة النفع، التي تشبه الحِمْل الثقيل على أكتاف الآخرين، تعيش في الحياة طويلًا. هذا هو الشعور الذي خلفته في نفسي الوفاة الأولى التي شهدتها، والتي لن أنساها قط، وأقصد بذلك وفاة زوجة أخي العزيزة.

وكما سألتِ القدرةَ عن السبب الذي سلبتْك من أجله أخاك الممتاز، كذلك سألتُ أنا عن السبب الذي دعا ليز؛ ذلك المَلَك، إلى الموت وهي التي إلى جانب عدم إيذائها الآخرين، لم تكن روحها تضمُّ إلا أطيب الفكر. مع ذلك، فما مضت خمسة أعوام، يا صديقتي العزيزة، حتى بدأت أفهم بذكائي الضعيف السبب الذي توجب من أجله الموت عليها. إن تلك الميتة كانت — بلا شك — دلالة الرحمة المتناهية التي أسبغها الخالق عليها؛ ذلك الخالق الذي لا يمكن لتصرفاته — رغم أننا لا نتوصل إلى فهم جلِّها معظم الوقت — أن تكون إلا دلائل الرحمة والحب غير المحدود الذي يَشملَ به المخلوقَ.

لا شك أنها — كذلك كنتُ أحدِّث نفسي — كانت على براءة إنجيلية يتعذر معها القيام بأعباء واجباتها كأم؛ فهي وإن كانت لا يرتقي إليها النقد كزوجة شابة، إلا أنها كان يمكن أن تعجز عن القيام بواجبات الأم. أما الآن فإنها على العكس تركت لنا جميعًا، وبصورة خاصة للأمير آندريه، الأسف العميق،

والذكريات الأكثر زخرًا. وفوق ذلك، فإنها ولا شك بلغت هناك في السماء مركزًا لا أجرؤ على التفكير فيه من أجل نفسي، ومن جهة أخرى، فإن تلك الميتة المبكِّرة الرهيبة تركت في نفس أخي، وفي نفسي، أجلَّ الأثر وأحسنه، إلى جانب الحزن العظيم الذي سببته لنا. ولو أن مثل هذه الأفكار طافت بخاطري في فترة فقدها لطردتُها مُروَّعَةً مَهولةً. أما الآن، فعلى العكس؛ يبدو كل شيء لي شديد الوضوح لا يقبل النقض!

أكتب لك ذلك، يا صديقتي؛ لأقنعك فقط بالحقيقة الإنجيلية التي أصبحت قاعدة لحياتي: «لا تسقط شعرة من رأسنا بدون مشيئة الله، ومشيئته مستوحاة من حبه اللامتناهي لنا»، ولهذا السبب فإن كل ما يقع لنا لا يقع إلا لخيرنا.

تسألينني عما إذا كنا سنقضي الشتاء في موسكو! إنني رغم كل رغبتي في رؤيتك لا أظن ذلك ولا أتمناه. ولعلك تدهشين إذا علمت أن الخطأ في ذلك يرجع إلى بيونابارت. وإليك السبب: إن صحة أبي تعتل بشكل ظاهر؛ مما يجعله لا يحتمل أية معارضة؛ لأنه أصبح سهل العطب، سريع الثورة. وسرعة الغضب هذه مبعثها كما تعلمين السياسة بصورة خاصة؛ إنه لا يستطيع احتمال مجرد الفكرة أن بيونابارت هذا يُقارع ويُعامل ملوك أوروبا وسادتها معاملة الند للند، وخصوصًا مليكنا حفيد كاتيرين العظيمة. إنني كما تعلمين لا أبالي مطلقًا بالسياسة، لكنني أعرف من موضوعات أبي وأحاديثه مع ميخائيل إيفانوفيتش كل ما يدور في العالم، وخصوصًا الولاء والخضوع اللذين يلاقيهما بيونابارت.

إن ليسيا جوري هي المكان الأوحد في العالم الذي يُرفض فيه إعطاؤه لقب الرجل الكبير وإمبراطور الفرنسيين. وهذا هو الأمر الذي يخرج أبي عن طَوْره؛ فهو إذا كان لا ينظر إلى السفر إلى موسكو بعين الرضا، فإن سبب ذلك يرجع بصورة خاصة — كما يبدو لي — إلى آرائه السياسية. إنه يتصور سلفًا وفرةَ المتاعب التي ستُسببها له عادته في الإعراب عن رأيه بصراحة دون أن يحفل بأحد. وكلُّ ما تكتسبه صحته من العلاج والرعاية الطبية لن يقاوم بلا شك النتائج المترتبة عن المناقشات التي لا بد منها حول موضوع بيونابارت. على كل حال، سوف يُتَّخذ قرارٌ قريب بشأن ذلك.

إن حياتنا في الأسرة تتبع نهجها المألوف إذا استثنينا أخي الذي ارتحل عنا. لقد طرأ عليه تبديل كبير في الآونة الأخيرة كما سبق وكتبتُ لك. إنه لم يعد

إلى الحياة منذ تلك النازلة التي أصابته إلا في هذا العام، وقد شهدته أخيرًا كما عرفته في طفولته: طيبًا رءوفًا ذا قلب ذهبي لا مثيل له، في عِلْمي. لقد فهم — على ما أظن — أن الحياة لم تنته بالنسبة إليه، لكن ما كسبه فكريًّا أضاع مقابله جسديًّا؛ لقد أضحى أكثر نحولًا وعصبية من السابق. إنه يقلقني، وإنني سعيدة جدًّا إذ أراه يسافر إلى الخارج نزولًا عند رغبة الأطباء الذين كثيرًا ما أشاروا عليه بذلك، وآمل أن يكون سفره ذا فائدةٍ وخيرٍ له.

تقولين لي: «إنهم في بيترسبورج يتحدثون عنه حديثهم عن شاب من أكثر الشباب نشاطًا، وأوفرهم ذكاء، وأغزرهم علمًا.» واصفحي عن كبريائي هذا كأختٍ حين أقول لك إنني ما شككت قط في مزاياه، ثم إن الخير الذي وفَّره لنا هنا، اعتبارًا من الفلاحين وحتى جماعة النبلاء في المقاطعة أكثر من أن يُحصَى ويُحصر. إنهم في بيترسبورج لا يدفعون له إلا ما يستحق. إن السرعة التي تنتشر فيها الشائعات من بيترسبورج إلى موسكو تغيظني، خصوصًا إذا كانت تلك الشائعات على غرار النوع الذي حدثتِني عنه، كيف يتزوج أخي أنا روستوف الصغيرة؟! لا أظن أن آندريه يفكر في الزواج من أية كانت، وبصورة خاصة من هذه. وإليك السبب: أولًا: على الرغم من أنه لا يتحدث عن المرحومة العزيزة إلا نادرًا، فإن الحزن الذي خلَّفه فقدُها في نفسه بذَر في قلبه ألمًا راسخًا يستحيل معه أن يفكر في إحلال امرأة محلَّها، ورَزْء مَلَاكنا العزيز بزوجة أبٍ، وفي المرتبة الثانية: ليست الفتاة المذكورة — على ما أعلم — من النوع الذي يروق له. وإنني لا أظن أن الأمير آندريه يقبل أن يتخذها زوجة، وبصراحة لا أتمنى ذلك.

لقد ثرثرت كثيرًا حتى ملأت ورقتي الثانية، فوداعًا يا صديقتي العزيزة، وليتعهدك الله بحمايته المقدسة القوية. إن رفيقتي العزيزة الآنسة بوريين تُقبِّلك.

ماري

الفصل السادس والعشرون

محاولة آندريه

حوالي منتصف الصيف، تلقت ماري رسالة من أخيها في سويسرا يطلعها فيها على خبر غريب غير متوق؛ لقد أعلن لها فيها خطوبته إلى الآنسة روستوف. كانت تلك الرسالة تعلن عن حب بالغ لمخطوبته إلى جانب الحنان الوفير المطمئن حيال أخته. أعلن هذه أنه لم يُحْبِب قط من قبل كما يحبُّ الآن، وأنه فهم أخيرًا معنى الحياة، ويعتذر عن كتمانه الأمر عنها، وعدم إطلاعها عليه عندما كان في ليسيا جوري، رغم أنه باح لأبيه بمكنونات صدره. ولقد اعتذر عن كتمانه بأنها كانت ستُرهق الأمير العجوز بالتماسِها الموافقة منه، وعندئذ يصبُّ جام غضبه كله عليها وحدها.

استتلى يكتب:

ثم إن الأمر لم يكن في مرحلة متقدمة كما هو عليه اليوم. لقد حدد أبي مهلة عام انقضت منه ستة أشهر وأنا أرسخ عزمًا وأشد إصرارًا على عزمي. ولو أن الأطباء لم يؤخروني هنا حيث أستشفي بالمياه المعدنية؛ لعدت إلى روسيا لفوري، لكنني مضطر إلى إرجاء عودتي ثلاثة أشهر أخرى. إنك تعرفينني وتعرفين علاقاتي مع أبي. ليس لي ما أطلبه منه وأنا الآن مستقل، وسأكون مستقلًّا أبدًا، لكن هنائي وسعادتي لن يكونا كاملين إذا تصرفت ضد رغبته وأثرت حفيظته في الوقت الذي لم يبقَ له وقت طويل يُمضيه بيننا. لقد كتبت له في الموضوع نفسه، فأطلب إليك انتقاء الوقت المناسب لتسليمه رسالتي، كما أطلب إليك أن تتلطفي بإعلامي عن الطريقة التي سيتصرف بها حيال هذا الأمر: تُرى هل من أمل في أن يُوافق على اختصار المهلة بإنقاص أربعة أشهر منها؟

وبعد تردد طويل وصلوات حارة، سلَّمت ماري الرسالة لأبيها. وفي اليوم التالي، استدعاها الأمير العجوز وقال لها: «اكتبي لأخيك أن ينتظر موتي. ولن يطول الأمر لأنني سأخلصه قريبًا.»

أرادت ماري الاعتراض بشيء على قوله، لكنه لم يسمح لها، بل راح صوته يرتفع ساخطًا: «تزوج، تزوج يا فتاي الباسل. يا للمصاهرة الرائعة! أشخاص ذوو قيمة ومكانة، أليس كذلك؟ ذوو ثراء، أليس كذلك؟ ستكون زوجة أبٍ جميلة يتحف بها الصغير نيكولا! اكتبي له أن يتزوج منذ الغد إذا كان هذا يروق له. إنه يريد إعطاء نيكولا خالة، حسنًا! سأعطيه أنا الآخر واحدة: سأتزوج الآنسة بوريين! آه! آه! آه! ... إلا أنه لا مكان عندي لنساء أُخريات. لِيَتزوَّج! ولكن ليذهب بعيدًا وَلْيحيَ مستقلًّا. لعلك تفضلين مشاطرته الحياة؟ إذن، سفرًا سعيدًا وليباركك الله!»

لم يعد الأمير يبحث في هذا الموضوع بعد تلك الثورة الجامحة، لكن السخط الذي سببه له ضعف ابنه كان يظهر بشكل مكتوم في كل علاقاته مع ماري. لقد أضاف موضوعًا ثالثًا للسخرية منها إلى جانب الموضوعين الآخرين: موضوع الزوجة الجديدة، والغزال الذي يفكر في توجيهه إلى الآنسة بوريين. كان يقول لابنته: «ولم لا أتزوجها؟ ستكون أميرة رائعة.»

ولشديد دهشة ماري وذهولها، لاحظت بعد حين أن أباها بات أكثر اندماجًا مع الفرنسية، فكتبت إلى آندريه تُنْبِئه بالأسلوب الذي تلقَّى الأمير به رسالته، لكنها تركت له المجال للأمل في أنها ستغير من رأي أبيها.

أصبح عزاء الأميرة ماري مقتصرًا على تثقيف ابن أخيها، والتفكير في آندريه والدين، ولما كان كل إنسان في حاجة إلى إيحاءات شخصية بحتة، فإنها كانت تخفي في أعماق قلبها حلمًا وأملًا كانا يُشكِّلان نواة عزائها. إنها مدينة بهذا البلسم الشافي إلى «رجال الله» المجاذيب والحجاج الذين كانوا يفدون لزيارتها في غفلة من أبيها، وكلما لاحظت الحياة واكتسبت منها خبرة، ازدادت دهشتها لعمى البشر الذين يتبعون أهواءهم على الأرض، ويبحثون عن يُمنهم، والذين ينصبون ويختصمون ويسيء بعضهم إلى بعض في سبيل بلوغ هذا السراب الخادع المجرم. لقد أحب الأمير آندريه امرأة فماتت، ولم يكفه هذا؛ لأنه يريد أن يرتبط ابنه بأسرة ذائعة الصيت واسعة الغنى. وعلى ذلك، فإن كل واحد يناضل ويتألم ويعذب روحه ويفقدها، روحه الخالدة، ليبلغ يُمنًا لا يدوم إلا لمحة. ولم يكفنا أننا عرفنا ذلك من تلقاء أنفسنا معرفة كافية، بل إن المسيح، ابن الله، نزل على الأرض

ليقول لنا إن هذه الحياة ليست إلا اختبارًا عابرًا. مع ذلك، فإننا نتشبث بها ونأمُل أن نجد فيها السعادة. كانت تحدث نفسها: «كيف لم يفهم هذا أحد؟ ما من أحد باستثناء رجال الله هؤلاء، الذين لا يلقون إلا كل احتقار، والذين يصلون إلى غرفتي عن طريق سلم الخدم حاملين خراجهم على أكتافهم خائفين التعرُّض لنظَر الأمير. وليس مبعث الخوف تعرُّضهم للأذى إذا رآهم، بل رغبتهم في تجنيب الأمير احتمال وزر أخطاء جديدة. هؤلاء الذين يهجرون أسرهم ومساقط رءوسهم، ويحتقرون كل نعم الأرض فلا يتمسكون بشيء، يهيمون من مكان إلى آخر مرتدين أثمالًا من الكتان الخشن بصفة استعارة، لا يفكرون في إيذاء أحد، يُصلُّون من أجل الذين يسيئون إليهم كما يصلون من أجل مَن يحمونهم. أية حياة، وأية حقيقة تتفوق على هذا؟!»

كانت إحدى تلك التائهات فيدوسيوشكا، ولها من العمر قرابة خمسين عامًا، قصيرة هزيلة وادعة. أمضت ثلاثين عامًا ونيفًا وهي تمشي حافية القدمين مثقلة بالسلاسل، تحتل مكانة مرموقة في نفسها. وذات يوم، بينما كانت في غرفتها المعتمة تستضيء بسراج ضئيل، قصت عليها فيدوسيوشكا قصة حياتها. وفجأةً، قفزت الفكرة إلى رأس ماري بأن هذه المرأة وحدها وجدت الطريق السوي. كانت هذه الفكرة من القوة بحيث قررت هي الأخرى أن تشرع في المسير. ولما مضت السائحة لنيل قسط من الراحة، قررت ماري بعد تفكير ناضج أن تبدأ هي الأخرى حياة السياحة. لم تخطر أحدًا بفكرتها باستثناء الأب هيراسانت الذي اعتادت الاعتراف على يديه، فأيَّد ما اعتزمت عليه. تذرعت بحجة تقديم هدية إلى متعبداتها، فاستحضرت زيًّا كاملًا: قميصًا وخفَّينِ وجلبابًا ومنديلًا أسودَ. وكانت غالبًا كلما اقتربت من الدولاب الذي أودعت فيه سرها تتوقف حائرة مترددة وتتساءل عما إذا كانت ساعة تنفيذ خطتها قد أزفت.

وأحيانًا عندما كانت تصغي إلى روايات المتعبدات، كانت تتحمس لتلك الأحاديث الساذجة التي ترويها أولئك النسوة بصورة آلية، والتي كان لها في نفسها أعمق الأثر. وتبلغ بها الحماسة مبلغًا يجعلها تقرر أكثر من مرة أن تترك كل شيء لتفرَّ من البيت، بل إنها كثيرًا ما رأت نفسها بعين الخيال فيدوسيوشكا جديدة، مرتدية أطمارًا خشنة تمشي حاملة خرجها وعصاها فوق الطرقات الغبراء، تتابع حجها دون حقد ولا حب بشري ولا رغبات، من معبد إلى آخر؛ لتصل أخيرًا إلى المكان الذي لا تُعرَف فيه آلامٌ ولا حسرات، والذي تسوده البهجة والغبطة الأبديتان: «سأذهب إلى مكانٍ ما فأصلي، وإذا لم تألفه نفسي أو لم أشعر بالاغتباط؛ فسأمضي إلى مكان أقصي، وسأمشي حتى تخذلني ساقاي،

وعندئذ سأستلقي وأموت في مكان ما، ثم أبلغ أخيرًا ذلك الميناء الهادئ الذي ليس فيه حزن ولا حسرات.»

كذلك كانت تحلم ماري، لكنها كلما رأت أباها، وعلى الأخص كوكو الصغير، يضعف قرارها، فتشعر أنها تحب أباها وابن أخيها أكثر مما تحب الله. وعندئذ تذرف الدمع السخي في السر وتعتقد أنها خاطئة.

الجزء الرابع

الكونت نيكولا روستوف.

الفصل الأول

عودة نيكولا

يزعم التقليد الديني أن يُمن الرجل الأول قبل سقطته كان في انعدام العمل من حياته؛ أي في البطالة، فقد احتفظ الرجل الساقط من مكانته بعادة البطالة، لكن لعنة الله تظله دائمًا، لا لأنه مرغم على كسب قوته بعرق جبينه فحسب، بل لأن طبيعته الفكرية أيضًا تحرم عليه التلذذ بالسكون والجمود. هناك صوت سري في أعماقنا يقول لنا إننا نرتكب خطيئة إذا استسلمنا للكسل؛ فلو أن الرجل استطاع إيجاد حالة يشعر معها رغم بطالته بأنه نافع، وأنه ببطالته تلك يؤدي خدمة وواجبًا، فإنه أوجد — ولا شك — في تلك الحالة كل السعادة الأولية. وعلى ذلك، فإن طبقة اجتماعية كاملة، هي طبقة العسكريين، تنعم بكل تأكيد بحالة البطالة تلك المفروضة عليها فرضًا، البعيدة عن مضمار النقد واللوم. وذلك الجمود الملزم المشروع، كان دائمًا — وسيظل كذلك — النقطة الرئيسية التي تجتذب الناس إلى حمل السلاح.

كان نيكولا روستوف يتذوق مباهج هذه البطالة المشروعة منذ عام ١٨٠٧ في فيلق بافلوجراد، الذي كان قائد الكوكبة — التي كان دينيسوف من قبل على رأسها فيه — أصبح الآن فتًى قويَّ العود يقدِّره زملاؤه ورؤساؤه ومرءوسوه، ويحبونه رغم ما اتفق عليه معارفه في موسكو من اعتباره «من نوع رديء» بعض الشيء. وكان روستوف مغتبطًا بنفسه، راضيًا عن مصيره، لكنه في الآونة الأخيرة؛ أي في عام ١٨٠٩، راح يتسلم من أمه رسائل تحوي على روح من الشكوى والتذمُّر آخذه بالازدياد. لقد كانت مساوئ ظروفهم المالية تتفاقم يومًا بعد يوم، وقد حل الوقت الذي يجب عليه فيه أن يعود ليعزي أبويه ويسعدهما في شيخوختهما.

كان يخشى أن تكون الغاية من تلك الرسائل انتزاعه من الوسط الذي يشعر فيه أن أيامه تسير وديعة هادئة بعيدة عن المتاعب. كان يتوقع أن يعود آجلًا أم

عاجلًا ليلقي بنفسه في غمار الحياة الصاخبة، يعيد النظام إلى مشاكل أسرته المتشابكة المعقدة، ويراجع الحسابات مع المسجلين، ويناقش ويناضل ويصل ما انقطع من علاقاته الاجتماعية، ويحسم قضية سونيا والوعود التي قطعها على نفسه لها. لقد كانت كل هذه الأمور معقدة بشكل مخيف، فكان يجيب على رسائل أمه بجمل مألوفة باردة تحمل في رأسها عبارة: أمي العزيزة، وتنتهي بعبارة: ابنك المطيع، دون أن ينوِّه بحرف واحد عن عودته. وفي عام ١٨١٠، طالعته رسالة جديدة على نبأ خطوبة ناتاشا وبولكونسكي والزواج الذي لن يتم إلا في غضون عام بسبب معارضة الأمير العجوز. أحزنه هذا النبأ وجرح كبرياءه. كان سبب آلامه ابتعاد ناتاشا عن البيت؛ تلك الأخت المفضلة، ثم أسفه لبُعده عن البيت؛ لأنه كان يفضل معالجة هذه القضية على طريقة الفرسان، فيُفهم بولكونسكي هذا أن اتِّحاد أخته به لا يشكِّل مثل هذا الشرف العظيم، وأنه إذا كان يحب ناتاشا بالفعل، فإنه يستطيع الاستغناء عن موافقة أبيه الخرف. تردد فترة قبل أن يفكر في الحصول على عطلة للتحدث إلى ناتاشا قبل الزواج. لكن المناورات كانت وشيكة، ففكر في سونيا وفي المتاعب التي تنتظره، فآثر التريُّث وأجَّل تنفيذ فكرته إلى ما بعد، لكنه في ربيع تلك السنة بالذات، حملته رسالةٌ — وردت إليه من والدته كُتبت في منجاة من رقابة الكونت — على تعجيل عودته. كانت تخطره في الرسالة بأنه إذا لم يَعُد ليُمسك مقدَّرات أسرته بيديه، فإن أملاكهم الموروثة وإرثه المنتظر ستباع كلها في المزاد العلني، وستئول حالهم إلى أشد الفاقة؛ فالكونت شديد الضعف، جمُّ الطيبة، عميق الثقة في ميتانكا، حتى إن كل الناس كانوا يخدعونه بكل وقاحة، والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ: «إنني أستحلفك الله وأتوسل إليك يا ولدي أن تعود لفورك إذا لم تكن تريد تعاستي وشقاء كل أفراد الأسرة.»

أثرت تلك الرسالة على نيكولا التأثير المطلوب. لقد كان يملك ذلك الإحساس الطيب الذي يرسم للناس الأغبياء خط مسيرهم.

لم يعد عليه الآن إلا أن يقدم استقالته، أو — على الأقل — أن يطلب عطلة طويلة، ولكن لماذا يجب عليه أن يعود؟ هذا ما لم يكن واضحًا في نظره. أمر بعد استراحة الغذاء أن يسرج جواده «مارس»، وهو مُهرٌ أشهب جامح لم يبارح الإسطبل منذ مدة طويلة. ولما عاد من نزهته وحصانه مغطى بالزبد، أعلن للافروشكا — تابع دينيسوف سابقًا الذي أصبح تابعه — ولأصدقائه المجتمعين لقضاء السهرة، أنه سيطلب إحالته إلى الراحة ليعود إلى أسرته. كان بلا شك يأسف على رحيله قبل أن يتأكد من الأركان العامة

— الأمر الذي كان على جانب من الأهمية بالنسبة إليه — عما إذا كان سيرشَّح لرتبة رئيس أو على الأقل سيحصل على وسام القديسة آن إثر المناورات الأخيرة. ويجد غريبًا كذلك أن يسافر دون أن يبيع إلى الكونت جولوشووسكي زحافته الكبيرة التي تقطرها خيوله الملونة، التي دفع بها ذلك البولوني ألفي روبل عندما كان يفاوضه في بيعها، وبدا له أن تخلُّفه عن حفلة الفرسان الراقصة التي يحيونها في بانًّا بورزوزووسكا نكايةً بالرمَّاحة الذين يقيمون حفلة مماثلة في بانًّا بورزوزووسكا ضرب من المستحيل. مع ذلك، فقد كان واثقًا بأنه مرغم على انتزاع نفسه من ذلك الجو الفتَّان الواضح البيِّن؛ ليمضي إلى حيث يعلم الله وحده، ليجد حماقات وشظايا. وبعد ثمانية أيام، حصل على عطلته، فقام زملاؤه الفرسان — ليس فرسان فيلقه فحسب، بل فرسان الحملة كلها — حفلة عشاء كبيرة على شرَفه بنسبة خمسة عشر روبلًا عن الفارس الواحد، واستحضروا جوقتين موسيقيتين وفرقتين للغناء. رقص روستوف رقصة «التريباك» مع الماجور باسوف، وأخذ الضباط وكل واحد منهم أشد ثملًا من الآخر يعانقونه ويؤرجحونه، ثم يلقون به على الأرض، ولقي من جنود الكوكبة الثالثة مثل هذه المعاملة المُجامِلة، وهتفوا له: «هورا!» وأخيرًا أركبوه في زحافته وواكبوه خلال المرحلة الأولى كلها.

خلال النصف الأول من الطريق؛ أي من كريمنتشوج وحتى كييف، ظل روستوف كما هي العادة يفكر في كوكبته، لكنه ما إن قطع نصف المسافة حتى شرع ينسى خيوله المرقشة ونائبه الرقيب دجوئيفيئيكو، وراح يتجه بتفكيره بقلق إلى ما ينتظره في أوترادنواي، وكلما ازداد قربًا من نهاية الرحلة ازداد حنينه إلى المنزل الأبوي، وكأن الحس الروحي عنده خاضع لنظام سرعة سقوط الأجساد بالنسبة لمربع المسافات. وفي المرحلة الأخيرة قبل أوترادنواي منح السائق ثلاثة روبلات، واندفع مبهور الأنفاس يقفز كالغلام الشقي فوق مرقاة حدود أرضهم. وبعد الهرج والمرج اللذين يصاحبان وصول الغائب، أحس نيكولا بخيبة الأمل تلك التي تجعل المرء يقول في سره: «لكنهم ما زالوا كعهدي بهم، فأية حاجة إلى كل هذه العجلة؟!» ثم انطبع تدريجيًّا بحياة الأسرة. كان أبواه قد هرما بعض الشيء، وهو الأمر الوحيد الجديد عليه الذي أثار قلقه وجعله ينظر إلى ما أصابهم بوصفه نتيجة لسوء أحوالهم. كانت سونيا مشرفة على العشرين لا تستطيع الاستزادة من الجمال، لكنها محتفظة بما كان يُنتظر لها منه، وكان نصيبها وافيًا. ومنذ وصول نيكولا بات كل شيء فيها ينطق بالسعادة والحب، فكان تعلق هذه الفتاة المخلص الذي لا يتزعزع يملأ نيكولا بهجة. أما بيتيا وناتاشا فقد أدهشاه أكثر من الآخرين، أصبح بيتيا

فتى جميلًا مديد القامة في الثالثة عشرة من عمره، لائق المزاج، عظيم الحيوية، وقد أخذ صوته يخشوشن. أما ناتاشا، فقد نظر إليها طويلًا في دهشة ضاحكة وقال: «لم تعودي كما أنتِ.»

– «ماذا، هل تباشعت؟»

فقال لها بصوت خافت: «على العكس، ولكنك تبدين جدية الآن ... يا أميرة!»

فقالت وهي ممتلئة غبطة: «نعم، نعم.»

قصَّت عليه روايتها مع الأمير آندريه ووصوله إلى أوترادنواي، وأطلعته على رسالته الأخيرة ثم سألته: «هل أنت مسرور؟ أما أنا، فإنني عميقة السعادة هادئة كل الهدوء.»

– «سعيد جدًّا. إنه رجل مرموق. هل تحبينه كثيرًا؟»

أجابت: «ماذا أقول لك؟ لقد أحببتُ من قبلُ بوريس ومعلمي ودينيسوف، ولكن هذه المرة تختلف تمامًا عن سابقاتها. إنني مطمئنة لأنني أطأ أرضًا صلبة، إنني أعرف أنه لا يمكن وجود رجل أفضل منه؛ لذلك أشعر أنني سعيدة جدًّا، هانئة جدًّا! كلا، إن الأمر ليس كالسابق مطلقًا.»

أعرب نيكولا عن امتعاضه للمهلة الطويلة التي حدد الزواج بعدَها، فاستاءت ناتاشا استياءً شديدًا، وراحت تُبرهن له في شيء من الامتعاض على أنه ما كان يستطيع الإتيان بخير مما وقع؛ لأن الدخول إلى أسرة ضد رغبة الأب يعد إساءة لا تَقبَل هي نفسها السكوت عنها، ثم أعقبت: «إنك لا تفقه من الأمر شيئًا، شيئًا مطلقًا.»

لم يجرؤ نيكولا على معارضتها فاعترف لها بصوابها.

ومنذ ذلك الحين، راح يراقبها خلسة فلاحظ بدهشة بالغة أنها لم تكن بادية الأسى شأن الشابات اللاتي بَعُدنَ عن رجالهن الموعودين. كانت تظهر متَّزنة المزاج هادئة مرحة كسابق عهدها؛ الأمر الذي جعل الشكَّ يتسرب إلى نفسه حول نتائج الأمر مع بولكونسكي. لم يكن مؤمنًا بأن مصير أخته قد تقرر نهائيًّا، خصوصًا وأنه لم يرهما معًا ليحكم بنفسه. بدا له في مشروع الزواج ذاك شيء يدعو إلى التمهُّل والتفكير.

كان يتساءل: «ما معنى هذه المهلة؟ لِمَ لَم تُعلن الخطوبة رسميًّا؟» وذات يوم بينما كان يتحدث عن ناتاشا إلى أمه، تبين وهو مندهش أن أمه كانت في أعماق نفسها تشاركه تحفُّظه حيال تلك الرابطة المنتظرة، الأمر الذي بعث في نفسه الغبطة. قالت له وهي تريه رسالة من الأمير آندريه بتلك اللهجة العدائية المكتومة، التي تظهر في نبرات صوت الأمهات عندما يتصورن سعادة بناتهن الزوجية المقبلة: «إليك ما يكتب ها إنه يقول

إنه لن يستطيع العودة قبل كانون الأول، فأية أعمال تؤخِّره هناك؟ المرض بلا شك. إن صحته ليست على ما يرام، ولكن لا تتحدث بشيء من هذا إلى ناتاشا. لا تنخدع بحبور أختك؛ إن هذا هو آخر وقت سعيد عند الفتيات، وأنا واثقة من أنها تتألم كلما كتب لها، ثم من يدري؟ عسى الله ينهي الأمر على خير وجه. إنه رجل جذاب.»

الفصل الثاني

مناقشة الحساب

ظل نيكولا خلال أيامه الأولى صموتًا ضجورًا، كانت الحاجة الملحة إلى معالجة المسائل المادية اللعينة التي استدعته أمه من أجلها تعكِّر مزاجه، ولكي يتخلص من ذلك الحمل الثقيل بأسرع وقت ممكن، اتجه منذ صبيحة اليوم التالي لوصوله مكفهرَّ الوجه إلى جناح ميتانكا دون أن ينبئ أحدًا بمقصده؛ ليسأل الرجل حسابًا عن كل شيء. أما ما هو حساب كل شيء هذا، فإن نيكولا ما كان يعرفه خيرًا من ميتانكا الذي أذهلته تلك الزيارة وروَّعته. لم تكن الشروحات والحسابات التي قدَّمها الرجل طويلة. سمع الوكلاءُ ومساعدوهم — الذين كانوا ينتظرون في الردهة — الكونت الشاب يصرخ بصوت مكتوم ازداد إرعادًا، وأصغوا برعبٍ يلطفه الارتياح إلى فيض الشتائم والسُّباب التي أمطرها عليه: «يا لص، يا عاق! سأمزقك بسيفي كالكلب. إنك لا تتعامل الآن مع أبي أيها المجرم!»

ورأى أولئك الوكلاء أنفسهم برعب وارتياح مماثلين الكونت الشاب مخضب الوجه بدماء الغضب، أحمر العينين، يجرُّ ميتانكا من ياقته وينهال عليه خلال الكلام بضربات حاذقة من قدميه وركبته في ظهره وبين ساقيه، ويصرخ: «اخرج ولا تطأ بأقدامك أرض هذا البيت بعد اليوم أيها المجرم.»

تدحرج ميتانكا فوق الدرجات الست بسرعة فائقة، ومضى يختفي في دغل. كان ذلك الدغل يُستعمل مأوًى لكل أفراد أوترادنواي الذين يؤخذون بهفوة، بل إن ميتانكا نفسه كان يختبئ فيه كلما عاد ثملًا من المدينة. أما أولئك الذين كانوا يختفون فيه للتواري عن أنظار ميتانكا نفسه، فكانوا يشهدون بملاءمته ووفائه للغرض.

أطلت زوجة ميتانكا وكنائنها برءوسهن، فظهرت وجوههن الوجلة خلال الباب الموارب الذي يسمح للناظرين برؤية «السماور» اللامع الذي يُغلَى الماءُ فيه، والسرير المرتفع الذي ينام عليه المسجل، والذي فرش فوقه غطاء ثمينًا. مرَّ الكونت من أمامهن لاهث الأنفاس دون أن يعبأ بهن، وابتعد بخطوات ثابتة قاصدًا غرفته.

وما إن علمت الكونتيس من الوصيفات بنبأ ما جرى للمسجل على يد ابنها، حتى سرى الاطمئنان إلى نفسها، وتأكدت من أن أحوالهم ستصلح بسرعة استنادًا إلى هذه البداية الطيبة، لكنها من جهة أخرى قلقت على حالة ابنها المعنوية التي كان عليها ابنها بعد فراغه من تأديب ميتانكا. ذهبت مرارًا بخطوات متلصصة إلى باب غرفته، فسمعته ينفث دخان غليونه بلا انقطاع.

وفي اليوم التالي، انتحى الكونت العجوز بابنه جانبًا وقال له بابتسامة مرتبكة: «أتدري يا صديقي الطيب أنك انفعلت بالأمس خطأ؟ لقد قص عليَّ ميتانكا كل شيء.»

فقال نيكولا في سره: «كنت أتوقع ذلك، وأعرف أنني لن أتوصل إلى فهم شيء في هذه الدنيا المقلوبة.» استمر الأب يقول: «لقد غضبت لأنه لم يُسجِّل في دفاتره مبلغ سبعمائة روبل، لكن هذا المبلغ مسجَّل في الصفحة التالية نقلًا عن الصفحة الأولى.»

– «أبتاه، إنه مختلس دنيء ولص. إن ما عملته جيد ومفيد، ولكن إذا كان ذلك لا يروق لك؛ فلن أعترض له بعد اليوم بكلمة.»

لم يكن الكونت على خير ما يرام، فقد كان يشعر بذنبه وخطئه إزاء أولاده؛ لأنه لم يحسن استغلال ثروة أمهم، لكنه ما كان يعرف كيف يُعالج هذا العجز، قال: «كلا يا صديقي الطيب، كلا. بل إنك لتَسُرَّني إذا اهتممت بأعمالنا بنفسك. لقد شِخْتُ و…»

– «آه! اصفح عني يا أبتاه إذا كان اندفاعي لم يرُقْ لك. إنني لا أفقه في هذه الشئون بقدر ما أنت عليم بها.»

وحدث نفسه: «ليحملهم الشيطان هم وخدمهم وكل الفلاحين والحسابات والمبالغ المنقولة إلى الصفحة التالية! لقد مرَّت بي فترة كنت أفقه خلالها الربح الذي يعود عليَّ من مضاعفة البرهان ست مرات متتالية أما «النقليكون» هذا، فيا للأسف الشديد!»

ومنذ ذلك الحين لم يعد يتدخل في شيء. مع ذلك، فقد استقدمته الكونتيس ذات يوم، قالت له: «إن في حوزتها سندًا معتمدًا بتوقيع آنا ميخائيلوفنا بمبلغ ألفي روبل، فماذا يجدر بها أن تفعل به؟» أجابها: «حسنًا، إليك رأيي: إنكِ تقولين إن الأمر متوقف عليَّ. إنني لا أحب لا آنا ميخائيلوفنا ولا بوريس، لكنهما كانا على اتصال وثيق معنا وهما من

الفقراء، وإذن يجب أن تتصرفي هكذا.» ومزق السند؛ الأمر الذي جعل الأم العجوز تجهش بالبكاء من الفرَح.

ومنذ ذلك الحين، شغف روستوف الشاب بالصيد بالكلاب مُغفِلًا كل الأمور الأخرى. كان يجهل ذلك اللون من الصيد، ولكنَّ أباه العجوز — وكان من أقوى أنصاره — ينظم الحفلات الخاصة به بحماس واندفاع.

الفصل الثالث

الخطوة الأولى

أخذت موجات الصقيع الأولى تحاصر الأراضي المشبعة بأمطار الخريف، وشرعت زروع الحنطة الشتوية تنشط على سيقانها الخضراء الزاهية، وتعلو على بقايا حصاد الموسم السابقة رقاع مائلة إلى السمرة من القمح الخريفي وطئته أقدام الماشية، ورقاع صفراء فاتحة من القمح الصغير المخطط بخطوط حمراء من الحنطة السوداء. أما حزم الأشجار والحشائش الصغيرة التي تشكل حتى نهاية شهر آب جزرًا صغيرة من الخضرة وسط بقايا القش والأراضي القمحية السوداء، فإنها أصبحت الآن جزرًا ذهبية وأرجوانية بين الزروع زمردية اللون. أخذ الأرنب البري ينسل و«يوسخ نفسه» على قول الصيادين، وجموع الثعالب تتشتت، ونمت جِراءُ الذئاب حتى فاقت على أحجام الكلاب، فكان ذلك أحسن الأوقات ملاءمة للصيد. مع ذلك، فإن مجموعة كلاب روستوف الشاب المتقد كانت على غير استعداد، حتى إنه تقرَّرَ في مجلس الصيادين العام إعطاؤها راحة ثلاثة أيام لتستطيع العودة إلى الصيد في السادس عشر من أيلول، وحينئذ يشرع بالتغيب في غابة السنديان؛ حيث نمى إليهم وجود فصيلة من الذئاب لم تمسَّ بعدُ.

تلك كانت الحالة في الرابع عشر من أيلول، لم يستطع الصيادون الخروج طيلة النهار بسبب شدة وطأة الجَمْد، لكن الطقس اعتدل بعض الشيء عند المساء. وفي الخامس عشر صباحًا، عندما وقف روستوف الشاب في ثوبه المنزلي إلى النافذة، أتيح لناظريه طقس لا يمكن أن يحلم المرء بأفضل منه للصيد؛ بدت السماء وكأنها تذوب لتغرق الأرض دون أن تتصدى لها نأمة ريح. أما سقوط أهْبَاء الضباب غير الملموس، فكان الحركة الوحيدة التي تظهر في الفضاء. أخذت أغصان الحديقة المجردة تساقط لآلئ شفافة فوق الأوراق حديثة السقوط، والأرض التي ظهرت عند بستان الخضار، مزينة بسواد حبَّات الخشخاش اللامعة، أخذت تغيب تدريجيًّا على البعد تحت كنن الضباب الكامد المخضل.

خرج نيكولا فوق المرقاة الرطبة المتسخة بآثار موحلة. كانت رائحة الأوراق الذابلة تمتزج برائحة الكلاب. نهضت «جراسيوز» لطيفة؛ كلبته ذات الإهاب الأسود والأبيض، والمؤخرة العريضة، والعينين السوداوين البارزتين، لدى رؤية سيدها، وتمطَّت ثم قبعت كما يفعل الأرنب، ووثبت فجأةً حتى بلغت أنفه وشاربيه فلعقتهما. وهرع كلب صيد آخر من أحد المماشي، واندفع إلى المرقاة مُعَطفَ الفقار مُنتَصِب الذَّيل، وجاء يُدلِّك نفسه على ساقيه.

وفي تلك اللحظة دوى نداء الصيادين الذي لا يقلد: «هو ... هو ... هو ...!» يجمع بين أرفع الأصوات طبقة وأعمقها صدى، وانبعث قائد فصيلة الكلاب دانيلو من وراء زاوية البيت. كان أشهب الوجه والشعر مُغضَّنَ القَسَمات، مُحَلَّقَ الشعر على الطريقة الأوكرانية، يحمل في يده سوطًا مطويًّا، وتحمل قسمات وجهه أمارات الاستقلال الأنوف، والاحتقار المتناهي الذي يبدو من خصائص قواد كلاب الصيد. رفع أمام السيد قلنسوته الصوفية، والتي عليه نظرة ازدراء لا تحمل في معناها شيئًا مهينًا. وكان نيكولا يعرف أن دانيلو ذاك، الذي يحتقر كل الناس ويضع نفسه فوق مصافِّهم جميعًا، ليس أكثر من رجله هو وقائد كلابه.

صاح نيكولا الذي لدى رؤيته ذلك الطقس البديع المثالي، والكلاب وقائد فصيلة كلابه؛ لأن أمام جنون الصيد الذي يشبه جنون العشاق فينسيهم كل مشروعاتهم السابقة: «دانيلو!»

سأل الرجل بصوت خفيض جدير برئيس شمامسه، ولكن كثرة تحريضه الكلاب وإثارتهم جعله أجشَّ، بينما راحت عيناه السوداوان اللامعتان تختلسان النظر إلى سيده الصامت وكأنهما تقولان: «آه! آه! إنك لا تستطيع المقاومة.»

– «ما هي أوامركم يا صاحب السعادة؟»

قال نيكولا وهو يحك «لطيفة» وراء أذنيها: «يوم بديع، أليس كذلك؟ جميل للجري والكمين.»

غمز دانيلو بعينيه دون أن يجيب، وبعد لحظة عاد الصوت الخفيض يقول: «لقد أرسلت «أوفاركا» للترصُّد منذ أن بزغ الفجر. إنه يقول إنها انتقلت من مكانها إلى حرز أوترادنواي. لقد سمعها تعوي هناك.

كان معنى ذلك أن الذئبة — الذي يعرف الجميع بوجودها — قد انتقلت مع جرائها إلى غابة أوترادنواي المنعزلة بين الحقول على بُعد نصف ميلٍ من هنا.»

قال نيكولا: «إذن هل نذهب إلى هناك؟ تعال لترافقني أنت وأوفاركا.»

صيد الذئاب.

– «حسب أوامرك.»

– «وانتظر أن يعطي الطعام للكلاب.»

بعد خمس دقائق، كان دانيلو وأوفاركا في مكتب نيكولا الكبير. صحيح أن قامة دانيلو كانت قصيرة، لكن وجوده في حجرة مؤثثة كان له من الأثر مثل ما تخلفه رؤية حصان أو دب تائه فوق أرضية خشبية وسط قطع من الأثاث يعيشان في الشروط اللازمة لحياة الإنسان، ولم يكن دانيلو نفسه يجهل ذلك، فكان يقف على العتبة كعادته جاهدًا أن يتحدث بصوت خافت، وأن لا يتحرك من مكانه خشية أن يحطم شيئًا، وكان يسرع في الحديث فيفضي بما لديه ليخرج بسرعة إلى الهواء الطلق.

وبعد أن طرح نيكولا عدة أسئلة، وتلقى الأجوبة اللازمة من دانيلو، الذي لم يكن همه إلا الانصراف، تأكد الكونت الشاب أن الكلاب لا تتعرض لأي خطر، فنهض وأمر أن تسرج الجياد، وبينما كان دانيلو يتأهب للخروج، هرعت ناتاشا في ثياب المنزل متدثرة بشال وصيفتها العجوز الكبير فوق شعرها الأشعث يرافقها بيتيا، قالت: «إنك ذاهب إلى الصيد؟ كنت واثقة من ذلك! بينما كانت سونيا تؤكد العكس. يستحيل أن يقاوم الإنسان الرغبة في الذهاب إلى الصيد في مثل هذا الجو.»

أجاب نيكولا ممتعضًا؛ لأنه كان يزمع الانهماك في صيد جِدِّيٍّ يمنعه من اصطحاب ناتاشا وبيتيا: «نعم، نعم، لكننا سنطارد الذئب هذه المرة، ولن يكون الأمر مسليًّا بالنسبة إليك.»

– «على العكس، إنها أقوى رغائبي. يا لعين! يذهب إلى الصيد دون أن يخطرنا!» هتف بيتيا:

إلى الأمام! لا شيء يشكل عائقًا في طريق الروسي[١] ...

– «ولكن يا ناتاشا لا يمكنك أن تأتي معنا، إن أمنا تمانع ...»

بذلك اعترض نيكولا، لكن ناتاشا أصرت بلهجة حازمة: «بل سأذهب، سأذهب رغم كل شيء. دانيلو، مُرْ أنْ تُسرج لنا جياد، وقل لميخائيلو أن يأتي بمقود كلاب الصيد العائد لي.»

وإذا كان دانيلو يجد غضاضة وعناء في المكوث في حجرة ما، فقد كان كذلك لا يطيق مجرد التفكير في أن تكون له علاقة بالشباب؛ لذلك فقد أطرق برأسه وبادر إلى الانصراف وكأن كلمات الآنسة لم تكن مُوجَّهةً إليه، لكنه عنَى في خروجه أن يتجنَّب الاحتكاك بها أو إصابتها بحركة غير مقصودة من حركاته.

[١] مطلع نشيد باجراسيون، كما سنرى في المجلد الثالث من هذا الكتاب.

الفصل الرابع

الذئب

قرر الكونت العجوز الذي كان في حالة نفسية مشرقة ذلك اليوم، والذي كان يملك معدات كبيرة هامة للصيد، أسلم زمامها إلى ولده مؤخرًا، أن ينضم إلى البعثة.

لم تمضِ ساعة حتى كان كل شيء جاهزًا أمام المرقاة. سار نيكولا أمام ناتاشا وبيتيا دون أن يلقي بالًا إلى ما يُحدِّثانه عنه، مُبيِّنًا بتصرُّفه ذاك أن الوقت لا يتَّسع للتُّرهات، وبعد أن تفقد كل شيء حتى أتفه التفاصيل، وأرسل فصيلة من الكلاب مع كشافين تتقدمهم، اعتلى صهوة حصانه الأشقر «دونيتز»، وصفَّر ينادي كلاب موكبه الشخصي، واندفع عبر الحقول متجهًا صوب غابة أوترادنواي. وكان مرافق الكونت العجوز يقود حصانه «فيولان» (عنيف)؛ وهو حصان أشهب عاقر ذو ذؤابة بيضاء. أما الكونت نفسه فكان عليه بلوغ المركز المعيَّن له للمراقبة مستعملًا الزحافة.

أسلم زمام خمسين كلبًا عداءً إلى ستة من الخدم المختصين بالكلاب، وأطلَق ثمانيةٌ آخرون من الخدم أكثرَ من أربعين كلبًا سلوقيًّا، ولو جمعت فصائل كلاب السادة لبلغ عددها مائة وثلاثين كلبًا يواكبها عشرون صيادًا على خيولهم.

كان كل كلب يعرف اسمه وقائده، وكل صياد مركزه ودوره، وما إن خرج الجمع إلى الأرض الفراغ حتى تفرقوا جميعًا بصمت وسكون، وبخُطًى هادئة متزنة في الدروب المؤدية إلى الغابة.

كانت الخيول تتقدم في البرية وكأنها تطأ بساطًا مرنًا، لكنها عند تلاقي الطرق كانت تخوض في برك من المياه، وكان الضباب مستمرًّا في الذوبان البطيء غير الملموس مع الأرض، والهواء ساخنًا خفيفًا، ومن حين إلى آخر كانت صفارة أحد الصيادين تدوي، أو يرتفع شخير حصان، أو فرقعة سوط، أو نباح أليم لكلب طُلب إليه العودة إلى الصفوف والانتظام.

اجتاز الموكب ربع ميل تقريبًا عندما انفصل عن الضباب خمسة فرسان آخرين على رأسهم عجوز جميل الطلعة لا يزال وافر النشاط، ذو شاربين أبيضين ضخمين.

قال نيكولا عندما اقترب العجوز منه: «مرحبًا يا عماه.»

قال العم وهو قريبٌ بعيدٌ لآل روستوف غيرَ واسع الغنى، يقطن في جوارهم: «إنه واضح تمامًا إلى الأمام سِرْ! لقد كنت واثقًا من خروجكم. كنت أعرف أنك لن تقاوم، وأنك لعلى حق. إنه واضح، إلى الأمام سِرْ! وهذه عبارة العم المفضلة. هاجم الغابة فورًا؛ لأن رَجُلي جيرتشيك أعلمني أن آل إيلاجين متمركزون بموكبهم في كورنيكي. لسوف ينتزعون منك أسرة جِراء الذئاب، إنه واضح، إلى الأمام سِرْ!»

– «إننا ذاهبون إلى الغابة، هل نجمع فصائل الكلاب؟»

جمعت الفصائل ومضى العم ونيكولا ساقًا إلى ساق. أما ناتاشا المتدثرة بشالات عديدة يَبرُز خلالها وجهُها ذو العينين البراقتين المنفعلتين، فقد تبعتهما بصحبة بيتيا، يواكبهما قائد الكلاب ميخائيلو الذي أقامته خادمتها العجوز حارسًا عليها، وكان بيتيا مبتهجًا كل الابتهاج، يسوط حصانه ويثيره ليندفع به. أوقفت ناتاشا وهي كالطود الراسخ فوق سرجها، بحركة مُدرَّبة من يدها، حصانها الأدهم «نيجريون».

ألقى العم نظرة استياء إلى حيث وقف الشابان: «ما كان يجب أن يجتمع عبث الصبيان بالأمور الجدية.» هتف بيتيا: «صباح الخير يا عماه، إننا هنا نحن أيضًا.»

– «صباح الخير، صباح الخير، ولكن حاذرا أن تسحقا الكلاب.»

قالت ناتاشا وهي تتحدث عن كلبها العدَّاء المفضل: «نيكولا، يا له من كلب لطيف «تاكان» مشاكس هذا. لقد عرفني!»

قال نيكولا في سره: «إن مشاكس ليس كلبًا، بل كلب عدو.» وبنظرة صارمة أوضح لأخته المسافة التي يجب أن تحتفظ بها بينهما، فامتثلت ناتاشا وعملت بما يطلب.

استأنفت تقول: «لا تقلق يا عماه، لن نزعجكم في شيء، لن نتحرك من مكاننا.»

أجاب العم: «هذا أفضل، هذا أفضل أيتها الكونتيس الصغيرة، فقط لا تسقطي عن جوادك؛ ففي هذه الحالة إذن كل شيء واضح. إلى الأمام سِرْ! لن تبقى لديك وسيلة للحاق بنا.»

كانت الجزيرة التي تشكلها غابة أوترادنواي تلوح على بضع مئات من الأمتار، وقد بلغها رؤساء فصائل الكلاب. درس نيكولا مطولًا مع العم خير الأمكنة التي يشرع فيها

بإطلاق الكلاب، وبعد أن حلَّا هذه المعضلة الخطيرة دلَّ ناتاشا على المكان الذي يجب أن تقف فيه، مراعيًا في ذلك النقطة التي لا يمكن لحيوان بلوغها، ثم دخل الغابة من أعلى الوادي.

قال العم: «انتبه يا ابن أخي. إنك إزاء ذئب ضخم؛ فلا تدعه يفلت.»

صاح نيكولا دلالة على أخذه العلم بملاحظات العم: «سوف نرى … «رافاجور» مدمر، تعال هنا!»

كان رافاجور هذا أمغر اللون، قبيح الشكل، منتفخ الحنكين، عليه أن يهاجم الذئب الضخم وحده. مضى كلٌّ إلى مرقبه.

خشي الكونت العجوز — وهو الذي يعرف مدى حماس ابنه — أن يصل إلى مركزه متأخرًا، لكن الصيادين لم يكونوا قد احتلوا أمكنتهم بعدُ عندما وصل إيليا آندريئيفيتش، مرحًا قرمزي الخدين يرتجُّ خداه من الانفعال، مارًّا بين سوق القمح الخضراء، تسابق خيول زحافته السوداء الريح، إلى المركز المعين له عند الغابة. وبعد أن أحكم كل أدوات الصيد فوق فروته النصفية، امتطى صهوة «فيفليانكا»؛ وهو حصان هادئ جيد التغذية، لامع الجلد وخَطه المشيب كصاحبه. وعلى الرغم من أن الكونت لم يكن صيادًا في روحه، فإنه كان يعرف قوانين الصيد كلها؛ لذلك فقد اتجه إلى مكانه عند حدود الغابة، وجمع الأعنَّة في يده، واستقام فوق سرج الحصان. ولما شعر بأنه على استعداد سرَّح حوله نظرة باسمة.

كان يرافقه وصيفه سيميون تشيكمار؛ وهو فارس هرم بدأ ينثني تحت ثقل السنين، وكان يمسك بيده مقاود ثلاثة كلاب قوية، ولكن كثيرة الشحم كالحصان وصاحبهما، بينما رقد قريبًا منها كلبان آخران طليقان. وعلى بُعد مائة خطوة، عند طرف الغابة، يربض ميتكا، وهو مرافق آخر للكونت، فارس ماهر وصيَّاد دنف. تجرع الكونت وفاءً منه لتقليد قديمٍ جرعة كبيرة من العرق في كأس فضية، ثم التهم قطعة من التوابل بسرعة بعد أن أغرقهاً في نصف زجاجة من نبيذ بوردو المفضل عنده، فزادت تلك الوجبة من تضرج وجهه، وراحت عيناه اللتان يغرقهما الماء تلتمعان كالوميض المبهر. استوى فوق سرج الجواد متدثرًا بفرائه القصير، فبدا أشبه بطفل أُخرج إلى النزهة.

شرع تشيكمار النحيل ذو الخدين المتدليين، بعد أن فرغ من استعداداته، يسأل سيده الكبير الذي كان يعيش معه على أتم وفاق منذ ثلاثين عامًا، والذي تبين له من انبساط أساريره ومزاجه الممتاز أنه على استعداد للدخول في حديث طلي. خرج شخص ثالث

من الغابة باحتراس — والقط الذي حرقته المياه الحارة يخشى من الماء البارد — وجاء يتمركز وراء الكونت. كان هذا القادم هو «المهرج» العجوز ذا اللحية البيضاء المُزمِّل بمعطف نسائي، وقلنسوة عالية جدًّا. وكان يجيب على الاسم النسائي المستعار: ناستاسيا إيفانوفنا. قال له الكونت بصوت خافت وهو يغمز له بعينيه: «آه يا ناستاسيا إيفانوفنا! حاول ألا ترهب الوحش وإلَّا. حذار من دانيلو!»

أجاب ناستاسيا إيفانوفنا: «إن لساني ليس في جيبي أنا الآخر!»

أهاب به الكونت.

– «صه.» ثم استدار إلى سيميون وسأل: «هل رأيت ناتالي إيلينيتشنا؟ أين هي؟»

أجاب سيميون باسمًا: «إنها قائمة مع بيوتر إيليتش عند مخرج أدغال جاروف. إنها رغم كونها امرأة مولعة أشد الولع بالصيد.»

– «ويا لها من فارسة ماهرة يا سيميون! إنها تتفوق على الرجل في الركوب!»

– «نعم، إنها تركب الخيل بمهارة، إنها ذكية وجذابة!»

سأل الكونت بصوت خافت: «وابني نيكولا، أين هو؟ في وادي ليادوف بدون شك؟»

فأعلن سيميون الذي يعرف نقطة الضعف في سيده: «بالتأكيد. أوه! إنه يعرف المركز الجيد، ثم إنه فارس لا يشق له غبار! إننا دانيلو وأنا لا نصدق أعيننا كلما رأيناه على صهوة جواده.»

– «هه، إنه يتقن الركوب، وبأية براعة!»

– «إنه يصلح للتصوير! ذاك اليوم عندما اكتشف ثعلبًا في آجام زافارزينو، قفز قفزة لله ما أروعها! إن حصانه يساوي حتمًا ألف روبل. أما الفارس فإنه لا يقدر بثمن. إن فتى مثل هذا — كما ترى — ليس من السهولة إيجاد شَبيه له.»

ردد الكونت وكأنه يأسف لأن سيميون لم يجد عبارة أقوى من هذه لوصف ابنه: «شبيه له ... شبيه له.»

وعاد يكرر هذه العبارة بصورة آلية وهو يرفع أطراف فروته القصيرة ليأخذ علبة السعوط.

– «وذلك اليوم بينما كان خارجًا من الصلاة بأبهى منظر، ميخائيل سيدرويتش.» لم يتمم سيميون جملته؛ لأنه أحس في ذلك الهدوء بالمطاردة والعواء المكتوم الصادر عن كلبين عداءين أو ثلاثة كلاب، فأحنى رأسه وأصاخ السمع، ثم أشار بيده إلى سيده أن يلزم الصمت ودمدم: «لقد عثروا عليها، إنهم يطاردونها هابطين في الوادي.»

ظل الكونت محتفظًا بالابتسامة على شفتيه ينظر أمامه إلى حيث توقع هجوم الكلاب، وعلبة السعوط في يده دون أن يستعملها، ولم يلبثا بعد سماعهما العواء أن تبَيِّنَا نداء: إلى الذئب. ينطلق من حنجرة دانيلو ذي الصوت الغليظ الرنان. اتحدت فصائل الكلاب كلها واتحدت بالثلاثة الأول، وارتفعت زمجرة الكلاب السلوقية التي تظهر فيها اهتزازات خاصة تدل على أنها في إثر الذئب. ولم يعد الخدم يصرخون: «تايوت!» بل «هارلو!» وكان صوت دانيلو المنخفض الخطير حينًا، والثاقب حينًا آخر يطغي على الأصوات الأخرى، وكأنه يملأ الغابة كلها فيبلغ حدودها، ثم ينتشر بعد ذلك في أبعاد البرية.

وبعد أن أصغيا فترة صامتين، تأكد الكونت ومرافقه أن الصيد انقسم إلى قسمين؛ الأول — ويضم العدد الأوفر والصخب الأعلى والأشد: يبتعد عن جهتهما تدريجيًّا، والثاني — وهو الذي تنبعث فيه صيحات دانيلو «هارلو»: يمر عبر الغابة على مقربة من مكان الكونت. أخذت أصوات الفرقتين تختلط وتتجاوب، ولكن تُمعِن ابتعادًا.

زفر سيميون وانحنى ليخلِّص كلبه الشاب من المقود الذي التف حوله، وكذلك زفر الكونت بدوره. ولما تبيَّن أنه يحمل علبة سعوطه فتحها وأدخل فيها إبهامه وسبابته، وفجأة صاح سيميون بكلب خرج في تلك اللحظة من جانب الغابة: «إلى الوراء.» وانتفض الكونت وسقطت علبته من يده، فترجل ناستاسيا إيفانوفنا ليلتقطها تحت أنظار الكونت وسيميون اللذين لم يحركا ساكنًا.

وفجأة، كما يحدث غالبًا، اقترب صخب الصيد منهم حتى خُيِّل إليهم أن رءوس الكلاب النابحة التي يشجعها دانيلو بصرخاته تبرز أمام أعينهم.

أدار الكونت رأسه، فرأى على يمينه ميتكا الذي كان ينظر إليه جاحظ العينين، وقلنسوته مرفوعة بيده يشير له بها إلى شيء ما في الناحية الأخرى إلى الأمام. صاح ميتكا بصوت شبه الانفجار: «حذار!»

وأطلق كلابه واندفع على حصانه باتجاه سيده. ابتعد الكونت وسيميون عن حدود الغابة فرأيا إلى يسارهما الذئب الذي كان يتجه نحو البقعة التي بارحاها بقفزات صغيرة من جسمه المرن، فثارت الكلاب وانتزعت مقاودها من يد قائدها، واندفعت نحو الذئب مُعرِّضة نفسها لخطر الدهس تحت حوافر الخيل.

توقف الذئب فجأة بغباء شأن المصاب بالخناق، وأدار رأسه باتجاه الكلاب المهاجمة، ثم قفز قفزتين أو ثلاثًا بمثل حركته المتأرجحة، وتسلل عبر الآجام وهو يحرك ذؤابة ذيله. وفي ذات اللحظة، اندفع من الجانب المضاد وسط زمجرات شاكية، كلب ثم اثنان ثم ثلاثة من الكلاب العدَّاءة، تتبعهم فصائل الكلاب كلها مندفعة ككتلة واحدة في غير انتظام

نحو المكان الذي اختفى فيه الذئب. وأخيرًا، انشقت أدغال البندق عن دانيلو فوق حصانه الأصهب وقد سوَّده العرق. كان دانيلو متكورًا فوق ظهر الحصان العريض منحنيًا إلى الأمام، عاري الرأس، وشعره الأبيض مشعث مبعثر فوق وجهه القرمزي السابح في العرق. كان يصيح ملء حنجرته: «هارلو، هارلو ...» لكنه ما إن رأى الكونت حتى التمعت الصاعقة في نظره، وزمجر وهو يهدده بسوطه: «يا الله! لقد أفلت منهم الذئب. يا للصيادي النحس!»

ودون أن يتنازل بالتحدث أكثر من ذلك، ترك الكونت في مكانه مذهولًا مشدوهًا، وانهال بالضربات التي أعدَّها لسيده على كشح حصانه الغارق في العرق، واندفع يتبع كلابه. أذهلت هذه البادرة الكونت، فالتفت نحو سيميون يستجدي عطفه بابتسامة، لكن هذا لم يكن في مكانه، كان يلف حول الأدغال ليرغم الذئب على الخروج من الغابة، كذلك كانت الكلاب السلوقية تطارد الحيوان من اليمين والشمال، لكنها ما كانت تستطيع التغلغل عبر الأدغال، وهكذا ولم يستطع أحد أن يقطع الطريق على الذئب.

الفصل الخامس

مقتل الذئب

ظل نيكولا روستوف خلال تلك الفترة ينتظر في مركزه ظهور الذئب، يستهدي بابتعاد الصيد أو اقترابه، واختلاف العواء وتردده ومسافات النداء، ويعتبر تلك البوادر نقاطًا مضبوطة للاستهداء. كان يعرف أن في تلك الغابة جِراء ذئاب وذئابًا ضخمة، ويعرف أن فصائل الكلاب قد انقسمت إلى قسمين، وأن أحدهما قد تبع الحيوان المفترس حتى مكان ما، ثم وقع حادث معين؛ لذلك كان ينتظر في كل لحظة أن تنزاح الأغصان عن الذئب، ويعمل في نفسه ألف حساب عن الجهة التي قد يتجه الوحش فيها، وعن الطريقة التي سيعمد إليها لمهاجمته، وكان الأمل في نفسه يتناوب مع اليأس. طلب إلى ربه مرات عديدة أن يجعل الذئب يخرج من ناحيته، وراح يصلي بحرارة مخجلة بعض الشيء، كما يصلي المرء في مناسبات تجعل بعض الأسباب التافهة، الاضطراب يصعد من أعماق النفس إلى الألسنة. كان يقول: «رباه! ماذا يكلفك أن تفعل ذلك من أجلي؟ إنك ولا شك أرفع من هذه الصغائر، وإنها لخطيئة أن أتوجه إليك بمثل هذا الابتهال، لكنني أتوسل إليك: اعملْ على أن يتجه ذئب ضخم نحوي، وأن يهرع كلبي مدمر إليه تحت أنظار عمي الذي أراه هناك يرقبني، فيعمل فيه بأنيابه في عضة قاتلة في حلقه.» أدار روستوف نظره حوله خلال نصف الساعة تلك، أكثرَ من ألف مرة بعنادٍ وترقبٍ وقلقٍ وحدقٍ في حدود الغابة، وتينك السنديانتين الهزيلتين اللتين تبرزان خلال غيضة من الحور، وذلك المنحدر ذي الجوانب المضرسة، وقلنسوة العم التي لا تكاد تظهر بوضوح عبر دغل صغير إلى اليمين.

كان يحدث نفسه: «كلا، لن يكون لي هذا الحظ السعيد! وماذا يكلف ذلك؟! كلا، لن يكون لي هذا الحظ. إنني دائمًا هكذا؛ في الحرب، في لعب الورق، لا أحصد إلا الخسران.» مرت في مخيلته ذكرى أوسترليتز ودولوخوف بسرعة، ولكن بوضوح شديد، وراح يفكر: «ليتني أستطيع مرة واحدة في حياتي أن أطارد ذئبًا ضخمًا وأصرعه. إنني لا أطلب أكثر من ذلك.» استمر يبحث حوله مستطلعًا مصيخًا بسَمْعه إلى أضعف وأتفه أصوات الصيد.

وبينما هو ينظر إلى يمينه شاهد شيئًا يجري نحوه عبر السهل الأجرد. حدَّث نفسه وهو يطلق زفرة ارتياح كالتي تنطلق من الصدور عندما يتحقق حلم جميل ظل زمنًا طويلًا يتهدهد في حناياها: «آه! هل يُعقل ذلك؟» وتحققت سعادته القصوى وبكل بساطة دون ضجيج، ولا دوي، ولا إشارات، أو دلائل مسبقة. لم يصدق ما تراه عيناه، فظل فترة معينة فريسة الشك. لقد كان الذئب متجهًا نحوه على خط مستقيم، بعد أن عبر بتثاقل حفرة كانت تقطع عليه الطريق. كان ذئبٌ هرمٌ، مبيض الفقار، أشهب البطن غير خالٍ من السوء، يجري دون تعجُّل لقناعته — ولا شك — بأن أحدًا لا يراه. أمسك روستوف أنفاسه وألقى نظرة على كلابه التي كانت بين مستلقية وواقفة، ولا تشك في شيء. رأى «مدمر» العجوز مطأطئ الرأس مكشرًا عن أنيابه الصفراء يقرعها على قفاه باحثًا بحماسه عن برغوث يضايقه، قال روستوف بصوت خافت وهو يزمُّ شفتيه: «هارلو! هارلو!»

هزَّت الكلاب مقاودها وقفزت ناصبة آذانها. كفَّ مدمر عن حكِّ جلده، ونهض ناصبًا أذنيه يبصبص بذيله الذي تتدلى منه كتلٌ من الوبر. تساءل نيكولا بينما كان الذئب مستمرًّا في تقدمه نحوه مبتعدًا عن الغابة: «هل يجب أن أطلقها؟» وفجأة تبدل تصرف الحيوان؛ انتفض لأنه ولا شك أبصر عيونًا آدمية ترقبه، وأدار رأسه ببطء نحو الصياد ثم توقف، بدا كأنه يتساءل: «ماذا أعمل الآن؟ هل أقدم أو أرجع؟ آه! ليكن. هيا.» ودون أن يتردد أكثر من ذلك استعاد جريه بقفزات مرنة واسعة غير متساوية ولكن ثابتة.

صرخ نيكولا بصوت مختلف: «هارلو!»

واندفع بأقصى سرعة على المنحدر يحمله حصانه الجبار قافزًا به فوق الأغوار والمناقع ليقطع السبيل على الذئب. أما الكلاب فقد سبقته بسرعة أكبر وراء الطريدة. لم يعد نيكولا يشعر بنفسه وهو يصرخ، أو يرى القفزات الخطيرة التي كان يقوم بها، ولا الكلاب التي تجري مندفعة أمامه، ولا الأرض التي يطير فوقها. لم يكن يرى إلا الذئب الذي ازدادت سرعته على طول المنحدر دون أن يبدِّل وجهته. ظهرت كلبته المرقشة «لطيفة» ذات المؤخرة العريضة إلى جوار الوحش، بل إنها لحقت به عندما اختلس الذئب نظرة إليها، وحينئذ بدلًا من أن تتقدمه «لطيفة» كما كانت تعمل عادة، اعتمدت على قائمتيها الأماميتين منتصبة الذنب وتسمرت في مكانها. صرخ نيكولا: «هارلو!»

اندفع الكلب الأشقر «مختار» الذي انبعث فجأة وراء «لطيفة» وأطبق على فخذي الذئب الخلفيتين، لكنه ألقى بنفسه جانبًا وهو فريسة للهلع. سقط الذئب وصرَّ على أسنانه، ثم نهض وعاد إلى العدو تتبعه الكلاب على بعد نصف متر دون أن تجرؤ على اللحاق به.

حدث نيكولا نفسه وهو يتابع صراخاته بصوته الأجش: «سوف يفلت مني! ولكن لا مستحيل!» زمجر وهو يبحث بعينيه عن كلبه العجوز أمله الوحيد: «مدمر! هارلو!»

رأى الكلب العجوز يركض بتثاقل مستعينًا بكل قواه الهرمة متوفز الجسد منبسطه، شاخص العينين إلى الحيوان، يحاول أن يقطع عليه سبيل الفرار، لكن مرونة الذئب وبطء الكلب النسبي يظهران بوضوح أن خطط هذا الأخير لن تكون ناجحة. أخذ نيكولا يرى بأم عينه الغابة تقترب من الذئب الذي يهرع إليها ليختفي بين أدغالها، وكاد اليأس أن يتسرب إلى نفسه عندما شاهد فجأة صيادًا آخر وكلابه يندفعون نحوه مُنجِدينَ، وحينئذ تجدَّد أمله. اندفع كلب فَتيٌّ أسمر أصهب متطاول الجسد — يجهله نيكولا — وألقى بنفسه باستماتة على الذئب فكاد أن يصرعه، لكن الوحش نهض بأسرع مما كان متوقعًا، وارتمى على الكلب وهو يصك بأنيابه، فارتفع عواء الحيوان المسكين؛ عواء مخيف مؤلم، وسقط الكلب ممزَّق الكشح دامي الجسد على الأرض ورأسه تحته.

زمجر نيكولا بغضب: «مدمر! هيا يا صديقي!»

استطاع الكلب العجوز بفضل تلك الحادثة أن يسبق الذئب بخمس خطوات جاريًا وكتل الوبر تتدلى على فخذيه. كان الآن يقطع الطريق على الذئب تمامًا. شعر الحيوان بالخطر، نظر إلى «مدمر» نظرة شاملة، وضم ذيله بين ساقيه وأسرع في عدوه، لكن «مدمر» أطبق على خصمه بمثل لمح البصر، وتدحرج معه رأسًا على عقب في حفرة كانت أمامهما.

لم يفهم نيكولا بادئ الأمر ماذا وقع لكلبه مدمر، لكنه أحس بإحدى فرحات العمر الكبيرة عندما رأى الكلاب تتجاذب فروة الذئب السمراء في أعماق الحفرة، ورأى إحدى قوائمه الخلفية متصلبة، ورأسه ذا الأذنين المائلتين تبدو عليه آيات الذهول والهلع. وأخيرًا، الكلب العجوز مدمر مطبقًا على حنجرته. أمسك قربوس سرجه محاولًا الترجُّل للإجهاز على الحيوان عندما برز رأس الحيوان خلال جمع الكلاب، وراحت قائمتاه الأماميتان تحاولان تسلق الحفرة، وقفز الذئب الذي تخلص من فكي مدمر إلى خارج الحفرة، وضم ذيله بين ساقيه وعدا متجاوزًا مطارديه من جديد. خرج مدمر من الحفرة بصعوبة منثور الوبر، ولعله كان جريحًا أو مرضوض الجسد. هتف نيكولا بيأس: «رباه! ماذا عملت لك حتى تعاقبني على هذا النحو؟»

في تلك اللحظة، وصل قائد كلاب العم مع كلابه مرخيًا عنان جواده، وقطع الطريق على الذئب، ومن جديد أُحيط بالحيوان.

أحاط نيكولا وقائد كلابه والعم وقائد كلابه كذلك بالدائرة التي يتوسطها الذئب ومن حوله الكلاب، وراحوا يصرخون معًا «هارلو.» وكلما قعس الذئب على مؤخرته حاول نيكولا النزول، لكن الحيوان كان يشق طريقه بيأس نحو الغابة حيث السلام والخلاص.

خرج دانيلو منذ بدء المطاردة من مكان على حدود الغابة مستهديًا بصرخات الصيادين، ولما رأى الكلب «مدمر» مطبقًا بأنيابه على عنق الذئب أوقف حصانه معتقدًا أن كل شيء قد انتهى، لكنه عندما رأى الصيادين في أمكنتهم على صهوات الجياد والذئب يتخلص من أعدائه، ويفر من مطاردتهم، أرخى لأدهمه العنان ليس باتجاه الحيوان، بل باتجاه الغابة على طريقة الكلب مدمر؛ ليقطع الطريق على الغار. وبفضل هذه المناورة البارعة، وصل هدبًا باتجاه الذئب في الوقت الذي حاصرته فيه كلاب العم للمرة الثانية.

كان دانيلو يهدب بسكون وفي يسراه خنجر مجرد، بينما أخذت يُمناه تسوط الأدهم الذي كان يجري بأقصى سرعة متوقعة. غابت حركاته عن عيني نيكولا فلم يشعر إلا بلهاث العقيم الثقيل عندما مرَّ أمامه وسقطة جسدٍ فجائية، وحينئذ رأى دانيلو مستلقيًا بين الكلاب مطبقًا على مؤخرة الذئب يحاول الإمساك بأُذُنيه، وحينئذ فقط أدرك الصيادون والكلاب والذئب نفسه أن كل شيء قد انتهى هذه المرة. حاول الحيوان لآخر مرة في غمرة رعبه وهوله أن يتخلص لينجو بنفسه، بيد أن الكلاب غمرته. نهض دانيلو وتقدم خطوة بتعثُّر، وكما يلقي المرء بنفسه على سريره، انهار بكل ثقله على الحيوان وأمسك بأُذُنيه. هم نيكولا أن يطعنه بخنجره، غير أن دانيلو همس له قائلًا: «لا فائدة، سوف نشده.» وأبدل من وقفته، ووطئ عنق الذئب بقدمه. غرزوا له عصًا في حلقه، ثم أوثقوه بمقود على طريقة الأنشوطة بعد أن ربطوا قوائمه، وعندئذ أدار دانيلو مرتين أو ثلاثًا من جانب إلى الآخر.

حمل الصيادون الذئب على الحصان الذي كان يتراجع بذعر إلى الخلف، ويشخر بخوف، ووجوههم المبتسمة الضاحكة تنطق بالتعب، ثم اتجهوا إلى مكان الاجتماع ترافقهم فصائل الكلاب التي كانت تنبح الذئب المتدلي. اقترب كل الصيادين، الفرسان منهم والمشاة، لرؤية الذئب الذي كان رأسه الضخم متدليًا، ينهش بأنيابه العصا المغروسة في حلقه، ويحدق في الجموع والكلاب التي تحيط به بعينين كبيرتين زجاجيتين. فإذا ما لمسه بعضهم ارتعد جسده وحرَّك قوائمه الموثقة، وألقى على المعتدين نظرات ساذجة ومتوحشة معًا. جاء الكونت إيليا آندريئيفيتش بنفسه ولمس الحيوان كذلك، ثم سأل دانيلو الذي كان واقفًا بالقرب منه: «آه! آه! إنه ذئب ضخم بديع! إنه كبير، أليس كذلك؟»

فأجاب هذا وهو يبادر إلى نزع قبعته: «تمامًا يا صاحب السعادة.»

تذكر الكونت الخطيئة التي ارتكبها حين ترك الذئب يفلت منه، والموقف الذي وقفه دانيلو منه، فقال له: «أتدري يا عزيزي، إنك لست لبقًا!»

فاكتفى دانيلو بالابتسام؛ ابتسامة مرتبكة تحمل طيبة الأطفال، وكانت تلك الابتسامة وحدها هي الجواب.

الفصل السادس

الخصم إيلاجين

عاد الكونت العجوز إلى المنزل بعد أن وعده بيتيا وناتاشا بموافاته بعد قليل، واستمر الصيد لأن الوقت ما زال مبكرًا. وحوالي الظهر، أطلق الصيادون الكلاب العدَّاءة في الوادي الذي تغطيه أدغال وأعشاب نامية كثيفة، وقبع نيكولا بين سوق الحنطة المحصودة يراقب رجاله كلهم.

اختفى قائد كلابه في حفرة واقعة وسط بقعة من القمح الجديد، كائنه قبع مكانه، وراء باقة كثيفة من شجر البندق. لم يمض زمن طويل على انطلاق الكلاب حتى تناهى إلى سمع نيكولا صوت نباح أحدها المتقطع، فعرف فيه كلبه «فانفاران»، وانضمت كلاب أخرى إليه، بعضهم صامت والبعض الآخر يزمجر أو يعوي، وبعد هنيهة علا صوت من الغابة ينبه إلى اكتشاف ثعلب، فتوقفت الفصائل كلها، ثم اندفعت معًا في الأرض العراء مبتعدة عن نيكولا باتجاه القمح الأخضر.

شاهد نيكولا قواد الكلاب بقلنسواتهم الحمراء يطاردون على صهوات جيادهم فوق حافة الوادي، وتبيَّنَ الكلاب كذلك، فانتظر أن يظهر الثعلب في أية لحظة من الجانب الآخر من حقل القمح.

شرع قائد الكلاب المختفي بالمسير وفرق كلابه، وحينئذ شاهد نيكولا ثعلبًا عجيب المظهر بلون ناري محجَّل القوائم، مُشرَع الذنب، يجري بسرعة بين الحنطة الخضراء. كادت الكلاب أن تصل إليه، وعندئذ راح يرسم دوائر آخذة في الضيق وهو يكنس الأرض بذنبه الكث، وفجأة ارتمى عليه كلبان، أبيض مجهول الهوية وآخر أسود، ثم اختلط كل شيء، ورسم الكلاب نجمة حول الحيوان الذي ظل جامدًا تقريبًا يواجه خصومه، ووصل قائدان أحدهما ذو قلنسوة حمراء، والآخر مجهول بجلباب أخضر، يحسان فرسيهما.

تساءل نيكولا: «ما معنى هذا؟ من أين جاء هذا المجهول؟ إنه ليس قائد كلاب العم.»

قضيا على الثعلب ولبثا فترة طويلة في مكانهما دون أن يوثقاه، أو أن يعتليا ظهري جواديهما اللذين كان سرجاهما ذوا القربوسين العاليين ظاهرين خلال الدغل. كانت الكلاب راقدة حولهما. أما الرجلان فكانا يُلوِّحان بأيديهما وكأنهما يتنافسان على الطريدة، دوَّى قرع طبل، وهي إشارة مصطلح عليها تدل على وقوع عراك، قال قائد كلاب نيكولا: «إنه قائد كلاب آل إيلاجين يتشاجر مع إيفاننا.»

أرسل نيكولا مُكلِّبه يستقدم ناتاشا وبيتيا، واتجه متمهلًا نحو المكان الذي فيه الخدم يجمعون الكلاب. بلغ بعضهم مكان المشاجرة.

ترجل ليتعرف إلى واقع الخلاف، وتوقف قرب الكلاب مع ناتاشا وبيتيا اللذين وصلا بدورهما. وجاء المكاتب الذي كان طرفًا في النزاع ممتطيًا صهوة جواده، مُعلِّقًا الثعلب إلى السرج، قاصدًا سيده الشاب. رفع عن بعدٍ قلنسوته وجهد في اتخاذ لهجة محترمة، لكنه كان يغصُّ بالغضب ويختنق، ووجهه شاحب ثائر، وكانت إحدى عينيه متورمة، لكنه لم يكن ملقيًا بالًا إليها. سأله نيكولا: «ماذا وقع بينكما؟»

– «وكيف؟! هل سيسرقون الآن الطرائد منا؟ لم يكن ينقصنا إلا هذا! ثم إنها الكلبة الرمادية بلون الفأر التي أمسكت به، ولكن لا مجال لإفهامه ذلك. أراد أن يتملك الثعلب، لكنني، أنا، انتزعت الحيوان ولكمته على خياشيمه. ها هو ذا مُعلَّق إلى سرج جوادي.»

ثم أضاف وهو يُلوِّح بسكين الصيد الذي في يده، ولعله كان يعتقد أن خصمه لا يزال أمامه: «إذا كان ما فعلته بك لا يكفيك يا فتاي؛ فسيكون سكيني هذا في خدمتك.»

لم يجبه نيكولا، بل طلب إلى أخويه أن ينتظراه، وقصد إلى المكان الذي توقفت فيه جماعة صيد الخصم إيلاجين.

اندمج قائد كلابه المنتصر في غمار زملائه وراح يقص عليهم ما عمل مدفوعًا بفضولهم المشجِّع وعطفهم الواضح.

هذا ما وقع: كان آل إيلاجين متخاصمين مع آل روستوف خصومة قضائية، وكان هذا يصطاد في أراضٍ كان أولئك يعتبرونها من أملاكهم بحكم تصرُّفهم فيها زمنًا طويلًا. وفي ذلك اليوم بالذات، وكأنه أمر مقصود، اقترب إيلاجين من غابة آل روستوف، وسمح لقائد كلابه أن يتتبع صيدًا اكتشفه كلاب خصمه.

كان نيكولا — وهو المتطرف في آرائه تطرفه في عواطفه — يكره إيلاجين كرهًا شديدًا دون أن يراه، ويعتبره عدوًّا يستحق الموت. كان يحكم على ذلك السيد بحسب الشائعات التي تتناقلها الألسن حول أخلاقه واندفاعاته؛ تلك الشائعات التي لا تستند إلى أساس

متين. مشى إليه وهو فريسة غضب عنيف ويده قابضة بعنف على سوطه، وفي نفسه عزم أكيد على اتخاذ أخطر الخطوات، وأشدها حزمًا حيال ذلك الخصم.

لم يبلغ حدود الغابة حتى رأى سيدًا ضخمًا مقبلًا نحوه على صهوة جواد رائع أسود يرافقه تابعان.

وبدلًا من العدو الذي كان ينتظر، رأى نيكولا في شخص إيلاجين رجلًا دمثًا ذا وقار ومهابة، وتصرفات محمودة لبقة، يودُّ من صميم قلبه أن يتعرف على الكونت الشاب، ما إن تقابلا حتى رفع القادم قبعته الوحيدة الحافة وأعلن أسفه الشديد لما حدث، قال: «إن الخادم المذنب قد لقي عقابه، وأنه ينتظر أن يرتبط بعلاقات طيبة مع الكونت الشاب، ويسمح له منذ الآن أن يصطاد في أراضيه.»

تبعت ناتاشا أخاها عن قرب خشية أن يتصرف تصرفًا سيئًا، وهي شديدة الاضطراب، فلما اطمأنَّتْ عند سماع عبارات التودد والإيناس التي تبادلها العدوان اقتربت منهما، رفع إيلاجين قبعته عاليًا لدى اقترابها، وقال مؤكدًا بأن الكونتيس ليست إلا صورة حية لديانا بحبها للصيد، كما بجمالها وبهائها الذي بلَغ نبؤه إلى مسامعه.

ولكي يذهب إيلاجين بخطيئة قائد كلابه، رجا الكونت الشاب بإلحاح أن يرافقه إلى التلال الواقعة على بعد ربع ميل؛ حيث يحتفظ لنفسه بصيد سمين، وحيث الأرانب البرية متوفرة بكثرة — على حد قوله — وافق نيكولا على عرضه وعاد الصيد من جديد مزدوجًا حماسيًّا.

كان على الصيادين أن يجتازوا الحقول للوصول إلى التلال، تفرق القادمون وراحوا يمشون معًا، راح العم وروستوف وإيلاجين يفحصون خفية كلاب بعضهم بعضًا، ويرتعدون لفكرة اكتشاف منافسين أكفاء لكلابهم.

لاحظ روستوف بين كلاب إيلاجين كلبة حمراء مرقشة أصيلة صغيرة الحجم، رقيقة الجسد، ولكن ذات عضلات فولاذية ولا شك، تبرز عيناها فوق بوزها الأملس الرقيق. ولما كان قد سمع الإطراءات الكثيرة التي يكيلها الناس لكلاب جاره الخصم، فقد وجد في تلك الكلبة الأصيلة المتينة خصمًا محترمًا لكلبته «لطيفة».

قال نيكولا لجاره خلال حديث هام جِدِّيٍّ حول المحاصيل، أثاره هذا وهو يشير بطلاقة إلى الكلبة الحمراء المرقشة.

– «إن لديك هنا كلبة رائعة، هل هي عنيفة؟»

أجاب إيلاجين بمثل لهجته: «هذه؟ نعم، إنها حيوان جيد وهي تصطاد صيدًا حسنًا.»

وكان إيلاجين هذا قد تنازل لأحد جيرانه في العام الماضي عن ثلاث أُسر من الوعول الأليفة لقاء هذه الكلبة. استرسل مستأنفًا حديثه الأول: «إذن يا كونت، إن محصول الحبوب عندكم لا يستوجب الإعجاب!»

ورغبة منه في مجاراة جاره الشاب، أشار إلى كلبته «لطيفة» التي استوقفت أبصاره بجمال شكلها، وقال: «إن لديك هنا حيوانًا بديعًا، إنها تبدو لي على خير ما يرام.»

أجاب نيكولا: «نعم، إنها لا بأس بها.» بينما فكر في سِرِّه مبتهلًا: «آه! لو أن السيد أرنب تنازل في هذه اللحظة بعبور هذا الحقل لأريتك أية كلبة هي هذه.» ثم التفت إلى قائد كلابه وقال له إنه يمنح مكافأة قدرها روبل لكل من يكتشف أرنبًا خارج حجاره. استأنف إيلاجين قائلًا: «لست أفهم كيف يستطيع الصياد أن ينازع صيادًا آخر طريدته أو كلابه ويحسده عليها. أما أنا يا كونت فإنني أؤكد لك أن ما أحبه في الصيد إنما هو النزهة؛ نزهة مع مثل هذا الصحب الكريم — وعاد يرفع قبعته احترامًا لناتاشا — ماذا يمكن للمرء أن يحلم به خيرًا من هذا الصَّحب؟ أما تعداد الجلود التي يحصل عليها آخر النهار، فإنني أسخر من هذا.»

– «طبعًا، طبعًا!»

– «هل أعتبر إهانة أن يمسك كلب الجار بالطريدة بدلًا من كلبي؟ كلَّا، المهم في الأمر هو أن أتمتع بمشهد الصيد. أما ما تبقى فلا يهمني في كثير أو قليل. ألست على صواب يا كونت في نظري؟»

وفي تلك اللحظة، ارتفع صوت أحد الخدم المكلفين بالكلاب السلوقية، وكان واقفًا فوق تل صغير في وسط سوق القمح المحصود والسوط مرفوع في يده: «فيلو! فيـ... يـ... لو!»

تكرر هذا النداء المتقطع فكان إيذانًا باكتشاف أرنب. أما الصوت فكان يدل على مكان وجوده.

قال إيلاجين متصنعًا اللامبالاة: «يظن أنه عثر على واحد، هيا يا كونت هل نطرده؟»

فأجاب نيكولا وهو يلقي نظرة على كلبته المسماة «تريبيدانت» وعلى كلب العم الأصهب «تاباجور» اللذين كانا خصمين مخيفين لم يوازنهما قط مع كلابه من قبلُ: «نعم، نعم. ولكن ماذا؟ معًا!»

فكر في نفسه وهو يتجه نحو الأرنب بصحبة عمه وإيلاجين: «ماذا لو تفوَّقا على لطيفة؟» سأل إيلاجين الخادم عندما حاذاه: «أهو أرنب كبير؟»

ثم التفت في قلق وصفر ينادي تريبيدانت وأردف يخاطب العم: «حسنًا يا ميخائيل نيكانوريتش، هل ترافقنا؟»

قال العم وهو يواكبه مكفهر الوجه: «ما الفائدة؟ إن كلابك — إنه واضح، إلى الأمام سِرْ! — تساوي جبلًا من النقود؛ إنها حيوانات يساوي كلٌّ منها ألف روبل. صفها وأنا سأكتفي بالنظر.»

ثم نادى كلبه بصوت جعل مبلغ محبته له واضحًا في نبراته، معبرًا عن أمله الذي يضعه فيه.

– «يا تاباجور! أيها الجميل، أيها المدلل!»

حدستْ ناتاشا على الفور الشعور السائد بين الصيادين الثلاثة، فشاركت أخاها والعجوزين اضطرابهما المكتوم.

أما المُكلب فقد ظل واقفًا في مكانه على الأكمة والسوط في يده، بينما اقترب السادة على صهوات جيادهم متمهلين، وكانت الكلاب المنتشرة حتى الأفق مبتعدة كل الابتعاد عن مكان الأرنب، وقُوَّادها متفرقون مبعثرون، لكنهم ما عتَّموا أن انتظموا واجتمعوا في نظام رائع.

سأل نيكولا عندما بلغ مسافة مائة متر من مكان الكشاف: «أين اتجاه رأسه؟»

لم يجد هذا متسعًا من الوقت للإجابة عليه، ذلك أن الأرنب الذي كان يتحسس الجمد الذي سيتراكم في الغد، قفز فجأة خارج وكره. انحدر الكلبان العدَّاءان فوق المنحدر مندفعين كالسهم، وتبعتهما من كل الجهات الكلاب السلوقية التي لم تكن مربوطة إلى مقاودها، ولم تلبث الجماعة التي كانت متمهلة حتى تلك اللحظة أن اندفعت إلى المعركة، وأخذ قواد الكلاب العدَّاءة يكبحون جماحها بأوامرهم الداعية إلى الوقوف، بينما أطلق الخدم المعنيون بالكلاب السلوقية كلابهم وهم يهيبون بها صائحين: «تايوت!» بدلًا من «هالت» (أي قف). أخذ إيلاجين الهادئ ونيكولا والعم يهدبون خيولهم دون وعي غير عابئين إلا بالكلاب والأرنب، خائفين أن يفوتهم ذلك المشهد الطريف. كان الأرنب كبير الجثة ثمينًا. لم يبادر إلى الفرار حال خروجه من وكره، بل جمع أذنيه وأصغى إلى الصيحات ووقع الأقدام والحوافر التي كانت ترتفع من كل مكان. قفز بضع قفزات غير سريعة تاركًا الكلاب تقترب منه، ثم انتقى الوجهة التي سيقصدها، وتأكد من الخطر الداهم، فأسبل أذنيه وفرَّ بكل قواه. وكان عند حافة الأرض المغطاة بسوق الحنطة المحصودة؛ حيث كان يرقد، رقعةٌ كبيرة من الأرض يغطيها القمح الأخضر والمستنقعات. تبع كلبا الصياد — الذي عثر على الطريدة — الأرنب قبل سواهما، لكنهما كانا على مسافة

بعيدة منه عندما تخطتهما تريبيدانت، الكلبة الحمراء المرقشة التي يملكها إيلاجين، وباتت لا يفصلها عن الأرنب إلَّا طول كلب واحد، وعندئذ قفزت قفزة هائلة مستهدفةً ذيل الحيوان، لكنها أخطأته فتدحرجت على الأرض. رفع الأرنب فقاره وضاعف سرعته، وكانت «لطيفة» القوية قد وصلت في تلك اللحظة وتساوت سرعتها مع سرعة الحيوان النافر، فصاح نيكولا بصوت منتصر: «لطيفة، يا جميلتي!»

كادت لطيفة أن تبلغ الأرنب وتمسك به، لكنها تجاوزته بسرعة اندفاعها فلم تستطع التوقف في الوقت المناسب، وهكذا أفلت الأرنب منها، عادت تريبيدانت من جديد تتعلق بالطريدة، بل إنها تعلقت فعلًا بذيلها، وكأنها تتوقع أن تُطبق على فترتين متعاقبتين عليه وتصرعه. صرخ إيلاجين بصوت تخنقه العبرات ولهجة متوسلة: «تريبيدانت يا جميلتي!» لكن تريبيدانت لم تبالِ بتوسلات سيدها، ذلك أنه في اللحظة التي ترقب الصيادون فيها رؤيتها ممسكة بالحيوان، زاغ هذا منها بانعطافة مفاجئة وراح يجري على طول الأخدود الذي يفرق بين القمح الأخضر والسوق المحصودة. راحت تريبيدانت ولطيفة — أشبه بحصانين مشدودين إلى عريش واحد — يجريان جنبًا إلى جنب وراء الأرنب، لكن هذا كان في مكان يناسبه فعجزت الكلبتان عن اللحاق به.

وهنا علا صوت جديد صائحًا: «تاباجور، أيها المدلل! إنه واضح، إلى الأمام سر!»

وظهر كلب العم الأشقر الأحدب مندفعًا وكأنه يهمُّ بالخروج من جلده حتى لحق بالكلبتين، ثم تجاوزهما وأطبق بتفانٍ عجيب على الأرنب نفسه، مرغمًا إياه على الخروج عن اتجاهه الأول، وتبعه بعد ذلك بحمية متزايدة وضراوة وهو يغيب في الأرض الموحلة حتى بطنه. شوهد بعد ذلك يتعثر ويتدحرج مع الأرنب في الطين اللزج. وحينئذٍ انتظم الكلب حولهما على شكل نجمة، ولم يلبث الصيادون أن بلغوا مكان الطريدة. ترجَّل العم يستخفه الفرح فحرم الأرنب، وبينما هو يهزه ليسيل منه الدم ثلم عينيه، ثم راح ينظر حوله في قلق وهو في حيرة من أمره لا يدري ماذا يعمل بأطراف الحيوان ووفرة الكلاب. أخذ يدمدم بكلمات متلاحقة غير واضحة: «آه! إنه واضح. سر! يا له من كلب! لقد تفوق عليهم جميعًا، على الأصيل وعلى الكديش معًا! إنه واضح، إلى الأمام سر!» كان يغصُّ بالانفعال ويدير حوله عينين وحشيتين، ويطلق كلماته أشبه بالسباب حتى ليُقال إن الآخرين كانوا جميعًا أعداء له، وإنهم أهانوه مجتمعين فأتيحت له الفرصة ليثأر منهم. «إن كلابك جميلة، تلك التي يساوي كل منها ألف روبل! إنه واضح، إلى الأمام سِرْ!»

نادى كلبه وهو يلقي إليه بإحدى أرجل الأرنب الملطخة بالطين: «إلى الطعام يا تاباجور! إنك تستحقه عن جدارة. إنه واضح، إلى الأمام سر!»

وقال نيكولا الذي كان هو الآخر لا يصغي إلى أحد، ولا يهمه أأنصت إليه أحد أو لم ينصت: «إنها على آخر رمق؛ لقد قامت بثلاث مطاردات.»

ومن جانبه قال تابع إيلاجين: «لقد أمسكت به خلافًا لما ينبغي. يا للمسألة الجميلة!»

بينما كان إيلاجين نفسه، الذي بهرت أنفاسه المطاردةُ وصير الاضطراب وجهه قرمزيًّا، يقول بنفس الوقت: «طالما أخطأتْهُ، فإن أيَّ كلب يأتي بعدها يستطيع أن يجعل منه كسبًا هينًا.»

كانت ناتاشا خلال تلك الفترة تطلق صرخات ثاقبة أشبه بالنباح، تكاد تصم الآذان. تلك كانت طريقها للإفصاح عما كان يلهج به الآخرون معًا، وكانت تلك الصرخات من الغرابة بمكان حتى إنها لو استمعت إليها أو أطلقت مثلها في غير تلك المناسبة، لما صدق السامعون آذانهم، ولذابت هي من الخجل.

علق العم بنفسه الأرنب إلى سرج جواده بحركات حاذقة عنيفة، وألقاه بشكل مُشبعٍ بالتحدي على ردف الحصان، ثم امتطى جواده الأشعل وابتعد وكأنه يأنف التحدث مع الآخرين. أما هؤلاء فقد تفرقوا مكتئبين وفي كرامة كل منهم وخزة، وظلوا فترة طويلة قبل أن يستعيدوا مرحهم، أو — على الأقل — قبل أن يستطيعوا التظاهر باللامبالاة. لبثوا وقتًا طويلًا يتابعون بأبصارهم تاباجور الأصهب الذي كان ملطخ الظهر بالطين يرنن مقوده متظاهرًا بهدوء المنتصر يواكب حصان سيده. خُيل إلى نيكولا أن في مظهر الكلب ما معناه: «هه، صحيح إن مظهري لا يدل على شيء، ولكن عندما يكون الأمر متعلقًا بالصيد. أما في غير ذلك فحذار.»

ولما اقترب العم من نيكولا بعد فترة طويلة ووجه إليه الحديث، شعر نيكولا بتيهٍ وفخار؛ لأن العم تنازل وتقرب منه بعد كل الذي حصل.

الفصل السابع

دعوة لطيفة

عندما استأذن إيلاجين من نيكولا عند المساء، وجد هذا نفسه بعيدًا جدًّا عن مسكنه حتى إنه تقبَّل عرض العم القاضي بترك الخدم والكلاب يعودون وحدهم إلى المنزل، بينما يقضي هو وأخته وأخوه الليل في ميخائيلوفكا، وهو اسم المزرعة الصغيرة التي يملكها العم.

– «حتى ولو جئتم جميعًا عندي. إنه واضح، إلى الأمام سِرْ! فإن ذلك سيكون أفضل. انظر، إن الوقت رطب، وسوف تستريحون ونعيد بعد ذلك الآنسة بالزحافة.»

قُبل العرض وأُرسل خادمٌ إلى أوترادنواي للإتيان بزحافة، بينما رافق نيكولا وناتاشا وبيتيا العم إلى مسكنه.

هرع خمسة أو ستة من الخدم الذكور بين كبار وصغار إلى باب المدخل الكبير لاستقبال السيد، واجتمعت عشرات من النسوة بين هرمات فانيات وشابات وأطفال عند باب الخدم للتفرج على الضيوف، وقد أثار وجود ناتاشا، بوصفها امرأة وسيدة رفيعة الشأن، ممتطية جوادًا فضولهن لدرجة كبيرة، حتى إنهن اقتربن منها دون رهبة، ورُحنَ يتصفَّحن وجهها ويتبادلن الملاحظات وكأن الأمر متعلق بمنظر نادر في معرض، لا يستطيع أن يفهم أو يسمع ما يقلن عنه: «آربنكا. انظري، إنها تجثم فوق برميل! وتنورتها التي تنسدل ...! وبوفها كذلك ...!»

– «آه، رباه! إن معها سكينًا!»

وسألت إحداهن ناتاشا وقد استجمعت شجاعتها فكانت أشجع كل زميلاتها: «وكيف لم تسقطي عن ظهر الجواد؟»

ترجل العم أمام مرقاة بيته الصغير الخشبي الغارق وسط الخضرة، ثم سرح طرفه في خدمه وصرخ فيهما آمرًا مَن كان منهم لا يقتضي الموقف وجوده بالانصراف، وأن يعملوا لاستقبال الضيوف في البيت وصيدهم ورجالهم.

هرعوا جميعًا يركضون في كل اتجاه، بينما ساعد العم ناتاشا على النزول، وقدَّم لها ذراعه لترتقي درجات المرقاة الخشبية المتهززة. كان البيت ذو الجدران الخشبية السميكة غير المدهونة لا يعطي فكرة عن العناية. ولعل سكانه لم يراعوا إخفاء اللطخات المنتشرة فوق الأخشاب جريًا مع الإهمال والترك السائدين في أرجائه. انبعثت من الدهليز رائحة تفاح ناضج، وشوهدت جلود الذئاب والثعالب معلقة على جدرانه.

قاد العم ضيوفه من الردهة إلى غرفة صغيرة مؤثثة قابلة للثني وكراسٍ من خشب الكابلي، ومنها إلى بهو تجثم في وسطه مائدة مستديرة من خشب السرو، وبقربها أريكة. وأخيرًا إلى غرفة مكتبه حيث شاهد الضيوف فيها أريكة بالية، وسجادة خلقة. أما على الجدار فكانت صورة سوفوروف معلقة إلى جانب صورة أبوي صاحب البيت، ثم صورته نفسه وهو في ثوب عسكري. كانت رائحة عنيفة، رائحة التبغ والكلاب، تملأ الغرفة التي ترك فيها العم ضيوفه راجيًا منهم أن يتصرفوا كما لو كانوا في مسكنهم الخاص. ظهر تاباجور بدوره وظهره لا زال ملطخًا بالوحل، وراح إلى الأريكة فجلس عليها، وشرع يُعمل لسانه وأسنانه في زينه جَدْيةٍ لنفسه، فكانت غرفة المكتب تطلُّ على ممشًى يُشاهَد فيه حاجز من قماش ممزق، ومن وراء ذلك الحاجز ارتفعت ضحكات، وهمسات نسائية. اتخذ نيكولا وناتاشا وبيتيا التدابير الممكنة لراحتهم، فجلسوا على الأريكة. نام بيتيا على الفور بعد أن اتخذ ذراعه وسادةً اتكأ عليها برأسه، بينما ظل نيكولا وأخته صامتين. كان وجه كل منهما ملتهبًا، ومعدته خاوية، كما كانا جذلين مسرورين يتبادلان النظر. لم يعد همُّ نيكولا بعد أن انتهى الصيد أن يحافظ أمام أخته على تفوقه كرجل وامتيازه. وهكذا ما كادت تغمز له بعينيها حتى انفجرا ضاحكين ضحكة مجلجلة غريزية.

لم يلبث العم أن عاد مرتديًا عباءة وسراويل زرقاء وأحذية قصيرة، فلاحظت ناتاشا أن ذلك الثوب الذي ليس فيه ما يضحك أكثر مما في «الرودنجوت» أو غيره. كان العم كذلك مسرورًا منبسط الأسارير، ولما كان لا يرتاب في أن يكون طراز حياته باعثًا على الضحك؛ فإن انشراح الأخوين لم يسئ إليه، بل على العكس دعاه إلى الاشتراك معهما فيه.

قال وهو يقدم لروستوف غليونًا طويلًا بينما راحت أصابعه تداعب بحركة أليفة غليونًا قصيرًا استبقاه لنفسه: «انظر إذن إلى الكونتيس الشابة. إنه واضح، إلى الأمام سِرْ. لن يجد المرء مثيلًا لها. إن قضاء يوم كامل على صهوة الجواد لا يكاد يحتمله الرجل. أما هي فلا يظهر عليها شيء من الإعياء.»

لم تمضِ فترة طويلة على عودة العم إلى الغرفة حتى شوهدت خادم، إذا حكم على خطاها غير المسموعة قدَّر أنها حافية القدمين، تحمل طبقًا محملًا، كانت جميلة قوية في الأربعين من عمرها، نضرة الوجنتين، ذات ذقن مزدوجة، وشفتين ممتلئتين. شملت المدعوين بنظرة وانحنت تُحييهم باحترام بابتسامة أنيسة، فكانت أمارات وجهها وكل حركة من حركاتها مطبوعة بالأنس واللطف واللباقة. وعلى الرغم من أن ضخامة جسمها كانت ترغمها على إبراز صدرها ورفع رأسها إلى الوراء، فإن تلك المرأة التي كانت مدبرة شئون العم كانت رشيقة الحركات. وضعت الطبق على المائدة وراحت بيديها البضتين السمينتين ترفع عنه الزجاجات والصِّحاف التي كان محملًا بها، فلما انتهت من عملها تنحَّت ووقفت على عتبة الباب وعلى شفتيها ابتسامة خُيِّل لروستوف أنها تقول: «ها أنا ذا! هل تفهم عمك الآن؟» والواقع أنه بدأ يفهم العم، بل إن ناتاشا نفسها حزرت معنى الحاجبين المقطبين والابتسامة السعيدة الراضية التي ثنت شفتي العم، عندما دخلت أنيسيا فيدوروفنا. كان الطعام الخفيف الذي أتت به يحتوي على كحول وبصل مشطور، وكعك من القمح الأسود بالحليب، وعسل بشهده، ثم عسل ممزوج بالزبد، وتفاح، وثمار الجوز الطازجة مشوية، ومربى الجوز، إلى جانب العرق بالأعشاب. أضافت المدبرة إلى ذلك أنواعًا من المربى المعقود بالعسل أو السكر، ولحم خنزير، ودجاجة مطهية سُحبتْ للتوِّ من الفرن.

كان كل هذا ثمار عناية أنيسيا فيدوروفنا. كل هذا يحمل رائحة أنيسيا فيدوروفنا، ويتسم بطابعها، كان كل هذا ينطق بدقتها ونظافتها ونصعها وابتسامتها المستحبة.

قالت وهي تقدم لناتاشا صحفة إثر أخرى: «كلي بشهية يا آنستي الكونتيس الصغيرة.»

تذوقت ناتاشا كل الأطعمة، وخُيل إليها أنها لم ترَ من قبلُ قط ولم تأكل أبدًا أفضل من لحم هذا الدجاج، وأطيب من هذا الكعك، وألذ من تلك الأنواع المعطرة من المربى والجوز المعقود.

خرجت أنيسيا فيدوروفنا، فراح العم ونيكولا يشربان كحول الكرم مع الطعام، ويتحدثان عن صيد ذلك النهار، وعما يتوقَّع لكلبه تاباجور ولكلاب إيلاجين. أما ناتاشا فكانت تصغي إليهما وهي منتصبة في جلستها على الأريكة وفي عينيها لهيب مشتعل. همت مرارًا أن توقظ بيتيا لتطعمه شيئًا، لكن هذا كان يغمغم في نومه بكلمات غير مفهومة ويستغرق في سباته. شعرت ناتاشا بسعادة غامرة في ذلك البيت الجديد عليها، حتى إنها باتت تخشى سرعة وصول العربة التي ستحملها إلى البيت. وبعد فترة صمت غير منتظرة

كتلك التي تحدث دائمًا للأشخاص الذين يستقبلون الأصدقاء للمرة الأولى، قال العم وكأنه يجيب على أفكار ضيوفه الشخصية: «نعم، ها إنني أنهي وجودي ... وعندما يموت المرء — إنه واضح إلى الأمام سر! — لا يبقى شيء ... وإذن، ما فائدة الحرمان؟»

كان وجه العم وهو يتحدث على هذا النحو معبرًا، بل ومُتَّسمًا ببعض الجمال، تذكَّر روستوف المديح الذي يكيله أبوه والآخرون لهذا العم، والذي يعتبر استنادًا إليه أفضل وأنبل السادة وأكثرهم كرمًا. كانوا يستدعونه لتحكيمه في المشاكل العائلية، وينتخبونه منفذًا لوصايا الموتى، ويأتمنونه على الأسرار. ولقد عُيِّن مرة قاضيًا، ثم عين في وظائف أخرى، لكنه كان أبدًا يرفض بعناد الأعمال العامة، ويمضي الربيع والخريف متنقلًا في الريف على صهوة أدهمه العقيم، ويقضي الشتاء قرب النار، والصيف في ظلال أشجاره الباسقة.

– «لم لا تقبل وظيفة يا عماه؟»

– «لقد شغلت وظيفة، لكنني سرعان ما تخليتُ عنها. إن هذا اللون من المهن لا يلائمني. إنه واضح، إلى الأمام سر. إنها وظائف تستهوي الآخرين، أما أنا فلا. آه! الصيد مسألة أخرى مختلفة كل الاختلاف. إنني في الصيد أشعر بأنني أعيش مع نفسي. إنه واضح، إلى الأمام سِرْ!»

ثم صرخ: «افتحوا الباب، لماذا أغلقتموه؟»

كان الباب الذي في نهاية الممشى، والذي يسميه العم «منش» يؤدي إلى مسكن قواد الكلاب. هرعت أقدام عارية إلى ذلك الباب وفتحتْه يدٌ غير منظورة، وحينئذ سمعت ألحان «البالالايكا» تؤديها يدٌ خبيرة. خرجت ناتاشا إلى الممشى ليتسنى لها الإصغاء إلى تلك الموسيقى التي كانت منصتة إليها من قبلُ، فقال العم: «إنه ميتكا حوذي. لقد اشتريت له آلة ممتازة. إنني أحب ذلك.»

كان العم يحب إذا ما عاد من الصيد أن يصغي إلى ميتكا وهو يعزف قليلًا من الموسيقى، فدخلت هذه التسلية في عداد أطباعه.

قال نيكولا بصوت منطلق وكأنه يخشى الإعراب عن متعته: «إنه جيد، في الحقيقة إنه جيد جدًّا.»

فقالت ناتاشا وقد نكدتها لهجة أخيها المصطنعة: «كيف، أهو جيد فحسب؟ بل إنه رائع. نعم!»

وكما أن البصل والعسل والكحول التي قدمها العم بدت لها أفضل ما في الوجود، كذلك وجدت في الأغنية اللطيفة أرفع فن موسيقي، فلما فرغ المغني من أغنيته هتفت: «أعدْ، أرجوك أعدْ!»

ضبط ميتكا آلته وعاد يعزف مقطوعة «بارينيا» (أي السيدة)؛ وهي أغنية شعبية عظيمة الشيوع في ذلك الحين، متصرفًا فيها تصرفًا بديعًا. وكان العم يصغي وهو مائل الرأس وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة. أُعيدَ عزفُ البالالايكا مرارًا دون تعب ولا ملل، ودون أن يظهر على المستمعين شبح السآمة. دخلت أنيسيا فيدوروفنا وأسندت جسمها الثقيل إلى حافة الباب، وقالت لناتاشا وعلى شفتيها ابتسامة شبيهة بتلك التي تشرق على وجه سيدها: «أصغي يا آنسة. إنه يعزف عزفًا جميلًا، أليس كذلك؟» صرخ العم فجأة وهو يلوح بيده دلالة على نفاد الصبر: «آه! هذه قطعة سيئة العزف، كان يجب إظهارها أكثر من ذلك. نعم، إنه واضح، إلى الإمام سر! كان يجب إبرازها أكثر من ذلك.»

سألت ناتاشا: «هل تجيد العزف؟»

فابتسم العم دون أن يجيب ثم قال لأنيسيا: «اذهبي يا أنيسيا وتأكدي من تمام أوتار قيثارتي. لقد مضى وقت طويل لم أستعملها خلالها. إنه واضح، إلى الأمام سِرْ».

مضت أنيسيا فيدوروفنا بخطواتها الخفيفة لتنفذ أمر سيدها.

لم يعبأ العم بأحدٍ وهو ينفخ على آلاته ليزيل عنها الغبار، وبعدئذ قرع بأصابعه العظمية على صندوقها وشدَّ بعض أوتارها، ثم جلس جلسة مريحة، أمسك القيثارة بحركة مسرحية تقريبًا، وباعد مرفقه الأيسر عن جسمه، وغمز لأنيسيا بعينه. وبعد اختبار رائق مدوٍّ، شرع يعزف على إيقاع بطيء، وبيد ثابتة مُدرَّبة أغنية: «على طول الشارع، الشارع المعبد ...» وهي أغنية شهيرة شائعة جدًّا.

لم يلبث نيكولا وناتاشا أن استجابا لذلك اللحن الذي وجَد صداه في نفسيهما، وخلَّف فيهما ذلك الجذل الوديع الذي نشرته شخصية أنيسيا فيدوروفنا. تضرج وجه هذه بالحمرة، فأخفت وجهها في شالها وخرجت من الغرفة ضاحكة. أما العم فقد استمر يعزف اللحن ببراعة، كان عزفه جميلًا واضحًا نشيطًا، وكان يحدق في المكان الذي بارحته أنيسيا فيدوروفنا منذ حين بنظرة متبدلة، وتاهت ابتسامة غامضة على شاربيه الأشهبين، وأخذت تزداد اتساعًا كلما أخذ اللحن في الإسراع، فظهرت عند المقاطع المختلفة أشبه بالابتسامة المنكرة النادمة.

وعندما فرغ من الأغنية قفزت ناتاشا من مكانها، وجرت إليه تُقبِّله وقالت: «رائع، فتان يا عماه! أعد، أعد!»

والتفتت إلى نيكولا وكأنها تقول: «ولكن ماذا دهانا؟» وهتفت به: «نيكولا، يا نيكولاي الصغير!»

كان نيكولا مفتونًا كذلك. كرر العم الأغنية فظهر وجه أنيسيا فيدوروفنا البسَّام ومن ورائه وجوهٌ جديدة ظهرت عند المقطع:

انتظري، انتظري يا جميلتي.
ولنهرع معًا إلى الجب
لنأتي بالماء المنعش.

وهنا أجرى العم تبديلًا بارعًا، وحطم قرارًا، وعاد يضبط الإيقاع بحركة دائرية من كتفيه. قالت ناتاشا بصوت ضارعٍ وكأن الأمر بالنسبة إليها أمر حياة أو موت: «عجِّل يا عماه، يا عزيزي عجِّل!»

نهض العم فبدا كأن فيه إنسانين؛ الأول: يبتسم بخطورة مستخفيًا بجنون. الثاني: الذي شرع يتأهب للرقص بنغم بسيط بارع. هتف بها وهو يشير بيده محطمًا قرارًا: «هل أنت مستعد؟ إلى الأمام يا ابنة أخي.»

ألقت ناتاشا بمنديلها، واندفعت قبالة العم ثم اتخذت وضعيتها بعد أن قامت بحركة دائرية من كتفيها، ووضعت قبضتيها فوق وركيها.

ولكن أين وكيف استطاعت هذه الكونتيس الصغيرة التي أنشأتها مهاجرة فرنسية أن تتشبع، بمجرد استنشاقها هواء البلاد، بالروح القومية إلى هذا الحد، فتقوم بإجراء الحركات البارعة التي تتفق مع رقصة الشال، رغم أنها لم تعد تظهر في هذه منذ زمن؟ ذلك أنها في مظهرها وحركاتها التي لا تُجارَى كانت مجبولة غريزيًّا بالطبع الروسي الصميم الذي كان العمُّ يتوقَّعه فيها، وما إن اتخذت الوضع المناسب، وابتسمت ابتسامتها الماكرة المتغطرسة معًا، حتى اطمأن نيكولا والمتفرجون الذين كانوا يتوقعون أن يظهر في حركات الفتاة هفوات مخجلة، وشرعوا يحيطونها بإعجابهم سلفًا.

أدَّت رقصتها ببراعة حتى إن أنيسيا فيدوروفنا التي ناولتها على الفور المنديل الملائم للرقصة، أخذت تذرف دموع الفرح لرؤيتها تلك الكونتيس الشابة الرشيقة البديعة التي نشأت بين الحرير والمخمل، البعيدة كل البعد عن نفسها، تحتل مكانة في روحها هي أنيسيا، وتنفذ إلى أعماقها وأعماق أبيها وأمها وعمتها، وأي روسي يراها صدفة في تلك اللحظة.

ولما انتهت الرقصة قال العم ضاحكًا: «حسنًا أيتها الكونتيس الصغيرة. إنه واضح، إلى الأمام سِرْ! مرحَى يا ابنة أخي، لم يبقَ عليك الآن إلا انتقاء الفتى الجميل الذي سيكون زوجك. إنه واضح، إلى الأمام سِرْ.»

قال نيكولا باسمًا: «لقد انتقت فتاها بالفعل.»

دهش العم وراح يسأل الفتاة بنظرة مستطلعة، فأومأت ناتاشا برأسها أن نعم، وهي سعيدة جدًّا، وقالت: «ويا له من زوج أيضًا!»

لكنها لم تكد تنطق بهذه الكلمات حتى داهمتها موجة من الأفكار والعواطف: «ما معنى ابتسامة نيكولا عندما قال: «لقد انتقت فتاها بالفعل»؟ هل كان يوافق على هذا الزواج أم يشجبه؟ يُخيل إلي أن أميري بولكونسكي لا يمكنه تفهم الحُبور الذي يتلظى في نفوسنا في هذه اللحظة، ولكن بلى، إنه يستطيع فهمه. ولكن أين هو الآن؟ هيا لنكف الآن عن التفكير في هذه الأمور.» وعاد وجهها الذي اكتأب فترة إلى إشراقه. جلست قرب العم وسألته أن يعزف لها قطعة موسيقية جديدة.

عزف العم أغنية ثم رقصة فالس، ثم صمت وسعل وانطلق بصوته المدوي يغني أغنية الصيد المفضلة عنده:

عندما راح الثلج أمس
يتساقط فوق الضباب ...

كان العم يغني على طريقة أبناء الشعب مقتنعًا بسذاجة أن الكلمات وحدها هي المهمة في اللحن، وأن النغم يبرز من تلقاء نفسه إذا أحسن الإيقاع، وعلى ذلك فقد كانت أغنيته البسيطة كشدو الطير على حظٍّ قصيٍّ من الجمال، وانجذبت ناتاشا يهدهدها اللحن، وقررت ترك العود لترافق العم على القيثارة.

تجاوزت الساعة التاسعة عندما وصلت زحافة كبيرة وأخرى صغيرة يواكبها ثلاثة فرسان لحمل ناتاشا وبيتيا، قال القادمون: «إن الكونت والكونتيس شديدا القلق لجهلهما مكان أبنائهما.»

حملوا بيتيا دون أن يوقظوه وسجَّوه برفق في الزحافة الصغيرة، بينما ركب نيكولا وناتاشا في الثانية. دثر العم ناتاشا وودعها بحنان غير منتظر، ورافقهم حتى الجسر الذي يجب عليهم أن يدوروا حوله ليتسنى لهم المرور عبر المفازة، وهناك أمر خدمَه أن يتقدموا الموكب حاملين المصابيح.

صاح في الظلام بصوتٍ لم يكن مألوفًا لديه، يشبه ذلك الذي غنَّى به «عندما راح الثلج أمس ...»: «وداعًا يا ابنة أخي العزيزة.»

كانت أضواء حمراء تشع في القرية التي مرَّ الموكب فيها، وامتزج الهواء برائحة دخان متصاعد، ولما بلغوا الطريق العمومية قالت ناتاشا: «يا له من رجل رائع هذا العم!»

قال نيكولا: «نعم، هل تشعرين بالبرد؟»

فأجابت وهي مدهوشة للانشراح الذي تحس به: «كلا، إنني على ما يرام، على خير ما يرام. آه! كم أشعر بالغبطة.»

أخلدا إلى الصمت فترة طويلة. كان الليل معتمًا رطيبًا لا يرى الراكب الخيل، ولكنه يشعر بها وهي تخوض بالوحل غير المنظور.

ماذا كان يحدث في تلك الروح الصغيرة السهلة الانطباع بالعواطف على اختلاف أنواعها؟ كيف كانت كل هذه الأمور تنتظم في نفس ناتاشا؟ لقد كانت سعيدة على كل حال. ولما كادا أن يصلا إلى البيت جلجل صوتها مرددًا أغنية: «عندما راح الثلج أمس ...» التي أمضت وقتًا طويلًا تبحث عن نغمها حتى ذكرته فجأةً؛ إذ طاف بخيالها، قال نيكولا: «لقد وجدته أخيرًا.»

سألت ناتاشا: «فيما كنت تفكر منذ حين يا نيكولا؟»

كان هذا السؤال هو الذي درج الإخوان على توجيهه لبعضهما في كل حين. أجاب نيكولا: «أنا؟ حسنًا! إليك ما كنت أفكِّر فيه: كنت أفكر في أن تاباجور الكلب الأشقر يشبهُ العمَّ، وكنت أقول لنفسي: إنه لو كان هو الإنسان، وكان العم هو الكلب؛ لاحتفظ به عنده لا لأجل الصيد، بل لمجرد التفاهم القائم بينهما. يا له من رجل تسهل الحياة معه هذا العم! أليس كذلك؟ وأنت، فيم كنت تفكرين؟»

– «أنا؟ انتظر قليلًا، فكَّرت أولًا في أننا نتصور خطأ أننا في طريقنا إلى البيت، بينما نحن في الحقيقة نسير في اتجاه لا يعرفه إلا الله، في هذه الظلمات المدلهمة، وأننا لا نصل أخيرًا إلى أوترادنواي، بل إلى بلاد الجان ... ثم ... ثم ... كلَّا، لم أفكر في شيء مطلقًا.»

قال نيكولا: «بل إنك فكرت فيه، إنني واثق.»

أجابت ناتاشا رغم أنَّها فكَّرت جديًّا في الأمير، وتساءلت عما إذا كان العمُّ سيروق في عينيه: «كلَّا، آه، نعم! إليكَ ما كنتَ أحدِّث نفسي به خلال الطريق: «كم إن موقف أنيسيا رائع!»»

تبيَّن نيكولا من صوت أخته أنها تبتسم، ثم تبيَّن في ذلك الظلام ضحكتها الفطرية الرنانة القوية، وفجأة استأنفتْ تقول: «أتدري، إنني أحسُّ أن السعادة والهدوء اللذين تذوقتهما اليوم لا يمكن أن أحظى بمثلهما كل حياتي.»

اعترض نيكولا على قولها: «لا تتفوهي بالحماقات.»

بينما راح يفكر في نفسه: «يا للفتنة في ناتاشا هذه! ليس لدي ولن يكون في المستقبل صديق أفضل منها يحدو بها إلى الزواج، لولاه لظللنا نتسلى كما تسلينا اليوم.»

ومن جانبها، كانت ناتاشا تفكر: «يا له من لطيف نيكولا هذا!» ثم قالت وهي تشير إلى النوافذ التي كانت تشع وسط ظلام الليل الندي: «آه! لا يزال النور مضاء في البهو.»

الفصل الثامن

خطة الكونتيس

أعفى الكونت إيليا آندريئيفيتش نفسه من مهامٍّ مركزه المتعبة كنقيب للنبلاء، لكن أحواله المادية لم تتحسن بفضل هذا التدبير، وكثيرًا ما داهم نيكولا وناتاشا أبويهما في مناجيات سرية مقلقة، كانا يتحدَّثان عن بيع قصرهم في موسكو ومزرعتهم الكبيرة في الضاحية، لم يعد الكونت في حاجة إلى إحياء حفلات سخية بعد اعتزاله مهام منصبه، فكانت الحياة في أوترادنواي إذن أكثر هدوءًا من الأعوام السابقة. مع ذلك، فإن البيت الضخم وجناحيه ما كانا أقل ازدحامًا من سابق عهدهما. كانت مائدة الطعام تضمُّ أكثر من عشرين نوعًا من الأكل دائمًا. إنهم أعضاء أُسَرٍ حطَّت مرساتها في هذا البيت منذ أمد طويل، وآخرون وجدوا على ما يبدو أن الحياة في غير ذلك البيت مستحيلة. وهؤلاء هم الموسيقي ديملر وزوجته، ومعلم الرقص فوجل وأسرته، والعانس العجوز بييلوفا، وكثيرون آخرون، كمدرسي بيتيا، ومديرة سابقة لفتيات البيت أو غيرهم ممن وجدوا أن الحياة عند الكونت أفضل مما هي عليه في بيوتهم، وعلى الرغم من تقلُّص عدد زوَّار البيت؛ فإن سياق الحياة ظلَّ كعهده السابق؛ لأن الكونت والكونتيس ما كانا يحسنان نمطًا آخر يتبعانه في منزلهما. ظلت استعدادات الصيد قائمة، وقد زاد فيها فريق نيكولا، وبقيت الخيول الخمسون في الإصطبل يرعاها الخمسة عشر حوذيًّا المعهودين، واستمرت الهدايا الثمينة تقدم في المناسبات والحفلات الكبيرة تقام في الأعياد، وكذلك حفلات لعب الورق على اختلاف أنواعه، التي كان الكونت خلالها يكشف أوراقه لخصومه سامحًا لهم بذلك أن يخففوا بضع مئات من الروبلات عن كيس نقوده؛ لذلك فقد كان الكونت دائمًا موضع تنازع اللاعبين للحصول على دخْلٍ محترم من لعبة واحدة معه.

كان الكونت إذن يسير على غير هدًى في شبكة متاعبه المالية المتشعبة، يريد بجدع الأنف أن يخدع نفسه بإقناعها بأنه على الطريق السوي، بينما يزداد ابتعادًا وهيامًا، أصبح

لا يجد في نفسه القدرة لا على تحطيم تلك الشبكة الهائلة، ولا على اتخاذ الإجراءات الحكيمة الكفيلة بتحطيمها، وباتت الكونتيس تشعر في أعماق نفسها أنها وأسرتها يسيرون إلى الدمار، كانت تُحدِّث نفسها بأن الكونت غير مذنب؛ لأنه لا يستطيع أن يكون غير ما هو كائن، وأنه يتألم — رغم إخفائه ذلك الألم — من ذلك المركز المالي المزعزع الصعب الذي يهدده وذويه. راحت تبحث عن علاج لهذا الداء، ولأنها امرأة لم تجد علاجًا أفضل من تزويج ابنها نيكولا بوارثة مجدودة غنية، وقدرت أن ذاك هو الأمل الأخير، فإذا رفض نيكولا الزواج الذي تدبره له، فإن الحالة المالية في الأسرة لن تنجو من الانهيار المحتوم. أما الوارثة الغنية التي شخصت إليها الكونتيس في أفكارها، فكانت الآنسة جولي كاراجين، وهي الفتاة التي تنحدر من أبوين ممتازين ورعين، ويعرفها آل روستوف منذ طفولتها، وقد جعلها موت أخيها الأخير الوريثة الوحيدة لثروة محترمة.

كتبت الكونتيس مباشرة إلى السيدة كاراجين تعرض عليها فكرتها، فتلقت منها جوابًا مناسبًا. لقد وافقت الأم على زواج ابنتها من نيكولا، ولكنها تركت الكلمة النهائية لابنتها، مع ذلك فقد دعت نيكولا إلى زيارتها في موسكو.

قالت الكونتيس لابنها مرارًا والدموع تترقرق في عينيها: إنه بعد أن أصبحت ابنتاها في حرز زوجيهما، فإن رغبتهما الوحيدة أصبحت محصورة في أن تراه متزوجًا، وبذلك تموت هانئة، وبعد أن سبرت غوره على هذا النحو ألمحت إلى أنها تشخص بأبصارها إلى فتاة فتانة جميلة. وفي مناسبات أخرى، امتدحت جولي ونصحت لابنها أن يسافر إلى موسكو بمناسبة أعياد الميلاد ليرفه عن نفسه هناك. حدس نيكولا فورًا الغاية التي تغذيها أمه، والوجهة التي تتجهها أفكارها، فاستدرجها ذات يوم إلى الإفضاء بمكنونات نفسها إليه، فاعترفت دون لفٍّ ولا دوران أن زواج ابنها من جولي كاراجين كفيل وحده أن ينقذ مركز الأسرة المالي.

سأل الفتى أمه دون أن يلحظ القسوة التي في سؤاله؛ لأن همَّه كان منصرفًا إلى إظهار نبل روحه فحسب: «آه، ماذا؟ هل إذا كنت أحب فتاة غير ذات بائنة، ألحفت عليَّ بالسؤال أن أضحي غرامي وشرفي في سبيل المال، يا أماه؟!»

أجابت الأم وهي لا تدري كيف تبرر موقفها: «إنك لم تفهمني يا صغيري نيكولا، إنني أبحث عن سعادتك.»

لكنها كانت تعرف أنها لم تنطق بالصدق في قولها؛ لذلك اشتد اضطرابها فأجهشت باكية: «أماه، لا تبكي، قولي فقط إنك ترغبين في ذلك وسترين أنني أقدم حياتي وكل شيء لكي تكوني راضية. نعم، سأضحي بكل شيء من أجلك حتى شعوري.»

لم تتوقع الكونتيس من ابنها ذلك؛ إنها كانت أبعد الناس عن مطالبة ابنها بتضحية نفسه من أجلها، بل كانت — على العكس — مستعدة هي نفسها لتضحية نفسها من أجله، قالت وهي تمسح دموعها: «كلا، إنك لم تفهمني، لنقفْ عند هذا الحد في الحديث.»

حدَّث نيكولا نفسه: «ولكن ألست أحب فتاة فقيرة في واقع الحال؟ إذن يجب أن أضحي بعواطفي وشرفي! إنني دهش لرؤية أمي وهي تقول لي مثل هذا الأمر، ألأنَّ سونيا فقيرة لا يحق لي أن أحبها، وأن أجيب على غرامها المخلص الأمين، مع إنني سأكون معها أسعد مني مع جولي التي تشبه الدمية. إنني أستطيع التضحية بعواطفي من أجل أبويَّ. أمَّا أنْ آمرهم، فذلك مستحيل. وإذا كنت أحب سونيا، فإن هذا الحب سيبقى عندي أقوى من كل شيء، وأرفع شأنًا.»

لم يذهب نيكولا إلى موسكو، ولم تعد الكونتيس تتحدث معه في الزواج، لكنها لاحظت بحزن، بل وبغضب أحيانًا أن ألفةً قوية كانت تقوم بين ابنها وتلك الفتاة المحرومة من البائنة سونيا. وعلى الرغم من اللوم الذي كانت تصبُّه على نفسها، فإنها ما كانت تستطيع الإمساك عن الزمجرة ومحاولة مشاكسة سونيا كلما خاطبتها بصيغة الجمع، أو قالت لها: «يا عزيزتي، وكان ما يزيد في نقمة الكونتيس الطيبة ضد سونيا سلوك ابنة الأخت، تلك ذات العينين السوداوين التي كانت تظهر مزيدًا من الدماثة والتفاني والعرفان نحو المحسنين إليها، ومن الإخلاص العميق المجرد المكين في حبها لنيكولا، حتى يتعذر إيجاد مأخذ على سلوكها.»

كان نيكولا يُنهي عطلته عند ذويه الذين تلقوا رسالة رابعة من الأمير آندريه مرسلة من روما يقول فيها: «إنه لولا أن نكأ جرحه فجأة بسبب الطقس، الأمر الذي يجعل عودته تتأجل حتى مطلع العام المقبل، لكان الآن في طريق عودته. كانت ناتاشا لا تزال مفتونة بخطيبها بذلك الهدوء الذي عُرف عنها، وظلت متفتحة القلب لكل مباهج الحياة، مع ذلك؛ فإنها حوالي نهاية الشهر الرابع الذي انقضى على رحيل آندريه. أخذت تشعر بسحابات من الحزن كان يستحيل عليها مقاومتها. أخذت تنظر إلى نفسها بإشفاق وتأسُّف على هذا الوقت الذي يذهب ضياعًا، بينما تشعر في قرارة نفسها بأنها ما زالت قادرة على أن تحِب وتُحَب.»

وعلى ذلك، فإن الحياة كما يُرى لم تعد هانئة تمامًا عند آل روستوف.

الفصل التاسع

آلام ناتاشا

أقبلت أعياد الميلاد دون أن يكون فيها ما يميزها باستثناء الصلاة المهيبة وتهانئ الجوار والخدم المضجرة، والثياب الجديدة التي يرتديها كل الناس. مع ذلك، فإن العشرين درجة من البرد غير المشفوع بالريح والنهارات المشرقة المشمسة، وتلك الليالي ذات النجوم كانت تحفز المرء على إحياء تلك الفترة من السنة، والاحتفاء بها على لون آخر.

في اليوم الثالث بعد الغداء، انسحب كلٌّ إلى حجرته وبلغ الضجر منتهاه. نام نيكولا في المخدع بعد أن قام في صبيحة ذلك اليوم بعدد من الزيارات إلى الجيران، واستلقى الكونت العجوز في مكتبه. أما في البهو، فقد راحت سونيا تنقل رسمًا فوق مائدة مستديرة بينما كانت الكونتيس تتلهى بلعب الورق وحدها، مهملة المهرج نستاسيا أيفانوفنا، الذي كان قرب النافذة في رفقة عجوزين طيبتين. دخلت ناتاشا وفحصت شغل سونيا، ثم اقتربت من أمها وانتصبت واقفة أمامها لا تريم.

سألتها أمها: «لماذا تتيهين هكذا كروح معذبة؟ ماذا ينبغي لك؟»

قالت ناتاشا بعينين متوهجتين ووجه خطير: «إنه «هو» ما أبغيه، على الفور، في هذه اللحظة بالذات.»

رفعت الكونتيس رأسها ونظرت في عيني ابنتها نظرة عميقة، فقالت هذه: «لا تنظري إليَّ هكذا يا أماه. لا تنظري إليَّ أو أبكي لفوري.»

– «اجلسي واقتربي مني هنا.»

– «أماه، إنه هو ما أريد. ربَّاه، لِمَ تفرض عليَّ مثل هذا العذاب!»

تحطم صوتها وترقرقت الدموع في مآقيها، فاستدارت لتخفيها، ولم تجد غير الفرار سبيلًا.

توقفت في المخدع، وبعد أن ترددت هنيهة مضت إلى غرفة الخادمات، وهناك وجدت امرأة عجوزًا مهمتها العناية بالثياب والفضيات، توبِّخ وصيفة شابة كانت تلهث من البرد وهي قادمة جريًا من ناحية المياه: «كفى تسلية. لكل شيء حينه.»

فتدخلت ناتاشا قائلة: «دعيها، اذهبي يا مافروشا، اذهبي.»

وبعد أن أنعمت عليها بتلك العطلة، اخترقت ناتاشا قاعة الرقص لتدخل إلى الردهة، وهناك وجدت ثلاثة خدم؛ عجوزًا وشابين يلعبون الورق، كفُّوا عن لعبهم عندما دخلت، ونهضوا عند مقدمها، حدَّثت ناتاشا نفسها: «في أي شيء أستطيع إشغالهم؟ آه! لقد وجدت.»

– «ميتكا، اذهب وآتني بديكٍ، وأنت يا ميشا ائتني بقليل من الخرطال.»

قال ميشا بلهجة جذلة متواضعة: «من الخرطال؟ قليلًا جدًّا، أليس كذلك؟»

– «وأنت يا فيدور، ابحث لي عن بعض الحكك.»

ومرت بالقرب من المقلاد، فقالت لفوكا خادم المائدة أن يهيئ السماور، رغم أن الوقت لم يكن قد حان لمثل ذلك.

كان فوكا أكثر الرجال صمتًا في البيت، فكانت ناتاشا تجد متعة خاصة في ممارسة سلطتها عليه. لم يصدق أذنيه ويعتبر الأمر جديًّا إلا عندما كررته وأيدته، وحينئذ قال يُعرب عن امتعاضه لناتاشا: «أوه! يا لهذه الآنسة!»

لم يكن في البيت أحد يزعج الأشخاص ويقلق راحتهم بتشغيلهم مثل ناتاشا، فإذا وجدت أحدًا وجب أن ترسله إلى مكان ما، ومهما كان من قول إنها إنما تحاول التأكُّد من عدم استياء الخدم منها وتسكُّعهم في تنفيذ أوامرها، فإنهم جميعًا كانوا يتهافتون بحماس لإرضائها.

تساءلت وهي تذرع الممشى حائرة: «ماذا أستطيع أن أصنع؟ أين يمكنني أن أذهب؟» جاء المهرج العجوز للقائها وهو في ثياب داخلية نسائية: «يا نستاسيا إيفانوفنا، ماذا سألد؟»

– «براغيث وصراصير وذباب المستنقعات ...»

– «رباه، رباه! إنه نفس الشيء دائمًا! أين أحشر نفسي؟ في أي شيء أتشاغل؟»

ارتقت السلم الذي يؤدي إلى جناح فوجل وزوجته بضجة كبيرة، وجدت المدبرتان هناك أمام مائدة محمَّلة بأطباق الزبيب واللوز والخروب وهما تقارنان غلاء المعيشة في موسكو بمثله في أوديسا، جلست ناتاشا وكأنها تعلِّق اهتمامًا على الحديث، ثم نهضت فجأة وقالت: «جزيرة مدغسكر، ما... دا... غاس... كر.

أخذت تكرر هذه الكلمة وهي تقطعها وانسحبت دون أن تُعنى بالرد على السيدة شوص التي كانت تستوضحها ما تقول.

شاهدت بيتيا يهيئ بمساعدة مدربه العجوز سهامًا نارية ليطلقها عندما يحل المساء، هتفت به: بيتيا! احملني إلى الأسفل.

فهرع بيتيا ومكَّنها من ظهره، فقفزت عليه، وطوقت عنقه بذراعيها، بينما راح بيتيا يقوم ببعض القفزات على طريقة الحصان، قالت وهي تقفز إلى الأرض وتنحدر على السلالم: «يكفي هكذا. جزيرة مدغسكر.»

وبعد أن تفقدت مرافق دولتها — على حد تعبيرها — واختبرت نفوذها، وعرفت أن كلَّ من في البيت متضجر سئم رغم الخضوع العام. انسحبت ناتاشا إلى بهو الموسيقى، وجلست في ركن مظلم وراء خزانة صغيرة، ثم شرعت تداعب أوتار قيثارها محاولة تذكُّر مقطع من إحدى «الأوبيرات» التي سمعتها في بيترسبورج عندما كانت في صحبة الأمير آندريه، ما كان للمستمع العادي أن يجد أي معنى في عزفها. أما هي، فإن تلك الأصوات كانت توقظ في نفسها عالمًا من المشاعر، قبعت وراء خزانتها، وشخصت بأبصارها إلى إشعاع ضوئي كان يخترق باب المقلاد، وراحت تصغي إلى نفسها، وتستلم إلى نشوة الذكرى.

مرت سونيا بالقاعة حاملة قدحًا في يدها متجهة نحو المقلاد، فألقت ناتاشا نظرة عليها ثم حولتها إلى الباب الموارب، وتصورت أن هذا المشهد كذلك يشكل جزءًا من ذكرياتها، قالت تقنع نفسها: «نعم، لقد رأيت هذا من قبل خطًّا فخطًّا.» هتفت تخاطب سونيا وهي تضرب على حبل قيثارتها الخفيض: «سونيا، ماذا أعزف هنا؟»

اقتربت هذه منها لتصغي بانتباهٍ أكثر وقالت: «آه! أنت هنا! لست أدري تمامًا.»

ثم أعقبت بخجل وكأنها تخشى أن تكون مخطئة: «أليست هذه موسيقى الإعصار؟»

لكن ناتاشا كانت تحدِّث نفسها: «أي نعم، إنها دائمًا هكذا، دائمًا هذه الانتفاضة والابتسامة الوجلة. لقد قلت دائمًا ما أقوله الآن: لا شك أنه ينقصها شيء ما.» ثم تنبهت وقالت: «كلا، إنها لازمة «حامل الماء» — وهي أوبرا لشيروبيني — أصغي إليَّ جيدًا.»

ولكي تقنع سونيا، انبرتْ تغني اللحن حتى نهايته وقالت: «إلى أين تذهبين؟»

– «لإبدال ماء القدح. إنني فرغت لتوِّي من الرسم.»

– «إنك تعرفين دائمًا كيف تشغلين وقتك وليس مثلي. ونيكولا أين هو؟»

– «إنه نائم على ما أظن.»

– «اذهبي وأيقظيه. قولي له أن يأتي ليغني معي.»

عادت تنكمش في زاويتها وهي تتساءل: «كيف أمكن لكل هذا أن يحصل دون أن يستطيع إيجاد جواب هذا السؤال الذي لم تكن على أية حالٍ تأسف على عدم إيجابه. حلَّقت من جديد في سماء الخيال وعادت إلى السويعات التي قضياها معًا، والتي كان خلالها يتأملها بنظرة والهة.»

«آه! ليعُد بأسرع وقت. إنني شديدة الخوف من أن لا يتم زواجنا! ثم لا مجال للقول، إنني أهرم! لن أكون بعد قليل كما أنا الآن. ولكن مَن يدري لعله سيصل اليوم، وأخذ ينتظرني في البهو. لعله وصل البارحة ونسيت أنا ذلك.»

نهضت من مكانها ونبذت القيثارة ثم مضت إلى البهو. كان كل الناس فيه بين معلمين ومديرات وأقرباء وزوَّار يشربون الشاي، والخدم في ذهاب وإياب حول المائدة، كان كل شيء يجري على مألوف العادة، لكن الأمير آندريه لم يكن هناك. ولما رأى الكونت ابنته داخلة قال: «آه! ها هي ذي، تعالي واجلسي بقربي.»

لكن ناتاشا جاءت تنتصب أمام أمها وتنظر حولها وكأنها تبحث عن شيء ما. قالت مستعطفة: ومن جديد وجدت صعوبة في إيقاف عبراتها، جلست إلى المائدة وأصغتْ إلى أحاديث المُسنِّين وأقوال نيكولا الذي ظهر في تلك اللحظة وانضم إليهم، «آه يا ربي، يا ربي! الوجوه نفسها دائمًا والأحاديث نفسها دائمًا، بل ودائمًا أسلوب أبي إيَّاه في الإمساك بقدح الشاي والنفخ عليه!» أحستْ برعبٍ عنيف وبكُرهٍ شديد عميق لكل ساكني البيت يعتلج فجأة في نفسها؛ لأنهم كانوا هم هم لا يتبدلون.

وبعد الشاي، احتمى نيكولا وسونيا وناتاشا بالمخدع العتيد، مكانهم المفضل للإفصاح عن مكنونات نفوسهم لبعضهم.

الفصل العاشر

المقنعون

قالت ناتاشا لأخيها عندما استقر بهم المقام: «ألا يحدث لك أن تتصور أنه لم يعد ينتظرك شيء، وأن كل السعادة الممكنة قد حصلت عليها؟ وعندئذ لا تشعر بالحزن؟»

قال: «بكل تأكيد! أحيانًا عندما يكون كل ما حولي جيدًا والعالم من حولي جذل، يعتريني فجأة اشمئزاز بكل شيء، فأفكر في أننا يجب أن نموت كلنا. ذات مرة في الفيلق لم أذهب إلى النزهة، رغم أن الموسيقى كانت تصدح حيث كنت سأذهب؛ لكثرة ما كنت أشعر بالضجر.»

– «آه! إنني أعرف هذا، إنني أعرف هذا. كنت لا أزال صغيرة جدًّا عندما وقع لي هذا. أتذكر يوم أن عوقبت من أجل قضية خوخ بينما كنتم ترقصون. لقد تركوني في قاعة الصف وحيدة، وكنت أذرف دموعًا حرَّى. لن أنسى ذلك أبدًا! كنت أرثي لنفسي ولكم جميعًا. وكان أكثر ما يحزنني أنني لم أفعل شيئًا سيِّئًا، هل تذكر؟»

– نعم، بل أذكر كذلك أنني ذهبت إليك أعزيك، وأنني ما كنت أعرف كيف أتصرف معك. لقد كنا كلانا على جانب مخيف من الشذوذ. كنتُ أملك مهرجًا صغيرًا من الورق المقوَّى، فأردت أن أهديكه. هل تذكرين؟»

استأنفت ناتاشا بابتسامة حالمة: «وهل تذكر قبل الحادث وكنا لا نزال صغارًا، عندما دعانا عمنا ذات مرة إلى مكتبه، وكنا حينذاك في المنزل القديم، وكان الظلام حالكًا، فلم نكد ندخل حتى رأينا فجأة ...»

فأكمل نيكولا قولها بانشراح: «عبدًا أسود، كيف أنساه؟ لا زلت حتى الآن لا أعرف هل كان عبدًا حقيقيًّا، أم كنا رأيناه في حلم، أم حدثنا بعضهم بأمره.»

– «كان بلون الرماد ذا أسنان بيضاء. كان واقفًا وهو يحدق فينا.»

سأل نيكولا: «هل تذكرين يا سونيا؟»

– فأجابت سونيا بخجل: «نعم، نعم، بإبهام.»

قالت ناتاشا: «لقد تحدثت عن هذا العبد إلى أمي وأبي، فأكد إليَّ أنه لم يكن في بيتنا قط عبد، مع ذلك فإنك تذكره!»

– «طبعًا كما لو وقع ذلك بالأمس.»

– «إنه يشبه الحلم، وهذا ما يروق لي في هذه القصة!»

– «وذات يوم آخر، بينما كنا ندحرج بيضًا في صالة الرقص، انبعثت عجوزتان فجأة وراحتا تبرمان دائريًّا. هل وقع هذا بالفعل؟ هل تذكرين كم كان ذلك رائعًا؟»

– «نعم، وأنت هل تذكر عندما كان «بابا» يطلق النار من بندقية وهو فوق المرقاة مرتديًا فروته الزرقاء؟»

وراحت تلك الذكريات الزاهية الصبوية تمرُّ أمامهم الواحدة تلو الأخرى، تتناقض بشدة مع عودة الشيخوخة الحزينة إلى الوراء، تلك الإحساسات عن الماضي التي تختلط فيها الحقيقة بالخيال، وراحوا يضحكون برقة وهم يشعرون بالسعادة.

كانت سونيا — كعادتها — منتحية جانبًا مع أن تلك الذكريات كانت تجمعهم معًا، لكنها كانت أكثر تشويشًا في ذاكرتها. أما تلك التي لا زالت حية منها، فإنها ما كانت توقظ في نفسها مثل تلك الإحساسات الشاعرية. لم تتدخل في نداء الماضي ذاك، إلا عندما استعادا ذكر وصولها إلى البيت، وكان ذلك ليقصُّوا أنها خافت من نيكولا خوفًا كبيرًا وهو في سترته التي تزينها بالخرج. لقد روَّعتها خادمتها عندما أوهمتها بأنهم سوف يوثقونها بذلك الخرج.

قالت ناتاشا: «وقد رووا لي أنك ولدت تحت ملفوفة. كنت أعرف أن ذلك غير صحيح، لكنني ما كنت أجرؤ على عدم التصديق، وكنت شديدة الارتباك.»

وفي تلك اللحظة، برز رأس إحدى الوصيفات خلال الباب المقلاد الموارب. قالت الوصيفة بصوت خافت: «يا آنسة، لقد جاءوا بالديك.»

– «لم تعد من حاجة إليه يا بوليا. قولي لهم أن يعيدوه.»

وفي تلك الأثناء، دخل ديملر إلى المخدع ومضى قدمًا إلى المعزف القائم في ركن منه، فنزع منه غطاءه، وانبعث منه صوت متنافر، وارتفع صوت الكونتيس من البهو قائلًا: «يا إدوار كارليتش، اعزف أرجوك لحن «نوكتورن» (الليليات) لجون[١] فيلد، الذي يلذ لي كثيرًا.»

أمسك ديملر اللحن والتفت نحو ناتاشا ونيكولا وسونيا وقال لهم: «ما أنعم بال الشبيبة!»

أجابت ناتاشا وهي ترمقه بنظرة: «نعم، إننا نتفلسف.»

وعادت إلى الحديث الذي أصبح يدور حول الأحلام.

شرع ديملر في العزف، فاقتربت ناتاشا على أطراف قدمها من المائدة حيث أخذت الشمعة وعادت دون جلبة إلى مكانها. بدأ الظلام يخيم الآن على الحجرة، وخصوصًا في الركن الذي جلسوا فيه، لكن البدر كان يلقي على الأرضية إشعاعًا فضيًّا خلال النوافذ المرتفعة. قالت ناتاشا وهي تقترب من نيكولا وسونيا، بينما كان ديملر الذي فرغ من عزف المقطوعة، مترددًا في الشروع في غيرها، يداعب أوتار مَعزفِهِ بحركة ضعيفة: «هل تعرفان فيمَ أفكر؟ يخيل إليَّ أنه لكثرة ما يحرك رماد الماضي، يستطيع المرء أن يعيد إلى ذاكرته أشياء وقعت قبل ولادته في هذه الدنيا.»

قالت سونيا التي كانت مجتهدة دائمًا وتتمتع بذاكرة طيبة: «إنه علم التناسخ. لقد كان المصريون يعتقدون أن أرواحنا عاشت بادئ الأمر في الحيوانات، وأنها ستعود إليها بعد وفاتنا.»

ردَّت ناتاشا وبصوت خافت دائمًا رغم توقُّف الموسيقى: «حسنًا! أنا — لو تعلمين — لا أعتقد أننا كنا من قبلُ في الحيوانات. أما ما أنا واثقة منه، فهو أننا كنا ملائكة هناك في كل مكان؛ ولهذا السبب نتذكر كل هذا القدر من الأشياء.»

سأل ديملر الذي اقترب منهم بخطوات متلصصة واتخذ لنفسه مكانًا بالقرب منهم: «هل أستطيع الانضمام إليكم؟»

قال نيكولا: «لو أننا كنا ملائكة، فلماذا إذن سقطنا إلى هذا الدرك؟ إن هذا لا يمكن أن يكون.»

---

[١] جاء في النص الفرنسي تعريف جون فيلد: مؤلف موسيقي إنجليزي ولد في دربلن عام ١٧٨٢، وتوفي في موسكو عام ١٨٣٧، خلقت مقطوعاته «نوكتورن» لونًا جديدًا من الموسيقى الفردية.

قالت ناتاشا بحرارة: «ولمَ إلى هذا الدرك؟ مَن قال لك إننا أدنى مِن مقامنا؟ إن الروح خالدة، أليس كذلك؟ وإذن إذا كان لا بد أن أعيش سرمديًّا، فلا شك أنني عشتُ من قبل دهرًا كاملًا.»

تدخل ديملر الذي عندما انضم إلى الشبيبة لم يستطع إخفاء ابتسامة على شيء من السخرية، والذي راح الآن يتبنى لهجتهم الخطيرة المسارَّة: «بلا شك، لكنه من الصعوبة أن يتصور المرء تلك الأبدية.»

قالت ناتاشا: «صعوبة؟ لماذا؟ بعد اليوم سيكون الغد، ودائمًا هكذا. والأمس، وأمس الأول، كان نفس الشيء.»

تناهى صوت الكونتيس إلى الأسماع: «ناتاشا، لقد حان دورك، غنِّي لي شيئًا. ماذا تعملون هناك؟ لكأنكم متآمرون.»

قالت ناتاشا: «آه يا أماه! إنني لست منسجمة.»

ما من أحد حتى ولا ديملر — الذي لم يعد شابًّا — كان يميل إلى ترك ركن التسارِّ، مع ذلك، فقد نهضت ناتاشا، ومضى نيكولا إلى المعزف، وبعد أن تمركزت وسط قاعة الرقص كعادتها، وهو المكان الذي كانت تقدِّر أنه أفضل للشروط السمعية. غنَّت ناتاشا المقطوعة المفضلة عند أمها. قالت قبل ذلك: «إنها لا تشعر بالانسجام.» لكنها لم تغنِّ مثل ذلك المساء منذ زمن طويل، وما كانت من قبل لتغني أفضل من ذلك. سِمِعها الكونت من مكتبه؛ حيث كان في مقابلة مع ميتانكا، وكالطفل الذي لا يفكر عند انتهاء الدرس إلا بالفرصة المنتظرة. ارتبك الكونت في الأوامر التي أصدرها، وانتهى به الأمر إلى الصمت. أما ميتانكا الذي كان يصغي بدوره، فقد ظل منتصبًا أمام سيده لا يريم، والابتسامة على شفتيه. لم يغفل نيكولا عن النظر إلى أخته، ونظَّم تنفُّسه الشخصي على غرار تنفُّسها، بينما كانت سونيا تقيس البون الشاسع الذي يفصلها عن ابنة عمِّها، وتحدِّث نفسها بأنها لن تستطيع قط أن تكتسب ولا جزءًا واحدًا من فتنة ناتاشا، وكانت الدموع تترقرق في عيني الكونتيس، تبتسم في غبطة وحزنٍ معًا، وتهز رأسها من حين إلى آخر. تصوَّرت شبابها، وفكَّرت في ابنتها التي بدا ارتباطها مع الأمير آندريه غير طبيعي ومثقل بالخطر.

كان ديملر جالسًا بقرب الكونتيس يصغي مغمض العينين، وأخيرًا خلص إلى القول: حقيقة يا كونتيس، إن لها منقبة أوروبية. لم يعد أمامها ما تتعلمه. هذه النعومة، هذه القوة، هذه العذوبة.

قالت الكونتيس دون أن تلقي بالًا إلى مَن تحدثه: «آه! كم أخاف من أجلها! كم أخاف!»

كانت غريزة الأمومة فيها تنبئها أن في ناتاشا شيئًا مفرطًا يمنعها من أن تكون سعيدة.

لم تكن ناتاشا قد انتهت بعدُ من الغناء حينما دخل بيتيا إلى الحجرة، وأعلن بحماس ابن أربعة عشر عامًا وصول المقنعين، فتوقفت ناتاشا فجأةً وصرخت في أخيها: «سخيف!»

واندفعت نحو كرسي حيث انهارت عليه، وانفجرت منشجة، وظلت فترة طويلة قبل أن تسيطر على أعصابها، قالت وهي تجهد في الابتسام: «لا بأس عليَّ يا أماه، لا بأس! أؤكد لك أن بيتيا أخافني.»

لكن دموعها ظلت تنهمر وعبراتها تخنقها.

جاء الخدم وهم متنكرون على أشكال الدببة والأتراك والخمارين وسيدات المجتمع، بين مضحك ومخيف، يحملون معهم برد الخارج وبشاشته. اجتمعوا بخجل في الردهة، ثم اختبأ كل منهم وراء الآخر، ودخلوا إلى قاعة الرقص مغامرين، وهناك انتقلوا من حالة الخوف التي اعترتهم إلى الحيوية والانسجام، فراحوا يغنون ويرقصون ويدورون ويقومون بكل تسليات عيد الميلاد، وبعد أن كشفت الكونتيس حقيقة كل المقنعين، وضحكت من تنكُّرهم، انسحبت إلى البهو، بينما ظل الكونت في القاعة مشرق الوجه يشجعهم. أما الشبيبة فقد اختفت.

وبعد نصف ساعة، جاء متنكرون آخرون يختلطون بالأولين. جاءت عجوز تحمل سلالا (نيكولا)، ووورائها تركي (بيتيا)، ثم مهرج (ديلمر). أما ناتاشا وسونيا فقد تنكرت الأولى على شكل فارس، والثانية على غرار الشراكسة، وقد رسمتا على وجهيهما الشوارب والحواجب اللازمة بالفحم.

وبعد أن استقبلهم غير المتنكرين بدهشة مصطنعة وتهانئ حارة، شعر الشبان الذين وجدوا أن أزياءهم كانت موفقة جدًّا بالرغبة في عرضها على آخرين. ولما كانت الطرق سالكة جيدة، ونيكولا يتحرق شوقًا على نقل الجميع في زحافة كبيرة، فقد عرض أن يحملهم إلى مسكن العم وبصحبتهم حوالي عشرة من الخدم المتنكرين.

قالت الكونتيس: «ولكن لا، لا فائدة من إزعاج العجوز المسكين. اذهبوا على الأرجح إلى آل ميليوكوف.»

وكانت السيدة ميليوكوف — وهي أرملة — تقطن على مقربة من آل روستوف مع أولادها الكثيرين المختلفي الأعمار ومعلميهم ومربياتهم.

قال الكونت العجوز بصوت نشيط منشرح: «تلك يا عزيزتي فكرة بديعة التصوير، سأتنكر أنا الآخر وسأرافقكم. سأعرف جيدًا كيف أُنفِّس عن باشيت الباسلة (تصغير باشا على الطريقة الفرنسية).»

لكن الكونتيس ما كانت تصغي إلى الموضوع بتلك الأذن. لقد كان إيليا آندريئيفيتش يشكو ألمًا في ساقه في الأيام الأخيرة، فما كان يستطيع السماح لنفسه بمثل تلك الفعلة. وبالمقابل إذا كانت لويز إيفانوفنا؛ أي السيدة شوص، تريد مرافقتهم، فإن الفتيات سيسافرن. ابتُهل إلى السيدة شوص أن توافق، وكان إلحاح سونيا التي عرفت بالتحفظ أكثرهن إلحافًا في هذه المرة. والواقع أن زِيَّها كان أكثر الأزياء التنكرية نجاحًا، وشاربيها وحاجبيها تلائم وجهها ملاءمة خارقة. راح كلٌّ يُهنِّئها غابطًا، فكانت تشعر على خلاف عادتها أنها ممتلئة بالثقة والاستعداد، يهيب بها صوت داخلي أن مصيرها إذا لم يتقرر اليوم لن يتقرر أبدًا. وقد كانت في ثياب الرجال تختلف كل الاختلاف عن حقيقتها.

أعطت السيدة شوص موافقتها، فلم تنقضِ نصف ساعة حتى كانت أربع زحافات كبيرة، وعليها الأجراس والجلاجل تشق مزالقها الثلج المتجلد، تنتظم أمام المرقاة.

أطلقت ناتاشا الدلالة الأولى التي تتفق وسهرة عيد الميلاد الجنونية تلك، وسرى مرحها إلى الآخرين فردًا فردًا، وتعاظم فبلغ أقصاه عندما ظهر المقنعون كلهم في الهواء الطلق يضحكون ويصرخون ويتنادون، ثم انتظموا في فرق مختلفة.

كانت اثنتان من الزحافات الأربعة مُعدَّتين للجري السريع، والثالثة ذات الجواد المفرد والنقالة كانت خاصة بالكونت العجوز. أما الرابعة — وهي زحافة نيكولا — فكان يقطرها حصان صغير أدهم طويل الشعر. أخذ نيكولا في تنكُّره على شكل أرملة مرحة يجمع أعنة الحصان وهو واقف وسط زحافته متدثرًا بمعطف الفرسان فوق ثوبه التنكري. وكان القمر يرسل ضياء عنيفًا قويًّا، حتى إنه كان يرى صفائح عدة الفرس النحاسية تلتمع، وعيون الخيل التي كانت تدير رأسها بوَجَلٍ نحو الطنف المعتم الذي كان الجمع الهائج يتحرك تحته.

اتخذت ناتاشا وسونيا والسيدة شوص وخادمتان مكانًا لهن في زحافة نيكولا وديملر وزوجه وبيتيا في زحافة الكونت، بينما توزَّع الخدم المتنكرون في العربتين الأخيرتين.

صاح نيكولا بسائق عربة أبيه لتتاح له فرصة اجتيازه أثناء الطريق: «سِر في المقدمة يا زاخار!»

اهتزت زحافة الكونت ورافقه صريرُ مزالقها فترةً؛ دندنة الحرس الرصينة، وراح حصانا الطرفين يترصان على الحاملين، ويغوصان في ثلج جامد لامع كالسكر حتى لكأن الصقيع قد ألصقها على الثلج، وسار نيكولا وراءها، ثم تبعه الآخرون في هرج ومرج عظيم.

رحلة إلى ميليوكوف.

انزلقت الزحافات الهُوينَى أولًا على الطريق الضيق، وظلت ظلال الأشجار العارية تتطاول على عرض الطريق طيلة الوقت الذي قضاه الراحلون في محاذاة البستان، حاجبة

ضوء القمر العنيف، ولكن ما إن اجتازوا الحاجز حتى عرضت للأنظار فسحة لا يحدها البصر من الثلج الجامد المتلألئ كالماس ذي الإشعاعات الزرقاء. قفزت زحافة المقدمة مرة أو مرتين فوق حجرة، فحذت الأخرياتُ حَذْوَها مُعكرة سلام ذلك السهل العميق المسحور في غير ندم، ثم استوت كلها على خط واحد مباعدة بينها.

دوى صوت ناتاشا فجأة في الفضاء المتجمد: «موطأ أرانب، مواطئ كثيرة!»

وقالت سونيا بدورها: «كم يرى المرء بوضوح يا نيكولا!»

التفت نيكولا نحو سونيا واضطر إلى الانحناء ليميز وجهها. انبعث أمام ناظريه وجه وسيم لطيف بشاربين وحاجبين مرسومين بالفحم، قريب وبعيد معًا من اللياقة المصنوعة من السمور.

تساءل نيكولا وهو يتفحصها بإلحاح باسم: «أين إذن سونيا الزمن الأول؟»

– «ماذا ترغب يا نيكولا؟»

أجاب وهو يستدير نحو الخيول: «لا شيء.»

ولما وصلوا إلى الطريق الكبيرة التي سوَّتها مزالق الزحافات ووسمتها المشابك الحديدية التي كانت آثارها واضحة في ضياء القمر، اندفعت الخيول من تلقاء نفسها على الأثر وضاعفت سرعتها. كان الحصان الأيسر يجذب سيور أعنته بحركات متهززة ورأسه مائل إلى الخارج. أما حصان المقدمة فكان يتأرجح وهو ناصب أذنيه وكأنه يتساءل: «هل حان الوقت أم لا زال في الوقت متسع؟» وكانت زحافة زاخار السوداء المتقدمة مسافة طيبة تنساب فوق غور الثلج الأبيض بظلها القاتم، تختلط الصيحات والضحكات وهتافات المقنعين فيها بصدى جرسها المكتوم الممعن في الابتعاد.

صاح نيكولا وهو يجذب الأعنة بإحدى يديه، ويُلوِّح بالسوط في الثانية: «هيا يا فتياني الصغار!»

كان يمكن تقدير سرعة الزحافة الهائلة اعتمادًا على الريح التي راحت تسوط الوجوه بعنف متزايد، أو توتر الجهد الواضح على خيول الجانبين التي كانت تضاعف أبدًا انطلاقها. نظر نيكولا وراءه، فإذا بالفرق الأخرى تُسرع في زحافاتها وسط التهليل وقرقعة الأسواط، وكان حصان الوسط يندفع ببسالة تحت قوس العريش دون أن يفكر قط في إبدال سرعته، ويبشر بانطلاقه إذا طلب إليه ذلك.

لحق نيكولا بالزحافة الأولى. كانوا يهبطون فوق منحدرٍ ليلجُوا طريقًا عريضًا فُتح وسط الحقول على طول أحد الأنهار.

تساءل نيكولا: «ولكن أين نحن؟ في «الحقول الطويلة» ولا شك. ولكن لا، إنني لا أتعرف على الأرض. إنها ليست «الحقول الطويلة» ولا «شاطئ داميان». كل شيء جديد هنا، لكأنه مكان مسحور. ولكن ماذا يهم؟!» وراح يحرض خيوله عازمًا على تخطي الزحافة الأولى.

عاق زاخار خيوله فترة ليدير وجهه الذي بيَّضه الصقيع حتى حاجبيه نحو سيده الشاب، فأرخى نيكولا العنان لخيوله، وعندئذ مدَّ زاخار ذراعيه، وصفق بلسانه، ودفع خيوله كذلك وهو يقول: «انتبه يا سيدنا!»

طارت الزحافتان جنبًا إلى جنب، وازداد جري الخيول وطال قماصها. تقدم نيكولا نحو زاخار الذي ما فتئ مادًّا ذراعيه على المقودين، فرفع هذا أحدهما باتجاه سيده وصاح: «كلا يا سيدنا، لن تنالني!»

دفع نيكولا خيوله بأقصى سرعتها، فسبق زحافة زاخار، وكانت الخيول تعفِّر وجوه المسافرين بثلج دقيق جاف، بينما راحت ظلال الزحافة المنافسة تمرُّ وسط أنغام الزِّئاط والتحدي، وكان صرير المزالق يختلط مع صيحات النساء الحادة.

عدَّل نيكولا للمرة الثانية سرعة خيوله، وأدار حوله نظرة فاحصة. كان المشهد يمثِّل أبدًا ذاك السهل السحري الذي يغمره ضوء القمر، وتلتمع فيه هنا وهناك نجوم فضية.

حدَّث نفسه: «إن زاخار يهيب بي أن آخذ اليسار، فلماذا يا ترى؟ هل سنذهب حتمًا عند آل ميليوكوف؟ هل هنا ميليوكوف؟ الله يدري إلى أين نذهب، الله يعرف ماذا سيقع لنا. على كل حالٍ فإن المغامرة على جانب من الفتنة والغرابة.» استدار نحو شاغلي الزحافة، قال واحد من هذه المخلوقات الغريبة المجهولة التي تعطيهم شواربهم وحواجبهم المرسومة بدقة فتنة خاصة: «انظروا إلى أهدابه وشاربيه. إنها بيضاء كلها.»

فكَّر نيكولا: «أظن أن هذا هو ناتاشا، وها هي السيدة شوص. كلا، يجوز أن تكون هي. وهذا الشركسي ذو الشاربين، لست أدري من يكون، ولكني أحبه.»

سألهن: «ألا تشعرن بالبرد؟»

فلم يُجِبْنه، لكن رُحْن يضحكن. ومن الزحافة التالية هتف ديملر بشيء؛ شيء مضحك جدًّا ولا شك، ولكن لم يتوصلوا إلى تِبْيانِه، أجابت أصوات مضحكة: «نعم، نعم.»

طلعوا في تلك اللحظة على غابة مسحورة ذات ظلال سوداء متداخلة، وبريق ماسي، ثم سياق درجات رخامية وسقوف فضية تأوي منزلًا سحريًّا، وسُمع نباح حيوانات، فقال

نيكولا لنفسه: «إذا كانت هذه هي ميليوكوف، فإن من الغرابة المتناهية حقًّا أن تقودنا رحلتنا هذه التي قمنا بها إلى المجهول، إلى ميناء جيدة رغم ذلك.»

كانت تلك ميليوكوف بالفعل. هرع الخدم والوصيفات إلى المرقاة بوجوه مستبشرة يحملون المصابيح، وسأل صوت من أعلى المرقاة: «من القادمون هنا؟»

فأجابت أصوات أخرى: «مقنعو الكونت. إنني أعرف الخيول.»

الفصل الحادي عشر

المتحابان

بيلاجي دانيلوفنا ميليوكوف سيدةٌ قوية تضع نظارتين على عينيها، وترتدي معطفًا رماديًّا. كانت في البهو مع بناتها اللواتي كانت تحاول تسليتهن وهن يُذبنَ الشمع ويتأملن الصور التي تتكوَّن منه، عندما ترددت في الدهليز أصوات القادمين وخطواتهم.

دخل الفرسان والأرامل المرحات والساحرات والمهرجون والدببة يسعلون ويمسحون وجوههم المغطاة بالصقيع إلى القاعة الكبيرة؛ حيث كان المستقبلون يضيئون الأنوار مسرعين. افتتح المُهرِّجُ ديملر الحفل الراقص مع الأرملة الطروب نيكولا. مضى المقنعون بين صيحات الأولاد الفرحة يخفون وجوههم، ويسلمون على سيدة البيت مُبدِّلين أصواتهم، ثم انتظموا في القاعة.

– «آه! يستحيل معرفتهم. آه، هذه «الناتاشا»! مَن تُشبه بالله؟ حقًّا إنها تذكِّرني ببعضهم ... إدوار كارليتش. كم هو جيد! ما كنت لأعرفه! وكم يرقص ببراعة! آه يا للآلهة، شركسي! آه، لكن هذه سونيا! كم ينسجم معها هذا الزي! وهذا من هو! نيكيتا، فانيا، ارفعوا الموائد. يا للترفيه الجميل الذي جئتمونا به! نحن الذين كنا على غاية من الهدوء.»

وقالت بعض الأصوات: «آه! آه! آه! ... الفارس. انظر إلى الفارس ... فتى حقيقي ... وقدماه! لا أستطيع أن أرى ...»

اختفت ناتاشا — صفية الشابات من آل ميليوكوف — مع الفتيات في المخادع الداخلية المختلفة، التي كانت تتلقفها أذرع عارية خلال الباب الموارب من أيدي الخدم، وبعد عشر دقائق، لحق كل شباب المسكن بالمقنعين الآخرين واختلطوا بهم.

كانت بيلاجي دانيلوفنا — التي هيأت أمكنة للضيوف، وطعامًا خفيفًا للسادة وللخدم على السواء — تروح وتجيء ونظارتاها فوق أنفها، والابتسامة الرصينة على شفتيها، بين المقنعين مُتَصفِّحة وجوههم دون أن تُميِّز منهم أحدًا. ولم تعد تعرف لا آل روستوف ولا

ديملر حتى، ولا بناتها أنفسهن وسط هذا الحشد من الأثواب المنزلية والألبسة المختلفة. أخذت تستعلم من المربية وهي تنظر من تحت نظارتيها إلى واحدة من بناتها متنكرة في زي تترية من قازان: «وهذه مَن تكون؟ يجب أن تكون واحدًا من آل روستوف، وأنت يا سيدي الفارس، إلى أي فيلق تنتمي؟»

وبعد أن طرحت السؤال الأخير على ناتاشا، قالت لرئيس الخدم الذي كان يطوف على الضيوف حاملًا طبقًا من المربيات: «قدم للتركية كعكة بالفاكهة؛ إن دينها لا يحرمه عليها.»

ولما شاهدت الخطوات المضحكة الغريبة التي أخذ الراقصون يخطونها — يساعدهم تنكرهم الذي سلب منهم كل ارتباك — أخفت بيلاجي دانيلوفنا وجهها في منديلها، وراحت شخصيتها الضخمة تهتز كلها بمفعول ضحكة طيبة لا تحمد حدتها، هتفت: «شينيت، انظروا إلى ابنتي شينيت (تصغير ساشا على الطريقة الفرنسية).»

وبعد الرقصات والدبكات الروسية، شكَّلت بيلاجي دانيلوفنا حلقة كبيرة قوامها الخدم وسادتهم، وجاءت بخاتم وخيط وقطعة نقدية من ذات الروبل، فبدأت الألعاب المشتركة.

خلال ساعة من الزمن تهدلت الأزياء كلها، وذابت الشوارب والحواجب المصنوعة من الفحم على الوجوه المرحة المبللة بالعرق، فاستطاعت بيلاجي دانيلوفنا أن تتعرف أخيرًا على الأشخاص، وراحت تهلل معجبة بنجاح الأزياء التنكرية، وبصورة خاصة أزياء الفتيات، وتشكر الجميع على المتعة الطيبة التي قدَّموها لها. دُعي السادة إلى تناول العشاء في البهو بينما قدم العشاء للخدم في القاعة الكبيرة.

وبينما هم يتحدثون على مائدة العشاء عن استطلاع البخت في الحمام، قالت عانس عجوز من نديمات آل ميليوكوف: «كلا، إنه أمر مريع جدًّا!»

استفسرت البنت البكر: «ولمَ ذلك؟»

– «آه! لن تذهبن. إن ذلك يستلزم شجاعة فائقة!»

أعلنت سونيا: «أنا سأذهب.»

قالت صغرى الأخوات ميليكوف: «قُصِّي علينا ما وقع لإحدى الآنسات.»

قالت العانس العجوز: «حسنًا، إليكن ما وقع: ذات مرة ذهبت آنسة إلى الحمام، أخذت معها ديكًا وصحفتين وكل ما ينبغي، أخذت مكانها وظلت فترة طويلة مصيخة السمع تنتظر. وفجأة سمعت جلبة جلاجل وأجراس، كانت الزحافة تقترب. أرهفت أذنها.

كان بعضهم قادمًا. دخل بعضهم ذاك، وجهه يشبه وجوه الرجال حتى ليقال إنه ضابط، وجاء يجلس بجانبها أمام الصحفة الثانية.»

هتفت ناتاشا وهي تدير عينين مذعورتين: «أوه! أوه!»

– «وبعدئذ شرع يتحدث.»

– «بالطبع، كالإنسان العادي تمامًا. وعندئذ راح يتوسل إليها. كان عليها أن تتابع الحديث معه حتى صياح الديك، لكن الخوف استحوذ عليها فأخفت وجهها بين يديها، وعندئذ أمسك بها الآخر. ولحسن الحظ، هرعت وصيفات إليها في تلك اللحظة.»

تدخلت بيلاجي دانيلوفنا: «يا لها من فكرة لإخافتهن!»

قالت إحدى بناتها: «ولكن يا أماه، ألم تستطلعي المستقبل بنفسك مرة؟»

سألت سونيا: «هل يستطلعون الحظ في المكدس كذلك؟»

– «بلا شك، ليس عليك إلا أن تذهبي إلى هناك على الفور إذا كانت شجاعتك تساعدك. يصغي المرء، فإذا سُمع طرق مطرقة أو قرعٌ ما؛ فإنه فأل سيئ. أما إذا نُثر القمح فهو فأل حسن. وكل شيء يقع وكأنه نبوءة.»

– «أماه، قُصِّي علينا ما وقع لك يومًا في المكدس.»

قالت: «أوه! إنكن تعرفن أنني نسيت كل شيء، ثم إن ما من واحدة منكن تفكر في الذهاب إلى هناك.»

استأنفت سونيا: «ولكن بلى يا بيلاجي دانيلوفنا، سأذهب إلا إذا اعترضت على ذلك.»

– «حسنًا! اذهبي إذا لم تكوني خائفة.»

سألت سونيا: «يا لويز إيفانوفنا، هل تسمحين لي؟»

وسواء لعبوا بالتخفية أو تحدثوا شأنهم في تلك اللحظة، فإن نيكولا لم يبتعد عن سونيا قيد أنملة، وراح ينظر إليها بعينين مختلفتين جديدتين. ظهرت له الفتاة أخيرًا بفضل تنكرها وشاربيها الاصطناعيين على حقيقتها، بل إن هذا ما كان يظنه على الأقل، ثم إن ناتاشا نفسها ما كانت تتذكر يومًا أنها رأت ابنة عمها على مثل هذا الجمال والاندفاع والوداعة يملؤها الفرح.

فكر وهو يراقب عيني سونيا الملتمعتين، وابتسامتها المتحمسة التي كانت تحفر غمازتين تحت شاربها المستعار، وهو الأمر الذي لم يلاحظه من قبل: «هذه هي إذن حقيقتها! كم كنت غبيًّا إذ لم ألاحظ هذا من قبل!»

قالت وهي تنهض: «لست أخاف شيئًا، سأذهب من فوري إذا أردت.»

فسروا لها أين يوجد المكدس؛ كان عليها أن تمكث صامتة وأن تصيخ السمع، قدموا لها فروة ألقتها على رأسها وهي تصوِّب نظرة نحو نيكولا.

فكر هذا: «يا لها من طفلة رائعة! بأي شيء كنت أفكر حتى الآن؟»

لم تكد سونيا تلج الممشى حتى اختفى نيكولا عن طريق الباب الكبير، بحجة أن الطقس شديد الحرارة، والحقيقة أن الجماعة المحتشدة في الغرف جعلت جوها خانقًا.

وفي الخارج لبثت تلك الإشراقة المتجمدة على حالها، وذلك القمر المنير بدا أكثر ضياء. كان الضياء عنيفًا، وتلألؤ الثلج من الشدة بحيث لا يشعر المرء برغبة في النظر إلى السماء، وتفقد النجوم الحقيقية لمعانها، كانت السماء تبدو قاتمة مربدة بينما الأرض على العكس كلها بهجة.

ظل نيكولا يفكر: «يا للأحمق الذي كنته إذ انتظرت حتى الآن.» وهبط درجة المرقاة ودار حول البيت من الممشى الذي يقود إلى مدخل الخدم. كان يعرف أن سونيا ستمر — ولا شك — من هناك، وفي منتصف الطريق كانت أنضاد من الخشب المكسو بالثلج تشكِّل ظلالًا تنضم إليها ظلال أشجار الزيزفون العارية الزوراء، وحواجز المكدس المصنوعة من هياكل الخشب وسقفه الأبيض من الثلج، الذي يجعل الناظر إليه يظن أنه منحوت في حجر كريم؛ تلتمع في ضوء القمر. فرقع غصن في الحديقة ثم ساد السكون، حتى كأنَّ المرء لا يستنشق الهواء الطلق نفسه، بل قوة فتية ما أبدية، والحبور نفسه.

علا وقع أقدام على مرقاة الخدم، فكان لها وقع أشد على الدرجات الأخيرة المُغطاة بقشرة من الثلج، وقال صوت العانس العجوز: «إلى الأمام باستقامة عن طريق هذا الممشى يا آنسة، ولكن لا تلتفتي.»

أجاب صوت سونيا التي أخذت خطواتها تصرُّ فوق الطريق الذي وقف نيكولا ينتظرها عليه، وقدماها في حذاءين دقيقين: «لست خائفة.»

أخذت تتقدم متدثرة بالفروة، لم تكن على أكثر من خطوتين منه حينما رأته. رأته هي الأخرى بعينين تختلفان عن ذي قبل؛ لم يعد وهو في ثوبه النسوي، وشعره الأشعث، وابتسامة شفتيه السعيدة، ذلك الرجل الذي كانت سونيا تخشاه دائمًا. جرت نحوه.

حدث نيكولا نفسه وهو يعاين وجه الفتاة الذي كان ضياء القمر يغمره: «إنها مختلفة تمامًا. مع ذلك لم تتبدل.» أدخل يديه تحت الفروة التي تتدثر بها فطوَّقها وجذَبها إليه ثم قبَّل شفتيها؛ حيث كان الشارب الاصطناعي مرسومًا تنبعث منه رائحة

الفحم المحروق. قبلته سونيا هي الأخرى ملء شفتيه، ثم مررت يديها وأمسكت بوجهه من الصدغين.

– «سونيا!»

– «نيكولا!» ولم يزيدا. جريا إلى المكدس ثم عادا بعد ذلك إلى البيت كلٌّ من مرقاة مختلفة.

الفصل الثاني عشر

أوهام العاشقة

عندما غادروا بيت بيلاجي دانيلوفنا، سوت ناتاشا أمرها، وهي التي ترى وتلاحظ دائمًا كل شيء؛ حيث ركبت لويز إيفانوفنا برفقتها في زحافة ديملر بينما ظلت سونيا وحدها مع الخادمات في زحافة نيكولا.

قاد نيكولا زحافته بسرعة عادية على طريق العودة دون أن يحاول تجاوز أحد. كان ينظر إلى ابنة عمه تحت ضياء القمر الغريب محاولًا أن يكتشف في ذلك الضوء المبدل سونيا الأمس وسونيا اليوم، التي اعتزم نهائيًّا أن لا يفترق عنها قط. كان ينظر إليها، فإذا ما عرفها كما هي دائمًا ومختلفة مع ذلك، وتذكر طعم الفحم المحترق على شفتيها المختلط بإحساس القبلة، ثم ألقى نظره إلى المنظر المحيط به. ظن من جديد أنه في مملكة ما مسحورة. أخذ يسألها من حين إلى آخر ويخاطبها بصيغة المفرد: «سونيا، هل أنت على ما يرام؟»

فتجيبه بالمثل: «نعم، وأنت؟»

وفي منتصف الطريق، أعطى نيكولا المقود إلى الحوذي ونزل من زحافته وجرى نحو زحافة ناتاشا، واعتلى طرف المزلقين. قال لها بالفرنسية وبصوت خافت: «ناتاشا، أتعرفين؟ لقد اتخذت قرارًا بصدد سونيا.»

سألت ناتاشا وقد أشرق وجهها بالسرور فجأة: «هل كلمتها؟»

– «آه! كم أنت مضحكة بهذين الشاربين وهذين الحاجبين! هل أنت مسرورة؟»

– «نعم، مسرورة جدًّا. أتدري أنني كنت حانقة عليك؟ ما كنت أحدثك بالأمر، ولكنك كنت تتصرف حيالها تصرفًا سيئًا. إن لها قلبًا آية في الطيبة يا نيكولا. كم أنا مسرورة! إنني خبيثة أحيانًا، لكنني كنت أخجل من أن أكون سعيدة وحدي بدونها. أما الآن ها أنا سعيدة. هيا، عُدْ بسرعة إلى جانبها.»

كرر نيكولا وهو ينظر إليها دائمًا، ويكتشف في ملامحها كذلك شيئًا خارقًا للعادة فاتنًا لم يلحظ مثله من قبل: «لحظة. آه! كم أنت مضحكة ناتاشا! إنه لون من السحر، أليس كذلك؟»

أجابت: «نعم، ولقد أحسنت التصرف جيدًا.»

حدث نيكولا نفسه: «لو أنني رأيتها من قبلُ كما هي اليوم لسألتها النصح منذ زمن طويل، ولعملتُ كل ما تشير به عليَّ، ولسار كل شيء على أفضل ما يمكن.»

– «إذن أنت مسرورة، وقد أحسنت صنعًا.»

– «آه! نعم، كم أحسنت الصنع! لقد تناقشت مؤخرًا مع «ماما» حول هذا الموضوع. كانت «ماما» تزعم أن سونيا تغريك وتلاحقك. كيف يمكن أن يقال مثل هذا القول؟ كدت أتنازع مع ماما، ولن أسمح لكائن من كان أن يسيء بالقول إلى سونيا، ولا أن يفكر بها بسوء؛ لأن كل شيء كامل فيها.»

سأل نيكولا مرة أخرى وهو يتفحص في تقاسيم وجه أخته ليتأكد من أنها تنطق بالصدق: «إذن، لقد أحسنت الصنع.»

ثم صفق بحذاءيه العاليين وقفز من زحافة ناتاشا ليلحق بزحافته. وجد فيها ذلك الشركسي السعيد الباسم نفسه ذا الشاربين والعينين اللامعتين، الذي ينظر إليه من تحت قلنسوة السمور. وكان ذك الشركسي هو سونيا؛ وسونيا تلك ستكون ذات يوم زوجته السعيدة المحبة حتمًا.

عندما بلغوا المنزل قصت الفتاتان على الكونتيس كيف أمضتا الوقت عند آل ميليوكوف، ثم انسحبتا إلى جناحهما، وبعد أن خلعتا أزياءهما وتركتا الشوارب، لبثتا فترة طويلة تتحدثان عن السعادة الزوجية المقبلة. سوف يتفاهم زوجاهما معًا تفاهمًا كليًّا، وستكونان سعيدتين تمامًا. وعلى المائدة، كانت بعض المرايا التي هيَّأتها دونياشا خلال السهرة. قالت ناتاشا وهي تقترب منها: «متى سيقع كل هذا؟ لعله لن يقع أبدًا، إنني شديدة الخوف من ذلك. سوف يكون منتهى الروعة!»

قالت لها سونيا: «اجلسي يا ناتاشا، لعلك ترينه فعلًا.»

أضاءت ناتاشا الشموع وجلست. قالت وهي ترى وجه نفسها: «إنني أرى بعضهم بشاربين.»

قالت دونياشا منبهة: «لا يجب أن تضحكي يا آنسة.»

وجدت ناتاشا بمساعدة سونيا والوصيفة الوَضْعيَّة الملائمة للمرآة الأولى، فاتخذت سحنة جدية واستغرقت في صمت حازم. لبثت زمنًا على تلك الحال تنظر إلى صف الشموع

التي كانت تنأى متباعدة في المرايا، وتتصور — استنادًا إلى الأقاصيص التي رويت لها — أنها سترى تابوتًا حينًا، و«هو» الأمير آندريه حينًا آخر، في المربع الأخير حيث يختلط كل شيء فيه بشكل غريب، لكنها مهما بلغ استعدادها لاعتبار أصغر بقعة فوق المرآة تابوتًا أو وجهًا بشريًّا، لم ترَ شيئًا مطلقًا. أخذ جفناها يضطربان فنهضت وقالت: «كيف يحدث أن الآخرين يرون بينما لا أرى أنا شيئًا مطلقًا؟ هيا يا سونيا، اجلسي مكاني، اليوم يومك، وإلا فلا، لكن انظري من أجلي. إنني شديد الخوف.»

جلست سونيا إلى المرآة وراحت تحدِّق فيها بعد أن أعطتها الزاوية الملائمة، قالت دونياشا بصوت خافت: «سترى صوفي ألكسندروفنا حتمًا شيئًا ما، وإذا كنت لا ترين شيئًا، فما ذلك إلا لأنك ضاحكة أبدًا.»

سمعت سونيا تلك الكلمات وجواب ناتاشا المدمدم: «نعم، إنني أعرف تمامًا أنها سترى شيئًا. لقد رأت شيئًا ما في العام الفائت أيضًا.»

استأنفت ناتاشا بصوت خافت بعد دقائق من الصمت: «بلا شك!»

لكنها لم تجد الوقت الكافي للاسترسال؛ لأن سونيا دفعت المرآة التي كانت تحملها فجأة وغطت عينيها بيدها. هتفت: «آه! ناتاشا!»

هتفت ناتاشا وهي تسند المرأة: «هل رأيت؟ هل رأيت؟ ماذا رأيت؟»

لم تر سونيا شيئًا، فكانت تريد أن تريح نظرها فقط، بل إنها همت بالنهوض حينما تمتمت ناتاشا بكلمتها: «بلا شك.» ما كانت تريد أن تخدع ناتاشا ولا دونياشا، وكانت تحس بالتعب لطول جلوسها، بل إنها كانت تجهل سبب صيحتها تلك، وحجبها عينيها بيدها.

سألتها ناتاشا وهي تمسك بيديها: «أهو «هو» الذي رأيته؟»

أجابت سونيا مغامرةً وهي لا تدري تمامًا من كانت تعنيه ناتاشا بكلمة «هو»؛ أكان آندريه أم نيكولا: «نعم ... انتظري. إنه هو الذي رأيته.»

فكرت في نفسها: «ثم، لمَ لا أقول إنني رأيت شيئًا؟ إن ذلك يحدث لكثير من الآخرين، ثم من الذي يستطيع إقناعي بغشي؟»

قالت: «نعم، لقد رأيته.»

– «وكيف رأيتِه؟ واقفًا أم مستلقيًا؟»

– «انتظري. بادئ الأمر لم يكن هناك شيء، ثم رأيته مستلقيًا فجأة.»

سألت ناتاشا وهي تحدق في ابنة عمها بعينين مذعورتين: «آندريه مستلقيًا؟ أهو مريض؟»

أجابت سونيا التي أصبحت الآن تعتقد أنها رأت بالفعل ما تتحدث عنه: «كلا، على العكس، لقد كان بادي السرور، وقد التفت نحوي.»

– «آه! وبعد؟»

– «وبعد، لم أميز كل شيء. لقد كان هناك شيء أحمر وأزرق.»

– «سونيا، متى يعود؟ متى أراه من جديد؟ ربَّاه، كم أخشى من أجل نفسي! إن كل شيء ... كل شيء يخيفني.»

ودون أن تجيب على كلمات صديقتها المطمئنة، استلقت ناتاشا على سريرها. ظلت فترة طويلة بعد إطفاء الشموع جامدة في مكانها، مفتوحة العينين، تتأمل ضوء القمر البارد خلال النوافذ المغطاة بالصقيع.

الفصل الثالث عشر

اعتراف نيكولا

بعد انقضاء أعياد الميلاد بوقت قصير، أعلن نيكولا لأمه حبَّه لسونيا وعزمه الأكيد على الاقتران بها، أصغتْ إليه الكونتيس التي كانت تلاحظ حركاتهما منذ مدة طويلة، وتتوقع تلك المسارَّة بصمت حتى فرغ من حديثه، ثم صرحت له بأنه يستطيع الزواج ممَّن يشاء، لكنها لا هي ولا زوجها لن يؤيدا مثل هذا الزواج. ولأول مرة في حياته، رأى نيكولا أن أمه غير راضية عنه، وأنها رغم كل الحب الذي تكنه له في صدرها، ما كانت توافق أو تلين. أرسلت تستدعي الكونت بلهجة باردة، ودون أن تمنح ابنها نظرة، فلما وصل هذا حاولت أن تفسر له الأمر بإيجاز متصنعة الهدوء، لكنها لم تستطع تمالك نفسها، فذرفت الدمع من الغضب وانسحبت. راح الكونت يؤنِّب نيكولا بلهجة مترددة، ويضرع إليه أن يعزف عن مشروعه، فلما رفض هذا التنكر لوعده الذي قطعه، أمسك الأب عن الإلحاح، ومضى يلحق بالكونتيس وهو يزفر خجلًا، بات الكونت عند أتفه نزاع يقع بينهما يشعر بأنه جنى على ولده بتبديده ثروته، فما كان يستطيع إذن أن يحقد عليه لأنه فضَّل فتاة دون بائنةٍ على وارثة غنية. وكان يرى في تلك المناسبة بوضوح أكثر، أن ثروته لو لم تبذَّر كان يجد لابنه زوجة أفضل من سونيا، وأن المذنب الحقيقي بالتالي هو نفسه وميتانكا — وكيل خرجه — وعاداته التي لا يرجى لها تبديل.

لا الأب ولا الأم ما عادا منذ ذلك اليوم يُلمِّحان بكلمة إلى موضوع الزواج أمام ابنهما، لكن الكونتيس استدعت سونيا بعد بضعة أيام، وراحت تأخذ عليها بقسوة ما كانت هذه أو تلك تنتظرها، أنها أغرت ابنها وعقَّت بذلك مُحْسِنيها. كانت سونيا تصغي صامتة مطرقة الرأس إلى توبيخ الكونتيس القاسي دون أن تفهم قصدها منه. كانت على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل المحسنين إليها؛ لأن فكرة التضحية كانت حاضرة أبدًا في رأسها، لكنها في الوقت الحاضر ما كانت تدري مِن أجل مَن تضحِّي بنفسها. كانت تحب

نيكولا كذلك، ولا تجهل أن سعادته تتوقف على هذا الحب؛ لذلك فقد حبست نفسها في صمت يائس. ولقد قدَّر نيكولا أن الموقف لا يحتمل؛ لذلك قرر التفاهم مع أمه حول هذا الموضوع؛ توسل إليها بادئ الأمر أن تصفح عنهما — عنه وسونيا — وأن تمنحهما رضاءها، ثم هدَّدها بأنه سيتزوج سونيا على الفور وبالسِّرِّ إذا عمدوا إلى تعذيبها.

أجابته الكونتيس ببرود لم يعهد مثله فيها من قبلُ بأنه بالغ رشده، وأنه يستطيع كالأمير آندريه أن يتزوج دون موافقة أبيه، لكنها لن تعتبر أبدًا هذه العاقَّة ابنة لها.

أغضبته كلمة «العاقَّة»، فرفع نيكولا صوته وقال لأمه: «إنه ما كان ليظن قط بأنها تحرضها على بيع نفسها، ولما كان الأمر كذلك؛ فإنه يخطرها لآخر مرة أنه ...»

لكنه لم يجد الوقت الكافي للنطق بالكلمة الحاسمة التي كانت الأم — إذا حُكم على تعبيرات وجهه — تنتظرها بهول، والتي كان يمكن أن تترك ذكرى مريعة في النفوس؛ ذلك أن ناتاشا ظهرت على عتبة الباب شاحبة الوجه، صارمة الأسارير، وقد سمعت من مكانها كل شيء، هتفت: «نيكولا، إنك تنطق بالحماقات، صه صه! أكرر القول: صه!»

ثم استرسلت بصوت أقرب إلى الصراخ لتخنق صوت أخيها: «أماه، يا أمي الصغيرة، أمي العزيزة، إن الأمر لا يتعلق أبدًا بـ...»

كانت الأم تنظر برعب إلى ابنها، وتشعر بقرب وقوع انفصال نهائي بينهما، لكن عنادها واستعدادها للفصال ما كانا يسمحان لها بالاستسلام، قالت ناتاشا لأخيها: «انسحب يا نيكولا، سأفسِّر لك كل شيء، وأنت يا أمي الصغيرة العزيزة، أصغي إليَّ ...»

وعلى الرغم من أن كلماتها لم تكن تحمل أي معنى، فإنها مع ذلك أصابت الهدف. أخفت الكونتيس رأسها في صدر ابنها وهي تجهش في البكاء، بينما نهض نيكولا منسحبًا وهو ممسك برأسه بين يديه.

وجهت ناتاشا مشروع الصلح توجيهًا حسنًا: وعدت الكونتيس ابنها أن لا تضطهد سونيا، فوعد بالمقابل ألا يعمل شيئًا في السر دون أن يطلع أبويه عليه.

وفي أوائل كانون الثاني، التحق نيكولا — وهو شديد الندم على النزاع الذي بينه وبين أسرته — بفيلقه، وهو عازم عزمًا أكيدًا على أن يصفِّي كل مشاكله، ثم يستقيل ويتزوج سونيا التي كان مُدنفًا بحبها فور عودته.

أغرق رحيل نيكولا بيت روستوف في حزن أشد كآبة، ومرضت الكونتيس على إثر انفعالها. كانت سونيا تتألم لفراقها عن نيكولا، وكذلك للهجة الكونتيس العدائية التي ما كانت هذه تستطيع كتمانها حيالها. أما الكونت فأصبح أشد قلقًا لسوء أحوالها المادية

التي كانت تتطلب مزيدًا من التدابير الحازمة؛ فبيع قصر في موسكو أو الأراضي الزراعية المجاورة لهذه المدينة يقتضي السفر إلى مكان العقار نفسه، لكن صحة زوجه الرديئة كانت تلجئه إلى تأجيل السفر يومًا بعد يوم.

أصبحت ناتاشا التي احتملت الأشهر الأولى لغياب خطيبها بسهولة، بل وبمرح؛ تزداد انفعالًا ساعة بعد ساعة ونفاد صبر. كانت فكرة انقضاء أجمل أيامها التي يمكنها قضاؤها في حبِّه بنجاح هباءً ودون جدوى لا تَنِي تعذِّبها، وكانت رسائل آندريه يزيد معظمها في ثورتها. كانت تحدث نفسها بمرارة بأنها في حين لا تعيش إلا في ذكره والتفكير فيه، يحيا هو حياة كل الناس، فيرى بلدانًا جديدة، ويرتبط بمعارف جُدد، ويتسلى بصحبتهم ومخالطتهم، وكلما ازدادت رسائله في بيان اهتمامه، سبَّبت له سخطًا زائدًا، ما كانت تحب كذلك أن تكتب إلى خطيبها؛ لأنها لا ترى في ذلك إلا عملًا مبتذلًا مملًّا؛ إذ كيف يمكن التعبير كتابة عما يمكن لفَمِها أن يقوله بكل يسر وإجادة، وأن تنبئ به ابتسامتها ونظرتها؛ لذلك فقد كانت تكتب له رسائل مملة جافة؛ رسائل «كلاسيكية» ما كانت تعلِّق عليها شخصيًّا أية أهمية. تصحح أمها أخطاء الإملاء الواردة فيها على المسودة.

لم تسترد الكونتيس صحتها رغم الوقت، بينما بات يستحيل إرجاء السفر إلى موسكو أكثر من ذلك؛ كان يجب تهيئةُ لوازم العرس وبيعُ البيت، وكان يُتوقع أن يذهب الأمير آندريه إلى موسكو مباشرة؛ حيث يقضي أبوه العجوز الشتاء، بل إن ناتاشا كانت تعتقد جازمة بأنه وصل إلى موسكو بالفعل.

وهكذا ظلت الكونتيس في الريف، بينما سافر زوجها ترافقه سونيا وناتاشا إلى موسكو في أواخر كانون الثاني.

الجزء الخامس

الفصل الأول

متاعب بيير

بعد خطوبة الأمير آندريه على ناتاشا، شعر بيير فجأة دون سبب واضح باستحالة متابعة حياته كالسابق. على الرغم من تعلقه المتين بالحقائق التي أطلعه عليها المحسن إليه، ورغم المسرات العميقة التي سبَّبها له بحثه المحموم عن الكمال الداخلي، فإن إعلان تلك الخطوبة — وعلى الأخص موت جوزيف ألكسيئيفيتش الذي بلغه في ذات الوقت تقريبًا — سلبا كل بهجة الحياة التي كان يحياها. لم يعد يرى فيها إلا القشور: قصره، وزوجته دائمة الشهرة، المالكة لالتفاتات شخصية سامية، وعلاقاته في كل بيترسبورج، ثم منصبه في البلاط بكل إجراءاته المُسئِمة. استبد به اشمئزاز مفاجئ فكفَّ عن التدوين في مذكراته، وتحاشى صحبة الإخوان، وعاد يرتاد النادي ويفرط في الشراب ويعاشر العزاب. وبالاختصار، أخذ يتصرف بشكل جعل الكونتيس ليكلين تعتقد بضرورة توجيه لوم عنيف إليه. اعترف بيير أنها على صواب، وانسحب إلى موسكو تفاديًا لتعريضها للوم.

عندما وجد نفسه من جديد في قصره الرحب، الآهل بعدد وفير من الخدم، الذي تقطنه الأميرات اللواتي ازددن شبهًا بالمومياء على الزمن، وعندما رأى من جديد وهو يخترق المدينة كنيسة «عذراء أيبيريا» ذات الأضواء التي لا تحصى، والشموع التي تشع أمام التماثيل المقدسة المكسوَّة بالألبسة المذهبة، وساحة الكرملن بثلجها الناصع، وشارع «رافان سيفتسوف» بعرباته وأطلاله، وعندما جدد اتصالاته بأولئك الشيوخ الذين كانوا ينهون حيواتهم الطويلة بتمهُّل واطمئنان، وبسيدات موسكو الطيبات، وبالحفلات الراقصة، وبالنادي الإنجليزي. شعر أنه عاد أخيرًا إلى قاعدته؛ كانت موسكو بالنسبة إليه المعطف المنزلي العتيق المريح الناعم القذر بعض الشيء، الذي أصبح ارتداؤه عادةً أليفة لصاحبه غالية عليه.

استقبل مجتمع موسكو في بيير ابتداء من العجائز وحتى الأطفال استقبالَ الضيف المنتظر منذ أمدٍ طويل، الذي لا يزال مكانه محفوظًا. كان بيير في نظرهم أحن وأكرم وأكمل شخصية أصيلة، وأكثرها فتنة وذكاء ومرحًا، ومثالًا لشخصية الشريف الروسي عريق النسب الكاملة، الساهم الطيب. كان كيس نقوده خاويًا دائمًا؛ لأنه مفتوح لكل الناس.

فإذا كان الأمر متعلقًا بتمثيليات ذات ريع، أو بلوحات، أو بتماثيل مكروهة، أو بمدارس، أو حفلات لجمع التبرعات، أو بخلاعات، أو بتبرعات للمحافل الماسونية والكنائس، أو نشر مؤلفات، فإنه ما كان أبدًا يجفو أحدًا. ولولا ثلاثة أصدقاء كانوا يقترضون منه مبالغ كبيرة فارضين وصايتهم عليه؛ لوزع بيير كل شيء، ففي النادي ما كانت تقام حفلات ولا ولائم بدونه، فما إن يبتلع زجاجتين من خمرة «شاتو ماجو» حتى ينهار على أريكته المفضلة، فتعقد حوله حلقة، ويشرع في القصص والمناقشات والأحاديث المسلية، وإذا ما قامت منازعة هدَّأها بابتسامته الطيبة، أو بدعابة مستملحة. أما المحافل الماسونية، فكانت تفقد كل حيوية واهتمام إذا لم يكن حاضرًا فيها.

وعندما كان ينصاع لإلحاح الجماعة المرحة في أعقاب عشاء خاص بالشباب، فينهض بابتسامته القلبية لمرافقتهم، كانت صيحات البهجة تدوي بين الشباب، وفي الحفلات الراقصة ما كان قط يرفض الرقص إذا كان هناك راقصة دون مراقص. كان يروق للفتيات وللسيدات الشابات لأنه كان يظهر حيالهن جميعًا ودودًا بشوشًا، دون أن يغازل إحداهن، وخصوصًا بعد العشاء، فكُنَّ يقلن عنه: «إنه فتَّان لا يميل إلى الجنس.»

وبالاختصار، كان بيير صورة حية لحُجاب البلاط العاطلين الذين ينهون أيامهم بالمئات هانئين في موسكو.

لكم كان يرتعد سخطًا لو أن بعضهم قال له قبل سبع سنين، عندما عاد من الخارج، أنه لا يرى شيئًا يبحث فيه أو يتخيله، وأن طريقه قد سُطر منذ الأزل، وأنه مهما عمل سيظل حتمًا ما يمكن لغيره أن يكون عليه لو كان في مثل مركزه! لو قالوا له مثل ذلك لما صدق أذنيه! أوليس هو الذي رغب تارة من صميم قلبه أن يقيم الجمهورية في روسيا، ورغب تارة أخرى أن يكون نابليونًا، أو فيلسوفًا، أو المفكر المدبِّر الذي سيهزم الإمبراطور؟ ألم يكن هو الذي اعتقد بإمكانية تجديد الجنس البشري الفاسد، وتمنى ذلك بكل شغف، وعمل على اكتساب الكمال التام لنفسه؟ أليس هو الذي أنشأ المدارس والمستشفيات وأعطى الحرية لفلاحيه؟

إلى أي شيء انتهى به كل هذا؟ لقد أفضى به الأمر بكل بساطة إلى أن يكون زوجًا موثرًا لامرأة غير مخلصة، وحاجبَ شرف، وهاويًا للأطعمة الفاخرة يسخر عن طيب خاطر بعد الشراب بالدولة، وعضوًا متنفذًا في النادي الإنجليزي، وعضوًا ملقًى في المجتمع الموسكوفي. وبالاختصار، واحدًا من أولئك الرجال الذين ما كان يجد في نفسه مزيدًا من الاحتقار لهم منذ سبع سنين. ظل مدة طويلة لا يستطيع استساغة هذه الفكرة. كان أحيانًا يعزِّي نفسه بقوله: إن هذا اللون من الحياة ليس إلا مؤقتًا، لكنه بعدئذٍ يفكر بارتياع في عدد الناس الذين سلكوا مؤقتًا في هذا المسلك مثله، وهووا في هذا النادي بكل شعورهم وأسنانهم ليخرجوا منه فيما بعدُ وقد فقدوا شعرهم وأسنانهم معًا.

في ساعات الكبرياء كان يظن نفسه مختلفًا كل الاختلاف عن أولئك الحُجَّاب الذين كان يحتقرهم في الماضي، أولئك المخلوقات الحمقى المبتذلة الراضية عن نفسها بغباء، فيفكر حينئذ: «أنا، على العكس، لا زلت غير راض عن شيء، أرغب دائمًا في صنع شيء ما لخير الإنسانية.» لكنه في ساعات التواضع كان يقول لنفسه: «لكن مَن يدري؟ إنهم هم أيضًا زملائي، قد ناضلوا مثلي بلا شك، وحاولوا أن يشقوا في الحياة طريقًا خاصًّا بهم، ثم بلغوا إلى النقطة التي وصلت إليها أنا تحت ضغط الظروف والبيئة والمنشأ، وهي تلك القوة البدائية التي لا يستطيع الإنسان لها دفعًا.» وبعد زمن ما من إقامته في موسكو، أصبح يحب رفاقه في المحنة ويقدِّرهم ويرثى لهم، دون أن يفكر قط في احتقارهم.

صحيح إن بيير تحرر من نوبات اليأس العنيفة والسويداء واحتقار الحياة، لكن اضطرابه وبلباله المكبوتين في داخله كانا يعذبانه بشدة؛ كان يتساءل مرات عديدة في اليوم وهو يُضطرُّ بالرغم منه إلى تمحيص أحداث الحياة: «ما هو هدف كل هذا؟ أية مأساة تمثل على مسرح الحياة؟» ولما كان يعرف بالتجربة أن أسئلة كهذه تظل دون جواب، فقد كان يحوِّل فكرته فورًا، سواء بأخذ كتاب، أو بالنفور إلى النادي، أو باللجوء إلى جوٍّ من الثرثرة عند أبولون نيكولائيفنتش.

كان يحدث نفسه: «إن هيلين فاسيلييفنا التي ما أحبت قط إلا جسمها، والتي هي حمقاء تمامًا، تظهر في نظر الناس على صورة معجزة الفكر والخداعة، وإن نابليون بونابرت رأى نفسه مُحتقرًا من كل الناس طوال الوقت الذي كان فيه رجلًا عظيمًا، لكنه ما إن أصبح مشعبذًا يثير الرثاء حتى سعى الإمبراطور فرانسوا وراء شرف منحه أخته على شكل سُرِّيَّة، والإسبانيون بواسطة رجال الكهنوت الكاثوليك يشكرون الله الذي منحهم النصر على الفرنسيين في الرابع عشر من حزيران، بينما الفرنسيون من جانبهم يعملون مثل هذا العمل، وبواسطة رجال الكهنوت أنفسهم؛ لأنهم هزموا الإسبانيين بالمثل

في الرابع عشر من حزيران، وإخواني الماسونيون يقسمون على الدم أنهم على استعداد لتضحية كل شيء في سبيل أخيهم الإنسان، بينما لا يدفعون روبلًا واحدًا عند التبرعات. وبالمقابل، يساهمون في دسائس «آستره» ضد «الباحثين عن المن»، ويبذلون أقصى طاقتهم للحصول على البساط الإيكوسي الحقيقي الذي لا يعرف أحد عن معناه شيئًا، حتى ولا واضعه. إننا جميعًا ننشر القانون المسيحي بالصفح عن الإساءات وحب الغير. وتنفيذًا لهذا القانون، أقمنا في موسكو وحدها أربعين كنيسة. مع ذلك، فإننا بالأمس فقط حكمنا على جندي تعس فارٍّ بالجلد بالسياط حتى تعقب الوفاة، فجاء القس، وزير هذا القانون القاضي بالحب والصفح، وقدَّم الصليب لهذا الرجل ليُقبِّله قبل نُكْلة الموت.»

وكلما فكر بيير على هذا النحو، أذهلته تلك المداهنة العامة المقبولة من كل الناس، رغم الاعتياد عليها، وكأنه يكتشفها للمرة الأولى. كان يحدِّث نفسه: «إنني أحس بهذا الرياء، هذه المضلة الخلقية التي نضيع فيها، ولكن كيف أفسر للآخرين كل ما أحس به؟ لقد حاولت ولاحظت دائمًا أنهم في أعماق نفوسهم يشاركونني الرأي، لكنهم يرفضون رؤية هذه الأكذوبة. لا شك أنه يجب أن يكون الأمر كذلك؟ ولكن أنا أين أجد لنفسي ملجأ؟»

وكما هو مألوف عند كثير من الناس، وبصورة خاصة الروسيين، كان يمتاز بالإيمان بالحق والخير، لكنه بنفس الوقت يمتاز كذلك بنفاذ البصيرة لرؤية الشر والكذب منتشرين حوله. وهذه الميزة كانت تحُول دونه والاندفاع جديًّا في غمار الحياة. كان كل لون من ألوان النشاط ملطَّخًا في نظره بالشر والكذب، وأي عمل شرع به لا يلبث الشر والكذب أن يردَّاه عن إتمامه، وهكذا كانت السبل كلها مغلقة أمامه على هذا الشكل. مع ذلك، كان يجب أن يعيش عيشًا طيبًا، وأن يشغل نفسه في شيء. لقد كانت تلك الأسئلة متعذرة الحل، شديدة التضييق على نفسه، حتى إنه عاد إلى مزاولة أعماله السابقة، لا لشيء إلا لنسيانها. أخذ يرتاد المحافل العقائدية والأندية، ويشرب بكثرة، ويجمع اللوحات، وينصرف إلى القراءة غالبًا.

كان يقرأ كل ما يقع تحت يده، فإذا عاد إلى منزله لا يكاد خادمه يفرغ من نزع ثيابه حتى تكون يده قد حملت كتابًا، ومن القراءة كان ينتقل إلى النوم، ومن النوم إلى هذر الأبهاء والأندية، ومن الثرثرات إلى الإفراط في الأكل، ومن هذا إلى الثرثرات فالقراءة فالخمر. أصبحت الخمرة ضرورة جسدية وفكرية تزداد قيمتها يومًا بعد يوم. ظل يفرط في الشراب رغم أن الأطباء نصحوا له مرارًا باجتنابه؛ لأنه خطر عليه بسبب متانة بنيانه، وما كان يشعر بالراحة الحقيقية إلا بعد أن يغيب في فمه الرحيب عدة أقداح من الخمر

بصورة أقرب إلى اللاشعور، وحينئذٍ يحس بدفء لذيذ يعم كل جسمه، وبشعور من الحنان حيال أمثاله من بني الإنسان، واستعداد للمس كل المسائل دون أن يتعمق في واحدة منها. وعندما يرتشف زجاجة أو زجاجتين، يرى بإبهام أن تلك العقدة شديدة التعقيد التي هي الحياة، التي تملؤه رعبًا عادةً ليست من الهول بالقدر الذي يتصوره؛ لأن تلك العقدة الرهيبة كانت تراود أفكاره أثناء الثرثرة، كما تراودها خلال القراءة بعد الطعام، وتدوي في رأسه باستمرار. فما كان غير تأثير الخمر يجعله يقول لنفسه: «إنه تافهٌ. سأتدبره، بل إن عندي تفسيرًا قائمًا، لكن اللحظة غير مناسبة. سأفكر في الأمر فيما بعدُ.» لكن «فيما بعدُ» هذا، ما كان يصل أبدًا.

وفي اليوم التالي، بعد أن تتبدد أبخرة الخمر، تعود الأسئلة إلى ذاكرته من جديد أشد ما تكون تعقيدًا واستحالة على الحلِّ، مخيفةً كعادتها، فيبادر من فوره إلى أخذ كتاب، ويظهر غبطة كبيرة إذا تلقى زيارة بعضهم.

أحيانًا يخطر بباله أنه سمع بعضهم يقول إن الجنود في الخطوط الأمامية تحت النار يدأبون في إيجاد مشاغل لهم ليتسنى لهم نسيان الخطر بسهولة، وحينئذ يخيل إليه أن كل الناس يتصرفون تصرف أولئك الجنود. إنهم ينجون من الحياة بانصرافهم إلى حب الرفعة، أم المقامرة، أم النساء، أم التسلية، أم الخيول، أم الصيد، أم الخمر. هؤلاء بوضع القوانين، وهؤلاء بالاهتمام بالشئون العامة، فيفكر: «وبالنتيجة، لا شيء يهمل، ولا شيء يستحق الاهتمام كذلك، وكل شيء تافه. لو أنني استطعت فقط أن أنأى عن كذب الحياة وأتجنب هذه الرؤية الكريهة!»

الفصل الثاني

متاعب ماري

في بداية الشتاء، جاء الأمير نيكولا آندريئيفيتش بولكونسكي وابنته للإقامة في موسكو، وبفضل ماضيه وعقليته ومَحْتده، وبصورة خاصة بفضل هبوط الحماس الذي سبَّبه جلوس ألكسندر، والشعور العدائي للفرنسيين الذي كان سائدًا في المدينة حينذاك، لم يلبث أن أصبح موضع احترام خاص من الموسكوفيين ومركز المعارضة ضد الدولة.

هرم الأمير كثيرًا تلك السنة، فالغفوات المفاجئة ونسيان حوادث حديثة العهد مع تذكر وقائع عريقة في القدم، والزهو الصبياني حقًّا الذي تقبل به دور رئيس المعارضة الموسكوفية، كانت كلها دلائل واضحة تشير إلى ضعف الشيخوخة. مع ذلك، فقد كان العجوز إذا ما ظهر مساء — وبصورة خاصة في وقت الشاي — مرتديًا فروته وشعره المستعار المذرور، وأثير من قبل أحدهم، فإنه كان يحاضر بصوته الحازم عن وقائع العصر الماضي، ويخلص منها إلى الحكم على العهد الحاضر بأحكام أشد حزمًا، الأمر الذي كان يوحي إلى كل المدعوين بشعور مماثل من الاحترام. وهذا النزل القديم بمراياه الهائلة، وأثاثه الذي يعود إلى ما قبل «الثورة»، وخدمة ذوي الشعر المستعار، وهذا الكهل من القرن الماضي الخشن، ولكن محتدم الفكر الذي تملِّقه ابنتُه الوادعة، و«فرنسيته» الجميلة. كل هذا كان يتيح للزائرين مشهدًا جذابًا في جلاله، لكن الزوار ما كانوا يفكرون قط في أن هناك اثنتين وعشرين ساعة من الحياة الخاصة المكتومة إلى جانب الساعتين اللتين يقضونهما في المنزل.

أصبحت تلك الحياة الخاصة في الآونة الأخيرة شديدة النصب على الأميرة ماري، ففي موسكو ما كانت في الحقيقة تنعم بالامتيازات الكثيرة والمسرات التي تتيحها المدينة الكبيرة، بعد أن حرمت من أفضل مباهجها التي تقوم على علاقاتها مع «رجال الله»، وجمع حواسها في الوحدة، وهي المتع التي كانت تزكي شجاعتها في ليسيا جوري. ما

كانت تختلط قط بالمجتمع. كانوا يعرفون أن أباها لا يسمح لها بالخروج وحيدة، وأنه بسبب سوء حالته الصحية لا يستطيع مرافقتها؛ لذلك سرعان ما كفوا عن دعوتها. وقد اضطرت إلى العزوف عن كل أمل في الزواج، بعد أن لاحظت البرود والعبوس اللذين كان أبوها يستقبل ويصرف بهما الشبان الذين يتوقع أن يطلبوا يدها، والذين كانوا أحيانًا يغامرون بدخول المنزل، كذلك لم يعد لها صديقات؛ لأن في موسكو نزعت منها ما كانت تتوهمه بصدد شخصين كانت تعتبرهما حتى ذلك الحين مثالًا للصداقة؛ فالآنسة بوريين التي لم تكن ماري تثق بها كل الثقة على أية حال، أصبحت الآن تثير نفورها، فراحت لأسباب معينة تُقصيها أكثر فأكثر، وجولي التي كانت تقطن في موسكو، والتي ظلت تتراسل معها طيلة خمسة أعوام، أصبحت الآن غريبة عنها تمامًا منذ أن تقابلتا كلتاهما مقابلة مباشرة؛ لأن جولي التي جعلها موت إخوتها تصبح من أغنى وارثات موسكو، استسلمت بكليتها لإعصار المناهج العصرية؛ كانت محاطة دائمًا بزمرة من الشبان الذين فتحوا عيونهم فجأةً على مختلف مواهبها كما كانت تظن. لقد كانت في تلك السن التي تشعر الأوانس الناضجات فيها أن الوقت قد حان ليجربن آخر سهم في جعبتهن، وأن مصيرهن يجب أن يُقرَّر الآن، أو تفوت الفرصة إلى الأبد. وفي كل يوم خميس من الأسبوع، كانت الأميرة ماري تتذكر بابتسامة كئيبة أنه لم يعد لديها الآن مَن تكتب إليه؛ لأن جولي — جولي هذه التي أصبح وجودها لا يسبِّب لها أي فرح — كانت هنا، وأنهما تلتقيان كل أسبوع. كذلك المهاجر العجوز الذي رفض الزواج بالسيدة التي أمضى كل أمسياته عندها طيلة سنوات كاملة؛ لذلك أصبحت ماري الآن تأسف أن تكون جولي قريبة منها، الأمر الذي بات يحرمها كل تسارِّ. مع من تستطيع الآن أن تتناجى؟ ومن تشاطره أحزانها التي طلب إليها أن تنجزها بتهيئة أبيه لتقبل زواجه؟ كانت أبعد من أن تنجز؛ لقد كان اسم الكونتيس روستوف وحده كفيلًا بأن يخرج الأمير العجوز عن طوره، وهو الذي كان على أية حال على مزاج قاتل بصورة مستمرة تقريبًا.

أضف إلى ذلك أن الدروس التي كانت تلقنها لابن أخيها، الذي بلغ السادسة من عمره، أخذت هي الأخرى تسبِّب لها همًّا جديدًا. أخذت تلاحظ بهَولٍ أنها باتت سريعة الغضب على غرار أبيها، وكلما كانت تُمسك بالحكك والألفبائية الفرنسية لتلقين ابن أخيها الدرس، كانت تقسم في سرِّها على أن لا تنفعل، خصوصًا وأن الطفل كان يخاف سلفًا أن يُغضب عمته، لكنها في تعجُّلها المحموم في تعليم نيكولا وتلقينه كل ما تعرفه هي نفسها، كانت تثور لأتفه تغافُل من الطفل، فتفقد الصبر وترفع الصوت، وأحيانًا تجذبه

من ذراعه وتضعه في الركن، لكنها ما تكاد تنجز تلك العقوبة حتى تغرق في دموعها حزينة على خُبْثها. وحينئذٍ ينشج نيكولا بدوره لمجرد المحاكاة، ويترك الركن دون إذن، ويأتي إلى جوار عمته، فيزيح عن وجهها يديها المبللتين بالدموع ويُعزِّيها.

وأخيرًا، وهنا أشد أحزانها وطأة، كان الأمير العجوز يصبُّ عليها جام غضبه دائمًا. أصبحت قسوته المألوفة لونًا من الوحشية، فلو أنه أرغمها على السجود كل الليل أمام الصور المقدسة، وأن تنقل الخشب والماء، فإنها ما كانت تجد ذلك عسيرًا عليها، لكن ذلك الجلاد المحبَّ أشدُّ الجلادين قسوة؛ لأنه يحبها ويؤلم نفسه بالمثل في تعذيبها. ما كان يكتفي بإغاظتها وإذلالها، بل راح يقنعها بأنها مخطئة دائمًا وفي كل شيء. ومنذ وقت ما، أخذ حادث جديد؛ وهو اهتمام أبيها المتزايد بالآنسة بوريين، يزيد في عذاب ماري وإيلامها. أعلن الأمير مازحًا، بعد أن اطلع على نوايا ولده، أنه سيتزوج بالآنسة بوريين، فبات الآن يتلذذ بذلك الاحتداد لمجرد إزعاج ماري وتجريحها، أو أن هذا — على الأقل — ما كانت تظنه وهي تراه يظهر نحوها مزيدًا من الانفعال لقاء المزيد من التودد الظريف إلى الفرنسية.

وذات يوم في موسكو، وبحضور ماري التي فهمت أن أباها إنما يتعمد ما فعل، قبَّل الأمير العجوز يد الآنسة بوريين وجذَبها إليه، ثم طوقها وراح يُمطرها بملقه. تضرَّج وجه ماري ونفرت إلى غرفتها، وبعد برهة وجيزة، جاءت الآنسة بوريين إليها مشرقة الأسارير، باسمة الوجه، وظنت أنها ستشغلها بثرثرتها المتدخلة. لكن ماري سارعت تمسح دموعها، ومشت إليها بخطوة حازمة، ودون أن تدرك ما تصنع، صاحت في وجهها وهي ترتجف من الغضب: «إنها بشاعة.» صاحت في وجهها: «إنها دناءة، إنها مخزية أن يُنتهز ضعف ...» لكنها لم تكمل جملتها، بل صاحت آمرة خلال دموعها: «اخرجي من هنا، اخرجي!»

وفي اليوم التالي، لم يحدِّثها الأمير بكلمة، لكنها لاحظت أنه أعطى الأمر على المائدة بأن تقدم الأطعمة إلى الآنسة بوريين قبل غيرها. وعند انتهاء الطعام، صبَّ خادم المائدة القهوة بادئًا بسيدته الشابة تماشيًا مع مألوف عادته، وعندئذ دخل الأمير غاضبًا وألقى بعكازه على رأس فيليب، وأعطى لساعته أمرًا بإدخاله في الجندية. صاح وهو في أعنف الغضب: «ألم تسمع؟ لقد قلت ذلك مرتين! آه! إنك لم تسمع؟ إن الآنسة هنا تأتي في المقام الأول. إنها خير صديقة لي.»

وأضاف يخاطب ابنته التي وجَّه إليها الحديث لأول مرة منذ الأمس: «أما أنت، إذا سمحت لنفسك مرة أخرى أن تفقدي اتِّزانك أمامها؛ فسأُريك من هو السيد هنا. اخرجي من هنا، واعملي على ألَّا أراك بعد الآن. واسأليها الصفح!»

قدمت ماري اعتذارها للآنسة بوريين ولأبيها، ثم حصلت منه على صفحه عن الخادم فيليب، الذي توسَّل إليها أن تتوسط من أجله.

ففي حالات كهذه، كانت ماري تشعر بإحساس يعتلج في نفسها يمكن تسميته بكبرياء التضحية. ذلك الأب الذي سمحت لنفسها بذمِّه، كان يبحث الآن عن نظارتيه مستعينًا باللمس دون أن يراهما إلى جانبه، وينسى ما وقع منذ لحظة قصيرة، ويخطو خطوة متعثرة ثم يستفسر بنظرة قلقة عما إذا كانوا قد لاحظوا بوادر ضعفه، بل وأكثر من ذلك — وهو الأكثر سوءًا — لقد كان يغفو فجأة على المائدة، عندما لا يكون هناك مدعوون يثيرونه ويحثونه، أو يسقط منشفته ويحني فوق المائدة رأسه المرتج. وعندئذ تقول ماري لنفسها: «إنه عجوز وضعيف. مع ذلك، أجد القحة لذمِّه!» فتروعها هذه الفكرة وتخيفها.

الفصل الثالث

أصفياء الأمير

في عام ١٨١٠، كان الطبيب العصري في موسكو فرنسيًّا اسمه الدكتور ميتيفيه، كان ذا قامة هائلة ودودًا ككل مواطنيه، وبارعًا براعة خارقة إذا آمن المرء بأقوال الناس، يُستقبل من قبل العظماء وفي المجتمع الراقي استقبالَ الند أكثر مما يحتفون به كطبيب.

بناء على توصيات الآنسة بوريين، وافق الأمير نيكولا آندريئيفيتش الذي كان يسخر عادة من الطب، على أن ينهل من معلومات هذا الشخص، فألِفَه لدرجة أنه بات يستقبله مرتين كل أسبوع.

في عيد القديس نيكولا، جاءت موسكو بأسرها إلى باب الأمير لزيارته، لكنه ما كان يريد استقبال أحد باستثناء بعض خلصائه الذين أعطى ابنته قائمة بأسمائهم، مع أمر يقضي بأن تستبقيهم لتناول الطعام.

ظن ميتيفيه، الذي جاء في الصباح يقدم تهانيه، أن من المناسب أن «يخرق الأمر» بوصفه طبيبًا، كما قال للأميرة ماري. وكأنه كان أمرًا متعمدًا، كان الأمير في يوم من أسوأ أيامه، دأبه الذهاب والمجيء في النزل، موبخًا كل الأشخاص، متصنعًا عدم فهم ما يقال له وعدم فهم الآخرين ما يقول، وكانت ماري أدرى الناس بذلك المزاج المتبرم المشاكس الذي ينتهي عادة بانفجار غاضب؛ لذلك فقد شعرت طيلة ذلك الصباح وكأنها أمام بندقية محشوة مرفوعة الزناد، تنتظر الضربة التي لا مفرَّ منها. مع ذلك، فإن أي انفجار لم يحدث قبل وصول الطبيب. وبعد أن أدخلته، ذهبت تجلس في البهو قرب الباب حاملةً كتابًا في يدها، تستطيع من مكانها أن تسمع كل ما يحدث في المكتب.

لم تسمع بادئ الأمر إلا صوت ميتيفيه، ثم صوت أبيها، ثم الصوتين يتكلمان معًا، وعندئذ فُتح الباب على مصراعيه وظهر جسم الطبيب الضخم بناصيته السوداء مروع الأسارير، ثم الأمير وعلى رأسه قلنسوة من القطن، مرتديًا ثوبًا منزليًّا، وقد شوَّه الغضب

وجهه، وجحظت عيناه خارج محجريهما، كان يزمجر: «ألا تفهم؟ لكنني أنا أفهم جيدًا. جاسوس فرنسي، خادم بونابرت! اخرج من هنا يا جاسوس، اخرج من هنا أقول لك!» ثم صفق الباب وراءه.

هزَّ ميتيفيه كتفيه واقترب من الآنسة بوريين التي استنفرتها الصيحات وأتت بها إلى هناك من الغرفة المجاورة. قال لها وهو يشير إليها أن تصمت: «إن الأمير في حالة غير جيدة. إنها الصفراء والانتقال إلى المخ. هدِّئي من روعك.» ثم أسرع خارجًا.

وفي تلك الأثناء، كانت تسمع من وراء الباب أصوات خطوات في خفين مصحوبة بهتافات: «جواسيس! خونة! خونة في كل مكان! لا وسيلة لهدوء المرء في منزله!»

استدعى الأمير ابنته بعد رحيل ميتيفيه، وصبَّ جام غضبه كله عليها. أخذ عليها سماحها لجاسوس بالدخول عليه. مع ذلك، فقد أوعز إليها، إليها شخصيًّا، بأن تغلق الباب في وجه كل من لم يُسجِّل اسمه في القائمة. لمَ إذن أدخلت ذلك الحقير؟ لقد كانت هي سبب كل شيء. ما كان يستطيع إيجاد لحظة راحة معها، ما كان يستطيع أن يموت بهدوء. أعلن وهو يتجه نحو الباب: «نعم يا عزيزتي، يجب أن نفترق. اعلمي ذلك، نعم، اعلمي ذلك. إنني في أقصى درجات الإنهاك.»

وخشي بلا شك ألا تعتبر الأمر جديًّا، فعاد أدراجه وأضاف وهو يجهد في تمالك هدوئه: «لا تظني أنني أقول لك هذا في فترة غضب، إنني هادئ كل الهدوء. لقد فكرت طويلًا واتخذت قراري لنفترق. ابحثي لك عن مأوى!»

لم يتمالك نفسه أكثر من ذلك، فرفع قبضتيه باتجاه ابنته بحركة غاضبة قد لا تتوفر إلا في الرجل الذي يحب في أعماق نفسه، وصاح وهو نفسه فريسة ألم عميق: «لو أن بعض الحمقى يتزوجها فيريحني منها!»

ثم صفق الباب واختلى مع الآنسة بوريين في مكتبه؛ حيث عاد تدريجيًّا إلى هدوئه.

وفي الساعة الثانية، وصل الأشخاص الذين دعاهم إلى مائدته وهم ستة.

كانوا الكونت روستوبتشين الشهير، والأمير لوبوخين، وابن أخيه الجنرال تشاتروف، وهو صديق سلاح قديم للأمير، وبيير بيزوخوف، وبوريس دروبيتسكوي، ممثلين عن الشباب، وكانوا جميعًا ينتظرونه في البهو.

وكان بوريس خلال عطلته في موسكو قد نجح في تقديم نفسه مؤخرًا للأمير نيكولا آندريئيفيتش، وحصل على رضاه بحذاقة، حتى إن هذا استثناه فدعاه خلافًا لعادته باستبعاد الشباب غير المتزوجين.

لم يكن بيت الأمير يدخل في عداد ما يسمونه «بالمجتمع العصري» تمامًا؛ إذ لم يكن أحد يتحدث عن هذه الدائرة الصغيرة. مع ذلك، فإن ما من شيء كان أكثر فتنةً من أن يُقبَل المرء فيه. وقد فهم بوريس هذه الحقيقة تمام الفهم عندما سمع الكونت روستوبتشين منذ ثمانية أيام مضت يرفض دعوة الجنرال — الحاكم — بمناسبة عيد القديس نيكولا، بالعبارة التالية: «إنني في مثل هذا اليوم أذهب دائمًا لتكريم بقايا الأمير آندريئيفيتش.»

فأجابه الجنرال: «آه! نعم، هذا صحيح وكيف حاله؟»

كان المدعوون المجتمعون قبل الغداء في البهو الأعلى على الطريقة القديمة، ذي الأثاث الأثري، يذكِّرون الناظر بمقام محكمة جليلة. كان الجميع صامتين، وإذا خرق بعضهم حجاب الصمت فإنما كان يتحدث بصوت منخفض. ظهر الأمير نيكولا آندريئيفيتش رزينًا رصينًا، وبدت الأميرة ماري أكثر خجلًا، وأكثر شرودًا من عادتها. ولم يكن المدعوون ليوجهون إليها الحديث؛ لأنهم كانوا يعرفون أنها ليست على مستوى ما يتحدثون به. كان الكونت روستوبتشين يُمسك وحده بدفة الحديث شابكًا الثرثرات المحلية بالأخبار السياسية الأخيرة. أما لوبوخين والجنرال العجوز فكانا يُدليان بعبارة بين حين وآخر.

كان الأمير نيكولا آندريئيفيتش يصغي كما يصغي الحاكم الأعلى لتقرير ما، دون أن يظهر استيعابه لما يعرض عليه إلا بصمته، أو بتفوهه ببضع كلمات مقتضبة. كانت لهجة المحادثة توحي بسخط وتبرُّم عامَّين. كانوا يستشهدون ببعض الوقائع الخاصة ولا شك بتأييد النظرية القائلة أن كل شيء يسير من سيئ إلى أسوأ، ولكن — وهذا ما يدهش ويذهل — كان المتحدث يتوقف أو يجد نفسه متوقفًا عند الحد الذي إذا تجاوزه دخلت شخصية الإمبراطور في مجرى البحث.

دار الحديث خلال الطعام حول الحادثة التي كانت حديث اليوم، وهي احتلال نابليون لدوقية أولدنبورج[١] الكبيرة، والمذكرة العدائية للإمبراطور، التي طوفتها الحكومة الروسية في تلك المناسبة على كل بلاطات أوروبا.

---

[١] مقاطعة في ألمانيا تتبع الرايخ، مقسمة إلى ثلاثة أقسام، القسم الرئيسي في وسط هانوفر، عاصمته أولدنبورج، والثاني لوبيك إلى الشرق من هولستن على البلطيق، وعاصمته أوتن، والثالث بيركانفليد، وعاصمته بنفس الاسم. كانت حتى عام ١٩١٩ غراندوقية، ثم أصبحت جمهورية. إن سكان أولدنبورج العاصمة وحدها ٣٢٠٠٠ ألف نسمة.

قال الكونت روستوبتشين الذي كان منذ بعض الوقت ينقل جملته تلك في كل مكان: «إن بونابرت يعامل أوروبا كما يعامل القرصان سفينة كسبها. إن ما يذهل هو طول الأناة والتعامِي من جانب رؤساء الدول. ها إن الباب مهدد: يزعم بونابرت الذي لم يعد يرتبك بشيء أنه خلع رئيس الكثلكة عن كرسيه. مع ذلك، فإن كل الناس صامتون! إن الإمبراطور وحده احتج على اغتصاب دوقية أولدنبورج الكبرى. وهذا أيضًا …»

ما كان روستوبتشين ليوغل في الحديث أكثر من ذلك. لقد بلغ الحد الأقصى الذي لا يجوز تخطِّيه.

وقال الأمير العجوز: «لقد عرضوا على الغراندوق أملاكًا أخرى لقاء أولدنبورج. إنه يتصرف مع الدوقات كما أتصرف مع فلاحيَّ حينما أنقلهم من ليسيا جوري إلى بورتشارفو أو إلى أملاكي في ريازان.»

سمح بوريس لنفسه أن يقول بالفرنسية بلهجة محترمة: «إن الدوق أولدنبورج يحتمل مصابه بقوة شخصية وامتثال يستحقان الإعجاب.»

وفي الواقع أنه تشرف بتقديمه إلى الدوق خلال سفره من بيترسبورج إلى موسكو. نظر إليه نيكولا آندريئيفيتش وكأنه يريد الإجابة عليه، لكنه أمسك وقد قدَّر ولا شك أنه لا زال يافعًا.

قال روستوبتشين بلهجة منطلقة شأن الرجل الذي يحيط تمامًا بالمسألة التي يتحدث عنها: «لقد قرأت اعتراضنا بصدد هذه القضية، وإنني أرثي للترجمة الهزيلة التي سطرت بها المذكرة.»

أمعن بيير النظر فيه بدهشة ساذجة: «بأي شيء يمكن أن تقلق الترجمة الهزيلة نفس الكونت؟» قال: «ما أهمية الأسلوب يا كونت إذا كان الأساس حازمًا؟»

فقال روستوبتشين بالفرنسية: «يا عزيزي، إنه من السهل أن يكون لنا أسلوب جميل بالخمسمائة ألف رجل الذين يشكلون جيشنا.»

وحينئذٍ فقط، فهم بيير لماذا كانت تلك الترجمة تثقل على الكونت. قال الأمير العجوز: «يُخيل إليَّ مع ذلك أن الكتبة متوفرون. إنهم لا يعملون شيئًا في بيترسبورج أكثر من الكتابة. ليس كتابة المذكرات فحسب، بل والمجلدات كذلك والقوانين الجديدة. إن «آندريوشاي» — يقصد ابنه آندريه — ألَّف منها مجلدًا كاملًا.»

وكرر وهو يضحك ضحكة مغتصبة: «نعم، إنهم الآن لا همَّ لهم إلا الكتابة.»

أعقب ذلك فترات صمت، ثم اجتذب الجنرال العجوز الأنظار إليه بسعال خفيف: «هل اطلعتم على الحادث الأخير الذي وقع في بيترسبورج خلال الاستعراض الأخير؟ لقد أظهر سفير فرنسا الجديد نفسه على شكل بديع!»

– «موضوع المسألة على الضبط؟ لقد حدثوني عنها بإبهام. يقال إنه ارتكب هفوة في حضرة جلالته.»

– «بينما كان جلالته يلفت انتباهه إلى فيلق قاذفي القنابل الذي كان يمر في العرض بخطوات الاحتفالات، ظل السفير على ما يبدو جامدًا تمامًا حيال هذا المشهد، بل وسمح لنفسه كذلك بأن يقول إنهم في فرنسا لا يهتمون بهذه التفاهات، فلم يعقب الإمبراطور بشيء، لكنه في الاستعراض التالي أمسك عن توجيه الحديث إليه.»

عم السكون، بما أن الأمر يتعلق بالإمبراطور، فإنه لم يكن ممكنًا أن يعلق أحد بحكم عليه، وأخيرًا صخب الأمير العجوز: «إنهم سفهاء وقحون! هل تعرفون ميتيفيه؟ لقد طردته من منزلي هذا الصباح.»

ثم أضاف وهو يلقي نظرة غاضبة إلى ابنته: «لقد سمحوا له بالدخول رغم أنني أعطيت الأمر بألا يُستقبل أحد.»

روى كل ما دار بينه وبين ميتيفيه، وبيَّن الأسباب التي من أجلها يرى فيه أنه جاسوس، وعلى الرغم من أن حججه لم تكن على جانب كبير من الإقناع؛ فإن ما من أحد أبدى اعتراضًا.

قُدمت الشامبانيا بعد الشواء ونهض المدعوون لتهنئة الأمير، فاقتربت ماري كذلك. ألقى عليها الأمير نظرة باردة زوراء ومدَّ لها خدَّه المغضن الحليق. كانت أساريره تنطق بأنه لم ينس محاورتهما الصباحية، وأن قراره لا زال لا يقبل الإلغاء، لكنه إذا كان لم يتحدث في الموضوع قط، فما ذلك إلا على سبيل المجاملة في حضرة ضيوفه.

وعندما انتقل المدعوون إلى البهو لتناول القهوة عقد الشيوخ حلقة، احتد الأمير فيها قليلًا واندفع في ملاحظاته عن الحرب المتوقعة.

كانت حملاتنا ضد بونابرت لا يمكن إلا أن تكون فاشلة — على زعمه — طالما كنا نبحث عن الاتحاد مع الخارج، ونشرك أنفسنا في مشاكل أوروبا، وهي السياسة التي جرَّتْ علينا معاهدة الصلح في تيلسيت. ما كان يجب علينا أن نحارب لا مع النمسا ولا ضدها، لقد كانت مصالحنا كلها مركزة في الشرق، وإن موقفنا الوحيد المحتمل حيال بونابرت كان في تسليح حدودنا ودعمها وإظهار حزمنا. بهذه الطريقة ما كان يجرؤ أبدًا على الدخول في أراضينا كما سمح لنفسه بذلك عام ١٨٠٧.

حينئذ قال الكونت روستوبتشين: «وكيف يا أميري نحارب الفرنسيين؟ هل نستطيع حقًّا أن نثور على أسيادنا وآلهتنا؟ انظر إلى شبيبتنا، انظر إلى نسائنا. إن آلهتنا هم الفرنسيون، وجنتنا هي باريس.»

رفع صوته قاصدًا ولا شك أن يبلغ قوله كل المسامع: «الأزياء فرنسية، والأفكار فرنسية، والعواطف فرنسية، كل شيء فرنسي! لقد طردتُ منذ حين ميتيفيه؛ لأنه فرنسي، ولأنه حقير، لكن سيداتنا يفكرون على غير هذا النحو؛ إنهن يتهافتن على ركبتيه: كنتُ البارحة في سهرة، وكان ثلاث من السيدات الخمسة الموجودات في السهرة كاثوليكيات يطرزن في يوم الأحد بإذن خاص من البابا. أضف إلى ذلك أنهن عاريات تمامًا تقريبًا، ويصلحن — حاشا احترامكم — إعلانًا لحماقات عامة. آه يا أميري! إنني عندما أرى شبيبتنا تستبد بي رغبة انتزاع هراوة بطرس الأكبر من المتحف، وتحطيم أضلاعهم جميعًا بها على الطريقة الروسية القديمة. كان ذلك سيشفيهم من جنونهم.»

لم يجبه أحد. كان الأمير ينظر إلى روستوبتشين باسمًا ويؤيده بهزِّ رأسه.

أردف روستوبتشين وهو ينهض ويمد يده إلى العجوز بخشونة طبائعه المألوفة التي كان يمتاز بها: «هيا، وداعًا يا أميري، حافِظْ على صحتك.»

فقال الأمير وهو يستبقي يد روستوبتشين بين يديه: «الوداع يا عزيزي الأعز، إنني لا أتعب من سماع أغنياتك.»

ثم مد له خده ليقبله.

وحذا كل المدعوين حذو روستوبتشين، فانصرفوا جميعًا.

الفصل الرابع

حيرة ماري

أصاخت ماري السمع إلى ثرثرة الكهول دون أن تفقه منها كلمة واحدة. كان شيء واحد يشغل بالها، وهو أن المدعوين لم يلاحظوا الموجدة التي كان أبوها يُظهرها حِيَالها، بل إنها لم تنتبه قط إلى العناية التي أحاطها دروبيتسكوي بها خلال فترة الطعام، وهو الذي كان يزورهم للمرة الثالثة.

نظرت بإبهام إلى بيير نظرة استفهام، وكان هذا يحمل قبعته في يده والابتسامة على شفتيه. اقترب منها بعد أن انسحب الأمير وظلا وحيدين في البهو، وقال وهو يهوي بكل ثقله على أريكة هناك: «هل يستطاع البقاء فترة أخرى؟»

أجابت: «ولكن بلى.» بينما كانت نظرتها تقول: «ألم تلاحظ شيئًا؟»

وكعادته بعد كل طعام جيد، أحس بيير أن مزاجه على خير ما يرام. أخذ يبتسم وهو شارد البصر ثم سأل: «هل مضى على معرفتك لهذا الشاب وقت طويل يا أميرة؟»

– «أي شاب؟»

– «دروبيتسكوي.»

– «كلا، إنني أعرفه منذ حين.»

– «وهل يروق لكِ؟»

قالت وهي مشغولة البال دائمًا بالحوار الذي دار بينها وبين أبيها صباح ذلك اليوم: «نعم، إنه فتى جذاب. ولكن لمَ هذا السؤال؟»

– «لأنني لاحظت شيئًا: لقد جرت العادة على أن الفتى إذا جاء في عطلة من بيترسبورج إلى موسكو، فما ذلك إلا بنية الزواج بوارثة غنية.»

– «حقًّا؟»

استرسل بيير باسمًا: «نعم، وهذا الفتى لا يرود إلا الأمكنة التي ينتظر أن يجد فيها فتيات من هذا النوع. إنني أقرأ أفكاره كما أقرأ في كتاب. إنه الآن لا يعرف بمن يبدأ هجومه، متردد بينك وبين الآنسة جولي كاراجين. إنه شديد الدأب على زيارتها.»

– «هل يرتاد هذا البيت؟»

فقال آندريه بوداعة مستسلمًا لطبعه الساخر في دماثة الذي يأخذه على نفسه في أكثر الأحيان في مذكراته: «لكن بلى، وهل تعرفين الطريقة الجديدة المتبعة في مغازلة الفتيات؟»

قالت ماري: «كلا.»

– «لكي يروق المرء في عيون فتيات موسكو، يجب أن يكون الآن سوداويًّا، وهو سوداوي مع الآنسة كاراجين.»

قالت ماري: «حقًّا.»

وراحت تتأمل وجه بيير الطيب وهي مستغرقة في حزنها، فكرت: «إنه لمَّا يُروِّح عن نفسي أن أستطيع الركون إلى أحد، وإنني بالتأكيد أميل إلى أن أصارح بيير بكل شيء. سيعرف هذا القلب النبيل كيف يمدُّني بالنصح. نعم، إن ذلك يحسن إليَّ.»

سأل بيير: «هل تقبلين الزواج به؟»

هتفت ماري بالرغم عنها تقريبًا، وبصوت تنديه الدموع: «ربَّاه يا كونت، هناك أوقات أراني فيها على استعداد للاقتران بأيٍّ كان. آه، يا له من عذاب أن تحب أحدًا يمتُّ إليك بصلة قريبة، وأن تشعر ... أنه لا يمكن أن تسبب له إلا الحزن!»

استرسلت تقول بصوت مرتعد: «كم هي تعاسة مستعصية العلاج! في مثل هذه الحالات، ليس على المرء إلا أن يذهب، ولكن أنا، إلى أين أمضي؟»

– «ماذا تقولين هنا يا أميرة؟»

انخرطت ماري في البكاء دون أن تتابع حديثها، استأنفت: «لست أدري ما بي اليوم، لا تلق بالًا إلى قولي، انسَ ما قلته لك.»

تبخر سرور بيير، راح يلح على الأميرة بمحبة أن تبوح له بأتراحها، لكنها توسلت إليه من جديد أن ينسى ما قالته. إنها ما عادت تذكر هي نفسها ما كانت تريد قوله، وليس في نفسها من المتاعب إلا ما يعرفه من قبلُ: ألا يهدد زواج آندريه بتعكير الصفو بين الأب والابن؟

سألت لتدير دفة الحديث: «هل لديك أخبار عن آل روستوف؟ لقد بلغني أنهم سينزلون موسكو قريبًا، ثم إنني أنتظر عودة آندريه بين يوم وآخر، كم أود من صميم قلبي أن يُرى بعضهم هنا.»

سأل آندريه مشيرًا إلى الأمير العجوز بصيغة الغائب: «وكيف ينظر إلى الأمر الآن؟»

هزت ماري رأسها.

– «ماذا يمكننا أن نصنع؟ لم تبق إلا أشهر قليلة على انتهاء المهلة المحدودة، مع ذلك لا أتفاءل بوقوع شيء جيد. كل ما أرغب فيه هو أن أخفِّف عن أخي اللحظات الأولى لعودته. وددتُ لو رأيتهم يصلون قبل ذلك. آمل أن أنسجم معها. أنت الذي تعرفهم منذ زمن بعيد، قل لي بكل إخلاص الحقيقة الصحيحة: أية فتاة هي؟ وكيف تجدها؟ ولكن قل لي كل الحقيقة؛ لأنك تعرف أن آندريه يتعرض للشيء الكثير بزواجه بها ضد مشيئة أبيه؛ ولذلك أريد أن أعرف ...»

نبهت حاسة غامضة بيير أن وراء تلك الدورات في الكلام، وتلك التنويهات المتكررة بأن يقول لها «كل الحقيقة»، تخفي تدبيرًا سيئ القصد تعدُّه الأميرة ماري ضد زوجة أخيها المقبلة، وأنها تتمنى ولا شك أن يسفِّه بيير انتقاء آندريه، لكن بيير عبَّر عما يشعر به أكثر مما يفكِّر فيه، قال وقد تضرج وجهه دون أن يدرك السبب: «لست أدري بما أجيبك على سؤالك، إنني لا أعرف أبدًا أية فتاة هي، لا أقدر على تحليل عقليتها. إنها بلا شك فاتنة جدًّا، ولكن لماذا؟ لست أدري. هذا كل ما أستطيع أن أقوله عنها.»

أطلقت ماري زفرة، كانت أمارات وجهها تنطق بوضوح: «هذا ما كنت أتوقعه تمامًا، ما كنت أخشاه.» سألت: «أهي ذكية؟»

فكر بيير هنيهة: «لا أظن! مع ذلك، نعم، على كل حال إنها لا تفكر في أن تكون حاذقة ذكية إلا قليلًا. أن تكون فاتنة ساحرة.»

هزت ماري رأسها من جديد.

– «آه! كم أود أن أحبها حبًّا جمًّا! قل ذلك لها إذا رأيتها قبلي.»

– «قيل لي إنهم سيصلون خلال الأيام القريبة القادمة.»

شرحت ماري نياتها لبيير: إنها تتوقع أن تتحد مع زوجة أخيها المقبلة لتتصرفا معًا بشكل يجعل الأمير العجوز يألف هذا الوجه الجديد.

الفصل الخامس

خطوبة بوريس

لم يستطع بوريس أن يعقد صفقة زواج مربحة في بيترسبورج، فجاء يجرب حظه في موسكو، كان مترددًا بين أغنى جانبين في هذه المدينة: جولي كاراجين والأميرة ماري، وعلى الرغم من قلة جمالها، فإن ماري كانت تجتذبه أكثر من الأخرى، لكنه كان يشعر بلون من الارتباك في مغازلتها، خلال مقابلتها الأخيرة يوم عيد الأمير العجوز، أضفى عبثًا على أحاديثه صبغة عاطفية، لكن محاولاته كلها أخفقت أمام أجوبة ماري المساهمة التي كان ذهنها متجهًا دون شك وجهة أخرى. أما جولي فعلى العكس، لقد تقبلت تكريمه بأسلوب شاذ حقًّا، ولكن مألوف لديها وحدها.

كانت جولي في السابعة والعشرين أصبحت واسعة الغنى بموت أخويها، وفقدت كذلك كل جمالها، لكنها ما كانت ترى ذلك قط، بل تظن أنها أكثر فتنة من ذي قبل. كانت ثروتها تقيمها في ذلك الخطأ، وكذلك واقع كونها كلما تقدَّمت بها السن ضعف خطرها على الرجال الذين كانوا استنادًا إلى ذلك ينعمون بحريات أوسع معها، وينتفعون بولائمها وسهراتها، ويختلطون بالبيئة اللطيفة التي تشكَّلت حولها دون أن يرتبط أحد منهم بوعد معها، فذلك الذي منذ عشر سنوات مضت كان يخشى التردد بانتظام على بيت تقطنه فتاة في السابعة عشرة من عمرها؛ خشية تعريض سمعتها للخطر والسقوط بالتالي في الشرَك، أصبح اليوم يقوم بزيارات يومية لها، ويتصرف معها تصرفه حيال صديقة لطيفة لا أثر للجنس في علاقتهما، بعيدًا عن المعاملة التي تقتضيها ظروف فتاة في سن الزواج.

كان نزل آل كاراجين ذلك الشتاء أبهج وأكثر ترحيبًا من كل نزل في موسكو، فإلى جانب السهرات والولائم الخاصة، كانت صحبة عديدة يغلب فيها الرجال تجتمع فيه كل يوم، فيتناول المجتمعون طعام العشاء حوالي منتصف الليل ليتفرقوا بعد ذلك في

الثالثة صباحًا. ما كانت جولي تفعل حفلة راقصة أو نزهة أو عرضًا إلا وتحضره، وكانت تظهر أبدًا في ملابس على أحدث طراز. مع ذلك، فقد كانت تتظاهر باللامبالاة وتقول لكل قادم إنها لم تعد تؤمن بالصداقة أو بالحب، ولا بأية بهجة من مباهج الحياة. إنها لا تتوقع أن تكون هادئة إلا هناك. تبنت لهجة الفتاة التي أصيبت بصدمة عنيفة، أو أضاعت أعز مخلوق لديها، أو خدعت بقسوة وحشية. وعلى الرغم من أن شيئًا من هذا القبيل لم يقع بعدُ في حياتها، فإنهم كانوا يتظاهرون بتصديقها حتى انتهى بها الأمر شخصيًّا إلى الاعتقاد بأنها اجتازت محنًا كبيرة بالفعل، بيد أن ذلك الطبع الضجر ما كان يمنعها قط من البحث عن التسلية، كما لم يكن يمنع الشبان الذين يترددون عليها من قضاء وقت جميل عندها، فبعد أن يقدم كل مدعو نصيبه لسويداء مضيفته، ينصرف بكليته إلى الأحاديث الاجتماعية والرقص، والألعاب الفكرية، والمساجلات والقوافي، التي كانت شائعة جدًّا في ذلك البيت، لكن فئة قليلة من أولئك الشبان، ومن بينهم بوريس، كانوا يشاطرون جولي حظًّا وافيًا من طبيعتها القاتمة. كانت تدخل معهم في محاورات طويلة منعزلة حول بطلان مباهج هذا العالم، فتريهم مجموعاتها المليئة بالصور والأفكار والقصائد التي تنعكس منها أشد الأحزان وطأة.

كانت جولي تتظاهر بمودة خاصة حيال بوريس، كانت ترثي ليأسه الفتي، وتقدِّم له العزاء الذي لا يستطيع تقديمه إلا من تألَّم بشدة في الحياة، ولمَّا قدَّمت له مجموعتها، رسم فيها شجرتين كتب تحتهما: أيتها الأشجار الجافية، إن أغصانك القاتمة تساقط علي الظلمات والسويداء. وعلى صفحة أخرى رسم قبرًا، وكتب:

الموت نصير والموت هادئ.
آه! ليس من ملجأ آخر ضد الآلام.

وجدت جولي كل هذا لذيذًا، قالت له: «هناك شيء عميق السحر في ابتسامة السويداء، إنه إشعاع نور في الظل، نقطة وسط بين الألم واليأس تظهر العزاء الممكن.»

وكانت قد اقتطفت تلك الكلمة المأثورة من كتاب، فأجابها بوريس بالأبيات التالية:

أيتها الغذاء المسموم لروح شديدة الحساسية،
أنت التي بدونك لا تصبح السعادة ممكنة.
أيتها السويداء الحانية، آه! تعالي لتعزيني،
تعالي هدئي آلام اعتكافي المظلم،

وامزجي حلاوة سرية
إلى هذه الدموع التي أشعر بانهمارها.

كانت جولي تعزف لبوريس على العود أكثر «الليليات» توجعًا، وكان بوريس يقرأ لجولي «ليز المسكينة» — وهي قصة عاطفية لكارامزين ظهرت عام ١٧٩٢ — فيغصُّ بالانفعال والتأثُّر، ويضطر إلى التوقُّف عن القراءة، وإذا وُجدا بين جماعة كبيرة العدد كانت نظراتهما تتحدث إلى بعضها بأنهما الوحيدان اللذان يفهم أحدهما الآخر، وأن روحيهما توءمين.

كانت آنا ميخائيلوفنا تزور آل كاراجين بكثرة، وتحاول وهي تتظاهر بولائها للأم أن تحصل على معلومات وثيقة عن بائنة جولي. كانت تلك البائنة تتألَّف من إقطاعيتين في مقاطعة بانزا، وغابات في مقاطعة نيجني-نوفجورود. كانت آنا ميخائيلوفنا تُراقب بحنوٍّ وهي مُفعمة النفس بالاستسلام لمشيئة القدرِ، الحزنَ الكاذب الذي يقوم مقام همزة الوصل بين ابنها وجولي الثرية.

كانت تقول للفتاة: «دائمًا فتَّانة وسويداوية جولي العزيزة هذه! إن بوريس يؤكد لي بأنه لا يجد راحة القلب إلا عندك.»

ثم تضيف مُخاطبةً أم جولي: «لقد لقي كثيرًا من الصدمات وهو ذو روح شديدة التأثر.»

– «آه يا صديقي! كم أصبحت متعلقة بجولي هذه الأيام الأخيرة! لا أستطيع التعبير عن تعلقي! ثم مَن ذا الذي لا يحبها؟ إنها مخلوقة سماوية حقًّا. آه بوريس، بوريس!»

ثم تتابع بعد سكتة قصيرة: «وكم أرثي لأمها؛ لقد أطلعتني مؤخرًا على رسائل وحسابات أرسلت من بانزا. إن لهم هناك إقطاعية كبيرة. إن المرأة المسكينة مضطرة إلى إنجاز كل هذه الأمور بنفسها، وهم يخدعونها خداعًا كبيرًا.»

كان بوريس يبتسم ابتسامات غير ملحوظة؛ لأن حيل أمه البسيطة كانت تثير في نفسه جذلًا لذيذًا، لكنه كان يصغي إليها، بل ويسألها أحيانًا بعض التفاصيل عن إقطاعيات بانزا ونيجني-نوفجورود.

كانت جولي تنتظر منذ أمد طويل أن يعلن سويداويها العاشق عن نفسه مقررةً ألا ترفض طلبه. لكن دافعًا غامضًا سببه التصنُّع عند الفتاة ورغبتها العنيفة في إيجاد زوج، إلى جانب الخوف من أن يضطر بعد الآن إلى التخلي عن كل حب حقيقي، كان يجعل بوريس يمسك عن القيام بالخطوة الأخيرة. كانت نهاية عطلته تقترب وهو لا يَنِي يمضي

أيامه كلها عند آل كاراجين، لكنه كان دائمًا يرجئ عزمه إلى الغد بعد تفكير عميق. كان بوريس كلما رأى وجه جولي الزاهي، وذقنها المدهونة أبدًا بطبقة من الذرور، وعينيها المبللتين، وأساريرها القادرة على إبدال قناع السوداوية بالحماس الاصطناعي كذلك، الذي لن يعدم مشهد السعادة الزوجية أن يبعثه فيها، يشعر بعجزه عن النطق بالكلمات الحاسمة، رغم أنه كان يرى نفسه بعين الخيال مالكًا منذ زمن طويل لإقطاعيات بانزا ونيجني-نوفجورود، التي كان يصرف — في خياله كذلك — الموارد التي تأتيه منها. وكانت جولي تلاحظ تردد بوريس، وتخشى أحيانًا أن تكون أبعد من أن تروق له، لكن زهوها النسوي الذي يُسارع لنجدتها في مثل تلك الحالات. كان يوهمها بأن الحب هو الذي يجعله خجلًا مترددًا، رغم كل ذلك كانت سويداؤها تبلغ بها مبلغ السخط. ولما كان رحيل بوريس قد بات قريبًا، فإنها اعتزمت أن تتصرف بحزم، ولكن في تلك الأثناء بالذات وصل آناتول كوراجين إلى موسكو، وجاء يتردد بالطبع على منزل آل كاراجين، فلم تلبث جولي أن أبدلت سويداءها ومزاجها القاتم ببشاشة مجنونة، وأعربت للقادم الجديد عن أقصى درجات حسن الالتفات.

قالت آنا ميخائيلوفنا لابنها: «يا عزيزي، إنني أعرف من مصدر موثوق أن الأمير بازيل ما أرسل ابنه إلى موسكو إلا ليُزوِّجه جولي، وإنني أحب جولي حبًّا جمًّا، وزواجها بآناتول يؤلمني كثيرًا، فما رأيك يا صديقي؟»

ارتعد بوريس خشية أن يصح اعتماده على موارده وحدها، وأن يكون الشهر الذي قضاه بالقرب من جولي يمثل دور السويداوي الجميل الشاق قد ضاع هباءً، وأن يزيد موارد الإقطاعيات العتيدة التي كم أحسن توزيعها في خياله والتصرف بها، تنتقل إلى أيدٍ أخرى، وخصوصًا أيدي ذلك السخيف آناتول. هرع إلى منزل آل كاراجين وفي نيته الإعلان عن رغبته دون تردد. استقبلته جولي بوجه باسمٍ، وروت له بلهجة جذلة مبلغ التسلية التي حصلت عليها في حفلة الأمس الراقصة، ثم سألته عن موعد رحيله. ولما كان بوريس عازمًا عزمًا أكيدًا على إعلان حبه لها، فقد قرر أن يكون عطوفًا رقيقًا، لكنه استسلم لانفعال معين، فراح يعيب على النساء تلوُّنهن، والسهولة التي يتنقلن بها من الحزن إلى الفرح. إن طباعهن — على حد قوله — تتوقف على طبيعة ذلك الذي يغازلهن.

ردت عليه جولي — وقد انكشف أمرها — أن كل ما يقوله صحيح، وأن النساء يحببن التقلب، وأن ما من شيء أشد ملالة من السويداء.

شرع بوريس يقول وهو ينوي وخز كرامتها: «في هذه الحالة لا أستطيع إلا أن أوصيك …»

لكنه في تلك اللحظة تمثَّل المشهد المهين الذي قد يصبح فيه إذا ما اضطر إلى مغادرة موسكو دون أن يبلغ غايته، وهو الذي لم يضيع قط من قبل لا جهوده ولا وقته.

لذلك توقف في منتصف جملته، وأطرق بعينيه ليتفادى الشعور الكريه الذي كان يثيره في نفسه وجه جولي النَّكِد المتردد. استأنف قائلًا: «إنني ما جئت لأتشاجر معك، بل على العكس ...»

واختلس نظرة نحو جولي ليرى ما إذا كان يجب عليه أن يسترسل، اختفى انفعال الفتاة فورًا وراحت تشخص إليه. «سوف أتدبر الأمر دائمًا بحيث أراها أقلَّ وقت ممكن. لقد شرعتُ في الأمر فيجب إنهاؤه.» احمرَّ وجهه ونظر في عينيها هذه المرة وقال لها: «إنك تعرفين عواطفي نحوك.»

ما كانت هناك حاجة ليقول أكثر من ذلك. كان سرور الظفر مشرقًا على وجه جولي، لكنها مع ذلك أرغمت بوريس على أن يقول كل ما يقال في مثل تلك المناسبات، بما في ذلك أنه يحبها، وأنه لم يشعر قط نحو امرأة من قبل بمثل الشغف الذي يحسُّه نحوها. لقد كانت إقطاعيات بانزا ونيجني تسمح لجولي أن تتطلب هذا القول على أقل تقدير، كانت تعرف ذلك، وها هي ذي قد بلغت ما كانت تريد.

ودون أن يعاود المخطوبة التفكير في «الأشجار التي تساقط عليهما الظلمات والسويداء»، شرعا يضعان المخططات لإقامة نُزُل فخم في بيترسبورج، وراحا يبادلان معارفهما الزيارات، وانصرفا إلى الاستعدادات اللازمة لعُرسهما اللامع.

الفصل السادس

ماري دميتربيفنا آخروسيموف

وصل الكونت إيليا آندريئيفيتش إلى موسكو تصحبه ناتاشا وسونيا في أواخر كانون الثاني، بعد أن حال رجوع الأمير آندريه المرتقب دون انتظار إبلاغ الكونتيس؛ إذ كان يجب شراء الجهاز وبيع الحقل الذي في الضواحي، وانتهاز فرصة وجود الأمير العجوز لتقديم كنته المقبلة إليه. ولما كان نزل آل روستوف غير مدفئ، وكانت إقامتهما قصيرة في موسكو؛ لأن الكونتيس لم تكن معهم، فقد قرر إيليا آندريئيفيتش قبول ضيافة ماري دميتربيفنا آخروسيموف التي كانت منذ أمد طويل تُعرب عن استعدادها لإضافته.

دخلت العربات الأربع ساحة المنزل الذي تشغله ماري دميتربيفنا في شارع فيتي إيكوري (الإسطبلات القديمة) في ساعة متأخرة من الليل. وكانت هذه السيدة التي زوَّجت ابنتها ودخل أبناؤها الأربعة في خدمات حكومية مختلفة؛ تعيش بمفردها فيه.

كانت دائمًا منتصبة القامة تقول لكل الناس رأيها بلهجة حازمة حاسمة دائمًا، وتبدو أشبه باحتجاج حي على الضعف والأهواء ومباذل بني الإنسان الآخرين، الأمر الذي ما كانت تقرُّه من جانبها. كانت تنهض مبكرة فترتدي عباءتها، وتقوم بأعباء بيتها، ثم تنجز مهامها الخارجية. وفي كل يوم أحد، تذهب إلى الكنيسة بادئ الأمر، ثم تزور مختلف السجون؛ حيث كانت لها أعمال لم تُطلع إنسانًا عليها قط. أما بقية أيام الأسبوع، فكانت بعد أن تصلح زينتها تستقبل مراجعين عديدين بعروض مختلفة كانوا يحاصرون ردهتها دائمًا. ويعقب ذلك طعام الغداء — وهو دائمًا طعام فاخر دسم — فتتناوله عادة مع ثلاثة أو أربعة من المدعوين، فإذا ما فرغوا منه انتظموا حول مائدة لعب الورق.

وفي السهرة، كانت تكلِّف بعضهم بقراءة الصحف والكتب الحديثة على مسامعها، بينما تنشغل هي في أشغال الإبرة. ما كانت تخرج من بيتها أبدًا، وإذا خرقت هذه القاعدة فعلى شرف أكثر الشخصيات سُمُوًّا ورفعة.

لم تكن قد أوت إلى فراشها بعدُ حينما أعلن لها صوت باب المدخل الذي كان ثقله المعدل يصرف تحت دفع آل روستوف وخدمهم، وصول الضيوف. ذهبت تنتصب على عتبة البهو الكبير ورأسها مائل إلى الوراء، ونظارتاها فوق أنفها، فكانت النظرة الغاضبة التي شرعت تتأمل القادمين بها تنبئ بأنها ساخطة لوجودهم هناك، تكاد أن تطردهم، لكنها على العكس أخذت تعطي الأوامر لإحلال المسافرين وأمتعتهم في الأمكنة المناسبة، قالت وهي تشير إلى الحقائب دون أن تلقي السلام على أحد: «هل هذه للكونت؟ من هنا، وهذه للأوانس؟ هنا، إلى اليسار.» ثم صرخت بالخادمات: «وأنتن، ماذا تصنعن هنا عاقدات أذرعكن؟ هيا، لتهيئن السماور!»

وهتفت وهي تمسك ناتاشا المقرورة من معطفها: «كم تطور جسمك! وكم ازددتِ جمالًا! بر...ر... يا للصقيع!»

ثم قالت للكونت وهو يهمُّ بتقبيل يديها: «ولكن انزع فروتك، لا شك أنك متجمد الأطراف!»

وأخيرًا قالت بالفرنسية مُعربةً عن ودِّها المطاوع قليلًا الذي تكنُّه للفتاة: «آه! مرحبًا يا سونيتي الصغيرة.»

ولما تخلص المسافرون من فرواتهم الثقيلة واستراحوا قليلًا من وعثاء السفر، جاءوا يحتسون الشاي، فقامت ماري دميترييفنا تُقبِّلهم كلًّا بدوره، قالت لهم: «إنني أبتهج من صميم قلبي لرؤيتكم في موسكو وفي منزلي.»

وأضافت بعد أن ألقت نظرة معبرة على ناتاشا: «لقد حان وقت مجيئكم فعلًا. إن العجوز هنا، وهم ينتظرون وصول ابنه بين لحظة وأخرى. يجب أن تتعرفوا عليه حتمًا.»

ثم أضافت وهي تنظر إلى سونيا نظرة معبرة تدل على أنها لا تريد طرق هذا الموضوع في حضورها: «بيير، إننا سنتحدث بذلك فيما بعد.»

استأنفت وهي تلتفت نحو الكونت: «والآن، أصغِ إلي قليلًا، مَن تريد لقاءه غدًا؟ من ستستدعي؟ شينشين؟ واحد. تلك المتباكية آنا ميخائيلوفنا؟ اثنان. إنها هنا مع ابنها. إنه يتزوج. الغلام! مَن أيضًا؟ بيزوخوف؟ إنه هو الآخر هنا مع زوجته؛ لقد فر منها، لكنها جاءت تطارده. لقد تغدى عندي يوم الأربعاء الفائت.»

واختتمت قولها مشيرة إلى الفتاتين: «أما هاتان فسأقودهما غدًا لتقدِّما نسكهما في «نوتردام ديبيري»، ثم تمر بعد ذلك عند السيدة أوبير–شالميه.[1] إنكما تريدان آخر الابتكارات ولا شك! على كل حال لا تقيسا عليَّ؛ إنهم الآن يلبسون أكمامًا فضفاضة هكذا. جاءت أمس الأميرة إيرين فاسيلييفنا الشابة لتراني، وفي كل ذراع برميلان. إنه شيء مخيف! على أية حال، إن الأزياء كل يوم في هذا الوقت ...»

ثم سألت الكونت بلهجة قاسية بعض الشيء: «وأنت شخصيًّا، أية أعمال أتت بك؟»

أجاب الكونت: «إن كل شيء حل دفعة واحدة. يجب شراء الخرق، ثم هناك مشترٍ لحقلي وللبيت في موسكو. إذا تفضلت بالموافقة، فسأنتهز الفرصة للذهاب إلى مارينسكواي لقضاء يوم فيها، وسأعهد إليك ببنتيَّ.»

قالت ماري دميترييفنا وهي تداعب بيدها الضخمة وَجْنة ناتاشا؛ «فليونتها» وصفيتها: «حسنًا، حسنًا جدًّا. سيكونان هنا في أمانٍ أفضل من وجودهما في مجلس الوصاية. سآخذهما إلى كل الأمكنة التي يجب أن ترتاداها، وسأزجرهما وأدللهما كذلك.»

وفي صبيحة اليوم التالي، قادت ماري دميترييفنا الفتاتين إلى نورتردام ديبيري، ثم إلى مخزن السيدة أوبير–شالميه، التي كانت تخافها كثيرًا جدًّا، وتقدم لها لوازمها دائمًا بخسارة في الأثمان لتتخلص منها بأسرع ما يمكن، وهناك أوصت ماري دميترييفنا على جانب كبير من الجهاز. وعندما عاد الجميع إلى البيت، استَبْقَتْ ناتاشا وحدها، وأجلستها على أريكة بجانبها بعد أن صرفت الآخرين.

– «هيا، ولنتحدث الآن قليلًا معًا. كل تهانئي: ها أنت ذي مخطوبة، ولقد حصلت على شاب طيب. إنني مبتهجة من أجلك، إنني أعرفه منذ أن كان بهذا القد — ومدت يدها على ارتفاع نصف متر من الأرض بينما كانت ناتاشا يستخفُّها الفرح — وإنني أحبه كثيرًا، وكذلك كل أسرته. أصغي لي جيدًا. إنك تعرفين أن الأمير نيكولا لا يرغب كثيرًا أن

[1] جاء في النص الفرنسي نقلًا عن كتاب «تاريخ المستوطنة الفرنسية في موسكو» الذي ظهر في باريز عام ١٩٠٨، لمؤلفه ف. تاستفان: إن مدام أوبير–شالميه كانت تدير متجرًا في شارع ده جازيت تبيع فيه الطيوب لتعطير الحجرات، ومعاطف من الفراء، وأقمشة التافتا المبطنة للرجال والسيدات، وقبعات من القش الناعم الأبيض ... إلخ. وفي عام ١٨١٢ طرأ على نابليون فكرة غريبة بسؤال تلك البائعة عن الأزياء، وعن النتائج الطيبة التي قد يتيحها مرسوم تحرير الغلا. وقد تبعت هذه السيدة انسحاب الجيش الكبير وماتت في فيلنا.

يتزوج ابنه. إنه من القدماء، عجوز عنيد. بالطبع إن الأمير آندريه ليس طفلًا، ولسوف يستغني عن موافقته! ولكن لا يليق الدخول إلى أسرة ضد رغبة الأب. من الأفضل معالجة هذا الأمر برفق وهدوء؛ إنك لست حمقاء، وستعرفين كيف تتصرفين لضمان شرَفكِ. قليل من الحذق والنعومة وسينتهي كل شيء على ما يرام.»

كانت ناتاشا صامتة لا بفعل الخجل كما كانت ماري دميترييفنا تعتقد، بل من السخط لرؤيتها بعضهم يتدخل في شئون غرامها بالأمير آندريه. لقد كان ذلك الحب أمرًا خاصًّا جدًّا عن كل ما يشغل الآخرين، حتى إن ما من أحد — على زعمها — يستطيع فهمه. إنها لا تحب ولم تعد تعرف إلا الأمير آندريه، وهو يحبها بالمثل، وسوف يقترن بها حال عودته التي أصبحت قريبة، فما كانت ترغب في أكثر من ذلك.

– «كما ترين، إنني أعرفه منذ مدة طويلة، وكذلك أخته ماري التي أحبها كثيرًا، يزعم المثل أن الكنائن والسلايف خشونة وحقد، لكن ماري لا تسيء إلى ذبابة. إنها ترغب أن تتحد معك، لقد قالت لي ذلك. غدًا ستذهبان إلى هناك — أبوك وأنت — فكوني بشوشة معها وابدئيها بالإكرام؛ فأنت الأصغر سنًّا. وعندما يصل خطيبك، تكونين أنت قد تعرفتِ على الأب والأخت، وستتبادلون المودة حتى ذلك الحين، ألن يكون هذا أفضل؟»

فأجابت ناتاشا مُكرَهة: «بلا شك.»

الفصل السابع

مقابلة الأمير العجوز

في ذلك الغد، عملًا بنصيحة ماري دميترييفنا، ذهب الكونت روستوف مع ناتاشا إلى منزل الأمير نيكولا آندريئيفيتش. لم تكن تلك الخطوة تروق له؛ لأنه كان في أعماق نفسه يخاف تلك المقابلة، كانت ذكرى مقابلتهما الأخيرة إبان تشكيل فرق المتطوعين ماثلة في ذاكرته، عندما احتمل من الأمير جوابًا على دعوته إياه لتناول الغداء تعنيفًا قاسيًا؛ لأنه لم يقدم العدد المطلوب. وبالمقابل، كانت ناتاشا على أفضل مزاج، وهي في أجمل ثوب عندها، كانت تخاطب نفسها: «لا يمكن ألا يحباني على الفور، كل الناس يحبونني، على أتم استعداد لصنع كل ما يريدان، وعلى أتم استعداد لمحبتهما؛ هو لأنه أبوه، وهي لأنها أخته، حتى إنني لا أرى سببًا يحدوهما إلى عدم محبتي.»

توقفت العربة في شارع «إيكز التاسيون» أمام نزل قديم ذي منظر محزن، ودخلا في دهليز، قال الأمير نصف مازح نصف جاد. لاحظت ناتاشا أن أباها شديد الارتباك، وأن صوته مضطرب عندما سأل عما إذا كان الأمير وابنته يقبلان الزيارة.

ما إن أعلن قدومهما حتى اعترى الحُجَّاب والخدم لون من التشوش. أوقف الذي كلِّف بالمهمة في البهو الكبير من قِبَل أحد زملائه وراحا يتهامسان معًا، وهرعت وصيفة إليهما، وأسرَّت لهما ببضع كلمات متعجلة ورد فيها ذكر سيدتها. وأخيرًا جاء خادم عجوز صارم القسمات يعلن لآل روستوف أن الأمير لا يستطيع استقبالهما، ولكن الأميرة الآنسة ترجوهما التفضُّل بزيارتها. ظهرت الآنسة بوريين، فاستقبلت القادمين بأدب جمٍّ، ورافقتهما إلى الأميرة التي هرعت بدورها للقائهما بخطوات ثقيلة، ووجهها قلق تعلوه لطخات حمراء. كانت تجهد عبثًا في إعطاء قسماتها مسحة الإشراق. لم تقع ناتاشا في نفسها موقع الاستحسان منذ الوهلة الأولى؛ لقد وجدتها مفرطة في التأنُّق مزهوة طائشة، ولم تكن ماري تدرك أنها قبل أن ترى زوجة أخيها المقبلة كانت مُجهَّزة بغيرةٍ لا شعورية

من جمالها، وشباب تلك الطفلة وسعادتها، والحب الذي يكنُّه لها أخوها، الأمر الذي جعلها أمْيَل إلى كرهها. لقد انضم إلى ذلك النفور الذي لا يضاهَى اضطراب عميق؛ ذلك أن الأمير حال إعلان حضور آل روستوف راح يصرخ قائلًا إنه لا يأبه بلقائهم، وإن ماري تستطيع مقابلتهم إذا حلا لها ذلك، ولكن ليحاذروا جميعًا من الإتيان بهم إليه، فاعتزمت ماري استقبالهم، لكنها كانت تخاف في كل لحظة سخط أبيها الذي أخرجته تلك الزيارة على ما يبدو عن طوره.

قال الكونت وهو ينحني احترامًا ويلقي نظرة قلقة حوله وكأنه يخشى ظهور الأمير فجأة: «كما ترين يا عزيزتي الأميرة. لقد جئتك بمغنيتي الصغيرة. كم أنا مسرور إذ تتعارفان! إنه مؤسف جدًّا أن يكون الأمير في صحة سيئة!»

وبعد بضع عبارات من هذا النوع، نهض وقال: «إذا سمحت لي، يا أميرة، تركتُ لك ناتاشا لربع ساعة قصيرة؛ ريثما أقوم بزيارة قريبة من هنا، إلى آنا سيميونوفنا، وسأعود لآخذها.»

ابتكر إيليا آندريئيفيتش تلك الخدعة اللبقة ليسمح للكنَّة المقبلة وابنة حميها أن تتعارفا وتتناجيا بإخلاص، وقد اعترف بذلك لابنته فيما بعدُ، لكنه لم يصرح لها بأنه وفَّر على نفسه كذلك عناء مقابلة — ربما هائجة — مع الأمير، لكن ناتاشا خمَّنت قلق أبيها وبلباله فاغتمَّت للأمر. تضرَّج وجهها بالحمرة من أجله، وازداد سخطها على خجلها. شخصت إلى الأميرة بنظرة جريئة ومثيرة. كانت تعني أنها لا تخاف من أحد، وأجابت ماري الكونت بأنها سعيدة بذلك، وأنها ترجو الكونت أن يتأخر إلى أقصى وقت ممكن. وانسحب إيليا آندريئيفيتش.

على الرغم من النظرات الجزعة التي كانت ماري تسوقها إلى الآنسة بوريين؛ رغبة منها في البقاء منفردة مع ناتاشا، فإن هذه لم تتحرك قط، بل ظلت تدير دفة الحديث بإصرار حول المسرات وحفلات موسكو، وكان حادث الدهليز والخوف الذي أظهره أبوها، ولهجة الأميرة القسرية التي تظن أنها إنما تُنعم عليها باستقبالها، كل ذلك جعل ناتاشا في حالة نفسانية سيئة. انطوتْ على نفسها إذن، واتخذت برغمها لهجة لامبالية جعلتها تزداد كراهة في نظر الأميرة. وبعد خمس دقائق من حديث عسير قسري، سمعت خطوات سريعة لرجل يحتذي خفَّين. ارتسم الرعب على أسارير ماري، بينما فتح الباب عن الأمير في معطفه المنزلي وقلنسوته القطنية، قال: «آه يا آنسة! يا آنسة ... الكونتيس روستوف إذا لم أكن مخطئًا، تفضلي بمعذرتي. كنت أجهل يا آنسة. الله شهيد على قولي، إنني أجهل

أنك شرفتنا بزيارتك. ما كنت أتوقع رؤية أحد غير ابنتي. تفضلي بمعذرتي على ثوبي. الله شهيد على قولي، كنت أجهل ...»

وقد كرر قوله وهو يبرز كلمة «الله» بلهجة غير طبيعية وشديدة الكراهية، حتى إن ماري ظلت جامدة لا تجرؤ على رفع عينيها إلى أبيها، أو تحويلهما إلى ناتاشا.

وكانت هذه بعد أن وقفت ثم جلست لا تعرف كذلك أي سلوك تتبع، بينما كانت الآنسة بوريين وحدها تبتسم ببشاشة.

غمغم العجوز مرة أخرى: «تفضلي بمعذرتي، الله شهيد على أنني كنت أجهل.»

وبعد أن صعق ناتاشا بنظره من رأسها إلى قدميها، انصرف.

كانت الآنسة بوريين أول من ثاب إلى رشده بعد هذا المشهد، وبينما اندفعت في حديث حول صحة الأمير السيئة، ظلت ناتاشا وماري تتبادلان النظر، وكلما طال ذلك التفحص المتبادل دون أن تعتزم إحداهما التفوُّه بما يناسب المقام؛ ازداد نفورهما وكرههما لبعضهما.

ولما عاد الكونت لم تُخفِ ناتاشا سرورها بعودته، وبادرت إلى الاستئذان، بلغ بها الحد مبلغ الحقد على تلك المخلوقة الهرمة الجافة. كانت تحقد عليها حقدًا هائلًا؛ لأنها وضعتها في مثل ذلك الموقف المغلوط، وقضت معها نصف ساعة دون أن تهمس بكلمة واحدة عن الأمير آندريه. راحت تحدث نفسها: «هل كان بمقدوري حقًّا أن أبدأها الحديث عنه، وأمام هذه الفرنسية أيضًا.» وبنفس الوقت كانت أفكار مشابهة لهذه تعذب ماري، كانت تعرف تمامًا ماذا يجب عليها قوله لناتاشا. مع ذلك، فقد صمتت؛ أولًا لأن وجود الآنسة بوريين كان يرعبها، ومن ثَم لأنها كانت تحس بارتباك غريزي في التحدُّث عن هذا الزواج، وفي اللحظة التي غادر الكونت الحجرة فيها لحقت ماري بناتاشا بخطوات واسعة، وأمسكت بيديها ثم قالت لها وهي تزفر زفرة عميقة: «انتظري، كنت أريد ...»

نظرت إليها ناتاشا نظرة ساخرة غير متعمدة. استأنفت ماري: يا عزيزتي ناتالي، دعيني أقول لك: «كم أنا سعيدة إذ يجد أخي السعادة!»

توقفت لأنها شعرت بأنها لا تقول الصدق، ولاحظت ناتاشا ذلك التردد وخمَّنت السبب، قالت بوقار وبرود ظاهريين، بينما كانت الزفرات تخنقها: «يخيل إلي يا أميرة أن الوقت غير مناسب للتحدث في هذا.»

وما كادت تخرج حتى فكرت: «ماذا فعلت؟ ماذا قلت؟»

تأخر ظهور ناتاشا على مائدة الطعام ظهر ذلك اليوم. حبست نفسها في غرفتها يخنقها الحزن وراحت تنشج بصوت مرتفع كالطفلة الصغيرة، بينما كانت سونيا منحنية

فوقها تقبِّل شعرها وتقول لها: «ناتاشا، لمَ البكاء؟ ماذا يهمُّك هؤلاء؟ سوف ينتظم كل شيء، هيا!»

– «آه! لو كنت تعلمين كم هو لاذع هذا الأمر. لقد استقبلوني كما تستقبل ...»

– «كُفي عن التفكير في ذلك يا ناتاشا. إنها ليست خطيئتك، أليس كذلك؟ إذن، لمَ تشغلين نفسك بذلك؟ قبليني، خذي ...»

رفعت ناتاشا رأسها وقبلت صديقتها في شفتيها، ثم أسندت وجهها المبلل بالدموع إلى كتفها.

– «لا أستطيع القول، لست أدري. إنها ليست خطيئة أحد. بلى، إنها على الأرجح خطيئتي. ولكن كم هو مخيف كل هذا! آه لم لا يأتي؟!»

وعندما نزلت لتناول طعام الغداء كانت عيناها حمراوين. تظاهرت ماري دميترييفنا — التي كانت تعرف كيف استقبل الأمير الكونت — بأنها لا ترى وجه الفتاة المنكر، وظلت طيلة فترة الغداء تمزح بصوتها القوي الضخم مع الكونت والمدعوين الآخرين.

الفصل الثامن

حفلة الأوبرا

ذلك المساء ذهب آل روستوف إلى الأوبرا؛ حيث حصلت لهم ماري دميترييفنا على مقصورة. ما كانت ناتاشا ترغب في الذهاب، لكنها لم تستطع رفض دعوة موجهة بصورة خاصة إليها، وعندما ولجت البهو وهي في أبهى زينة لانتظار أبيها، وألقت نظرات على المرآة الكبيرة أقنعتها بأنها جميلة وجميلة جدًّا، شعرت بحزن متزايد، لكنه كان حزنًا حانيًا ضعيفًا.

فكرت: «رباه! لو أنه كان هنا، فإنني لن أكون خجولة بغباء كالسابق، سأضمه بين ذراعي بكل بساطة، وأشد نفسي إلى صدره؛ فينظر إليَّ بتينك العينين المستطلعتين المستفسرتين اللتين طالما صوبهما إليَّ، ثم سأضحك حينذاك. وعيناه، آه، عيناه! كم أراهما الآن! وماذا يهمني بعد ذلك أبوه وأخته! إنه هو الذي أحبه، هو وحده؛ وجهه وعيناه وابتسامته التي تجمع بين الرجولة والصبوية بآنٍ واحد. لكن الأفضل على أية حال ألا أفكر فيه أبدًا، ألا أفكر في شيء، أن أنسى على الأقل لوقتٍ ما. إن هذا الغياب سيقتلني، ها أنا ذا من جديد على استعداد للانتحاب.» أدبرت للمرآة وهي تصد دموعها بصعوبة شديدة. حدثت نفسها وهي تنظر إلى سونيا التي دخلت في تلك اللحظة مرتدية ثياب الخروج هي الأخرى وفي يدها مروحة: «كيف تعمل سونيا لتحبَّ نيكولا بمثل هذا الهدوء، ولتنتظره كل هذا الوقت! وبمثل هذه الأناة، لا شك أنها تختلف عني كل الاختلاف. إنني لن أستطيع أنا صبرًا.»

أخذت حاجة ملحة إلى الحنان تعذِّب في تلك اللحظة ناتاشا التي لم تكن تكتفي أن تحب وترى نفسها محبوبة: كانت تحس بالرغبة المهيمنة في تطويق المحبوب بذراعيها على الفور، وفي أن تقول له وتسمعه يهمس في أذنها كلمات الحب التي يمتلئ قلبها بها. أحست خلال الطريق وهي جالسة جنبًا إلى جنب مع أبيها تنظر بعين متطيرة إلى

انعكاسات أضواء المصابيح السريعة على زجاج باب العربة المُغطَّى بالصقيع، بأن كلالها العاشق ينمو مضطردًا. لم تعد تعرف مع من هي الآن، وإلى أي مكان تؤخذ، تبعت العربة أخيرًا العربات الأخرى وعجلاتها تئنُّ شاكية فوق الثلج، حتى بلغت مدخل المسرح، فقفزت ناتاشا وسونيا برشاقة منها، ثم نزل الكونت يساعده الخدم، واختلطوا جميعًا بالمتفرجين الوافدين، وبباعي البرامج، حتى بلغ ثلاثتهم مدخل المقاصير في الوقت الذي كانت أصوات الآلات الموسيقية وهي تُضبط، تتناهى إلى أسماعهم خلال الأبواب نصف المغلقة. همست سونيا: «ناتالي، شعرك ...»

هرع فاتح المقاصير باحترامٍ وتقدَّم السيدتين ثم فتح المقصورة، فأصبحت الألحان الموسيقية أكثر وضوحًا، وظهرت للناظرين خلال إطار الباب مجموعة المقاصير المضاءة بسخاء، تحتلها سيدات في أثوابهن الحاسرة عن أعناقهن، ثم القاعة الكبرى الصاخبة المزخرفة بمختلف أزياء الألبسة. أحاطت سيدة — كانت تدخل مقصورة مجاورةً — ناتاشا بنظرة غير نسوية. لم يكن الستار قد رفع بعدُ، والموسيقى تعزف لحن الافتتاح. سوَّت ناتاشا ثوبها وتقدمت مع سونيا إلى مقدمة المقصورة، وسرَّحت ناظريها في المقاصير المقابلة. استبدَّ بها شعورٌ فجائي لم تشعر بمثله منذ زمن طويل؛ شعورُ تركُّزِ مئاتٍ من العيون على جِيدها وكتفيها العاريين، فأيقظ في نفسها ثَوْلًا من الذكريات والرغائب والانفعالات، وأحدث تأثيرًا لذيذًا وأليمًا معًا.

اجتذبت هاتان الفتاتان الجميلتان جمالًا ملحوظًا الانتباهَ العام، وكذلك الكونت إيليا آندريئيفيتش الذي احتجب زمنًا طويلًا عن الظهور في موسكو، ثم إن كل الناس كانوا يعرفون خبر خطوبة الأمير آندريه وناتاشا على شكل ما، ويعلمون أن آل روستوف يقطنون في الريف منذ ذلك الوقت، فراحوا يتفحصون تلك التي ستتزوج واحدًا من أفضل المرموقين في روسيا.

زادت الإقامة في الريف ناتاشا جمالًا، وكل الناس كانوا يعلنون ذلك، لكن الانفعال الذي كان يضيق عليها ذلك المساء زادها فتنة. كان ما يلفت النظر فيها ذلك الجمال والحيوية الكاملين المجتمعين إلى لامبالاة واضحة بكل ما يحيط بها، فعيناها السوداوان تنظران إلى الجموع دون أن تبحثا عن شخص معين. أسندت ذراعها العارية حتى ما فوق المفرق إلى حاجز المقصورة المخملي، وراحت يدها الدقيقة تتقلص وتنشر بصورة لاشعورية، وبإيقاع أثناء الافتتاحية وهي تدعك البرنامج، قالت سونيا: «انظري، هذه الآنسة آلينين مع أمها على ما أظن.»

وقال الكونت من جانبه: «يا إلهي، لقد ازداد ميخائيل كيريليتش سمنة. انظري إلى آنا ميخائيلوفنا إياها، يا للقلنسوة التي على رأسها! إن آل كاراجين وجولي وبوريس معهن. إنهما مخطوبان. وهذا يُرى على الفور. لقد قدَّم دروبيتسكوي طلبه إذن؟»

وقال شينشين الذي دخل مقصورة آل روستوف: «بلى، لقد بلغني ذلك منذ حين.»

تبعت ناتاشا اتجاه نظرة أبيها، فرأت جولي جالسة إلى جانب أمها مشرقة الوجه، يثقل عنقها الضخم الأحمر، الذي كانت ناتاشا تعرف أنه مغطًّى بطبقة من الذرور، عقدٌ ثقيل من اللآلئ، ومن ورائهما برز رأس بوريس الجميل ذو الشعر المصفف بعناية وهو يبتسم وينحني لسماع ما تقوله جولي. اختلس نظرة إلى آل روستوف، وهمس في أذن مخطوبته ببضع كلمات.

– «إنهما يتحدثان عنا وعن العلاقات التي كانت لي معه؛ إنه يطمئن غيرة مخطوبته حتمًا مني. إنهما مخطئان ولا شك بقلقهما! ليتهما يعرفان إلى أي حد لا يشغلان تفكيري!»

وإلى ورائهما تربعت آنا ميخائيلوفنا بقلنسوتها الخضراء، وأساريرها المنتصرة، ولكن الخاضعة لمشيئة الله على عادتها. كان ذلك الجو الخاص بالمخطوبين الذي تعرفه ناتاشا حق المعرفة وتجله كل الإجلال يخفق في مقصورتهم. أشاحت ناتاشا البصر، وفجأةً عادت إلى ذاكرتها مذلَّة زيارة بعد الظهر كلها.

حدَّثت نفسها: «بأي حق لا يريدني في أسرته؟ آه! من الأفضل ألا أفكر في الموضوع حتى عودته.» وراحت تتصفح الوجوه المعروفة والمجهولة التي تقع عيناها عليها في القاعة. كان دولوخوف جالسًا في منتصف الصف الأول مسندًا ظهره إلى الحاجز، وهو في ثياب فارسية، وشعره الأجعد مرفوع إلى الأعلى. كان يعرف أنه محط أنظار القاعة كلها، فيُظهر من الارتياح كما لو كان في منزله، والتفت حوله شبيبة موسكو الذهبية، فأصبحت تشكل حرسَ شرفٍ له.

لكز إيليا آندريئيفيتش سونيا بمرفقه، وأشار إلى المتيم السابق بهواها وهو يضحك، وقال لها: «هل عرفته؟»

ثم سأل شينشين: «من أين انبعث الآن؟ لقد افتُقد تمامًا منذ زمن طويل.»

فأجاب شينشين: «صحيح، لقد كان في القوقاز، ومن هناك فر إلى إيران. يقال إنه أصبح هناك وزيرًا. لست أدري لأي أمير مالك، بل ويزعمون أيضًا أنه قتل أخا الشاه. وها إن نساء موسكو كلهن مجنونات به! دولوخوف الفارسي! إنهن لا يتحدثن إلا عنه، ولا يقسمن إلا به، ويتنادين لرؤيته وكأنهن بصدد تذوق أفخر أنواع السمك!»

وأضاف: «نعم، إن دولوخوف وآناتول كوراجين قد فتَنَا كل سيداتنا.»

وفي تلك اللحظة، دخلت سيدة طويلة القامة، جميلة، ذات ضفيرة ضخمة وكتفين عاريين رائعين، تحيط عنقها بصفين من اللآلئ الكبيرة، وجلست في المقصورة المجاورة ببطء يدل على نبالتها وسط حفيف ثوبها الحريري.

ألقت ناتاشا بالرغم منها نظرة إعجاب إلى ذلك الجيد، وذينك الكتفين، وتلك اللآلئ، وتلك الزينة، وبينما هي تتأملها للمرة الثانية، التفتت السيدة فتلاقت نظرتها بنظرة الكونت، وحينئذٍ أومأت له إيماءة خفيفة برأسها وهي تبتسم. تلك كانت الكونتيس بيزوخوف. مال الكونت نحوها، وهو الذي يعرف كل الناس، ودخل معها في الحديث: «لقد مضى زمن طويل لم أرك خلاله يا كونتيس؟ نعم، نعم، سأحضر لأقبل يدك، إنني في موسكو لأعمال، وقد اصطحبت معي بنياتي، يقال إن السيمينوفا تمثل بشكل يدعو إلى الإعجاب. لقد كان الكونت بيير كيريلوفيتش دائمًا من خلصائنا، هل هو هنا؟»

قالت هيلين وهي تنظر إلى ناتاشا بعناية ملحوظة: «نعم، وكان يزمع المجيء.»

عاد الكونت إلى مكانه وقال لابنته بصوت خافت: «إنها جميلة، أليس كذلك؟»

– «رائعة! إنني أفهم عشق الناس لها!»

وفي تلك الأثناء، انتهى عزف الافتتاحية، فقرع رئيس الجوقة قمطره بعصاه الدقيقة. هرع المتفرجون المتأخرون إلى احتلال أماكنهم في القاعة ورفع الستار.

ران سكون عميق في القاعة كلها، وأدار المتفرجون الشيوخ والشبان على السواء في ألبستهم الرسمية أو العادية، والسيدات كاشفات النحور والصدور، المتزينات بالحلي، عيونهم بتطلُّع نحو المسرح، فحذت ناتاشا حذوهم.

الفصل التاسع

كوراجين الفاتن

أقيمت في وسط المسرح «أرضية»، وزينت جنباته بمشاهد أشجار. أما الأفق فكانت تشكله قطعة قماش مدهونة. اجتمعت في الوسط فتيات شابات بأحزمة حمراء، وتنورات بيضاء، جلست إحداهن منتحية جانبًا على موطئ تعلوه قطعة من الورق المقوَّى الأخضر ملصقة من الوراء وهي في ثوب حريري أبيض. راحت الفتيات ينشدن معًا، فلما فرغن تقدمت ذات الثوب الأبيض نحو الفتحة التي يختفي فيها الملقن، وعندئذ اقترب منها رجل كانت سراويله الحريرية الملتصقة بجسده تبرز ضخامة ساقيه، وراح يغني وهو يحرك يديه، وقد رُشقت ريشة في قبعته، وتَمنْطَق بخنجر.

غنى ذو السراويل الملتصقة منفردًا بادئ الأمر، ثم حان دور زميلته، وبعدئذ صمتا كلاهما واستأنفت الجوقة العزف، بينما راح الرجل يربِّت على يد زميلته ضابطًا الإيقاع، منتظرًا اللحظة الفنية للشروع في غناء ثنائي. وبعد أن غنَّيا صفق كل من في القاعة لهما واستزادوهما، بينما راح الممثلان اللذان كانا في دور زوج من العشاق ينحنيان باسمين ذات اليمين وذات الشمال.

ولما كانت ناتاشا قادمة من الريف، وفي حالة فكرية جدية، فإن ذلك المشهد بدا لها بلا شك غريبًا، بل ومضحكًا. كان يستحيل عليها أن تتتبع سير الحوادث، بل وأن تصغي إلى الموسيقى. ما كانت ترى غير قماش مصبوغ، ورجال ونساء مرقشين بشكل سخري يتحركون ويتكلمون ويغنون تحت ضوء عنيف. وبالطبع لم تكن تجهل معنى التمثيلية، لكن المجموع كان يبدو لها شديد التصنع والارتجال، حتى إنها راحت تشعر بخجل للممثلين حينًا، وبرغبة قوية في الضحك حينًا آخر. أجالت عينيها حولها محاولةً أن تكتشف على أسارير المتفرجين آثار حالة نفسية مماثلة، لكن الوجوه المنتبهة كلها إلى ما يدور على المسرح كانت تعبِّر عن حماس مشكوك في إخلاصه، على ما بدا لها. حدَّثت

نفسها: «ينبغي أن يكون الأمر كذلك بلا ريب.» راحت تفحص دوريًّا الرءوس المضمخة في القاعة، والنساء الحاسرات في المقاصير، وبصورة خاصة جارتها هيلين التي كانت شبه عارية تنظر إلى المسرح بابتسامة هادئة، دون أن تخفض عينيها متمتعة بالنور العنيف وجو القاعة الدافئ. استسلمت ناتاشا رويدًا رويدًا إلى لون من الثمل لم تحسه منذ أمد طويل، لم تعد تدرك ما تفعل وتعرف أين هي، ولا ما يدور تحت أبصارها؛ كانت تنظر دون أن ترى بينما كانت الأفكار الأكثر رعونة تمر في رأسها. استبدت بها رغبة بتسلق الحاجز وغناء المقطوعة التي غنتها الممثلة تارةً، وبمضايقة كهل قصير جالس على مقربة منها بمروحتها، أو الانحناء نحو هيلين ودغدغتها حينًا آخر.

خلال فترة توقف بين قطعتين غنائيتين، صر باب القاعة المجاور لمقصورة آل روستوف، وارتفعت خطوات متفرج متأخِّر، همس شينشين: «آه! هو ذا كوراجين.» التفتت الكونتيس بيزوخوف وابتسمت للقادم الجديد. تبعت ناتاشا نظرتها فشاهدت مساعدًا عسكريًّا ذا جمال خارق يتجه نحو مقصورتهم وعلى وجه أمارات الترفع والبشاشة. ذاك كان آناتول كوراجين الذي لمحته من قبلُ في الحفلة الراقصة في بيترسبورج؛ كان يرتدي الآن ثوب المساعد العسكري تتدلى الشارات على «كتافته» الوحيدة. أخذ يقترب بمهابة واتزانٍ كان يمكن أن يكونا مضحكين لو لم يكن على جانب كبير من الجمال، ولم يُعرب وجهه المتناسق عن قناعة وجودة كاملة. وعلى الرغم من أن الفصل كان في سياقه، فإنه أخذ يمشي فوق سجادة الممشى وهو يدقُّ بمهمازيه وحسامه دقًّا خفيفًا، ويسير متمهلًا شامخًا برأسه الجميل المعطر، ولما وقع بصره على ناتاشا اقترب من أخته، وأسند يده المغيبة في قفاز إلى حافة المقصورة، ثم أومأ لها برأسه، ومال على أذنها وأخذ يهمس فيها وهو يشير إلى جارتها، قال: «ولكن فتانة!»

خمَّنت ناتاشا تلك الكلمات من حركة شفتيه أكثر مما سمعتها، وعرفت بما لا يقبل الشك أنها قيلت عنها. مضى بعدئذ إلى الصف الأول من المقاعد وجلس بجانب دولوخوف، بعد أن وكز ذلك الشخص الذي يحاول كل الناس الحصول على رضاه وكزة تدلُّ على الأُلفة، خصَّه بغمزة مرحة من عينه ثم أسند ساقه إلى الحاجز.

قال الكونت: «كم يتشابه الأخ والأخت! وكم هما جميلان!»

قص عليه شينشين بصوت خافت فضيحة جديدة لكوراجين في موسكو، فأصغت ناتاشا إلى تلك القصة لمجرد أنه قال عنها إنها فاتنة.

انتهى الفصل الأول فنهض كل من القاعة واختلط الحابل بالنابل بين خارج وداخل.

جاء بوريس يُحيي آل روستوف في مقصورتهم، فتلقى منهم تهانيهم بأقصى ما في الطاقة من بساطة، ثم دعا ناتاشا وسونيا نيابة بدلًا عن مخطوبته لحضور زواجهما وهو رافع حاجبيه قليلًا تطوف على شفتيه ابتسامة ساهمة، ثم انسحب. استقبلت ناتاشا بوريس ذاك الذي كانت مفتونة به في الماضي، وهنأته بزواجه بجذلٍ باسمة، وبشيء من التظرُّف. كان كل شيء في نظرها بسيطًا وطبيعيًّا بفضل حالة الثمل التي كانت عليها.

كانت هيلين نصف العارية الجالسة بالقرب منها تبتسم لكل الناس بطريقة موحدة، فمنحت ناتاشا بوريس ابتسامة من ذلك النوع.

لم تلبث مقصورة هيلين أن امتلأت وحوصرت بلفيف من الرجال المرموقين، الذين بدا من تصرفهم أنهم يفاخرون باطِّلاع كل الناس على معرفتهم بها.

ظل كوراجين مع دولوخوف طيلة الوقت الذي استغرقته الاستراحة وظهره إلى الحاجز، وعيناه شاخصتان إلى مقصورة آل روستوف. فهمت ناتاشا بسرورٍ أنه يتحدث عنها، فجلست بشكل يسمح له برؤيتها من الجانب، وهي وضعية كانت — على ما تعتقد — تزيد من إبراز مفاتنها، وقبل بدء الفصل الثاني بقليل ظهر في القاعة بيير بيزوخوف الذي لم يره آل روستوف منذ أن وصلوا موسكو. بدا حزينًا أكثر سمنة مما رأته عليه ناتاشا في المرة الأخيرة، مضى إلى الصفوف الأولى دون أن يلاحظ أحدًا. استوقفه آناتول وقال له شيئًا وهو يسير إلى مقصورة آل روستوف، ولما وقع بصره على ناتاشا انبسطت أساريره وسارع الخطو خلال صفوف المقاعد متجهًا نحوها. اتكأ بمرفقيه إلى المقصورة ودخل في حديث طويل مع ناتاشا.

وفي تلك الأثناء، بلغ مسامع الفتاة صوت رجل في مقصورة الكونتيس، وعرفت بغريزتها أنه صوت كوراجين. أدارت رأسها وقابلت نظرته، تصفَّحها وهو يبتسم بعينين غاية في الإعجاب والملق، حتى إنها شعرت بمزيد من الخجل لوجودها على هذا القرب منه، ولاحتمالها نظرته، وثقتها من أنها أعجبته دون أن تكون قد تعرَّفت به حتى تلك اللحظة.

مثلت مناظر الفصل الثاني أبنية مقبضة مأتمية، وصوِّر القمر بواسطة ثغرة في الشاشة، ورفعت عاكسات الضوء عن الحاجز، وشرعت الطبول والكمانات الضخمة (كونترباس) تردد أصواتًا خافتة مكتومة، بينما تقدمت من يمين المسرح ويساره فئة من الأشخاص في ملابس سوداء. راح هؤلاء يكثرون من الحركات، ويهزون في أيديهم أشياء تشبه الخناجر، ثم هرعت فرقة أخرى تنوي أخذ الفتاة التي شوهدت في الفصل الأول في ثياب بيضاء، والتي كانت الآن ترتدي ثوبًا أزرق، لكنهم لم يأخذوها لفورهم على أية

حال، بل غنوا طويلًا معها. وعندما اصطحبوها أخيرًا، ارتفع صوت معدني ثلاث مرات في الكواليس، وحينئذ سقط الممثلون جميعًا على ركبهم، ودوت أصواتهم بصلاة. ولقد قوطعت هذه المشاهد المختلفة مرارًا بصيحات الإعجاب من جانب المتفرجين.

أثناء العرض، كلَّما سرَّحت ناتاشا بصرها في القاعة؛ كانت تجد آناتول كوراجين مستندًا بذراعه إلى مسند مقعده يلتهمها بنظره. كانت تشعر بلذة في رؤيته صريع فتنتها دون أن ترتاب في أن ينطوي ذلك على أي سوء.

عندما انتهى الفصل الثاني، نهضت الكونتيس بيزوخوف واستدارت نحو آل روستوف — وجيدها عارٍ تمامًا — فاستدعت الكونت العجوز بإشارة من إصبعها الصغير المستتر في القفاز، ودون أن تُعير الأشخاص الذين كانوا يدخلون مقصورتها التفاتًا. دخلت معه في حديث جمَّلته بأعذب ابتساماتها، قالت له: «قدِّم إليَّ فتاتيك الفاتنتين. كل المدينة تتحدث عنهما وأنا وحدي لا أعرفهما.»

نهضت ناتاشا وانحنت احترامًا للكونتيس الجليلة. كانت إطراءات ذلك الجمال الشهير يلذ له لدرجة أن الدماء تصعدت إلى وجهه من الاغتباط.

استأنفت هيلين: «إنني أعتزم كذلك أن أصبح موسكوفية حقيقية، ألا تخجل من دفن مثل هذه اللآلئ في الريف؟»

كانت في الحقيقة تستحق لقب ساحرة؛ لقد كانت تنعم بمزية قول ما لا تفكر فيه، وإطراء الناس دون أن تتظاهر بذلك: «يجب أن تسمح لي يا عزيزي الكونت بالاهتمام بابنتيك. رغم أنني لست هنا لمدة طويلة، كما هو شأنك كذلك، فإنني سأعمل جاهدة على تسليتهما.»

وأضافت تخاطب ناتاشا وابتسامتها ثابتة على شفتيها: «لقد سمعتهم يتحدثون عنك كثيرًا في بيترسبورج، وكنت في شوق كبير إلى التعرُّف عليك. نعم، لقد سمعت بك أولًا عن طريق وصيفي دروبيتسكوي. هل تعرفين أنه سيتزوج؟ ثم عن طريق صديق لزوجي، بولكونسكي؛ الأمير آندريه بولكونسكي.»

أبرزت هذا الاسم بشكل يُفهم معه أنها لا تجهل الرباط الذي يجمع بينهما، ثم طلبت إلى الكونت أن يسمح لواحدة من الفتاتين بقضاء الوقت حتى نهاية العرض في مقصورتها؛ لتزداد تعمقًا في معرفتها، فانتقلت ناتاشا إلى مقصورتها.

صور المشهد الثالث قصرًا سابحًا في النور تزيِّنه لوحات تمثل فرسانًا ملتحين، وفي الوسط وقف شخصان؛ ملك وملكة بلا شك. قام الملك بحركة بيده اليمنى. غنَّى لحنًا

أميل إلى الرداءة والرعب ظاهر عليه، ثم اعتلى عرشًا من القطيفة. أما الفتاة التي شوهدت أول مرة في ثوب أبيض ثم في ثوب أزرق، فلم تكن الآن مرتدية إلا قميصًا وهي واقفة قرب العرش مشعثة الشعر. شرعت تغني قصيدة كئيبة وهي مستديرة نحو الملكة، لكن الملك استوقفها بإشارة صارمة، واندفعت زمرة من الرجال والنساء عارِي السيقان من الكواليس وشرعوا يرقصون معًا، ثم عزفت «الكمانات» لحنًا هادئًا خفيفًا، فانفصلت إحدى النساء التي كان ذراعاها النحيلان يتنافيان مع ساقيها الضخمين عن الآخرين. وبعد أن اختفت فترة وراء الكواليس لتسوِّي حزامها، اقتربت إلى منتصف المسرح وراحت تقفز في الهواء وهي تضرب قدميها ببعضهما، وعندئذ انفجر كلٌّ من في القاعة مصفقين هاتفين: «مرحى!» ثم استقر رجل في ثوب سباحة في أحد أركان المسرح، وراح يقوم بقفزات ودورات كثيرة على دوي الطبول والصنوج. كان ذلك الرجل هو دوبور، الذي كانت تلك الحركات تعود عليه بستين ألف روبل في العام. صفق المتفرجون جميعًا، أولئك الذين في القاعة وفي المقاصير وفي الأروقة العليا، وهتفوا له وحيوه بكل قواهم. توقف الرجل لتحيتهم وتوزيع الابتسامات كل صوب. أعقبه راقصون وراقصات آخرون، ثم صاح أحد العاهلين بكلمات على إيقاع الموسيقى، فدوت أصوات الممثلين جميعًا في غناء جماعي. وفجأة هبَّت عاصفة وراح الموسيقيون يقرعون أعلى الطبقات على مختلف آلاتهم، واندفع الممثلون يجرون، ومن جديد سُحب أحد الممثلين إلى الكواليس ثم أُسدل الستار. عاد الصخب إلى أشده في القاعة، وفاض الحماس، وراح كل متفرج يهتف: «دوبور! دوبور! دوبور!» ولم تعد ناتاشا ترى شيئًا غريبًا في كل هذا، بل إنها أحست بلذة في التفرج وهي باسمة على ما حولها. سألتها هيلين: «إنه مدهش دوبور هذا، أليس كذلك؟»

فأجابت: «أوه! نعم.»

الفصل العاشر

في طريق الانهيار

سرى إلى المقصورة تيار هواء بارد خلال الاستراحة. كان آناتول وهو منحنٍ محاذرًا أن يصطدم بأحد.

قالت هيلين وهي تنقل طرفًا قلقًا من واحد إلى الآخر: «اسمحي لي أن أقدم لك أخي.»

أدارت ناتاشا رأسها البديع نحو ذلك الشاب الجميل، وابتسمت له من فوق منكبها العاري. جلس آناتول، الذي كان عن قرب على مثل جماله عن بعد، بجانب الفتاة وقال إنه ظل يرغب في أن يقدم إليها منذ ذلك اليوم الذي لن ينساه؛ يوم أن أسعده الحظ برؤيتها في حفلة ناريشكين الراقصة. كان آناتول يتظاهر أمام النساء أكثر بساطة وأحدَّ ذكاءً مما يظهر به أمام الرجال، تحدث إذن باندفاع واسترسال، فأحست ناتاشا بدهشة لطيفة حين لم تجد في هذا الرجل شيئًا مرعبًا، رغم ما يُروى عنه من أشياء، وأن ترى له على العكس ابتسامة ساذجة هادئة وقلبية.

سألها عما تظن بصدد الرواية، وقص عليها أن «السيمينوفا» سقطت خلال العرض الفائت على الأرض أثناء قيامها بحركاتها، وفجأة قال بصوت منطلق وكأنه يعرفها منذ أمد طويل: «أتعرفين ماذا يا كونتيس؟ إننا ننظم حفلًا تنكريًّا. يجب أن تشتركي فيه. سيكون مسليًّا جدًّا. الاجتماع العام لدى آل كاراجين، ستحضرين؛ أليس كذلك؟

لم يشح بعينيه عن وجهها طيلة الحديث، ولم يفتأ يتأمل جِيد ناتاشا وذراعيها العاريين. كانت واثقة من أنه يتأمَّلها بإعجاب، لكن ارتباكًا متزايدًا أخذ يمتزج بالبهجة التي كانت تحسُّ بها، وعندما تحول أبصارها كانت تشعر بثقل نظرة آناتول على كتفيها، وحينئذ تعود دون شعور إلى البحث عن نظرته لتحوِّل تأمُّلَه إلى وجهها، لكنها وهي تنظر إليه على ذلك النحو كانت تشعر بهول أن الحواجز التي أقامتها العفَّة بينها وبين الرجال الآخرين تنهار. ما كانت تستطيع أن تفسر لنفسها كيف غدت في غضون خمس دقائق

على مثل هذا التقرُّب من هذا الرجل، فإذا أدارت رأسها ارتعدت خوفًا من أن يمسك بيدها، أو يطبع قبلة على قذالها. ومهما بلغ حديثهما من الابتذال، فإنها كانت تفهم أنهما أضحيا أليفين أُلفة لم تسمح لنفسها بمثلها مع أي رجل آخر. أخذت تستفسر هيلين والكونت بعينيها تسألهما عن معنى كل هذا، لكن هيلين التي كانت تتحدث مع جنرال لم تلحظ ذلك النداء. أما نظرة أبيها فكانت تقول لها: «إنك تتسلين، وأنا راضٍ ومغتبط جدًّا.»

في إحدى تلك اللحظات من الصمت المرتبك التي ما كان آناتول خلالها يكفُّ عن التحديق في ناتاشا بعنادٍ بعينيه البارزتين، سألته هذه — لتحطِّم الصمت — عمَّا إذا كانت موسكو تروق له، لكن هذا السؤال ما كاد يُفلت من بين شفتيها حتى تضرَّج وجهها لطرحه؛ كان يخيل إليها أنها بالتحدُّث إلى هذا الرجل إنما ترتكب مخالفةً وعيبًا. ابتسم آناتول وكأنه يشجعها: «لم تكن موسكو تعجبني حتى اليوم؛ لأن النساء الجميلات هن اللواتي يجعلن المدينة جميلة؛ أليس كذلك؟ أما الآن فعلى العكس، إنني مغتبط جدًّا.»

ونظر إليها نظرة معبرة: «ستأتين لحضور الحفل، أليس كذلك يا كونتيس؟ تعالي.»

ومدَّ يده نحو باقة ناتاشا وأردف وهو يخفت صوته: «ستكونين أجمل الموجودات، تعالي يا عزيزتي الكونتيس، وأعطني هذه الزهرة عربونًا على مجيئك.»

شعرت ناتاشا بخجل معيب دون أن تفهم تمامًا الغاية المستترة وراء كلماته. لمَّا لم تدرِ بمَ تجيب، أشاحت عنه متصنعةً عدم سماع قوله، ولكن لم تلبث فكرة وجوده هنا، شديد القرب منها، أن أضجرتها من جديد.

تساءلت: «ماذا يعمل؟ هل هو غاضب ساخط عليَّ؟ يجب تسوية هذا الأمر.» لم تستطع الإمساك عن إدارة رأسها ونظرت مباشرة في عينيه. تسلط عليها وجود آناتول القريب واطمئنانه، وجودة نفسه الحكيمة. ابتسمت ابتسامة شبيهة بابتسامته، وفكرت أنه لم يعد من حاجز يقوم بينهما.

ارتفع الستار من جديد، فخرج آناتول من المقصورة هادئًا مبتهجًا. عادت ناتاشا إلى مقصورة أبيها وهي خاضعة تمامًا لهذا العالم الجديد الذي ولجته. أصبح كل ما يدور حولها منذ ذلك الحين طبيعيًّا، لم تعد مقابل ذلك تفكر قط في قلقها وبلبالها من أجل خطيبها، والأميرة ماري، والحياة الريفية التي أمضتها. بدا أن كل هذا مِلكٌ للماضي، لماضٍ عريق في القدم.

في الفصل الرابع، انبعث شخص يشبه الشيطان، وراح يفرط في الحركات ويغني حتى فتحت فتحة اختفى فيها، بل لعل هذا كان ما استطاعت ناتاشا أن تراه لشدة ما

كانت مضطربة. أما سبب هذا الانفعال، فكان آناتول كوراجين الذي ما انفكت رغمًا عنها تُلاحقه بعينيها، وعندما خرجوا من المسرح جاء واستقدم عربتهم وساعدهم على الركوب، وبينما هو يساعد ناتاشا على الصعود ضغط على ذراعها فوق المرفق. خجلت وتضرَّج وجهها، وغامرت بالنظر إليه: كان آناتول يتأملها بعينيه البراقتين وهو يبتسم ابتسامة حانية.

عندما وصلت ناتاشا إلى البيت فقط، شعرت بما حدَث في أعماقها، وفجأة روِّعت عندما تذكرت الأمير آندريه، وبينما هم يتناولون الشاي بعد العرض، أطلقت صرخة ونفَرت إلى غرفتها ووجهها قانٍ.

حدَّثت نفسها: «ربَّاه! لقد ضعتُ! كيف أمكنني أن أسمح له بذلك؟» ظلت فترة طويلة جالسة في مكانها تخفي وجهها القرمزي بين يديها، محاولةً عبثًا تنظيم مشاعرها الثائرة. بدا لها كل شيء معتمًا مريعًا. هناك، في تلك القاعة الكبيرة المضاءة؛ حيث كان دوبور يقفز فوق ألواح ندية من الخشب على ألحان الجوقة، وهو في ثياب السباحة وفوقها سترة خفيفة، تلاحقه «المرحات» المتحمسة من أفواه الفتيات والشيوخ، ومن هيلين الجليلة ذات الابتسامة الهادئة؛ هناك في ظل هيلين تلك، كان كل شيء واضحًا وبسيطًا. أما الآن فعلى العكس، عندما أصبحت وحيدة منفردة مع نفسها، لم تعد تفقه شيئًا. تساءلت: «ما معنى كل هذا؟ ما معنى ذلك الرعب الذي ألهمنيه؟ ما معنى هذا التقريع والتبكيت الذي أنا فريسة له؟»

ما كانت تستطيع الإفضاء بمكنونات قلبها إلا للكونتيس العجوز خلال إحدى زياراتها الليلية إلى غرفتها وفي سريرها. ما كانت تستطيع الإفصاح عن شعورها إلى سونيا التي لا يمكن أن تفهم شيئًا من هذا الاعتراف، وهي التي لها أسلوبها الزاهد الشامل في النظر إلى الأمور، بل إن مثل هذا الاعتراف كفيل بترويعها. وعلى هذا، ما كان على ناتاشا إلا أن تعتمد على نفسها لتتعرف على حقائق الأمور في أعماقها.

تساءلت قلقة: «هل فقدت الإحساس بغرام آندريه أم لا؟» لكنها سرعان ما تطمئن نفسها بابتسامة وتفكر: «كم أنا حمقاء بطرح مثل هذا السؤال على نفسي! ماذا حدث بالفعل؟ لا شيء البتة. إنني لم أرتكب إثمًا، ولست مسئولة قط عما وقع. لن يعرف أحد بشيء، لن أراه بعد اليوم أبدًا. نعم، إنه واضح، لم يحدث شيء، إنني لا أحس بوجوب الندم على خطأ ارتكبه. يمكن للأمير آندريه أن يحبني كما أنا، ولكن ماذا أصبحت أنا؟

آه يا رب! لمَ لا يكون هنا؟» استعادت ناتاشا السكينة برهة، ولكن لم يلبث شعور غامض أن قال لها إن طهر غرامها السابق لآندريه ونقاءه قد تكدَّر، طالما أن الأمر وقع على هذا النحو، وعندئذ عادت إلى ذاكرتها قسرًا كل تفاصيل مداولتها مع كوراجين. عادت ترى وجهَه؛ ذلك الفتيُّ الجميل، وحركاتِه وابتسامتَه الحانية عندما ضغط على ذراعها.

الفصل الحادي عشر

نوايا كوراجين

استقام آناتول كوراجين في موسكو نزولًا عند أمر والده الذي أرهقه أن يراه ينفق في بيترسبورج أكثر من عشرين ألف روبل في العام، ويستدين مثلها من دائنين كانوا يطالبون الأمير العجوز بسداد دين ابنه.

وافق هذا للمرة الأخيرة على تسديد نصف ديون ولده بشرط واحد: أن يذهب آناتول من فوره إلى موسكو؛ حيث جعل الجنرال الأعلى يقبله برتبة مساعد، وأن يسعى جهده للزواج من وارثة غنية، الأميرة ماري مثلًا، أو على الأقل جولي كاراجين.

قبل آناتول وسافر إلى موسكو. أقام عند بيير الذي استقبله بادئ الأمر في غير ترحاب، ثم لم يلبث أن ألفه وساهم معه في بعض مباذله، بل وأعطاه بعض المال بصفة قرض.

لقد نطق شينشين بالحقيقة: منذ أن وصل آناتول إلى موسكو، شدَّه النساء فيها وبصورة خاصة؛ لأنه كان يهملهن ويلتفت إلى البوهيميات والممثلات الفرنسيات اللاتي كانت مقدمتهم الآنسة جورج عشيقة له. ما كان يتغيب عن حفلة من حفلات دانيلو وغيره من المرحين الصاخبين في موسكو، ويبارز خلال ليال طويلة أصلب السكيرين عودًا، يحضر الحفلات الراقصة وكل السهرات التي تحييها الطبقة الراقية. وكان يغازل النساء أثناءها وهم يسردون عددًا من مغامراته الناجحة، لكنه ما كان يقرب الفتيات، وخصوصًا الوارثات الغنيات، اللاتي يمتاز معظمهن بالبشاعة. وكان الدافع إلى هذا التحفظ سبب حازم لا يعرفه إلا خلصاؤه: لقد كان متزوجًا منذ عامين.

وفي الواقع أنه حينذاك، عندما كان في الفيلق المُعسكِر في بولونيا، أقنعه أحد أثرياء الريف أن يتزوج ابنته، ولم تمض فترة وجيزة حتى هجر آناتول زوجته لقاء دخل تعهَّد بتقديمه لحميه، فحصل بذلك على امتياز بالتظاهر بمظهر العزب.

كان آناتول دائم الرضا عن مصيره وعن نفسه وعن الآخرين، مقتنعًا بغريزته بأنه إنما يعيش الحياة الوحيدة التي تلائم طبيعته، وأنه لم يسئ قط إلى أحد. كان عاجزًا تمامًا عن إدراك ما ينجم من أسواء عن كذا أو كذا من تصرفاته، وما قد يسبب بعضها من انطباعات في نفوس الآخرين. كان يؤمن بقوة بأنه خُلق في هذه الدنيا لينفق ثلاثين ألف روبل في العام، ويشغل مركزًا مرموقًا في المجتمع كما خُلق البط ليعيش عائمًا على الماء. ولقد كان شديد القناعة بذلك، حتى إن الآخرين إذا ما رأوه أقنعوا أنفسهم بصحة رأيه، فلا يرفضون منحه الرتبة أو المنزلة التي يطلب، ولا يبخلون عليه بالقروض التي كان يجريها مع كل مَن تسنح له الفرصة بالاقتراض منه، دون أن يفكر طبعًا بإعادة ما يقترض.

لم يكن مقامرًا، أو — على الأقل — ما كان يبحث عن الربح، ولم يكن مزهوًّا ولا يأبه أبدًا لما يقال عنه، كذلك كان نصيب اتهامه بالطمع أقل نجاحًا. لقد أسخط أباه أكثر من مرة معرِّضًا مركزه للخطر، مستهترًا بكل القيم، ولم يكن بخيلًا، بل كان يفتح كيس نقوده لكل مقترض. كان همُّه منصرفًا إلى النساء والمسرَّات، ولما كان لا يجد شيئًا دنيئًا في أذواقه تلك، ولا يتصور قط أن يسبب تصرفه إرضاءً لرغباته تلك أضرارًا لسواه، فإنه كان يقدر نفسه بكل إخلاص وإيمان، ويحتقر الصعاليك والأنذال. والخلاصة أنه كان يشمخ برأسه وهو قانع الوجدان.

يعتقد أنصار المسرات في الحياة دائمًا بأنهم غير مذنبين، وهذه القناعة الساذجة عند مثل هؤلاء تركز على الصفح، شأنها عند النساء العابثات. «لسوف يصفح عنه كثيرًا؛ لأنه كان أحب كثيرًا، سوف يصفح عنه كثيرًا؛ لأنه كان تسلى كثيرًا.»

عاد دولوخوف الذي ظهر في موسكو بعد نفيه ومغامراته في العجم، وراح يعيش عن سعة؛ يجدد علاقاته مع كوراجين — صديقه القديم في بيترسبورج — ويستخدمه في أغراضه، وكان آناتول يعجب بعقلية صديقه واستهتاره، وكان دولوخوف — وهو في مسيس الحاجة إلى اسم كوراجين وعلاقاته ليجتذب الشبان إلى شِباكه كمقامر — يفيد من آناتول فائدة كبيرة، ويسخر منه في أعماق نفسه. ثم إنه ما كان يخضع لغاية واحدة. لقد كان مجرد تسخير مشيئة آخر وإرادته وفق هواه متعة قائمة بذاتها وعادة، بل وحاجة.

أحدثت ناتاشا على آناتول تأثيرًا قويًّا. وبينما هو يتناول العشاء بعد العرض راح يصف لدولوخوف وصف الخبير محاسن ناتاشا، ويطري ذراعيها وكتفيها وقدميها وشعرها، وأعلن له عن عزمه على ملاحقتها ملاحقة عنيدة. أما إلى أي غاية تقوده تلك الملاحقة؟ هذا ما لم يكن آناتول يفكر فيه. لم تكن نتائج تصرفاته المرتقبة تقلق باله قط.

قال له دولوخوف: «إنها جميلة يا عزيزي، لكنه جمال ليس لنا.»

– «سأقول لأختي أن تدعوها لتناول الغداء. ماذا تقول؟»

– «بل انتظر ريثما تصبح متزوجة.»

– «إنك تعلم أنني أعبد الفتيات الصغيرات. إنهن يفقدن إحساسهن فورًا.»

أجاب دولوخوف الذي كان يعرف زواج آناتول القسري: «لقد سقطت من قبلُ في حفرةٍ حفرتها فتاة صغيرة؛ فحذار.»

استأنف كوراجين بضحكة مرحة: «لا يدَعُ المرءُ نفسه يُهزم مرتين.»

الفصل الثاني عشر

الخطوة الأولى

في اليوم التالي للعرض، لم يخرج آل روستوف ولم يأت أحد لزيارتهم. تداولت ماري دميترييفنا سرًّا مع إيليا آندريئيفيتش، فخمنت ناتاشا أنهما تحدثا عن الأمير العجوز ودبرا معًا مشروعًا معينًا، الأمر الذي أقلقها وأسخطها معًا. كانت تنتظر الأمير آندريه في كل لحظة، وقد أرسلت البواب استجابة لنفاد صبرها إلى شارع إيكزالتاسيون مرتين للاستطلاع. وفي كل مرة كان ذلك الرجل يعود ليقول لها إن الأمير آندريه لم يصل بعد. أبهظت ناتاشا شدة متزايدة؛ جاءت ذكرى مقابلتها مع ماري والأمير العجوز تنضم إلى نفاد صبرها واكتئابها بسبب غيابه «هو» إلى جانب قلق آخر ما كانت توفق في تبيان سببه. كانت تتصور دون انقطاع أنه إما أن لا يعود، وإما أن يحدث شيء ما قبل عودته. لم تعد تستطيع كسابق عهدها أن تفكر فيه بهدوء خلال فترات تأملاتها الطويلة في وحدتها، فلا تكاد صورة آندريه تنبعث في خيالها إلا وترافقها صورة الأمير العجوز وماري وكوراجين والعرض. ومن جديد تتساءل عما إذا لم تكن مذنبة، وهل لم تخن الموثوقة التي قطعتها للأمير آندريه. ومن جديد تعود إلى تصوُّر أدق التفاصيل، وأتفه الكلمات والحركات، وتبدل قسمات ذلك الرجل الذي عرف كيف يوقظ في نفسها شعورًا غامضًا مخيفًا. كانت تبدو لعيون المقربين إليها أكثر حيوية من عادتها، لكنها كانت أبعد ما تكون عن الهدوء والسعادة السابقين.

عرضت ماري دميترييفنا على ضيوفها صباح الأحد سماع القداس في كنيسة «دورميسيون أو تومبو»، قالت لهم وهي بادية الزهو لاستقلالها: «إنني لا أحب الكنائس العصرية. إن الله هو هو في كل مكان، لدينا قس ممتاز يقوم بالطقوس بشكل لائق، وكذلك الشماس؛ إنه قدوة. أما تلك الحفلات الموسيقية التي تُقام في الأماكن المقدسة؛ فإنني أمقتها، إنها تدنيس ...»

كانت ماري دميترييفنا تحب يوم الرب حبًّا كبيرًا، وتتهيأ للاحتفاء به، كان خدمها يغسلون الدار وينظفونها منذ يوم السبت تنظيفًا تامًّا، فإذا جاء الأحد مضت هي وخدمها إلى الصلاة راضين، فلا يعملون عملًا ذلك النهار. وكانت تضيف ألوانًا جديدة من الأطعمة للسادة، وتسمح للخدم بشرب العرق إلى جانب الطعام المؤلف من أوزة مشوية وخنزير صغير، لكن ما من شيء في البيت ينبئ بالعيد أكثر من وجه ماري دميترييفنا العريض الصارم الذي تعلوه في مثل ذلك اليوم أمارات الجلال الراسخ.

بعد أن شربوا القهوة بعد القداس في البهو الذي نزعت منه اللبد، جاء خادم يعلن لماري دميترييفنا أن عربتها قد قربت، فنهضت السيدة الطيبة التي كانت مرتدية شالها الفاخر وأعلنت بلهجة صارمة أنها ذاهبة عند الأمير نيكولا آندريئيفيتش بولكونسكي؛ لتتفاهم معه حول موضوع ناتاشا.

وجاءت حائكة ثياب من قِبَل مدام شالميه بعد ذهابها، فمضت ناتاشا معها إلى الحجرة المجاورة وهي سعيدة بهذه التسلية. أغلقت الباب وراحت تستعد لتجربة أثوابها الجديدة. بدأت بحزام داخلي مشرَّج دون أكمام. وبينما كانت ناتاشا مائلة الرأس إلى الوراء تنظر في المرآة الكبيرة معاينةً ظهر الحزام، تناهى إلى سمعها صوت محاوَرة محتدمة في البهو بين أبيها وشخص آخر ما لبث صوته أن صعَّد الدماء إلى خديها. كان ذلك الصوت هو صوت هيلين. لم تكن ناتاشا قد خلعت حزامها بعدُ عندما فُتح الباب وظهرت الكونتيس بيزوخوف مشرقة الوجه، بابتسامتها البريئة الأنيسة، في ثوب من المخمل البنفسجي مرتفع الياقة.

قالت لناتاشا التي غدت أرجوانية اللون: «آه! يا لذيذتي! فتانة!»

ثم أضافت وهي تلتفت إلى الكونت إيليا آندريئيفيتش الذي كان داخلًا في أعقابها: «حقًّا يا عزيزي الكونت، إن هذا لا اسم له: أن تكونوا في موسكو ثم لا تذهبوا إلى أي مكان! كلا، لا أريد أعذارًا. إنني أستقبل هذا المساء بعض الأصدقاء. وستروي الآنسة جورج بعض الأشعار. فإذا لم تأتني بفتاتيك اللتين هما ولا شك أجمل من الآنسة جورج، فإنني لا أرغب بعد اليوم في معرفتك. إن زوجي غائب؛ لقد ذهب إلى تفير،[١] ولولا ذلك لأرسلته ليصحبكم. تعالوا حتمًا، هل تسمعون حتمًا، اعتبارًا من الساعة الثامنة.»

---

[١] تفير: مدينة روسية على نهر الفولغا في الشمال الغربي من موسكو، سكانها ١١٠٠٠٠ نسمة. تُدعى اليوم كالينين.

حيت الحائكة التي كانت تعرفها بإشارة من رأسها، والتي انحنت أمامها باحترام كبير، ثم جلست في مقعد قرب المرآة الكبيرة وهي تنشر ثنيات ثوبها المخملي بحركة كيسة. استمرت تثرثر بطيبة نفس عميقة، وتُكثر من تمجيد جمال ناتاشا وفتنتها. فحصت أثواب الفتاة فوجدتها مناسبة ذوقها، وراحت تطري بهذه المناسبة ثوبها الذي تلقته من باريز؛ إنه على أحدث طراز، ومن أفخر الأقمشة، ونصحت ناتاشا بأن تستقدم لنفسها واحدًا مثله، واختتمت قولها: «على أية حال، إن كل شيء ينسجم معك يا فاتنتي.»

استخف الفرح ناتاشا فأشرق وجهها وانبسطت أساريرها بتأثير إطراء تلك الكونتيس بيزوخوف الفاتنة، التي بدت لها لأول وهلة عظيمة الجلال، منيعة الجانب، والتي راحت الآن تعرب لها عن كل هذه الطيبة. كانت على استعداد للافتتان بهذه المرأة المستحبة بقدر ما هي جميلة. أما هيلين فقد كانت من جانبها كَلِفة بناتاشا، ومن أجل ذلك جاءت ذلك اليوم إلى حيث ينزل آل روستوف. بدت لها فكرة التقريب بين هذين الشابين مستحبة مستملحة.

وعلى الرغم من السخط الذي أحست به مرة من قبل، حينما انتزعت ناتاشا في بيترسبورج بوريس منها، فإنها لم تعد تفكر في ذلك قط، بل راحت من صميم قلبها تتمنى لها الخير على طريقتها، وقبل أن تنصرف نأت «بمحميتها» جانبًا: «لقد تغدى أخي بالأمس في البيت فأماتنا من الضحك؛ إنه لا يأكل شيئًا في الآونة الأخيرة، ويتنهد دون انقطاع حسرةً عليك، يا فاتنتي. إنه مجنون بك يا عزيزتي.»

اصطبغ وجه ناتاشا بلون قرمزي.

– «آه! كيف يتضرج وجهها؟ كيف يتضرج وجهها؟ يا لذيذتي! إذن لقد اتفقنا، ستأتين، أليس كذلك؟ إذا كنت تحبين أحدًا يا لذيذتي، فليس ذلك مبررًا لتحبسي نفسك، حتى ولو كنت مخطوبة، فإنني واثقة من أن خطيبك سيَسرُّه أن تندفعي في المجتمع في غيابه بدلًا من أن تذوي هكذا من الضجر.»

حدثت ناتاشا نفسها: «وهكذا، إنها تعرف أنني مخطوبة. لا شك أنهم تحدثوا في الأمر هي وزوجها بيير، هذا الذي هو الاستقامة نفسها، وضحكوا للمغامرة. وإذن لا يوجد في الأمر أي سوء.» ومن جديد أصبح كل ما كان يبدو لها رهيبًا، شديد البساطة طبيعيًّا تمامًا بتأثير هيلين. فكَّرت وهي تحدق في هيلين بعينيها البريئتين المتسعتين: «كم هي مستحبة هذه السيدة الرفيعة! إنها تحبني من كل قلبها، بالتأكيد! ثم لماذا لا أرفه عن نفسي؟»

عادت ماري دميترييفنا في وقت الغداء، كانت أماراتها الكئيبة العابسة تدل على أنها منيت بهزيمة على يدي الأمير العجوز. لم يسمح لها انفعالها بأن تروي بهدوء تفاصيل الواقعة. أجابت على سؤال من أسئلة الكونت أن كل شيء على ما يرام، وأنها ستروي له كل شيء غدًا، ولما اطلعت على دعوة هيلين أعلنت: «إنني لا أحب هذه الـ «بيزوخوف»، ولا أنصحكم بمخالطتها.»

وأضافت تخاطب ناتاشا: «الآن وقد عدت، اذهبي؛ سوف يرفه عنك ذلك.»

الفصل الثالث عشر

حفلة هيلين

رافق الكونت إيليا آندريئيفيتش الفتاتين إلى منزل الكونتيس بيزوخوف. كان المدعوون — وهم كثرة — مجهولين كلهم تقريبًا من ناتاشا. لاحظ أبوها باستياء أن الجانب الأكبر منهم كانوا ممن اشتهروا باستهتارهم. كان الشبان يشكلون حلقة في أحد الأركان حول الآنسة جورج، كان هناك بعض الفرنسيين، ومن بينهم ميتيفيه، الذي منذ مجيء هيلين إلى موسكو، أصبح من المترددين على بيتها، قرر الكونت البقاء مع فتاتيه مستغنيًا عن اللعب، وأن ينصرف منذ أن ينتهي التمثيل.

كان آناتول واقفًا قرب الباب مترقبًا ولا شك وصولهم، وبعد أن حيًّا الكونت، اقترب من ناتاشا وتبعها، فما كادت تراه حتى أحست بذلك الإحساس الغريب، كما وقع لها في المسرح، الذي يناضل فيه الزهو القانع ضد الرعب الذي يُحدثه في نفسها انهيار كل الحواجز الأخلاقية بين هذا الرجل وبينها.

استقبلت هيلين ناتاشا بمبادرة جذلة، وأكبرت جمالها وزينتها بصوت مرتفع، وبعد حين خرجت الآنسة جورج لارتداء ثيابها، فرصفت المقاعد لجلوس المدعوين وشغل كلٌّ مكانه. قدم آناتول كرسيًّا إلى ناتاشا وأراد أن يجلس بقربها، لكن الكونت الذي لم يكن يبتعد عن ابنته احتل المقعد المجاور، فجلس آناتول وراءها.

وقفت الآنسة جورج بذراعيها الضخمين العاريين ذوي «الغمازات»، وعلى أحد كتفيها شال أحمر، في الفراغ المخصص لها وسط المقاعد وقفة متأهبة، فاستقبلتها همهمة إعجاب. وبعد أن تصفحت الوجوه بنظرة قاتمة محزنة، راحت تستظهر أشعارًا موضوعها: حبها المجرم لابنها. كانت ترفع صوتها في بعض المقاطع وتخفضه في مقاطع أخرى وهي تشمخ برأسها باعتداد، وأحيانًا كانت تتوقف وترسل حشرجات وهي تدير في الموجودين عينين كبيرتين. هتف المدعوون من كل جانب: «معبودة، سماوية، لذيذة!»

لم تكن ناتاشا تسمع شيئًا أو ترى شيئًا وهي شاخصة بأبصارها إلى جورج الضخمة. شعرت من جديد أنها محولة نهائيًّا من ذلك العالم السحري، المختلف كليًّا عن الذي عاشت فيه من قبل، عالم لا يمكن تمييز الخير من الشر فيه، ولا العقل من الجنون. كان آناتول جالسًا وراءها. ولما كانت تشعر به قريبًا منها، فقد ظلت متشنجة في ترقُّب مغموم.

وبعد رواية الشعر، أحاط كل المتفرجين بالآنسة جورج مطلقين الأعنَّة لحماسهم. قالت ناتاشا لأبيها الذي نهض كالآخرين ومضى نحو الممثلة مع الجماعة: «كم هي جميلة!»

وقال آناتول الذي تبع ناتاشا: «عندما أراك أكون على رأي آخر.»

ثم انتهز فرصة وجد أنها ستسمعه وحدها وقال: «إنك لذيذة! منذ اللحظة التي ظهرت فيها لي لم أكُفَّ ...»

قال الكونت وهو يعود نحو ابنته: «تعالي يا ناتاشا، كم هي جميلة!»

لحقت ناتاشا بأبيها صامتة وهي تتفحصه بنظرة ذاهلة.

وبعد أن مثلت مشاهد أخرى، انسحبت الآنسة جورج، فدعت الكونتيس بيزوخوف ضيوفها إلى قاعة الرقص.

أراد الكونت أن ينصرف، لكن هيلين توسلت إليه ألا يفسد روعة الحفلة غير المنتظرة، وبقي آل روستوف. راقص آناتول ناتاشا على أنغام الفالس، وأعلن لها وهو يضغط على يديها وقدها أنه يحبها، وأنها رائعة. وخلال رقصة الإيكوسيز التي رقصاها معًا كذلك، اكتفى آناتول خلال اللحظات التي كانا فيها وحيدين بالنظر إلى وجهها دون أن يتفوه بكلمة. تساءلت ناتاشا حينئذ عما إذا لم تكن حلمت أنها سمعت ما قاله خلال رقصة الفالس. وعند انتهاء الحركة التصويرية الأولى، عاد يضغط يدها من جديد. رفعت ناتاشا إليه عينين مروعتين، لكن نظرة آناتول وابتسامته كانتا مطبوعتين بحنان شديد الثقة، حتى إنها ما استطاعت أن تقول له كل ما أرادت قوله. أطرقت بعينيها وتمتمت: «لا تقل لي مثل هذه الأشياء؛ إنني مخطوبة، وأحب شخصًا آخر.»

وبينما هي تغامر بنظرة أخرى إليه، رأت أن اعترافها لم يحزن آناتول ولم يزعجه. قال لها همسًا: «لا تحدثيني عن هذا، ماذا يهمني؟ أقول لك إنني مجنون، عاشق مدنف بحبك. هل هي خطيئتي إذا كنتِ على مثل هذا السِّحر؟ حان دورنا.»

أخذت ناتاشا تنظر دون أن ترى بعينيها الجاحظتين الوحشيتين مُرتبكةً ساخطةً، فبدت أكثر جذلًا من مألوف عادتها. ما كانت تحس بما يدور حولها إلا لمامًا. بعد رقصة

الإيكوسيز، شرع في رقصة «الجد» — وهي رقصة تصويرية ألمانية المنشأ كانوا ينهون بها حفلات العرس الراقصة، كانت شائعة في روسيا — أراد أبوها أن يعود بها، لكنها طلبت إليه البقاء. تنقلت كثيرًا وأبدلت مكانها، وتحدثت إلى هذا وذاك، لكنها ظلت تشعر بنظرة آناتول تلاحقها. تذكرت فيما بعدُ أنها طلبت إلى أبيها أن يسمح لها بالذهاب إلى غرفة الزينة لتسوية ثوبها، وأن هيلين تبعتها إلى هناك وحدثتها وهي ضاحكة عن حبِّ أخيها. وفجأةً رأت نفسها في مخدع صغير مع آناتول. لقد تركتهما هيلين منفردين: آناتول وهي، فأمسك هذا بيديها وقال لها بصوت ملق: «لا أستطيع المجيء إليكِ، ولكن هل يمكن ألا أراك بعد اليوم؟ إنني أحبك كالمجنون. هل أبدأ ...؟»

وسدَّ عليها السبيل وأمال وجهه عليها؛ كانت عيناه اللامعتان شديدتي القرب من عينيها حتى إنها لم تعد ترى سواهما. همس صوت ملح: «ناتالي!»

وأمسك معصمي يديها حتى كاد يسحقهما: «ناتالي!»

وبدت نظرتها التائهة وكأنها تقول: «لست أفهم، ليس عندي ما أقوله لك.»

أطبقت شفاهٌ ملتهبة على شفتيها، لكنها بنفس الوقت شعرت أنها أنقذت: ارتفع صوت خطوات واقترب حفيف ثوب، عرفت ناتاشا هيلين. ألقتْ على الشاب نظرة مروعة واتجهت نحو الباب مرتعدة قرمزية الوجه.

قال لها آناتول: «كلمة، كلمة واحدة بحق الله.»

توقفت؛ كانت في لهفة إلى سماعه ينطق بتلك الكلمة التي تفسر لها كل ما وقع، تلك الكلمة التي تستطيع أخيرًا أن تجيب عليها.

غمغم وهو لا يدري ماذا يقول ولا شك: «ناتالي، كلمة، كلمة واحدة.»

وراح يكرر هذه العبارة حتى اللحظة التي بلغت هيلين مكانهما.

عادت هيلين وناتاشا إلى البهو، ومضى آل روستوف عائدين قبل تناول العشاء. لم تنم ناتاشا قط تلك الليلة؛ كانت مسألة مستعصية الحل تعذبها بإلحاح: أيهما تحب، آناتول أو الأمير آندريه؟ كانت تحب الأمير آندريه. تذكرت شدَّة حبها له، لكنها كانت تحب آناتول أيضًا. حدثت نفسها: «وإلَّا هل كان يمكن أن يحدث كل هذا؟ إذا كنت استطعت بعد كل ما حدث أن أجيب بابتسامة على ابتسامته، إذا كنت بلغت هذه المرحلة، فإن معنى ذلك أنني أحببتُه منذ اللحظة الأولى. معنى ذلك أنه طيب ونبيل وكامل، يتعذَّر عليَّ ألا أحبه. فماذا أعمل إذا كنت أحب هذا وذاك؟» تلك كانت المسألة المقلقة التي لم تجد لها جوابًا.

الفصل الرابع عشر

رسالة آناتول

أقبل الغد بهرجه وأشغاله العادية. نهضوا جميعًا وسعوا وثرثروا، وعادت الحائكات، ثم أقبلت ماري دميترييفنا، والتأم الشمل حول مائدة الشاي. كانت ناتاشا تطالع من حولها بهيئة كئيبة محاولة الظهور كمألوف عادتها وعيناها متسعتان، وكأنها تريد الإحاطة بأتفه نظرة توجَّه إليها.

وبعد الإفطار، وهو الوقت المفضل عندها، جلست ماري دميترييفنا على مقعدها، واستدعت ناتاشا وأباها الكونت العجوز إلى جانبها، وشرعت تقول: «حسنًا يا أصدقائي، لقد فكَّرت في المسألة تفكيرًا جديًّا، وإليكما نصيحتي: لقد كنت البارحة — كما تعلمان — في منزل الأمير نيكولا وتحدثت إليه. صحيح أنه رفع صوته متوهمًا! ولكن لا يُمكن أن يغلق فمي أنا. لقد حدثته بكل صراحة عن وجهة نظري.»

سأل الكونت: «وماذا قرر؟»

– «هو؟ إنه مأفون. إنه لا يريد الإصغاء إلى حرف واحد، ثم ما فائدة كل هذه المفاوضات؟ لقد تعذبت تلك البنية الصغيرة حتى الآن بما فيه الكفاية. نصيحتي أن تنهيا أعمالكما هنا، وأن تعودا إلى مسكنكم في أوترادنواي، وأن ينتظروا جميعًا بصبر.»

هتفت ناتاشا: «آه، كلا!»

– «بلى، بلى، يجب العودة والانتظار بصبر. إن الخطيب إذا جاء إلى هنا؛ فإن الأمر لن ينتهي دون خصام. أما إذا كان وحيدًا مع العجوز، فإنه قادر على الانتصار عليه بإقناعه، ثم يلحق بكم بعد ذلك.»

اقتنع إيليا آندريئيفيتش بحكمة تلك النظرية على الفور فأيَّدها، ذلك أن العجوز إذا أبدل رأيه، فإن من السهولة الذهاب لرؤيته، سواء في موسكو أو في ليسيا جوري، وفي

الحالة العكسية، فإن زواجًا خارجًا عن رغبته لا يمكن أن يحتفل به إلا في أوترادنواي، قال: «إنك على حق تمامًا، إنني آسف لذهابي إلى منزله واصطحابي ناتاشا إلى هناك.»

– «ليس هناك ما يستوجب الأسف، ما كان يمكنكم وأنتم في موسكو إلا أن تقوموا نحوه بتلك المجاملة مرغمين.»

وأضافت ماري دميترييفنا وهي تبحث في حقيبة يدها: «إذا أمعن في رفضه فذلك شأنه، وبما أن الجهاز حاضر فمن العبث الانتظار أكثر من ذلك. أما ما ينقص بعدُ، فإنني على استعداد لتأمينه لكم. إنني آسف لرؤيتكم تغادرونني، لكن ذلك أفضل، فاذهبوا يا أصدقائي. أتمنى لكم سفرًا سعيدًا.»

ولما عثرت أخيرًا على ما كانت تبحث عنه في حقيبة يدها، قدَّمته إلى ناتاشا: كانت رسالة من الأميرة ماري: «إنها كتبت إليك. المسكينة! إنها تزعج نفسها كثيرًا، إنها تخاف من أن تتوهمي أنها لا تحبك.»

أجابت ناتاشا بجرأة وهي تأخذ الرسالة: «مهما قيل، فإنني أعرف أنها لا تحبني.»

كان وجهها يعبر عن عناد بالغ في القسوة، حتى إن ماري دميترييفنا لم تتمالك أن قطبت حاجبيها وشخصت إليها بعينيها تتفحصها، قالت لها ناصحة: «لا تخاطبيني بمثل هذه اللهجة يا صغيرتي. إن ما أقوله هو الحق. اذهبي وأجيبي على رسالتها.»

مضت ناتاشا إلى غرفتها دون أن ترد لتقرأ الرسالة.

كانت الأميرة ماري تنبئها بأنها في حالة يائسة لسوء التفاهم الذي حدث بينهما، ومهما كانت عواطف أبيها، فإنها كانت تتوسل إلى ناتاشا أن تصدق أنها لا تستطيع إلا أن تخص مودتها تلك التي اختارها أخوها. إنها مستعدة للتضحية بكل شيء في سبيل سعادة آندريه.

استرسلت: «على كل حال، لا تظني أن أبي يُبيِّت لك العداء؛ إنه شيخ عجوز مريض يجب معذرته، إنه طيب وكريم، وسينتهي به الأمر إلى محبة تلك التي ستبني سعادة ابنه.»

ثم كانت ماري تسألها أن تتفضل بتحديد الوقت الذي يمكنها أن تراها فيه مرة أخرى.

وبعد أن قرأت هذه الرسالة، انصرفت ناتاشا إلى كتابة الجواب. سطرت بصورة آلية «عزيزتي الأميرة.» ثم توقفت، حدثت نفسها أمام الرسالة التي شرعت في كتابتها: «ماذا يمكنها أن تكتب بعدما حدث بالأمس؟ كلا كلا، إن الأمر لم يعد يتعلق بهذا الآن. لقد اتخذت الأمور شكلًا آخر، يجب عليَّ حتمًا أن أحرره هو مِن وعْده، بلا شك! هل هذا أكيد؟

إنه مريع!» ولكي تفلت من تلك الأفكار المخيفة، دخلت إلى غرفة سونيا حيث راحتا معًا تفحصان رسومًا للوشي.

انسحبت ناتاشا إلى غرفتها بعد الغداء، وعادت تمسك برسالة ماري، تساءلت: «هل حقيقة انتهى كل شيء؟ كيف وقع كل هذا بمثل هذه السرعة ودمر كل الماضي؟» أخذ غرامها بالأمير آندريه ينبعث في مخيلتها بكل قوته الماضية، لكنها ما كانت تستطيع إلا أن تعترف بنفس الوقت بأنها تحب كذلك كوراجين. راحت ترى نفسها زوجة للأمير آندريه، وشرع خيالها يرسم لها السعادة التي تنتظرها معه، لكنها بنفس الوقت، كان كل كيانها يلتهب لذكرى خلوتها مع آناتول.

حدثت نفسها في بعض اللحظات التي يهجرها خلالها تفكيرها المتزن: «لمَ لا أستطيع محبتهما كليهما معًا؟ حينئذ، وحينئذ فقط أكون سعيدة جدًّا. أما الآن، فعلى العكس يجب أن أختار، ولن أجد السعادة إذا حُرمت أحدهما. على كل حال، يستحيل عليَّ أن أعترف للأمير آندريه بكل ما وقع، ولا أن أخفيه عليه، بينما الآخر لا يوجد شيء يخشى فساده، لكن هل يمكن أن أتخلى إلى الأبد عن غرام الأمير آندريه، وعن السعادة التي عشت فيها كل هذا الوقت؟»

قالت لها إحدى الوصيفات بصوت خافت ولهجة غامضة وهي تدخل عليها: «يا آنسة، هذا ما أوصاني رجل بأن أحمله إليك.»

ومدت إليها يدها برسالة، أرادت الوصيفة أن تقول: «ولكن بحق السماء ...»

لكن ناتاشا فضت الخاتم بحركة آلية، واستغرقت في قراءة تلك الورقة اللذيذة التي لم تكن تفهم منها كلمة واحدة، إلا أنها مرسلة من قبله، من قبل الرجل الذي تحبه: «نعم، إنها تحبه، وإلا كيف كان يمكن أن يحدث كل هذا؟ كيف كان يمكن لهذه الرسالة الغرامية أن تكون في حوزتها؟»

كانت ناتاشا تمسك بين يديها المرتعدتين بتلك الرسالة التي تتحرك بالشوق، والتي دبجها دولوخوف لآناتول، فجاءت عباراتها صدًى للعواطف التي ظنَّت أنها تحس بها: «منذ أمس مساء تقرر مصيري: إما أن أكون محبوبًا منك، وإما أن أموت، وليس لدي مخرج آخر.» وبعد هذه المقدمة، قال آناتول إنه يعرف أن ذوي ناتالي لن يوافقوا على تزويجه بها، ولديه أسباب سرية تؤيد هذا المذهب لا يستطيع الكشف عنها إلا لها وحدها، فإذا كانت تحبه يكفي أن تقول له كلمة نعم، وحينئذ لن تستطيع قوة بشرية أن تعترض سبيل سعادتهما. إن الحب ينتصر على كل شيء، سوف يختطفها ويفرُّ بها إلى أقصى العالم.

حدثت ناتاشا نفسها وهي تعيد قراءة تلك الرسالة للمرة العشرين: «نعم، نعم، إنني أحبه!» باتت تظن أنها تكتشف وراء كل كلمة منها معنى عميقًا.

كانت ماري ميترييفنا معتزمة زيارة آل آرخاروف ذلك المساء، فعرضت على الفتاتين مرافقتها، لكن ناتاشا ظلت في البيت بحجة صداع في رأسها.

الفصل الخامس عشر

على شفا الهاوية

عندما عادت سونيا في ساعة متأخرة، ذهبت إلى غرفة ناتاشا فوجدتها — لمزيد دهشتها — نائمة في كامل ثيابها على أريكة، وعلى نضد بجانبها رسالةٌ ملقاةٌ هناك — كانت تلك رسالة آناتول — فأخذتها سونيا وراحت تقرؤها.

وفي تلك الأثناء كانت تنظر إلى ناتاشا النائمة محاولةً إيجاد تفسير لما تقرأ على قسماتها، لم تكتشف إلا الهدوء والسرور والإشراق. سقطت سونيا فوق مقعدها شاحبة ترتعد من الانفعال وهي ممسكة بصدرها المثقل بيديها وانخرطت في البكاء.

تساءلت: «كيف لم أر شيئًا؟ كيف ذهبت الأمور إلى هذا الحد؟ ألم تعد تحب الأمير آندريه إذن؟! ثم كيف استطاعت أن تسمح لكوراجين هذا بمثل هذا الشيء؟ إنه بلا شك ماكر خائن. وماذا سيقول نيكولا الرائع؛ نيكولا النبيل عندما يعلم بكل هذا؟ هذا إذن معنى ذلك الوجه الغريب المنقلب المعتزم كل شيء الذي ظهرت به خلال الأيام الأخيرة! ولكن لا؛ إنها لا تحبه، مستحيل! لا شك أنها فضَّت هذه الرسالة دون أن تعرف مصدرها، لا شك أنها شعرت بإهانة بسببها، إنها لا تستطيع التصرف على هذا النحو.»

مسحت سونيا دموعها، وعادت إلى ناتاشا وراحت تتفحص وجهها من جديد، نادت بنعومة زائدة: «ناتاشا!»

استيقظت ناتاشا فرأت سونيا: «ها أنت قد عدتِ؟»

وفي واحدة من حالات الحنان تلك التي يشعر بها المرء عند الاستيقاظ، اندفعت ناتاشا تعانق صديقتها، لكنها ما إن رأت اضطراب سونيا حتى أحست بدورها بالقلق والتحفظ ينتابانها، سألتها: «سونيا، هل قرأت الرسالة؟»

تمتمت سونيا: «نعم.»

طافت على شفتي ناتاشا ابتسامة ذاهلة: «آه! سونيا، لا أستطيع، كلا، لا أستطيع أن أستمر في إخفاء الأمر عنك، إننا نحب بعضنا! سونيا، يا عزيزتي، إنه يكتب إليَّ ... سونيا ...»

لم تصدق سونيا أذنيها، فراحت تنظر إليها جاحظة العينين، قالت: «وبولكونسكي؟»

– «آه! سونيا، ليتك تعرفين مبلغ سعادتي! لكنك تجهلين معنى الحب.»

– «والثاني يا ناتاشا؟ لقد انتهى كل شيء إذن بينكما؟»

نظرت إليها ناتاشا بعينين متسعتين وكأنها لا تفهمها.

استرسلت سونيا: «إذن، إنك تقطعين علاقتك بالأمير آندريه؟»

ردت ناتاشا بنفاد صبر: «آه! إنك لا تفهمين شيئًا، لا تنطقي بحماقات، أصغي إليَّ جيدًا.»

استأنفت سونيا: «ذلك أنني لا أستطيع تصديق ما أرى. أعترف بأنني لا أفقه شيئًا. كيف؟! أحببت رجلًا طيلة عام كامل ثم فجأة ... وهذا، إنك لم تريه إلا مرتين أو ثلاث مرات! ناتاشا لا أصدق! هل تمزحين؟! في ثلاثة أيام تنسين كل شيء و...»

قالت ناتاشا: «ثلاثة أيام فقط؟ وأنا التي أعتقد أنني أحبه منذ مائة عام! يخيل إليَّ أنني لم أحبب قط أحدًا قبله. إنك لا تقدرين على فهم هذا. هيا يا سونيا، تعالي إليَّ هنا، اجلسي بالقرب مني — وعانقتها وجذبتها نحوها — لقد قيل لي إن ذلك يحدث ولا شك. إنهم قالوا لك مثل ذلك أيضًا، ولكن هذه هي المرة الأولى التي أحس بها بمثل هذا الشيء. إنها ليست كالسابق، ما كدت أراه حتى عرفت سيدي. لقد شعرتُ أنني عبدٌ رقيق له، فهمت أنه يستحيل عليَّ ألا أحبَّه. نعم، إنني عبدٌ رقيق له، إنني على استعداد لإطاعة أمره أيًّا كان نوعه. إنك لا تفهمين هذا، ولكن ماذا أستطيع يا سونيا، ماذا أقدر؟»

اختتمت قولها بهذه العبارة وعلى سيمائها مزيج من السعادة والرعب. هتفت سونيا بسخط وهي تجد صعوبة في إخفاء اشمئزازها: «فكري قليلًا فيما تعملين! لا يمكنني أن أدع هذا الأمر يمر هكذا. هذه الرسائل السرية ... كيف استطعت السماح له بها؟»

– «لقد قلتُ لك إنني كنتُ مسلوبة الإرادة، كيف لا تفقهين ذلك؟ إنني أحبه.»

صرخت سونيا خلال نشيجها: «حسنًا، لن أدعك تفعلين ذلك، سوف أقص كل شيء!»

– «ماذا تقولين؟ رباه! إذا نطقتِ بكلمة كنت عدوتي. معنى ذلك أنك تريدين تعاستي، وأنك تريدين أن يفصلوا بيننا!»

ولما رأت رعب ناتاشا، سكبت سونيا دموع الخجل والإشفاق على صديقتها، سألت: «ولكن، ماذا بينكما؟ ماذا قال لك؟ لمَ لا يأتي إلى هنا؟»

توسلت ناتاشا دون أن تجيب على أسئلة سونيا: «بحق السماء يا سونيا، لا تتحدثي إلى أحد عن الموضوع، لا تعذبيني. تذكري أنه لا يجب أن يتدخل أحد في هذه المواضيع. لقد صرحت لك ...»

– «لمَ كل هذه الأسرار؟ لمَ لا يأتي إلى البيت؟ لماذا لا يطلب يدك بكل بساطة؟ أعطاك الأمير آندريه كل الحرية في أن تتصرفي وفق رأيك، فإذا كانت الأمور حقيقة قد توقفت عند هذا الحد ... ولكن لا، إنني أرفض تصديق هذا! ناتاشا، هل فكرت فيما يمكن أن تكونه تلك الأسباب السرية؟»

ساءلتها ناتاشا بنظرة ذاهلة — لا شك أن السؤال قد أربكها؛ لأنها لم تطرحه بعدُ على نفسها: «هذه الأسباب أجهلها، لكن يجب التصديق بأن لديه أسبابًا!»

زفرت سونيا وهزَّت رأسها، همَّت أن تقول: «إذا كانت لديه أسباب ...»

لكن ناتاشا روعت للشكوك التي ظهرت على صديقتها فلم تتركها تتم قولها، صرخت: «سونيا، لا يجب الاسترابة به! لا يجب، لا يجب، هل تفهمين؟»

– «هل يحبك؟»

ردت ناتاشا التي انتزع غباء صديقتها منها ابتسامة إشفاق: «إذا كان يحبني؟ لكنك قرأت رسالته!»

– «ولكن ماذا إذا لم يكن رجلًا نبيلًا؟»

– «هو! ليتك تعرفينه!»

استأنفت سونيا بعزم: «إذا كان رجلًا نبيلًا، يجب عليه أن يعلن عن نواياه أو يكف عن رؤيتك، وإذا كنت لا تريدين القيام بذلك بنفسك، كتبت له نيابة عنك وأبلغت «بابا» بالأمر.»

هتفت ناتاشا: «لكني لا أستطيع أن أعيش بدونه!»

– «ناتاشا، لست أفهمك، ماذا تقولين؟ فكري في أبيك، في نيكولا.»

– «لست في حاجة إلى أحد، لست أحب أحدًا سواه، كيف يمكنك القول بأنه ليس رجلًا نبيلًا؟ ألا تعرفين أنني أحبه؟ اذهبي يا سونيا! لا أريد أن أخاصمك، اذهبي أتوسل إليك، اذهبي، إنك ترين كم أتألم.»

ألقت ناتاشا بتلك العبارات بلهجة شديدة العنف، وبغضب غير مكظوم، حتى إن سونيا ذرفت دمعًا سخيًّا وفرَّت.

جلست ناتاشا إلى منضدتها، ودون أن تفكر لحظة واحدة، كتبت للأميرة ماري الجواب الذي لم تستطع إنجازه طيلة يومها، أنبأتها ببضع كلمات أن سوء التفاهم الذي

قام بينهما قد انتهى، انتهازًا منها لكرم الأمير آندريه الذي سمح لها قبل رحيله بالتمتع بكل حريتها، فإنها تحلُّه من وعده الآن، وبالتالي، لتتفضل ماري بنسيان مقابلتهما، والصفح عن كل ما يمكن أن تكون قد أظهرته من إساءات حيالها.

بدا كل ذلك في تلك اللحظة آية في السهولة والبساطة والوضوح.

كان على آل روستوف أن يعودوا إلى بيتهم يوم الجمعة. وفي يوم الأربعاء، ذهب الكونت مع المشتري إلى حقله في الضاحية.

ذلك اليوم بالذات، كانت سونيا وناتاشا مدعوتين إلى حفلة غداء كبرى في دار آل كاراجين، فصحبتهما ماري دميترييفنا، قابلت ناتاشا آناتول من جديد هناك. لاحظت سونيا أنهما تحدثا معًا بطريقة لا تجعل سواهما ينصت إلى أقوالهما، وأنها ظهرت أكثر اضطرابًا أثناء الطعام من ذي قبل، وعندما عادتا إلى البيت توقعت ناتاشا أسئلة صديقتها، شرعت تقول بتلك اللهجة الماكرة التي يعمد إليها الأطفال الطامعين في الإطراء: «أرأيت يا سونيا، لقد حدثتني بحماقات بصدده. إن كل ذلك خطأ. لقد تفاهمنا حول هذا الموضوع منذ حين.»

– «آه! وماذا قال لك؟ كم أنا سعيدة يا ناتاشا لأنك لم تحنقي علي، قولي لي كل شيء وبصراحة تامة، ماذا قال لك؟»

فكرت ناتاشا برهة: «آه سونيا! ليتك تعرفينه كما أعرفه! لقد قال لي ... سألني عن طبيعة وعدي لبولكونسكي، وقد ابتهج حينما عرف أن الأمر يتوقف عليَّ في فصم الخطوبة مع الأمير آندريه.»

أطلقت سونيا زفرة عميقة، قالت: «لكنك على ما أعلم لم تقطعي علاقتك ببولكونسكي؟»

– «بل يجوز أن أكون قد قطعتها! يجوز تمامًا أن يكون كل شيء قد انقطع! لمَ تحملين مثل هذه الفكرة السيئة عني؟»

– «ليست لدي أية فكرة سيئة، لكنني لا أفهم ...»

– «انتظري يا سونيا، ستفهمين كل شيء، سترين أي رجل هو. لا تكوِّني فكرة سيئة لا عني ولا عنه.»

– «إنني لا أفكر بسوء في أحد، إنني أحب وأعطف على كل الناس، ولكن ماذا أستطيع أن أعمل؟»

لم تستسلم سونيا للهجة الحاذقة التي كانت تصفها ناتاشا، أخذت تقابلها بوجه يزداد صرامة كلما أمعنت هذه في دلالها، قالت لها: «ناتاشا، لقد سألتني ألا أحدثك عن

هذا، ولقد صمَتُّ، وإنك أنت التي بادرتني بالكلام الآن. إنني لا أثقُ فيه يا ناتاشا. ما معنى هذه الأسرار؟»

– «عدنا إلى هذه النغمة!»

– «إنني خائفة من أجلك يا ناتاشا.»

– «ومن أي شيء تخافين؟»

أعلنت سونيا بصراحةٍ ندِمتْ عليها لفورها: «إنني أخاف أن تذهبي بنفسك إلى دمارك.»

اتخذ وجه ناتاشا من جديد طابعًا خبيثًا: «حسنًا، نعم، سأخسر نفسي وبأسرع ما يمكن أيضًا! إن هذا ليس شأنك، إنني أسيء إلى نفسي، إلينا نحن. دعيني، دعيني، أمقتك.»

هتفت سونيا مروعة: «ناتاشا!»

– «نعم، أمقتك، أمقتك؛ إنك عدوتي إلى الأبد!»

وفرَّت ناتاشا.

لم تتحدث بعد ذلك إلى سونيا بكلمة واحدة، بل كانت تتجنب لقاءها. ظلت تروح وتجيء في البيت بنفس تلك المسحة المذنبة المشدوهة، تشغل نفسها بمشاغل كثيرةٍ توقفت عن الاهتمام بها منذ حين.

لم تترك سونيا ناتاشا تغيب عن عينيها رغم العناء الذي كانت تحس به. لاحظت في أمسية اليوم الذي سبق عودة الكونت أن ناتاشا تطيل الوقوف أمام نافذة البهو وكأنها تترقب حادثًا معينًا، ثم رأتها تشير إلى عسكري كان مارًّا هناك خُيل لسونيا أنها عرفت فيه آناتول.

ضاعفت انتباهها ولاحظت أن ناتاشا كانت غريبة التصرف غير طبيعية خلال فترة الغداء والسهرة؛ كانت تجيب خطأ على الأسئلة، لا تتم جملها وتضحك لكل مناسبة.

وبعد الشاي، رأت سونيا عند عودتها إلى غرفتها أن وصيفةً شديدة الارتباك كانت تترقب مرورها عند باب غرفة ناتاشا. مرَّت لكنها عادت على أعقابها وألصقت أذنها على الباب، فاقتنعت أن رسالة جديدة قد سُلِّمت إليها.

وفجأة رأت سونيا بوضوح أن ناتاشا تدبر خطة مريعة تلك الليلة بالذات. قرعت باب صديقتها عبثًا.

حدَّثت سونيا نفسها: «سوف تفرُّ معه. إنها قادرة على مثل ذلك. لقد بدت اليوم شديدة الحزن، ولكن أكثر حزمًا من أي يوم. لقد بكت وهي تودِّع عمي. نعم، لا شك أنها ستفرُّ معه. ماذا يجب عليَّ أن أصنع؟»

تذكرت في تلك اللحظة بعض الوقائع التي تؤيد شكوكها الخطيرة: «إن الكونت ليس هنا. ماذا يجب أن أصنع؟ هل أكتب لكوراجين مطالبة إياه بتفسير عن كل هذا؟ لكن من يرغمه على الإجابة على رسالتي؟ أأكتب لبيير كما طلب الأمير آندريه أن نعمل في حالات الشؤم؟ لكن ألم تقطع رباطها ببولكونسكي. لقد رأيتها ترسل أمس مساءً جوابها إلى الأميرة ماري. ثم إن عمي ليس هنا!»

أما أن تقول كل شيء لماري دميترييفنا التي كانت لها ثقة كبيرة بناتاشا، فإن سونيا ما كانت تقر هذا التصرف، فكرت وهي في الممشى المعتم: «على كل حال، لقد أزف الوقت لأبرهن عن عرفاني لهم جزاء إحسانهم ولقاء حبي لنيكولا؛ لن أتزحزح من هذا الممشى ولو أمضيت ثلاث ليالٍ ساهرة، وسأمنعها من الخروج ولو اضطررتُ إلى استعمال القوة. كلا لن أترك وصمة العار تدخل إلى أسرتهم.»

الفصل السادس عشر

خطة الاختطاف

منذ بضعة أيام أقام آناتول عند دولوخوف، وكان هذا قد وضع خطة اختطاف وجب تنفيذها في ذلك المساء بالذات، الذي قررت سونيا التي تراقب باب ناتاشا أن تقاوم فرارها. كانت ناتاشا قد وعدت بموافاة كوراجين في الساعة العاشرة عن طريق سلم الخدم؛ حيث سيضعها في زحافة سريعة جاهزة ليحملها إلى خمس عشرة مرحلة بعيدًا عن موسكو؛ حيث ضاحية كامانكا، وهناك سيعقد قسيس مطرود قرانهما، وستحملها خيول المراحل على طريق فارسوفيا، ومن هناك إلى الخارج عن طريق عربة البريد.

كان آناتول قد تدبر جواز سفر وإذن بالركوب في عربة البريد، وكانت أخته قد أعطته عشرة آلاف روبل، واقترض مبلغًا مماثلًا عن طريق دولوخوف، وكان الشاهدان: خفوستيكوف — وهو أحد موظفي المستشارية السابقين، الذي كان دولوخوف يستخدمه بأعماله المتعلقة بالمقامرة — وماكارين؛ وهو من الفرسان المتقاعدين، طيب، ضعيف الإرادة، يؤمن بكوراجين إيمانًا حقيقيًّا؛ يشربان الشاي في الحجرة الأولى من الشقة.

وفي مكتبه الكبير المزين كله بالسجاد العجمي وجلود الدببة ومجموعات الأسلحة، جلس دولوخوف قرب مكتبه المفتوح وهو في سترة السفر ينقل حذاءين عاليين، وأمامه عداد ورزم من الأوراق النقدية. أما آناتول فكان ينتقل محلول أزرار الثوب بين حجرة الشهود مخترقًا المكتب والغرفة، التي يشرف خادمه الفرنسي فيها على معدات السفر الأخيرة. كان دولوخوف يقوم بإحصاء النقود، قال: «أتدرين، يجب إعطاء ألفي روبل لخفوستيكوف.»

– «ليكن، أعطها له.»

قال دولوخوف وهو يريه قائمته: «إن هذا الباسل ماكارين لا يريد شيئًا. إنه على استعداد لإلقاء نفسه في النار إرضاءً لك. هيا، لقد انتهت الحسابات، هل ترضيك؟»

أجاب آناتول الذي لم يسمع شيئًا، بل كان يحدق أمامه تائهًا وعلى شفتيه ابتسامته الخالدة: «بالطبع بكل تأكيد.»

أغلق دولوخوف مكتبه بجلبة، وخاطب صديقه بلهجة ساخرة قائلًا: «اسمع، دع عنك كل هذه المسألة، لا يزال في الوقت متسع.»

هتف الآخر: «يا سخيف! لا تنطق بالحماقات. لو كنت تعلم ... هل يظن ...؟»

ألح دولوخوف: «حقًّا، دعْ عنك هذا، إنني أكلمك جديًّا. إن القضية غير مضمونة، أتدري ...؟»

قال آناتول وهو يعبس: «هيا، ها إنك تعاود الكرة! إنك تزعجني آخر الأمر. اذهب إلى كل الشياطين. هه! إنني لست في حالة تساعدني على الإصغاء إلى هذرك.»

اتجه نحو الباب، فشيعه دولوخوف بابتسامة مطاوعة ساخرة. هتف به: «انتظر قليلًا! لست أمزح، إنني جاد كل الجد. تعال، هيا.»

عاد آناتول على أعقابه، واستجمع كل انتباهه وراح يتأمل دولوخوف الذي كان يخضع رغمًا عنه لنفوذه: «لآخر مرة، أرجوك أن تصغي إليَّ. لم أمزح، هل وضعت لك مرة العصي في العجلات؟ من الذي رتَّب كل شيء؟ مَن الذي اكتشف القس؟ من الذي حصل على جواز السفر؟ من الذي عرف كيف يتدبر المال؟ إنه أنا.»

أجاب آناتول: «صحيح، وإنني أشكرك من أجل كل هذا. هل تتصور مرة أنني لست لك شكورًا؟»

– «لقد ساعدتك. وهذا معترف به، لكن من واجبي أن أقول لك الحق: إن المغامرة خطيرة، بل وحمقاء إذا أمعنا فيها النظر. حسنًا، إنك تخطفها، حسنًا جدًّا. هل تظن أن الأمر سيقف عند هذا الحد؟ إذا عرفوا أنك متزوج قبل هذه المرة، سوف يرفعون أمرك إلى القضاء.»

قال آناتول وقد عاد مكتئبًا: «حماقات كل هذه! لكنني فسرت لك من قبل.»

وراح آناتول بعناد الأشخاص المحدودين الذين حشو رءوسهم بشيء أقنعهم يكرر على دولوخوف الحجة التي كررها مائة مرة عدًّا: «لقد شرحت لك من قبل وجهة نظري في الموضوع.» وراح يعد على أصابعه: إذا كان هذا الزواج غير رسمي؛ فإنني لا أحتمل أية مسئولية، وإذا كان رسميًّا فماذا يهمني؟ لن يعرف أحد بأمره في الخارج. اثنان. هذا صحيح؛ أليس كذلك؟ إذن ولا كلمة بعدُ، ولا كلمة!»

– «صدقني، اصرف النظر عن كل هذا! سوف يسوء المنقلب.»

قال آناتول: «اذهب إلى الشيطان!»

وأمسك برأسه بين يديه وخرج، ثم عاد بعد قليل وتربَّع على مقعد بجانب دولوخوف تمامًا. أمسك بيده ووضعها على قلبه وقال: «ألف رعد، ما معنى هذا؟ خذ، انظر كم يخفق؟ آه يا له من قدم يا عزيزي! يا لها من نظرة! آلهة! رهن؟»

راح دولوخوف يتمعن في آناتول وعلى شفتيه ابتسامة باردة، وفي عينيه لهيب مشتعل، وهو يجد لذة كبيرة في مشاكسته دون ريب: «وعندما تنفق المال كله، ماذا تعمل؟»

هدت هذه النظرية التي لم يفكر فيها آناتول قط قواه. كرر: «ماذا سأعمل؟ ماذا سأعمل؟ لعمري لست أدري ... إلى الشيطان كل هذه الخزعبلات!»

واختتم قوله وهو ينظر إلى ساعته: «لقد حان وقت الذهاب.»

ومضى إلى الحجرة الخلفية وصاح بالخدم: «هولا، يا زمرة المتوانين، ألم تنتهوا بعدُ؟»

حزم دولوخوف المال وأمر خادمه أن يهيئ شيئًا يأكلونه قبل الرحيل، ثم ذهب إلى الغرفة التي كان خفوستيكوف وماكارين فيها.

كان آناتول مستلقيًا على أريكة المكتب يبتسم بشرود وحنان، ويغمغم ببضع كلمات بين شفتيه الجميلتين. هتف به دولوخوف من الحجرة المجاورة: «تعال كلْ شيئًا. اشرب قدحًا على الأقل.»

فأجاب آناتول دون أن يكفَّ عن الابتسام: «كلا، شكرًا.»

– «تعال؛ إن بلاجا هنا.»

نهض آناتول ومضى إلى غرفة الطعام. كان بلاجا — وهو مؤجر زحافات مشهور — يعرف الصديقين اللذين كثيرًا ما احتاجا إلى خدماته منذ خمس أو ست سنين. لقد حمل آناتول أكثر من مرة من «تفير» مساءً عندما كان فيلقه مخيمًا هناك، ليصل به إلى موسكو عند الفجر ويعيده في الليلة التالية إلى مركزه، وهو الذي أفلت دولوخوف أكثر من مرة من مطاردات مزعجة، ونقل الصديقين أكثر من مرة عبر المدينة بصحبة بوهيميين و«سيدات صغيرات»، كما كان يقول، وكثيرًا ما دعس بعض المارة أو قلب عربات خلال تلك الجولات الهوجاء، فكان أولئك «السادة»، كما كان يسميهما، ينقذانه من محنته. كم من مرة ضرباه! وكثيرًا ما أسقياه شامبانيا ونبيذ مادير، نبيذه المفضل. إنه يعرف عن كلٍّ منهما أكثر من مغامرة تقضي أقلها بهما إلى منافي سيبيريا. كانا يدعوان بلاجا غالبًا إلى مائدتهما الحافلة ويرغماه على الشراب والرقص مع البوهيميين، وينقلان بواسطة ورقة من ذات الألف روبل أكثر من مرة. لقد غامر بحياته في خدمتهما عشرين مرة للخطر كل عام، أو غامر بجلد ظهره على الأقل، وأضاع عددًا من الخيول أكبر من أن تفي الأموال

التي تقاضاها منهما بثمنها. مع ذلك، فقد كان يحبهما. كان يحب تلك الرحلات المجنونة بسرعة خمسة فراسخ في الساعة. يحب أن يخرق شوارع موسكو ويدهس المشاة ويقلب العربات، يحب أن يسمع وراءه أصواتًا سكرَى تزمجر به: بسرعة أكثر! بسرعة أكثر! بينما يكون مستحيلًا عليه أن يزيد في اندفاع خيوله. كان يحب أن يضرب بسوطه قذال عاشق يبتعد بسرعة عن طريق ذلك الإعصار وهو ميت أكثر منه حي.

«إنهم سادة حقيقيون.» ذلك كان رأي بلاجا عن آناتول ودولوخوف اللذين من جانبهما أحلَّاه محلًّا في مودتهما؛ لأنه كان أمهر سائق، ولأن له أذواقًا متجانسة مع أذواقهما، كان مع غيرهما من الزبائن يساوم ويطلب خمسة وعشرين روبلًا أجرًا لرحلة مدتها ساعتان، ويحل أحد غلمانه محله غالبًا، ولكن مع هؤلاء «السادة» كان يقود العربة بنفسه، ولا يسألهما قط دانقًا، وعندما يبلغه عن طريق وصيفيهما أنهما يملكان مالًا، مرة كل ثلاثة أو أربعة شهور، كان يزورهما صباحًا قبل أن يشرب شيئًا، ويسألهما بعد أن يحييهما بصوت خافت، أن ينقذاه من محنة مالية، فكان «سادته» يجلسانه دائمًا. كان يقول: «يا فيدور إيفانيتش، يا سيدي الطيب، أو يا صاحب السعادة، لا تبخل عليَّ بكتفك: لم يبق عندي حصان واحد، ويجب مع ذلك أن أمضي إلى سوق العرض؛ أقرضني ما تستطيع.»

وحينئذ يعطيه آناتول ودولوخوف — إذا كانا موسرين — ورقة أو ورقتين من ذات الألف روبل.

كان بلاجا فتًى أشقر في السابعة والعشرين من عمره تقريبًا، مربوع القامة، ملون الوجه، غليظ العنق، أشد احمرارًا من وجهه، قصير اللحية، لامع العينين صغيرهما. كان يرتدي فوق فروته القصيرة جلبابًا أزرقَ من قماش ناعم مبطن بالحرير.

رسم إشارة الصليب أمام الصور المقدسة وتقدم نحو دولوخوف ومد له يده الصغيرة الداكنة، وقال وهو ينحني: «احتراماتي لفيدور إيفانوفيتش!»

– «مرحبًا يا عزيزي. آه! ها هو!»

وقال لآناتول الذي دخل في تلك اللحظة وهو يمد له يده: «احتراماتي لسعادتك!»

قال آناتول وهو يضع يده على كتفه: «اسمع يا بلاجا. هل تحبني حقيقة. هن؟ الأمر يتعلق بخدمة تؤديها لي. أية خيل جئت بها؟ هِن؟»

– «تلك التي أمرتني بقطرها؛ الحيوانات المتوحشة.»

– «إذن انتبه يا بلاجا! اقتل خيولك إذا وجب الأمر، ولكن اقطع الطريق في ثلاث ساعات. هِن!»

اعترض بلاجا وهو يغمز بعينيه بمكر: «إذا تركتها تنفق، كيف نصل؟»

زمجر آناتول فجأة وهو يدير عينيه الكبيرتين: «لا تمزح أو أحطم «بوزك».»

قال الحوذي ضاحكًا: «المزاح لا يسيء أبدًا. هل أرفض شيئًا لسادتي؟ سنمضي بأقصى سرعة بالطبع.»

قال آناتول: «حسنًا! والآن اجلس.»

وألح دولوخوف: «اجلس، هيا!»

– «إنني مستريح هكذا يا فيدور إيفانوفيتش.»

قال آناتول وهو يصب له قدحًا كبيرًا من خمرة ماديرا: «لا حاجة إلى الرسميات، هن! اجلس وابلع.»

التمعت عينا الحوذي لدى رؤية النبيذ، وبعد أن رفض تأدبًا تجرَّع القدح ومسح شفتيه بوشاح أحمر كان يخفيه في قلنسوته.

– «إذن متى تذهب يا صاحب السعادة؟»

قال آناتول بعد أن نظر إلى ساعته: «ولكن فورًا، ولكن اعلم يا بلاجا، انتبه هِن! يجب أن نصل في الوقت المناسب.»

قال بلاجا: «هذا يتوقف على الرحيل، فإذا تم على ما يرام ... وبعد، لم لا نصل في الوقت المعين؟! لقد ذهبنا مرة في سبع ساعات إلى تفير، إنك تتذكر ولا شك يا صاحب السعادة.»

قال آناتول وهو يبتسم لهذه الذكرى ويلتفت نحو ماكارين الذي كان يلتهمه بنظراته بغباء: «نعم. أتعلم، ذات مرة في عيد الميلاد، جئت من تفير. نعم، تصوَّر يا عزيزي إن السرعة كانت تقطع أنفاسنا. وبلحظة واحدة، بينما كانت قافلة تقطع علينا الطريق، قفزنا فوق عربتين. هن! ماذا تقول؟»

فأعقب بلاجا محدثًا دولوخوف: «ولكن يا لها من خيول تلك! لقد وضعت إلى جانبي أدهمي، مهرين جميلين ليكونا حصاني الجانبين. هل تصدق يا فيدور إيفانوفيتش: لقد قطعت هذه الحيوانات الصغيرة خمس عشرة مرحلة دون توقف، كان الصقيع شديدًا وكانت أيدينا مخدرة لا يمكننا إمساك الأعنة بها وتركت أعنة؟ قلت: امسكها يا صاحب السعادة. وسقطت كتلة واحدة داخل الزحافة. آه! لقد أثرت تلك الحيوانات تمامًا! لكنني لم أستطع الإمساك بالأعنة حتى النهاية. لقد قطعوا المسافة في ثلاث ساعات؛ الشياطين، لكن الحصان الأيسر نفق عقب ذلك.»

الفصل السابع عشر

فشل الخطة

خرج آناتول وعاد بعد قليل مرتديًا فروة تلف جسمه، ربطها بنطاق مزين بالفضة عند وسطه، وقلنسوة من السمور مائلة على أذنه تتفق تمامًا مع وجهه الجميل، وبعد أن درس وضعيته أمام المرآة، انتصب أمام دولوخوف وقال وهو يمسك قدحًا في يده: «هيا، الوداع يا فيديا. أشكرك لكل خدماتك، الوداع.»

وأضاف بعد أن بحث فترة طيبة عن الكلمة المناسبة: «هيا يا زملائي، أصدقاء الـ... أصدقاء صباي، الوداع!»

كانت تلك الجملة الأخيرة موجهة إلى ماكارين والآخرين، وعلى الرغم من أنهم جميعًا كانوا سيرافقونه، فإن آناتول كان يتعمد إعطاء وداعه لهجة مؤثرة. كان يحدث بصوت مرتفع متناسق مبرزًا صدره، متأرجحًا على ساقيه.

– «تعالوا جميعًا واقرعوا أقداحكم، وأنت يا بلاجا، يا زملائي وأصدقاء صباي، لقد أمضينا زمنًا جميلًا. لقد قمنا بكثير من الجنون معًا. والآن: متى نلتقي من جديد؟ إنني ماضٍ إلى الخارج. وداعًا أيها السرور، وداعًا يا أصدقائي البواسل، نخب صحتكم. هورا!»

أفرغ كأسه دفعة واحدة وحطمها. قال بلاجا الذي تجرع كأسه كذلك ومسح يديه بوشاحه: «ضم ماكارين آناتول إلى صدره وعيناه سابحتان في الدموع.»

– «آه! يا أمير، إنني عظيم الألم لافتراقي عنك!»

هتف آناتول: «هيا! إلى المسير!»

استعد بلاجا للخروج، فقال آناتول: «لحظة واحدة! أوصد الباب ولنجلس. هكذا، هنا.»

أغلقوا الباب وجلسوا جميعًا (من عادة الروسيين قبل سفر، وخصوصًا في المناسبات الجليلة، أن يجلسوا ويستجمعوا أنفسهم فترة).

استأنف آناتول وهو ينهض: «والآن إلى الأمام سِرْ، أيها البواسل!»

قدَّم له جوزيف، الوصيف، سيفَه وجعبته الجلدية.

استفسر دولوخوف: «ولكن أين الفروة؟ هولا! إينياس! امض فورًا إلى ماترون ماتفيئيفنا واطلب منها معطفًا من الفراء؛ المعطف المصنوع من فراء السمور. هل سمعت ...؟»

وأضاف وهو يغمز بعينه: «إنني أعرف كيف تجري الاختطافات، سوف تلقي بنفسها إلى الخارج ميتة أكثر منها حية، دون أن تكون متدثرة بشيء. وإذا وقع أدنى تأخير سالت الدموع على الفور، فتنادي «بابا وماما» وسترتعد وتطلب العودة. أما إذا كانت معك فروة، فستزمِّلها بها وتقودها حتى الزحافة.»

جاء الخادم بفروة من جلد الثعلب.

– «معطف السمور أيها الحيوان! ألم أقل لك، نعم أو لا؟»

وصرخ بصوت دوى حتى بلغ أقصى الشقة: «آه! ما ترون، معطفك السمور!»

هرعت بوهيمية جميلة، نحيلة وشاحبة، تلبس شالًا أحمر، حاملة معطف السمور. كانت عيناها السوداوان تلتمعان وخصلات شعرها الأسود تعكس لونًا أزرق. قالت وهي تخاف ولا شك غضبة سيدها ومالكها، وتأسف بنفس الوقت على فروتها: «خذ، خذها، سيان عندي.»

ودون أن يجيبها، ألقى دولوخوف بالفروة على كتفيها، ولفَّها حول قدِّها، وقال وهو يرفع الياقة بشكل لا يترك معه إلا فتحة صغيرة للوجه: «أترين هكذا ... ثم هكذا، وأخيرًا هكذا، أرأيت؟»

وأجبر آناتول على أن يميل فوق الفتحة التي كانت ابتسامة البوهيمية تلتمع خلالها. قال آناتول وهو يقبلها: «هيا، الوداع، الوداع يا ماترون. انتهت الحياة الطيبة! تهانئي إلى ستيفاني! هيا، الوداع، الوداع يا ماترون. تمني لي حظًّا سعيدًا.»

قالت ماترون بلكنة بوهيمية: «ليمنحك الله كل السعادات الممكنة يا أميري.»

وقفت زحافتان قرب المرقاة يقودهما فتيان متينا البنيان. صعد بلاجا إلى الأولى، ورفع مرفقيه إلى الأعلى وراح يجمع السيور بتؤدة في يديه. جلس ماكارين وخفوستيكوف والوصيف في الزحافة الثانية. سأل بلاجا: «هل نحن على استعداد؟»

وصرخ وهو يلف الأعنة حول ذراعه: «إذن، إلى الأمام سر!»

وانحدر الموكب بأقصى سرعة جادة القديس نيكولا. أخذ بلاجا وغلاماه الجالسان على المقعد يصيحون: «هو! آواه! ... هو! آوه!»

اقتحموا عربة في ساحة «أربات»، فارتفعت فرقعة ثم صيحة، لكن الزحافة كانت تطوي في تلك اللحظة شارع «أربات».

وبعد أن صعدوا ثم هبطوا جادة بودنوفيتسكي على كل طولها، استمهل بلاجا خيوله ثم عاد إلى الوراء وأوقفها في زاوية شارع «فيي إيكوري» الإسطبلات القديمة، قفز الغلام من المقعد ليمسك بالخيول من أعنتها، وصعد آناتول ودولوخوف الرصيف. وعندما اقتربا من البوابة، صفَّر دولوخوف. أجابه صفير آخر على صفيره، وظهرت وصيفة هرعت إليه تقول: «ادخلوا الفناء وإلا رأوكما. إنها قادمة على الفور.»

ظل دولوخوف قرب البوابة بينما تبع آناتول الوصيفة ودار حول ركن الفناء، ثم تسلق درجات المرقاة ليجد نفسه وجهًا لوجه مع جافريل؛ الخادم المرافق العملاق لماري دميترييفنا، قال له الخادم بصوت خفيض وهو يقطع عليه طريقه: «إن سيدتي تطلبك. تفضل واتبعني.»

غمغم آناتول بصوت متقطع: «أية سيدة؟ من أنت؟»

– «تفضل واتبعني. إن لدي أمرًا باصطحابك.»

صرخ دولوخوف: «كوراجين، عدْ! لقد خانونا! لنفر!»

كان دولوخوف يتعارك مع البواب الذي حاول إغلاق البوابة وراء آناتول. استطاع أن يتخلص من تلك المضايق بمجهود جبار، ثم أمسك بذراع آناتول الذي كان قادمًا بسرعة وجذبه بقوة حتى تخطيا المدخل، ثم جريا بكل قوة حتى وصلا إلى زحافتهما.

الفصل الثامن عشر

رد الفعل

فاجأت ماري دميترييفنا في الممشى سونيا غارقة في دموعها، فلم تدعها إلا بعد أن انتزعت منها اعترافًا كاملًا. احتجزت رسالة ناتاشا وقرأتها، ثم دخلت على «فليونتها» والورقة في يدها. قالت لها: «أيتها الخائنة! يا خالعة العذار! لا أريد أن أسمع شيئًا.»

دفعت ناتاشا التي كانت تحدق فيها بعينين ذاهلتين، ولكن حادَّتين، وأغلقت الباب بالمفتاح. وبعد أن أوعزت للبواب أن يسمح بالدخول لكل من يحضر، ويمنع خروج أيٍّ كان، ولخادمها المرافق أن يأتيها بالقادمين، جلست في البهو تنتظر المغررين.

وعندما جاء جافريل ينبئها أن الأشخاص لاذوا بالفرار، زوت حاجبيها ونهضت، وراحت تذرع البهو طويلًا ويداها وراء ظهرها؛ تفكر فيما يجب عليها صنعه. عادت إلى غرفة سونيا حوالي منتصف الليل بعد أن لمست المفتاح في جيبها. كانت سونيا لا تزال تنشج في الممشى، توسلت إليها: «يا ماري دميترييفنا، دعيني أدخل معك.»

فتحت ماري دميترييفنا الباب دون أن تجيبها، حدَّثت نفسها وهي تحاول السيطرة على غضبها: «إنه مخجل، إنه مرذول! تحت سقفي! يا للفتاة الرديئة الفاجرة! لكنني أشفق على أبيها، وعلى الرغم من صعوبة الامتثال للأمر، فسآمر كل الناس أن يصمتوا، وسأخفي الأمر عن الكونت.» دخلت الحجرة بخطوة ثابتة. كانت ناتاشا ممسكة رأسها بين يديها مسترخية الجسد، ممددة على الأريكة في مثل الوضع الذي تركتها عرابتها عليه، قالت هذه: «حسنًا! إن هذا شريف! إعطاء المواعيد للعشاق تحت سقف بيتي! لا تتصنعي الطهر والسذاجة. أصغي عندما يحدثونك.»

كررت وهي تلمس ذراعها: «ألا تسمعين؟ لقد جللت نفسك بالعار كأسوأ الفتيات. إنني أعرف تمامًا ما يجب أن أصنعه، لكنني أشفق على أبيك، لن أقول له شيئًا.»

ظلت ناتاشا ساكتة، لكن نشيجًا خافتًا كان يخنقها، ولم يلبث جسمها كله أن تقلص متشنجًا. تبادلت ماري دميترييفنا نظرة مع سونيا، ثم جاءت تجلس على الأريكة بجانب «فليونتها».

قالت بصوتها القاسي: «لقد استطاع الإفلات مني! لكنني سأجده. حسنًا! هل تسمعين ما أقوله لك؟»

أدخلت يدها الضخمة تحت رأس ناتاشا وأدارته نحوها. روعت ماري دميترييفنا وسونيا لمرأى ذلك الوجه ذي العينين اللامعتين الجافتين، والشفتين المضمومتين، والخدين الهضيمين.

قالت: «دعوني. ماذا يهمني؟ أريد أن أموت.»

انتزعت نفسها بغضب من يدي ماري دميترييفنا وعادت تستغرق في وهنها.

قالت ماري دميترييفنا: «ناتالي! إنني لا أريد إلا صالحك. امكثي هكذا إذا كنت تفضلين. لن أمسَّكِ، ولكن أصغي إليَّ. لا أريد أن أقول إلى أية درجة بلغت في ذنبك. إنك تعرفين ذلك مثلما أعرفه. نعم، تمامًا. لكن أباك يعود غدًا، فماذا أقول له؟ هِن؟»

لم تجب ناتاشا إلا بالنحيب.

– «وإذا علم بالأمر من آخرين، وإذا اطلع أخوك أو خطيبك على الأمر؟»

صرخت ناتاشا فجأة: «لم يعد لي خطيب، لقد قطعت صلتي به.»

استرسلت ماري دميترييفنا تقول: «هذا لا يهم. لنفرض أنهم عرفوا خطيئتك، هل تظنين أنهم يتركون الأمور هكذا؟ أنا أعرف أباك، إنه قادر على الدخول في مبارزة، سيكون الأمر جميلًا، هن؟»

هتفت ناتاشا وهي تنهض وتلقي على ماري دميترييفنا نظرة حقد: «آه! دعيني. لمَ شوشت كل شيء؟ لماذا؟ لماذا؟ من الذي رجاك؟»

صرخت هذه وقد استبد بها الغضب: «وماذا كنت تريدين أن تعملي؟ هل كنا نحبك من قبل عرضًا؟ ماذا كان يمنعه من المجيء إلى البيت؟ لمَ يخطفك كالبوهيمية؟ وإذا كان نجح في خطفك، فهل تعتقدين أنهم ما كانوا ليقبضوا عليه؟ سواء أكان أبوك أم أخوك أم خطيبك؟ إنه حقير صعلوك، هذا كل شيء!»

صرخت ناتاشا وهي تنهض من جديد: «إنه خير منكم جميعًا! لو أنك لم تمنعوني ... آه يا ربي! لماذا؟ لماذا؟ سونيا، ماذا عملت؟ دعوني.»

واستسلمت لذلك اليأس الذي لا يحس به إلا كل من يعرف أنه نفسه سبب تعاسة نفسه، وانفجرت تبكي بكاء عنيفًا. همت ماري دميترييفنا أن تسترسل، لكن ناتاشا عادت إلى الصراخ: «اذهبوا عني، اذهبوا عني! إنكم تكرهونني جميعًا، إنكم تحقدون عليَّ!»

وانهارت من جديد على الأريكة.

استمرت ماري دميترييفنا تقرعها بعض الوقت أيضًا: «كان يجب قبل كل شيء إخفاء المغامرة عن الكونت. ما كان أحد ليعرف شيئًا شريطة أن تتعهد ناتاشا بنسيانه، وأن تتحاشى إظهار اضطرابها أمام أي مخلوق كان.» لم تجب ناتاشا، كفَّت عن النشيج، لكن قشعريرات محمومة كانت تجتاح كل كيانها. وضعت ماري دميترييفنا وسادة تحت رأسها برفقٍ وغطتها بغطاءين وجاءتها بنفسها بنقيع الزيزفون، لكن ناتاشا ظلت محتفظة بسكون وحشي.

قالت ماري دميترييفنا وقد ظنَّت أن النوم استولى عليها: «هيا، لندعها تنام.»

وانسحبت، لكن ناتاشا لم تنم قط؛ ظلت هكذا خائرة القوى وهنة طول الليل لا تنام، ولا تبكي، ولا تخاطب سونيا بكلمة، وهي التي نهضت مرات خلال الليل وجاءت تطمئن عليها.

وفي اليوم التالي، وقت الغداء، عاد الكونت إيليا آندريئيفيتش من حقله كما كان متفقًا، كان جذلًا فرحًا؛ لأن المسألة قد نجحت، فلم يعد هناك ما يبقيه في موسكو. بات يستطيع العودة إلى كونتيسته العزيزة، لكن ماري دميترييفنا شرحت له على الفور أن ناتاشا سقطت مريضة مرضًا جديًّا أمس، وأن الطبيب قد استُدعي، لكنها الآن أحسن حالًا. لبثت ناتاشا ذلك الصباح في حجرتها تعضُّ شفتيها المنسلعتين، وعيناها شاخصتان جافتان. ظلت جالسة قرب النافذة تراقب المارة في غدوهم ورواحهم، وتلتفت منتفضة كلما دخل بعضهم إلى غرفتها. كانت ولا شك تنتظر أخبارًا «عنه»؛ ظنًّا منها أنه سيأتي، أو أنه سيكتب إليها على الأقل.

وعندما دخل الكونت، انتفضت لدى سمعها خطوات رجل، لكنها عندما رأت أباها عاد وجهها جامدًا خبيثًا حتى إنها لم تنهض لمقدمه، سألها: «ما بالك يا ملاكي؟ أأنت مريضة؟»

أجابت بعد سكوت طويل: «نعم.»

قلق الكونت أشد القلق لحالة الوهن التي رآها عليها، فسألها عما إذا لم يقع شيء في علاقاتها مع خطيبها. أكدت له عكس ذلك، ورجته ألا يعذِّب نفسه. أكدت له ماري

دميترييفنا صدق توكيداتها، لكن اضطراب ناتاشا ومرضها المصطنع، وأمارات سونيا وماري دميترييفنا الدالة على الارتباك، جعلت الكونت يشك بوقوع حدث خطير، لكن مجرد الفكرة في مس شرف ابنته العزيزة كان يجفله، ثم إنه كان شديد الحرص على هدوئه البسام، حتى إنه تحاشى طرح الأسئلة مفضلًا الاعتقاد بأن ريبه لا يستند على أساس، لكنه كان يأسف لأن ذلك المرض سبب تأخيره عن السفر إلى الريف.

الفصل التاسع عشر

تدخل بيير

منذ أن وصلت زوجته إلى موسكو، فكَّر بيير في الرحيل إلى أي مكان بقصد الخلاص من وجودها معه، وبعد وصول آل روستوف بقليل، عجَّل الأثر العنيف الذي خلفته ناتاشا في نفسه في رحيله، فذهب إلى تفير عند أرملة جوزيف ألكسيئيفيتش، التي وعدت منذ زمن طويل أن تعهد إليه بأوراق المرحوم.

ما إن وصل عائدًا إلى موسكو حتى سلمت إليه رسالة من ماري دميترييفنا، ترجوه فيها أن يعرِّج على مسكنها قليلًا؛ لتبحث معه في مسألة صغيرة هامة تتعلق بآندريه بولكونسكي وبمخطوبته. كان بيير يتجنب ناتاشا؛ لأنها توحي إليه على ما يبدو شعورًا أعنف مما يجب أن يحس به رجل متزوج إزاء مخطوبة صديقه. مع ذلك، فقد بدا كأن القدر يتصرَّف بمكرٍ لذيذ فيتعمد الجمع بينهما.

فكَّر وهو يرتدي ثيابه ليذهب إلى مسكن ماري دميترييفنا: «ماذا حدث إذن؟ كيف يمكنني أن أكون نافعًا لهم؟»

وبينما هو في الطريق حدَّث نفسه: «ليعد آندريه بسرعة وليتزوجها بأسرع ما يمكن!»

وفي جادة تفير، استوقفه بعضهم. هتف به صوت معروف: «بيير! هل عدت منذ زمن طويل؟»

ومر «رهوانان» أشهبان يعدوان وهما يثيران في عدوهما زوبعة من الثلج على مقدمة الزحافة الأنيقة التي يقطرانها. كان آناتول قابعًا في تلك الزحافة مع ماكارين الخالد. جلس آناتول فيها جلسة العسكريين المرحين الكلاسيكية وهو منصب الظهر، يخفي أسفل وجهه في ياقته المصنوعة من فراء كلب الماء، ورأسه مائل قليلًا، كان نضير الوجه، وردي اللون، تتيح قبعته ذات الريشة البيضاء المائلة إلى الجانب، لجانب من شعره الأجعد المضمخ الذي انتثرت عليه طبقة خفيفة من الثلج بالظهور.

حدث بيير نفسه: «آه! هو ذا عاقل حقيقي! إنه لا ينظر إلى أبعد من بهجته الآنية، ولما كان لا يعرف الغم والهم، فإنه جَذلٌ أبدًا سعيد وهادئ. إنني أتخلى عن الشيء الكثير لأصبح مثله!» وكان في اعترافه هذا لون من الغبطة.

في دهليز مسكن السيدة أخروسيموف، قال الخادم الذي نزع عن بيير فروته: «إن ماري دميترييفنا ترجوه أن يتفضل إلى حجرة نومها.»

وبينما هو يفتح باب البهو الكبير، شاهد ناتاشا جالسة إلى نافذة ووجهها ممتقع مهزول شرس. قطبت حاجبيها لدى رؤيته وانسحبت وهي تتصنع تحفظًا باردًا.

سأل بيير وهو يدخل حجرة ماري دميترييفنا: «ماذا حدث؟»

– «أشياء مريعة! إنني في الحياة منذ ثمانية وخمسين عامًا، ولم أر مثل هذا الشيء الفاضح.»

وبعد أن استحلفته كتمان السر، أخبرت بيير أن ناتاشا قطعت علاقتها بخطيبها دون موافقة أبويها، وأن ذلك من جراء خطأ آناتول كوراجين الذي قدَّمته إليها زوجة بيير، والذي تواطأت معه على الفرار أثناء غياب أبيها لتتزوج به سرًّا.

ظل بيير محدودب الظهر، فاغر الفم، لا يصدق أذنيه. كيف؟! ناتاشا مخطوبة الأمير آندريه التي يحبها أعمق الحب، روستوف اللذيذة تفضِّل عليه ذلك السفيه آناتول المتزوج من قبل — لأن بيير كان يعرف قصة زواجه السري — وتتدلَّه بذلك الأحمق لدرجة موافقتها على أن يختطفها! كلا، ما كان بيير يطيق فهم ذلك حتى ولا تقبُّله.

ما كان يمكن للدناءة والغباء والقسوة أن تجتمع في عقله مع ذكرى تلك المخلوقة الرائعة التي يعرفها منذ طفولتها. فكَّر حينئذ بزوجته بالذات، وحدَّث نفسه وهو يفكر في أنه ليس الوحيد الذي يمتاز بالزواج من امرأة رديئة: «كلهن سواء!» خلال ذلك، شعر بغصص الدمع في حَلْقه لفرط انفعاله واضطرابه على مصير الأمير آندريه: «كم سيُجرَح كبرياؤه ويتألم!» وبقدر ما كان إشفاقه على صديقه يتزايد، كان شعور الاحتقار بل والحقد على ناتاشا هذه، التي مرت منذ حين أمامه متصنعةً الكبرياء والترفع، لكنه كان يجهل أن روح ناتاشا كانت غارقة في تلك اللحظة في أعماق الخجل واليأس، وأن تلك البرودة القاسية ما كانت إلا قناعًا يختفي وجهها وراءه دون أن يكون لإرادتها دخل في الموضوع.

هتف عندما بلغت ماري دميترييفنا هذا الحد: «يتزوجها؟! لكن هذا مستحيل؛ إنه متزوج من قبل.»

– «خير! إنه كامل، الفتى! إنه سافل كامل! وهي تنتظره، منذ يومين وهي تنتظره. على الأقل سوف تكف عن الانتظار؛ ينبغي إخطارها.»

وبعد أن اطلعت على تفاصيل زواج آناتول وفثأت غضبها بسباب عنيف، قالت ماري دميترييفنا لبيير السبب الذي دعته من أجله. إنها تخشى أن يطلع الكونت أو بولكونسكي الذي باتت عودته قريبة منتظرة، على المغامرة التي قررت إخفاء أمرها، فيدعوان آناتول إلى المبارزة؛ لذلك ترجو بيير أن يطلب — باسمه إلى — كوراجين هذا أن يغادر موسكو، وألا يعود إلى الظهور أمامها. وبعد أن وعى بيير الخطر الذي يهدد الكونت العجوز ونيكولا والأمير آندريه معًا، وعدها بأن يعمل وفق إرشاداتها. وبعد أن شرحت له ماري دميترييفنا بكلمات موجزة مختصرة ما تنتظره منه، أرسلته إلى البهو، قالت له: «ولكن انتبه جيدًا؛ إن الكونت لا يعلم شيئًا. تظاهر بالجهل. خلال ذلك سأخطرها أنه ليس لديها ما تنتظره.»

وبعد أن انصرف، هتفت في أعقابه متممة: «وابْقَ لتناول الغداء إذا راق لك ذلك.»

رأى بيير في البهو الكونت العجوز منقلب السحنة. لقد أطلعته ناتاشا منذ حين على أنها فصمت خطوبتها إلى بولكونسكي، قال له: «آه يا عزيزي! إنها مصيبة حقيقية عندما تكون البنية بعيدة عن أمها! كم أنا نادم على رحلتي هذه! سأكون صريحًا معك، هل تصدق؟ لقد قطعت علاقتها ببولكونسكي دون أن تستشير أحدًا. والحقيقة أن هذا الزواج لم يفتني قط: إنه بكل تأكيد شاب مستقيم، لكنه لا يمكن أن يكون سعيدًا إذا تجاوز مشيئة أبيه، ثم إن ناتاشا لا تشكو قلة الراغبين في زواجها، لكن هذا طال منذ أمد بعيد، ثم كيف استطاعت أن تتصرف مثل هذا التصرف دون أن تتفوه بكلمة لأبيها أو لأمها! وها هي الآن مريضة، والله يعلم ما بها! آه! يا للتعاسة يا كونت، عندما تكون الفتيات بعيدات عن أمهن!»

ولما لاحظ بيير اضطراب الكونت، حاول عبثًا أن يدير دفة الحديث. كان العجوز يرجع أبدًا إلى مشاغله.

ظهرت سونيا على عتبة البهو مغتمة، قالت: «إن ناتاشا في صحة سيئة، وهي في غرفتها تريد رؤيتك. إن ماري دميترييفنا هناك معها، وهي ترجوك كذلك أن تحضر.»

قال الكونت: «صحيح، إنك صديق حميم لبولكونسكي. لعلها تريد أن تحملك رسالة ما إليه. آه يا إلهي! يا الهي! لقد كان كل شيء على ما يرام!»

وانسحب الكونت وهو يجذب شعيراته الشهباء النادرة.

كانت ماري دميتربيفنا قد أطلعت ناتاشا على قصة زواج آناتول، فلم تصدق ناتاشا وسألت الكونت أن يؤكد لها ذلك. هذا ما أطلعت سونيا بيير عليه أثناء مرافقتها له عبر المماشي.

كانت ناتاشا جالسة بجانب ماري دميتربيفنا وهي دائمة الامتقاع والشراسة: «وما إن ظهر بيير على عتبة الباب حتى سألته بنظرة محمومة. لم تبتسم له ولم تومئ برأسها، لم تبد نحوه إلا تلك النظرة، وتلك النظرة كانت تعنى: «هل هو صديق لآناتول أم عدو له كالآخرين؟ أما بيير نفسه، فلا شك أنه ما كان يشغل حيزًا في تفكيرها.»

قالت ماري دميتربيفنا لناتاشا وهي تشير إلى بيير: «إنه يعرف كل شيء.»

أجالت ناتاشا الطرف من وجه إلى آخر أشبه بالحيوان الحبيس الذي يرى الكلاب والصيادين محيقين به يقتربون.

شرع بيير يقول وهو مطرق برأسه؛ لأنه كان يحس بحنان عميق عليها وباشمئزاز عنيف للعمل التي قامت به: «ناتالي إيلينيتشنا، ناتالي إيلينيتشنا، لا يهمك أن يكون ذلك صحيحًا أم لا طالما أن ...»

– «إذن، إنه ليس صحيحًا أنه متزوج؟»

– «بل إنه متزوج.»

– «إنه متزوج. ومنذ متى؟ أتقسم بشرفك؟»

أقسم لها بيير بشرفه. سألته بعنف: «ألا يزال هنا؟»

– «نعم، لقد رأيته منذ حين.»

لم تقو على متابعة الحديث فأشارت لهم بيدها أن يخرجوا.

الفصل العشرون

تصرف بيير

انسحب بيير لفوره دون أن يوافق على البقاء لتناول طعام الغداء. مضى يبحث عن آناتول كوراجين الذي بات اسمه وحده يكفي لرد الدماء إلى قلبه وبهر أنفاسه، وبعد أن بحث عنه عبثًا في «الجبال» وعند البوهيميين وعند جومونينو، ذهب إلى النادي. وهناك كان كل شيء يسير وفق مألوف العادة، والأعضاء الذين توافدوا لتناول الغداء كانوا جالسين جماعات جماعات يتحدثون فيما بينهم، فتبادلوا مع بيير التحية المناسبة، جاء خادم عليم بطبائعه. يُعلِمُه وهو ينحني أمامه أن مكانه محجوز في قاعة الطعام الصغرى، وأن الأمير «ن. ن» موجود في المكتبة، وأن «ت. ت» لم يصل بعدُ. سألته إحدى معارفه أثناء حديثها عن المطر والطقس الجميل، عما إذا كان بلغه شيء عن اختطاف الآنسة روستوف من قبل كوراجين، وهل هذه الشائعة التي باتت تسري في المدينة حقيقية أم لا؟ أجابها بيير وهو يضحك: «إنها محض اختلاق؛ لأنه خرج لتوِّه من لدن آل روستوف.» ولما راح يستفسر عن آناتول من زملائه، أخبره أحدهم بأنه لم يحضر بعد، وأكد له آخر أنه سيأتي لتناول الغداء. أخذ بيير يتأمل هذه الجماعة من الأشخاص الهادئين اللامبالين الذين ما كانوا يخمنون ما يدور في خلده بشعور غريب. تنزه بعض الوقت في الأبهاء، لكنه لما رأى أن كل المواظبين على النادي قد حضروا ما عدا آناتول، أمسك عن تناول الطعام وعاد إلى مسكنه.

أما آناتول الذي كان بيير يبحث عنه، فقد كان يتناول طعامه ذلك اليوم عند دولوخوف ويستشيره عن الوسائل الكفيلة بمعالجة الأمر الفاشل، خيل إليه أن مقابلة جديدة مع الآنسة روستوف ضرورية لازمة. وعلى ذلك، فقد مضى ذلك المساء إلى نزل أخته ليسألها تدخلها. ولما عاد بيير إلى مسكنه، بعد أن جاب نواحي موسكو عبثًا، أعلمه الخادم أن الأمير آناتول فاسيلييفيتش عند الكونتيس. وكان بهو هذه غاصًّا بالناس.

ودون أن يحيي زوجته التي لم يرها منذ عودته؛ لأنها أصبحت في تلك اللحظة مكروهة منه أكثر من أي وقت مضى، دخل بيير إلى البهو؛ فلمح آناتول ومضى إليه مباشرة.

قالت الكونتيس وهي تقترب: «آه! بيير، إنك لا تدري في أي موقف ألقى آناتول بنفسه فيه!»

قطعت جملتها وهي ترى في رأس زوجها المطرق، وعينيه الملتمعتين، ومشيته الحازمة إشارات مخيفة تدل على الغضب الذي خبرت نتائجه بعد المبارزة مع دولوخوف.

قال بيير لزوجته: «أينما تكونين لا تكون إلا الجرائم والعجوز.»

وأضاف بالفرنسية محدثًا آناتول: «آناتول، تعال؛ يجب أن أكلمك.»

وبعد أن ألقى آناتول نظرة إلى أخته نهض بوداعة وتبع بيير، أمسكه هذا بذراعه وجرَّه خارج البهو. همَّت هيلين أن تدخل، غمغمت: «إذا سمحت لنفسك في بهو مسكني ...»

لكن بيير خرج دون أن يدعها تتم كلامها.

تبعه آناتول بخطواته المتينة، لكن تقاسيم وجهه اكتست بالقلق.

أغلق بيير باب مكتبه وراءه وقال له فجأة دون أن ينظر إليه: «لقد وعدت الكونتيس روستوف أن تتزوجها وكنت تريد اختطافها؟»

أجاب آناتول بالفرنسية — وهي اللغة التي دار كل هذا الحديث بها: «يا عزيزي، لا أظنني مضطرًّا إلى الإجابة على أسئلة تُطرح عليَّ بهذه اللهجة.»

شوَّه الغضب وجه بيير المتقع من قبلُ، فأمسك بيده العريضة آناتول من ياقته وهزَّه في كل اتجاهات حتى اكتسى وجهه برعب كافٍ. كرر بيير: «أقول لك إنه «يجب» أن أكلمك.»

قال آناتول وهو يتلمس على ياقته زرًّا اقتلعه بيير مع قطعة من القماش: «ولكن، إن هذا مخالف للصواب!»

هتف بيير بلهجة تعظيم اضطره إليها استعمال اللغة الفرنسية: «إنك أحط الصعاليك. لست أدري ماذا يوقفني عن تحطيم رأسك بهذه!»

وأمسك بالثقل الذي يضعه على أوراق فوق المكتب ورفعه مهددًا ثم عاد فوضعه: «هل وعدتها بالزواج؟»

– «كلا على ما أعلم، ثم كيف يمكنني صرف مثل هذا الوعد طالما ...»

كرر بيير وهو يسير إليه: «ألديك رسائل منها؟ هل لديك رسائل؟»

نظر إليه آناتول ثم بحث على الفور في جيبه وأخرج حافظة أوراقه.

أخذ بيير الرسالة التي قدمها آناتول إليه ودفع مائدة كانت تعوق طريقه ثم انهار على الأريكة.

قال جوابًا على حركة جزعة من آناتول: «لن أكون قاسيًا، لا تخش شيئًا.»

وتابع وكأنه يتذكر درسًا حفظه: «الرسائل و...» وبعد سكتة قصيرة استأنف وهو يذرع الحجرة: «والشيء الآخر: يجب أن تغادر موسكو منذ الغد.»

– «ولكن كيف أستطيع؟»

أردف بيير دون أن يصغي إليه: «وفي المقام الثالث: يجب ألا تنبس بكلمة واحدة إلى كائن مَن كان عما وقع بين الكونتيس وبينك. إن هذا لا أستطيع أن أمنعك عنه، وأنا أعرف ذلك. لكنه إذا بقي لديك بصيص من الوجدان.»

توقف عن الحديث واستمر في تجواله صامتًا، بينما جلس آناتول إلى المائدة وقطب حاجبيه وراح يعضُّ شفتيه: «لقد آن الوقت لتعرف أن خارج حدود لذائذك المفضلة يقوم شرف الآخرين وراحتهم، وأنك تدمر وجودًا بكامله في غمار تسليتك. تسلَّ ما شئت مع النساء اللواتي من نوع زوجتي؛ إنهن يعرفن ما تريده منهن وهن مسلحات ضدك بتجارب العجوز نفسها التي أنت متسلح بها. أما أن تَعدَ فتاة بالزواج، أن تخدعها، أن تغرر بها ... أَلَا تفهم أنها نذالة أن يضرب المرء كهلًا أو طفلًا؟»

توقف بيير وراح يسأل آناتول بنظرة اختفى منها الغضب، قال آناتول وهو يستعيد جرأته كلما استعاد بيير هدوئه: «هذا ما لا أعرفه، هذا ما لا أعرفه ولا أريد معرفته.»

ثم ألمح وهو يتصفحه وقد صدرت عن ذقنه حركة عصبية: «لكنك قلت لي أشياء مهينة، واستعملت كلمة «نذل» وكلمات أخرى تجعلني بوصفي رجلًا شريفًا لا أسمح لأحد بقولها.»

لم يفقه بيير إلى أي هدف يرمي أخو زوجته، فراح يتأمله بدهشة. استرسل آناتول: «وعلى الرغم من أن هذا قيل في خلوة، فإنني لا أستطيع مع ذلك ...»

قال بيير بلهجة ساخرة: «أظن أنك تطلب ترضية مني؟»

– «يمكنك على الأقل أن تصحح عباراتك — على ما أظن — إذا شئت أن أتصرف وفق رغباتك، هِنْ؟»

قال بيير وهو ينظر بالرغم عنه إلى الزر المنزوع: «ليكن، إنني أسحب أقوالي، وأرجوك أن تعذرني، بل حتى إذا كنت في حاجة إلى المال للسفر ...»

علَتْ شفتي آناتول ابتسامةً أسخط تعبيرها الوضيعُ الوجل بيير. لقد شاهد مثلها على شفتي زوجته، هتف: «يا للعنصر الدنيء عديم القلب!»

وترك آناتول الذي سافر في اليوم التالي إلى بيترسبورج مشدوهًا في مكانه.

الفصل الحادي والعشرون

عودة الأمير آندريه

عاد بيير عند ماري دميترييفنا ليبلغها أن رغبتها قد نفذت: لقد ترك كوراجين موسكو. وجد في البيت حركة غير طبيعية: كانت ناتاشا مريضة جدًّا. أطلعته ماري دميترييفنا — بشرط أن يكتم السر — على أن ناتاشا شربت «الأرسنيك»، الذي حصلت عليه بالسر، في ذات اليوم الذي أحيطت فيه علمًا بنبأ زواج آناتول. مع ذلك، فإنها لم تكد تبتلع السم بكمية قليلة حتى أيقظت سونيا واعترفت لها بفعلتها. اتخذت إجراءات حاسمة في حينها فأنقذت حياتها، لكنها لا تزال في حالة من الضعف لا يمكن معها أن تنتقل إلى الريف؛ لذلك فقد أرسلوا يطلبون الكونتيس. قدم بيير واجباته للكونت الذي كان في منتهى الوهن، ولسونيا التي كانت غارقة في دموعها، لكنه لم يستطع رؤية ناتاشا.

تغدى ذلك اليوم في النادي، ولما كان اختطاف الآنسة روستوف الذي لم يتم موضوع كل الأحاديث، فقد أعلن تكذيب النبأ بشدة، مؤكدًا أن هذه الإشاعات مبعثها طلب زواج سخيف تقدم به أخو زوجته. قدَّر بيير أن من واجبه أن ينقذ سمعة الآنسة روستوف بهذه الأكذوبة.

انتظر بهولٍ وصول الأمير آندريه، فكان يُمضي كل يوم يتزود بالأخبار عنه من الأمير العجوز. وكانت الآنسة بوريين قد أطلعت هذا على كل الشائعات التي راجت مؤخرًا في المدينة، وكذلك كان قد اطلع على الكلمة التي كتبتها ناتاشا إلى ماري تحل الأمير آندريه من وعده، فكان أكثر ابتهاجًا من عادته يتلهف إلى عودة ابنه بنفاد صبر.

وبعد أيام قليلة على رحيل آناتول، تلقى بيير كلمة من الأمير آندريه يُعلمُه فيها بنبأ عودته، ويرجوه أن يزوره في منزله.

سرقت الآنسة بوريين رسالة ناتاشا إلى ماري من هذه الأخيرة، وأعطتها للأمير العجوز، فبادر هذا إلى إطلاع ابنه عليها وهو لما يصل بعدُ، وقصَّ عليه بالتفصيل كل الشائعات الرائجة حول اختطاف ناتاشا.

هرع بيير منذ صباح اليوم التالي إلى منزل صديقه. كان يتوقع أن يجده في حال قريب من حال ناتاشا، لكنه — لدهشته — سمع من البهو صوت آندريه المجلجل ينبعث من مكتب أبيه وهو يقصُّ بحماس دسيسة بيترسبورجية. كان الأمير العجوز وشخص آخر يقاطعانه من حين إلى آخر. جاءت الأميرة ماري تستقبل بيير، أطلقت زفرة وهي تشير بنظرها إلى باب المكتب، ولا شك أنها أرادت بتلك النظرة أن تعبر عن مدى رثائها لأخيها، لكن بيير لاحظ بوضوح أنها راضية تمامًا عن خيانة ناتاشا. وعن الطريقة التي استقبل بها أخوها النبأ، أكدت: «لقد قال إنه كان يتوقع ذلك. لا شك أن كبرياءه لا يسمح له أن يطلق العنان لعواطفه، لكنه على كل حال يحتمل الأمر أفضل، أفضل بكثير مما كنت أظن.»

قال بيير: «ولكن، هل الانفصام حقيقي كامل حقًّا؟»

نظرت إليه ماري بذهول؛ ما كانت تعتقد أن مثل هذا السؤال جدير بأن يطرح.

دخل بيير إلى المكتب، رأى الأمير آندريه جالسًا أمام أبيه والأمير ميشتشيرسكي في ثياب مدنية، يناقش بحرارة ويحرك ذراعيه بنشاط. تبدَّل تبدلًا كبيرًا، وبدا في صحة أفضل، لكن غضنًا جديدًا جاء يقطع جبينه بين حاجبيه. كانوا يتحدثون عن خبر الساعة: نفي سبيرانسكي وخيانته المزعومة.

كان آندريه يقول: «إن كل ما كان منذ شهر يرفعه فوق السحب، رجمه اليوم بالحجر الأول. إنهم الآن ينضمون إلى أولئك الذين كانوا عاجزين عن فهم خططه ومراميه. إن من السهل جدًّا الحكم على رجل مغضوب عليه وتحميله أخطاء الآخرين كلها. حسنًا! إنني أزعم إذا حصل شيء نافع في هذا العهد؛ فإن الفضل فيه يعود إليه ...»

توقف لدى رؤية بيير وانتفض وجهه ثم اتخذ على الفور سمة خبيثة، أعقب: «ولسوف تنصفه الأجيال القادمة.»

ثم التفت إلى بيير وقال بحماس بينما ازداد غضن جبينه بروزًا: «حسنًا، كيف حالك؟ إنك تسمن باضطراد.»

وأجاب على سؤال لبيير حول صحته بابتسامة مريرة: «نعم، إن صحتي جيدة.»

فسر بيير تلك الابتسامة بما يلي: «نعم، إن صحتي جيدة، ولكن ما من أحد يشغل باله بصحتي.»

وبعد أن تبادل مع صديقه بضع كلمات عن حالة الطرق المريعة اعتبارًا من الحدود البولونية، وعن معارف بيير الذين التقى بهم في سويسرا، وعن المدعو السيد ديسال الذي جاء به من الخارج ليشرف على تثقيف ولده، عاد آندريه يتدخل بحماس جديد في المحادثة المستمرة بين الشيخين، قال بحمية عميقة: «إذا كانت هناك خيانة أو كانت هناك أدلة على تواطؤ سبيرانسكي مع نابليون، فإنها كانت ستعلن رسميًّا. إنني لا أحب سبيرانسكي ولم أحببه قط، ولكن يجب أن يكون المرء عادلًا.»

تعرف بيير على بادرة لم يرها تظهر على صديقه غالبًا من قبلُ؛ ألا وهي الحاجة إلى الحركة والاندفاع في مناقشات شائكة بقصد نسيان أفكار شخصية شديدة الإيلام.»

بعد ذهاب الأمير ميشتشيرسكي، أخذ آندريه صديقه بيير من ذراعه وقاده إلى الحجرة التي خصصت له. كان هناك سرير قائم وحقائب وصناديق مفتوحة تضيق بها الغرفة. انحنى آندريه على أحدها وأمسك بصندوق صغير أخرج منه حزمة ملفوفة بالورق، قام بذلك بسرعة كلية، ودون أن ينطق بكلمة، ثم استوى وهو يسعل سعالًا خفيفًا، ووجهه كالح، وشفتاه مضمومتان بعنف: «اعذرني لإزعاجي لك.»

فهم آندريه أنه يريد أن يحدِّثه عن ناتاشا، فازداد انفعاله خصوصًا عندما رأى وجهه مطبوعًا بالتحنن، قال بصوت قاسٍ ومنفر: «إن الكونتيس روستوف قد سحبت كلمتها، بل إنني سمعت أن أخا زوجك طلَب يدها أو شيئًا من هذا القبيل.»

هم بيير أن يقول مفسرًا: «هذا صحيح دون أن يكونه ...»

لكن آندريه قاطعه قائلًا: «ها هي رسائلها وصورتها.»

وأخذ عن المائدة الحزمة الملفوفة ومدها إلى بيير، وقال: «أعد هذه إلى الكونتيس عندما تقابلها.»

– «إنها مريضة جدًّا.»

فقال آندريه بحدة: «آه! إنها لا تزال هنا؟ والأمير كوراجين؟»

– «لقد رحل منذ زمن؛ لقد كانت مشرفة على الموت.»

قال آندريه بابتسامة باردة خبيثة تذكِّر بابتسامة أبيه: «إن مرضها يؤلمني أشد الألم، ولا شك أن السيد كوراجين لم يجدها جديرة بالزواج منه؟»

قال بيير: «ما كان يستطيع الزواج منها؛ لأنه متزوج من قبل.»

تهانف آندريه كأبيه تمامًا: «وهل أستطيع أن أعرف أين هو الآن السيد أخو زوجتك؟»

– «لقد ذهب إلى بيتر. في الحقيقة لست أدري شيئًا عن مكانه.»

استأنف آندريه: «ذلك غير مهم على كل حال. قُلْ عن لساني للكونتيس روستوف: إنها كانت من قبل وستظل دائمًا، أتمنى لها كل السعادة الممكنة.»

أخذ بيير حزمة الرسائل، فسأله آندريه بنظره وكأنه تذكَّر أن لديه شيئًا لم يَقُله بعدُ، أو كأنه كان ينتظر أن يقول بيير شيئًا. قال هذا: «أصغ إليَّ، إنك ولا شك لم تنس نقاشنا في بيترسبورج. تذكر ...»

فبادر آندريه يجيب: «إنني أذكر، قلت لك حينذاك: إنه يجب أن يُغفر للمرأة التي سقطت، لكنني لم أقل لك: إنني أستطيع أن أغفر لها؛ إنني لا أستطيع الصفح.»

قال بيير: «هل يمكننا المقارنة؟»

لكن آندريه قاطعه صائحًا بلهجة حادة: «نعم، أليس أن أطلب يدها من جديد، وأن أبرهن عن مروءتي وشهامتي وأشياء أخرى من هذا القبيل. لا شك أن ذلك آية في النبل، لكنني لا أشعر بقدرتي على السير فوق بقايا حطام السيد ... إذا كنت تريد الإبقاء على صداقتي، فلا تحدثني بعد اليوم أبدًا عن هذه ... عن كل هذا. والآن الوداع، لقد اتفقنا، سوف تعيد إليها ...»

عاد بيير ليقابل الأمير العجوز وابنته.

بدا العجوز أكثر تيقظًا من عادته، لكن ماري كانت على حالها، بيد أن بيير لاحظ أنها رغم رثائها لحال أخيها، كانت مغتبطة لإخفاق الزواج، فَهِم وهو يراقبهما مبلغ الاشمئزاز الذي يعمر به قلبهما حيال آل روستوف، وأحس أنه لا يمكن بعد الآن أن ينطق باسمهم في حضرتهما؛ اسم تلك التي استطاعت — لأي دافع كان — أن تخون الأمير آندريه.

تحدثوا عن الحرب خلال تناول الطعام؛ الحرب التي بدت وشيكة الاندلاع. أمسك آندريه بدفة الحديث وراح يتناقش سواء كان مع أبيه أو ديسال مثقف ابنه السويسري. بدا أكثر نشاطًا من عادته، وكان بيير يعرف أكثر من سواه سبب ذلك الحماس.

الفصل الثاني والعشرون

غفران وحب

في ذلك المساء بالذات، مضى بيير إلى منزل آل روستوف لينفذ مهمته، كانت ناتاشا في السرير والكونت في النادي. أعطى بيير الرسائل إلى سونيا وذهب إلى غرفة ماري دميترييفنا التي كانت تريد أن تعرف كيف استقبل الأمير آندريه النبأ. وبعد عشر دقائق، جاءت سونيا تلحق به، قالت: «إن ناتاشا تريد رؤية الكونت بيير دون تأخير.»

اعترضت ماري دميترييفنا قائلة: «هل يمكن حقًّا أخذُه إلى غرفتها؟ إن كل شيء فوضى مخيفة.»

قالت سونيا: «إنها مرتدية ثيابها تنتظر في البهو.»

هزت ماري دميترييفنا كتفيها باستسلام، قالت توصي بيير: «متى ستصل الكونتيس أخيرًا؟ إنني ما عدت أحتمل! حاذر أن تقول لها كلمة. لا يجد المرء الشجاعة على توبيخها؛ إنها تستدر الشفقة.»

وقفت ناتاشا وسط البهو جامدة وهي شاحبة الوجه مهزولة كئيبة، ولكن — ولدهشة بيير الكبيرة — في غير خجل، فلما ظهر على العتبة انتابها اضطراب معين؛ ترددت بين أن تتقدم نحوه وبين أن تنتظره.

أسرع بيير الخطى. ظنَّ أنها ستمدُّ إليه يدها كعادتها، لكنها بعد أن تقدمت نحوه، توقفت مقهورة متدلية الذراعين، واتخذت مثل تلك الوقعة التي اعتادت عليها من قبلُ، حينما كانت تتوسط قاعة الرقص لتغني. لم يتغير فيها إلا أمارات وجهها.

شرعت تقول بصوت لاهث: «بيير كريلوفيتش، إن الأمير بولكونسكي صديقك.»

ثم صححت قولها وقد بدا لها أن كل شيء يخص الماضي وحده: «إنه لا يزال صديقك، لقد قال لي من قبل أن أتصل بك.»

كان بيير يصغي إليها مبهور الأنفاس، لقد أثقلها حتى تلك اللحظة باللوم والتعنيف في سرِّه، بل إنه قرر أن يحتقرَها. أما الآن فعلى العكس، لقد أخذت الشفقة تتسرب إلى قلبه طاردةً كل فكرة ذم.

– «إنه هنا. قلْ له ... أن ي... يصفح عني.»

توقفت لاهثة ولكن جافة العينين، قال بيير: «نعم، سأقول له، لكن ...»

ولم يدرِ ماذا يضيف.

قالت ناتاشا بحدَّة وقد روعتها الفكرة التي قد تكون مرت برأس بيير: «أوه! إنني أعرف أن كل شيء قد انتهى؛ انتهى إلى الأبد. إن ما يعذبني هو الألم الذي سببته له. قل له فقط: إنني أتوسل إليه أن يغفر لي، أن يغفر لي كل شيء ...»

واكتسح كيانَها كله رعدةٌ عصبية فمضت تتهالك على كرسي.

اجتاحت الشفقة قلب بيير بكل تأكيد، لم يشعر قط من قبل بشيء من هذا القبيل.

– «سأقول له ذلك، سأقول له كل شيء ذات مرة ... لكنني ... وددت أن أعرف شيئًا.»

سألته نظرة سونيا: «أن تعرف ماذا؟»

– «وددت أن أعرف ماذا كنت أحببت.» وارتج عليه فلم يعد يعرف كيف يصف أناتول، بل إن وجهه احمرَّ لمجرد التفكير فيه «إذا كنت أحببتِ ذلك الرجل المنحط؟»

قالت ناتاشا: «لا تسمه هكذا. لست أدري شيئًا، لم أعد أدري شيئًا.»

وانخرطت في البكاء، اعتلج شعور بالإشفاق والحنو والحب في نفس بيير، وأحس بالدموع تنبثق تحت نظارتيه فراح يرجوها ألا تلاحظها، قال: «لنكفَّ عن البحث في هذا يا صديقتي.»

أثَّر ذلك الصوت الرقيق الحاني المضطرب في نفس ناتاشا فجأةً.

– «لنكف عن البحث يا صديقتي. سوف أقول له شيئًا. أطلب إليك فقط أن تعتبريني بعد الآن صديقك، فإذا احتجتِ إلى مساعدة، أو نصح، أو إذا أردتِ تنفثي عما في نفسك — ليس الآن، ولكن عندما تجدين أن كل شيء قد عاد واضحًا في سريرتك — تذكريني.»

وأمسك بيدها وقبَّلها ثم قال: «إنني سعيد لأنني أستطيع ...»

واضطرب بيير، هتفت ناتاشا: «لا تحدثني هكذا؛ إنني لا أستحق ذلك.»

وأرادت أن تنصرف، لكن بيير استوقفها، كان يعرف أن في نفسه شيئًا آخر يقوله، لكنه ما كاد ينطق بما أراد حتى أدهشته كلماته، قال لها: «لا تقولي هذا؛ إن أمامك عمرًا كاملًا.»

أجابت وهي تحاول أن تنقص من قيمة نفسها: «أنا؟ كلا، لقد ضاع كل شيء.»

– «ضاع كل شيء؟ أتظنين؟ حسنًا! لو أنني كنت ما أنا. لو كنت أجمل وأذكى وأفضل الرجال، لو كنت مالكًا حريتي؛ لما ترددت لحظة عن الركوع أمامك طالبًا يدك وحبَّك.»

ذرفت ناتاشا لأول مرة منذ أيام طويلة دموع التحنان والشكران. شكرته بنظرة وخرجت.

خرج بيير كذلك، أو على الأحرى فرَّ حتى بلغ الدهليز وهو يمسك دموع السعادة التي كانت تخنقه. ارتدى فروته كيفما اتفق وصعد إلى زحافته. سأله الحوذي: «أين يجب الذهاب الآن؟»

تساءل بيير: «أين يمكنني أن أذهب؟ إلى النادي؟ عند أصدقاء؟ مستحيل.»

بدا له كل شيء شديد الحقارة والتفاهة بالنسبة إلى ذلك الشعور بالحنان والحب الذي استسلم له، بالنسبة لنظرة العرفان تلك التي منحتها له خلال دموعها! قال: «إلى البيت.»

وعلى الرغم من درجات البرد العشر، فقد أزاح فروته المصنوعة من جلد الدب عن صدره العريض وراح يتنفس بجذل.

كان وقت صقيع جميل والسماء الداكنة المزروعة بالنجوم تنبسط فوق الشوارع القذرة نصف المعتمة، وفوق السقوف المظلمة. ما كان غير تأمل هذا البهاء الرائق يُنسي بيير دناءة الأشياء البشرية إذا قورنت بالسمو الذي بلغته روحه. وعندما وصل إلى ساحة «آربات»، انحسر أمام عينيه فراغ كبير من القبة المنجمة. وفي كبد السماء، فوق جادة بريتشيستنكي تمامًا، وسط موكب من النجوم امتاز عنها بضيائه الأبيض، وتجاوره الأكبر، وذيله الطويل المرتفع عند طرفه، ظهر المذنب الكبير اللامع، مذنب عام ١٨١٢، الذي زعموا أنه ينبئ بالأهوال الكثيرة، بل وبانتهاء العالم، لكن تلك النجمة الهائلة المشعة ذات الذنب المضيء لم توقظ في نفس بيير أي رعب، بل على العكس راح يتأملها فرحًا بعينيه المخضلتين بالدموع. بدت كأنها بعد أن قطعت مسافة يستحيل قياسها بسرعة لا حدَّ لها حسب خط المجاز. انغرست فجأة في المكان الذي انتقته في تلك السماء المعتمة كما يغرز السهم في الأرض، وظلت هناك تنفش ذنبها، وتذبذبت أضواء نورها الأبيض بين نجوم متألقة لا تحصى، فكان بيير يجد علاقة غامضة بين بهاء هذا الكوكب وبعث روحه المتعطفة المتفتحة لحياة جديدة.

هنداوي